

تصوير أبو عبيد الرحمن الكردوي

تفسير
القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

الشيخ الحافظ ابن كثير الدمشقي

تتبعني
عبد الرزاق المحمدي

المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل

دار الكتب العربية
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للامام المحافظ أبي الفداء اسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
عبد الرزاق الهادي

المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل

الناشر
دار الناشر العربي

بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

1432 هـ - 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.



9 789953 270159

الناشر

دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت - شارع فردان - بناية بنك بيبيلوس - الطابق الثامن

ص.ب.: 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان

هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (+9611)

فاكس : 805478 (+9611) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb

www.dar-alkitab-alarabi.com

مواقعنا:

www.academiainternational.com



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّةَ مَائِنْتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنِ تَمِيمٍ ﴿١﴾ زُبَيْمًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ
يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله: ﴿زُبَيْمًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، إخبار عنهم أنهم سيّندمّون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنّون لو كانوا مع المسلمين في الدنيا. ونقل السدي في تفسيره بسنّده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار لما عرضوا على النار تمنّوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يودّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ يَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿زُبَيْمًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، قال: هذا في الجهنميّين إذ رأوهم يخرجون من النار. وقال ابن جرير: حدّثني المشنى، حدّثنا مسلم، حدّثنا القاسم، حدّثنا ابن أبي قزوة العبدي: أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية: ﴿زُبَيْمًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿زُبَيْمًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم - وعن خُصيف، عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحّدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرّة. قال: فعند ذلك قوله: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾. وهكذا زوي عن الضحاك، وقتادة، وأبي العالية، وغيرهم. وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة.

[٤٠٣٥] فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدّثنا محمد بن العباس - هو الأخرم -، حدّثنا محمد بن منصور الطوسي، حدّثنا صالح بن إسحاق الجهدي - دلني عليه يحيى بن معين^(١) - حدّثنا معرّف بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللآئ والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار! فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقبهم في شهر الحياة، فيبرؤون من حرّهم كما

(١) وقع في بعض الطبقات «الجهدي - رأى عليه بن موسى» وفي بعض «الجهدي - وابن عليّة يحيى بن موسى» والمثبت عن

يَبْرَأَ الْقَمَرُ مِنْ حُسُوفِهِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَيَسْمُونَ فِيهَا الْجَهَنَّمِيِّينَ» فقال رجلٌ: يا أنسُ، أنتَ سَمِعْتَ هذا من رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فقال أنسٌ: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «من كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». نعم، أنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول هذا^(١). ثم قال الطبراني: تُفَرِّدُ بِهِ الْجَهَنَّمِيَّةَ.

[٤٠٣٦] الحديث الثاني: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا عبدُ اللَّهِ بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحسين الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بُرْدَةَ، عن أبيه، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إذا اجتمع أهلُ النارِ في النارِ، ومعهم مَنْ شاءَ اللهُ من أهلِ القبلةِ، قال الكفارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلامُ فقد صرتمُ معنا في النارِ! قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأخذنا بها. فَسَمِعَ اللهُ ما قالوا، فأمر بمن كان في النارِ من أهلِ القبلةِ فأخْرِجُوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفارِ قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنُخْرِجَ كما خَرَجُوا. قال: ثم قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ»، «الرَّيَّةُ لَكَ أَيُّكَ الْكِتَابُ وَرُؤْيَاكَ الْإِيمَانُ» ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: «بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ»، عَوِضَ الاستعاذَةَ^(٢).

[٤٠٣٧] الحديث الثالث: وقال الطبراني أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو زوقٍ - واسمه عطيةُ بنُ الحارثِ - حَدَّثَنِي صالح بن أبي طريف قال: سألتُ أبا سعيدِ الخُدْرِي فَقُلْتُ له: هل سَمِعْتَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ في هذه الآية: «رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» ﴿٢﴾؟ قال: نعم، سَمِعْتُهُ يقول: «يُخْرِجُ اللهُ ناساً من المؤمنين من النارِ بعدما يأخذُ نِقْمَتَهُ منهم»، وقال: «لما أدخلهم اللهُ النارَ مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياءُ اللهِ في الدنيا، فما بالكم معنا في النارِ؟ فإذا سَمِعَ اللهُ ذلك منهم أذن في الشفاعةِ لهم فتشفعُ الملائكةُ والنبِيُّونَ، ويشفعُ المؤمنونَ، حتى يخرُجوا بإذنِ اللهِ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعةُ فنخرج منهم» قال: «فذلك قولُ اللهِ «رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» ﴿٢﴾»، فَيَسْمُونَ في الجنةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ، من أجلِ سَوَادِ في وجوههم، فيقولون: يا ربِّ، أذهبِ عنا هذا الاسمِ. فيأمرهم فيغتسلون في نهرِ الجنةِ، فيذهب ذلك الاسمُ عنهم». فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم^(٣).

[٤٠٣٨] الحديث الرابع: وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد الثُّزَيْسِي، حدثنا مسكينُ أبو فاطمة، حدثني اليمانُ بن يزيد، عن محمد بن جبر، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «منهم من تأخذه النارُ إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النارُ إلى حُجْرَتِهِ، ومنهم من تأخذه النارُ إلى عُنُقِهِ، على قدرِ ذُنُوبِهِم وأعمالِهِم، ومنهم من يمكثُ فيها شهراً ثم يُخْرِجُ منها، ومنهم من يمكثُ فيها سنةً ثم يُخْرِجُ منها، وأطولهم فيها مُكثاً بِقَدْرِ الدُّنْيَا منذ يومِ خلقت إلى أن تُفْتَنَ، فإذا أراد اللهُ أن

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧٢٨٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٣٣: فيه من لم أعرفهم أمه، فيه غير واحد من المجاهيل، وأمانة الوهن ظاهرة على هذا المتن، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» ٨٤٣ والطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٤، وفيه خالد بن نافع قال الهيثمي: قال أبو داود: خالد بن نافع الأشعري متروك قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد، فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد وغيره أمه وله شواهد تقويه انظر السنة لابن أبي عاصم ٨٤٤، وكذا ما بعده.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨١٠٦ وإسناده ضعيف لجهالة صالح بن أبي طريف.

يخرجون عنها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: أمتهم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا﴾، تهديد لهم شديد ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَسْمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [المرسلات: ٤٦]، ولهذا قال: ﴿وَيْلَهُمُ الْأَمَلُ﴾، أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٣﴾ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٥﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ لحَافِظُونَ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، أي: الذي يدعي ذلك: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: في دعائك إيانا إلى أتباعك وتزك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْ مَا﴾، أي: هلاً ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ﴾، أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَذَّةٍ مِمَّا الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣]، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملكة أو نزل ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴿١٦﴾ يوم يرون الملكة لا بشرى يوصلهم للمجرمين ويقولون جبراً مخزوماً ﴿١٧﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿١٨﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرأ تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الحَافِظُونَ﴾، على النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٠﴾ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله في تكذيب من كذب من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به. ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾، يعني

(١) إسناده ضعيف، علي بن الحسين - زين العابدين - لم يدرك جده علياً، فهو منقطع، وفي الإسناد مجاهيل. لكن لبعض شواهد، والله أعلم.

الشرك. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا سَنَةَ الْأُولَآئِينَ﴾، أي: قد عَلِمَ ما فَعَلَ تعالى بِمَن كَذَّبَ رُسُلَهُ من الهلاكِ والدمارِ، وكيف أنجى الله الأنبياءَ وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُخبر تعالى عن قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ومكابرتهم للحقِّ أَنَّهُ لو فَتَحَ لهم بَابًا من السماء، فَجَعَلُوا يصعدون فيه لَمَا صَدَّقُوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، قال مجاهدٌ، وابنُ كثيرٍ، والضحاكُ: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا. وقال قتادة، عن ابن عباس: أُخِذَتْ أَبْصَارُنَا. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: شُبِّهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّمَا سُحِرْنَا. وقال الكلبيُّ: عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا. وقال ابنُ زيدٍ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران الذي لا يعقلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَّمْ يَرْزُقْهُ يَرْتَدِدْ ﴿٢٠﴾﴾

يذكرُ تعالى خَلْقَهُ السَّمَاءِ في ارتفاعها وما زُيِّنَها به مِن الكَوَاكِبِ الثَّوَابِقِ لمن تأملها وكَثُرَ النظر فيها يَرَى فيها من العَجَائِبِ والآياتِ الباهراتِ ما يَحَارُ نظره فيه. ولهذا قال مجاهدٌ، وقاتادةٌ: البروجُ ها هنا هي الكواكبُ، قلت: وهذا كقولهِ تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرْتَدِدُ وَمُتَرَاكِبًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروجُ هي منازلُ الشمسِ والقمرِ. وقال عطية العوفي: البروجُ ها هنا هي قُصورُ فيها الحَرَسُ. وجعل الشَّهَبُ حرساً لها من مَرَدَةِ الشياطينِ لئلا يَسْمَعُوا إلى المَلَأِ الأعلى، فمن تَمَرَّدَ منهم لاستراق السمعِ جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فَرُبَّمَا يكون قد ألقى الكلمة التي سَمِعَهَا قبل أن يَدْرِكَه الشهابُ إلى الذي هو دُونُهُ، فيأخذها الآخرُ، ويأتي بها إلى وِليهِ، كما جاء مُصَرَّحاً به في الصحيح.

[٤٠٣٩] قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان»، قال علي: وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده، ففرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدرکه حتى يرمى بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض. وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مئة كذبة، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء^(١).

ثم ذكر تعالى خَلْقَهُ الأرضِ، ومدَّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرُّوَّاسِي، والأودية والأراضي والرَّمَالِ، وما أنبت فيها من الزُّروعِ والثَّمَّارِ المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

تُورُونَ»، أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عتيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة. ومنهم من يقول: مُقَدَّرٌ بِقَدْرِ. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ وَيُقَدَّرُ بِقَدْرٍ، وقال ابن زيد: ما تَزِنُهُ الْأَسْوَاقُ. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنَ﴾، يذكر تعالى أنه صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَسْبَابِ وَالْمَعَايِشِ، وهي جَمْعُ مَعِيشَةٍ. وقوله: ﴿وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنَ﴾، قال مجاهد: وهي الدوابُّ والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيدُ والإماءُ والدوابُّ والأنعام. والقصدُ أنه تعالى يمتنُّ عليهم بما يَسْرُ لهم من أسبابِ المكاسبِ ووجوهِ الأسبابِ وصنوفِ المعايِشِ، وبما سَخَّرَ لهم من الدوابِّ التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيدُ والإماءُ التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزقُ على الله تعالى.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْسَرْنَا لَكُمْ يَحْيَايُنَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهِ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ لَأَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأن كلَّ شيءٍ سهلٌ عليه، يسيِّرُ لديه، وأنَّ عنده خزائنَ الأشياءِ من جميعِ الصنوفِ، ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما يشاءُ وكما يريدُ، ولما لهُ في ذلك من الحكمةِ البالغةِ والرحمةِ بعباده لا على جهةِ الوجوبِ، بل هو كَتَبَ على نفسه الرحمةَ. قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عامٍ بمطرٍ من عامٍ، ولكن الله يُقسِّمُه بينهم حيث شاء، عاماً ههنا، وعاماً ها هنا ثم قرأ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١). ورواه ابنُ جرير. وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، قال: ما عامٌ بأكثرَ مطراً من عامٍ ولا أقلُّ، ولكنه يُنظرُ قومٌ ويحرِّمُ آخرون، وربما كان في البحر. قال: وبلغنا أنه ينزلُ مع المطرِ من الملائكةِ أكثرُ من عددِ ولدِ إبليسَ وولدِ آدمَ، يُحْصونُ كلَّ قطرةٍ حيثُ نَفَعَتْ وما تَبَيَّتْ.

[٤٠٤٠] وقال البزَّاز: حدثنا داود - وهو ابن بكر الشَّسْتَرِي - حدثنا حَيَّان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خزائنُ الله الكلامُ، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان»^(١). ثم قال: لا يزويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه. وقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، أي: تُلقِحُ السحابُ قُتْدِرُ ماءً، وتُلقِحُ الشجرَ فتفتَحُ عن أوراقها وأكمامها. هذه الرياحُ ذكرها بصيغة الجمع، ليكونَ منها الإنتاجُ، بخلافِ الريحِ العقيمِ فإنه أفردَها ووصفها بالعقيم، وهو عدمُ الإنتاجِ، لأنه لا يكونُ إلا من شيتين فصاعداً.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَنِ، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، قال: تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، ثم تُغْرِي السحابَ، حتى تَدِرُ كما تَدِرُ

(١) إسناده ضعيف جداً. فيه أغلب بن تميم، ذكره الذهبي في «الميزان» ١٠٢١ فقال: قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن حبان: خرج عن حد الاحتجاج به لكثرة خطئه، أه واكتفى البزار بقوله: ليس بالقوي، والصواب أنه ضعيف جداً.

اللِّقْحَةَ. وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحها، فيمتلئ ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله المشيرة فتشير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتولف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾.

[٤٠٤١] وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المهزم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريحُ الجنوبُ من الجنة، وهي الريح اللواقحُ، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس»^(١). وهذا إسناد ضعيف.

[٤٠٤٢] وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جعدبة الليثي: أنه سمع عبد الرحمن بن مخرق يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب وهي فيكم الجنوب»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَكَّبُوا﴾: أي: أنزلناه لكم عذاباً يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما يُنبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ مِن نَّوْءِ الْعَرْشِ أَزْجَارًا مِّن ذُرِّ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب وهي فيكم الجنوب»^(٢). وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَكَّبُوا﴾: أي: أنزلناه لكم عذاباً يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما يُنبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ مِن نَّوْءِ الْعَرْشِ أَزْجَارًا مِّن ذُرِّ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب وهي فيكم الجنوب»^(٢). وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَكَّبُوا﴾: أي: أنزلناه لكم عذاباً يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما يُنبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ مِن نَّوْءِ الْعَرْشِ أَزْجَارًا مِّن ذُرِّ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزيب وهي فيكم الجنوب»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُؤَيِّتُ﴾، إخبار عن قدرته تعالى على بده الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ﴾^(٣)، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «المستقديون: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة. وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مزوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ﴾^(٣). وقد ورد في هذا حديث غريب جداً:

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢١١٠٩ و ٢١١١٠، فيه أبو المهزم يزيد بن سفيان متروك، وعنه عبيس بن ميمون، وهو متروك أيضاً. والأشبه في هذا الوقف.

(٢) وإبصرة. أخرجه البزار ٢٠٨٨ بهذا الإسناد، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٨٠: فيه يزيد بن عياض بن جعدبة، وهو كذاب.

[٤٠٤٣] فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرشي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كانت تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا - يعني لثلاً يروها - وبعض يستأخرون، فإذا سجدنا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾ (١). وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني، وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم، وأهل السنن. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو الثكري: أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة ﴿الْمُسْتَقِيرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر. وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم. وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾، وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيرِينَ مِنْكُمْ﴾: الميت والمقتول، و﴿الْمُسْتَقِيرِينَ﴾: من يخلق بعد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَسْرَتِهِمْ إِنَّهُمْ كَرِهُوا عِلْمًا﴾ (٢). فقال عون بن عبد الله: وثقتك الله وجزأك خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣) ﴿وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٤)

قال ابن عباس: ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال ما هنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٥) و﴿خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (٦) [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: الممتن. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، أي: الصلصال حياً، وهو: الطين، والمسنون الأملس، كما قال الشاعر:

ثُمَّ خَاصَرْتَهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ
رَاءِ تَمْشِي فِي مَزْمَرٍ مَسْنُونٍ

أي: أملس صقيل. ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو الممتن. وقيل: المراد بالمسنون ما هنا المصبوب. وقوله: ﴿وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل الإنسان، ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل. وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحروز بالنهار. وقال أبو داود

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٢٢ والنسائي ١١٢٧٣ «كبرى» وابن ماجه ١٠٤/٦ والحاكم ٣٥٣/٢ والطبراني ١٧١/٢ والواحدي ٥٥٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأعله الترمذي بالإرسال، وقال: هو أصح أهد ورجاله رجال مسلم، لكن المتن غريب ونوح بن قيس فيه كلام وإن روى له مسلم، وخالفه جعفر بن سليمان، فرواه عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء من قوله، وليس فيه القصة، وإنما فسر معنى الآية فقط، وهذا في تفسير عبد الرزاق ١٤٤٥ والطبري ٢١١٣٥. وما يدل على ومن خبر ابن عباس هو أن الطبري اختار من قال «المتقدمين» الأموات من بني آدم. و«المستأخرين» هم الأحياء ومن سيأتي أهد وأسنده ٢١١١٢ و ٢١١١٣ و ٢١١١٤ من طرق عن عكرمة. و ٢١١١٥ عن محمد بن القرظي وينحوه ٢١١١٦ عن قتادة و ٢١١١٧ عن مجاهد، و ٢١١١٨ عن ابن عباس و ٢١١١٩ عن قتادة و ٢٢١١٢٢ عن الضحاك وروايات كثيرة في ذلك عن التابعين، وهذا يتبين من الحديث الذي ورد عن ابن عباس، ويدل على صحة ما ورد عن أئمة التفسير الآية المتقدمة، والآية التي بعدها، والله أعلم.

الطَبَّالْسِيُّ: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السُّمُومُ جزءٌ من سبعين جزءاً من السموم التي خُلِقَ منها الجانُّ، ثم قرأ: ﴿وَلَمَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ۝٢٧﴾. وعن ابن عباس: أن الجان خُلِقَ من لَهَبِ النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.

[٤٠٤٤] وقد وَرَدَ في الصحيح: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَتِ الجانُّ من مارج من نار، وخُلِقَ بنو آدم مما وُصِفَ لكم»^(١). ومقصودُ الآية التنبيهُ على شَرَفِ آدم عليه السلام، وطيبِ عُصْرِهِ، وطهارة مَخْيَدِهِ^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أجمعِينَ ۝٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ لِّبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إيَّاه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ لِّبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ لِمَ كَرِهتَ عَلَيَّ كَيْفَ لَيْسَ أَفْرَقْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخِيكَ ذَرِيَّتَهُ إِلَّا لِيَلْبَسَ﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقد روى ابن جرير ها هنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشراً من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشراً من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشراً من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له. قالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين. وفي ثبوت هذا عنه بُعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملا الأعلى، وأنه «رَجِيمٌ»، أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبیر أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، وزن رثته، فكل رثة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم. وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

(٢) المحند: الأصل والجوهر.

حَسَدِهِ لآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ النَّظَرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمَ الْبَعْثِ، وَأَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَإِمَاهَالًا، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظَرَةَ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - .

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾
 قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾
 وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَبَبُ مَا أَغْوَيْتَنِي وَأَضَلَلْتَنِي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾، أي: لذرية آدم عليه السلام. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأوزهم إليها وأزعجهم إزعاجًا، ﴿وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ آمَرْتَنِ بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأُحْنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. قال الله تعالى له مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: مرجعكم كُلُّكُمْ إِلَيَّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الحجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقناة، كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدَّقَ الشَّكِيلُ﴾ [النحل: ٩]. وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقناة: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، كقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ فِي أُرِّ الْكِتَابِ لَدَيْتَا لَعْنَتُهُ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أي: الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم. ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ها هنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن مؤهب، حدثنا يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبيه ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعود بالله من الشيطان الرجيم. فقال عدو الله: أرايت الذي تَعَوَّذُ منه؟ فهو هو. فقال النبي: أعود بالله من الشيطان الرجيم. قال: فَرَدَّدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فقال عدو الله: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَنْجُو مِنِّي؟ فقال النبي: بل أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟ مرتين، فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعدت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني. فقال النبي: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟ قال: آخِذْهُ عِنْدَ الْعَضْبِ وَالْهَوَى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: جهنم موعده جميع من أتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾، أي: قد كتبت لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذرك بقدر فعله. قال إسماعيل ابن علية وشعبة كلاهما عن أبي هارون العنوي، عن جطآن بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو

يخطبُ قال: إن أبواب جهنم هكذا. قال أبو هارون: أطباقاً بعضها فوق بعض. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن عليّ - رضي الله عنه - قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تُملاً كُلُّهَا. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جرير: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الخُطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ورَوَى الضحَّاك، عن ابن عباس نُحْوَهُ. وكذا رَوَى عن الأعمش بنحوه أيضاً. وقال قتادة: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤)، هي والله منازلُ بأعمالهم. رواه ابن جرير. وقال جويسر، عن الضحَّاك: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤)، قال: بابٌ لليهود، وبابٌ للنصارى، وبابٌ للصابئين، وبابٌ للمجوس. وبابٌ للذين أشركوا - وهم كفارُ العَرَبِ - وبابٌ للمنافقين، وبابٌ لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرَجَى لَهُمْ ولا يُرَجَى لأولئك أبداً.

[٤٥٤٥] وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغول، عن جُنَيْد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ﴿الْجَهَنَّمُ أَبْوَابٌ: بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتِي، أَوْ قَالَ: عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ﴾ (١). ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

[٤٥٤٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ - قال: إن من أهل النار من تأخذُه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذُه النار إلى حُجْرَتِهِ، ومنهم من تأخذُه النار إلى تراقيه، منازلُ بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٢).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَعُيُونٌ﴾ (٤٥) أَذَلُّوْهَا يَسْلِكِرُ ءَأَمِينٌ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جناتٍ وعُيُون. وقوله: ﴿أَذَلُّوْهَا يَسْلِكِرُ﴾، أي: سألهم من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿ءَأَمِينٌ﴾ أي من كلِّ خَوْفٍ وَقَرْعٍ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَلِّبِينَ﴾ (٤٧)، روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صُدُورِهِمْ في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صُدُورِهِمْ في الدنيا من غَيْلٍ، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْلٍ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف. وقد رَوَى سُنيْد في تفسيره: حدثنا ابن

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٣ والبخاري في تاريخه ٢٣٥/٢/١، وضعفه الترمذي بقوله: غريب. لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول أهد، وجاء في تهذيب التهذيب: جنيد غير منسوب عن ابن عمر قال أبو حاتم: حديثه عن ابن عمر مرسل. وذكره ابن حبان في الثقات أهد فالخير منقطع، وقد تفرد ابن حبان بتوثيقه.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عباس بن الوليد بن صُبْح، قال أبو حاتم: شيخ - يكتب حديثه - وقال أبو داود: لا أحدث عنه. راجع الميزان ٤١٨٥.

فضالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري.

[٤٠٤٧] وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادة: حدثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري حدثهم؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيُخَبَسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مِظَالٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّوا وَتَقَوَّا أَذْنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: استأذن الأشرع علي - رضي الله عنه - وعنده ابن لطلحة، فحَبَسَهُ ثُمَّ أَذِنَ لَهُ. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٢).

وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسن بن محمد: حدثنا أبو معاوية الضريز، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخل عمران بن طلحة علي - رضي الله عنه - بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٣). قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقال: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً فقال علي - رضي الله عنه -: قوماً أبعد أرض وأسحقها! فمن هم إذا إن لم أكن أنا وطلحة؟! وذكر أبو معاوية الحديث بطوله. وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربيعة بن حراش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهذه لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هم؟!^(٤)

وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة - وذكره - وفيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي - رضي الله عنه - فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم تكن نحن؟! وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرير قاتل الزبير يستأذن علي - رضي الله عنه - فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم. فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٥). وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، بنحوه. وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سَمِعَ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ يَقُولُ: قال علي: فينا واللّه - أهل بدر - نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٦). وقال كثير التواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسليمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحزبي حزبك. إني أسألك بالله: أتتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَّكَ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما يا كثير، فما أدركك فهو في رقبتي هذه. ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ وأحد ١٣/٣ وقد تقدم في سورة الأعراف عند الآية: ٤٣.

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿مُتَّقِلِينَ﴾ - قال مجاهد - لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وفيه حديث مرفوع:

[٤٠٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَّقِلِينَ﴾ المتحابون في الله، ينظر بعضهم إلى بعض^(١). وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين:

[٤٠٤٩] «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبَشِّرَ خَدِيجَةَ بَيْتِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ نَصَبٍ، لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُتَّحِرِينَ﴾، كما جاء في الحديث:

[٤٠٥٠] «يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَطْعَمُوا أَبَدًا»^(٣). وقال الله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. وقوله: ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَيْ أَنَا أَلْفُورُ الرَّجِيمِ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ^(٤)، أي: أخبر - يا محمد - عبادي أنني ذو رحمة وذو عقاب أليم. وقد تقدّم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

[٤٠٥١] «وَذَكَرَ فِي سَبَبِ نَزْلِهَا مَا رَوَاهُ مُوسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَضْحَكُونَ، فَقَالَ: «اذْكُرُوا الْجَنَّةَ، وَاذْكُرُوا النَّارَ». فنزلت: ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَيْ أَنَا أَلْفُورُ الرَّجِيمِ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ^(٤)، رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل.

[٤٠٥٢] «وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمَكِّيِّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا مُصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ بَنُو شَيْبَةَ، فَقَالَ: «أَلَا أَرَأَيْكُمْ تَضْحَكُونَ؟» ثم أدير، حتى إذا كان عند الحجر رَجَعَ إِلَيْنَا الْفَهْقَرِيُّ، فَقَالَ: «إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؟ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: لِمَ تُقْنِطُ عِبَادِي؟ ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَيْ أَنَا أَلْفُورُ الرَّجِيمِ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ^(٥)».

[٤٠٥٣] «وَقَالَ سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَيْ أَنَا أَلْفُورُ الرَّجِيمِ﴾»، قال: بلغنا أن

- (١) إسناده ضعيف، سعيد بن شرحبيل مجهول كما في «اللسان» وإبراهيم القرشي مجهول أيضاً. وساقه البغوي في «تفسيره» ٣/ ٤٣ بدون إسناده.
- (٢) صحيح، أخرجه البخاري ٣٨١٦ ومسلم ٢٤٣٤ من حديث عائشة بأتم منه.
- (٣) صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٨٣٧ والترمذي ٣٢٤٦ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وليس فيه قوله: «وإن لكم أن تقيموا فلا تطعنوا».
- (٤) ضعيف. هذا مرسل، لكن وصله الطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٧ عن عبد الله بن الزبير، وأعله الهيثمي بقوله: موسى بن عبيدة ضعيف أه، وفيه أيضاً مصعب بن ثابت. ضعفه يحيى وأحمد.
- (٥) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٤ بهذا الإسناده، وهو ضعيف، له علتان: مصعب بن عبيد الله ضعفه وقال أبو زرعة وأبو حاتم: منكر الحديث.

رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبدُ قدرَ عفو الله لما تَوَزَّعَ من حرام، ولو يعلمُ قدرَ عقابه لَبَخَعَ نفسه»^(١).

﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئْنَا بِبَشِيرٍ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نُوَجِّدُ لَكَ بَشِيرًا إِلَّا نَجْمٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُمْ بِبَشِيرٍ قَالُوا بَشِّرْهُمْ بِالْحَقِّ قَالُوا أَتَأْتِنَا بَشِيرًا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْهُمْ بِالْحَقِّ قَالُوا أَتَأْتِنَا بَشِيرًا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ - والضيف - يُطلق على الواحد والجمع، كالزور والسفر - وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئْنَا بِبَشِيرٍ﴾، أي: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيد: ﴿قَالُوا لَا نُوَجِّدُ لَكَ بَشِيرًا إِلَّا نَجْمٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود. ثم ﴿قَالَ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أَبَشِّرْهُمْ بِبَشِيرٍ قَالُوا بَشِّرْهُمْ بِالْحَقِّ قَالُوا أَتَأْتِنَا بَشِيرًا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾، فأجابوه مؤكداً لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قَالُوا بَشِّرْهُمْ بِالْحَقِّ قَالُوا أَتَأْتِنَا بَشِيرًا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ - وقرأ بعضهم: «القنطين» - فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأست امرأته فإنه يعلم من قُدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَال لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم - عليه السلام - لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، يعنون قوم لوط. وأخبروه أنهم سيُنَجُّون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين. ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَايِبِينَ﴾، أي: الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَال لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شبابٍ حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٢﴾، يعنون: بعدابهم وهلاكهم وذمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم. ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاكه قومه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ يَفْطَحُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مُقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمرؤه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط - عليه

(١) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٣ عن قتادة مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل هذا الفن.

السلام - يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقاً، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَمِسُ أَمَدًا﴾، أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذرؤهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَرَّوْنَ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾، أي: تقدّمنا إليه في هذا ﴿أَنْ دَابَرَ هَذَلِكَ مَقْطُوعٌ مَّصْبُوحٌ﴾، أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ الْأَيْسُّ الصُّبْحُ بَقَرٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي صَدَّقْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَتْكُمْ نَهْلَكِ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَذَا هُوَ الَّذِي بَقِيَ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبرُ تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤا مُستبشرين بهم فَرِحِينَ، ﴿قَالَ إِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي صَدَّقْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٨) وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾. وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسلُ الله كما في سياق سورة هود، وأما ما هنا فتقدّم ذكر أنهم رسلُ الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاботته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه. فقالوا له مجيبين: ﴿أَوْلَتْكُمْ نَهْلَكِ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي أوما نهيناك أن تُضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسايتهم، وما خلقت لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدّم أيضاً القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يَرَادُ بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المنتظر. ولهذا قال تعالى لنيبه ﷺ: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢)، أفسم تعالى بحياة نبيّه صلواتُ الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاء عريض. قال عمرو بن مالك الثكري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس أنه قال: ما خلقت الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعتُ الله أفسم بحياة أحدٍ غيره. قال الله تعالى: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (٧٢). يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿لِي سَكْرَتِهِمْ﴾، أي: في ضلالتهم، ﴿يَمْمَهُونَ﴾، أي: يلعبون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾، قال: يتخبرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَّوِّبِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبٌ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وهي ما جاءهم من الصوتِ القاصفِ عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رُفَعِ بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجّيل عليهم. وقد تقدّم الكلام عن السجّيل في هود بما فيه كفاية. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَّوِّبِينَ﴾ (٧٥). أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَّوِّبِينَ﴾، قال: المُتَّوِّبِينَ. وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمُعْتَبِرِينَ. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُتَّوِّبِينَ﴾: للمتأملين.

[٤٠٥٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بنُ عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ

النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَوِيْنَ ﴿٧٥﴾﴾^(١). رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي به، وقال الترمذي: لا تعرفه إلا من هذا الوجه.

[٤٠٥٥] وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا قرآسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»^(٢).

[٤٠٥٦] وقال ابن جرير: حدثني أبو سرحبيل الحمصي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي، حدثنا وهب بن منبه، عن طاووس بن كيسان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا قرآسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله»^(٣).

[٤٠٥٧] وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»^(٤).

[٤٠٥٨] ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجزمي، حدثنا أبو بشر - يقال له: ابن المزلق - قال: وكان ثقة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»^(٥). وقوله: ﴿وَأَنبَأَ لَيْسِيْلَ مُقْبِرِ ﴿٧٦﴾﴾، أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة ليطريق مهنع مسالكه، مستمزة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مُّسَيِّئِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ﴿وَبِأَنبَأِ أَفَّا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصفات: ١٣٧]

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٢٧ والبخاري في «تاريخه» ٣٥٤/١/٤ والطبري ٢١٤٩ والعقيلي ١٢٩/٤ وأبو نعيم ٢٨١/١٠ - ٢٨٢ والخطيب ٢٤٢/٧ وابن الجوزي ١٤٥/٣ - ١٤٦، وإسناده ضعيف لأجل عطية، فقد ضعفوه، وهو مدلس وقد عنعن، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وأما ابن الجوزي فحكم بوضعه، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥١ وأبو نعيم ٩٤/٤ وابن الجوزي ١٤٥/٣ - ١٤٦ وعلته الفرات بن السائب ضعفه الجمهور، وقال أبو حاتم: كان كذاباً. وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥٥ وأبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٨، وعلته سليمان بن سلمة الخبازي ضعفه النسائي وغيره، وقال ابن الجنيد: كان يكذب، أه وانظر ما بعده. وورد من حديث أبي أمامة أخرجه الخطيب ٩٩/٥ والطبراني ٧٤٩٧ وأبو نعيم ١١٨/٦ وابن الجوزي ١٤٦/٣ - ١٤٧ وعلته عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه أبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٦ وابن الجوزي ١٤٧/٣ وأعله بسليمان بن أرقم، وأنه متروك. واتمه ابن حبان بالوضع، فالخير وإو واللفظ الآتي أحسن إسناده ومته أقرب.

(٤) لا بأس به، أخرجه الطبري ٢١٢٥٢ والبزار ٣٦٣٢ والقضاعي ١٠٠٥ والطبراني في «الأوسط» ٢٩٥٦، ورجاله ثقات معروفون سوى أبي بشر بكر بن الحكم، لينه أبو زرعة، وثقه ابن حبان وأبو عبيدة الحداد وأبو سلمة التبوذكي، وقال الذهبي: في «الميزان» صدوق، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق فيه لين، وحديثه حسنة الهيثمي في «المجمع» ٢٦٨/١٠ ووافقه السخاوي في المقاصد ٢٣ لكن استنكره أبو حاتم والذهبي حيث قال: روى خبراً منكراً قاله أبو حاتم. ثم ذكره. ولعل الراجح وقفه والله أعلم.

(٥) إسناده كسابقه.

١٣٨]. وقال مجاهد، والضْحَاكُ: ﴿وَأَنبَأَ لَيْسَابِلَ مُبِيرٍ﴾، قال: مَعْلَمٌ. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: يَضْفَعُ من الأرض واحد. وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ولكن ليس المعنى على ما قالها هنا، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)، أي: إن الذي صنعنا بقوم لوطٍ من الهلاكِ والدمارِ وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة للمؤمنين بالله ورُسُله.

﴿وَإِن كَانَ أَحْصَبُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَامِرٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٩)

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحَّاك، وفتادة، وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطيعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرُّجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بغدّهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لِيَامِرٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذازته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ يَنْبَغِي﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠) وَءَايَاتُنَّهُمْ ءَايَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ

الْجِبَالِ يُوْتُا ءَامِينِينَ﴾ (٨٢) فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤)

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم، ومن كذب برسولٍ فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين. وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، فكانت تسرخ في بلادهم، لها شيرب ولهم شيرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتُا ءَامِينِينَ﴾ (٨٢)، أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه:

[٤٠٥٩] «لا تدخلوا بيوت المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يُصيبكم ما أصابهم» (١). وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣). أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤)، أي: ما كانوا يستغلونهم من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تُضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصْفَحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ

رَبِّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكُمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٨٦)

فَتَمَنَّكَ اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿٨٦﴾ ﴿المؤمنون: ١١٥-١١٦﴾. ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة. ثم أمر بالصفحة الجبيل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّصَعَتْ عَيْنَهُمْ وَقُلَّ سَلَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكيّة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾، تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يُعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلِيمٌ أَن يَخْلُقَ يَنبَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ نَوْمٍ وَيَأْتِيهِ الرُّجُوعُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يس: ٨١-٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لِنَفِيْتَهُمْ فِيهِ، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ حزنًا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِئِن يَبْعَثَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وغيرهم: هي السبع الطول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبیر. وقال سعيد: بين فيهن الفرائض، والحدود والقصاص، والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير قال: قال سفيان: ﴿الْمَثَانِي﴾، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يُعطهن أحدٌ إلا النبي ﷺ وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار، عن سعيد بن جبیر، عنه. وقال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعا من المثاني الطول، وأوتي موسى - عليه السلام - سبعا، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم. وقال خُصيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، قال: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنهى، وأبشر، وأنذر، وأصرب الأمثال، وأعدت النعم، وأبنتك نبيا القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد الله عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يُتلى في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، والله الحمد، وقد أورد البخاري - رحمه الله - ها هنا حديثين:

[٤٠٦٠] أحدهما، قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عُندَرُ، حدثنا شعبة، عن حُبيِّب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنتُ أصلي. فقال: «لم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(١) [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «لَسْتُ دَلِيًّا رَبِّي الْكَلْبِيَّةُ»، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

[٤٠٦١] الثاني، قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المُقْبِرِيُّ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٢). فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: «اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لَعَلِّيْثٍ كِتَابًا مُّثَنِّيَهَا مَثَانِيًا» [الزمر: ٢٣]، فهو مثنائي من وجه، ومُتَشَابِهٌ من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

[٤٠٦٢] كما أنه عليه السلام لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده^(٣)، والآية نزلت في مسجد قُباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا يفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عمّا هم فيه من المتاع والزهرة الفانية؛ ومن ها هنا ذهب ابن عيّنة إلى تفسير الحديث الصحيح:

[٤٠٦٣] «ليس مثاً من لم يتغن بالقرآن»^(٤)، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدّم في أوّل التفسير.

[٤٠٦٤] وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبّيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يُصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمدٌ رسول الله: أسلفني دقيقاً إلى هلالٍ رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمينٌ من في السماء وأمينٌ من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدبني إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا...﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزيه عن الدنيا^(٥). وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، هم: الأغنياء.

(١) وتقدم الحديث فيها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٤ وقد تقدم.

(٣) تقدم في سورة التوبة.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٦٩ وأحمد ١٧٥/١ وابن حبان ١٢٠، صححه الحاكم ٥٦٩/١ ووافقه الذهبي.

(٥) إسناده ضعيف. فيه موسى بن عبّيدة الربذي ضعفوه. وله علة ثانية: وهي الانقطاع بين ابن أبي حاتم، ووكيع، والخبر منكر، فليس المراد من الآية النهي عن السلف والدين.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١)
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أجمعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

يأمر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - أن يقول للناس: إنه ﴿النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾، البينُ النَّذَاةُ، نذير للناس من عذاب اليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المُكذِّبَةَ لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾، أي: المتحالفين. أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم، ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] الآية، أي: نقتلهم ليلاً. قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النحل: ٢٨]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿أَهْتَوَا الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ لَا يَتَأَلَّهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فقسّموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لئيبته وأهله.

[٤٠٦٥] وفي الصحيحين، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما يعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالتجاء التجاء! فاطاعه طائفة من قومه فادلجوا وانطلقوا على مهلبهم فتنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبخوا مكانهم، فصبحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني وأتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق» (١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، أي: جَزَّؤُوا كُتُبَهُمُ الْمُنزَلَةَ عَلَيْهِمْ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤُوهُ أَجْزَاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠). قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى. قال ابن أبي حاتم: ورؤي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، قال: السحر. وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة. وقال مجاهد: عَضُوهُ أَعْضَاءُ، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم: كاهن. فذلك العَضُونُ. وكذا رؤي عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس قتل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم قولوا لأسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: ما هو بكاهن! قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر!

قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لِقَوْلِهِ حلاوةً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا هذا ساحرٌ. فَتَفَرَّقُوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ جَمَعُوا الْفِتْرَةَ عِزِينَ ﴿٩١﴾﴾ أصنافاً، ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، أولئك النفر الذين قالوا ذلك لرسول الله ﷺ.

وقال عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، عن ابن عُمَرَ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: عن لا إله إلا الله. وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد، في قوله: ﴿لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: عن لا إله إلا الله.

[٤٠٦٦] وقد رَوَى الترمذي، وأبو يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بشير بن نهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال: عن لا إله إلا الله^(١). قال الترمذي: ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير، عن أنس موقوفاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلوا الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا عرّك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبّت المرسلين؟ وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: يُسألُ العبادُ كلُّهم عن خَلَّتَيْنِ يومَ القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين؟. وقال ابن عيينة: عن عمّلك، وعن مالك.

[٤٠٦٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عيني، وعن فتات الطينة بإصبعه، فلا أفيئك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما أتى الله منك»^(٢). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، ثم قال: ﴿فَوَمَيِّذٌ لَا تُشْغَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْشٌ وَلَا حِجَابٌ ﴿٩٤﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]، قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟.

(١) ضعيف جداً، والصحيح موقوف. أخرجه الترمذي ٣١٢٦ والطبري ٢١٣٩٧ و٢١٣٩٨ وأبو يعلى ٤٠٥٨ من حديث أنس، ومداره على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف لسوء حفظه، وضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث، ورواه عبد الله بن إدريس عن ليث عن بشر عن أنس موقوفاً.

تنبيه: وقع عند ابن أبي حاتم والطبري «بشير بن نهيك» وعلى هذا، فللحديث علة واحدة، وهي ليث فإن «بشير بن نهيك» روى له الستة، وقد وقع عند الترمذي وأبي يعلى «بشر» غير منسوب، وهذا الأخير ذكره ابن حبان في الثقات، فقال: بشر بن دينار عن أنس وعن ليث بن أبي سليم أه، وانظر ما ذكره الشيخ حسين سليم أسد في مسند أبي يعلى حول هذا الاختلاف، وبكل حال الخبر وإو، والصواب موقوف، والراجح أنهم سيسألون عن جميع أعمالهم كما بينته الآية التالية، فالخبر منكر.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن الدلمي في «زهر الفردوس» ٣٣٩/٤، ويونس الحذاء عن أبي حمزة، كلاهما لم أعثر له على ترجمة، فالخبر وإو. وسيأتي في سورة العنكبوت، آية ١٣.

﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾
 ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذَا يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ﴾
 ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا نَيْكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٨)

يقول تعالى أمراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بإبلاغ ما بعثه به وبإنقاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي: أمضيه، وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه. وقوله: ﴿وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥) ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥)، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله: ﴿وَدُوًّا لَّوْ تَدْرَهُنَّ يَدْرَهُونَ﴾ (٩٦) ﴿[القلم: ٩]﴾، ولا تحفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٤٠٦٨] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهّمس، عن يزيد بن دزهم، عن أنس قال: سمعت أنساً يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال: مرّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - قال: أحسبه قال: فغمزهم، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا^(١).

[٤٠٦٩] وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنانٍ وشرفٍ في قومهم: من بني أسد بن عبد العزى بن قُصيّ الأسود بن المطلب أبو زَمَعَةَ، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه، لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ أَذَاهُ وَاسْتَهْزَائِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْمِ بَصْرَهُ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ». ومن بني زهرة الأسود بن عبد يَعْتُوثَ بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيِّ العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد. ومن خزاعة الحارث بن الطلائع بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن مِلْكَانَ؛ فلما تَمَادَوْا فِي الشَّرِّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْاسْتَهْزَاءَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥)، إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمرّ به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فَعَجِمِي، ومرّ به الأسود بن عبد يَعْتُوثَ، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه جَبْتًا^(٢). ومرّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بستين وهو يجزّ إزاره، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يريش نبالاً له، فتعلق سهم من نباله بإزاره، فحُدش رجله ذلك

(١) أخرجه البزار ٢٢٢٢ والطبراني كما في «المجمع» ١١١١٢ من حديث أنس، قال الهيثمي: فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، وثقه الفلاس أ.هـ. وفيه عون، وهو مجهول، والخبر ضعيف.

(٢) الحَبْن: داء في البطن يعظم منه ويرم. والجبن بالكسر: خُزَاجٌ كالدمل وما يعتري الجسد فيقيح ويرم.

الخدش - وليس بشيء - فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخصص قَدَمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض على شِبْرَقَةٍ فدخلت في أخصص رجله منها شوكة فقتلته. ومرّ به الحارث بن الطلائة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قَيْحاً، فقتله^(١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جَمَعَهُمْ. وهكذا زُوي عن سعيد بن جبّير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله. إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غَيْطَلَة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس. قال الزهري: وصدقا، وهو الحارث بن قيس، وأمه غَيْطَلَة. وكذا زُوي عن مجاهد، ومقسّم، وقاتدة، وغير واحد: أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١٦)، تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جَعَلَ مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَلَّمْنَاكَ يَا بَقُولُونَ﴾^(١٧) فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^(١٨)، أي: وإنا لنعلم - يا محمد - أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يثينتك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيبحة وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٨)، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤٠٧٠] حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همّار: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تفجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره»^(٢). رواه أبو داود، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه.

[٤٠٧١] ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١٩)، قال البخاري: قال سالم: الموت. وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر؛ كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١٩)، قال: الموت. وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره. والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٢٠) وَلَوْ نَكُنَّ نَطْمِئِنَّا لَسَكِينًا^(٢١) وَكُنَّا نَحْوَشُ مَعَ الْمُتَأَمِّينَ^(٢٢) وَكُنَّا نَكْتُبُ يَوْمَ الْآزِينِ^(٢٣) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ^(٢٤) [المدثر: ٤٣ - ٤٧].

[٤٠٧٢] وفي الصحيح من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار -: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات، قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمته؟» فقلت: بأبي

(١) هذا مرسل، وقد شك ابن إسحاق، هل ورد عن عروة بن الزبير أو غيره. وورد من وجه آخر من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١١٣: فيه محمد بن عبد الحكم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقيه رجاله ثقات. اهـ. والخبر غريب، والأشبه أن المراد بالآية يوم بدر.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ١٢٨٩ وأحمد ٢٨٦/٥، وإسناده حسن صحيح.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٤٥.

وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ»^(١).
 وَيُسْتَدَلُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٩٤)، عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ
 كَالصَّلَاةِ وَنَحْوَهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا، فَيَصْلِي بِحَسَبِ حَالِهِ،
 [٤٠٧٣] كَمَا ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فِقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢). وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةٍ مِنْ ذَهَبَ
 مِنَ الْمَلْحَدَةِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةَ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ.
 وَهَذَا كَفَرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ وَأَعْرَفَهُمْ
 بِحَقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُواظِبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ
 إِلَى حَيْثُ الْوَفَاةِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَا هُنَا الْمَوْتُ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى
 الْهَدَايَةِ، وَعَلَيْهِ الْاسْتِعَانَةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَتَوْفَّنَا عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ وَأَحْسَنِهَا. فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ

* * *

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجْرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٤٣ و ٣٩٢٩ والنسائي «الكبرى» ٧٦٣٤ وأحمد ٤٣٦/٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٩١

سُورَةُ النَّحْلِ

آياتها
١٢٨ترتيبها
١٦

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كما قال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: قَرُبَ ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. يَحْتَمِلُ أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وقد ذهب الضحَّاك في تفسير هذه الآية إلى قولٍ عجيب، فقال: في قوله ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾، أي: فرائضه وحدوده. وقد رَدَّه ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض قبل وجودها، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً، وتكديباً. قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَمُنَافِقِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

[٤٠٧٤] وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن محمد بن عبد الله - مولى المغيرة بن شعبة - عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن عَقبَةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الثُّرس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه». قال رسول الله ﷺ: «قَالَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلِينَ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَطْوِيَانَهُ أبدأ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمْدُنُ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئاً أبدأ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرِبُهَا أبدأ، قَالَ: وَيَسْتَعْلِقُ النَّاسُ»^(١). ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد - تعالى وتقدس علواً كبيراً وهؤلاء هم المكذوبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

(١) وصله الحاكم ٥٣٩/٤ ح ٨٦٢٢ عن يحيى بن آدم بهذا الإسناد، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأصله في

يقول تعالى: ﴿يُرِزُّ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾، أي: بالوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَنْشَأُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وهم الأنبياء، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا تُلْمَعُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُم شَيْءٌ لِّمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿أَن تَذَرُوا﴾، أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَاتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعب، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يُخْلِقُونَ، فكيف ناسب أن يُعْبَدَ معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلماذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِنْ تُطْفَئَةٍ﴾، أي: ضَعِيفَةٍ مَهِينَةٍ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رُسُلَهُ. وهو إنما خُلِقَ ليكون عبداً لا ضيداً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٤ - ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظْمَ وَهِيَ رَوِيسٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُجِيبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

[٤٠٧٥] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ، أَتَى تَعَجَّزَنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ! حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُزْدِكَ وَاللَّأْرِضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ؛ وَاتَى أَرَاؤُ الصَّدَقَةَ»^(١).

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ إِنْ بَدَلْتُمْ تَكُونُوا بِلِفْئِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَقْتَرِشُونَ، وَمِنْ الْبَانِهَا يَشْرَبُونَ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ، وَهُوَ الزَّيْنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ﴾، وَهُوَ وَقْتُ رَجُوعِهَا مِنَ الْمَرْعَى عَشِيًّا، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمْدَهُ خَوَاصِرَ، وَأَعْظَمَهُ ضُرُوعًا، وَأَعْلَاهُ أَسْنَمَةٌ، ﴿وَحِينَ تُسْرَحُونَ﴾، أَي: غُدُوَّةً حِينَ تَبْعَثُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى. ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ﴾، وَهِيَ

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧ وأحمد ٢١٠/٤ وصححه إسناده البوصيري في «الزوائد» وانظر «الصحيحة» ١٠٩٩.

الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن ثقلها وحملها، ﴿إِنَّ بَدَلَهُ تَكَرُّبًا بَلِيغًا إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾، وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُعَلِّمَنَّكُم مَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَعَلَى الْفَالِكِ حُمْلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَمَعَلْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَاتَّبِعُوا عَلَيْهَا حَامَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ حُمْلُونَ ﴿٧٩﴾ وَرَبُّكُمْ بِآيَاتِهِ قَآءٌ ءَايَاتِ اللَّهِ تُشَكِّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨١]، ولهذا قال ما هنا بعد تعدد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوِّفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ وَذَلَّلْنَاهَا لَمْ يَنْفِرْ فِيهَا مِنْكُمْ رُكُوبًا وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْهَا الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧٧﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّا لَأَنْ لَسُقِلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب. و﴿وَمَنْفِعٌ﴾: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سيمالك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ﴾، نَسَلُ كُلِّ دَابَّةٍ. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لباس ينسج، ﴿وَمَنْفِعٌ﴾: مزكَّب ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ﴾، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هذا صنف آخر مما خلق - تبارك وتعالى - لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة - رحمه الله عليه - ومن وافقه من الفقهاء، لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عثية، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، فهذه للاكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، فهذه للركوب. وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عثية أيضا.

[٤٠٧٦] واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدم بن مغد يكرِب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير^(١). وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم - وفيه كلام - به.

(١) حسن شاذ، أخرجه أبو داود ٣٧٩٠ والنسائي ٤٨٤٣ و ٤٨٤٤ «كبرى» والدارقطني ٢٨٧/٤ وابن ماجه ٣١٩٨ وأحمد ٤/٨٩، وإسناده لا بأس به، لكن الجمهور على خلافه، والأحاديث الصحيحة تعارضه، ولذا قال أبو داود عقبه: هو حديث منسوخ. وقال البخاري: صالح بن يحيى بن المقدم فيه نظر، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده مضطرب. وانظر ما قاله القرطبي عند حديث ٣٨٥٤ و ٣٨٥٦ بتحقيقي.

[٤٠٧٧] ورواه أحمد - أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه - فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جدّه المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، ففرم أصحابنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكَةً فدفعتها إليهم فحبّلوها، فقلت: مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم. ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحلّ أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الحُمُرِ الأهلية وخيلها وبغالها، وكلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير»^(١). والرَمَكَةُ: هي الحجرة. وقوله: حَبَّلُوهَا، أي: أوثقوها في الحبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران. وكأنه هذا الصنيع وقّع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صحّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يُقاوم ما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: [٤٠٧٨] نَهَى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُرِ الأهلية، وأذن في لحوم الخيل^(٢).

[٤٠٧٩] ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الخَيْلَ والبِغَالَ والحمير، فَنَهَانَا رسولُ الله ﷺ عن البِغَالِ والحمير، ولم يَنْهَنَا عن الخَيْلِ^(٣).

[٤٠٨٠] وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: نَحَرْنَا على عَهْدِ رسول الله ﷺ قَرَساً فأكلناه ونَحَرْنَا بالمدينة^(٤). فهذه أدل وأقوى وأثبت. وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب. فإله أعلم، فقد دلّ النصّ على جواز ركوب هذه الدواب، ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاع الحُمُرِ على الخيل لثلاث ينقطع النسل.

[٤٠٨١] قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حُدَيْفَةَ، عن الشعبي، عن دِخْيَةَ الكَلْبِيِّ قال: قلت يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس، فيُنْتِجَ لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»^(٥).

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَدَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) أخرجه أحمد ٨٩/٤ وإسناده لا يبلغ درجة الصحة، وإنما ذكر الخيل شاذ، معارض بأحاديث صحيحة تجعله غير محفوظ والله أعلم.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٤٢١٩ و ٥٥٢٠ ومسلم ١٩٤١ وأبو داود ٣٧٨٨ والنسائي ٢٠١/٧ وأحمد ٣٦١/٣ وابن حبان ٥٢٧٣.

(٣) صحيح أخرجه أبو داود ٣٧٨٩ وأحمد ٣٥٦/٣ والبيهقي ٣٢٧/٩ وصححه ابن حبان ٥٢٧٢ وكذا الحاكم ٢٣٥/٤ ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح أخرجه البخاري ٥٥١٩ ومسلم ١٩٤٢ وابن ماجه ٣١٩٠ وأحمد ٣٤٥/٦ و٣٥٣ وابن حبان ٥٢٧١.

(٥) أخرجه أحمد ٣١١/٤ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٣٦٩، ونقل الهيثمي عن الطبراني قوله: الشعبي عن دحية، مرسل. اهـ. وفيه عمر مولى حذيفة لم أجد له ترجمة.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَارُّ عليه في السُّبُلِ الحِسِّيَّةِ تَبَّه على الطريق الدينية المعنوية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبورُ من الأمور الحِسِّيَّةِ إلى الأمور المعنويَّةِ النافعة كما قال تعالى: ﴿وَكَزَرُوا فَبَاتَ خَيْرَ أَزْوَاجِ الثَّقَوْنَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَيِّرُ سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الثَّقَوْنَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. ولما ذُكِرَ تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة - شَرَعَ في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فَبَيَّنَ أن الحق منها ما هي موصلةٌ إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَنٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: طريق الحق على الله وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: الإسلام. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، يقول: وعلى الله البيان، أي: تبيين الهدى والضلالة. وكذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقول مجاهد ما هنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طرقاً تُسَلِّكُ إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، أي: حائذ مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: «ومنكم جائر». ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قَدَرِهِ ومشيئته، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مَخْتَلِفِينَ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَنَا جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [١١٩] ﴿ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٥] يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١١]

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شَرَعَ في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العُلُو - مما لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾، أي: جعله عذبا زلالا، يُسَوِّغُ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقاتدة، وابن زيد، في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

[٤٠٨٢] ﴿وَرَوَى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نَهَى عن السُّومِ قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ (١).

(١) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٢٢٠٦ وابن عدي ١٣٥/٣ من حديث علي، وإسناده ضعيف فيه نوفل بن عبد الملك ذكره الذهبي في «الميزان» ٩١٤٨ بهذا الحديث، وقال: قال يحيى: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: مجهول أحد. وقع للحافظ في «التقريب» ٧٢١٥: مستور أحد وفي ذلك نظر فقد ضعفه ابن معين كما تقدم فليس بمستور. ثم إن الحافظ ذكر في التقريب ١٨٨٥ الربيع بن حبيب، وقال: صدوق، ضعف بسبب روايته عن نوفل بن عبد الملك، قال أبو أحمد الحاكم: الحمل على نوفل أحد أي في هذا الحديث، وأما ابن عدي فأعله بالربيع ونقل عن النسائي قوله: منكر الحديث، وعن أحمد: أحاديثه منكبر. والحديث منكر ضعيف بكل حال. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّتُ لَكُمْ بِهِ الرِّزْقَ وَالرِّزْقُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنَ كُلِّ الْأَشْجَاتِ﴾، أي: يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ، عَلَى اخْتِلَافِ صُفُوفِهَا وَطَعْمِهَا وَالْوَانِهَا وَزَوَائِجِهَا وَأَشْكَالِهَا. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: دَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلَاءٌ لِّمَنْ قَوْمٌ يَعِدُّونَ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ٦٠]. ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى عِبَادَةَ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ، وَمِثْنِهِ الْجَسَامِ، فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَدُورَانِ، وَالنُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَوَاتِ نُورًا وَضِيَاءً لِلْمُهْتَدِينَ بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْهَا. وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَسْبِيْرِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبْشِرُ اللَّيْلَ أَنَّهُ يُبْطِئُ حَيْثُ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الاعراف: ٥٤]. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لَدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَجَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾، لِمَا نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى مَعَالِمِ السَّمَاءِ نَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ الْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: آيَةً لِلتَّوْبَةِ وَنِعْمَةً فَيَشْكُرُونَهَا.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَنْ فِي الْأَرْضِ رَوَّاسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّاكُمْ الْبِلَاطَةَ وَالْبُرْجَانَ وَبِالْجِبَالِ هُمْ يُهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأُمُوجِ، وَيَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ، وَتَسْيِيرِهِمُ لِلرُّكُوبِ فِيهِ، وَجَعْلِهِ السَّمَكَ وَالْحَيْتَانَ فِيهِ، وَإِحْلَالِهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثُ وَبَيْتَهَا، فِي الْحَلِّ وَالْإِحْرَامِ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّكَلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وَتَسْهِيلِهِ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهَا مِنْ قَرَارِهَا حَلِيَّةً يَلْبَسُونَهَا. وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السَّفَنِ الَّتِي تَمْخَرُهَا، أَي: تَشَقُّهُ. وَقِيلَ: تَمْخَرُ الرِّيَاحُ - وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ - بِجَوْجِيْنِهَا - وَهُوَ صَدْرُهَا الْمَسْتَمُّ - الَّذِي أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، إِرْثًا عَنِ أَبِيهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السَّفْنَ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَيَسِيرُونَ مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، لَجَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ. وَمَا هُنَاكَ إِلَى هَا هُنَا، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أَي: نِعْمَةً وَإِحْسَانَهُ.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا

عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كلم الله هذا البحر الغربي، وكلم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فكيف أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك في نواحيك، وأحملهم على يدي. وخزمه الخلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون بهم كالوالدة لولدها. فأتابه الحلية والصيد. ثم قال البرأز: لا نعلم رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث، وقد رواه سهيل، عن النعمان بن أبي عياش، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً^(١).

ثم ذكر تعالى الأرض وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، ليقتر الأرض ولا تميذ، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان، فلا يهنا لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالجِبَالِ أَسَٰنَهَا﴾. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميذ، فقالوا: ما هذه بمقبرة على ظهرها أحداً. فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تذر الملائكة مم خلقت الجبال وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: إن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور فقات الملائكة: ما هذه بمقبرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها. وقال ابن جرير: حدثني المنثى، حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رب، تجعل علي بني آدم يعملون علي الخطايا ويجعلون علي الخبث؟ قال: فأرسي الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقراؤها كاللحم يترجرج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرَا سُبُلًا﴾، أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً، وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر. فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاتاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَابًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي: دللنا من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأ وبحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار. وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾: ويقولون: النجوم، وهي الجبال. ثم قال تعالى متنبهاً على عظمتها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧). ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨)، أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتزكتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، ويغفر الكثير، ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في

(١) كلاهما موقوف، لكن صوب البرار رواية من رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه روى الكثير عن أهل الكتاب، بخلاف أبي هريرة، فتنبه، والله أعلم.

شكر بعض ذلك، إذا ثبتتم وأنبتتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِمَهُ﴾ بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١)

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ﴾ (٢٦) ﴿[الصفات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء! إنما يُرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِنَّ اللَّهَ كَرِهَهُمْ فَأَلْزَمَهُمُ مَنَاسِكَةً﴾ (٢٢) ﴿لَا جَرَمَ عَلَى اللَّهِ يَعْلَمُ مَا

يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣)

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿اجْعَلِ الْآيَةَ لِلَّهِ وَمِمَّا إِذْ هَذَا كَلِمَةٌ مَّجَابٌ﴾ (٥) ﴿[ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ مَنَّهُ أَسْمَاءً فَلَوْبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥) ﴿[الزمر: ٤٥]. وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ولهذا قال ما هنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسَلِّمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُمْ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلْنَا رَبِّكُمُ قَالَوَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿٢٥﴾ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥)

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَآذَا أَنزَلْنَا رَبِّكُمُ قَالَوَا﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهَا تَمْثَلٌ عَلَيْهِمْ بُكْرَةٌ وَأَجِيلًا﴾ (٥) ﴿[الفرقان: ٥]، أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً متضادة مختلفة، كلها باطل، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَوِيهِمْ سَبِيحًا﴾ (٩) ﴿[الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿كَرَّرَ وَنَدَّرَ﴾ (٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا عِزٌّ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) ﴿[المدثر: ١٨ - ٢٤] أي: ينقل ويحكي، فنفرقوا عن قوله ورأيه، فبهم الله تعالى!

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ وَيُؤَفِّقُونَهُمْ، أي: تصير عليهم خطيئة

ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث:

[٤٠٨٣] «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من أتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من أتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أثْمَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ [النكوت: ١٣]. وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: إنها كقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْمَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ يَدَيْهِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْهُوَاءُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ [٢٧]

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، قال: هو ثمرود الذي بنى الصرح. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض ثمرود، فبعث الله عليه بغوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه. وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكيه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾. وقال آخرون: بل هو بختنصر. وذكروا من المكر الذي حكى الله ما هنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَئَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢]، أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْمَلَ لَهُ أَنْدَادًا...﴾ [سبا: ٢٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتهته من أصله، وأبطل عملهم وأصله، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِحَرْبٍ أَفْجَأْنَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وقال ما هنا: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ، أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تخبئه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ السَّرَابُ﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

[٤٠٨٤] قال رسول الله ﷺ: «يُنصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوْاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ عَدْوَتِهِ»، فيقال: هذه عَدْوَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ^(٢). وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يُسرونه من المكر، ويُخزيهم الله على رؤوس

(١) رواه مسلم وغيره، وتقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢.

(٢) متفق عليه، وتقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

الخلائق؛ ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مُقَرَّعاً لهم وموبخاً: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَشَاقِدٌ فِيهِمْ﴾، أي: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلصكم ما هنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿قَالَ لَنْ نَقُورَ وَلَا نَكُورُ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا تَوَجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْآيَةَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمُخْبِرُونَ عن الحقِّ في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ وَالشَّوَى عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضركه ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ فَالْقَوْمَ الَّاتِيَةَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٩)

يُخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة: ﴿فَالْقَوْمَ الَّاتِيَةَ﴾، أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جِيماً يَخْلِفُونَ لَمْ كُنَّا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: بنس المقييل والمقام والمكان من دار هَوَانٍ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسُمومها، فإذا كان يوم القيامة سُلِكَتْ أرواحهم في أجسادهم، وخُلِدَتْ في نار جهنم، ﴿لَا يَبْقَى عَنْهُمْ ظِلٌّ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٨٠) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٨١) الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا إِنَّنَا كُنَّا مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٨٢)

هذا خبرٌ عن السَّعْدَاءِ بخلاف ما أَخْبَرَ به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب، أي: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾، أي: أنزل خيراً، أي: رحمةً وبركةً وحسناً لمن اتَّقَى الله وأمن به. ثم أخبروا عما وَعَدَ الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا زَكَرْنَا أَنَّهُ وَمُوْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]. ثم وصَّوْا الدارَ الْآخِرَةَ فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾، بدل من ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾، أي: مقامية يدخلونها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

[٤٠٨٥] وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملا من أهل الجنة وهم جلوس على شرايبهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً. فيكون ذلك»^(١). ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: هكذا يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون - أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء - وأن الملائكة تسلم عليهم ويبشرونهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْإِيمَانِ أَلَيْسَ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢٥) ﴿تَحَنُّنًا إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (٢٦) ﴿فَلَا يَنْفَعُ عَفْوُهُمْ رَبِّهِمْ﴾ (٢٧) [انصفت: ٣٠ - ٣٢]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الْأَلْيَتَ ءَأَمَّنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِيَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٤)

يقول تعالى مُتَهَدِّدًا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل يتنظرون هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم تفيض أرواحهم، قاله قتادة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾، أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباهم من المشركين، حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والتكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾، لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حُججه عليهم بإرسال رُسُلِهِ وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بمخالفتهم الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فهذا أصابهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: يستخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ﴾ (٢٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٢٥) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الْعُلُوفَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبُّوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٦) ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٧)

يخبرُ تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم مُحْتَجِينَ بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَاتُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: من البحائر والسوائب والوضائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، مما لم ينزل الله به سلطاناً. ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لِمَا فَعَلْنَا لَأَنكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَّا مَكَّنَّا مِنْهُ. قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُعَيِّرْهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْكَرَهُ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة، أي: في كل قَرْنٍ من الناس وطائفة رُسُولاً، وكلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ: ﴿أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾، فلم يَزَلْ تعالى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ، مِنْذُ حَدَّثَ الشُّرْكَ فِي بَنِي آدَمَ، فِي قَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي طَلَبَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَكُلُّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْنَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾، فكيف يَسُوْغُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ فمَشِيئَتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُتَّفِيَةٌ، لِأَنَّهُ نَهَاكَمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأَمَّا مَشِيئَتُهُ الْكُرُونِيَّةُ، وَهِيَ تَمَكِّيْنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدْرًا، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا، لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ، وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَافِرَةِ، وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادَةِ الْكُفْرِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بِالْعَقْلِ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّالِحَةُ فَبُذِلُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، أي: فاسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب بالحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبَ كَذِبًا كَانَ تَكْوِيرًا﴾ [الملك: ١٨]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن جزأه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح - عليه السلام - لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَصْغِيرُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَضَعِ لَكُمْ مِنْكُمْ آيَةً يُرِيدُ أَنْ يُتَوَكِّفَكُمْ﴾ [هود: ٢٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادِيٌّ لَمْ يَنْدُرْهُمْ فِي طَلْفَيْهِمْ يَعْهَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾، أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، أي: من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، أي: ينقذونهم من عذابه ووقاهه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرَةُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٦] لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يَحْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٩٦] إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٩٦]

يقول تعالى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي: اجتهدوا في الحلف

وَعَلَّظُوا الْإِيمَانَ عَلَى أَنَّهُ ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرُّسُلَ في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على تقيضه. فقال تعالى مُكذِّبًا لَهُمْ وِرَادًا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بل سيكون ذلك، ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، أي: لا بُدَّ منه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فبجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذَكَرَ تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال سبحانه: ﴿إِنِّي لَنُفِثَ لَهُمْ﴾، أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، أي: من كل شيء، و ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾، أي: في إيمانهم وأقسامهم: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾. ولهذا يُدْعُونَ يوم القيامة إلى نار جهنم دَعَاً، ويقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَسْمَلْتُمْ فَأَسْمِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزِنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [الطور: ١٤-١٦]. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء. وأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ﴾، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرَّةً واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٥﴾ [القمر: ٥٥]، وقال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَّجِدَةً﴾ [القمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٥﴾، أي: أن يأمر به مرَّةً واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ؛ قَوْلَةً فَيَكُونُ

أي: إنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانع ولا يُخالف، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قَهَرَ سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: سُبْحَانَ ابْنِ آدَمَ ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبتني ولم يكن ينبغي له أن يكذبتني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سبُّه إياي فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلَدْتَنِي﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصَّحِيحِينَ مرفوعاً بلفظ آخر^(١).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُوتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. وَيَحْتَمِلُ أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خَرَجُوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكثوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رُقِيَّة بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة وصديق وصديقة - رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فَعَلَ - فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنَنُوتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، قال ابن عباس والشعبي، وقناة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فَعَوَّضَهُمُ اللهُ خَيْراً مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، فإن من ترك شيئاً لله عَوَّضَهُ اللهُ بما هو خير له منه في الدنيا، وكذلك وقع، فإنهم مَكَّنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، فصاروا أمراء حُكَّاماً، وَكُلُّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أي: مما أعطيتهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ ما أَدْرَكَ اللهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ، ولهذا قال هُشَيْمٌ، عن العوام، عَمَّنْ حَدَّثَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كَانَ إِذَا أَعْطَى الرَّجُلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عَطَاءً يَقُولُ: خُذْ، بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهِ، هَذَا مَا وَعَدَكَ اللهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا دَخَّرَهُ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. ثم وَصَفَهُمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٣)، أي: صَبَرُوا عَلَى أذى من آذاهم من قومهم، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمْ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُوبِ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤)

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) يعني أهل الكتب الماضية: أبقراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكروهم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا؟ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش. وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] صحيح، ولكن ليس هو المراد هنا، لأن المخاليف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه. وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر - صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول - ﷺ، وعليهم السلام والرحمة - من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبنو علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر - وهو محمد بن علي بن الحسن - وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كلاً المنزل الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين. والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٤٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٤٤) قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٤٥) [الإسراء: ٩٣ - ٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٤٨) [الأنبياء: ٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعِيَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً أن يسألوا أهل

الذكر أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالدلائل والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾، وهي الكُتُبُ، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزُّبُرُ: جمع زُبُور، تقول العرب: زَبَرْتُ الكتاب إذا كتبتَه، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ مَن و قَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٦﴾ [القمر: ٥٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُوثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ٥٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ - يعني القرآن - ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، من ربهم، أي: ليعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وجزصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فَتَفْصِلُ لَهُمَ مَا أَجْمَلَ، وَتُبَيِّنُ لَهُمَ مَا أَشْكَلَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: ينظرون لأنفسهم فيهدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٥٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِينٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ ٥٧﴾

يخبر تعالى عن جليهِ وإنظاره العَصَاة الذين يعملون السيئات ويَدْعُونَ إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿مَأْنِسْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْفَىٰ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ ٥٥﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾، أي: في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بما في أسفارهم ونحوها من الأشغال المُلْهِية. قال قتادة والسدي: ﴿تَقْلِبُهُمْ﴾ أي: أسفارهم. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾، في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ٥٦﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفًا وَهُمْ يُلْعَبُونَ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: لا يُعْجِزُونَ الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِينٍ﴾، أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشدَّ حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يُتَوَقَّع مع الخوف شديد. ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحْوِينٍ﴾، يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا زُوي عن مجاهد والضحاك، وقاتدة، وغيرهم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ ٥٧﴾، أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين:

[٤٠٨٦] «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»^(١).

[٤٠٨٧] وفي الصحيحين: «إن الله ليُنملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ٥٦﴾^(٢) [هود: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرْبَىٰ أَمَلَيْتَ لَمَا وَهَىٰ ظَلَمَةٌ فَرَّ أَهْلُهَا وَلَيْكَ الْمَصِيرُ ٥٨﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا إِنْ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظُلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ٥٨﴾ وَرَبَّهُ

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦.

(٢) وتقدم الحديث فيها.

يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلّفوها من الإنس والجن والملائكة. فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال - أي: بكرة وعشياً - فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُمْ دَابَّةٌ﴾، أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال قال: سجدوها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلته. ونزلهم منزلة من يغفل إذ أسند السجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَطَلَبَهُمُ الْفُتُوْرُ وَالْأَصَالُ﴾ ﴿٥١﴾ [الرعد: ١٥]. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: مشابرين على طاعة الله تعالى في امتثال أوامره وترك زواجره.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَآرَهُبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابًا أَفَنَدَرَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ يَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفَ
تَسْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه. ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي، وقاتادة، وغير واحد: أي دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً، وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَنَدَرَ دِينَ اللَّهِ يَبْتُورُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. فهذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. ثم أخبر أنه مالك النعم والضّر، وأن ما بالعباد من نعمة ورزق وعافية ونصر فمن فضله عليهم. وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ يَجْتَرُونَ﴾، أي: ليعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَفَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿٥٦﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال ها هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ. قيل: «اللام» ها هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستيروا ويجحدوا نعمة الله عليهم، وأنه المُسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَسْتَعْتَبُوا﴾، أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَسْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَانٌ عَمَّا كَفَرْتُمْ تَقْتَرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ

سَبَحْنَهُمْ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَجَعَلُوا لَهَا نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، فَقَالُوا: ﴿هَكَذَا لَهُمْ بِرِغْمِهِمْ وَهَكَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ قَبِيلٌ إِلَّا شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أَي: جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللَّهِ وَقَضَلُوهَا أَيْضًا عَلَىٰ جَانِبِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لِيَسْأَلْتَهُمْ عَنِ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتْتَفَكَوْهُ، وَلِيَقَابِلَنَّهُمْ عَلَيْهِ وَلِيَجَازِيَهُمْ أَوْفَرَ الْجِزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَنَشْتَلَنَّ عَمَّا كَفَرْتُمْ قَتَرُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً، وَجَعَلُواهَا بَنَاتِ اللَّهِ، وَعَبَدُوهَا مَعَهُ فَأَخْطَؤُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ أَنْ لَهُ وَلَدًا، وَلَا وَلَدَ لَهُ! ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَحْسَنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ، وَهَمْ لَا يَرْضُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿الْكُفْرُ وَاللُّغْوُ وَالْأُنْفُ وَالْأُنْفُ﴾ [٦١] تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَةٌ ﴿٦٢﴾ [النجم: ٢٢]، وَقَالَ هَا هُنَا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾، أَي: عَنِ قَوْلِهِمْ وَإِفْكِهِمْ، ﴿أَلَا إِنَّمِيزُ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُنَّ ﴿٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٢﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أَي: يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ - تَعَالَىٰ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوقًا كَبِيرًا - فَإِنَّهُ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، أَي: كَثِيبًا مِنَ الْهَمِّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ سَاكَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾، أَي: يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿مِنَ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أَي: إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مَهَانَةً لَا يورثها وَلَا يَعْتَنِي بِهَا وَيُفْضِلُ أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ عَلَيْهَا ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أَي: يَتَدَاهَا، وَهُوَ: أَنْ يَذْفِنَهَا فِيهِ حَيَّةً، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَمْنَ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الْكِرَاهَةَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ لِه؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أَي: بَشَسَ مَا قَالُوا، وَبَشَسَ مَا قَسَمُوا، وَبَشَسَ مَا نَسَبُوا إِلَيْهِ! كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا حَرَّابٌ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وَقَالَ هَا هُنَا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾، أَي: النِّقْصَ إِنْمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، أَي: الْكَمَالَ الْمَطْلُوقَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٦١] وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِيفُ الْبَنَاتِ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمْ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ جِلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ يَأْخُذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، أَي: لِأَهْلِكَ جَمِيعِ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ. وَلَكِنَّ الرَّبَّ - جَلَّ جَلَالُهُ - يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ، وَيُنْظِرُ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أَي: لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ؛ إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَىٰ أَحَدًا. قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ أَنَّهُ قَالَ: كَادَ الْجَعْلُ^(١) أَنْ يُعَذَّبَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ، وَقَرَأَ: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ

(١) الجعل: حيوان كالخفصاء يكثر في المواضع الندية.

يُظْلِمُهُ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ». وكذا روى الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: كاذب الجعل أن يهلك في جُحْرِهِ بخرطبة ابن آدم. وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْعَثْمِيِّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَكِيمِ الْخَزَاعِيِّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرِ الْحَقْفِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ. قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها هذا الأظلم الظالم.

[٤٠٨٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله بن مُسْرَح، حدثنا سُليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربيعة، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: دَكَّرْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَخِّرُ شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِالذَّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، يَرْزُقُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَلْحَقُهُ دَعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ الْعُمُرِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْمَعُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لُحْمًا﴾، إنكاراً عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاذ ففيه أيضاً لهم الحسنى، كقوله إخباراً عن قيل من قال منهم: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَفْوَسُ كَفُورًا﴾^(١) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ نِعْمَةً بِمَدَّ صِرَافَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَةَ فَلَيَتَّيَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَيُذِقْنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾^(٣) ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَلَمْ يَقْدَحْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(٤) [مريم: ٧٧، ٧٨]، وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾^(٥) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(٦) [الكهف: ٣٥، ٣٦]، فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وَجِدَ حَجَرَ فِي أَسَاسِ الْكَعْبَةِ حِينَ نَقَضُوهَا لِيَجِدُوا مَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ حِكْمٌ وَمَوَاعِظٌ، فمن ذلك: تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ؟! أجل كما يُجتنى من الشوك العنب! وقال مجاهد، وفتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لُحْمًا﴾، أي: الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ لُحْمًا﴾، أي: يوم القيامة. كما قدمنا بيانه، والله الحمد، وهو الصواب. ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنْ لَكُمْ النَّارُ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنْتُمْ مُقْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وفتادة، وغيرهم: مَنِيَّوْنَ فِيهَا مُضَيِّعُونَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْفَعُكُمْ كَمَا نَسْفَعُ لِقَاءَ يَوْمَيْهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وعن فتادة أيضاً: ﴿مُقْرَطُونَ﴾، أي: مُعْجَلُونَ إِلَى النَّارِ، مِنَ الْفَرْطِ وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوَرْدِ. ولا منافاة، لأنهم يُعْجَلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ، وَيُنْسَوْنَ فِيهَا، أَيْ: يُخْلَدُونَ.

(١) ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي ٢٨٥/٣ وابن حبان في «المجروحين» ٣٣١/١ بهذا الإسناد عن أبي الدرداء، وأعله ابن عدي بسليمان بن عطاء الحمزاني. وقال ابن حبان: يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة، لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه، أو من مسلمة.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِزْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وِلِيُّهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وِلِيُّهُمْ أَلَيْسَ﴾، أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريح لهم، ولهم عذاب اليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليين لهم، أي: للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: لمن تمسك به، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُحيي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِمْ مِّن بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِيرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِبًا لِلسَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾، وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِمْ﴾، وأفرد ها هنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَنكِرُونَ ﴿١١﴾ مَن شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: ١١ - ١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِإِي مِثْلَهُ لَالْيَوْمِ يَهْدِيهِ فَنَاطِرَةٌ يَوْمَ يَرْجِعُ الْكَاذِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سَلْبُكَ﴾ [النمل: ٣٥ - ٣٦]، أي: المال.

وقوله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِيرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا﴾، أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وخلاوته من بين قرنٍ ودمٍ في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، فإذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولين إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. وقوله: ﴿لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِبًا لِلسَّابِرِينَ﴾، أي: لا يعص أحد به. ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، ثنى بذكر ما يتخذة الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السكر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أجل من ثمرتيهما - وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني ما ييسر منهما من ثمرٍ وزييب، وما عمل منهما من طلاء - وهو الذبئ - وخلٌ ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ناسب ذكر العقل ها هنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله

على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّيْسِلٍ وَأَنْعَسِبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَمْيُونَ ﴿٦٨﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَجَ كُنْهًا مِمَّا تَبِتُّ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: ٣٤ - ٣٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المراد بالوحي ها هنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورضها، بحيث لا يكون بينها خلل. ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقي العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تُضجج إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مُطِيعَةً. فجعلاه حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فِيمَا رَكِبْتُمْ وَمِنَهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: ٧٢]، قال: ألا ترى أنهم ينتقلون بالنحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر. وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين مُتَّجِعَةٌ.

[٤٠٨٩] وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا سكين بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عمر الذباب أربعين يوماً، والذباب كله في النار إلا النحل»^(١).

(١) أخرجه أبو يعلى ٤٢٣١ وابن عدي ٤٦٣/٣. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦٦/٣.

قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩٤: رجاله ثقات. وحسنه البوصيري فيما نقل الأعظمي كما في «تفريج المطالب العالية» ٢٩٦/٢، وفي ذلك نظر. وأعله ابن الجوزي بسكين، ونقل عن النسائي قوله: ليس بالقوي أه وجاء في التهذيب: وثقه العجلي وابن نمير وابن حبان، وأثنى عليه غيرهم، وضعفه النسائي، وأبو داود وابن خزيمة أه قلت: الخبر منكر، والظاهر أن علته أبوه عبد العزيز بن قيس، فقد ذكره الذهبي في الميزان، وقال: مجهول، وذكره ابن حبان في الثقات أه وقال عنه الحفاظ في التقريب: مقبول. أي حيث يتابع، ولم يتابعه الثقات على هذا. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلى ٤٢٩٠ وإسناده ضعيف جداً فيه عنبسة بن سعيد البصري، وحنظلة، وكلاهما وإو. وما يدل على وهنه، هو أن الذباب يعمر فوق الأربعين يوماً بكثير. وعجزه ورد من حديث ابن عمر، أخرجه الطبراني ١٣٤٣٦ و ١٣٤٦٧ و ١٣٤٦٨ و ١٣٥٤٢ و ١٣٥٤٣ و ١٣٥٤٤ والبزار ٣٤٩٨ وابن عدي ٢٨٥/١ - ٣٤٩ و ٤٤/٥ وابن الجوزي ٢٦٥/٣ - ٢٦٦: في الطريق الأول أيوب بن خوط، قال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال الفلاس والنسائي والرازي والسعدي: متروك. وفي الطريق الثاني: القاسم بن يزيد بن سفيان مجهول أه وقال الهيثمي: رجال بعض أسانيد الطبراني ثقات.

ورود من حديث ابن عباس، أخرجه الطبراني ١١٠٥٨ وقال الهيثمي ١٨٥٩٥: رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن حازم وهو ثقة. وورد من حديث ابن مسعود، أخرجه الطبراني ١٠٤٨٧، وقال الهيثمي ١٨٥٩٧: إسحق بن يحيى بن طلحة متروك، وذكره ابن حبان في الضعفاء، وفي الثقات، وقال: يترك ما انفرد به، ويحتج بما وافق فيه الثقات. قال الهيثمي: وقد وافقه الثقات في أصل الحديث أه، وذكره السيوطي في «اللائل» ٤٦٣/٢ - ٤٦٤ وذكره له طوقاً أخرى لم يذكرها ابن الجوزي، وعلى هذا فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، كما أنه لا يبلغ درجة الصحيح، هذا بالنسبة لعجزه، وأما صدره فهو منكر. تفرد به سكين وأبوه، وسكين وضعفه غير واحد كما تقدم، وأبوه مجهول، والله تعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾، أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها وماكلها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: في العسل شفاء للناس من أدواٍ تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: يصلح لكل أحد من أدواٍ باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بخصه. وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾: يعني القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ها هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ها هنا، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ أَلْفَرَاءِنِ مَاءً حَمِيمًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]... الآية، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوَظِعَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، هو العسل.

[٤٠٩٠] الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه؟ فقال: اسقه عسلاً. فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال: «اذهَبْ فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذبت بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه قَبْرًا^(١). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حارٌ تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرة، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكدلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

[٤٠٩١] وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلواء والعسل^(٢). هذا لفظ البخاري.

[٤٠٩٢] وفي صحيح البخاري، من حديث سالم الأفتس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شربة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكية»^(٣).

[٤٠٩٣] وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن العييل، عن عاصم بن عمر بن قتادة: سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم - أو يكون في شيء من أدويتكم - خير ففي شربة محجم، أو شربة عسل، أو لدعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي»^(٤). ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به.

[٤٠٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧١٦ ومسلم ٢٢١٧ والترمذي ٢٠٨٣ وأحمد ١٩/٣ و ٩٢ وأبو يعلى ١٢٦١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٣١ و ٥٦١٤ ومسلم ١٤٧٤ وأبو داود ٣٧١٥ والترمذي ١٨٣٢ وابن ماجه ٣٣٢٣ وأحمد ٦/٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٠.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٣ ومسلم ٢٢٠٥ وأبو يعلى ٢١٠٠.

الوليد، عن أبي الخير، عن عُقبة بن عامر الجُهني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ فَشَرَطَةٌ وَمُحَجَّمٌ، أَوْ شَرْبَةُ عَسَلٍ، أَوْ كَيْتَةٌ تُصِيبُ الْمَاءَ، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَيْتَ وَلَا أَحِبُّهُ»^(١). وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ هَارُونَ بْنِ مَلُورٍ الْمَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَقْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ، بِهِ، وَلَفْظُهُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ شِفَاءٌ فَشَرَطَةٌ وَمُحَجَّمٌ...»^(٢) وَذَكَرَهُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرَجْهُ.

[٤٠٩٥] وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَاجَةَ الْقَزْوِينِيُّ فِي سُنَنِهِ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَلْمَةَ - هُوَ اللَّبْقِيُّ - حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشَّفَائِينَ الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ»^(٣). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ ابْنُ مَاجَةَ مَرْفُوعاً، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَفِيَانَ بْنِ وَكَيْعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَفِيَانَ - هُوَ الثَّوْرِيُّ - بِهِ مَوْقُوفاً؛ وَلَهُوَ أَشْبَهُهُ. وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ الشِّفَاءَ فَلْيَكْتُبْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي صَخْفَةٍ، وَلِيُغْسَلْهَا بِمَاءِ السَّمَاءِ، وَلِيَأْخُذَ مِنْ أَمْرَاتِهِ دَرَاهِمًا عَنْ طَيِّبِ نَفْسِهَا، فَلْيَشْتَرِ بِهِ عَسَلًا فَلْيُشْرِبْهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ شِفَاءٌ، أَيْ مِنْ وَجْهِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، وَقَالَ: ﴿إِنْ طِبَّ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ وَنْتَهُ قَسًا لَكُمْؤُهُ مِنِّيكَ﴾ [النساء: ٤]، وَقَالَ فِي الْعَسَلِ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

[٤٠٩٦] وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَدَّاشٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ زَكَرِيَا الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَنَا الزَّبِيرُ بْنُ سَعِيدِ الْهَاشِمِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَبِقَ الْعَسَلَ ثَلَاثَ عَدَوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ، لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ»^(٤). الزَّبِيرُ بْنُ سَعِيدٍ مَتْرُوكٌ.

[٤٠٩٧] وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ أَيْضاً: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَوْسَافَ بْنِ سَرْحِ الْفِرْزَابِيِّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ بَكْرِ السُّكْسَكِيِّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَثَلَةَ: سَمِعْتُ أَبَا أَبِي بِنِ أُمِّ حَرَامٍ - وَكَانَ قَدْ صَلَّى الْقَبْلَتَيْنِ - يَقُولُ: سَمِعْتُ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٤٦/٤ وأبو يعلى ١٧٦٥ وفي إسناده عبد الله بن الوليد لين الحديث كما في «التقريب» لكن يشهد له ما قبله. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩٠/٥ - ٩١ وقال: ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الله بن الوليد بن قيس، وهو ثقة اهـ.

(٢) أخرجه الطبراني ٤٣٠/١٩ وصححه ابن كثير رحمه الله ويتأيد بما قبله.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٢ والحاكم ٢٠٠/٤ - ٤٠٣ والخطيب ٣٨٥/١١ وابن عدي ٢١٠/٣، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وفي إسناده زيد بن الحباب صدوق روى له مسلم لكن قال ابن معين: أحاديثه عن الثوري مقلوبة. وقال أحمد: صدوق كثير الخطأ. والحديث صحيح إسناده البوصيري في «الزوائد» وأما ابن عدي فقد صوب الوقف وجعل الرفع من أوام زيد بن الحباب. وكذا ذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث وقال: رواه جماعة عن الثوري موقوفاً على ابن مسعود، وكرهه ابن عدي ٣١٨/٣ وقال: وهذا يعرف عن الثوري مرفوعاً من رواية زيد بن الحباب، وأما عن وكيع عن الثوري فهو موقوف، ورواه ابن أبي شيبة ١٢/٦١/٢ موقوفاً. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٥٨١ مرفوعاً، وقال: رفعه زيد بن الحباب، والصحيح موقوف على ابن مسعود. وكذا أخرجه الطبري ٢١١٧٥٤ عن وكيع عن الثوري به موقوفاً، ووكيع أثبت من زيد بن الحباب في الثوري، والله أعلم.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٠ وابن عدي ٣٢٠/٥. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢١٥/٣ من حديث أبي هريرة. قال البوصيري في «الزوائد» في إسناده لين، ومع ذلك فهو منقطع. قال البخاري: لا نعرف لعبد الحميد - بن سالم - سماعاً من أبي هريرة اهـ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال العقيلي: وليس لهذا الحديث أصل عن ثقة، وأعله ابن كثير بالزبير فقط، وأنه متروك.

رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسُّنَا والسُّنُوت؛ فإنَّ فيهما شفاءً من كُلِّ داءٍ إلا السَّامَ». قيل: يا رسول الله، وما السَّامُ؟ قال: «الموت»^(١). قال عمرو: قال ابنُ أبي عبيدة: السُّنُوتُ: الشَّيْبُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي في رِزْقِ السَّمْنِ، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسُّنُوتِ لا أَلْسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يَتَقَرَّدَا

كذا رواه ابنُ ماجه، وقولُه: لا أَلْسَ فِيهِمْ، أي: لا خَلَطَ. وقوله: يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يَتَقَرَّدَا، أي: يُضْطَهَدُ وَيُظَلَمُ. كذا قاله شيخنا الجَزَيُّ. وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في إلهام الله لهذه الدوابِّ الضَّعِيفَةِ الخَلْقَةَ إلى السُّلُوكِ في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جَمْعُها للشمع والعسل، وهو من أَطْيَبِ الأَشْيَاءِ ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدِّرها ومُسَخَّرِها ومُيَسِّرِها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادرُ، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَكِّرُكُمْ مِمَّنْ يَبْذُلُ إِلَيْكَ أَرْزُلَ الْعُمْرِ لِيَكِيَ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تَصَرُّفه في عبادته، وأنه هو الذي أنشأهم من العَدَمِ، ثم بعد ذلك يَتَوَفَّقُهُمْ، ومنهم من يَبْذُرُهُ حتى يُبْذِرَهُ الهَرَمَ - وهو الضعف في الخَلْقَةِ - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد رُوِيَ عن علي - رضي الله عنه - في أرذل العمر قال: خُمُسٌ وسبعون سنة. وفي هذا السنُّ يحصل له ضعفُ القُوَى والخَرْفُ وسوءُ الحِفْظِ وقلةُ العلم. ولهذا قال: ﴿لِيَكِيَ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يَبْذُرِي شَيْئًا مِنَ الفَنَدِ والخَرْفِ.

[٤٠٩٨] ولهذا رَوَى البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدَّثَنَا موسى بن إسماعيل، حَدَّثَنَا هَارُونَ بن موسى أبو عبد الله الأعمور، عن شعيب، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البُخْلِ والكَسَلِ والهَرَمِ، وأرْذَلِ العُمُرِ، وَعَدَابِ القَبْرِ، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»^(٢). ورواه مسلم، من حديث هارون الأعمور، به. وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ عَامًا - لا أَبَا لِكَ - يَسْأَمُ
رَأَيْتُ المَنَائِبَا خَبِطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ ثَمَنَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كَفَرَ بِرَبِّهِ فَرِحَ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ

فِيهِ سَوَاءٌ أَفِينِعَمَةَ اللَّهِ يَحْمَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يُبَيِّنُ تعالى للمشركين جَهْلَهُمْ وكُفْرَهُمْ فيما يزعمون لله من الشركاء، وهم يَفْرَحُونَ أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٧ بطوله وقال البوصيري في «الزوائد» عمرو بن بكر السكسكي قال فيه ابن حبان: روى عن إبراهيم بن أبي عبيدة الأوابد والطامات لا يحل الاحتجاج به. لكن قال الحاكم: إنه إسناد صحيح اه. وتعبه الذهبي بقوله: عمرو ابنته ابن حبان. وقال ابن عدي عنده مناكير اه وذكره الألباني في «الصحيحة» ١٧٩٨ وقواه بشواهد واهية، فالله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٧ ومسلم ١٧٠٦ ح ٥٢.

منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تُساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ مَّا قَاوَنْتُمْ كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٢٨] . . . الآية. قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا يُشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله: ﴿أَفَإِنَّمَا لِلَّهِ بِحَسْبِ الْعِزَّةِ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟! وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثلٌ للآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شازك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟! فإن لم ترض لنفسيك هذا، فالله أحق أن ينزهه منك. وقوله: ﴿أَفَإِنَّمَا لِلَّهِ بِحَسْبِ الْعِزَّةِ﴾، أي: إنهم جعلوا الله ما ذراً من الحرث والأنعام نصيباً، فبجحدوا بنعمة الله، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن أفضل بعض عباده على بعض في الرزق، بل يتلي به كلاً، فيتلي من بسط له، كيف شكره فيه؟ وشكر الله أداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وحوله؟. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفَيَا بَلِّغِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾

يذكر تعالى نعمة على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وزيجهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اختلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور. ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾: هم الولد وولد الولد. وقال سئيد: حدثنا حجاج، عن أبي بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بتوك حين يُحفدونك ويؤفدونك، ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدُ الْوَالِدِ حَوْلُهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بَأُكْفِهِنَّ أَرْوَاجُ الْأَجْمَالِ

وقال مجاهد: ﴿بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدّام. وقال طاووس: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدّمك من ولدك وولد ولدك. وقال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾، يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا أي يعمل لنا. قال: وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل. وهذا القول الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضحى، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والقرظي. ورواه عكرمة عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفد، وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفد، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدّام، فالنعمة حاصلّة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾. قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد

أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، أو الأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، أو البنات، أو أولاد الزوجة، كما قاله الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته.

[٤٠٩٩] وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَضْرَةَ بن أَكْثَمَ: «وَالْوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ»^(١). رواه أبو داود. وأما من جعل الحفدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا»، أي: وجعل لكم خُدَّامًا. وقال تعالى: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ»، الرزق من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرأ على من أشرك في عبادة المنعم غيره: «أَفَيَأْتِلِ يُؤْمِنُونَ»، وهم: الأصنام والأندَادُ، «وَيَنْتَسِبُ اللَّهُ لَهُمْ بِكَفْرُونٍ»، أي: يَسْتُرُونَ نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

[٤١٠٠] وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمْتَنَّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَزُوجِكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمِكَ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبِيعٌ؟»^(٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عَبدُوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان «مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا»، أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس إليهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ»، أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباباً وأمثالاً، «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»، أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟! ولما كان الفرق ما بينهما بيناً واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كلُّ عبي، قال الله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». ثم قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا شر، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا «كَلٌّ»، أي: عيال وكلفة على

(١) أخرجه أبو داود ٢١٣١ وله قصة، وهو حديث حسن.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند الآية: ٤٦.

مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ﴾، أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ﴾، أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وبهذا قال السدي، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم. وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلب بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبدته. وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ثَلَاثِينَ أَحَدُهُمَا أَبُوكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: والابكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَٰكُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلِمَةٍ الْبَصِيرِ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥]، أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ما هنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَٰكُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَجِدْوً﴾ [القمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى مثته على عباده، في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسبون المراتب، والأفتدة - وهي العقول - التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره، وقوي عقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٤١٠١] «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بأفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»^(١). فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله

(١) تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، آية: ٩٨.

عَزَّ وَجَلَّ، فلا يَسْمَعُ إلا الله، ولا يُبْصِرُ إلا الله، أي: ما سَرَّعه الله له. ولا يَنْطِشُ ولا يَمْشِي إلا في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، مُسْتَعِيناً بالله في ذلك كُلِّهِ. ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: «وَرَجَلَهُ التي يَمْشِي بها»: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَنْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، ولهذا قال تعالى: «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، كما قال في الآية الأخرى: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٣٤﴾» [الملك: ٢٣، ٢٤]. ثم نَسَبه تعالى عباده إلى النُّظَرِ إلى الطير المسخَّرِ بين السماء والأرض، كيف جَعَلَهُ يطيرُ بجناحيه بين السماء والأرض، في جَوِّ السماء ما يُمِيسِكُهُ هناك إلا الله بِقُدْرَتِهِ تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخَّرَ الهواءَ يحولُها وَيَسِّرُ الطيرَ لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْمَهُ مَتَّعَتْنِي وَبَقِيضَتْنِي مَّا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٥١﴾» [الملك: ١٩]. وقال ها هنا: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى خِيبٍ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْعَمِيْنُ ﴿٨٣﴾ يَرْفُقُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُكْفِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعيمه على عباده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سَكَنٌ لهم، يأوون إليها ويستقرونها بها، ويستنعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً «مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا»، أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: «تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا»، أي: الغنم، «وَأَوْبَارِهَا»، أي: الإبل. «وَأَشْعَارِهَا»، أي: الممغز - والضمير عائد على الأنعام - «أثْنَا»، أي: تتخذون منه اثناً، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب. والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ منه الأثاث والبسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة. وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والضحاك، وقناة. وقوله: «إِلَى خِيبٍ»، أي: إلى أجل مُسمى ووقتٍ معلوم.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا»، قال قتادة: يعني الشجر. «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا»، أي: حصوناً ومعاقل، كما «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، «وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ»، كالدرع من الحديد المصفح والرزد وغير ذلك، «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من «تَشْكُرُونَ» أي: من الإسلام. وقال قتادة: في قوله تعالى: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عبد الله بن المبارك وعبيد بن العوام، عن حنظلة السدوسي، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه كان يقرأها «تسلمون» - بفتح اللام - يعني من الجراح. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قَدْرِ معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ

أَكْتَنَّا ، وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال! ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أَسْرَأْتُمْ وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَثْنًا إِنْ جِئْتُمْ﴾ ، وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وَبَرٍ وشَعْرٍ. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنزِّلُ مِنْ سَمَاءٍ مِزَابًا مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ [النور: ٤٣]، يُعْجِبُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يَعْرِفُونَهُ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْخَرَّ﴾ ، وما يقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حَرٍّ. وقوله: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ ، أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ، وقد أدبته إليهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ، أي: يَعْرِفُونَ أن الله تعالى هو المُسْتَدِي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، وَيُسْنِدُونَ الرزق والنصر إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ ، كما قال ابن أبي حاتم:

[٤١٠٢] حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد: أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ؛ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ سَكَنًا﴾ ، قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْفُسِ يَوْمًا تُنْزَخُونَ عَلَيْهَا يَوْمَ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، فولى الأعرابي، فانزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ (١).

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰذِبُونَ﴾ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْطَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجبته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٥) وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ قَمْعًا وَلَا سَهْلاً﴾ (٨٦) ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٦) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ﴾ ، أي: لا يُفْتَر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ، أي: ولا يُؤخَّر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب.

[٤١٠٣] فإنه إذا جيء بجهنم نقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة فلا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكُلْتُ بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس (١)، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتتلفطهم من الموقف كما يتلفط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ (٨٦) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا خَفِيًّا مَقْرَبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (٨٧) لَا دَعْوَا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (٨٨) [الفرقان:

(١) إسناده ضعيف، فهو مرسل، ومع إرساله فيه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فيه كلام.

(٢) متفق عليه، وسيأتي في الجاثية.

١٢- ١٤، وقال تعالى: ﴿وَرَبَّاءُ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ دُجْرِهِمْ أَلَّنَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَبْشِرُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩- ٤٠].

ثم أخبر تعالى على تَبْزِي أَلْهِيهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا رَمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾، أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالِقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: قالت لهم الآلهة: كَذَبْتُمْ، نحن ما أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَلَ يَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ وَإِنَّا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّا يُكُونُوا لَكُمْ عِزًّا ﴿٩١﴾﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٩٢﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَكُم مَعْشَرٌ بِمَعْشَرٍ تَأْتِيهِمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ أَصْحَابٍ ﴿٩٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَذَرَوْهُم مَّا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ... الآية [القصاص: ٦٤]. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ النَّسْرَ﴾، قال قتادة، وعكرمة: ذَلُّوا وَاسْتَسَلَّمُوا يَوْمَئِذٍ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع. كما قال تعالى: ﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَا تَوَنَّا﴾ [مریم: ٢٨]، أي: ما استمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِبُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِذْنَا نَعْمًا صَلَاحًا لَنَا مَوْفِقُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَسَى أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ النَّسْرَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، فلا ناصر لهم ولا مُجِير.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَعَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ النَّاسَ عَن اتِّبَاعِ الْحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، أي: يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَن اتِّبَاعِهِ، وَيَبْعُدُونَ هُمُ مِنْهُ أَيْضًا ﴿وَلَا يَكُونُ إِلَّا لَأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. وهذا دليل على تفاوت الكفار في عَذَابِهِمْ، كما يتفاوت المؤمنون في مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال. وحدثنا سُريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، قال: هي خمسة أنهار تحت العرش يُعَذَّبُونَ بِبَعْضِهَا بِاللَّيْلِ وَبِبَعْضِهَا بِالنَّهَارِ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، يعني أمته، أي: اذكر ذلك اليوم وهو له وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع.

[٤١٠٤] وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك!» قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

وقوله تعالى: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، قال ابن مسعود: وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم. و﴿هَدَى﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعي: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: بالسنة. ووجه اقتران قوله: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، أن المراد - والله أعلم - أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١] ﴿[الأعراف: ٦]، ﴿قَوْلِكَ لَسَعَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٢] ﴿عَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣] ﴿[الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا لَا عِلْمَ لَنَا بِأَنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْفُيُوبَ﴾ [٤] ﴿[المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَيْسَ فَرَضٌ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْتَ لِمَنِ مَعَاذٌ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيذك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجِهٌ حَسَنٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾
يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمَوَازَنَةُ، وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَن عَاقِبَتُهُمْ فَمَا فِيهَا بَدِلٌ مَّا عُقُوبَتُهُ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْمَسْكِينِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وَقَالَ: ﴿وَيَحْرُغُوا سِنِينَ سِنِينَ يَنْظُرُونَ فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَاغْرُوبًا عَلَّ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا، مِنْ شَرِيعَةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، قَالَ: شَهَادَةٌ أَنَّ لَهَ إِلَّا اللَّهَ. وَقَالَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْعَدْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ اسْتَوَاءُ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مِنْ كُلِّ عَامِلٍ لِلَّهِ عَمَلًا. وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ عِلَانِيَتِهِ. وَالْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ عِلَانِيَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ سَرِيرَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أَيْ: يَأْمُرُ بِصَلَاةِ الْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا تَدَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالْأَسْفَلَىٰ وَلَا يُؤْذِرُ بَيْدًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، فَالْفَوَاحِشُ: الْمَحْرُمَاتُ. وَالْمُنْكَرَاتُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ الْعُدَاؤُا عَلَى النَّاسِ.

[٤١٠٥] وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يُعْجَلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخُرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾، أَيْ: يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ،

(١) وتقدم تخريج الحديث فيها.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة: ٣١. وهو حسن.

وينهاكم عن الذي ينهاكم عنه من الشرِّ، ﴿لَمَلَكْكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾. قال الشعبي، عن شُتَيْرِ بْنِ شَكْلٍ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾... الآية. رواه ابن جرير. وقال سعيدٌ: عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾... الآية،: ليس من خُلِقَ حَسَنًا كَانَ أَهْلًا الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَهُ إِلَّا أَمْرَ اللَّهِ بِهِ. وليس من خُلِقَ سَيِّئًا كَانُوا يَتَعَايَرُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَقَدَّمَ فِيهِ. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومدامها.

[٤١٠٦] قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحبُّ معالي الأخلاق، ويكرهُ سفاسفها»^(١).

[٤١٠٧] وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب «معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المُنْكَدِرِيُّ، حدثنا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِيُّ، عن علي بن عبد الملك بن عمير، عن أبيه قال: بلغ أكَثَمَ بْنَ صَيْبِيٍّ مُخْرَجَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدْعُوهُ وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرُنَا، لَمْ تَكُنْ لِتُخْفَ إِلَيْهِ! قَالَ: فَلْيَأْتِيَهُ مِنْ يُبْلِغُهُ عَنِّي وَيُبْلِغُنِي عَنْهُ. فانتدب رجلاً فأتى النبي ﷺ فقال: نحن رسلُ أكَثَمَ بْنِ صَيْبِيٍّ، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لِمَلَكْكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾، قالوا: اردد علينا هذا القول. فردده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكَثَمَ فقالا: أبا أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكياً النَّسَبِ، وأسطاً في مضر، وقد رمى إلينا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا. فلما سمعهُنَّ أكَثَمُ قَالَ: إِنِّي قَدْ أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ مَلَأَمِهَا، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذنباً^(٢).

[٤١٠٨] وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديثٌ حَسَنٌ، رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شَهْرٌ، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسولُ الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مرَّ به عثمانُ بن مظعون، فكشَرَ إلى رسولِ الله ﷺ فقال له رسولُ الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسولُ الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَّصَ رسولُ الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، وأخذ يَضَعُ بصره حتى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينَتِهِ فِي الْأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رسولُ الله ﷺ عن جليسه عثمانُ إلى حيث وَضَعَ بصره. فأخذ يُنْفِضُ رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابنُ مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يُقَالُ لَهُ، شَخَّصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَّصَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ حَتَّى تَوَارَى فِي السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَانَ بِجِلْسَتِهِ الْأُولَى، فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعلُ كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتني فعلتُ؟» قال: رأيتك شَخَّصَ بَصْرَكَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي، فَأَخَذْتَ تُنْفِضُ رَأْسَكَ كَأَنَّكَ تَسْتَفِقُهُ شَيْئًا يُقَالُ لَكَ. قال: وَقَطِنْتَ لِذَلِكَ؟ قال عثمان: نعم. قال رسولُ الله ﷺ: «أنا نبي رسولِ الله ﷻ وأنا أفأ وأنت جالس». قال: رسولُ الله ﷻ؟! قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لِمَلَكْكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾. قال عثمان: فذلك حين استقرَّ الإيمانُ في قَلْبِي، وَأَحْبَبْتُ

(١) حسن. أخرجه الطبراني ٥٩٢٨ والحاكم ٤٨/١ وأبو نعيم في «الحلية» ٢٥٥/٣ والسلفي في «معجم السلف» ١٧٤/١ من حديث سهل بن سعد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن وله شواهد.

(٢) إسناده ضعيف، عبد الملك بن عمير تابعي، فهو مرسل. وفي الحسن بن داود وعمر بن علي كلام.

محمداً^(١). إسناده جيد متصل حسن. وقد بُيِّنَ فيه السماع المُتَّصِلُ. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

[٤١٠٩] حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيُّ في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيم، عن ليث، عن شهر بن حَوْشِب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنتُ عند رسول الله ﷺ جالساً، إذ شَخَّصَ بَصْرَهُ فقال: «أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ أَلْمَلِكُ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَبَيْنَ عَنِ النَّحْشَاءِ وَالسُّكْرِ وَالْبَغْيِ يُعْطَلِكُمْ لَمَلَكُم تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)». وهذا إسناده لا بأس به، ولعله عند شهر بن حَوْشِب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِمَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا تَتَخَدَّرُونَ ۗ أَيْتَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْقَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٤)

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَفْضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذه وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهُ عِزْمَةً لِّإِيْتَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ آيَاتِنَا لَكُمْ إِذًا حَلَفْتُمْ وَأَحْضَرُوا آيَاتِنَا لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: لا تركوها بلا تكفير. وبين قوله ﷺ، فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال:

[٤١١٠] «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتحللتها». وفي رواية: «وكفرت عن يميني»^(٥). - لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ها هنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَفْضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على جنث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَفْضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، يعني الجلف، أي: جلف الجاهلية؛

[٤١١١] ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا - هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا جلف في الإسلام، وأيما جلف كان في الجاهلية لم يزهه الإسلام إلا شدة»^(٦). وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبة، به. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الجلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

(١) أخرجه أحمد ٣١٨/١ والطبراني ٨٣٢٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ وقال: وشهر وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر وبقي رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ٢١٨/٤ وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ - ٤٩ وفي إسناده شهر بن حوشب صدوق كثير الأوهام والإرسال، ويدلس. ولم يصرح هنا بالتحديث. وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢٤ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣٣.

[٤١١٢] وأما ما وَرَدَ في الصَّحِيحِينَ، عن عاصم الأَخُولِ، عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال: حالف رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دُونِنا^(١) - فمعناه أنه آخى بينهم، فكانوا يتوازَّتون به حتى تُسَيِّخَ ذلك، والله أعلم. وقال ابنُ جرير: حدثني محمد بنُ عُمارة الأَسَدِي، حدثنا عُبَيْدُ اللهِ بن موسى، أخبرنا أبو لَيْلَى، عن بُرَيْدَةَ في قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايَعَ النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذه البيعةُ التي بايَعْتُمْ على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: البيعة، لا يحملنكم قِلَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابه وكثرةُ المشركين أن تنقضوا التي بايَعْتُمْ على الإسلام^(٢).

[٤١١٣] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر بن جُوَيْرِيَةَ، عن نافع قال: لما خَلَعَ النَّاسُ يزيدَ بن معاوية، جَمَعَ ابْنُ عمر بنِيةٍ وأهله ثم تشهَّد، ثم قال: أما بعدُ فإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بيعةِ الله ورسولِهِ وإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلانٍ». وإن من أعظمِ الغَدْرِ - إلا أن يكونَ الإِشْرَاكُ بالله - أن يَبَايَعَ رَجُلًا على بَيْعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ، ثم ينكث بيعته، فلا يخلَعَنَّ أَحَدٌ منكم يزيدَ ولا يُسْرِفَنَّ أَحَدٌ منكم في هذا الأمر، فيكونَ صَيْلَمُ بيني وبينه^(٣). المرفوعُ منه في الصَّحِيحِينَ.

[٤١١٤] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا يزيدُ، حدثنا حَجَّاج، عن عبد الرحمن بن عابِس، عن أبيه، عن حَدِيثِهِ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ شَرَطَ لِأَخِيهِ شَرْطًا، لا يُرِيدُ أن يَفِيَّ له به، فَهُوَ كَالْمُدْلِيِّ جَاوَهَرَ إِلَى غَيْرِ مَنَعَةٍ»^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَقْعَلُونَ﴾، تهديدٌ ووعيدٌ لمن نَقَضَ الأَيْمَانَ بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَقَتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ - قال عبد الله بن كثير، والسُّدِّي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بعدَ إِبْرَامِهِ. وقال مجاهدٌ، وقتادة، وابنُ زيد: هذا مثلٌ لمن نَقَضَ عَهْدَهُ بعد توكيده. وهذا القولُ أَرَجَحُ وأظهرٌ وسواءٌ كان بمكة امرأة تنقض غَزَلُهَا أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَاثًا﴾، يَحْتَمِلُ أن يكونَ اسْمٌ مُضَدَّرٌ، نَقَضَتْ غَزَلُهَا أَنْكَاثًا، أي: أنقاصًا. ويحتمل أن يكونَ بدلًا عن خبر كان، أي: لا تكونوا أَنْكَاثًا، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿لَتَنخِذَنَّكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرًا، ﴿أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدرُ بهم غَدَرْتُمْ. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغَدْرِ والحَالَةُ هذه فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْهَى عَنْهُ مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

[٤١١٥] وقد قدمنا - والله الحمد - في «سورة الأنفال قصة معاوية لما كانَ بينه وبين ملك الروم أَمَدًا،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٩٤ و ٧٣٤٠ ومسلم ٢٥٢٩ وأبو داود ٢٩٢٦ وأحمد ١٤٥/٣ و ٢٨١ وأبو يعلى ٣٣٥٦ من حديث أنس.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢١٨٧١ وإسناده ضعيف لضعف أبي ليل، ولم يدرك بريدة..

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤٨/٢ و ٥٠٦٩ وإسناده على شرطهما. وتقدم في سورة الأنعام، آية ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٠٤/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٦٧/٤ وقال: وفيه الحجاج بن أوطاة، وهو مدلس ثقة، وبقية رجال رجال الصحيح اهـ. قلت: هو مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف.

فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهو غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبَسَةَ: الله أكبر يا معاوية، وفاة لا غدراً! سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يُحلنَّ عُقْدَةَ حتى ينقضي أمدها». فَرَجَعَ معاوية - رضي الله عنه - بالجيش^(١). قال ابنُ عَبَّاسٍ: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ»، أي: أكثر. وقال مجاهدٌ: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجذون أكثرَ منهم وأعزُّ، فينقضون حلفَ هؤلاء ويُحالفون أولئك الذين هم أكثرُ وأعزُّ. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك، وقتادة، وابنُ زيدٍ نحوه. وقوله: «إِنَّمَا يَلُوكُكُمُ اللَّهُ بِهِنَّ»، قال سعيد بن جبیر: «إِنَّمَا يَلُوكُكُمُ اللَّهُ بِهِنَّ»، يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد. «وَلَيَبِينَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، فيجازي كل عامل بعمله، من خيرٍ وشرِّ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴿٩٣﴾ أَهْلًا النَّاسِ ﴿٩٤﴾ أُمَّةً وَاحِدَةً»، كما قال تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا» [يونس: ٩٩]، أي: لوفق بينكم، ولما جعل اختلافاً ولا تباعض ولا شحنا «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿٩٣﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» [هود: ١١٨ - ١١٩]، وهكذا قال ها هنا: «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، ثم يسألكم يومَ القيامةِ عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على القليل والتبوير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعةً ومكرًا، لئلا تزولَ قَدَمٌ بعد ثبوتها، مثل لمن كان على استقامةٍ فحاذ عنها وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحائثة المشتتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ثم قال تعالى: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا»، أي: لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عَرَضَ الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، لو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خيرٌ لمن آمن به ورجاه وطلبه، وحفظَ عهدَ الله رجاء موعوده. ولهذا قال: «إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ»، أي: يفرغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مُقَدَّرٌ مُتَّنَاهٍ «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ»، أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع له ولا نفاذ؛ فإنه دائم لا يحول ولا يزول، «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قَسَمَ من الربِّ - جلَّ شأنه - مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يُجزى بأحسن عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه فسرها بالقتاعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، وهب بن مَثَب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانسراح بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤١١٦] حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرجيل بن أبي شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقَّعه الله بما آتاه»^(١). ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به.

[٤١١٧] [٤١١٧] وروى الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجبلي، عن فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»^(٢). وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

[٤١١٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيقطع بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»^(٣). انفرد بإخراجه مسلم، والله أعلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُمْ لَمَّا سَلَطْنَا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سَلَطْنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرٌ ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطاً في أول التفسير، والله الحمد والمثني. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لثلاث تلتبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمتعه من التدبر والتفكير. ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل القراءة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠٥٤ والترمذي ٢٣٤٨ وابن ماجه ٤١٣٨ وأحد ١٦٨/٢ و١٧٢ وابن حبان ٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٤٩ وأحد ١٩/٦ وصححه ابن حبان ٧٠٥ وكذا الحاكم ٣٤/١ - ٣٥ ووافقه الذهبي وهو كما قالوا.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٠٨ وأحد ١٢٣/٣ و٢٨٣ وابن حبان ٣٧٧.

التلاوة، واحتجاجاً بهذه الآية. ونقل التَوَوُّيُّ في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخعي. والصحيح الأول، لما تقدّم من الأحاديث الدالة على تقدّمها على التلاوة، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٠١)، قال الثَّورِيُّ: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٠٢). ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكَ﴾، قال مجاهد: يُطيعونه. وقال آخرون: اتخذه ولياً من دون الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، أي: أشركوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْفِقُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢)

يُخْبِرُ تعالى عن ضعف عَقُولِ المشركين وقلة ثبَاتِهِمْ وإيقانِهِمْ، وأنه لا يُتصوَّرُ منهم الإيمان وقد كُتِبَ عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، أي: كَذَّاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾، أي: رَفَعْنَاهَا وَأَثَبْنَا غَيْرَهَا. وقال قتادة، هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فقال تعالى مُجِيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾، أي: جبريل، ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فَيُصَدِّقُوا بِمَا نَزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا وَتُخَبِّتَ لَهُ قُلُوبَهُمْ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٢)

يقولُ تعالى مُخْبِراً عن المشركين ما كانوا يَقُولُونَهُ مِنَ الكَذِبِ والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشراً، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يتبعهم عند الصفا، وَرُبَّمَا كان رسولُ الله ﷺ يجلسُ إليه وَيُكَلِّمُهُ بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان ولا يعرف بالعربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يَرُدُّ جَوَابَ الخُطاب فيما لا بد منه، فلماذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، يعني القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته، وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كُلِّ كتاب نَزَلَ على نبي أرسِلَ، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل.

[٤١١٩] قال محمد بنُ إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسولُ الله ﷺ، فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند العروة إلى مَبِيعَةَ غلام نصراني يُقال له: جَبْرٌ، عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعَلِّمُ محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ

إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِيْتُ ﴿١٠٤﴾ ﴿١﴾ . وكذا قال عبد الله بن كثير . وعن عكرمة وقتادة : كان اسمه يعيش .

[٤١٢٠] وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن مسلم بن [كيسان أبو] (٢) عبد الله الملائي ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة ، وكان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يزون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِيْتُ ﴿١٠٤﴾﴾ (٣) . وقال الضحاک بن مزاحم : هو سلمان الفارسي . وهذا القول ضعيف ، لأن هذه الآية مكية ، وسلمان إنما أسلم بالمدينة .

[٤١٢١] وقال عبد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمرُّ عليهما ، فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما . فأنزل الله تعالى هذه الآية (٤) . وقال الزهري ، عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجلٌ كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام ، وافتري هذه المقالة ، قبحه الله ! .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رُسُلَه في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة . ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتري ولا كذاب ؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شراؤ الخلق ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس . والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، مغروراً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ .

[٤١٢٢] ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : أفكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال : لا . فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ، عز وجل (٥) .

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(١) هذا معضل ، لكن لعله يتأيد بالمراسيل الآتية ، وكذا أثر ابن عباس الآتي .

(٢) سقط من المطبوع والطبري والاستدراك من كتب التراجم .

(٣) أخرجه الطبري ٢١٩٣٣ وإسناده ضعيف لضعف مسلم بن كيسان الملائي .

(٤) أخرجه الطبري ٢١٩٤٠ . وهذا معضل .

(٥) أخرجه البخاري ٧ من حديث سفيان بن حرب ، وقد تقدم .

وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٥٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٥٩﴾

أخبر تعالى عَمَّنْ كَفَرَ به بعد الإيمان والتبصُّر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لعلَّهم بالإيمان ثم عدلهم عنه، وأنَّ لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استَحَبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقَدَمُوا على ما أقدموا عليه من الرِّدَّة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قُلُوبَهُم وَوَيْبَتَهُم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً يَنْفَعُهُمْ، وَخَتَمَ على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا اغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يَزَادُ بِهِمْ. ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا بد ولا عَجَب أن من هذه صِفَتُهُ، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، فهو استثناءٌ مَنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَأْفَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهُاً، لما ناله من ضَرْبٍ وَأَذَى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئنٌ بالإيمان بالله ورسوله.

وقد رَوَى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، حينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حتَّى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مُسْتَكْرِهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقَتَادَةُ.

[٤١٢٣] وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَذَّبُوهُ حتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنّاً بِالْإِيمَانِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّهُ»^(١).

[٤١٢٤] ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلَهُمْ بِخَيْرٍ، وأنه قال: يا رسول الله، ما تَرَكْتُ حتَّى سَبَّيْتُكَ وَذَكَرْتُ آلَهُمْ بِخَيْرٍ! قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنّاً بِالْإِيمَانِ. فَقَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّهُ»^(٢). وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾. ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُؤَالِيَ الْمُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ إِبْقَاءً لِمَهْجَتِهِ، ويجوز له أَنْ يَسْتَقْبِلَ كَمَا كَانَ بِلَالٍ - رضي الله عنه - يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حتَّى إِنَّهُمْ لِيَضْعَعُونَ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَزَنِ وَيَأْمُرُونَهُ أَنْ يَشْرِكَ بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ. ويقول: والله لو أعلمُ كَلِمَةً هِيَ أَغِيظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حَبِيبُ بْنُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ لما قال له مُسَيْلِمَةُ الْكُذَّابِ: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول أتشهد أنِّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعُه إزْباً إزْباً وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ.

[٤١٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن علياً - رضي الله عنه - حَرَّقَ نَاساً ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ: لِمَ أَكُنْ لِأَحْرَقَهُمُ بِالنَّارِ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) أخرجه الطبري ٢١٩٤٦ عن ابن عبد الأعلى به. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٥٠٩ والحاكم ٣٥٧/٢ والبيهقي ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر به. وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، مع أن مداره على محمد بن عمار بن ياسر، وهو مقبول ولم يرو له الشيخان، لكن أصل الخبر محفوظ فقد أخرجه الطبري ٢١٩٤٤ عن قتادة مرسلأ بنحوه، وكرره ٢١٩٤٧ عن أبي مالك مرسلأ أيضاً فهذه المراسيل تتقوى بمجموعها، وهذا الخبر مشهور في كتب السير، والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي ٢٠٨/٨ وانظر ما قبله.

«لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ». وكنتم قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بَدَّل دينه فاقتلوه». فبلغ ذلك علياً فقال: وَيَحَ ابن أم عباس^(١). رواه البخاري.

[٤١٢٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي بزة قال: قَدِمَ على أبي موسى معاذُ بن جَبَلٍ باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد، ونحن نريده على الإسلام مُنذُ - قال: أحسبه - شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تُضربوا عنقه. فَضْرِبْتِ عنقه، فقال: قَضَى اللهُ ورسوله أن من رَجَعَ عن دينه فاقتلوه. أو قال: «من بَدَّل دينه فاقتلوه»^(٢). وهذه القصة في الصحيحين بلفظٍ آخَرَ. والأفضل والأولى أن يَثْبُتَ المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن خُذَافَةَ السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى مَلِكِهِمْ، فقال له: تَنْصُرُ وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! قال فأمر به فَضْلِبَ، وأمر الرماة فَرَموه قريبا من يديه وَرِجْلَيْهِ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فَأَنْزِلَ، ثم أمر بقدر - وفي رواية: ببقرة من نحاس - فَأَحْمِيَتْ، وجاء بأسير من المسلمين فآلقاه وهو ينظر، فإذا هو عظامٌ تلوخ. وَعَرَضَ عليه فأبى، فأمر به أن يُلْقَى فيها، فرفع في البكرة لِيُلْقَى، فبكى، فَطَمَعَ فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي واحدة، تلتقى في هذا القدر الساعة في الله، فأحييت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تُعَذَّبُ هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سَجَنَهُ وَمَنَعَ عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يَقْرَبْهُ، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فَاقْبَلْ رَأْسِي وأنا أَطْلِقُكَ. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فَاقْبَلْ رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رَجَعَ قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : حَقَّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن خُذَافَةَ، وأنا أبدأ. فقام فقبَّل رأسه، رضي الله عنهما.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا مِنْ جِهَادُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مُسْتَضْعَفِينَ بمكة، مُهَانِينَ في قومهم، قد وَاتَوْهُم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهلهم وأقوالهم ابتغاءً رضوان الله وَغُفْرَانِهِ، وانتظموا في سِلْكِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاهَدُوا معهم الكافرين، وصبروا. فأخبر الله أنه مِنْ بَعْدِهَا، أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رَجِيمٌ بهم يوم معادهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ﴾، أي: تحاجُ ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾، ليس أحدٌ يحاجُ عنها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠١٧ و ٦٩٢٢ وأبو داود ٤٣٥١ والترمذي ١٤٥٨ والنسائي ١٠٤/٧ وابن ماجه ٢٥٣٥ وأحمد ٢١٧/١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ وابن حبان ٤٤٧٦ و ٥٦٠٦.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٣١/٥ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البخاري ٦٩٢٣ ومسلم ١٧٣٣ ح ١٥ وأحمد ١٤٠/٤ عن أبي بردة مطولاً.

لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿وَوَدَّ كَلُّ تَقِيرٍ مَا عَجِلْتَ﴾، أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾، أي: لا يُنْقَضُ من ثواب الخير ولا يُزَادُ على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُنخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْهُدَىٰ مَكَكَ تَنْخَطِفَ مِنْ أَنْصَابِنَا أَوْلَمَ تَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُبْجِجُ إِلَيْهِ شُرَكَائِكَ كُلِّ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾، أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَنًا بِآخَرَ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ كُفْرًا كَبِيرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَارُهَا ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، ولهذا بدلهم الله بحاليم الأولين خلافاً، فقال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجسى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعضوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم يسيع كسيع يوسف، فأصابهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز، وهو: وَيَزُ الْبَعِيرُ، يُجْعَلُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَوْفِ﴾، وذلك أنهم بدّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ. وذلك بسبب صنعهم وبغيتهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلِ الْبَاتِلِينَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ إِتْكَرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ فَأَذَقُوا بَعْدَ الْأَمْنِ، وجاعوا بعد الرغد، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وقادتهم وسادتهم وأئمتهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفي، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البزقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه، أنه سمع بشرح بن هاعان يقول: سمعتُ سليم بن عثر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان - رضي الله عنه - محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قُيِّلَ. فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية التي قال الله: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة، عمّن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى أمراً عبادة المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، ويشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. ثم ذكر تعالى ما حُرِّمَ عليهم مما فيه مَضْرَةٌ لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدَّم، ولحم الخنزير. ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، أي: ذُبِحَ على غير اسم الله. ومع هذا ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: احتاج في غير بُغْيٍ ولا عدوان، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد تقدَّم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته، والله الحمد والمثني.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلُوا وحرَّموا بمجرد ما وضعوه واصطَلَحوه عليه من الأسماء بأرائهم، من البَجيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شُرْعاً لهم ابتدعوه في جاهليَّتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. ويدخل في هذا كلُّ مُبتدِعٍ ابتدع بدعةً ليس له فيها مستند شرعي، أو حَلَّلَ شيئاً مما حرم الله، أو حرَّم شيئاً مما أباح الله؛ بمجرد رأيه وتَشْبِيهه. ﴿وَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أي: ولا تَقُولُوا الْكَذِبَ لوصف ألسنتكم. ثم تَوَعَّدَ على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿تَمِيمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١١٤﴾﴾ [الغمان: ٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِتَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيْبِ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

لما ذَكَرَ تعالى أنه إنما حَرَّمَ علينا الميتة والدَّم ولحم الخنزير، وما أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وأنه أَرخَصَ فيه عند الضرورة - وفي ذلك تَوْسِعةٌ لهذه الأمة، التي يُرِيدُ اللهُ بها اليسر ولا يريد بها العسر - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حُرْمَهُ على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأصار والأغلال والخرَج والتَضْييق، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ﴾، يعني في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرِ وَرَيْبِ الْبَقَرِ وَالنَّسْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَوْهَمًا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِنَبِيِّهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١١٤﴾﴾، ولهذا قال ما هنا: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: فيما ضَيَّقْنَا عليهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: فاستحققوا ذلك، كما قال: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَبِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١٦٠]. ثم أخبر تعالى تكزماً وامتناناً في حق العصاة المذنبين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيْبِ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عَصَى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أقبلوا عما كانوا فيه من

المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلية والزلة ﴿لَتَفُورًا رَجِيمًا﴾.

﴿إِنَّ إِزْهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٥) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِزْهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليته إبراهيم، إمام الحنفاء والذ الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِزْهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فاما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قضداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم. وقال الأعمش، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين: أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نسال إذا لم نسالك؟ فكان ابن مسعود رقي له، فقال: أخبرني عن الأمة، فقال: الذي يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً. فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِزْهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ فقال: تدرى ما الأمة؟ وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ يعلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله. وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حوزة ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾، أي: أمة وحده، والقانت المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفاؤ. وقال قتادة: كان إمام هدي، والقانت: المطيع لله. وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾، أي: قائماً يشكر نعم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِزْهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٧) أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله تعالى: ﴿أَجْبَنَهُ﴾، أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِزْهِيمَ رُشْدًا مِنْ قَبْلٍ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١). ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه من إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّمَا فِي الآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: لسان صديق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِزْهِيمَ حَنِيفًا﴾، أي: ومن كماله وعظمتهم وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِزْهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال: في الأنعام، ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِزْهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرأ على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤)

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه

الأمة يومَ الجُمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه وتَمَّت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شَرَعَ ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فَعَدَلُوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليوم الذي لم يخلُق فيه الرب شيئاً من المخلوقات التي كمل خَلْقُها يوم الجمعة. فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، وَوَصَّاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمرهم بإيادهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذهم موافقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتَرَكُوا الجُمعة. ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حَوَّلَهُم إلى يوم الأحد، ويقال إنه: لم يَزَلْ على شريعة التوراة إلا ما نُسخ من بعض أحكامها وإنه لم يَزَلْ محافظاً على السبت حتى رُفِع، وإن النصرارى بعده في زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفةً لليهود، وتحوَّلوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

[٤١٢٧] وقد ثبت في الصَّحِيحَيْنِ، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فَرَضَ اللهُ عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتَّاسُّ لَنَا فِيهِ تَبِعَ، الْيَهُودُ غَدًا، والنصارى بعد غدٍ»^(١). لفظ البخاري.

[٤١٢٨] وعن أبي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثُهُ رضي الله عنه قالاً: قال رسولُ الله ﷺ: «أضَلَّ اللهُ عن الجُمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يومُ السبت، وكان للنصارى يومُ الأحد، فجاء الله بنا فهدانا اللهُ ليومَ الجُمعة، فَجَعَلَ الجُمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يومَ القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يومَ القيامة، المقضي بينهم قبل الخلاق»^(٢). رواه مسلم، والله أعلم.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١٦)

يقولُ تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعُو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة. ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذَكِّرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون حين بَعَثَهُمَا إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: قد عَلِمَ الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وَفَرَّغَ منه، فادعهم إلى الله، ولا تَدْعَبْ نفسك على من ضَلَّ منهم حَسْرَاتٍ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ، إنما أنت نذيرٌ، عليك البلاغُ، وعلينا الحسابُ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و ﴿إِنْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(١٧) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

(١) تقدم في سورة البقرة آية: ٢١٣ وسيأتي في تفسير سورة الجمعة.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٥٦ وسيأتي.

إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبِيحٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
 تُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يأمرُ تعالى بالعدل في الاقتصاد والمائلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَابِقُوا بِمِثْلِ مَا غَوَّسْتُمْ بِهِ﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجالٌ ذُوو مَنَعَةٍ، فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نُسِخ ذلك بالجهاد.

[٤١٢٩] وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد، حيث قُتِلَ حَمْرَةُ - رضي الله عنه - ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظَهَرْنَا عليهم لَنُثَمِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ». فلما سَمِعَ المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظَهَرْنَا عليهم لَنُثَمِّلَنَّ بهم مثله لم يُثَمِّلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَحَدٍ قَطُّ. فانزل الله: ﴿وَإِنَّ عَابِقُوا بِمِثْلِ مَا غَوَّسْتُمْ بِهِ﴾... إلى آخر السورة^(١). وهذا مُرْسَلٌ، وفيه رجلٌ مبهم لم يُسَمَّ، وقد رُوِيَ هذا من وَجْهِ آخَرَ متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

[٤١٣٠] حدثنا الحسين بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المرزبي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به فقال: رحمة الله عليك، إن كنت - ما علمت - لوصولاً للرحم، فقولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرتني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لا مثمنٌ بسبعين كمثلك. فنزل جبريل - عليه السلام - على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿وَإِنَّ عَابِقُوا بِمِثْلِ مَا غَوَّسْتُمْ بِهِ﴾... إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه - وأمسك عن ذلك^(٢). وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً - هو ابن بشير المرزبي - ضعيفٌ عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبي وابن جرير: نزلت في قول المسلمين يوم أُحُدٍ فيمن مثل بهم: لَنُثَمِّلَنَّ بهم، فانزل الله فيهم ذلك.

[٤١٣١] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هديئة بن عبد الوهاب المزوزي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أُحُدٍ قُتِلَ من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يومٌ مثل هذا من المشركين لَنُزَيِّنَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يعرف: لا قرش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سَمَاهُمْ - فانزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَابِقُوا بِمِثْلِ مَا غَوَّسْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صَبْرَكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾. فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا

(١) هو مرسل، وانظر الآثار الآتية. ودلائل النبوة للبيهقي ٢٨٦/٣ - ٢٨٨.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ١٧٩٥ وقال: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠١٠٤: فيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف أم.

نعاقب^(١). وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئًا سَيِّئًا لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَسَا وَأَسْلَحَ فَأْجُرُهُ عَلَىٰ الْوَلَّىٰ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قَبَاسٌ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهَوُ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما يُنال بمشيئة الله وإعاقبته، وحوله وقوته. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿وَلَا تَأْكُ فِي صَبِيحٍ﴾، أي: غمٌ ﴿بِمَا يَمْكُرُونَ﴾، أي: مما يجهدون في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [١٧٨]، أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِيكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْعُ وَرَأَيْتَ﴾ [طه: ٤٦]. وقول النبي ﷺ للصدیق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبَيِّنُونَ فِيهِ وَمَا يَسْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] ومعنى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾، أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفينهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا أبو أحمد الزبير بن سفيان، حدثنا مسعر، عن أبي عوف، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان - رضي الله عنه - من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.



آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد أجمعه والمنة،
وبه المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٩ وأحمد ١٣٥/٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢٨٩/٣ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب، وإسناده حسن، ويتأيد بشواهد.



وهي مكية

[٤١٣٢] قال الإمام الحافظ المُنْتَقِنُ أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ عبدَ الرحمن بن يزيد، سمعت ابنَ مسعود - رضي الله عنه - قال في بني إسرائيل، والكهف، ومزيم: إنهنَّ من العتاقِ الأول، وهنَّ من تِلَادِي^(١).

[٤١٣٣] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا حماد بن زيد، عن مَرْوَانَ أَبِي لُبَابَةَ، سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: كان رسولُ الله ﷺ يَصُومُ حتى نقول: ما يريد أن يُفِطِرَ، وَيُفِطِرُ حتى نقول: ما يُريد أن يصومَ، وكان يقرأ كلَّ ليلة: «بني إسرائيل» و«الزُّمَر»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

يُتَمَجَّدُ تعالى نفسه، ويُعَظَّمُ شأنه، لقدرتَه على ما لا يُقَدِرُ عليه أحدٌ سواه، فلا إلهَ غيره، ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾، أي: في جُنتِ الليل، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وهو مسجد مكة، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾، وهو بيت المقدس الذي بإبِلَيْيَاءَ، مَعْدِنُ الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولهذا جُمِعُوا له هنالك كلُّهم، فأُمِّمَهم في مَجَلَّتْهم ودارِهم، فَدَلَّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، أي: في الزروع والشمار، ﴿لِنُرِيَهُ﴾، أي: محمداً ﷺ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنَّة من الأحاديث عنه، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: السميع لأقوال عبادِه، مُؤْمِنِيهم وكافِرِيهم، مُصَدِّقِيهم ومُكَذِّبِيهم، البصيرُ بهم، فيعطي كلَّ ما يَسْتَحِقُّه في الدنيا والآخرة.

(١) موقوف صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٩٤. والعتاق: هو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وجاء في اللسان: «وهن من تِلَادِي» يعني السورة، أي من قديم ما أخذت من القرآن، شبههن بتلاد المال. وهو: المال القديم الأصلي الذي وُلد عندك.

(٢) أخرجه أحمد ٦٨/٦ و١٢٢ و الترمذي ٢٩٢٠ و ٣٤٠٥ و الحاكم ٤٣٤/٢، سكت عليه الحاكم والذهبي، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء، رواية أنس بن مالك، رضي الله عنه:

[٤١٣٤] قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله - يعني ابن أبي نمر - أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يَرَهُم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه - وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضَعُوهُ عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فسقَّ جبريل ما بين نحره إلى لَبَّتِهِ، حتى فرَغ من صدره وجوفه، فغَسَلَهُ من ماء زمزم بيده، حتى أنقَى جَوْفَهُ. ثم أتى بطَّسْت من ذهب فيه تَوْرٌ من ذهبٍ محشُوٍّ إيماناً وحكمة، فحَسَّاهُ به صدره ولغاديدته - يعني عُرُوق حلقه - ثم أطبقه. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الدنيا، ففَضَّرَبَ باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد ﷺ. قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، يَسْتَبَشِّرُ به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يُغَلِّمَهُمْ. ووجدَ في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريلُ: هذا أبوك آدم، فسلم عليه. فسلم عليه، وردَّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، فنعم الابن أنت. فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطْرِدَان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيلُ والفراثُ عُصْرُهُمَا. ثم مَضَى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤٍ وزَبَرْجَدٍ، فضرب يده فإذا هو مسكٌ أَذْقَرُ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي حَبَّأ لك ربُّكَ. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد صلَّى الله عليه وسلم. قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك. ثم عَرَّجَ به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك. كلُّ سماء فيها أنبياء قد سَمَّاهم، قد وَعَيْتْ منهم إدريسُ في الثانية، وهارونُ في الرابعة، وأخْرُ في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيمَ في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى. فقال موسى - عليه السلام -: «ربِّ لم أظنَّ أن يُرْفَعَ عليَّ أحدٌ». ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - حتى جاء سيِّدْرَةَ المُنْتَهَى، ودنا الجِبَّارُ ربَّ العزَّةِ فتدلَّى، حتى كان منه قابُ قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يُوجِي خمسين صلاةً على أمتك كلِّ يومٍ وليلة. ثم هَبَطَ به حتى بلغ موسى، فاحتسبه موسى فقال: يا محمدُ، ماذا عهد إليك ربُّكَ؟ قال: عهد إليَّ خمسين صلاةً كلِّ يومٍ وليلة. قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجعْ فليُخَفِّفْ عنك ربُّكَ وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل، كأنه يستشيرُه في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم، إن شئت. فعلا به إلى الجِبَّارِ تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب، خَفِّفْ عَنَّا، فإن أمتي لا تستطيع هذا». فَوَضَعَ عنه عشر صلوات. ثم رجع إلى موسى فاحتسبته، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتسبه موسى عند الخمس فقال: يا محمدُ، والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعفُ أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجعْ فليُخَفِّفْ عنك ربُّكَ، كُلِّ ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريلُ، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا. فقال الجبار تبارك وتعالى: يا

محمد. قال: لبيك وسعديك. قال: إنه لا يُبدل القول لدي؛ كما فرضت عليك في أم الكتاب: كلُّ حَسَنَةٍ بعشر أمثالها. فهي خمسون في أم الكتاب؛ وهي خمس عليك» فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ خَفَّفَ عنا، أعطانا بكل حَسَنَةٍ عشر أمثالها. فقال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى رَبِّكَ فَلْيَخَفِّفْ عنك أيضاً. قال رسول الله ﷺ: يا موسى، قد والله استخَيَّبت من رَبِّي عز وجل مما اختلفت إليه، قال: فاهبط باسم الله. قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام^(١). هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد، ورواه في صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وهب، عن سليمان قال: «فَزَادَ وَنَقَصَ، وَقَدَّمَ وَأَخَّرَ». وهو كما قال مسلم - رحمه الله - فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمرٍ اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يَضْبِطْهُ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في الأحاديث الأخر. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وَقَعَ بعد ذلك، والله أعلم. وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: «وفي حديث شريك زيادة تفرَّد به، على مذهب مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ﷺ رأى رَبَّهُ - عز وجل - يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» - قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة - رضي الله عنهم - في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح». وهذا الذي قاله البيهقي - رحمه الله - هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر قال:

[٤١٣٥] يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: نور، أتى أراه؟ وفي رواية: «رأيت نوراً»^(٢). أخرجه مسلم. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنهم - ولا يُعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

[٤١٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أبيض فوق الحمار ودون البغل، يَضَعُ حافره عند منتهى طَرْفِهِ، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يَرْبُطُ فيها الأنبياء - عليهم السلام - ثم دخلت فصَلَّيتُ فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، قال جبريل: أصبت الفِطْرَةَ. قال: ثم عَرَّجَ بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتَّحَ لنا، فإذا أنا بآدم؛ فرحَّبَ بي ودعا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: وقد أرسل إليه. ففتَّحَ لنا، فإذا أنا بابن الخالَةِ يحيى وعيسى - عليهما السلام - فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتَّحَ لنا، فإذا أنا بيوسف - عليه السلام - وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير. ثم عَرَّجَ بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتَّحَ الباب فإذا أنا بإدريس - عليه السلام -

(١) أخرجه البخاري ٧٥١٧، وقد تكلم العلماء في إسناد هذا الحديث والألفاظ التي تفرَّد بها شريك بن عبد الله، انظر فتح

القدر ٤٨٨/١٣ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨، وسيأتي في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

فَرَحَّبَ بي ودعا لي بخير، - ثم قال: يقول الله: ﴿وَرَفَعْنَا مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مریم: ٥٧].. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه. قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك. قال: محمد. فقيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى - عليه السلام - فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم - عليه السلام - وإذا هو مُسْتَبِدُّ إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلُّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يَعُودُونَ إليه. ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفَيْلَةِ، وإذا ثَمَرُهَا كَالْقِلَاقِ^(١)، فَلَمَّا غَشِيهَا من أمر الله ما غَشِيهَا تَغَيَّرَتْ، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فأوحى الله إليَّ ما أوحى، وفَرَضَ عَلَيَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاةً، فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فقال: ما فَرَضَ رَبُّكَ على أمتك؟ قال: قلتُ: خمسين صلاةً في كلِّ يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ؛ فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، وإنِّي قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهُمْ. قال: فرجعتُ إلى رَبِّي فقلتُ: أيُّ رَبِّ، خَفَّفْ عن أمتي. فَحَطَّ عني خمساً. فرجعتُ إلى موسى فقال: ما فعلتُ؟ قلتُ: قد حَطَّ عني خمساً. قال: إن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فلم أزل أرجعُ بين ربي وبين موسى، ويحطُّ عني خمساً خمساً حتى قال: «يا محمد، هُنَّ خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة، فإن عملها كُتِبَتْ عشراً. ومن هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يعملها لم تكتب [شيئاً]، فإن عملها كُتِبَتْ سيئة واحدة». فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتهُ، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لِأُمَّتِكَ فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد رَجَعْتُ إلى ربي حتى استحبيبتُ»^(٢). ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شريك. قال البيهقي: «وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أُسْرِي به ﷺ من مكة إلى بيت المقدس». وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مِرْيَةَ.

[٤١٣٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ أتني بالبراق ليلة أُسْرِي به مُسْرَجاً مُلْجِماً ليركبه، فاستصعبَ عليه، فقال له جبريلُ: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما رَكِبَكَ قطُّ أكرمُ على الله منه. قال: فافرضُ عرقاً^(٣). ورواه الترمذي، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: «غريبٌ لا نعرفه إلا من حديثه».

[٤١٣٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جُبَيْر، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عَرَجَ بي إلى ربي - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم

(١) القلة: جرة كبيرة تسع قريتين أو أكثر.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم ١٦٢ وأحمد ١٤٨/٣.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٣١ وأحمد ١٦٤/٣ وابن حبان ٤٦ والبيهقي في «الدلائل» ٣٦٢/٢ - ٣٦٣ وإسناده صحيح على شرطهما. كما قال الشيخ شعيب.

الناس، ويقعون في أعراضهم»^(١). وأخرجَه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم.

[٤١٣٩] وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على موسى - عليه السلام - قائماً يصلي في قبره»^(٢). ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس، رضي الله عنه. قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان، عن ثابت، عن أنس.

[٤١٤٠] وقال الحافظ أبو يعلَى الموصلي في مُسنَدِه: حدثنا وهب بن بَقِيَّة، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على موسى - عليه السلام - وهو يصلي في قبره»^(٣).

[٤١٤١] وقال أبو يعلَى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه قال: سَمِعْتُ أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على موسى - عليه السلام - وهو يصلي في قبره - قال أنس: ذَكَرَ أَنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبِرَاقِ، فَأَوْتَقَ الدَّابَّةَ أَوْ قَالَ: الْفَرَسَ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صِفْهَا لِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ كَذَّةٌ وَدَوَّةٌ»^(٤). فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - قد رآها.

[٤١٤٢] وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البَزَّازُ في مُسنَدِه: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام، فوكز بين كتفي، فقممت إلى شجرة فيها كوكزي الطير، فقمعت في أحدهما وقعدت في الآخر، فسمنت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لميسئت، فالتفت إلى جبريل - عليه السلام - كأنه جلس لاط، فعرفت فضل علمه بالله عليّ وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرق الدر والياقوت، وأوجي إلي ما شاء الله أن يوحى»^(٥). ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة. ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دحيم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحنين، عن سعيد بن منصور، فذكره بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في هذا الحديث في آخره: «ولط دوني - أو قال: دون الحجاب - زفر الدر والياقوت». ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عبيد.

[٤١٤٣] ورواه حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطار: أن النبي ﷺ كان في ملا من أصحابه، فجاءه جبريل، فتنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكزي الطير، فقمعت في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لنتها، فدلتني بسبب وهبط النور، فوق جبريل مغشياً عليه كأنه جلس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي. فأوجي

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٨ وأحمد ٣/٢٢٤ وإسناده صحيح، وانظر «الصحيحة» ٥٣٣.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٧٥ والنسائي ٣/٢١٦ وأحمد ٣/١٢٠ وابن حبان ٤٩.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٤٠٦٧ وإسناده على شرط مسلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ١٣٢٩ وفيه: «فقال رسول الله ﷺ... وذكر كلمة». وإسناده على شرط مسلم.

(٥) انظر كشف الأستار ٤٧/١.

إلي: نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأوماً إليّ جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً^(١). قلت: وهذا إن صحَّ يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يُذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم.

[٤١٤٤] وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس - رضي الله عنه -: أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل^(٢). وهذا غريب.

[٤١٤٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الزُّهري، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما جاء جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكانها أمرت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق. فوالله ما ركبت مثله. وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سيزيا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوهُ مُتَّحِيًّا عن الطريق يقول: هَلَمْ يا محمد. فقال له جبريل: سيزيا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقيه خَلْقٌ من الخَلْقِ فقالوا: السلامُ عليك يا أول، السلامُ عليك يا آخر، السلامُ عليك يا حاشر. فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فَرَدَّ السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفِطْرَةَ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك. ثم بُعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأثمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل - عليه السلام -: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وأما الذين سلّموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام^(٣). وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب. وفي بعض ألفاظه نكارة وغبابة.

[٤١٤٦] طريق أخرى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - وفيها غرابة ونكارة جداً - وهي في سنن النسائي المجتبى، ولم أرها في الكبير - قال: أخبرنا عمرو بن هشام، حدثنا مَخْلَد - هو ابن الحسين - عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل، خَطَّوْهَا عند مُنتَهَى طَرَفِهَا، فركبْتُ ومعي جبريل - عليه السلام - فسرتُ فقال: انزل فَصَلْ فَصَلِّتُ، فقال: أتدري أين صليت؟ صليتُ بطَيِّتةٍ وإليها المهاجرون. ثم قال: انزل فَصَلْ فَصَلِّتُ، فقال: أتدري أين صليت؟ صليتُ بطور سِنَاء، حيث كلم الله موسى. ثم قال: انزل فصل. فصليتُ، فقال: أتدري أين صليت؟ صليتُ ببيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام. ثم دخلتُ بيت المقدس. فَجَمَعَ لي الأنبياء عليهم السلام، فقدمني جبريل حتى أمتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى عليهما السلام. ثم صعد بي إلى السماء

(١) ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن عمير تابعي، ومع ذلك، هو مجهول.

(٢) في إسناده أبو بحر عبد الرحمن بن عثمان، ضعيف الحديث، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٢٠ والبيهقي ٣٦٢/٢ وإسناده ضعيف لجهالة يعقوب بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن هاشم، وفي ألفاظه نكارة.

الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام. ثم صعد بي فوق سبع سموات، وأتيت بيدرة المنتهى، ففتشيتني صبابة فخرزت ساجداً، فقبل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. فرجعت بذلك حتى أمر على موسى - عليه السلام - فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فرجعت فخفف عني عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربي - عز وجل - فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من الله تعالى صري، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: ارجع. فعرفت أنها من الله صري، يقول: أي حتم - فلم أرجع^(١).

[٤١٤٧] طريق أخرى، وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريلُ بدابةٍ فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريلُ - عليه السلام - عليها، ينتهي حُفها حيث ينتهي طَرْفها. فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يُقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريلُ بأصبعه فثقبه ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا في صخرة المسجد، قال جبريلُ: يا محمد، هل سألت ربك أن يُريك الحور العين؟ فقال: نعم. قال: فأنطليقُ إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جالوسٌ عن يسار الصخرة. قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علي السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقرأ فلم يذرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وحلوا فلم يموتوا. قال: وانصرفت، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا. فأخذ بيدي جبريلُ - عليه السلام - فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريلُ: يا محمد، أتدري من صلى خلفك؟ قال: قلت: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل. قال: ثم أخذ بيدي جبريلُ فصعد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بُعث؟ قال: نعم. قال: ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. قال: فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لي جبريلُ: يا محمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علي وقال: مرحباً بابني [الصالح] والنبي الصالح. قال: ثم عزج بي إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بُعث؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام. قال: ثم

(١) منكر، أخرجه النسائي ٢٢١/١ - ٢٢٢، وظاهر إسناده الصحة. عمرو بن هشام ثقة، ومحمد بن حسين ثقة روى له مسلم، وسعيد بن عبد العزيز روى له مسلم، وهو ثقة لكن اختلط بأخرة، والظاهر أنه روى هذا الحديث بعد اختلاطه، فقد تردت بالفاظ منكراً لا يتابع عليها، فمن ذلك «صلته» عليه السلام بطيبة و «طور سيناء» و «بيت لحم» وفي آخره «رجوعه عليه السلام بعد الخمس»، وهذا يعارض ما في الصحيح من أنه عليه السلام لم يرجع بعد الخمس. فالخير عامة منكر.

عَرَجَ بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. قال: ففتحو وقالوا: مرحباً بكِ وبمن معكِ. فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم عَرَجَ بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومن معكِ؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحو وقالوا: مرحباً بكِ وبمن معكِ. فإذا فيها إدريسُ عليه السلام. قال: فَعَرَجَ بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معكِ؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحو وقالوا: مرحباً بكِ وبمن معكِ. فإذا فيها هارونُ عليه السلام. قال: ثم عَرَجَ بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معكِ؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحو وقالوا: مرحباً بكِ وبمن معكِ. فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم عَرَجَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معكِ؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِثَ؟ قال: نعم. ففتحو وقالوا: مرحباً بكِ وبمن معكِ، فإذا فيها إبراهيمُ عليه السلام. فقال جبريلُ: يا محمد، ألا تُسَلِّمُ على أهلك؟ فقلتُ: بلى. فأتيتُه فسلمتُ عليه، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وقال: مرحباً بِإِنِّي الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيامُ الياقوتِ واللؤلؤِ والزبرجدِ، وعليه طيرٌ خُضِرَ، آنَعَمُ طير رأيتُ. فقلتُ: يا جبريلُ، إن هذا الطير لناعم؟ قال: يا محمدُ، آكلُه أنعم منه. ثم قال: يا محمد، أتدري أيُّ نهر هذا؟ قال: قلتُ: لا. قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك اللهُ إياه. فإذا فيه آتية الذهب والفضة، يجري على رَضْرَاضٍ من الياقوتِ والزُّمُرِدِ، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن. قال: فأخذتُ منه آتية من ذهب، فاغترفتُ من ذلك الماء فشربتُ، فإذا هو أحلى من العسل، وأشدُّ رائحةً من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرة، فَعَشِيَّتِنِي سحابةٌ فيها من كلِّ لون، فَرَقَصَنِي جبريلُ، وخرزتُ ساجداً لله عزَّ وجلَّ، فقال اللهُ لي: يا محمد، إني يوم خلقتُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فرضتُ عليك وعلى أُمَّتِكَ خمسين صلاةً، ففُؤمَ بها أنت وأُمَّتُكَ. قال: ثم انجلتُ عَنِّي السحابةُ وأخذَ بيدي جبريلُ فانصرفتُ سريعاً، فأتيتُ على إبراهيم فلم يُقَلِّ لي شيئاً، ثم أتيتُ على موسى فقال: ما صنعتَ يا محمدُ؟ فقلتُ: فَرَضَ رَبِّي عَلَيَّ وعلى أُمَّتِي خمسين صلاةً. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أُمَّتُكَ، فارجعْ إلى ربك فاسأله أن يُخَفِّفَ عنك، فرجعتُ سريعاً حتى انتهيتُ إلى الشجرة، فَعَشِيَّتِنِي السحابةُ، وَرَقَصَنِي جبريلُ - عليه السلام -، وخررتُ ساجداً، وقلتُ: رَبِّ، إِنَّكَ فرضتَ عَلَيَّ وعلى أُمَّتِي خمسين صلاةً، ولن أستطيعها أنا ولا أُمَّتِي، فَخَفَّفَ عَنَّا. قال: وقد وضعتُ عنكم عشرين. قال: ثم انجلتُ عَنِّي السحابةُ، وأخذَ بيدي جبريلُ - عليه السلام - فانصرفتُ سريعاً حتى أتيتُ على إبراهيم فلم يقل شيئاً. ثم أتيتُ على موسى - عليه السلام - فقال لي: ما صنعتَ يا محمدُ؟ فقلتُ: وَضَعَ رَبِّي - عزَّ وجلَّ - عَنِّي عشرين. فقال: فأربعون صلاةً، لن تستطيعها أنت ولا أُمَّتُكَ، فارجعْ إلى ربك فاسأله أن يخففَ عنك. فذكر الحديث كذلك إلى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَخَمْسِينَ بِخَمْسِينَ، ثم أمره موسى - عليه السلام - أن يرجعَ فيسألَ التخفيفَ، فقلتُ: إني قد استحييتُ منه تعالى. قال: ثم انحدر، فقال رسولُ اللهِ ﷺ لجبريلُ: مالي لم آتِ أَهْلَ سماءِ إِلا رَحَّبُوا بي وضجُّوا إليَّ، غير رجل واحد، فسلمتُ عليه فردَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بي ولم يضحك إليَّ. قال: يا محمدُ، ذاك مالكُ خازنُ جَهَنَّمَ، لم يضحك منذ خُلِقَ، ولو ضحكك إلى أحدٍ لَضَحِكَ إليك. قال: ثم ركبَ منصرفاً، فبينما هو في بعض طريقه مرَّ بعبيرٍ لِقْرِيشٍ تحمل طعاماً، فيها جملٌ عليه غِرَارَتَانِ: غِرَارَةٌ سوداءُ، وَغِرَارَةٌ بيضاءُ، فلما حاذى بالعبير

فَنُفِّرَتْ مِنْهُ وَاسْتَدَارَتْ، وَضُرِعَ ذَلِكَ الْبَعِيرُ وَانكسر. ثم إنه مَضَى فَأَصْبَحَ، فَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ قَوْلَهُ أَتَوْا أَبَا بَكْرٍ - رضي الله عنه -: فقالوا: يا أبا بكر، هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مَبِيرَةَ شَهْرٍ، ثم رَجَعَ فِي لَيْلَتِهِ. فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: إن كان قاله فقد صدق، وإنا لَنُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، نُصَدِّقُهُ عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: مَرَرْتُ بِعَيْرٍ لَقْرَيْشٍ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَفَرَّتِ الْعَيْرُ مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ، وَفِيهَا بَعِيرٌ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ: غِرَارَةٌ سَوْدَاءُ، وَغِرَارَةٌ بَيْضَاءُ، فَضُرِعَ فَانكسر. فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حَدَّثْتَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقُ، رضي الله عنه. وسألوه فقالوا: هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى؟ قال: نعم. قالوا: فَصِفْهُمْ. قال: نعم، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزد عمان، وأما عيسى فَرَجُلٌ رُبْعَةٌ، سَبَطٌ، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ، كأنه يتحادر من شعره الجُمَانُ^(١). هذا سياق فيه غرائبٌ عجيبةٌ.

[٤١٤٨] رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يَحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَّ بِهِ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ - وَرَبِمَا قَالَ قَتَادَةُ: فِي الْحِجْرِ - مَضْطَجِعاً، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: الْاَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ: فَاتَانِي فَقَدْتُ - وَسَمِعْتُ قَتَادَةَ يَقُولُ: فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - وَقَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِغْرَتِهِ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: مِنْ قَصْتِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، قَالَ: فَأُتِيْتُ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيْمَانًا وَحِكْمَةً، فَغَسَلْتُ قَلْبِي ثُمَّ حُشِي، ثُمَّ أُعِيدَ. ثُمَّ أُتِيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ - قَالَ: فَقَالَ الْجَارُودُ: وَهُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِيهِ - قَالَ: فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَفُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَزَدَ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَفُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، فَقَالَ: هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا. قَالَ: فَسَلَّمْتُ فَرَدًّا إِلَى السَّلَامِ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالْاِخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّلَاثَةَ فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، وَلنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. قَالَ: فَفُتِّحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ، قَالَ:

(١) ضعيف، في إسناده خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الدمشقي، جاء في «الميزان»: وهما ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء، وقال النسائي: غير ثقة، وقال الدارقطني: ضعيف أهد باختصار، فالإسناد ضعيف والمتن في بعض ألفاظه نكارة وغرابة، ولبعضه الآخر شواهد.

فسلمتُ عليه، فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الرابعة، فَاسْتَفْتَحَ فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُزِيلُ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريسُ - عليه السلام - قال: هذا إدريس، فَسَلَّمْتُ عليه قال: فَسَلَّمْتُ عليه. فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الخامسة فَاسْتَفْتَحَ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُزِيلُ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فَسَلَّمْتُ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه فَردَّ عَلَيَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء السادسة فَاسْتَفْتَحَ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُزِيلُ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المَجيءُ جاء، فَفُتِّحَ، فلما خَلَصْتُ فإذا أنا بموسى - عليه السلام - قال: هذا موسى فَسَلَّمْتُ عليه فَردَّ عَلَيَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. قال: فلما تجاوزتُ بكى. قيل له: ما يَبْكِيكَ؟ قال: أبكى لأن غلاماً بُعِثَ بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، قال: ثُمَّ صَعِدَ حتى أتى السماء السابعة فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: أوقد أُزِيلُ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المَجيءُ جاء. قال: فَفُتِّحَ فلما خَلَصْتُ فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم - عليه السلام - فَسَلَّمْتُ عليه. قال: فَسَلَّمْتُ عليه فَردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. قال: ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى، وإذا نَبَقُها مثل قِلَاقِ هَجْر، وإذا وَرَقُها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرَةُ المنتهى. قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. قال: ثم رُفِعَ إلى البيت المعمور.

[٤١٤٩] قال قتادة: وحدثنا الحسنُ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه رأى البيت المعمورَ يدخله كلُّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، ثم لا يعودون فيه. ثم رَجَعَ إلى حديث أنس قال: ثم أُبَيِّتُ بِإِناءٍ من خَمْرِ وإِناءٍ من لَبَنٍ وإِناءٍ من عَسَلٍ، قال: فأخذتُ اللَّبَنَ، قال: هذه الفِطْرَةُ، أنت عليها وأمّتك. قال: ثم فَرِضْتُ الصَّلَاةَ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قال: فَتَنَزَّلْتُ حتى أتيتُ موسى - عليه السلام - قال: ما فرضَ ربُّك على أمّتك؟ فقلت: خمسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قال: إن أمّتك لا تستطيعُ خمسِينَ صَلَاةً، وإني قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ عن أمّتك. قال: فَرَجَعْتُ فَوَضَعْتُ عَنِي عَشْرًا قال: فرجعتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بِمِ أُمِرْتَ؟ قلت: بأربعين صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قال: إن أمّتك لا تستطيعُ أربعين صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وإني قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمّتك. قال: فرجعتُ فَوَضَعْتُ عَنِي عَشْرًا أُخَرَ. فرجعتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بِمِ أُمِرْتَ؟ فقلت: أُمِرْتُ بِثَلَاثِينَ صَلَاةً. قال: إن أمّتك لا تستطيعُ ثلاثين صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وإني خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ لأمّتك. قال: فرجعتُ فَوَضَعْتُ عَنِي عَشْرًا أُخَرَ، فرجعتُ إلى موسى فقال: بِمِ أُمِرْتَ؟ قلت: بعشرين صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. فقال: إن أمّتك لا تستطيعُ لعشرين صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وإني قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعالجتُ بني

إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: بم أيزرت؟ فقلت: أيزرت بعشر صلوات كل يوم قال: [إن] أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأيزرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى - عليه السلام - فقال: بم أيزرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك. قال: قلت: قد سألت ربي حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم، فنقدت، فنادى مناد: قد أمضيت فريضتي، وحققت عن عبادي^(١). وأخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة، بنحوه.

[٤١٥٠] رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان أبو ذر يُحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فَرَجَ سَقْفَ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَتَزَلُ جَبْرِيلُ فَمَرَّجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَمَرَّجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ جَبْرِيلُ لِحَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ. قَالَ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا فَتَحَ عَلُونَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى. فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ لِجَبْرِيلَ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى. ثُمَّ عَرَّجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِحَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ حَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ، قَالَ أَنَسُ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يُثَبِّتْ كَيْفَ مَنَازِلِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ أَنَسُ: فَلَمَّا مَرَّ جَبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ. ثُمَّ مَرَزْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ الزَّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عَرَّجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمَسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَزْتُ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَجَعْتُ فَوَضَعُ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعُ شَطْرَهَا. فَقَالَ: رَاجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَارْجَعْتُ فَوَضَعُ شَطْرَهَا. فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. فَارْجَعْتُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيْ. فَرَجَعْتُ إِلَى

(١) أخرجه البخاري ٣٢٠٧ و٣٣٩٣ ومسلم ١٦٤ وأحمد ٢٠٨/٤ - ٢٠٩ وابن حبان ٢٨. واللفظ لأحمد. ولفظ الحسن عن أبي هريرة لم يروه البخاري ومسلم، وهو ضعيف لانقطاعه.

موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فَعَشِيهَا الْوَأْنَ لَا أُدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّوْلُو، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»^(١). هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق آخر، عن يونس، به. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، عن حرملة، عن ابن وهب، عن يونس، به نحوه.

[٤١٥١] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته نوراً أتى أراه»^(٢). هكذا وقع في رواية الإمام أحمد.

[٤١٥٢] وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق: عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أتى أراه^(٣).

[٤١٥٣] وعن محمد بن بشر، عن معاوية بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألته فقال: رأيت نوراً^(٤).

[٤١٥٤] رواية أنس، عن أبي بن كعب الأنصاري - رضي الله عنه -: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المسيبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب - رضي الله عنه - يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فَرَجَ سَفْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بَطْنُتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلِيَةٌ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ. فَلَمَّا جَاءَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَانْتَحَقَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَانْتَحَقَ. فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى - فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ. قَالَ: قُلْتُ لَجَبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ هُمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ هُمُ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى. قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِي جَبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِحَازِنِهَا: افْتَحْ. فَقَالَ لَهَا حَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ حَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ لَهُ، قَالَ أَنْسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ: آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يُثَبِّتْ لِي كَيْفَ مَنَازِلَهُمْ؟ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قَالَ أَنْسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قَالَ قُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ. قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ و ٣٣٤٢ ومسلم ١٦٣

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٤٧/٥ وإسناده على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ وأحمد ١٧١/٥.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ ح ٢٩٢.

قال: هذا عيسى ابن مريم. قال: ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبِيِّ الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم.

قال ابن شهاب: وأخبرني ابنُ حزم أنَّ ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاريَّ كانا يقولان: قال رسولُ الله ﷺ: ثم عَرَجَ بي حتى ظهرْتُ لمستوى أسمعُ صَريفَ الأقدام. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسولُ الله ﷺ: فَرَضَ اللهُ على أمتي خمسينَ صلاةً، قال: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حتى أَمُرُ على موسى - عليه السلام - فقال موسى: ماذا فَرَضَ رَبُّكَ على أمتك؟ قلت: فَرَضَ عليهم خمسينَ صلاةً. فقال لي موسى: راجع رَّبُّكَ؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك. قال: فَرَجَعْتُ رَبِّي. فوضع شطرها، فَرَجَعْتُ إلى موسى فأخبرته فقال: رَاجِعْ رَبُّكَ؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك، فَرَجَعْتُ رَبِّي فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدَلُ القولُ لدي. قال: فَرَجَعْتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال: رَاجِعْ ربك. فقلت: قد استحييتُ من ربي. قال: ثم انطَلَقَ بي حتى أتى سِدْرَةَ المنتهى، قال: فَتَشَيْبَهَا الوانُ لا أذري ما هي؟ قال: ثم أَدْخَلْتُ الجنةَ فإذا فيها جَنَابِدُ اللؤلؤِ، وإذا ترائبها المِسْكُ^(١). هكذا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذر - رضي الله عنه - مثل هذا السياق سواءً، فالله أعلم.

[٤١٥٥] رواية بُرَيْدَةَ بن الحَصِيبِ الأَسلمي: قال الحافظ أبو بكر البَرَزاري: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم - واللفظُ له - قالوا: حدثنا أبو ثَمَيْلَةَ، حدثنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما كانَ ليلَةُ أُسْرِي بي قال: فَأَتَى جبريلُ الصخرةَ التي ببيت المقدس، قال: فوضع إصبعه فيها فخرقها، فَشَدَّ بها البراق»^(٢). ثم قال البَرَزاري: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو ثَمَيْلَةَ، ولا نَعْلَمُ هذا الحديث يُرَوَى إلا عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعِهِ، عن يعقوب بن إبراهيم الدُّورقي، به، وقال: غريبٌ.

[٤١٥٦] رواية جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يُحدث: أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: لما كَذَبْتَنِي قريشٌ حين أُسْرِي بي إلى بَيْتِ المَقْدِسِ، قَمَتُ في الجِجْرِ فَجَلَى اللهُ لي بيت المقدس، فطَفَقْتُ أخْبِرُهُم عن آياتِهِ وأنا أنظرُ إليه^(٣). أخرجاه في الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، به.

[٤١٥٧] وقال البيهقي: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعتُ ابنَ المَسِيْبِ يقول: إن رسولَ الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لَقِيَ فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بِقَدَحَيْنِ: قَدَحٍ من لَبَنٍ وَقَدَحٍ خَمْرٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ قَدَحَ اللبَنِ. فقال له جبريلُ - عليه السلام -:

(١) صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد ١٤٣/٥ - ١٤٤ في «زيادات المسند» وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٥/١ - ٦٦ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٢ وصححه الحاكم ٣٦٠/٢ وابن حبان ٤٧، وقال الترمذي حسن غريب. وهو كما قال، مداره على الزبير بن جنادة، وهو مقبول كما في التقريب أي حيث يتابع. ولم يتابع على هذا اللفظ.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٨٦ و٤٧١٠ ومسلم ١٧٠ والترمذي ٣١٣٢ وأحمد ٣٧٧/٣ و٣٧٨ وابن حبان ٥٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣٥٩/٢.

هُدَيْتِ الْفَطْرَةَ لَوْ أَحَذَّتِ الْخَمْرَ لَعَوَّتْ أُمَّتُكَ . ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ ، فَأَخْبِرَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ ، فَافْتَتَنَ نَاسٌ كَثِيرٌ كَانُوا قَدْ صَلُّوا مَعَهُ . قَالَ ابْنُ شَهَابٍ : قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : فَتَجَهَّزَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا : هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِينَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَوْ قَالَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَأَشْهَدُ لَنْ كَانَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَّقَ . قَالُوا : فَتُصَدِّقُهُ بَأَن يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ ، أَصَدِّقُهُ بِخَيْرِ السَّمَاءِ . قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : فِيهَا سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ : الصَّدِيقَ . قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : فَسَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : لَمَّا كَذَّبْتَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ ، فَجَلَى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، فَطَفَقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» (١) .

[٤١٥٨] رَوَايَةُ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ زُرَّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ : أَتَيْتُ عَلِيَّ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا بَيْتَ الْمُقَدَّسِ - فَلَمْ يَدْخُلَاهُ - قَالَ : قُلْتُ : بَلْ دَخَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَلْتَبِذَ وَصَلَّى فِيهِ . قَالَ : مَا اسْمُكَ يَا أَصْلَعُ ، فَإِنِّي أَعْرِفُ وَجْهَكَ وَلَا أُدْرِي مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : أَنَا زُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ . قَالَ : فَمَا عَلِمْتُكَ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى فِيهِ لِيَلْتَبِذَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : الْقُرْآنُ يُخْبِرُنِي بِذَلِكَ . قَالَ : مَنْ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فَلَجَّ ، اقْرَأ . قَالَ : قُلْتُ : ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِمَبْدُوهُ لِئَلَّا يَرٰنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ . قَالَ : يَا أَصْلَعُ ، هَلْ تَجِدُ «صَلَّى فِيهِ» ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَلْتَبِذَ ، وَلَوْ صَلَّيْتُ فِيهِ لَكَيْتَبْتُ عَلَيْكُمْ صَلَاةً فِيهِ ، كَمَا كَيْتَبُ عَلَيْكُمْ صَلَاةً فِي الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَاللَّهُ مَا زَايَلَا الْبُرَاقَ حَتَّى فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، فَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَوَعَدَ الْآخِرَةَ أَجْمَعًا ، ثُمَّ عَادَا عَوَدَهُمَا عَلَى بَدَنِيهِمَا . قَالَ : ثُمَّ ضَحِكُ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ . قَالَ : وَيُحَدِّثُونَ أَنَّهُ رَبَطَهُ لَا يَفْرُغُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا سَخَّرَهُ لَهُ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . قُلْتُ : أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَيُّ دَابَّةِ الْبُرَاقِ ؟ قَالَ : دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ هَكَذَا ، حَطَّوْهُ مَدَّ الْبَصَرِ (٢) . وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ ، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ عَاصِمٍ ، بِهِ . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ، مِنْ حَدِيثِ عَاصِمٍ - وَهُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ - بِهِ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حُدَيْفَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَفْيٌ ، وَمَا أَتَبْتَهُ غَيْرَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَبَطِ الدَّابَّةِ بِالْحَلَقَةِ وَمِنَ الصَّلَاةِ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، مِمَّا سَبَقَ وَمَا سَيَّأَنِي مُقَدِّمٌ عَلَى قَوْلِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

[٤١٥٩] رَوَايَةُ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سَيِّانِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَائِلِ النَّبِوةِ» : أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ رَاشِدُ الْحَمَّانِيُّ ، عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبَرْنَا عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِكَ فِيهَا ، قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِمَبْدُوهُ لِئَلَّا يَرٰنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾

(١) ضعيف . أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠ وهو مرسل ، وإبراهيم هو ابن سعد عنده غرائب ، وقوله «فافتتن ناس كثير» منكر ، بل لم يفتتن أحد ، ثم لم يؤمن بالنبي ﷺ حيثئذ كثير من الناس أصلاً .

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٤٧ والنسائي في التفسير ٣٠٠ وأحمد ٥/ ٣٨٧ والحاكم ٢/ ٣٥٩ وابن حبان ٤٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٦٤ وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود .

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾، قال: فأخبرهم قال: «بينما أنا نائم عشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آت فأيقظني، فاستيقظت فلم أر شيئاً، فإذا أنا بكهينة خيال، فاتبعته بصري حتى خرجت من المسجد الحرام، فإذا أنا بداية أدنى شبهة بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب الأذنين، يقال له: البراق. وكانت الأنبياء - عليهم السلام - تركبه قلبي، يَقَعُ حافره عند مدّ بصره، فركبته. فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرنني أسالك، يا محمد، انظرنني أسالك. فلم أجه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد، انظرنني أسالك، فلم أجه ولم أقم عليه. فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرنني أسالك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها، حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تُوثقها بها. ثم أتاني جبريل - عليه السلام - بإناءين - أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك. فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيت في وجهك هذا؟ قال: فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرنني أسالك. فلم أجه ولم أقم عليه. قال: ذلك داعي اليهود، أما إنك لو أجبته - أو: وقفت عليه - لتهودت أمتك. قال: وبينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يساري قال: يا محمد، انظرنني أسالك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذلك داعي النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك. قال: فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعها، عليها من كل زينة خلقها الله تعالى تقول: يا محمد انظرنني أسالك. فلم أجبها ولم أقم عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبته أو أقمت عليها، لاخترت أمتك الدنيا على الآخرة. قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين. ثم أتيت بالمعراج الذي تُعْرَجُ عليه أرواح بني آدم، فلم يرَ الخلائق أحسنَ من المعراج، أما رأيت الميت حين يَشْقُ بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يَشْقُ بصره طامحاً إلى السماء عَجَبَهُ بالمعراج. قال: فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بِمَلَكٍ يقال له إسماعيل، وهو صاحبُ سماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألفَ مَلَكٍ، مع كل ملك جُنْدُهُ مائة ألفِ مَلَكٍ، قال: قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. قال: فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهنيته يوم خلقه الله تعالى على صورته، لم يتغير منه شيء، فإذا هو تُعْرَضُ عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين، فقلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم عليه السلام فسلم عليّ ورخب بي فقال: مرحباً بالابن الصالح. ثم مضيت هنيئة، فإذا بأخوتة عليها لحم مُشْرَحٌ ليس يقرُّها أحد، وإذا أنا بأخوتة أخرى عليها لحم قد أزوَحَ وأنتَنَ، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك، يتركون الحلال ويأتون الحرام. قال: ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كُلُّمَا نَهَضَ أحدهم حَزْوَ يقول: اللهم، لا تقيم الساعة، قال: وهم على سائبة آل فرعون، قال: فتجيء السائبة فتطؤهم، قال: فسَمِعْتُهُمْ يَصْجُجُونَ إلى الله عز وجل، قال: قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ آرِبًا لَا يَتُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِينِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. قال: ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام مشافِرهم^(١) كمشافِر الإبل، قال فتفتح أفواههم ويلقَمُونَ من ذلك الجمر، ثم يخرج من

(١) الشفر للبعير كالشفة للإنسان (أي شفاههم مثل شفاه الإبل).

أسافلهم . فسمعتهم يَضْجُون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ . فقلتُ : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ تُلْطًا بِمَا يَكْفُرُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا وَسَبُّوا زُكُورًا﴾ [النساء : ١٠] ، قال : ثم مضيتُ هُنَيْئَةً فإذا أنا بنساء يُعَلِّقْنَ بَثْدِيَهُنَّ ، فسمِعْتُهُنَّ يَضْجُجْنَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، قلتُ : يا جبريل ، من هؤلاء النساء؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك . قال : ثم مضيتُ هُنَيْئَةً فإذا أنا بأقوام يقطع من جُنُوبهم اللحم ، فيلقَمُون ، فيقال له : كُل كما كنت تأكل من لحم أخيك . قلتُ : يا جبريل ، من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازُونَ . قال : ثم صعدنا إلى السماء الثانية ، فإذا أنا بِرَجُلٍ أَحْسَنَ ما خلق الله عَزَّ وَجَلَّ ، قد فَضَّلَ الناسَ بالحسن كالقمر ليلة البَدْرِ على سائر الكواكبِ ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا أَخُوكَ يوسفٌ ومعه نفر من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْتُ عليَّ . ثم صعدتُ إلى السماء الثالثة ، فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ، ومعهما نَفَرٌ من قومهما ، فسلمتُ عليهما ، وَسَلَّمْتُ عليَّ . ثم صعدتُ إلى السماء الرابعة ، فإذا أنا بإدريس - عليه السلام - قد رفعه الله - عَزَّ وَجَلَّ - مكاناً عَلِيًّا ، فسلمتُ عليه ، وَسَلَّمْتُ عليَّ . قال : ثم صعدتُ إلى السماء الخامسة فإذا بهارون - عليه السلام - ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء ، تكاد لحيته تصيب سُرَّتَه من طولها ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا المحبَّب في قومه ، هذا هارونُ بن عمرانٍ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فسلمتُ عليه ، وَسَلَّمْتُ عليَّ . ثم صعدتُ إلى السماء السادسة ، فإذا أنا بموسى بن عمران - عليه السلام - رجلٌ آدمٌ كثيرُ الشعر ، لو كانَ عليه قميصان لَنَفَذَ شعره دون القميص ، وإذا هو يقولُ : يزعمُ الناسُ أنني أكرمُ على اللُّهِ من هذا ، بل هذا أكرمُ على الله تعالى مِنِّي . قال : قلتُ : يا جبريل ، مَنْ هذا؟ قال : هذا أخوك موسى بنُ عمرانٍ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْتُ عليَّ . ثم صعدتُ إلى السماء السابعة ، فإذا أنا بأبينا إبراهيمَ خليلِ الرِّحْمَنِ - عليه السلام - ساندًا ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال ، قلتُ : يا جبريل ، من هذا؟ قال : هذا أبوك إبراهيمَ خليلِ الرِّحْمَنِ ومعه نَفَرٌ من قومه ، فَسَلَّمْتُ عليه ، وَسَلَّمْتُ عليَّ ، وإذا أنا بأمتي شطرين ، شطرٌ عليهم ثيابٌ بيضٌ كأنها القراطيس ، وشرط عليهم ثياب رُمْدٌ ، قال : فدخلتُ البيتَ المعمور ، ودخلَ معي الذين عليهم الثياب البيض ، وحجِبَ الآخرون الذين عليهم الثياب الرُمْدُ ، وهم على خير . فَصَلَّيْتُ أنا ومن معي في البيت المعمور ، ثم خرجتُ أنا ومن معي ، قال : والبيتُ المعمورُ يُصَلِّي فيه كُلُّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ ، لا يَمُودُونَ فيه إلى يوم القيامة . قال : ثم دُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فإذا كُلُّ ورقةٍ منها تكاد أن تغطِّي هذه الأمة ، وإذا فيها عينٌ تجري يقال لها : سُلْسِيلٌ ، فينشقُّ منها نهران ، أحدهما : الكوثر ، والآخر يقال له : نهرُ الرحمة . فاغتسلتُ فيه ، فغَفِرَ لي ما تَقَدَّمَ من ذنبي وما تأخر . ثم إنني دُفِعْتُ إلى الجنة ، فاستقبلتني جارية ، فقلتُ : لمن أنتِ يا جارية؟ فقالت : لزيد بن حارثة ، وإذا أنا بأنهارٍ من ماءٍ غير آسن ، وأنهارٍ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّر طعمُهُ ، وأنهارٍ من خَمْرٍ لذة للشاربين ، وأنهارٍ من عَسَلٍ مُصَفًى ، وإذا رُمانًا كأنه الدِّلاء عِظْمًا ، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه ، فقال عندها ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد أعدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ما لا عين رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا حَظَرَ على قلب بشر . قال : ثم عُرِضَتْ عليَّ النارُ ، فإذا فيها غضبُ الله وَرَجْرُجُهُ ونَقْمَتُهُ ، لو طُرِحَ فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أُغْلِقْتُ دوني . ثم إنني دُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فَتَغَشَّاني ، فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى ، قال : ونَزَلَ على كل ورقة ملك من الملائكة ، قال : وفَرِضْتُ عليَّ خمسون صلاةً . وقال : لك بكل حسنة عشر ، إذا هَمَمْتَ بالحسنة فلم تَعْمَلْها كُتِبَتْ لك حسنةٌ ، فإذا عملتها كُتِبَتْ لك عَشْرًا . وإذا هَمَمْتَ بالسئنة فلم تَعْمَلْها لم يُكْتَبْ عليك شيءٌ ، فإن عملتها كُتِبَتْ عليك سيئةٌ واحدةٌ . ثم دُفِعْتُ إلى موسى - عليه السلام - فقال : بِمِ أَمْرِكَ رُبُّكَ؟ قلتُ : بخمسين صلاةً . قال : ارجع إلى ربك فاسأله

التخفيفَ لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تُطيقه تكفّر. فرجعت إلى ربي - عز وجل - فقلت: يا رب، خُفّف عن أمتي، فإنها أضعفُ الأمم. فوضع عني عشراً، وجعلها أربعين. فما زلتُ أختلف بين موسى وَرَبِّي - عز وجل -، كُلِّمَا أتيت عليه قال لي مثلُ مَقَالته، حتى رجعتُ إليه فقال لي: بمِ أُمِرْت؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك - عز وجل -؛ فأسأله التخفيفَ لأمتك. فرجعتُ إلى ربي فقلت: أيُّ ربِّ، خُفّف عن أمتي فإنها أضعفُ الأمم. فوضَع عني خمساً، وجعلها خمساً. فناداني مَلَكٌ عندها: تَمَمْتُ فَرِيضتي، وَخَفَّفْتُ عن عبادي، وأعطيتهم بكلِّ حسنةٍ عَشْرَ أمثالِها. ثم رَجَعْتُ إلى موسى فقال: بمِ أُمِرْت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى رَبِّكَ فأسأله التخفيفَ، فإنه لا يؤوده شيء، فأسأله التخفيفَ لأُمَّتِكَ. فقلتُ: رجعتُ إلى رَبِّي حتى استحييته. ثم أصبح بمكة يخبرهم بالعجائب: إني أتيتُ البارحة بيتَ المقدس، وعُرج بي إلى السماء، ورأيتُ كذا ورأيتُ كذا. فقال أبو جهل - يعني ابن هشام -: ألا تَعَجِبُونَ مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا، وأحدنا يضربُ مَطِيئته مُصعِدةً شهراً ومُفْقِلةً شهراً، فهذا مَسِيرَةٌ شهرين في ليلة واحدة. قال: فأخبرهم بعبيرٍ لِقُرَيْشٍ: لما كُنْتُ في مُضَعِدِي رأيتها في مكان كذا وكذا، وأنها نُفِّرَتْ، فلما رَجَعْتُ رأيتها عند العقبة. وأخبرهم بكل رجلٍ وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يُخْبِرُنَا بأشياء. فقال رجلٌ من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قُربُه من الجبل؟ فإن يَكُ محمدٌ صادقاً فسأخبركم، وإن يَكُ كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني: كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قُربُه من الجبل؟ قال: فَرُفِعَ لرسولِ الله ﷺ بيتُ المقدس من مقعده، فَنَظَرَ إليه كَنَظَرِ أَحَدِنَا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صَدَقْتَ. فَرَجَعَ إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال، أو نحو هذا من الكلام^(١). وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدي. وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، به. ورواه أيضاً من حديث محمد بن إسحاق: حدثني رُوح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عَبدَةَ، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدْرِي - رضي الله عنه - فذكره بسياق طويلٍ حَسَنٍ أُنِيقٍ، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة. ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية نُوح بن قيسِ الحُدْثَانِي وهُشَيْمٍ ومعمر، عن أبي هارون العبدي - واسمه عُمارة بن جُوَيْنٍ - وهو مُضَعَفٌ عند الأئمة. وإنما سقنا حديثه ها هنا لما في حديثه من الشواهد لغيره ولما رواه البيهقي:

[٤١٦٠] أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نُعَيْمٍ أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حَكِيمٍ قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: سفيان الثوري، لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: لا بأس به - حدثنا عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدْرِي، عنك ليلة أسري بك أنك قلت: «رأيتُ في

(١) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٢٠٢٣ و ٢٢٠٢٤ والآجري في «الشرية» ص ٤٢٦، والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٩٠ - ٣٩٦، ومداره على عمارة بن جوين أبي هارون العبدي، وهو ضعيف جداً متروك، وكما ذكر ابن كثير في بعض ألفاظ هذا الحديث غرابة ونكارة، ولبعضه الآخر شواهد، والله أعلم.

السماء...»، فحدثته بالحديث؟ فقال لي: نعم. فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في الشئرى بمعائب؟ فقال لي: ذاك حديث القصاص^(١).

[٤١٦١] رواية شداد بن أوس - رضي الله عنه: قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاک الزبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جبير بن نفير، حدثنا شداد بن أوس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتمياً، قال: فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض، أو قال: بياض، فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت علي، فرازاها بأذنها، ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل، فأنزلني فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيثرب، صليت بطيبة. فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل فنزلت، ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى - عليه السلام - . ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هداني الله تعالى، فأخذت اللبن فشربت حتى قرعت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ، على مؤذاة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدى. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزوابي، قلت: يا رسول الله، كيف وجدتها؟ قال: مثل الحمة السخينة، ثم انصرف بي، فمررنا بغير لقرش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة؟ فقد التمنتك في منامك. فقال: علمت أنني أتيت بيت المقدس الليلة؟ فقال: يا رسول الله، إنه مسيرة شهر قصيفه لي. قال: ففتح لي صراطاً كأنى أنظر إليه، لا يسألني عن شيء إلا أنابته عنه. قال أبو بكر - رضي الله عنه - أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة. قال: فقال: إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بغير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، فجمعه فلان، وإن ميسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغزراتان سوداوان. فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون، حتى كان قريب من نصف النهار، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل، الذي وصفه رسول الله ﷺ^(٢). هكذا رواه البيهقي من طريقين، عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم

(١) ذكره البيهقي ٤٠٥/٢ إثر الحديث المتقدم مستدلاً به على عدم صحة الحديث المتقدم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٣٥٥/٢ - ٣٥٦ والطبراني في «الكبير» ٧١٤٢ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧٣/١ - ٧٤ وقال: وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي اهـ. وضعفه أبو داود وعبد بن عوف الطائي، لكن للحديث شواهد.

قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكرُ من ذلك إن شاء الله ما حَضَرْنَا». ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، به. ولا شك أن هذا الحديث - أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس - مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي، ومنها ما هو مُنكَر، كالصلاة في بيت لحم، وسؤال الصديق - رضي الله عنه - عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك، والله أعلم.

[٤١٦٢] رواية عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جريز، عن قابوس، عن أبيه قال: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: لَيْلَةَ أُسْرِي بِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وَجْسًا فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ، مَا هَذَا. قَالَ: هَذَا بِلَالٌ الْمُؤَدَّنُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ: قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ، قَدْ رَأَيْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَلَقِيَهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَرَحَّبَ بِهِ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الْأَمِيِّ، قَالَ: وَهُوَ رَجُلٌ آدَمٌ طَوِيلٌ، سَبَطَ شَعْرُهُ مَعَ أُذُنَيْهِ أَوْ فَوْقَهُمَا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. قَالَ: فَمَضَى، فَلَقِيَهُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مُتَهَيَّبٌ فَرَحَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكُلَّهُمْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: وَنَظَرَ فِي النَّارِ، فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِيفَ، قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لِحُومَ النَّاسِ. وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَدًّا، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ. فَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى قَامَ يُصَلِّي، فَالْتَفَتَتْ ثُمَّ التَفَّتْ فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ. فَلَمَّا انصَرَفَ جِيءَ بِقَدْحَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ وَالْآخَرُ عَنِ الشَّمَالِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ عَسَلٌ، فَأَخَذَ اللَّبْنَ فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَالَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ الْقَدْحُ: أَصَبَّتِ الْفِطْرَةَ^(١). إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

[٤١٦٣] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حَدَّثَنِي عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: أُسْرِي بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَنَاهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِعَيْرِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ لَا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ. فَارْتَدُّوا كِفَارًا، فَضْرَبَ اللَّهُ رِقَابَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ -. وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزَيْدًا فَتَزَقَّمُوا. وَرَأَى الدِّجَالَ فِي صُورَتِهِ زُؤِيًا عَيْنَ لَيْسَ بِرُؤِيَا مَنَامٍ، وَعَيْسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدِّجَالِ، فَقَالَ: رَأَيْتَهُ فَيَلْمَانِيًا أَقْمَرُ هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ذُرِّيٌّ، كَانَ شَعْرُ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ. وَرَأَيْتَ عَيْسَى أَيْضًا، جَعَدَ الرَّأْسَ، حَدِيدَ الْبَصْرِ، مَبْطُنَ الْخَلْقِ. وَرَأَيْتَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَسْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، شَدِيدَ الْخَلْقِ. وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَزْبٍ مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ. قَالَ جَبْرِيلُ: سَلَّمَ عَلَيَّ مَالِكٌ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ^(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي زَيْدٍ ثَابِتِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنِ هَلَالٍ - وَهُوَ ابْنُ خَبَّابٍ - بِهِ، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

[٤١٦٤] طريق أخرى، وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا

(١) أخرجه أحمد ٢٥٧/١، وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠٠/٩: ورجاله رجال الصحيح غير قابوس، وقد وثق وفيه ضعف. وصحح إسناده ابن كثير، والصواب أن قابوس غير قوي. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣٧٤/١ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٨٣ وأبو يعلى ٢٧٢٠.

إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أُسري بي موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شثوة، ورأيت عيسى ابن مريم، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس. وأري مالكاُ خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] - فكان قتادة يُفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى - عليه السلام - ﴿وَحَمَلْتَهُ هُدًى لِيَتَّبِعَ إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء، ٢، والسجدة: ٢٣]، قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل^(١). رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان، وأخرجه من حديث شعبة، عن قتادة مختصراً.

[٤١٦٥] طريق أخرى، وقال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا دُبَيْس المَعْدَلُ، حدثنا عَفَّان قال: حدثنا حَمَاد بن سَلَمَةَ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: لما أُسري بي مرّت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فيزعون وأولادها، سقط مشطها من يدها، فقلت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي وربك ورب أبيك. قالت: أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب أبيك الله. قال: فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله عز وجل. قال: فأمر بنمرة من نحاس فأخميث، ثم أمر بها أن تُلقي فيها، قالت: إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قالت: تَجَمُّع عظامي وعظام ولدي في موضع. قال: ذلك لك، لما لك علينا من الحق. قال: فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: فعي يا أمّاه ولا تقاعسي، فإننا على الحق. قال: وتكلّم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام. إسناد لا بأس به^(٢)، ولم يخرجوه.

[٤١٦٦] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر ورزوخ - المَعْنَى - قالوا: حدثنا عوف عن زُرارة بن أَوْقَى، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أُسري بي فأصبحت بمكة، فظننت بأمرى وعرفت أن الناس مُكذَّبِي. ففعد معتزلاً حزينا، فمر به عدو الله أبو جهل - قبحه الله - فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم. قال: وما هو؟ قال: إنني أُسري بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: نعم. قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحدَه الحديث إن دعا قومه إليه. فقال: رأيت إن دعوت قومك إليك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. قال: فأنفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدثت قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: إنني أُسري بي الليلة، فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: نعم. قال: فمن بين مُصَفِّي، ومن بين واضح يده على رأسه مُتَعَجِّباً للكذب - زعم - قالوا: وتستطيع أن تنعت المسجد؟ - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد - قال رسول الله ﷺ: فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبتس علي بعض النعت - قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وُضِع دون دار

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٥ ح / ٢٦٧ والبيهقي في «الدلائل» ٣٨٦/٢. وأخرجه البخاري ٣٣٩٦ ومسلم ١٦٥ من حديث ابن عباس مختصراً.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله! والصواب أن إسناده ضعيف، أخرجه البيهقي ٢٨٩/٢ وعطاء بن السائب اختلط بأخوه، ثم إن عجزه موقوف من قول ابن عباس، وتقدم الكلام عليه في سورة يوسف: ٢٦.

عقيل - أو: عقال - فنعتته، وأنا أنظر إليه - قال: وكان مع هذا نعت لم أَحْفَظْهُ - يقول عوف - قال: فقال القوم: أما النعتُ فوالله لقد أصابَ فيه^(١). وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة، وهو الأعرابي، به. ورواه البيهقي من حديث الثَّضْرِ بن شمیل وهوذة، عن عوف، وهو ابن أبي جَمِيلَةَ الأعرابي، أحد الأئمة الثَّقَاتِ، به.

[٤١٦٧] رواية عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يونس بن بهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مصرف، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ فانتَهى إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إِذْ يَنْتَهِى السِّدْرَةَ مَا يَنْتَهِى﴾، قال: غَشِيَهَا فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغَفَرَ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ الْمُفْجَمَاتِ، يَعْنِي الْكِبَائِرَ^(٢). ورواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نمير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - طَرَفٌ مِنْ حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ، وَقَدْ رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ رَوَاهُ مَرَّةً مَرْسَلًا دُونَ ذَكَرَهُمَا». ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم.

[٤١٦٨] قلت: وقد روي عن ابن مسعود، - رضي الله عنه - بأبسط من هذا، وفيه غرابة؛ وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور: حدثنا مروان بن معاوية، عن قناب بن عبد الله التهمي، حدثنا أبو ظبيان الجثني قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - وَمُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَهُمَا جَالِسَانِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ لِأَبِي عُبَيْدَةَ: حَدَّثْنَا عَنْ أَبِيكَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فقال أبو عُبَيْدَةَ: لَا، بَلْ حَدَّثْنَا أَنْتَ عَنْ أَبِيكَ. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت. قال: فأنشأ أبو عُبَيْدَةَ يَحْدِثُ - يَعْنِي عَنْ أَبِيهِ - كَمَا سُئِلَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَانِي جَبْرِيلُ بِدَابَةِ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَهْوِي بِنَا كُلَّمَا صَعِدَ عَقَبَةً اسْتَوَتْ رِجْلَاهُ كَذَلِكَ مَعَ يَدِيهِ، وَإِذَا هَبَطَ اسْتَوَتْ يَدَاهُ مَعَ رِجْلَيْهِ، حَتَّى مَرَرْنَا بِرَجُلٍ طَوَالَ سَبْطِ آدَمَ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَزْدِ شُئُوَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: فَرَفَعَ صَوْتَهُ -: أَكْرَمْتُهُ وَقَضَيْتَهُ. قَالَ: فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقَالَ: مِنْ هَذَا مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا أَحْمَدُ. قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ، الَّذِي بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ. قَالَ: ثُمَّ انْدَفَعْنَا فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَنْ يَعَاتِبُ؟ قَالَ: يُعَاتِبُ رَبَّهُ فِيكَ. قُلْتُ: وَيَرَفَعُ صَوْتَهُ عَلَى رَبِّهِ؟ قَالَ: إِنْ أَلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ عَرَفَ لَهُ جِدَّتَهُ. قَالَ: ثُمَّ انْدَفَعْنَا حَتَّى مَرَرْنَا بِشَجْرَةٍ كَأَنَّ ثَمَرَهَا السَّرْحُ تَحْتَهَا شَيْخٌ وَعِيَالُهُ، قَالَ: فَقَالَ لِي جَبْرِيلُ: اعْمُدْ إِلَى أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ، فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: مَنْ هَذَا مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ أَحْمَدُ. قَالَ: فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي بَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، يَا بَنِي، إِنَّكَ لَأَقْرَبُ رَيْكُ اللَّيْلَةِ، وَإِنْ أَمَتَكَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ حَاجَتَكَ

(١) صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٢٨٥ وأحمد ٣٠٩/١ والطبراني في «الأوسط» ٢٤٦٨ والبيهقي ٢/٣٦٣. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/٦٤ - ٦٥ وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٣ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٧٢ - ٣٧٣.

أو جُلُّهَا فِي أُمَّتِكَ فافعل. قال: ثم ائْتَدَفَعْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، فنزلت فربطت الدابة بِالْحَلْقَةِ التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء - عليهم السلام - تَرْبِطُ بِهَا. ثم دخلتُ الْمَسْجِدَ فَعَرَفْتُ النَّبِيَّينَ مِنْ بَيْنِ قَائِمِ وِرَاعِعِ وَسَاجِدِ، قال: ثم أُتِيتُ بِكَأْسِينَ مِنْ عَسَلٍ وَلَبَنٍ، فأخذت اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، فَضْرَبَ جَبْرِيلُ - عليه السلام - مَثْكَبِي وقال: أصبتَ الفطرة ربِّ محمد. قال: ثم أُقيمت الصلاة فَأَمَمْتُهُمْ، ثم انصرفنا فَأَقْبَلْنَا. إسنَادٌ غَرِيبٌ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ، فيه من الْغَرَائِبِ: سؤالُ الأنبياء عنه - عليه السلام - ابتداءً، ثم سُؤَالُهُ عَنْهُمْ بَعْدَ انصرافِهِ. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أن جبريل - عليه السلام - كان يُغْلِمُهُ بِهِمْ أَوْلاً لِيَسْلَمَ عَلَيْهِمْ سَلَامَ مَعْرِفَةٍ. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء - عليهم السلام - قبل دخوله المسجد، والصحيح أنه إنما اجتمع بِهِمْ فِي السَّمَوَاتِ، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصَلَّى بِهِمْ فِيهِ، ثم رَكِبَ الْبِرَاقَ وَكَرَّ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ^(١)، والله أعلم.

[٤١٦٩] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَاذَةَ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - فقال: لا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى - عليه السلام - فقال: لا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى - عليه السلام - فقال: أَمَا وَجِئْتَهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وفيما عهد إلي رَبِّي أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ، قال: ومعِي قُضِيانٌ، فإذا رَأَيْتَ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قال: فَيَهْلِكُكَ اللَّهُ إِذَا رَأَيْتَ، حتى إن الحجر والشجر يقول: «يا مسلم، إن تحتي كافر، فتعال فاقتله»، قال: فَيَهْلِكُكُمْ اللَّهُ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطنون بلادهم، فلا يؤتون على شيء إلا أهلكوه. ولا يمزون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم، فادعوا الله عليهم، فَيَهْلِكُكُمْ وَيُمِيتُهُمْ، حتى تَجْوَى الْأَرْضُ مِنْ نَثْنِ رِيحِهِمْ - أي: تَثْنُنُ - قال: فَيُنزِلُ اللَّهُ الْمَطَرَ، فَتُجْرَفُ أَجْسَادُهُمْ حَتَّى يَقْدِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ. ففيما عهد إلي رَبِّي أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتَمِّمِ، لا يدري أهلها متى تَفْجُوهُمْ بَوْلادها لَيْلاً أَوْ نَهَاراً^(٢). وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدَارِ، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

[٤١٧٠] رواية عبد الرحمن بن قُرْط - رضي الله عنه - أخي عبد الله بن قُرْطِ الشُّمَالِيِّ: قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عروة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قُرْطِ: أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زَمْرَمَ والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلوى. فلما رَجَعَ قال: سمعت تسبيحاً في السموات العلوى مع تسبيح كثير، سَبَّحَتِ السَّمَوَاتُ الْعُلَى مِنْ ذِي الْمَهَابَةِ مُشْفِقَاتٍ مِنْ ذِي الْعُلُوِّ بِمَا عَلَا، سبحان العلوى الأعلى، سبحانه وتعالى. ونذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: «سُبْحٰنَ لَهٗ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَالْاَرْضِ»^(٣) [الإسراء: ٤٤]... الآية.

(١) فيه إرسال بين أبي عبيدة وأبيه ابن مسعود، وفيه غرابة لكن لأكثر الحديث شواهد، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨١ وأحمد ٣٧٥/١ وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناده صحيح رجاله ثقات، ومؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان في «الثقات»، وباقي رجال الإسناد ثقات. وصححه الحاكم ٤٨٨/٤ ووافقه الذهبي.

(٣) وسيأتي الحديث فيها حيث نخرجها.

[٤١٧١] رواية **عُمَرُ بن الخطاب** - رضي الله عنه - : قال الإمام **أحمد** : حدثنا **أسود بن عامر** ، حدثنا **حماد بن سلمة** ، عن **أبي سنان** ، عن **عبيد بن آدم** و**أبي مزيّم** و**أبي شعيب** : أن **عُمَرَ بن الخطاب** - رضي الله عنه ؛ كان بالجابية ، فذكر فتح بيت المقدس - قال : قال أبو سلمة : فحدثني أبو سنان ، عن **عبيد بن آدم** قال : سمعت **عُمَرَ بن الخطاب** - رضي الله عنه - يقول لكعب : أين ترى أن أصلي؟ فقال : إن أخذت عني صليت خلف الصخرة ، فكانت القدس كلها بين يديك . فقال عمر - رضي الله عنه - : ضاهيت اليهودية ، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى ، ثم جاء فبسط رداءه ، وكنت الكناسة في رداءه ، وكنت الناس^(١) . فلم يُعظّم الصخرة تعظيماً يُصلي وراءها وهي بين يديه ، كما أشار به كعب الأخبار ، وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم . ولكن من الله عليه بالإسلام فهديني إلى الحق . ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين - رضي الله عنه - : «ضاهيت اليهودية» ، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلّة اليهود ، ولكن أماط [عنها] الأذى ، وكنت عنها الكناسة بردائه .

[٤١٧٢] وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم ، عن **أبي مزيّد العنبري** قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها»^(٢) .

[٤١٧٣] رواية **أبي هريرة** - رضي الله عنه - وهي مطوّلة جداً ، وفيها غرابة : قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان» : حدثنا **علي بن سهل** ، حدثنا **أبو جعفر الرازي** ، عن **الربيع بن أنس** ، عن **أبي العالية الرياحي** ، عن **أبي هريرة** - أو غيره - شك أبو جعفر - في قول الله عزّ وجلّ : ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَمِعْنَا مِنۢ مَّعْبُودِهِ لِيَلٰكِلَا مِنۢ مِّنۡ السَّمٰوٰتِ الْاَلْفَايَا الَّذِي يَرْزُقُنَا حَوْلَهُ لَنُرِيَهُ مِنۡ اٰيٰتِنَا اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾﴾ ، قال : جاء **جبريل** - عليه السلام - إلى النبي ﷺ ومعه **ميكائيل** ، فقال **جبريل** لميكائيل : اتنتني بطست من ماء زمزم ، كيما أظهر قلبه وأشرح له صدره . قال : فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات . واختلف إليه **ميكائيل** بثلاث طسّاس من ماء زمزم ، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غل ، وملاه حلاًماً وعلماً ، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً ، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة . ثم أتاه بفرس فحمله عليه ، كل خطوة منه منتهى بصره - أو : أقصى بصره - قال : فسار وسار معه **جبريل** - عليه السلام - قال : فأتى على قوم يزعمون في يوم ويحصدون في يوم ، كلّموا حصدوا عاد كما كان ، فقال رسول الله ﷺ : يا **جبريل** ، ما هذا؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تُضاعف لهم الحسنه سبعمائه ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين . ثم أتى على قوم تُرضخ رؤوسهم بالصخر ، كلّموا رُضخت عادت كما كانت ، ولا يُفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هؤلاء يا **جبريل**؟ قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة . ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والنم ، ويأكلون الضريع والزقوم ورصف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء يا **جبريل**؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون صدقات أموالهم ، وما ظلّمهم الله شيئاً ، وما الله بظلام للعبيد . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نصيح في قدر ، ولحم آخر نية في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الشيء الخبيث ويدعون النصيح الطيب ، فقال : ما هؤلاء يا **جبريل**؟ فقال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً ، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح . قال : ثم أتى على خشبة على

(١) أخرجه أحمد ٣٨/١ ح ٢٦٣ وإسناده ضعيف لضعف أبي سنان - عيسى بن سنان - وشيخه عبيد مجهول .

(٢) صحيح . أخرجه مسلم ٩٧٢ والترمذي ١٠٥١ وأبو داود ٣٢٢٩ وأحمد ٤/١٣٥ وابن حبان ٢٣٢٠ .

الطريق، لا يمرُّ بها ثوب إلا شَقَّتْهُ، ولا شيء إلا خرقتَه، قال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُؤْتِدُونَ وَصَدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]. قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أداؤها، وهو يريد أن يخجل عليها. ثم أتى على قوم تُقرضُ ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يُقتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ فقال: هؤلاء خطباء الفتنة. ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نورٌ عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرَج، فلا يستطيع فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها. ثم أتى على وإد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريلُ، ما هذه الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب، انتني بما وعدتني فقد كثرت عُرفي، وإستبرقي وحريري وسُنْدُسي وعبقري، ولؤلؤي ومزجاني، وفُضْتي وذَهْبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومرابي، وعَسْلي ومائي ولبني وخمري، فأتني ما وعدتني. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرُسْلي وعَمِل صالحاً ولم يُشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً. ومن حَشِنِي فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله، لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين. قالت: قد رَضِيتُ. قال: ثم أتى على وإد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً مُنْتِنَةً، فقال: ما هذه الريح يا جبريلُ؟ وما هذا الصوت؟ فقال: هذا صوت جهنم، تقول: يا رب، أتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي، وسعيري وحَميمي، وضريعي وغَساقي وعذابي، وقد بُعدَ قفري واشتدَّ حرِّي، فأتني ما وَعَدْتَنِي. فقال: لك كلُّ مُشْرِكٍ ومُشْرِكَةٍ، وكافر وكافرة، وكلُّ خبيث وخبيثة. وكلُّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رَضِيتُ.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزلَ فَرَبَطَ فَرَسَه إلى صَخْرَةٍ، ثم دَخَلَ فصلى مع الملائكة، فلما قُضِيَت الصلاة قالوا: يا جبريلُ، من هذا معك؟ قال: محمدٌ ﷺ قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: ثم لقي أرواح الأنبياء - عليهم السلام - فأتوا على رَبِّهِمْ، فقال إبراهيم - عليه السلام - الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يُؤْتَمُّ بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى - عليه السلام - أتني على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي كَلَّمَنِي تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود - عليه السلام - أتني على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعَلَّمَنِي الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يُسَبِّحُن والطير، وأعطاني الحكمةَ وَفَضَلَ الخُطَابِ. ثم إن سليمان - عليه السلام - أتني على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محارِبٍ وتمائيل، وجفان كالجوابي وقُدُور راسيات، وعَلَّمَنِي مَنطِق الطير، وأتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس، والطير، وفَضَّلَنِي على كثير من عباده المؤمنين، وأتاني ملكاً عظيماً لا يَنْبَغِي لأحد من بَعْدِي، وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى - عليه السلام - أتني على رَبِّهِ - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي مثل آدم، خلَقَه من تراب ثم قال له: كن، فيكون. وعَلَّمَنِي الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهينة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً

بِإِذْنِ اللَّهِ، وَجَعَلَنِي أَمْرًا يُرَى الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَرَفَعَنِي وَطَهَّرَنِي، وَأَعَاذَنِي وَأَمِّي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْنَا سَبِيلًا. قال: ثم إن محمداً رسول الله ﷺ أتني على ربه - عز وجل - فقال: كُلُّكُمْ أُنْتِي عَلَى رَبِّي، وَأُنِّي مُثْنٌ عَلَى رَبِّي - عز وجل - فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافَّةً للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان فيه بيان لكل شيء، وجعل أمي خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ للناس، وجعل أمي أمةً وسطاً، وجعل أمي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضَّع عني وزري، ورفَّع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً. فقال إبراهيم - عليه السلام -: بهذا فضلكم محمد ﷺ. قال أبو جعفر الرازي: خاتم النبوة، فاتح بالشفاة يوم القيامة. ثم أتني بآية ثلاثة مغطاة أفواهاها، فأتي بآية منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرَّب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب. فشرَّب منه حتى روي. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمز فقيل له: اشرب. فقال: لا أريده قد رويته. فقال له جبريل - عليه السلام - أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل.

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق، لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس، على يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى وحزن، فقلت: يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم - عليه السلام - وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى من يدخله من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن. ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو بشابين فقال: يا جبريل، من هذان الشبان؟ قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام. قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: من هذا يا جبريل الذي [قد] فضل على الناس في الحسن؟ قال: هذا أخوك يوسف عليه السلام. قال: ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء! قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس - عليه السلام - رفعه الله مكاناً علياً. ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟ قال: هذا هارون المحبب في قومه - عليه السلام - وهؤلاء بنو إسرائيل. ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حيَّاه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. فإذا هو برجل جالس، فجاوزه فبكى

الرجل، فقال: يا جبريل، من هذا؟ قال: موسى - عليه السلام - قال: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عز وجل، وهذا رجل من بني آدم قد خلفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياؤه الله من أخ ومن خليفة، فنبم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فغسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريل، من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم - عليه السلام - أول من شبط على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتأبوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليه كل أحد خلا من أمتك على سبيلك. فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من غسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة منها مغطية للأمة كلها. قال: فقشيتها نور الخلاق عز وجل، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة من حب الرب تبارك وتعالى، قال: فكلّمه الله تعالى عند ذلك فقال له: سل. قال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الياح، وأعطيته ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده. وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل. فقال له الرب عز وجل: وقد اتخذت خليلاً - وهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن - وأرسلت إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك. وزعمت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلت أول النبيين خلفاً وأخزهم بعثاً وأولهم يقضى له. وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعلت فاتحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: فضلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلم وخواتيمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً. وقذف في قلوب عذوي الرعب من مسيرة شهر، وأجلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً. قال: وفرض علي خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع

النبي ﷺ إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رَجَعَ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: بأربعين. قال: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع النبي ﷺ إلى رَبِّهِ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: أُمِرْتُ بثلاثين. فقال له موسى: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى رَبِّهِ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ ارجع إلى رَبِّكَ فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى ربه، فسأله التخفيف فَوَضَعَ عنه خمساً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتُ؟ قال: بخمس. فقال: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: قد رَجَعْتُ إلى ربي حتى استحيت، فما أنا راجعٌ إليه. قيل: أما إنك كما صَبَرْتَ نفسك على خمس صلوات، فإنهن يُجْزَيْنَ عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فَرَضِي محمد ﷺ كُلَّ الرضا. قال: وكان موسى - عليه السلام - من أشدهم عليه حين مَرَّ به، وخَيَّرهم له حين رجع إليه^(١). ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عُبَيْد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي سَعْدِ المَالِينِي، عن ابن عَدِي، عن محمد بن الحسن السُّكُونِي البَالِسِي بالرملة، حدثنا علي بن سهل... فذكر مثل ما رواه ابن جرير، عنه. وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزُّبَيْرِي، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ﷺ فذكره. وقال ابن أبي حاتم: ذَكَرَ أَبُو زُرْعَةَ، حدثنا محمد بن عبد الله بن ثَمِير، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: قال الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أُنزِلَ بِهِ كِتَابُكَ لَيْلًا مِنَ السَّمَاءِ الْحَرَامِ﴾^(٢). . . فذكر الحديث بطوله كنعو مما سقناه. قلت: أبو جعفر الرازي، قال فيه الحافظ أبو زُرْعَةَ الرازي: «يهم في الحديث كثيراً». وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم. والأظهر أنه سَيِّءُ الحَفِظِ، ف فيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابةً ونكارةً شديدةً، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سُمْرَةَ بن جُنْدَب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام وقصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

[٤١٧٤] وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال النبي ﷺ حين أُسْرِيَ به: لقيت موسى - عليه السلام -

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢١/٢٢٠، والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٩٧ - ٤٠٤ من حديث أبي هريرة، وفيه عيسى بن أبي عيسى، أبو جعفر الرازي ضعفه الجمهور، وقد روى مناكير كثيرة، وقد شك في روايته، وقد تفرد في هذا الحديث بالفاظ، وهو غير حجة.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه.

قال: فَتَعَتَهُ، فإذا رجل حَسِبْتَهُ قال -: مضطرب، رَجُلُ الرَّأْسِ، كأنه من رجال شَنْوَةَ، قال: ولقيت عيسى - عليه السلام - فَتَعَتَهُ النبي ﷺ قال: رُبْعَةٌ أَحْمَرٌ، كأنما خرج من دِيْمَاسٍ - يعني حَمَامًا - قال: ورأيت إبراهيم - عليه السلام - وأنا أَشْبَهُ وَلَدِهِ به. قال: وَأَتَيْتُ بِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبِنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، قيل لي: خُذْ أَيُّهُمَا شِئْتُ. فأخذتُ اللَّبِنَ فَشَرِبْتُ، فقيل لي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أو: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أما إنك لو أخذتُ الْخَمْرَ غَوَتِ أَمْتُكَ^(١). وأخرجاه من وجه آخر، عن الزهري، به نحوه.

[٤١٧٥] وفي صحيح مسلم عن زهير بن حَرْبٍ عن حُجَّيْنِ بْنِ الْمَثْنِيِّ، عن عبد العزيز بن أبي سَلْمَةَ. عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سَلْمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسرّاي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكَرِهْتُ كَرِيحًا ما كَرِهْتُ مثله قط. فرَفَعَهُ اللهُ لي أَنْظُرُ إليه، ما سألوني عن شيء إلا وأنبأتهم به. وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى - عليه السلام - قائم يصلي، فإذا رَجُلٌ ضَرَبَ جَعْدَ كَأَنَّهُ من رجال شَنْوَةَ، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شهبأ عروءة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم - عليه السلام - قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأَمْتَمْتُهُمْ، فلما فرغتُ قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فَسَلَّمَ عليه فالتفت إليه، فبدأني بالسلام»^(٢).

[٤١٧٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسْرِيَ بي لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق فإذا رَعْدٌ وَبَرْقٌ وصواعق - قال: وأتيتُ على قَوْمٍ بطونهم كالبيوت فيها الحيات تُرَى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ الرَّبَا. فلما نزلتُ إلى السماء الدنيا نظرتُ أسفلُ مني فإذا أنا برَهَجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطينُ يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ولولا ذلك لرأوا الْعَجَائِبَ»^(٣). ورواه الإمامُ أحمدُ عن حَسَنِ وَعَفَانَ، كلاهما عن حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ. به. ورواه ابنُ ماجه من حديث حَمَادٍ، به.

رواية جماعة من الصحابة ممن تقدّم وغيرهم - رضي الله عنهم - :

[٤١٧٧] قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله - يعني الحاكم - أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمدان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد - هو إسماعيل بن موسى - الفَرَّازِيُّ، حدثنا عمر بن سعد النَّضْرِيُّ، من بني نَضْرٍ بن قَعِينٍ، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سُليمان، وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب - بعضهم يزيد في الحديث على بَعْضٍ - عن علي بن أبي طالب وعن عبد الله بن عباس - ومحمد بن إسحاق بن يسار، عن حدثه عن ابن عباس - وعن سليمان بن مسلم العَقِيلِيِّ،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٣٧ ومسلم ١٦٨ والترمذي ٣١٣٠ وأحمد ٢/٢٨٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٨٧ وابن جبان ٥١.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/٣٥٨.

(٣) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٢٢٧٣ وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، وشيخه أبو الصلت، وهو مجهول كما في التقريب، والحديث تقدم تخريجه في سورة الأعراف عند آية: ١٨٥.

عن عامر الشَّعْبِيِّ، عن عبد الله بن مسعود - وجُوَيْرٍ، عن الضَّحَّاك بن مزاحم - قالوا: كان رسولُ الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً وقد صَلَّى العشاء الآخرة^(١)، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتبتُ المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدَّرَج والملائكة وغيَر ذلك مما لا يُنكَرُ شيءٌ منها في قدرة الله إن صَحَّت الرواية. قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبَّدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رَحْمَةُ الله عليهم أجمعين.

[٤١٧٨] رواية عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البَلْدِيِّ، حدثنا محمد بن كثير الصَّنْعَانِي، حدثنا معمر بن راشد، عن الزُّهْرِي، عن عُرْوَةَ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما أُسْرِي بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يُحَدِّث النَّاسَ بِذَلِكَ، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه، وسَعَوْا بِذَلِكَ إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعمُ أنه أُسْرِي به الليلة إلى بيت المقدس. فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نَعَمْ. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدَّق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نَعَمْ، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غَدوة أو رَوْحة. فلذلك سُمِّي أبو بكر الصِّدِّيق، رضي الله عنه^(٢).

[٤١٧٩] رواية أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها - قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها - في مسرَى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أُسْرِي برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلَّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسولُ الله ﷺ، فلما صَلَّى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صَلَّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصَلَّيت فيه، ثم صَلَّيت صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَيْنَ^(٣). الكلبي: متروك بمرة ساقط. لكن رواه أبو يعلى في مُسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَةَ بن زَبِيْعَةَ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيْبَانِي، عن أبي صالح، عن أم هانئ^(٤) بأبسط من هذا السياق، فليكتب ها هنا.

[٤١٨٠] وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المُسَاوِر، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِي به في بيتي، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عَرَض له بعضُ قُرَيْش، فقال رسولُ الله ﷺ: إن جبريلَ عليه السَّلام أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابةٌ دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم - عليه السَّلام - يُشَبِّهُ خَلْقَهُ خَلْقِي، ويُشَبِّهُ خَلْقِي خَلْقَهُ، وأراني موسى - عليه السَّلام - آدمَ طويلاً سَبَطَ

(١) إسناده ضعيف جداً. أخرجه البيهقي ٤٠٤/٢ وضعفه بقوله: رواه مجهول، وهو منقطع.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم ٦٢/٣ والبيهقي ٣٦٠/٢ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وفيه عمد بن كثير، وهو ضعيف. قال أحمد: حدث بمنكير ليس لها أصل ولفظ «فارتد ناس» من مناكيره، فإنه لم يرتد أحد في حادثة الإسراء إذ لم يكن آمن قبل الإسراء إلا القليل.

(٣) إسناده ضعيف جداً. محمد بن السائب متروك، وشيخه أبو صالح باذام وضعفه البخاري والنسائي وغيرهما.

(٤) وهو معلول بأبي صالح أيضاً كما تقدم.

الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة. وأراني عيسى ابن مريم - عليه السلام - رُبعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي. وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بقطن بن عبد العزى. قال: وأنا أريد أن أخرج إلى قريش، فأخبرهم بما رأيت. فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقاتلك، فأخاف أن يسطؤا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فاتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني. فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد، لو كنت شاباً كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، والله وجدتهم قد أضلوا بغيراً لهم، فهم في طلبه. قال: فهل مررت بإبل لبني فلان؟ قال: نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها. قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة، قال: قد كنت عن عدتها مشغولاً. فقام فأتيت بإبل فعدها وعليماً ما فيها من الرعاة. ثم أتى قريشاً فقال لهم: سألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان. وسألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي مصبحتكم بالغداة على الثنية. قال: فقعدا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضل لكم بغير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كانت عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فصدقه أبو بكر وآمن به، فسُمي يومئذ الصديق^(١).

فصل: فإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه وزاد بعضهم أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرائيات متعددة، فقد أبعد وأغرب. وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصّل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه ﷺ أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وقريح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم يُنقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرار.

قال موسى بن عتبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً. والحق أنه ﷺ أسري به يقظة لا مناماً إلى بيت المقدس، ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد رُبط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى بالمعراج - وهو كالسلم ذو درج يزقي فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فلتقاه من كل سماء مقرّبوها، وسلم عليه الأنبياء - عليهم السلام - الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم - عليه السلام - في السادسة، وإبراهيم الخليل - عليه السلام - في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ

(١) واو بكرة، أخرجه الطبراني ٤٣٢٤/٢٤ - ٤٣٤، وفي «الأوسط» (٤١ مجمع البحرين) من حديث أم هانئ، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٩: فيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك كذاب أه، فالإسناد ساقط لا شيء، لكن لأصله شواهد وعجزه تقدم أنفاً، والله أعلم.

وعليهما وعلى سائر الأنبياء - حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سذرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظيمة عظيمة، من قرأش من ذهب، والوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل - عليه السلام - على صورته، له ستمائة جناح، ورأى زرفراً أخضر قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل - عليه السلام - باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله - عز وجل - عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط ﷺ إلى البيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة. ويحتمل أنها الصبح من يومئذ: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه. لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل - عليه السلام - واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما شاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل - عليه السلام - له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع، فقد ورد أنه في البيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ها هنا وها هنا، لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببذنه ﷺ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري ببذنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا يئكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والدليل على هذا قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، فالتسيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفاؤ قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال - عز شأنه -: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيًّا إِلَهَ أَرْثِيَّتِكَ إِلَّا لِيُفْتِنَ الَّذِينَ لَنَايِين﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم. رواه البخاري، وقال تعالى: ﴿مَا نَأَى الْبَصُرُ وَمَا كُنَى (١٧)﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آيات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء بركة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب يركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأختس: أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئِلَ عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة^(١). وحدثني

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٢، من طريق ابن إسحق، وهو متقطع بين يعقوب ومعاوية.

بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فُقِدَ جَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ، ولكن أسري بروحه^(١). قال ابن إسحاق: فلم يُنكَزْ ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ مُحَمَّدٍ أَرْثًا لِمَنْ أَتَىٰ مِنْكُمْ إِلَّا صِنْفًا لِّمَنْ شَاءَ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي السَّمَاءِ آيَةً أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرَ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصفات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً.

[٤١٨١] وكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيناى، وقَلْبِي يَقْظَانُ»^(٢)، فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه، وعابن فيه من الله ما عابن، على أي حالاته كان، نائماً أو يقظاناً، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق. وقد تَعَقَّبَهُ أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالردِّ والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدّم، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

[٤١٨٢] روى الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة»، من طريق محمد بن عُمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عُمر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بَعَثَ رسول الله ﷺ دِحْيَةَ بن خليفة إلى قيصر، فذكر وُزُودَهُ عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وُفُورِ عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يَجْهَدُ أن يَحْقِرَ أمره وَيُصَغِّرَهُ عنده، قال في هذا السياق، عن أبي سفيان: والله ما يمتنعني أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ، ولا يُصَدِّقني بشيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كَذَّب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحَرَمِ في ليلة، فجاء مسجدكم هذا مسجداً إِبِلِيَّاءً^(٣)، فرجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إِبِلِيَّاءٍ عند رأس قيصر، فقال بطريق إِبِلِيَّاءٍ: قد عَلِمْتُ تلك الليلة؟ قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما عَلِمْتُك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غَلَبَنِي، فاستعنتُ عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فغالجتُه فغلبني، فلم نستطع أن نُحْرَكه، كأنما نزاول به جبلاً. فَدَعَوْتُ إليه النَّجَاجِرَةَ^(٤) فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، وما نستطيع أن نحركه حتى نُصْبِحَ فَنَنْظُرَ من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غَدَوْتُ عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أَثَرٌ مُرَبِّطِ الدابة. قال: فقلت لأصحابي: ما حُجِسَ هذا الباب الليلة إلا على نبيّ، وقد صَلَّى الليلة في مسجدنا^(٥). . . . وذكر تمام الحديث.

(١) باطل لا أصل له من كلام عائشة. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٣ من طريق ابن إسحاق عن بعض آل أبي بكر عن عائشة، بعض آل أبي بكر مجاهيل، وابن إسحاق حدث عن مجاهيل بما لا أصل له وهذا منها. ولا يصح عن عائشة رضي الله عنها فإن عائشة لم تبلغ آنذاك خمس سنوات، ولم تكن بعد عند رسول الله ﷺ، فكيف تنفي فقدان جسد رسول الله؟، نعم إن عائشة نفت الروية كما سيأتي في سورة النجم.

(٢) بعض حديث متفق عليه، وتقدم.

(٣) إبلياء: بيت المقدس، ومسجدها هو الأقصى.

(٤) النجاجرة: جمع نجار.

(٥) إسناده ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن كعب تابعي، وله علة ثانية محمد بن عمر الواقدي متروك، وحديث هرقل وحواره مع أبي سفيان، ليس فيه هذا الذي ذكره الواقدي.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عُمر بن دحية في كتابه: «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد - ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عُمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صفصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قزط، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عُمر، وجابر، وحذيفة، وبُرَيْدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسُمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصُهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد. وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون، «يُرِيدُونَ يَظُنُّوا قَوْلَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ يُمِيزُ بَاطِنَهُمْ وَيُورِيهِمْ رُؤْيَاهُمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ» ﴿٨﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ﴿١﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبدته محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكنيمه - عليه السلام - أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: «وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ»، يعني التوراة، «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى»، أي: الكتاب «هُدًى»، أي: هادياً «لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا» أي: لئلا تتخذوا، «مِن دُونِي وَكَيْلًا»، أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له. ثم قال: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ»، تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبية على الميتة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالني إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث. وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً - عليه السلام - كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأيه كله، فلهذا سُمي عبداً شكوراً. قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حُصَيْن، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سُمي نوح عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله.

[٤١٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهَا»^(١). وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريق أبي أسامة، به. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال.

[٤١٨٤] وقد ذكر البخاري ههنا حديث أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك»^(٢). . . وذكر الحديث بكماله.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٣٤ والترمذي ١٨١٧ وأحمد ١١٧/٣ وأبو يعلى ٤٣٣٢.

(٢) يأتي عند آية: ٧٩ من هذه السورة إن شاء الله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَاتِبَ وَلِنُعَلِّقَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَبُورَهُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا النَّبِيًّا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدّم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم: أنهم سيفسدون في الأرض مراتب ويعلون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذَلِكَ مَقْطُوعٌ مُّصَيَّبٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، أي: تقدّمنا إليه وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾، أي: أولى الإنسنتين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أي: قوّة وعُدّة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وتصرّفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقاتدة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلو عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية تزيهه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مَقْعَدًا ضَعِيفًا يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل. وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً^(١). وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجيب كل العجيب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره. وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج الجزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأنّ منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنيّة عنها، والله الحمد. وفيما قصّ الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقیة الكتب قبله، ولم يخوننا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما زكّ بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن

(١) هو عند الطبري ٢٢٠٥٧ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه رواد بن الجراح متهم، والحمل عليه فيه.

يحيى بن سعيد قال: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ يَقُولُ: ظَهَرَ بُخْتَنْصَرُ عَلَى الشَّامِ، فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَقَتْلَهُمْ. ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دَمًا يَغْلِي عَلَى كِبَاءٍ، فَسَأَلَهُمْ: مَا هَذَا الدَّمُ؟ فَقَالُوا: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا، وَكُلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَاءُ ظَهَرَ. قَالَ: فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَسَكَنَ. وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَأَنَّهُ قَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ يَحْفَظُ التَّوْرَةَ، وَأَخَذَ مَعَهُ خَلْقًا مِنْهُمْ أُسْرَاءَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَزَتْ أُمُورٌ وَكُورَانٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا. وَلَوْ وَجَدْنَا مَا هُوَ صَحِيحٌ أَوْ مَا يِقَارِبُهُ، لَجَازَ لَنَا كِتَابَتُهُ وَرَوَايَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: فعليها. كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ مِثْلًا فَلْيَفْسِدْهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْيُتِمَّ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم، ﴿لِيَسْتَوُوا بِجِوَاهِكُمْ﴾، أي: يهينوكم ويقهروكم، ﴿وَلِيَكْفُرُوا بِالسَّجْدِ﴾، بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَسْتَوُوا﴾، أي: يُدْمَرُوا وَيُخْرَبُوا ﴿مَا عَلَمُوا﴾، أي: ما ظهروا عليه ﴿تَنْبِيْرًا﴾ ﴿عَنْ رَبِّكَ أَنْ يَرْحَمَكَ﴾، أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وَلَوْ عُدْتُمْ﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع ما نذخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَمَحَلًّا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: مُسْتَقَرًّا وَمُخَصَّرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ. وقال ابن عباس: ﴿حَصِيرًا﴾، أي: سجنًا. وقال مجاهد: يُحْصَرُونَ فِيهَا. وكذا قال غيره. وقال الحسن: فراش ومهاد. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَيِّ، مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمٌ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاحَاتِ﴾ على مقتضاه، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: وَيُنَبِّئُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ، وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ ﴿بِالشَّرِّ﴾، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَيْعِبَ لَهُمْ بِالشَّرِّ لَقُضِيَ لَهُمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقاتادة.

[٤١٨٥] وقد تقدم في هذا الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها»^(١). وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلة عقله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ما هنا قصة آدم - عليه السلام - حين هم بالنهوض قائمًا قبل

أن تصل الروح إلى رجله، وذلك أنه جاءته النفخة من قِبَل رَأْسِهِ، فلما وصلت إلى دِمَاغِهِ عَطَسَ، فقال: الحمد لله. فقال الله: يَرَحْمَكُ رَبُّكَ يَا آدَمَ. فلما وَصَلَتْ إلى عَيْنَيْهِ فَتَحَهُمَا، فلما سَرَتْ إلى أَعْضَانِهِ وَجَسَدِهِ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيُعْجِبُهُ، فَهَمَّ بِالنَّهْوِضِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى رِجْلَيْهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وقال: يَا رَبِّ، عَجَلْ قَبْلَ اللَّيْلِ.

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فِضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٧﴾﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ، فَمِنْهَا مَخَالَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ وَيَتَشِيرُوا فِي النَّهَارِ، لِلْمَعَايِشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَيَعْرِفُوا مُضَيَّ الْأَجَالِ الْمَضْرُوبَةَ لِلدِّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَتَّبِعُوا فِضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أَي: فِي مَعَايِشِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسْقًا وَاحِدًا وَأَسْلُوبًا مَتَسَاوِيًا، لَمَا عَرَفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءِهِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ فَسَكُنْتُمْ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وَمَنْ تَحَمَّيْتُمْ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِنَسْكُوتِكُمْ فِيهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القصاص: ٧١-٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٩﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ آيَةَ النَّهَارِ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ أَتْلَفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وَقَالَ: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِإِجْتِاسِيٍّ آلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا الْإِمْلَاجُ وَجَعَلَ آيَةَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آيَةٌ لَهُمْ إِلَّا يَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ نَسْلَجًا مِمَّا ظَلَمُوا ﴿٢٣﴾﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً، أَي: عِلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا، وَهِيَ الظَّلَامُ وظهورُ القَمَرِ فِيهِ، وَلِلنَّهَارِ عِلَامَةٌ، وَهِيَ النُّورُ وظهورُ الشَّمْسِ الثَّيْرَةُ فِيهِ، وَفَاوَتْ بَيْنَ ضِيَاءِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي لِقَؤُورِ يُسْقُوتُ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَيَّامِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيَاحِ﴾ [البقرة: ١٨٩]... الآية.

قال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، قال: ظلمة الليل وسُدْقَةُ النَّهَارِ. وقال ابن جرير، عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. ﴿فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ﴾، قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: كان القمر بضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، ﴿فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد رَوَى أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ مِنْ طَرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ جَيِّدَةٍ: أَنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا هَذِهِ اللَّطِخَةُ الَّتِي فِي الْقَمَرِ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ. أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ: ﴿فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فَهَذِهِ مَحْوَةٌ. وَقَالَ تَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّ مَحْوَ آيَةِ اللَّيْلِ سَوَادُ الْقَمَرِ الَّذِي فِيهِ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أَي: مَنِيرَةٌ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ أَنْوَرًا مِنَ الْقَمَرِ وَأَعْظَمَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، قَالَ: لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ خَلَقَهُمَا اللهُ تَعَالَى.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَةٌ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَةٌ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ﴾. وطائره: هو ما طار عنه من عمله - كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد - من خير وشر، يلزم به ويُجازي عليه، ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يَشْقَالْ دَرَّةً خَيْرًا يَسِرُّ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَسْمَلْ يَشْقَالْ دَرَّةً شَرًّا يَسِرُّ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَسِينِ وَعَنِ الْإِنشَالِ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا لَيْفُظٌ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٥﴾ كِرَامًا كَلِيمِينَ ﴿١٦﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ ﴿١٨﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٥-١٩]. وقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ مَا كَفَرْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧]، وقال: ﴿مَنْ يَسْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

[٤١٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «طائرُ كُلِّ إنسانٍ في عُنُقِهِ». قال ابن لهيعة: يعني الطَّيْرَةَ^(١). وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث غريب جداً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، أي: نجمع له عمله كله في كتاب يُعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً. «منشوراً»، أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره: ﴿يَبْرَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَ مَآذِيرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣-١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾، أي: إنك تعلم أنك لم تُظلم ولم يُكتب عليك غير ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكلُّ أحدٍ يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله: ﴿الزَّيْمَةُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ﴾، إنما ذكر العُنُقَ، لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن الزَّيْمِ بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا، اذْهَبْ بِهَا طُوقَتْهَا طُوقَ الْحَمَامَةِ

[٤١٨٧] قال قتادة، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيْرَةَ»، وكلُّ إنسان الزَّيْمَةُ طائره في عنقه^(٢). كذا رواه ابن جرير.

[٤١٨٨] وقد رواه الإمام عبد بن حُميد - رحمه الله - في مسنده مُتَّصِلًا^(٣)، فقال: حدثنا الحسن بن

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٣/٣٦٠، ح ١٤٤٦٤ من حديث جابر. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٣: فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح كذا قال الهيثمي رحمه الله، والصواب أن ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، وللحديث علة ثانية: أبو الزبير مدلس، وقد عنعن، فالإستناد ضعيف، وسيأتي عن قتادة عن جابر، ليس فيه تفسير ابن لهيعة وهو أصح.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢١٣١ مسنداً عن قتادة عن جابر: وفيه عننة قتادة.

(٣) الظاهر أن إسناده الطبري إلى قتادة سقط من النسخة التي اعتمدها الحافظ ابن كثير، لذا قال «رواه عبد بن حميد متصلاً» والله أعلم. وإسناده الطبري ثابت برقم ٢٢١٣١: حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا معاذ بن هشام، قال: ثني أبي، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله، فذكره مرفوعاً.

موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طَيْرُ كُلِّ عَبْدٍ فِي عُنُقِهِ»^(١).

[٤١٨٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبه بن عامر [رضي الله عنه] يُحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يُختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب - جل جلاله - اختتموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»^(٢). إسناده جيد قوي، ولم يُخرجوه. وقال معمر، عن قتادة: «الزينة طير في عنق» ، قال: عمله، «وتخرج له يوم القيامة» ، قال: نخرج ذلك العمل «كتبا يلقنه مشورا» ، قال معمر: وتلا الحسن البصري: «عن النبيين وعن الأئمة قديماً» [ق: ١٧]، يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مات طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه مشوراً، «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حبيباً» ، قد عدل - والله - عليك من جعلك حسيب نفسك. هذا من حسن كلام الحسن، رحمه الله.

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرَىٰ وَمَا كُفَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾

﴿١٥﴾

يُخَيَّرُ تَعَالَىٰ أَنْ مِنْ اهْتَدَىٰ وَأَتَّبِعَ الْحَقُّ وَاقْتَضَىٰ آثَارَ النَّبِوَةِ فَإِنَّمَا يُحْضَلُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾، أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعوذ وبأل ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرَىٰ﴾، أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَفْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَيْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيُحِيلَنَّ أَقْلَاهُمْ وَأَفْئَالَ مَعَ أَفْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَيَنْزِلُ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُفَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾: إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجية عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُنزِلَتْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا آلَمْ بِأَنكُمْ نُزِرْتُمْ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن قَوْلِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [المسك: ٨-٩]، وكذا قوله: ﴿وَمِيقَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رِجًا آخِرِيحًا تَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُنعِمْكُمْ مَا يَنْدَكُرُونَ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال

(١) أخرجه أحمد ١٤٢٨١ (٣/٣٤٣) وفيه ابن لهيعة، لكن بقويه حديث قتادة المتقدم عن جابر، فإن رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ١٤٦/٤ والطبراني ٢٨٤/١٧، وعبد الله بن المبارك حدث عن ابن لهيعة قبل الاختلاط بالإسناد لا بأس به، وله شواهد يتقوى بها انظر «مجمع الزوائد» ٣٠٣/٢ - ٣٠٤.

الرسول إليه . ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مُقَحَّمَةً في صحيح البخاري، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

[٤١٩٠] حدثنا عُبيد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار» . . . فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وإنه يُنشىء^(١) للنار خلقاً فَيُلْقَوْنَ فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً» . . . وذكر تمام الحديث. فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دارٌ فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحدٌ إلا بعد الإعذار إليه، وقيام الحجّة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة، وقالوا: لعله انقلب على الراوي،

[٤١٩١] بدليل ما أخرجاه في الصحيحين - واللفظ للبخاري - من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «تحتاجت الجنة والنار»، فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتليء حتى يَضَع فيها قَدَمه، فتقول: قَطْ، قَطْ، فهناك تمتليء ويُرْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله يُنشىء لها خلقاً»^(٢).

بقي ها هنا مسألة قد اختلف العلماء فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخريف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة. وقد وردت في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً مُلَخَّصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

[٤١٩٢] فالحديث الأول عن الأسود بن سريع: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرِمٌ، ورجل مات في فترة». فأما الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يخذفوني بالبعر. وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثيقهم ليطيعته، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فولذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»^(٣).

[٤١٩٣] وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسحب إليها»^(٤). وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المديني، به، وقال: هذا إسناد صحيح.

(١) هذا الحديث عند البخاري ٧٤٤٩ بهذا الإسناد من حديث أبي هريرة، وقد جزم الحافظ ابن القيم رحمه الله بأن هذه الزيادة غلط من الراوي، وكذا أنكروا هذه الرواية الحافظ البلقيني. راجع فتح الباري ١٣/٤٣٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٤ وسيأتي في تفسير سورة ق عند آية: ٣٠ إن شاء الله.

(٣) أخرجه أحمد ٢٤/٤ والبخاري ٢١٧٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥، وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٧/٢١٦.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٤١ ورجاله ثقات. وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٧/٢١٦ والبيهقي في «الاعتقاد».

[٤١٩٤] وكذا رواه حَمَادُ بن سَلْمَةَ، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يُذلي على الله بحجة»^(١)... فذكر نحوه.

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن هَمَامٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: اقروا إن شئتم: «وَمَا كُنَّا مَعْدِيَيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا». وكذا رواه مَعْمَرٌ، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - موقوفاً^(٢).

[٤١٩٥] الحديث الثاني عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الربيع، عن يزيد - هو ابنُ أبان - قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فَيُعَذِّبُوا بها، فيكونوا من أهل النار. ولم يكن لهم حسنات فَيُجَازُوا بها فيكونوا مُلُوكَ أهل الجنة، هم خَدَمُ أهل الجنة»^(٣).

[٤١٩٦] الحديث الثالث عن أنس أيضاً: قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا جرير، عن ليث، عن عبد الوارث، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يومَ القيمة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهمم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الربُّ - تبارك وتعالى - لعنق من النار: ابْرُزْ. ويقول لهم: إني كنتُ أبعثُ إلى عبادي رُسُلًا من أنفسهم، وإني رَسُولُ نفسي إليكم، ادخلوا هذه. قال: فيقول من كُتِبَ عليه الشقاء: يا رب، أتى ندخلها ومنها كنا نَفِرُّ؟ قال: ومن كُتِبَ عليه السعادة يمضي فَيَقْتَرِحُ فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لِرُسُلِي أشدُّ تكذيباً ومعصية. فَيَدْخُلُ هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار»^(٤). وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يُوْسُفَ بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله.

[٤١٩٧] الحديث الرابع عن البراء بن عازب - رضي الله عنه -: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبَةَ، حدثنا عبد الله - يعني ابن داود - عن عمر بن دَرٍّ، عن يزيد بن أمية، عن البراء - رضي الله عنه - قال: سئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: هم مع آبائهم. وسئل عن

(١) إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن يصلح للمتابعة.

(٢) وهو، وإن روي موقوفاً، فمثله لا يقال بالرأي، والمرفوع ورد من طرق، وعن جماعة من الصحابة. انظر الإحسان ٧٣٥٧ بتخريج الشيخ شعيب، وللحديث شواهد ستأتي، وقد قال الحافظ في «الفتح» ٢٤٦/٣: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة أهد. باختصار.

(٣) ضعيف، أخرجه الطيالسي ٢١١١ وأبو يعلى، ٤٠٩٠ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٦، وأبو نعيم ٦/٣٠٨ من حديث أنس، قال الهيثمي: في إسناده أبي يعلى، يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وقال ابن معين: رجل صدق، ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهما ثقات أهد، بل الصواب أن يزيد بن أبان وإياه، روى منكرات كثيرة، قال النسائي: متروك، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف، وقال ابن معين: في حديثه ضعف. ثم إن للحديث علة أخرى، فيه الربيع بن صبيح، ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال عفان: أحاديثه مقلوية. والحديث ضعفه ابن كثير كما سيأتي قبل الحديث ٤٢١١، وكذا ضعفه الحافظ في «الفتح» ٢٤٦/٣. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ٢٣٢ عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أنس، لكن علي بن زيد ضعيف، روى منكرات كثيرة، وعنه مبارك بن فضالة وثقه قوم، وضعفه آخرون، وهو مدلس، وقد عنعن. ثم إن البزار كرره موقوفاً، لم يرفعه. والله أعلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ٤٢٢٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥ - ١٣٦ وإسناده ضعيف، لضعف ليث أبي سليم وكذا عبد الوارث مولى أنس.

أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم. فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: الله أعلم بهم^(١). ورواه عُمر بن دُرٍّ، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة - رضي الله عنه - فذكره.

[٤١٩٨] الحديث الخامس عن ثوبان: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ربحان بن سعيد، حدثنا عبّاد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابَةَ، عن أبي أسماء، عن ثوبان - رضي الله عنه -: أن نبي الله ﷺ عَظَمَ شأن المسألة، قال: إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، فيقولون: رَبَّنَا لَمْ تُرْسِلْ إلينا رسولاً، ولم يَأْتِنَا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكننا أطوع عبادك. فيقول لهم رَبُّهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم. فيأمرهم أن يَعْبُدُوا إلى جَهَنَّمَ فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا ذنوا منها وجدوا لها تَعْبُطاً وَزَفيراً، فرجعوا إلى رَبِّهِمْ فيقولون: ربنا أخرجنا - أو: أجرنا - منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أنكم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم. فيقول: اعبدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فِرَقُوا وَرَجَعُوا، فقالوا: ربنا فَرَقْنَا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين. فقال نبي الله ﷺ: لو دخلوها أَوَّلَ مَرَّةٍ كانت عليهم برداً وسلاماً^(٢). ثم قال البزار: ومَثْنُ هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يَرَوْه عن أيوب إلا عبّاد، ولا عن عبّاد إلا ربحان بن سعيد. قلت: وقد ذكره ابن جِبَّان في ثقافته. وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به، يكتب حديثه ولا يحتج به.

[٤١٩٩] الحديث السادس، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخنزي - رضي الله عنه -: قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى] بالهالك في الفترة والمعته والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتي كتاب. ويقول المعته: رب، لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً. ويقول المولود: رب، لم أدرك العقل. فترفع لهم ناز فيقال لهم: ردوها. قال: فبردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويُمسك عنها من كان في علم الله شقيماً لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيتم، فكيف لو أن رسلي أتتكم؟^(٣) وكذا رواه البزار، عن محمد بن عُمر بن هتاج الكوفي، عن عبّيد الله بن موسى، عن فضيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يُعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية، عنه. وقال في آخره: [فيقول الله: إياي عصيتم، فكيف برسلي بالغيب].

[٤٢٠٠] الحديث السابع، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: قال هشام بن عمار، ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حنبل، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن نبي الله ﷺ قال: [يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوح عقلاً: يا رب، لو أتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد بعقله مني. وذكر في

(١) إسناده ضعيف، فيه يزيد بن أمية. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٦٧١ فقال: يزيد بن أمية عن رجل عن البراء، مجهول، تفرد عنه عمر بن ذر أه.

(٢) في إسناده ضعف، أخرجه البزار ٣٤٣٣ و٣٤٣٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٤٧/١٠ وقال: رواه البزار بإسنادين ضعيفين أه. لكن له شواهد، تقدم بعضها وسيأتي شواهد أخرى.

(٣) أخرجه البزار ٢١٧٦ وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك، فيقول الرب - عز وجل -: «إني آمركم بأمر فطغيوني؟ فيقولون: نعم. فيقول: اذهبوا فادخلوا النار. قال: ولو دخلوها ما صرّتهم، فخرج عليهم قوايص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب - عز وجل -: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضمّهم. فتأخذهم النار»^(١).

[٤٢٠١] الحديث الثامن عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قد تقدم روايته مندرجةً مع رواية الأسود بن سريع - رضي الله عنه -^(٢).

[٤٢٠٢] وفي الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»^(٣). وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٤).

[٤٢٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن صبرة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما أعلم، شك موسى - قال: دزاري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم عليه السلام»^(٥).

[٤٢٠٤] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن جمار، عن رسول الله ﷺ عن الله - عز وجل - أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء»^(٦). وفي رواية لغيره: مسلمين.

[٤٢٠٥] الحديث التاسع عن سمرة - رضي الله عنه -: رواه الحافظ أبو بكر البزقاني في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي، عن سمرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة. فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين»^(٧).

[٤٢٠٦] قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبه بن مكرم الضبي، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألت رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدّم أهل الجنة»^(٨).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٣/٢٠ وإسناده ضعيف فيه عمرو بن واقد. وهو متروك وبه أهله الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) تقدم برقم ٤١٩٣ و ٤١٩٤.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ٦٦٥٨ ح ٢٣ وأخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ والنسائي ٥٨/٤ وابن حبان ١٣١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد ٣٢٦/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٩ وقال: وفيه عبد الرحمن بن ثابت، وثقه المدني وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقيّة رجاله ثقات اهـ.

(٦) تقدم مراراً.

(٧) عوف فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، ولم يذكر المصنف من دون عوف.

(٨) ضعيف، أخرجه البزار ٢١٧٢، والطبراني ٦٩٩٣، وفي «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٥ من حديث سمرة، =

[٤٢٠٧] الحديث العاشر، عن عم حسناء: قال أحمد: أخبرنا رَوْحٌ، حدثنا عَوْفٌ، عن حسناء بنت معاوية، من بني صُرَيْم قالت: حَدَّثَنِي عَمِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله - من في الجنة؟ قال: «النبِيُّ في الجنة، والشهيدُ في الجنة، والمولودُ في الجنة، والوئيدُ في الجنة»^(١).

فمن العلماء من دَهَبَ إلى التوقف فيهم لهذا الحديث. ومنهم من جَزَمَ لهم بالجنة:

[٤٢٠٨] لحديث سَمُرَةَ بن جُنْدَب - رضي الله عنه - في صحيح البخاري: أنه ﷺ قال في جُملة ذلك المنام، حين مرَّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريلُ: «هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولادُ المسلمين وأولادُ المشركين، قالوا: يا رسولَ الله، وأولادُ المشركين؟ قال: نعم، وأولادُ المشركين»^(٢). ومنهم من جَزَمَ أنهم في النار، لقوله ﷺ: «هم مع آبائهم»^(٣). ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمتَحَنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دَخَلَ الجنة وانكشف علمُ الله فيه بسابق السعادة، ومن عَصَى دخل النار داخراً، وانكشف علمُ الله فيه بتقدُّم الشقاوة. وهذا القولُ يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرَّحت به الأحاديثُ المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القولُ هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - رحمه الله - عن أهل السنة والجماعة. وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي - رحمه الله - في «كتاب الاعتقاد»، وكذلك غيره من مُحَقِّقي العلماء والحفاظ النقاد. وقد ذَكَرَ الشيخ أبو عمر بن عبد البر التَّمَرِي - رحمه الله - بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، وقال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقومُ بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دارُ جزاءٍ وليست دارُ عمل ولا ابتلاء، وكيف يُكَلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يُكَلِّف نفساً إلا وسعها؟.

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيحٌ، كما قد نصُّ على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حَسَنٌ، ومنها ما هو ضعيفٌ يتقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديثُ الباب الواحد متعاضدةً على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها. وأما قوله: «إن الآخرة دارُ جزاءٍ»، فلا شكُ

وقال الهيثمي: فيه عباد بن منصور وثقه يحيى القطان، وفيه ضعف، وبقيه رجاله ثقات أمه، قلت: إسناده ضعيف، جاء في «الميزان» ٤١٤١: عباد بن منصور، لم يرضه يحيى بن سعيد - القطان - وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن الجنيدي: متروك، وضعفه النسائي، وقال يحيى وأبو حاتم: يكتب حديثه مع ضعفه، وقال الساجي: ضعيف مدلس، وقال أحمد: روى متاكير، وقال أبو الحسن بن القطان: كان يحيى ابن سعيد، حسن الرأي فيه أمه، فتلخص من ذلك أنه إلى الضعف أقرب، وفي الإسناد عيسى بن شعيب البصري، قال الفلاس: صدوق، وقال ابن حبان: كان ممن يخطيء حتى فحش خطوه فاستحق الترك. وزاد الألباني في الصحيحة ١٤٦٨ شاهداً آخر فقال: رواه ابن مندة في «المعرفة» ٢٦١/٢/١ معلقاً: حدث إبراهيم ابن المختار عن محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أبي مالك مرفوعاً، ثم قال الألباني: وهذا إسناد ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن، وإبراهيم بن المختار صدوق سيء الحفظ، ثم ذكر حديث أنس وحديث سمرة وذكر كلام الهيثمي ووافقه وحكم بصحة الحديث لشواهد، ولم يصب، فقد بينت وهن حديث سمرة وأنس. وأما حديث أبي مالك الذي استشهد به الألباني، واكتفى بتضعيفه، فليس كذلك، فإن له علة ثالثة لم يذكرها وهي سعد بن سنان، قال الجوزجاني: أحاديثه واهية، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: ضعيف. ويزيد مدلس، وقد عنعن، وهو معلق فالخبر وإبصرة لا شيء، ولا يصلح للاستشهاد به، فالخبر وإب، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ٤٠٩/٥ و٥٨ وإسناده لين، حسناء مقبولة، لكن للحديث شواهد انظر «المجمع» ٢١٩/٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٦ و٧٠٤٧ وأحمد ٨/٥ - ٩ وابن حبان ٦٥٥ مطوِّلاً.

(٣) تقدم برقم ٤١٩٧، ولهذه الفقرة شواهد، والله أعلم.

أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عَرَصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْتَفَى عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [القلم: ٤٢].

[٤٢٠٩] وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود خَرَّ لِقْفَاهُ^(١).

[٤٢١٠] وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خُروجاً منها: أن الله يأخذ عهوده وموآثيقه ألا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: ﴿يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَعَدَّكَ! ثم يأذن له في دخول الجنة﴾^(٢).

وأما قوله: «وكيف يكلفهم الله دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟»، فليس هذا بمناع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسْرٌ على جهنم أخذ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرقي وكالريح وكأجاويد الخيل والزكاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوس على وجهه في النار. وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا، بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يُدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه بزداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه، وهم في عمارة عمارة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل: إذا تقرّر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال: أحدها: أنهم في الجنة.

[٤٢١١] واحتجوا بحديث سمرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين^(٣).

[٤٢١٢] وبما تقدم في رواية أحمد، عن حسناء، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود في الجنة»^(٤). وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه؛ فمن علم الله - عز وجل - منهم أن يطيع جعل رُوحه في البرزخ مع إبراهيم - عليه السلام - وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منهم أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعري عن أهل السنة والجماعة، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد^(٥)، عن أنس، عند أبي داود الطيالسي، وهو ضعيف، والله أعلم.

(١) يأتي في سورة القلم إن شاء الله.

(٢) تقدم مطوّلاً.

(٣) هو المتقدم برقم ٤٢٠٨.

(٤) هو المتقدم برقم ٤٢٠٧.

(٥) كذا وقع في سائر النسخ. والصواب أن الطيالسي رواه من طريق يزيد الرقاشي عن أنس، والذي رواه عن علي بن زيد إنما هو البزار كما تقدم في الحديث رقم ٤١٩٥.

القول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار، واستدلّ عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي المغيرة: [٤٢١٣] حدثنا عتبة بن صمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطفان، أنه أتى عائشة رضي الله عنها - فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: هم تبع لأبائهم: فقلت: يا رسول الله، بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين^(١).

[٤٢١٤] وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حبيب، عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين، قال: هم من آبائهم. قلت: فذراري المشركين؟ قال: هم من آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين^(٢).

[٤٢١٥] ورواه الإمام أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل، وهو متروك، عن مولاته بهيئة، عن عائشة - رضي الله عنها - «أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: إن شئت أسمعك تضاغيهم في النار»^(٣).

[٤٢١٦] وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل بن عزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي - رضي الله عنه - قال: سألت خديجة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: هما في النار. قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما. قالت: فولدي منك؟ قال: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ لَكُنَّا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٤) [الطور: ٢١]، وهذا حديث غريب، فإن في إسناده محمد بن عثمان مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرِك علياً - رضي الله عنه - والله أعلم.

[٤٢١٧] وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموودة في النار»^(٥). ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود [عن النبي ﷺ].

[٤٢١٨] وقد رواه جماعة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس

(١) إسناده قوي. أخرجه أحمد ٨٤/٦، وفيه «مع آبائهم» بدل «تبع لأبائهم».

(٢) جيد، أخرجه أبو داود ٤٧١٢، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٣.

(٣) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٦/٢٠٨ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٤١، قال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد بن حنبل: يحيى بن المتوكل يروي عن بهية أحاديث منكورة وهو واهي الحديث. وقال يحيى بن عمار: ليس بشيء، وقال علي والفلاس والنسائي: ضعيف، وقال ابن حبان: ينفرد بأشياء ليس لها أصول، وقال السعدي: سألت عن بهية كي أعرفها، فأعانا أهد، وقال الحافظ في الفتح ٣/٢٤٦: إسناده ضعيف جداً أهد. وتضاغيهم: أي صياحهم وضجيجهم.

(٤) والحديث ضعيف، أخرجه عبد الله في «المسند» ١١٣١، وابن أبي عاصم في «السنن» ٢١٣ عن علي عن خديجة، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٠: فيه محمد بن عثمان، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح أهد، وقال الذهبي في الميزان ٧٩٣٣: لا يدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وخبره منكر، ثم ذكر هذا الحديث. وكذلك الإسناد منقطع بين علي وزاذان كما ذكر ابن كثير. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلى، ٧٠٧٧ والطبراني ١٦/٢٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٢: رجالهما ثقات إلا أن عبد الله بن الحارث بن نوفل، وابن بريدة، لم يدركا خديجة أهد، فالخبر منقطع.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧١٧ عن الشعبي مرسلًا، وكرره موصولًا ورجاله ثقات، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٨.

الأشجمي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تُقْرِى الضيفَ وتَصِلُ الرِّجِمَ، وإنها وأدت أختنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: الوائدةُ والموءودةُ في النار، إلا أن تُدْرِكَ الوائدةُ الإسلامَ فَتَسْلِمَ^(١). وهذا إسنادٌ حسنٌ.

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

[٤٢١٩] وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢).

[٤٢٢٠] وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه سُئِلَ عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٣). ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من دُخِبَ إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دَارَ قَرَارٍ، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدّم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل: ولْيُعْلَمَ أن هذا الخلافَ مخصوصٌ بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء - كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يُخْتَلَفُ فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نَقَطَعَ به إن شاء الله تعالى. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم تَوَقَّفُوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مِثْبِئَةِ الله تعالى، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعةٌ من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رَسَمَ مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار تحت المشيئة. انتهى كلامه، وهو غريب جداً. وقد ذَكَرَ أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

[٤٢٢١] وقد ذَكَرُوا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: «دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صَبِيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبَى له عصفورٌ من عصفائر الجنة. لم يعمل السوء ولم يُذْرِكه. فقال: «أوغير ذلك يا عائشة، إن الله خَلَقَ الجنةَ وَخَلَقَ لها أهلاً وهم في أصلابِ آبائهم، وَخَلَقَ النارَ وَخَلَقَ لها أهلاً وهم في أصلابِ آبائهم»^(٤). رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا عِلْمَ عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن محمد بن بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم.

(١) إسناده كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٣ و٦٥٩٧ ومسلم ٢٦٦٠ وأبو داود ٤٧١١ والنسائي ٥٩/٤.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ وأحمد ٢٥٩/٢ والنسائي ٥٨/٤ وابن حبان ١٣١.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٦٢ وأبو داود ٤٧١٣ والنسائي ٥٧/٤ وابن ماجه ٨٢ وأحمد ٤١/٦ وابن حبان ١٣٨.

[٤٢٢٢] وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس - رضي الله عنه - وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة موافقاً - أو: مقارِباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدرة»^(١). قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين. وهكذا رواه أبو بكر البزار، من طريق جرير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦)

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ - فالمشهور قراءة التخفيف. واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَتْنَمَّا أَمَرْنَا لِيَلَّا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء. قالوا: معناها أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناها أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبيرة أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناها: جعلناهم أمراء. قلت: هذا إنما يجيء على قراءة من قرأ: ﴿أَمَرْنَا مترفيها﴾؛ قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مترفيها ففسقوا فيها﴾، يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُتْرَفِيهَا يَمْكُرُونَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيع بن أنس.

وقال العوفي: عن ابن عباس - رضي الله عنه -: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾، يقول: أكثرنا عددهم. وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك، عن الزهري: ﴿أمرنا مترفيها﴾: أكثرنا. وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

[٤٢٢٣] حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعمة العدوي، عن مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ مهرة مأمورة، أو سيكة مأمورة»^(٢). قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - في كتابه الغريب: المأمورة كثيرة التسلل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأمورة من التأبير. وقال بعضهم: إنما جاء هذا متاسباً، كقوله:

[٤٢٢٤] ﴿مَأزوراتٍ غير مأجورات﴾^(٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

يقول تعالى مُنْذِرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من

(١) أخرجه ابن حبان ٦٧٢٤، والحاكم ٣٣/١، والبزار ٢١٨٠، والطبراني ١٢٧٦٤، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٢/٧: رجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الشيخ شعيب، لكن أعله البزار بقوله: رواه جماعة، فوقفوه على ابن عباس. وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنن» ٧٠٣ واللالكائي في «السنن» ١١٢٧ من طريق جرير بن حازم به موقوفاً، وهو أشبه، والله تعالى أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤، وهو حديث ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه ابن ماجه ١٥٧٨ من حديث علي، وله قصة، قال البوصيري في «الزوائد»: دينار بن عمر أبو عمر، وإن وثقه وكيع وابن حبان، فقد قال الأزدي: متروك، وقال أبو حاتم: ليس بالمشهور، وقال الخليلي في «الإرشاد»: كذاب، وإسماعيل بن سليمان، قال أبو حاتم صالح. لكن قال ابن حبان في «الثقات» يخطئ.

بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح - عليهما السلام - على الإسلام، كما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - : كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذوبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فَعَفُوْبَتِكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى. وقوله: ﴿رَغِبْنَا بِرَبِّكَ يَذُوبٌ يَبَاقٍ خَيْرًا بَعِيرًا﴾، أي: هو عالمٌ بجميع أعمالهم، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، لا يخفى عليه منها خافية، سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾
وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ يَحْضُلُ لَهُ، بَلْ إِنَّمَا يَحْضُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿يَصْلَاهَا﴾، أي: يَدْخُلُهَا حَتَّى تَغْمُرَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وضييعه، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿مَدْحُورًا﴾، مُبْعَدًا مَقْصِيًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مَهَانًا.

[٤٢٢٥] قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا ذؤيد، عن أبي إسحاق، عن زُرْعَةَ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارٌ من لا دار له، ومالٌ من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(١). وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾، أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي: طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: وقلبه مؤمن، أي: مُصَدِّقٌ مُوقِنٌ بِالثَوَابِ وَالْجَزَاءِ، ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَاللَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾، أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نُمدُّهم فيما هم فيه ﴿وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾، أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة. ولا رادٌ لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مُغَيِّرٌ لما أراد. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: ممنوعاً، أي: لا يمنع أحدٌ ولا يرده رادٌ. قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: منقوصاً. وقال الحسن، وابن جرير، وابن زيد: ممنوعاً. ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يُعْمَرُ حَتَّى يَبِيْئَ شَيْخًا كَبِيرًا، وبين ذلك، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات متفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

[٤٢٢٦] وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليزورون أهل عِلِّيِّين كما تزور الكوكب الغابر في أفق السماء»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً﴾.

[٤٢٢٧] وفي الطبراني، من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعاً: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها»، ثم قرأ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً﴾^(٢).

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا﴾

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على شريكك به ﴿مَّخْدُورًا﴾، لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً، لأن مالك النفع والضّر هو الله وحده، لا شريك له.

[٤٢٢٨] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما غنى آجل، وإما غنى عاجل»^(٣). ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، به، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَمْ يَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾^(٢٤)

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء هنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾، يعني: وصى. وكذا قرأ ذلك أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم. «وَوَصَّىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» ولهذا قرن بعبادته بوالدَيْنِ فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَبِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَمْ يَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: لا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾، أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾: ﴿وَلَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَىٰ وَالِدَيْكَ﴾. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: لئناً طيباً حسناً بأدبٍ وتوقير وتعظيم. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ من حديث أبي سعيد الخدري وصلره «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرق من فوقهم...».

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٦١٠١، وأبو نعيم في «الحلية» ٢٠٤/٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٢٤: فيه أبو الصباح عبد الغفور، وهو متروك.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٤٥ والترمذي ٢٣٢٧ وأحمد ٤٠٧/١ وأبو يعلى ٥٣١٨، صححه الحاكم ٤٠٨/٢ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

جَنَاحَ الَّذِي مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿٢٢﴾ ، أي : تواضع لهما بفِعْلِكَ ، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا﴾ ، أي : في كِبَرهما وعند وفاتهما ﴿كَأَنَّ رَبِّيَ لَصَفِيرًا﴾ . قال ابن عباس - رضي الله عنه - : ثم أنزل الله تعالى : ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] .

وقد جاء في برِّ الوالدين أحاديث كثيرة، منها:

[٤٢٢٩] الحديث المروي من طُرُق عن أنس وغيره: أن رسولَ الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «أمين، أمين، أمين. فقالوا: يا رسولَ الله، عَلَامَ آمَنْتُ؟ قال: أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ ذُكِرَتْ عنده فلم يُصلِّ عليك، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ دخل عليه شهرُ رمضانَ ثم خرَّج فلم يُغفرَ له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ أدركَ أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين»^(١) .

[٤٢٣٠] حديثٌ آخرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرَّارةُ بن أوفى، عن مالك بن الحارث، رجُلٍ منهم، أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «من صَمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتَّى يستغني عنه، وَجِبَتْ له الجنةُ البتَّةُ . ومن اعتقَ امرأً مسلماً كان فكأكه من النار، يُجْزِي بكلِّ عُضْوٍ منه عُضْواً منه»^(٢) .

[٤٢٣١] ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سَمِعْتُ عَلِيَّ بن زيد . . . فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجلٍ من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: ومن أدركَ والديه أو أحدهما، فدخل النار، فأبعده الله»^(٣) .

[٤٢٣٢] حَدِيثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زُرَّارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القشيري: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من اعتقَ رقبةً مسلمةً فهي فداؤه من النار، مكان كلِّ عظمٍ من عظامِ محرَّره بعظمٍ من عظامه، ومن أدركَ أحدَ والديه ثم لم يُغفرَ له فأبعده الله عزَّ وجلَّ . ومن صَمَّ يتيماً بين أبوين مُسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يُغنيه الله وَجِبَتْ له الجنةُ»^(٤) .

[٤٢٣٣] حَدِيثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجاجٌ ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سَمِعْتُ زُرَّارة بن أوفى يُحدِّث عن أبي بن مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدركَ والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه»^(٥) . وَرَوَاهُ أبو داودَ الطيالسيُّ عن شعبة، به . وفيه زياداتٌ آخرُ .

[٤٢٣٤] حَدِيثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سُهَيْل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثم رَغِمَ أَنْفٌ، ثم رَغِمَ أَنْفٌ رجلٍ أدركَ

(١) حسن . أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٠/١٦٦ من حديث أنس وقال: وفيه سلمة بن وردان، وهو ضعيف، وقد قال البزار: صالح، ورقية رجاله رجال الصحيح اهـ . وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٦ وإسماعيل القاضي ١٨ وابن حبان ٩٠٧ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن .

وفي الباب من حديث جابر عند البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٤ . وانظر «المجمع» ١٠/١٦٤ - ١٦٧ .

(٢) حسن . أخرجه أحمد ٥/٢٩ (١٩٨١٩) وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن له شواهد .

(٣) حسن . أخرجه أحمد ٥/٢٩ (١٩٨١٨) وهو حسن لشواهد .

(٤) حسن . أخرجه أحمد ٤/٣٤٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/١٣٩ - ١٤٠ : وإسناده حسن . وله شواهد .

(٥) صحيح . أخرجه أحمد ٤/٣٤٤ وإسناده صحيح، وله شواهد .

وَالَّذِيهِ، أحدهما أو كلاهما عند الكِبَرِ، ولم يَدْخُلِ الجنة^(١). صحیح من هذا الوَجْهِ، ولم يُخْرِجْهُ سوى مسلم، من حديث أبي عَوَانَةَ وَجَرِيرٍ وَسُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ، عن سُهِيلٍ، به.

[٤٢٣٥] حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ربيعُ بن إبراهيم. قال أحمدُ: وهو أخو إسماعيل بنُ عُليَّةَ، وكان يُفَضَّلُ على أخيه، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رَزَمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ. وَرَزَمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرٌ مَرْضَانًا فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَزَمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عنده أبواه الكِبَرُ فلم يدخله الجنة». قال ربيعُ: ولا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»^(٢). ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدَوْرَقِيِّ، عن ربيعِ بن إبراهيم، ثم قال: غريبٌ من هذا الوَجْهِ.

[٤٢٣٦] حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن العَسِيلِ، حدثنا أسيدُ بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة السَّاعِدِيِّ قال: «بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسولَ الله، هل بقي عليٌّ من بَرِّ أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: نعم، خصال أربع: الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما، وإكرامُ صديقيهما، وصلةُ الرحم التي لا رِجَمَ لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من بَرِّهما بعد موتهما»^(٣). ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سُلَيْمَانَ، وهو ابن العَسِيلِ، به.

[٤٢٣٧] حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رُوَيْحٌ، أخبرنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عنه معاوية بن جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ: أن جَاهِمَةَ - رضي الله عنه - جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أردتُ العَزْوُ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ؟ فقال: هل لك من أمٍّ؟ قال: نعم. فقال: الزَّمَمَا، فإنَّ الجنةَ عند رِجْلَيْهَا، ثم الثانية ثم الثالثة، في مَقَاعِدِ شَتَى، كَمَثَلِ هذا القَوْلِ^(٤). ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن جُرَيْجٍ، به.

[٤٢٣٨] حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلْفُ بنُ الوليد حدثنا ابن عِيَّاشٍ، عن بَجِيرِ بن سَعِيدٍ، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن المِقْدَامِ بن مَعْدٍ يَكْرِبُ الكِنْدِيِّ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ بِالْأَقْرَبِ»^(٥). وقد أخرجه ابنُ ماجه، من حديث ابن عِيَّاشٍ، به.

[٤٢٣٩] حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونس، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن أشعث بن سُلَيْمٍ، عن أبيه، عن رجلٍ من بني يَزْبُوعٍ قال: أتيتُ النبي ﷺ فسمعتُه وهو يُكَلِّمُ النَّاسَ يقولُ: «يَدُ المَعْطِيِّ العُلْيَا. أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»^(٦).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٥١ وأحمد ٣٤٦/٢.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٥٤٥ وأحمد ٢٥٤/٢ وابن حبان ٩٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٤٢ وابن ماجه ٣٦٦٤ وأحمد ٤٩٨/٣ وفيه علي بن عبيد، قال الذهبي في الميزان: لا يعرف، وانظر ضعيف أبي داود ١١٠١.

(٤) حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٤٣١٢ وابن ماجه ٢٧٨١ وأحمد ٤٢٩/٣.

(٥) حسن. أخرجه ابن ماجه ٣٦٦١ وأحمد ١٣١/٤ و١٣٢ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٦) صحيح، أخرجه أحمد ٦٤/٤ - ٦٥/٥ و٣٧٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٩٨/٣: ورجاله رجال الصحيح.

[٤٢٤٠] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مُسْتَدِهِ: حدثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقِي، حَدَّثَنَا عمرو بن سُفْيَان، حَدَّثَنَا الحَسَنُ بن أبي جَعْفَرٍ، عن ليث بن أبي سُلَيْمٍ، عن علقمة بن مَرْزُودٍ، عن سليمان بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه: أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي الطَّوَافِ حَامِلًا أُمَّهُ يَطُوفُ بِهَا، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: هَلْ أَدَيْتُ حَقَّهَا؟ قَالَ: لَا، وَلَا بَرْقَرَةَ وَاحِدَةً، أَوْ كَمَا قَالَ (١). ثم قال البزار: لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. قلت: والحسن بن أبي جعفر ضعيف، والله أعلم.

﴿رَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأُولَئِكَ عَفْوَراً﴾ ﴿٢٥﴾

قال سعيد بن جُبَيْر: هو الرجل تكون منه الباردة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به. وفي رواية: لا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ، فقال: ﴿رَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لِلأُولَئِكَ عَفْوَراً﴾، قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المستحين. وفي رواية عنه: المُطِيعِينَ الْمُحْسِنِينَ. وقال بعضهم: هم الذين يُصَلُّونَ بَيْنَ الْعِشَاءِ مِنْهُمْ. وقال بعضهم: هم الذين يُصَلُّونَ الضُّحَى. وقال شعبة، عن يحيى بن سَعِيدٍ، عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لِلأُولَئِكَ عَفْوَراً﴾، قال: الَّذِي يُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ، وَيُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمّر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب، به. وكذا رواه الليث وابن جُرَيْجٍ، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيّب به. وكذا قال عطاء بن يسار.

وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد، عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لِلأُولَئِكَ عَفْوَراً﴾، قال: هو الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا. ووافقه مجاهد في ذلك. وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلمة، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لِلأُولَئِكَ عَفْوَراً﴾، قال: كُنَّا نَعُدُّ الْأَوَابَ الْحَفِيفَ، أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَحْبَبْتُ فِي مَجْلِسِي هَذَا. قال ابن جرير: «والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصواب: لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، تقول: أب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِيْتَانًا لِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥].

[٤٢٤١] وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «أيون تائبون عابدون، لربنا حامدون» (٢).

﴿وَأَبَآئَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْدُرْ تُبْدِيرًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْبَدْرَيْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آيَاتَهُ رَمَقًا مِّن رَّبِّكَ تَرْحُمَهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ﴿٢٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلية الأرحام.

[٤٢٤٢] كما تقدم في الحديث: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب» (٣).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٢٥٥ من هذا الوجه بنحوه، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٣٧/٨ وقال: وفيه الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس اهـ.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٩٧ ومسلم ١٣٤٤ وأبو داود ٢٧٧٠ وأحمد ٦٣/٢ وابن حبان ٢٧٠٧ من حديث ابن عمر مطولاً.

(٣) تقدم برقم ٤٢٣٩.

[٤٢٤٣] وفي الحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيَسْأَلَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ»^(١).

[٤٢٤٤] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهما «فدك»^(٢). ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي، وحميد بن حماد بن أبي الحوار. وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وقد إنما فتحت مع خبير سنة سبغ من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ فهو إذاً حديث منكراً، والأشبه أنه من وضع الرافضة. والله أعلم.

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقوله: ﴿وَلَا تُبَدِّرْ تَبَدُّرًا﴾، لما أمر بالإنفاق نهي عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ثم قال مُنْقَرَأً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: أشباههم في ذلك. وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: والتبذير الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مُبَدِّراً. ولو أنفق مُدًّا في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادة: التبذير الإنفاق في المعصية، وفي غير الحق وفي الفساد.

[٤٢٤٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ ووليدٍ وحاضرةٍ، فأخبرني: كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقبائك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين. فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ قال: ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَلَا يُبَدِّرْ تَبَدُّرًا﴾ [١٦]. فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها»^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: في التبذير والسفهِ، وتزك طاعة الله وارتكاب معصيته. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ إِتْعَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾، أي: وإذا سألك أقبائك ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة، «فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْ سُوْرَةٍ»، أي: عدهم وعداً بسهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسَنَصِلْكُمْ إن شاء الله. هكذا فسّر قوله: «فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْ سُوْرَةٍ» بالوعد - مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتدة، وغير واحد.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٨٦ ومسلم ٢٥٥٧ وأحمد ٣/٢٢٩ وابن حبان ٤٣٨.

(٢) باطل، أخرجه أبو يعلى ١٠٧٥ و١٤٠٩، والطبراني كما في «المجمع» ١١١٢٥، وإسناده ضعيف جداً. قال الهيثمي: فيه عطية العوفي، ضعيف متروك أه، وله علة ثانية: فضيل بن مرزوق، وإن وثقه ابن عيينة وابن معين، فقد ضعفه النسائي والدارمي، وقال الحاكم: عيب على مسلم إخرجه له في الصحيح. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً، يروي عن عطية الموضوعات، قال الذهبي: عطية أضعف منه، وضعفه ابن معين أه الميزان ٦٧٧٢.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٣/١٣٦ والطبراني في «الأوسط» ٨٧٩٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦٣/٣ وقال: ورجاله أحمد رجال الصحيح.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أي: لا تكن بخيلاً متوَعماً، لا تُعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: نَسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب. وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، أي: ولا تُسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتُخرج أكثر من دخلك، فتقعُد ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللَّفِّ والتشريح، أي: فتقعُد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ يَبْخُلْ بِمَالِهِ
عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَنْفَنَ عَنْهُ وَيُذَمِّمَ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير - وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوفقت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّرَ بِقَلْبِكَ الْبَصَرَ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [الملك: ٣، ٤]، أي: كليلٌ عن أن يرى عيباً. هكذا فسّر هذه الآية بأن المراد منها البخل والسرف ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم.

[٤٢٤٦] وقد جاء في الصحيحين، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثدييهما إلى تراقيههما. فأما المنفق فلا يُنفق إلا سبغت - أو: وقزت - على جلده، حتى تُخفي بَنَانَهُ وتَعْمُو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن يُنفق شيئاً إلا لَرِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مكانها، فهو يُوسعها ولا تتسع^(١). هذا لفظ البخاري في «الزكاة».

[٤٢٤٧] وفي الصحيحين، من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُنْفِقِي هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِي قِيوعِي الله عليك، ولا تُوكِي قِيوكِي الله عليك». وفي لفظ: «ولا تُحْصِي قِيحِصِي الله عليك»^(٢).

[٤٢٤٨] وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قمام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(٣).

[٤٢٤٩] وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرّة، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفَاءً»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٣ ومسلم ١٠٢١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٣٣ ومسلم ١٠٢٩ وأحمد ٣٤٥/٦ وابن حبان ٣٢٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٩٣ ح ٣٧.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٢ ومسلم ١٠١٠.

[٤٢٥٠] وروى مسلم، عن قُتَيْبَةَ، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

[٤٢٥١] وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً: «إِيَّاكُمْ وَالشَّخَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَجَلُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا»^(٢).

[٤٢٥٢] وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَخْرُجُ رَجُلٌ صَدَقَةً حَتَّى يَنْكُ لَخِي سَبْعِينَ شَيْطَانًا»^(٣).

[٤٢٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَيْنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْهَجْرِيُّ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا عَالَ مِنْ اقْتَصَدَ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: إخبارٌ أنه تعالى هو الرزاق، القابضُ الباسطُ، المتصرفُ في خلقه بما يشاء، فيُغني من يشاء ويُفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَبْأَوِي خَيْرًا مِنْ بَصِيرًا﴾، أي: خَيْرٌ بِصِيرٍ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:

[٤٢٥٤] «إِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ»^(٥). وقد يكون الغنى في حقِّ بعضِ الناسِ استدراجاً، والفقْرُ عقوبةً، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَلْبَهُمْ كَانَ خِطَافًا كَبِيرًا﴾^(٦)

هذه الآيةُ الكريمةُ دالةٌ على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالى ينهى عن قتل الأَوْلَادِ كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهلُ الجاهلية لا يُورثون البنات، بل كان أحدهم رُبما قتل ابنته لثلاثِ تكثُرِ عيَلته، فنهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، أي: خوفٌ أن تفتقرُوا في ثاني

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ والترمذي ٢٠٢٩ وأحمد ٢٣٥/٢ وابن حبان ٣٢٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٩٨ من حديث عبد الله بن عمرو بهذا السياق. وأخرجه أحمد ١٩٥/٢ والحاكم ١١/١ وابن حبان ٥١٧٦ والبيهقي ٢٤٣/١٠ من حديث ابن عمرو بأتم منه، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥٠/٥ والبيهقي في «السنن» ١٨٧/٤ وصححه الحاكم ٤١٧/١ على شرطهما، ووافقه الذهبي، ووثق رجاله الهيثمي في «المجمع» ١٠٩/٣، وقال المنذري في «الترغيب» ١٢٨٢: رواه أحمد والبيزاري والطبراني وابن خزيمة في «صحيحه» وتردد في سماع الأعمش عن بريدة أمه. قلت: فيه عننة الأعمش وهو مدلس.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤٧/١، والطبراني ١٠١١٨، والبيهقي في «الشعب» ٦٥٦٩، والقضاعي ٧٦٩ و ٧٧٠ من حديث ابن مسعود، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف. وورد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٦٥٦، والبيهقي ٦٥٧٠ وإسناده ضعيف، الضحاك لم يلقَ ابن عباس. وورد من حديث ابن عمر بنحوه، أخرجه البيهقي ٦٥٦٨ وفيه غيبس بن تميم عن حفص، قال أبو حاتم: مجهولان، وورد بمعناه أحاديث واهية ربما يتقوى. بها راجع «المقاصد الحسنة» ١٤٠، والشذرة ١٢٥، والله أعلم.

(٥) يأتي تخريجه في سورة الشورى، آية ٢٧ إن شاء الله تعالى.

الحال، ولهذا قَدِمَ الاهتمام برزقهم فقال: ﴿عَنْ رَزُقْتُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، أي: من فقر، ﴿عَنْ رَزُقْتُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾، أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم «كان خطأ كبيراً»، وهو بمعناه.

[٤٢٥٥] وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنوب أعظم؟ قال: أن تجعلَ لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشيةً أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني خليلة جارك^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ كَانَفُسًا سَيِّئًا﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مُقاربتِهِ، وهو مخالطة أسبابه ودَوَاعِيهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ كَانَفُسًا﴾، أي: ذنباً عظيماً، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، أي: وبئس طريقاً ومسلكاً.

[٤٢٥٦] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: ادنّه. فدنا منه قريباً، فقال: اجلس. فجلس، قال: أفتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعممتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(٢).

[٤٢٥٧] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقرية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة ووضعت رجل في رجم لا يحل له»^(٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي

الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ مَنْصُورًا﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: [٤٢٥٨] «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٤).

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢ و ١٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٥٧/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/١٢٩: ورجال رجال الصحيح.

(٣) إسناده ضعيف جداً. فهو مرسل، الهيثم تابعي، وفيه بقرية مدلس، وقد عنعن، وفيه أيضاً أبو بكر ضعيف.

(٤) تقدم.

[٤٢٥٩] وفي السنن: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَمْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِ»^(١). وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾، أي: سُلْطَةٌ عَلَى الْقَاتِلِ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوْدًا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَانًا، كَمَا ثَبَتَ السُّنَّةُ بِذَلِكَ. وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الْحَبِيبُ بْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَايَةَ مَعَاوِيَةَ السُّلْطَنَةِ، وَأَنَّهُ سَيَمْلِكُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَلِيَّ عِثْمَانَ، وَقَدْ قُتِلَ عِثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَظْلُومًا. وَكَانَ مَعَاوِيَةُ يَطَالِبُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُ قَتْلَهُ حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ أَمْرِيٌّ، وَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَمْتَهُ فِي الْأَمْرِ حَتَّى يَتِمَّكَنَ وَيَفْعَلَ ذَلِكَ، وَيَطْلُبُ عَلِيًّا مِنْ مَعَاوِيَةَ أَنْ يُسَلِّمَهُ الشَّامَ، فَيَأْبَى مَعَاوِيَةُ ذَلِكَ حَتَّى يُسَلِّمَهُ الْقَتْلَةَ، وَأَبَى أَنْ يُبَايِعَ عَلِيًّا هُوَ وَأَهْلُ الشَّامِ، ثُمَّ مَعَ الْمَطَاوِلَةِ تَمَكَّنَ مَعَاوِيَةُ، وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ كَمَا تَفَاءَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاسْتَنْبَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَهَذَا مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ.

وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال: حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عُمَيْرِ بْنِ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا صَفْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ ابْنِ شَوْذَبِ، عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ، عَنْ زَهْدَمِ الْجَزْمِيِّ قَالَ: كُنَّا فِي سَمْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ: إِنِّي مَحْدُثُكُمْ حَدِيثًا لَيْسَ بِسَرٍّ وَلَا عِلَاقِيَّةٍ؛ إِنَّهُ لَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ مَا كَانَ، يَعْنِي عِثْمَانَ، قُلْتُ لِعَلِيِّ: اعْتَزَلْ، فَلَوْ كُنْتُ فِي جُحْرِ طَلَيْتٍ حَتَّى تُسْتَخْرِجَ. فَعَصَانِي، وَإِيْمُ اللَّهِ لِيَتَأَمَّرَنَّ عَلَيْكُمْ مَعَاوِيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، وَلَيَحْمِلَنَّكُمْ قَرِيْشٌ عَلَى سُنَّةِ فَارِسٍ وَالرُّومِ، وَلَيُؤْتَمَّنَنَّ عَلَيْكُمْ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَالْمَجُوسُ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ يَمًا يُعْرَفُ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَ، وَأَنْتُمْ تَارِكُونَ، كُنْتُمْ كَقَرْنٍ مِنَ الْقُرُونِ، هَلَكَ فِيْمَنْ هَلَكَ^(٢). وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾، قَالُوا: مَعْنَاهُ: فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ، بَأَنْ يُمَثَّلَ بِهِ، أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، أَي: إِنَّ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا، وَغَالِبًا قَدْرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُلًا﴾ (٣٤)

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥)

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أَي: لَا تَنْتَصِرُوا لَهُ إِلَّا بِالْغِنْبَةِ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَنْوَلَكُمْ إِنَّكُمْ كَانُوا حَمُولًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، و﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالًا بَدَلًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِظْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

[٤٢٦٠] وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسِي: لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوْلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»^(٣). وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾، أَي: الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَالْعُقُودَ الَّتِي تَعَامَلُونَ بِهَا، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلَّ مِنْهُمَا يُسَالُ صَاحِبُهُ عَنْهُ، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُلًا﴾، أَي: عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أَي: مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ، وَلَا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾،

(١) تقدم.

(٢) موقوف، أخرجه الطبراني ٣٢٠/١٠، وفيه مطر بن طهمان الوزاق، روى له مسلم، ولكن ضعفه أبو حاتم، وقال ابن سعد: فيه ضعف، وقال يحيى وأحمد: ضعيف في عطاء خاصة أمه، فالأثر غير قوي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٢٦، وأبو داود ٢٨٦٨، والنسائي ٢٥٥/٦، وابن حبان ٥٥٦٤.

قُرْبَى بضم القاف وكسرها كالقُرطاس، وهو: الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

[٤٢٦١] قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: خير ثواباً وعاقبة. وأخبرنا أن ابن عباس كان يقول: يا معشرَ الموالي، إنكم ولّيتم أمرين بهما ملكَ الناسَ قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدرُ رجلٌ على حرامٍ ثم يدعه، ليس به إلا مخافةُ الله، إلا أبدله الله في عاجلِ الدنيا قبل الآخرة ما هو خيرٌ له من ذلك»^(١).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: لا تَقْلُ. وقال العوفي عنه: ولا تَزْمُ أحدًا بما ليس لك به عِلْمٌ. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيت، ولم تَرَ. وسمعت، ولم تسمع. وعلمت، ولم تعلم. فإن الله [تعالى] سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا عِلْمٍ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَبَيْنَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّك بِبَعْضِ الظَّنِّ إِنَّتُمْ﴾ [الحجرات: ١٢].

[٤٢٦٢] وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(٢).

[٤٢٦٣] وفي سنن أبي داود: «بشئ مطية الرجل: زعموا»^(٣).

[٤٢٦٤] وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا»^(٤).

[٤٢٦٥] وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بفاعل»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾، أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد. ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، أي: سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعمّا عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلِيكَ الْأَيَّامِ

﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨)

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجْبُرِ والتَّبَخُّرِ في المِشْيَةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: متبخرأ

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري ٢٢٣٠٦ لكن له شواهد بمعناه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٦٦ ومسلم ٦٥٦٣ وأبو داود ٤٠٩١٧ وأحمد ٤٦٥/٢ وابن حبان ٥٦٨٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٣ من حديث ابن عمر.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٢ وأحمد ٢١٦/١ وابن حبان ٥٦٨٦ وأبو داود ٥٠٢٤ من حديث ابن عباس بأتم منه.

تمتلياً مشي الجبارين، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾، أي: لن تقطع الأرض بمشيته، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وَقَسَائِمِ الْأَغْمَاقِ غَاوِي الْمُنْخَرِقِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَبْلُغَ لَيْلًا طُولًا﴾، أي: بتمالكك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح:

[٤٢٦٦] «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا، إِذْ خَسِيفَ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَنْجَلِجُلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَسَفَ بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ.

[٤٢٦٧] وفي الحديث: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ، حَتَّى لَهْوُ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَلْبِ أَوْ الْخَنْزِيرِ»^(٢).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخُمُولِ والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مرَّ عليه ابن الأَهمم يريد المقصورة وعليه جَبَابٌ خَزٌّ قد نُضِدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفَرَجَ عنها قباؤه، وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أَفْ أَفْ، شامخٌ بأنفه، ثابٍ عِظْفَه، مُصَعَّرٌ خَدَه، ينظر في عطفه: أي حَمِيْقٌ، انظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حقَّ الله منها. والله إن يمشي أحدهم طبيعته يَنْجَلِجُلُ تَلْجُلُجَ المَجْنُونِ، في كل عُضْبٍ من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لَعْنَةٌ. فَسَمِعَهُ ابْنُ الْأَهْمَمِ فَرَجَعَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَعْتَذِرْ إِلَيَّ، وَتُبَّ إِلَى رَبِّكَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمَشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ لَيْلًا طُولًا﴾^(٣).

ورأى العمريُّ العابدُ رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطرُ في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته. قال: فتركها الرجلُ بعدُ. ورأى ابنُ عمر رجلاً يخطرُ في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن معدان: إياكم والخطرُ، فإن الرَّجُلَ قد نبا فؤاده من دون سائر جسده. رواهما ابنُ أبي الدنيا.

[٤٢٦٨] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خَلْفُ بن هشام البرزّاز، حدثنا حَمَادُ بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن يُحْنَسِ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطِيطَاءُ، وَخَدَمَتْهُمُ فَارِسُ وَالرُّومُ، سَلَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ وأحمد ٣١٥/٢ وأبو يعلى ٦٣٣٤ من حديث أبي هريرة.

(٢) صدره «من تواضع لله رفعه» صحيح، فهو عجز حديث، أخرجه مسلم، وتقدم برقم ٤٢٥٠، وله شواهد أخرى، وأما باقي المتن، فضعيف جداً أخرجه الخطيب ١١٠/٢، والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٦٧ من حديث عمر، وقال الهيثمي: فيه سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ٢٣٧، عن الحسن به.

(٤) حسن لشواهده، أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥٢٥/٦ وابن أبي الدنيا ٢٤٩ كلاهما عن يُحْنَسِ بن عبد الله، وهو تابعي =

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾، أما من قرأ «سينة»، أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهيينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ إلى ها هنا، فهو سينة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده، كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى ها هنا، فسيئه، أي: فقيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

﴿ذَلِكَ وَمَا أَرْحَمَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهييناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد، لتأمر به الناس. ﴿وَلَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾، أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿مَدْحُورًا﴾، أي: مبعداً من كل خير؛ وقال ابن عباس وقتادة: مطروداً. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - معصوم.

﴿أَفَأَصْفَنَّاكُمْ رِبِّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَنَّاكُمْ رِبِّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾، أي: خصصكم بالذكر ﴿وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾، أي: واختار لنفسه على زعيمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: في زعمكم أن الله ولد، ثم جعلكم ولده الإناث اللاتي تأتون أن يكن لكم، وربما تقتلوهن بالواد، فتلك إذا قسمة ضيزى. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٤١﴾﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٤٢﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنِّي وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَجْرُؤُا لِجِبَالِ هَذَا ﴿٤٣﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٤٤﴾ وَمَا يَبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤٥﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا تَرَىٰ الرَّحْمَنَ عِبَادًا ﴿٤٦﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٤٧﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى: ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ليذكروا؛ وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ، فينزعجوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: عن الحق، وبعداً منه.

نقّة، فهو مرسل، ووصله الطبراني في «الأوسط» ١٣٢ بذكر أبي هريرة وحسنه الهيثمي ٢٣٧/١٠ مع أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، لكن له شواهد. فقد أخرجه ابن المبارك ١٨٧ «رواية نعيم» والترمذي ٢٢٦١، والعقيلي ١٦٢/٤، وابن عدي ٢٣٣٥/٦، والبغوي ٤٢٠٠ من حديث ابن عمر، وفي إسناد الجمع موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. لكن ساقه الترمذي من طريق آخر، وإسناده قوي، رجاله ثقات. وورد من حديث خولة بنت قيس أخرجه ابن حبان ٦٧١٦ وإسناده غير قوي، لكن يشهد لما قبله، فالحديث حسن بشواهد، إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعبَدُ لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه وابتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبدّه من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقُدّسها فقال: ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى: تُقَدِّسُهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، أي: من المخلوقات، وتزّهره وتُعظّمه وتبجلّه وتكبرّه عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في رُبوبيته وإلهيته:

فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمٰوٰتُ بِقَعْقَرِن مِنهُ وَتَنسُقُ الْأَرْضُ وَنَحْنُ لِلْيَالِ هَذَا ﴿٤٥﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمٰنِ وَلَكًا ﴿٤٦﴾ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٢٦٩] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤدّن مسجد الرملة، حدثنا عُرْوَةُ بن رويم، عن عبد الرحمن بن قُرْظٍ: أن رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِي به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بَلَغَ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ، فلما رَجَعَ قال: سَمِعْتُ تَسْبِيحًا فِي السَّمٰوٰتِ الْعُلَىٰ مَعَ تَسْبِيحِ كَثِيرٍ: سَبَّحَتِ السَّمٰوٰتُ الْعُلَىٰ مِنْ ذِي الْمَهَابَةِ، مُشْفِقَاتٍ لَذِي الْعُلُوِّ بِمَا عَلَا، سَبَّحَانَ الْعُلَىٰ الْأَعْلَىٰ، سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَىٰ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: وما من شيء من المخلوقات إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين.

[٤٢٧٠] كما ثبت في صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»^(٢).

(١) منكر. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٤٣ والذهبي في الميزان ٨٤٨٠، وقال الذهبي: مسكين بن ميمون، لا أعرفه، وخيره منكر، ونقل الهشمي كلام الذهبي، ووافقه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٧٩ والترمذي ٣٦٣٣ وابن حبان ٦٤٩٣.

[٤٢٧١] وفي حديث أبي ذرٍّ - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهنّ تسبيح كَحَنِينِ الثَّحْلِ. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم أجمعين - وهو حديث مشهور^(١) في المسانيد.

[٤٢٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه مرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوا سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فزبّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه»^(٢).

[٤٢٧٣] وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيقتها تسبيح^(٣). وقال قتادة، عن عبد الله بن باباه، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبلُ الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبداً قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال «سبحان الله»، فهي صلاة الخلاق التي لم يدعُ الله أحد من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم.

[٤٢٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصّغَب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالة مكفوفة بديباج، أو: مززورة بديباج، فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبي ﷺ مغضباً، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: لا أرى عليك ثياب من لا يعقل. ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: إن نوحاً - عليه السلام - لما حضرته الوفاة، دعا ابنه فقال: إني قاصص عليك الوصية: أمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر، وأمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت «لا إله إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح. ولو أن السموات والأرض كانتا خلقة، فوضعت «لا إله إلا الله» عليهما لقصمتها أو لقصمتها. وأمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء^(٤). ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصّغَب بن زهير، به، أطول من هذا. تفرد به.

[٤٢٧٥] وقال ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلى، عن موسى بن

(١) كذا ذكر المصنف رحمه الله! والصواب أنه غير مشهور، بل هو إلى الضعف أقرب. أخرجه البزار ٢٤١٣ و ٢٤١٤ والطبراني في الأوسط ١٢٦٥، وقال في «المجمع» ١٤١٠٣: رواه البزار بإسنادين رجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف أه، وضعفه الحافظ في «الفتح» ٥٩٢/٦ وهو كما قال، ففي أحد إسناديه مجهول، وفي الآخر صالح بن أبي الأخضر، وقد ضعفه الجمهور.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ ح ١٥٢١٩ وفيه ابن لهيعة عن زبّان عن سهل بن معاذ، وثلاثتهم ضعفاء، لكن رواه أحمد برقم ١٥٢١٢ و ١٥٢١٣ و ١٥٢١٤ من وجه آخر عن سهل بن معاذ به، وسهل ضعيف الحديث، روى مناكير.

(٣) مضى في سورة المائدة: ٩٦.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ١٦٩/٢ - ١٧٠ و ٢٢٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦١٩/٤ - ٦٢٠ وقال: رجاله ثقات اه. قلت: رجال الإسناد على شرطهما سوى الصغَب، وهو ثقة.

عُبَيْدَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ أَمْرٌ بِهِ نُوْحُ ابْنُهُ؟ إِنَّ نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِابْنَتِهِ: يَا بِنْتِي، أَمْرُكَ أَنْ تَقُولَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ»، فَإِنَّمَا صَلَاةُ الْخَلْقِ وَتَسْبِيحُ الْخَلْقِ، وَبِهَا يُزَوِّقُ الْخَلْقَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»^(١). إسناده فيه ضعف، فَإِنَّ الرَّبْذِيَّ ضَعِيفٌ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، قَالَ: الْأَسْطُوَانَةُ تُسَبِّحُ، وَالشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ. الْأَسْطُوَانَةُ: السَّارِيَةُ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ صَرِيرَ الْبَابِ تَسْبِيحُهُ، وَخَرِيرَ الْمَاءِ تَسْبِيحُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ». وَقَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: الطَّعَامُ يُسَبِّحُ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ آيَةُ السُّجْدَةِ فِي أَوَّلِ الْحَجِّ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا يُسَبِّحُ مَا كَانَ فِيهِ رُوحٌ. يَعْنُونَ مِنْ حَيَوَانَ أَوْ نَبَاتٍ، قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوحُ يَسَبِّحُ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوحُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ، وَالضُّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوحُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ وَزَيْدُ بْنُ حُبَابٍ قَالَا: حَدَّثَنَا جَرِيرُ أَبُو الْخَطَّابِ قَالَ: كُنَّا مَعَ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ وَمَعَهُ الْحَسَنُ فِي طَعَامٍ، فَقَدَّمُوا الْخَوَانَ، فَقَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، يُسَبِّحُ هَذَا الْخَوَانَ؟ فَقَالَ: كَانَ يَسْبِغُ مَرَّةً. قُلْتُ: الْخَوَانَ هُوَ الْمَائِدَةُ مِنَ الْخَشَبِ. وَكَانَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ حَيًّا فِيهِ خُضْرَةٌ كَانَ يُسَبِّحُ، فَلَمَّا قُطِعَ وَصَارَ خَشَبًا يَابَسَةً انْقَطَعَ تَسْبِيحُهُ.

[٤٢٧٦] وَقَدْ يُسْتَأْنَسُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ يَخْفَفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسِيسَا»^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّمَا قَالَ: «مَا لَمْ يَبْسِيسَا» لِأَنَّهَا يُسَبِّحَانِ مَا دَامَ فِيهِمَا خُضْرَةٌ، فَإِذَا بَسِيسَا انْقَطَعَ تَسْبِيحُهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّكُمْ كَانْتُمْ حَلِيمًا عَفُورًا»، أَي: إِنَّهُ لَا يُعَاجِلُ مِنْ عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، فَإِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:

[٤٢٧٧] «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَذَلِكَ أَخَذُوا رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرِّسِيُّ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(٣) [هود: ١٠٢]. . . . الْآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: «وَكَايُنَ مِنْ قَرِيْبَةٍ آتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنَّ الْعَمِيْرَ»^(٤) [الحج: ٤٨]. وَمَنْ أَقْلَعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ عِضْيَانٍ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا»^(٥) [النساء: ١١٠]. وَقَالَ هُنَا: «إِنَّكُمْ كَانْتُمْ حَلِيمًا عَفُورًا»، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسِيْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ حَلِيمًا عَفُورًا﴾^(٦)، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ وَاللَّيْنِ يُؤَخِّرُهُمْ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْبِقُ اللَّهُ كَانَ يَبْكَوْهُ بَصِيرًا»^(٧).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٢٣٢٥ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، لضعف موسى بن عبيدة.

(٢) صحيح. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٣٧٨ وَمُسْلِمٌ ٢٩٢ وَأَبُو دَاوُدَ ٢٠ وَالتِّرْمِذِيُّ ٧٠ وَالنَّسَائِيُّ ٢٨/١ - ٣٠ وَابْنُ مَاجَةَ ٣٤٧ وَاحِدٌ ٢٢٥/١ وَابْنُ حِبَانَ ٣١٢٨.

(٣) وَتَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ آيَةِ: ١٢٦.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ عَلَّمْتَ أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يا محمد - على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾، أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشووم بمعنى يامن وشائم، لأنه من يمتنهم وشائمهم. وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى تزجيحه ابن جرير رحمه الله.

[٤٢٧٨] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، جاءت العوزاء أم جُمَيْل ولها ولوة، وفي يدها فهر وهي تقول: مُدْمَمَا آتِينَا، أو: آبِينَا، قال أبو موسى: الشك مِنِّي - ودينه قَلَيْتَا، وأمره عَصِينَا. ورسولُ الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، أو قال: معه، قال: فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ ﴿٤٥﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلَغْنِي أَنْ صَاحِبِكَ هِجَانِي. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هَجَاكِ. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد عَلِمْتَ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كَيْتَانِ»، الذي يَغْشَى القلب، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، أي: ليثلا يفهموا القرآن، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً يفهمهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ﴾، أي: إذا وَحَّدْتَ الله في تلاوتك، وَقُلْتَ: «لا إله إلا الله»، ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾، أي: أدَّبُوا رَاجِعِينَ ﴿عَلَّمَ أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ﴾، ونفور: جمع نافر، كغُعود جمع قاعد. ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنَّ أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكَبُرَتْ عليهم، وصَافَهَا إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُمَضِّبَهَا وينصُرَهَا ويظْهَرَهَا على من نَآوَأَهَا، إنها كلمة من خاصم بها قَلَج، ومن قَاتَلَ بها نُصِر، إنما يُعْرِفُهَا أَهْلُ هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسير الدهر في فنام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

قول آخر في الآية: قال ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الدَّارِع، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنَّ أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ﴾: هم الشياطين. وهذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشيطان إذا قُرِئ القرآن، أو نُودِيَ بالأذان، أو ذُكِرَ الله، انصَرَفَ.

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٥ و ٢٣٥٨ من حديث ابن عباس دون ذكر الآية ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ...﴾ وإسناده ضعيف.

﴿مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرّاً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أي: إن تبعون - إن اتبعتم محمداً - إلا بشراً يأكل، كما قال الشاعر:

فإن تسألينا فيم نخن فلئنا
عصافير من هذا الأنام المسخر

وقال الآخر:

ونسخر بالطعام وبالشراب

أي تُغذى: وقد صوّب هذا القول ابن جرير. وفيه نظر، لأنهم إنما أرادوا ما هنا أنه مسحور له ربي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه. ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال [تعالى]: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾، أي: فلا يهتدون إلي الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

[٤٢٧٩] قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رأيتم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي خلّفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل - لعنه الله - فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجائنا على الركب، وكنا كقرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُذرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نُصدّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه ^(١).

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا لَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا

(١) هذا مرسل، ولاصله شواهد تعضده.

مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْلًا وَرَفْنَا﴾. أي: ترابياً. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: غباراً. ﴿أَوَدَا لَسَبُوتُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلَقْنَا جَدِيدًا﴾ أي: بعدما بئلينا وصرنا عذماً يذكر، كما أخبر عنهم في الموضوع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَوَدَا لَمَزُودُونَ فِي الْمَآفِقِ﴾ ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْلًا نَحْرَةً﴾ ﴿قَالُوا يَا نَكَّ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَصَدْرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِي الْعِظْلَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ بِحَسْبِيَ الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وهكذا أمر [سبحانه] رسوله هنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أَوَّ خَلَقْنَا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - عن ذلك فقال: هو الموت. ورؤى عطية، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في تفسير هذه الآية. لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ.

[٤٢٨٠] وقد ذكر ابن جرير حديث: «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبِشٌ أَمْلَحٌ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُذْبِحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ»^(١). وقال مجاهد: «أَوَّ خَلَقْنَا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ»، يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم. وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: «أَوَّ خَلَقْنَا مَتَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ»، قال: «النبي ﷺ قال مالك: ويقولون: هو الموت».

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، أي: من يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا آخَرَ شَدِيدًا، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادرٌ على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، فهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهوون عليه. وقوله: ﴿نَسِيْتُمْ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً. وهذا الذي قاله هو الذي تفهّمه العرب من لغاتها، فإن الإنفاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم، وهو وُلْدُ النعام نَعْمًا، لأنه إذا مشى عَجَلٌ فِي مِشِيته وَحَرَّكَ رَأسه. ويقال: نَعَضَتْ سِنُّهُ: إِذَا تَحَرَّكَ وَارْتَفَعَتْ مِنْ مَثَبِهَا، قال الراجز:

وَنَعَضَتْ مِنْ مَرَمِ اسْنَانِهَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ [يس: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ آتٍ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾، أي: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كُنَّجٌ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، و﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا هِيَ بَجْزٍ وَجِدَةٌ ﴿٥٢﴾﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿تَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، أي: بأمره. وكذا قال ابن جرير. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، أي: وله الحمد في كل حال.

[٤٢٨١] وقد جاء في الحديث: «ليس على أهلٍ إلا إله إلا الله» وخشة في قبورهم، وكأني بأهلٍ إلا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: «لا إله إلا الله»، وفي رواية يقولون: «لَعَلَّ اللَّهُ الَّذِي آذَهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ»^(١)، وسيأتي في سورة فاطر، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وَتَقْتُلُونَ﴾، أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَيْتَنَّا﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، كما قال: ﴿كَلِمَاتٌ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَسْتَوُونَ إِلَّا عِيشَةً أَوْ مَحَنًا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا ﴿٥٢﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا عَشْرًا ﴿٥٣﴾ لَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ أَلْنَاهُمْ سَبِيلَهُ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا يَوْمًا ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَتٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَيْتَنَّا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنَّا الْعَمَّالِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٧﴾﴾

يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، وربما أصابه بها.

[٤٢٨٢] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشِيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يذري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار»^(٢). أخرجه من حديث عبد الرزاق.

[٤٢٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حدثني رجل من بني سليط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أرفلة^(٣) من الناس، فسمعتة يقول: المسلم أخو المسلم لا

(١) يأتي في فاطر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٢ ومسلم ٢٦١٧ وأحمد ٢١٧/٢ وابن حبان ٥٩٤٨.

(٣) الأرفلة: الجماعة.

يظلمه ولا يخذله، التقوى ها هنا - قال حماد: وقال بيده إلى صدره - وما تَوَادُّ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ فَيَفْرُقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِحَدِيثٍ يَحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا، وَالْمُحَدَّثُ شَرٌّ، وَالْمُحَدَّثُ شَرٌّ^(١).

﴿رَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمُ﴾ أيها الناس، أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دَخَلَ الْجَنَّةَ، ومن عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿بِكَ الرَّسُولُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

[٤٢٨٤] وهذا لا يُثَابِفي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾^(٢)، فإن المراد من ذلك هو التفضيلُ بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، لأنه إذا دَلَّ الدليلُ على شيءٍ وَجِبَ اتِّبَاعُهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرَّسُولَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهِيَ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا بَدَلَاتِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾: تَنْبِيهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ.

[٤٢٨٥] قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَائِبَتِهِ لِتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ» يعني القرآن^(٣).

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عَبَدُوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغوبوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبِّ عَنْكُمْ﴾، أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾،

(١) أخرجه أحمد ٧١/٥ ح ٢٠١٦٦ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، والحديث صحيح وله شواهد كثيرة دون عجزه فإنه تفرد به علي بن زيد، وهو غير حجة، وقد خالفه مبارك بن فضالة فلم يذكر عجز الحديث، وهذا أخرجه أحمد ٢٠١٦٥ و ٢٢٧٠٢ وعن عباد بن راشد رواه عن الحسن ٢٢٧١٨ بدون عجزه، وهو أصح، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٥٣.

(٣) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٣١.

أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدرُ على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٨﴾﴾، قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبُد الملائكةَ والمسيحَ وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكةَ والمسيحَ وعزيراً.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أُوَسِيَلَةُ إِلَهُكُمْ أَقْرَبُ﴾، روى البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مغمّر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أُوَسِيَلَةُ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يُعْبُدون، فأسلموا، - وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أُوَسِيَلَةُ﴾، قال: نزلت في نَفَرٍ من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود - رضي الله عنه -: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجنُّ فذكره وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أُوَسِيَلَةُ﴾، قال: عيسى، وأمه، وعزير. وقال مغيرة، عن إبراهيم، كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى، وعزير، والشمس، والقمر. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود، لقوله: ﴿يَبْتُغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ أُوَسِيَلَةُ﴾، وهذا لا يُعْبَرُ به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القرية كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿إِلَهُكُمْ أَقْرَبُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء ينبعث إلى الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يُبيد أهلها جميعهم أو يُعذبهم عذاباً شديداً، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَأَكْبَرُ مِنْ قَرَبٍ عَنَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَجَاسَتْهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا لَكْرًا ﴿٥٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حَسْرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

﴿وَمَا مَعْنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاثِنَا نُمُودَ الْأَقَاةِ مُبِصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾

[٤٢٨٦] قال سُنَيْد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخِّرَ له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فإن سَرَكَ أن نؤمن بك ونُصَدِّقَكَ، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: إني قد سمعتُ الذي قالوا، فإن شِئْتَ أن

فعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن تستأني بقومك استأنيث بهم؟ قال: يا رب، أستأني^(١). وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

[٤٢٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سألت أهل مكة النبي أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يتخى الجبال عنهم فيزدريعوا. فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوها، فإن كفروا أهلِكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ لِلنَّارِ كِئِيمًا﴾^(٢). وقد رواه النسائي من حديث جرير، به.

[٤٢٨٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، وتؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فاتاه جبريل - عليه السلام - فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة^(٣).

[٤٢٨٩] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي، عن عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير - رضي الله عنه - يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس^(٤): يا آل عبد مناف، إني نذير. فجاءته قريش، فحذروهم وأنذروهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويُفجر لنا الأرض أنهاراً، فتتخذها محارث فتزرع وتأكُل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فتكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهباً، فتنتح منها وتغنيتنا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال: فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سُري عنه قال: والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضيلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم إنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٤٠٠ عن سعيد بن جبير مرسلاً. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣١٠ وأحمد ٢٥٨/١ والطبري ٢٢٩٨، وصححه الحاكم ٣٦٢/٢ ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد ٢٤٢/١ وذكر الهيثمي في «المجمع» ٥٠/٧ الرواية المتقدمة وهذه الرواية وقال: رجال الروایتين رجال

الصحيح، إلا أنه وقع في أحد طرقه عمران بن الحكم، وهو وهم، وفي بعضها عمران أبو الحكم، وهو الصحيح، وهو

من رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه اهـ.

(٤) جبل بمكة.

فَطَمَعَتْ بِرِ الْأَرْضِ أَوْ كَلِمٍ بِرِ الْمَوْتِ ﴿١﴾ [الرعد: ٣١]... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا تَمُودُ الْأَنْفَاقَ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿١١﴾﴾، أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا سبب لدنيا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُرَلِّهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾. وقال تعالى عن تمود، حين سألوا أن يخرج لهم ناقة تخرج من صخرة عثبوا، فعدا صالح - عليه السلام - ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة، فقال: ﴿تَمَتَّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَيُّنَا تَمُودُ الْأَنْفَاقَ مُبِيرَةً﴾ أي: دالة على وخدائية من خلقها وصدق الرسول الذي أوجب دعاؤه فيها، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أي: كفروا بها وتمعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رُجفت على عهد ابن مسعود - رضي الله عنه - فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعيتكم، فأعتبوه. وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن.

[٤٢٩٠] وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله - عز وجل - يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعايته واستغفاره». ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحد غير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً^(٢).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَا أَلْفَ أَرْبَابٍ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفَهُمْ مِمَّا بَرَدْتُمْ إِلَّا طَغِينَا كَبِيرًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقاتدة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: عصمك منهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَا أَلْفَ أَرْبَابٍ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية.

[٤٢٩١] قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَا أَلْفَ أَرْبَابٍ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، قال: هي رؤيا عين أريها رسول

(١) والحديث ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦٧٩، وفي إسناده عبد الجبار الأيلي، ضعيف، وشيخه عبد الله بن عطاء، قال يمين: لا شيء. وشيخ أبي يعلى، ذكره الزبي، وقال: أحد النساك، ولم أجد له ترجمة أم. وقال الهيثمي ١١٢٤٥ «مجمع» عبد الجبار، وعبد الله بن عطاء، كلاهما وثق، وضعفهما الجمهور.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٤٤، ومسلم ٩٠١، وأبو داود ١١٩١، والنسائي ١٣٢/٣، والبيهقي ٣٣٨/٣ من حديث عائشة مطلقاً.

الله ﷺ ليلة أُسْرِي به، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾: شجرة الزقوم^(١). وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عُيينة، به. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهكذا قُسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، والله الحمد والمثنة. وتقدم أن ناساً رجئوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا يَشْنَأُ﴾، أي: اختياراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل - عليه لعائن الله -: هاتوا لنا تمراً وزيداً، وجعل يأكل هذا بهذا، ويقول: تزقوموا، فلا تعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد: وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم. وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بثو أمية. وهو غريبٌ ضعيفٌ.

[٤٢٩٢] قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي، عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان يثرون على منبره نزل القرد، فسأه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، قال: فانزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آرْتِيَا إِلَهِ أُرْتِكَ إِلَّا يَشْنَأُ لِلنَّاسِ﴾^(٢). . . الآية، وهذا السند ضعيفٌ جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيفٌ بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشجرة. وقوله: ﴿وَنَحْوَهُمْ﴾، أي: الكفار بالوعيد والعذاب والثكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من جذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ قَالَ لَا أَنبُدُ لَكَ طِينًا ۖ قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ لَيْسَ بِعَابِدٍ لِّئَلَّا تُفَكَّرَ ۖ ﴿٦٢﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له، ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ﴾، يقول للرب جراً وكفراً، والرب يحلم وينظر، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأختوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متقاربة، والمعنى أنه يقول: أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَأَنْتَ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْطَعْتَ مِنْهُمْ﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٦.

(٢) باطل. أخرجه الطبري ٢٢٤٣٣ معلقاً بقوله «حدثت» وهذه حلة، وأعله ابن كثير أيضاً بالحسن بن زبالة، وأنه متروك، وأن شيخه ضعيف بالكلية والصحيح ما رواه البخاري آنفاً.

يَصَوِّتُكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَّلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس - عليه اللعنة - النظرة قال الله له: ﴿أَذْهَبَ﴾، فقد أنظرْتُكَ. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّ يَوْمَ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ ﴿٦٥﴾﴾ [ص: ٨٠-٨١]. ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ يَنْهَهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾، أي: على أعمالكم، ﴿جَزَاءَهُمْ مَوْفُورًا﴾. قال مجاهد: وافرأ. وقال قتادة: مَوْفُورًا عليكم، لا يُنْقَضُ لكم منه. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ يَنْهَمُ بِصَوْتِكَ﴾، قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ يَنْهَمُ بِصَوْتِكَ﴾، قال: كلُّ داع دعا إلى معصية الله عزَّ وجلَّ. وقاله قتادة، واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَّلِكَ﴾، يقول: واحمل عليهم بجنودك حِيَالِيهِمْ ورجالتهم؛ فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع ركب، وصحب جمع صاحب. ومعناه: تُسَلِّطُ عليهم بكل ما تقدِّرُ عليه. وهذا أمرٌ قدَّرِي، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تَوَوَّهُمُ آبَا﴾ [مریم: ٨٣]، أي: تُزْعِجُهُم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَّلِكَ﴾، قال: كلُّ راجب وماش في معصية الله. وقال قتادة: إنَّ له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يُطِيعونه. وتقول العربُ: «أَجْلَبَ فلانٌ على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه نُهي في المسابقة عن الجَلْبِ والجَنْبِ، ومنه اشتقاق الجَلْبِيَّةِ، وهي ارتفاع الأصوات. وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله [تعالى]. وقال عطاء: هو الرِّبَا. وقال الحسن: [هو] جَمْعُهَا من حَبِيبٍ، وإنفاقها في حَرَامٍ. وكذا قال قتادة. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حُرِّموا من أنعامهم، يعني من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة. ثُمَّ قال ابن جرير: والأولى أن يُقال: إن الآية تُعْمُ ذلك كله. وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾، قال العوفي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قَتَلُوا من أولادهم سَفْهاً بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شارَكَهُم في الأموال والأولاد، مَجَسُوا وهودُوا ونَصَرُوا وصَبَغُوا غير صِبْغَةِ الإسلام، وجزءوا من أموالهم جزءاً للشيطان. وكذا قال قتادة سواء. وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تَسْيِيئُهُم أولادهم عبد الحارث، وعبد شمس، وعبد فلان. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولود ولَدته أنثى عُصِي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله. أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دَخَلَ في مشاركة إبليس فيه مَنْ وُلِدَ ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دُونَ معنى، فَكُلُّ ما عُصِي الله فيه أو به، وأُطِيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّجِعاً، وكلُّ من السلف - رحمهم الله - فسَّر بعض المشاركة.

[٤٢٩٣] فقد ثبت في صحيح مسلم، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم، وحَرَمْتُ عليهم ما أحللت لهم»^(١).

[٤٢٩٤] وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جئنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(١). وقوله: «وَعِدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا»، كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حَضَّضَ الحق يوم يُقْضَى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَوْءِدُونَ فَآخَلَفْتُمْ كَمَا كَانُوا عَلَيْكُمْ مِنَ سُلْطَانِي إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ أَنْفَسِكُمْ مَا آتَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٢].. الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿وَكَلَّفَ بِرَبِّكَ ذِكْرًا﴾، أي: حافظاً ومؤيداً وناصرأ.

[٤٢٩٥] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وزدان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شياطينه، كما ينضي أحدكم بعبيره في السفر». ينضي، أي: يأخذ بناصيته ويفهره^(٢).

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦)

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيله لها لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَحِيمًا﴾، أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا مَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

يخبر تبارك وتعالى أنه إذا مسّ الناس ضرّ دَعَوْهُ مُبِينِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾، ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله [تعالى]، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا ينجي عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه. رضي الله عنه. وقوله [تعالى]: ﴿فَلَمَّا مَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: نسيتم ما عرفتم من توحيدِهِ في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾، أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدّها، إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَيِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨)

يقول تعالى: أفحسبتم إن يُخرِجكم إلى البر أميتم من انتقامه وعذابه؟ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَيِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤١ و٣٢٧١ ومسلم ١٤٣٤ وأبو داود ٢١٦١ والترمذي ١٠٩٢ وابن ماجه ١٩١٩ وأحمد ١/

٢١٧ وابن حبان ٩٨٣ من حديث ابن عباس.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢/٣٨٠ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي أحد العبادة، واكتفى الهيثمي في «المجمع» ٤٥٢ بقوله: فيه ابن لهيعة.

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالٌ لَّوْطٌ لَّجِيئْتُمْ بِهِمْ ﴿٦٤﴾ [القمر: ٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْكُمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ١٧٤]، وقال: ﴿أَأَنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْآرَضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿٦٦﴾ أَمْ أَنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الملك: ١٦ - ١٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَافِرًا﴾، أي: ناصراً يُرَدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَيُنْفِذُكُمْ مِنْهُ. والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

﴿أَمْ أَنتُمْ أَن يُبِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُبِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾، أي: يَخِفِّصُ الصَّوَارِيَّ^(١) وَيُغْرِقُ المراكب؛ قال ابن عباس وغيره: القاصفُ ريح البحار التي تكسير المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾، أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا﴾، قال ابن عباس: نَصِيرًا. وقال مجاهد: نصيراً ثائراً. أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ تَشْرِيفِهِ لِبَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ، فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ [التين: ٤]، أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ﴾، أي: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: من زروع وثمار، ولحوم والبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية [الكريمة] على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون، ولم تُعطينا ذلك فأعطيناه في الآخرة. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان. وهذا الحديث مرسل^(٢) من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلاً. فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

(١) صواري السفينة: هي الأعمدة التي ينصب عليها الشراع.

(٢) قوله مرسل، فيه نظر، فإن زيد بن أسلم لم يروه عن النبي ﷺ، حتى يقال: هو مرسل، ولعل المصنف استدلل على كونه مرسلًا بما بعده، والله أعلم.

[٤٢٩٦] حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد. حدثنا أبو عسّان محمد بن مُطَرِّف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذُرِّيَّة من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان»^(١).

[٤٢٩٧] وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي: حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علق، سمعت عُروة بن رُويم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقنا بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله عز وجل: لا أجعل من خلقتي بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان»^(٢).

[٤٢٩٨] وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شَعَف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم. قيل: يا رسول الله. ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»^(٣). وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتِهِمْ فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدْيِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبِيِّهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ فَبَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَمَنْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتِهِمْ﴾، أي: بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَرُويَ الْكِتَابُ فَقرئَ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوعدُوا مَا عملُوا صَاحِرًا وَلَا يُظْلَمُونَ رَبُّكَ أَعْلَمُ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ حَائِثَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» كما في «المجمع» ٢٦٥، وقال الهيثمي: فيه إبراهيم ابن عبد الله المصيصي، كذاب متروك، وفي سند «الأوسط» طلحة بن زيد، كذاب أه وانظر ما بعده.

(٢) إسناده ضعيف جداً، فيه محمد بن أيوب الرازي كذبه أبو حاتم كما في الميزان ٧٢٥٨، والأشبه في هذا الخبر، وما قبله، كونهما من كتب الأقدمين، والله أعلم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٦٦ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي: فيه عبيد الله بن تمام، وهو ضعيف أه ونقل الذهبي في الميزان ٥٣٤٨ عن البخاري قوله: عنده عن خالد الحذاء عجائب أه وهذا رواه عن خالد فهو من عجائبه.

﴿كَلِمَةً تَمَلُّونَ ﴿٧٨﴾ هَذَا كَيْتَابًا يَتْلُقَ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨-٢٩]. وهذا لا يعني أن يُجَاء بالنبي إذا حَكَمَ الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِآلِئِينَ عَذَابُهُمْ أَشَدَّ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٤١]. ويَحْتَمِلُ أن المراد ﴿بِأَمِينٍ﴾ أي: كل قوم بمن اتَّصَمُوا به، فأهل الإيمان اتَّصَمُوا بالأنبياء - عليهم السلام - وأهل الكفر اتَّصَمُوا بأنتمهم، كما قال: ﴿وَمَمَّلْنَاهُمْ أَيمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْأَنْكَارِ﴾ [القصص: ٤١].

[٤٢٩٩] وفي الصحيحين: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» (١) . . . الحديث. ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَسْبِقُوهُ فَاذْلِقْهَا يَفْرَوْنَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَسْبِقُوهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا مِنِّي ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، وإلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَسْبِقُوهُ فَيَقُولُ يَتَّبِعُونَ لِي أَتَىٰ كِتَابِي ﴿٨٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩-٢٦]. وقوله: ﴿وَلَا يَطَّلُمُونَ لِي لَئِيْلًا﴾، قد تقدّم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شِقِّ النواة.

[٤٣٠٠] وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، ومحمد بن عثمان بن كُرَّامَةَ قالوا: حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّيِّ، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كتابه بيمينه، ويُمدّ له في جسمه، وَيَبْيَضُّ وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم اثبتنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسودُّ وجهه، ويُمدّ له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، أو: من شر هذا، اللهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزه. فيقول: أبعدكم الله. فإن لكل رجل منكم مثل هذا (٢). ثم قال البزار: لا يُزَوَى إلا من هذا الوجه. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهَوَّ فِي الْأَخْرِةِ أَعْيُنٌ وَأَصْلُ سَيْبِلًا ﴿٧٦﴾﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾، أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْيُنٌ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته، ﴿فَهَوَّ فِي الْأَخْرِةِ أَعْيُنٌ﴾، أي: كذلك يكون، ﴿وَأَصْلُ سَيْبِلًا﴾، أي: وأصل منه، كما كان في الدنيا، عباداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِيفْتَرِيٰ عَلَيْنَا عَيْرٌ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خِيَلًا ﴿٧٧﴾ وَلَوْ لَا أَن تَبْنِتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْخًا قَلِيلًا ﴿٧٨﴾﴾ إِذَا لَادَقْتَكَ ضِعْفَ الْحَيٰوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٩﴾﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله - صلوات الله عليه وسلامه - وتثبيتته، وعِصْمَتِهِ وسَلَامَتِهِ من شرِّ الأشرار

(١) هو بعض حديث الرواية، أخرجه البخاري ٧٤٣٧ ومسلم ١٨٢ عن أبي هريرة، وسيأتي.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٦ وصححه ابن حبان ٧٣٤٩ والحاكم ٢٤٢/٢ - ٢٤٣ وقال: على شرط مسلم، وافقه الذهبي!! مع أن مداره عند الجميع على عبد الرحمن بن أبي كريمة (والد السُّدِّيِّ)، وهو مجهول كما قال الحافظ في التقریب. وقال الذهبي في الميزان: ما روى عنه سوى ابنه أهد. لكن وثقه ابن حبان، وحسن الترمذي حديثه هذا. ولهذا الحديث شواهد تعضده وإن حكم غير واحد بضعفه، والله أعلم.

وكيد الفُجَّار، وأنه تعالى هو المتولَّى أمره ونصره، وأنه لا يَكِلُهُ إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وِليُّه وحافظه وناصِرُهُ ومؤيده ومُظْفِرُهُ، ومُظْهِرُ دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وتزك سُنَّتِي المدينة. وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسُنَّتِي المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

[٤٣٠١] روى البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. قال: فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾، فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث^(١). وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقترض وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم.

[٤٣٠٢] ولو صحَّ هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُقَير بن مَعْدَانَ، عن سُلَيم بن عامر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثَةِ أَمْكَنَةِ: مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةَ، وَالشَّامَ»، قال الوليد: يعني بيت المقدس^(٢). وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس. والله أعلم. وقيل: نزلت في كُفَّار قُرَيْشٍ، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوَعَّدَهُم اللهُ بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وَقَعَ؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعدما اشتدَّ أذاهم له إلا سَنَةٌ ونصف. حتَّى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفَرَهُ بهم، فقتل أشرافهم، وسب ذراريهم. ولهذا قال: «سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا»، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم ويؤتيمهم العذاب،

(١) إسناده ضعيف جداً، والمثل باطل. أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢٥٤/٥. وفي إسناده: عبد الرحمن بن غنم مختلف في صحبته، وعده المعجلي في ثقات التابعين. وفيه أيضاً: العطاردي، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٤٣ وقال: ضعفه غير واحد، وقال ابن عدي: أجمعوا على ضعفه، وقال الدارقطني: لا بأس به، وكتبه مطين، واتهمه ابن عقدة، والحديث ذكره الواحدي ٥٨٥ بدون إسناد. وأنكره القرطبي وذكر أن الآية مكية، والخطاب يتناول كفار قريش، راجع كلامه عند هذه الآية.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٧٧١٨ من حديث أبي أمامة، وأعله الهيثمي ١١٦٢٥ بضعف عفير بن معدان، ولكن للحديث علة أخرى، الوليد هو ابن مسلم يدلُّس التسوية، وقد عنعن.

ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة لجهاهم من النقم في الدنيا ما لا يقبل لأحد به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفُ يَوْمٍ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ مَعْدِبَةٍ وَهُمْ يُسْتَفْرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَفِرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾ وَبِئْنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ﴿٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمرأ له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَفِرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، قيل لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد. وقال هُشيم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس؛ ذلوكها: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير.

[٤٣٠٣] ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حُميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: اخرج يا أبا بكر، فذاك حين ذلكت الشمس^(١). ثم رواه عن سهل بن بكر، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نُبَيْح العَنَزِيِّ، عن جابر - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمسة، فمن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ - وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس - أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وقوله: ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ﴾، يعني: صلاة الفجر. وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، والله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

[٤٣٠٤] قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود - وعن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»^(٢).

[٤٣٠٥] وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة - وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «فُضِّلَ صَلَاةُ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسَ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ». يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - : اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣).

[٤٣٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٥٨٣ برواية: «اخرج يا أبا بكر، قد دلكت الشمس»، وفي إسناده: راو لم يسم، وكرره ٢٢٥٨٤ بسند فيه مجهول.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٥٩٤ وفيه أسباط بن محمد غير قوي، والراجح وقفه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٨ ومسلم ٦٤٩ ح ٢٤٦.

الْفَجْرِ كَأَنَّكَ مُشْرُوكًا»، قال: تشهدُه ملائكة الليل، وملائكة النهار^(١). ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثهم عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٤٣٠٧] وفي لفظ في الصحيحين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٢). وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في تفسير هذه الآية.

[٤٣٠٨] وأما الحديث الذي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَا هُنَا، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زِيَادَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ حَدِيثَ النُّزُولِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي أُعْطِهِ، مَنْ يَدْعُنِي فَاسْتَجِيبْ لَهُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: «وَقَرَأَانَ الْفَجْرِ إِنَّ الْقُرْآنَ الْفَجْرِ كَأَنَّكَ مُشْرُوكًا»، فَيَشْهَدُهُ اللَّهُ، وَمَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ^(٣) فَإِنَّهُ تَقَرَّرَ بِهِ زِيَادَةُ، وَلَهُ بِهَذَا حَدِيثٌ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ.

وقوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ لَهُ يُصَلِّ عَلَىٰ ذِي الْأَرْسَالِ كُلِّ مِمَّن رَاىٰ مِنْكُمْ نَوْءًا مِّنْهُ يَسْمَعُ الْكَلِمَٰتَ الَّتِي هُوَ يَقُولُ»^(٤).

[٤٣٠٩] كما وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ»^(٥). ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة - رضي الله عنهم - كما هو مبسوط في موضعه، والله الحمد والمنة. وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء. ويحمل على ما بعد النوم. واختلف في معنى قوله: «نَافِلَةٌ لَّكَ»، فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي رحمه الله، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص، لأنه قد عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يَكْفُرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَوَافِلُ الذُّنُوبَ الَّتِي عَلَيْهِ. قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه.

(١) أخرجه الترمذي ٣١٣٥ والنسائي في «التفسير» ٣١٣ وابن ماجه ٦٧٠ وأحمد ٤٧٤/٢ وإسناده غير قوي لأجل أسباط بن محمد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ ومسلم ٦٣٢ والنسائي ٢٤٠/١ وأحمد ٤٨٦/٢ وابن حبان ١٧٣٧.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٥٩٥ من حديث أبي الدرداء. وفي إسناده زيادة بن محمد الأنصاري، قال الحافظ في «التقريب»: منكر الحديث. وذكره الذهبي في «الميزان» ٢٩٨٨ بهذا الحديث، وقال: فهذه ألفاظ منكورة، لم يأت بها غير زيادة. قال البخاري والنسائي: منكر الحديث.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٣ وأبو داود ٢٤٢٩ والنسائي ٢٠٧/٣ وابن ماجه ٧٤٢ وأحمد ٣٠٣/٢ و٣٢٩ وأبو يعلى ٦٣٩٢.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أي: افعلْ هذا الذي أمرتْك به لِتُقِيمَكَ يوم القيامة مقاماً يَحْمَدُكَ فيه الخلائق كُلُّهم وخَالِقُهُمْ تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يَقُومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم رُبُّهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذَكَرَ من قال ذلك: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صِلَّة بن زَفَر، عن حُدَيْفَةَ - رضي الله عنه - قال: يُجْمَعُ الناسُ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفُذُهُم البصر، حُفَاةٌ عُرَاةٌ كما خُلِقُوا قِيَامًا، لا تَكَلِّمُ نفسٌ إلا بإذنه، ينادى: يا محمد، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يديك، والشَّرُّ ليس إليك، والمهدي من هَدَيْت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا مُلْجَأَ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سُبْحَانَكَ رَبِّ البيت. فهذا المقامُ المحمودُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى. ثم رواه عن بُنْدَار، عن عُندَر، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به. وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عباس: المقامُ المحمودُ مقامُ الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تَنَشَّقُ عنه الأرض، وأولُ شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقامُ المحمودُ الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول الله ﷺ تشرِفاتٌ لا يَشْرُكُهُ فيها أحدٌ، وتشرِفاتٌ لا يُساوِيه فيها أحدٌ، فهو أولُ من تَنَشَّقُ عنه الأرضُ، ويبعث راجعاً إلى المحشَّر، وله اللواءُ الذي آدمُ فمن دونه تحت لوائه، وله الحوضُ الذي ليس في الموقِفِ أكثرُ وِرداً منه، وله الشفاعةُ العظمى عند الله لِيَأْتِيَهُ لِفَضْلِ القضاةِ بين الخلائق، وذلك بعدما يسألُ الناسُ آدمَ ثم نوحاً ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لستَ لها، حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(١)، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفعُ في أقوامٍ قد أُمِرَ بهم إلى النار، فَيُرَدُّون عنها. وهو أولُ الأنبياء يَقْضِي بين أمته، وأولهم إجازة على الصُّراطِ بأمته. وهو أولُ شَفِيعٍ في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصُّور^(٢): أن المؤمنين كُلِّهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أولُ داخلٍ إليها وأمه قبل الأمم كلهم. ويشفعُ في رفع درجات أقوام لا تَبْلُغُها أعمالهم، وهو صاحبُ الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذنَّ اللهُ تعالى في الشفاعة في العَصاة تَشْفَعُ الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفعُ هو في خلائق لا يَعْلَمُ عدتهم إلا اللهُ تعالى، ولا يشفعُ أحدٌ مثله ولا يُساويه في ذلك. وقد بَسَطْتُ ذلك مُسْتَقْصِصاً في آخر كتاب «السيرة» في باب الخَصَائِصِ، والله الحمدُ والمثنةُ.

وَلْتَذَكَّرِ الآنَ الأحاديثَ الوارِدةَ في المقامِ المحمودِ، وبالله المستعانُ:

[٤٣١٠] قال البخاري: حدثنا إسماعيلُ بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدمَ بن علي، سمعتُ ابنَ عُمر - رضي الله عنهما - يقول: إن الناسَ يعبرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: «يا فلان اشفع، يا فلان اشفع»، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه اللهُ مقاماً محمداً^(٣). ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ.

(١) تقدم مراراً.

(٢) تقدم تخريجه باستيفاء، وهو حديث مطول.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٨.

[٤٣١١] قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شُعَيْب بن الليث، حَدَّثَنِي الليث، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن أَبِي جَعْفَرٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ حَمْرَةَ بن عبد الله بن عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عبد الله بن عمر يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأذُنِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَفْتَاؤُا بِآدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ: لَسْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ. ثُمَّ بِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ فَيَشْفَعُ بَيْنَ المَخْلُوقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ، فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَاماً مَحْمُوداً»^(١).

[٤٣١٢] وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيى بن بُكَيْرٍ وعبد الله بن صَالِحٍ، كلاهما عن الليث بن سعد، به: وزاد: «فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَاماً مَحْمُوداً، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلِّهِمْ»^(٢).

[٤٣١٣] قال البخاري: وحدثنا علي بن عِيَّاشٍ، حدثنا شُعَيْب بن أَبِي حَمْرَةَ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يَسْمَعُ النداء: اللهم، رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ، وابعثه مَقَاماً مَحْمُوداً الذي وعدته - حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»^(٣). انفرد به دون مسلم.

[٤٣١٤] حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زُهَيْر بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ القِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ الأنبياءِ وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غَيْرَ فُخْرٍ»^(٤). وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عَمْرٍو العَقْدِيُّ، وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه، من حديث عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، به.

[٤٣١٥] وقد قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ «أبي بن كعب» فِي قِرَاءَةِ القرآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِهِ: فَقُلْتُ: اللهم، اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهم اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وأخرتُ الثالِثَةَ لِيَوْمِ يرْعَبُ إِلَيَّ فِيهِ المَخْلُوقُ، حَتَّى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٥).

[٤٣١٦] حديثُ أنس بن مالك - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، حدثنا قتادة، عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: يُجْمَعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ فيقولون: لو اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وأَسْجَدَ لَكَ ملائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ، فاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فيقول لهم آدم: لَسْتُ هُنَاكَ. وَيَذْكَرُ ذَنْبَهُ الذي أَصَابَ، فَيَسْتَجِجِي رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: وَلَكِنْ اتَّوَأْتُوا نُوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٢٦٣٧ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٧٤ - ١٤٧٥.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٤ وأبو داود ٥٢٩ والترمذي ٢١١ والنسائي ٢٦/٢ - ٢٨ وأحمد ٣/٣٥٤ وابن حبان ١٦٨٩.

(٤) أخرجه الترمذي بإثر ٣٦١٣ وابن ماجه ٤٣١٤ وأحمد ٦/١٣٧ - ١٣٨ وإسناده غير قوي من أجل عبد الله بن محمد بن

عقيل، لكن يشهد لعناه أحاديث الباب، وانظر صحيح ابن ماجه ٣٤٨٢.

(٥) تقدم.

هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه - عز وجل - ما ليس له به علم، فَيَسْتَجِي رَّبَّهُ من ذلك، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عبداً كلمه الله تعالى، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فَيَسْتَجِي رَّبَّهُ - عز وجل - من ذلك، ولكن اتوا عيسى، عبداً الله ورسوله، وكلمته وروحه. فيأتون عيسى فيقول: لست هناك. ولكن اتوا محمداً ﷺ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف: فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين - قال أنس: حتى استأذنت على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو - خزرت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، قال: ثم يقال: ارفع محمداً، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت - أو خزرت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمداً، قل تسمع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو خزرت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمداً، قل تسمع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. قال: ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن. فحدثنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: فَيَخْرُجُ من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يَخْرُجُ من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة^(١). أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عَفَّان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله.

[٤٣١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حزب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النضر بن أنس، عن أنس - رضي الله عنه - حدثني نبي الله ﷺ: «إني لقاتم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى - عليه السلام - فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا مُحَمَّدُ يسألون - أو قال: يجتمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله، لئتم ما هم فيه، فالخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت. فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل، فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل: أن أذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فسفعت في أمي: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أتردد إلى ربي عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطاني الله عز وجل من ذلك، أن قال: يا محمد، أدخل من أميتك من خلق الله - عز وجل - من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً، ومات على ذلك»^(٢).

[٤٣١٨] حديث بريدة - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حصيرة، عن ابن بريدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية - رضي الله عنه - فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، إيدن لي في الكلام؟ فقال: نعم، وهو يرى أنه سيتكلم بمثل ما قال

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٧٦ و٦٥٦٥ ومسلم ١٩٣ وأحمد ١١٦/٣ وابن حبان ٦٤٦٤.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٧٨/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٧٣/١٠ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

الآخر، فقال بُرَيْدَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَشْفَعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَدَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ وَمَدْرَةٍ». قَالَ: فَتَرَجُّوْهَا أَنْتَ يَا مَعَاوِيَةَ وَلَا يَرْجُوْهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟^(١)

[٤٣١٩] حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البنانى، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: جاء ابنا مَلِيكَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَا: إِنَّ أُمَّنَا كَانَتْ تُكْرِمُ الزَّوْجَ، وَتَقْطِفُ عَلَى الْوَلَدِ، قَالَ: وَذَكَرَ الضَّيْفَ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ وَأَدَّتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالَ: أُمَّكُمَا فِي النَّارِ. قَالَ: فَأَدْبِرَا وَالسُّوءَ يُرَى فِي وُجُوْهِهِنَّ، فَأَمْرٌ بِهِمَا فَرْدًا، فَزَجَعَا وَالسُّرُورَ يُرَى فِي وُجُوْهِهِنَّ؛ رَجَاءٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ شَيْءٌ، فَقَالَ: أُمِّي مَعَ أُمَّكُمَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمَنَافِقِينَ: وَمَا يُغْنِي هَذَا عَنْ أُمَّه شَيْئًا وَنَحْنُ نَطَأُ عَقْبَهُ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - وَلَمْ أَرْ رَجُلًا قَطُّ أَكْثَرَ سُؤَالَ مِنْهُ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ وَعَدَكَ رَبُّكَ فِيهَا أَوْ فِيهِمَا؟ قَالَ: فَظَنَّ أَنَّهُ مِنْ شَيْءٍ قَدْ سَمِعَهُ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ رَبِّي، وَمَا أَطْمَعَنِي فِيهِ، وَإِنِّي لِأَقُومُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ؟ قَالَ: ذَاكَ إِذَا جِيءَ بِكُمْ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول: اكسُوا خَلِيلِي. فَيُؤْتِي بِرِيطَيْنِ بَيضَاوَيْنِ، فَيَلْبَسُهُمَا ثُمَّ يَقْعُدُهُ مُسْتَقْبِلَ الْعَرْشِ، ثُمَّ أُوْتِي بِكِسْوَتِي فَأَلْبَسَهَا، فَأَقُومُ عَنْ يَمِينِهِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ أَحَدٌ، فَيَغْبِطُنِي فِيهِ الْأَوْلُونَ وَالْآخِرُونَ. [قَالَ] وَيَفْتَحُ لَهُمْ نَهْرٌ مِنَ الْكُوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ. فَقَالَ الْمَنَافِقُونَ: إِنَّهُ مَا جَرَى مَاءٌ قَطُّ إِلَّا عَلَى حَالٍ أَوْ رَضْرَاضٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَالُهُ الْمَسْكُ، وَرَضْرَاضُهُ التُّومُ. قَالَ الْمَنَافِقُ: لِمَ أَسْمَعُ كَالْيَوْمِ. فَإِنَّهُ قَلِمًا جَرَى مَاءٌ قَطُّ عَلَى حَالٍ أَوْ رَضْرَاضٍ إِلَّا كَانَ لَهُ نَبْتَةٌ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَهُ نَبْتٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قُضْبَانُ الذَّهَبِ. قَالَ الْمَنَافِقُ: لِمَ أَسْمَعُ كَالْيَوْمِ، فَإِنَّهُ قَلِمًا يَنْبْتُ قُضْبِيبٌ إِلَّا أَوْرُقٌ، وَإِلَّا كَانَ لَهُ ثَمَرٌ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَهُ ثَمَرَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلْوَانُ الْجَوْهَرِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ، وَمَنْ حُرِمَهُ لَمْ يَزَوْا بَعْدَهُ.^(٢)

[٤٣٢٠] وقال أبو داود الطيالسي؛ حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزعرارة، عن عبد الله - رضي الله عنه - قال: ثم يأذن الله - عز وجل - في الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى - قال أبو الزعرارة: لا أدري أيهما - قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحدٌ بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٣).

[٤٣٢١] حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه -: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثني محمد بن حزب، حدثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ،

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٤٧/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٧٨/١٠ وقال: رواه أحمد، ورجاله وثقوا على ضعف كثير في أبي إسرائيل الملائي.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ٣٩٨/١ - ٣٩٩ والطبراني ١٠٠١٧ والبيهقي ٣٤٧٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٦١/١٠ - ٣٦٢ وقال: وفي أسانيدهم كلهم عثمان بن عمير، وهو ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف لضعف يحيى بن سلمة بن سهل، وفي الباب أحاديث تنفي عنه.

ويكسوني ربِّي - عز وجل - حُلَّة خضراء . ثم يُؤذَن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود^(١).

[٤٣٢٢] حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يُؤذَن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يُؤذَن له أن يرفع رأسه، فانظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك. فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرُّ مُحجَّلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتون كُتُبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم دُرَّتيم»^(٢).

[٤٣٢٣] حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال: «أبي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فتَهَس منها نَهَسَةً، ثم قال: «أنا سيدُّ الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذاك؟ يَجْمَعُ اللهُ الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعي وَيَنْفِذُهُم البصر، وتدنو الشمسُ فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون. فيقول بعضُ الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: أبوكم آدم. فيأتون آدم - عليه السلام - فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فَعَصَيْتُهُ. نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح عليه السلام. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليته من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته. نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى عليه السلام. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته ويتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلْتُ نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. قال: هكذا هو. وكلمت الناس في المهدي، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤٥٦/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥١/٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٩/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٤٤/٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو ضعيف وقد وثق اهـ ولأصل الحديث شواهد يقوى بها.

عيسى: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. ولم يُذَكَّر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ فَيَأْتُونِي فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غَفَرَ اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَّغْنَا؟ فأقومُ فأتى تحت العرش، فأقعُ ساجداً لرَبِّي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه وشيناً لم يفتحها على أحد قبلي فيقال يا محمد: ارفع رأسك، وسلِّ تعطه، واشفعُ تشفع. فأقول: يا رب، أمتي أمتي. يا رب، أمتي أمتي. يا رب، أمتي أمتي. فيقال: يا محمد، أذخلك من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب. ثم قال: والذي نفس محمد بيده لَمَّا بين بضراعين من مصارع الجنة لكما بين مكة وهدج، أو كما بين مكة وبُضْرَى^(١) أخرجاه في الصحيحين.

[٤٣٢٤] وقال مسلم - رحمه الله -: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِشْلُ بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حَدَّثَنِي عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القيامة، وأولُ من ينشق عنه القبر، وأولُ شافع، وأولُ مُشْفَع»^(٢).

[٤٣٢٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كَرِيب، حَدَّثَنَا وكيع، عن داود بن يزيد الزعافري، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، سئل عنها فقال: هي الشفاعة^(٣).

[٤٣٢٦] ورواه الإمام أحمد عن وكيع ومحمد بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»، قال: هو المقام الذي أشفعُ لأمتي فيه^(٤).

[٤٣٢٧] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مَدَّ اللهُ الأرضَ مَدَّ الأديم، حتى لا يكون لبشرٍ من الناس إلا موضعٌ قدميه، قال النبي ﷺ: فأكونُ أولُ من يُدْعَى، وجبريلُ عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: أي رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي. فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ -: صدق، ثم أشفعُ. فأقول: يا رب، عبادك عَبَدُوكَ في أطراف الأرض. قال: فهو المقام المحمود»^(٥). وهذا حديث مرسل.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

[٤٣٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٠ ومسلم ١٩٤ والترمذي ٢٤٣٤ وأحمد ٤٣٥/٢ - ٤٣٦ وابن حبان ٦٤٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢٦٣٤ وإسناده ضعيف لضعف داود بن يزيد.

(٤) أخرجه أحمد ٤٤١/٢ و٥٢٨ وإسناده ضعيف كسابقه.

(٥) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٦١٤ وعنه الطبري ٢٢٦٣٩ و٢٢٦٤٠ عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، والغريب فيه لفظ «ما رآه قبلها» وبقيّة التثنية له شواهد تقويه. والله أعلم.

النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّي آتَيْنِي مَدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقِي وَأَجْعَلَ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (١).

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يؤثفوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله - عز وجل -: ﴿وَقُلْ رَبِّي آتَيْنِي مَدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقِي﴾. وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّي آتَيْنِي مَدْخَلَ صِدْقِي﴾، يعني المدينة، ﴿وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقِي﴾، يعني مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿آتَيْنِي مَدْخَلَ صِدْقِي﴾، يعني الموت، ﴿وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقِي﴾، يعني الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلَ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾، قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلن له، وعز الروم وملك الروم، وليجعلن له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم. وقال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقاتدة، وهو الأرجح، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْقَلْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

[٤٣٢٨ م] وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» (٢). أي: ليمتع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا ميزة فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. ورَهَقَ باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

[٤٣٢٩] وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي مغيرة، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نضب، فجعل يطعننا بعور في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبِيدُ﴾ (٣) [سبا: ٤٩]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كلهم من طريق عن سفيان بن عيينة، به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن ابن أبي نجيح. [٤٣٣٠] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شبابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر - رضي الله عنه - قال: دخلنا مع النبي ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يعبدون من دون

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣/١ وإسناده ضعيف لضعف قابوس.

(٢) ورد عن عثمان من قوله، وكذا عن عمر، وليس بمرفوع.

(٣) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧٨ و ٤٧٢٠ ومسلم ١٧٨١ والترمذي ٣١٣٨ وأحمد ٣٧٧/١ وابن حبان ٥٨٦٢.

الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فَأُبَيِّتُ لوجهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١).

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٨٣)

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد - إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، القرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقته واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكديباً وكفرأ. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ وَشَفَىٰ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيُنهَرُ مِن قُرْآنِهِمْ إِلَىٰ رُجُوعِهِمْ وَمَا تُؤْمِنُ بِهِمْ كَقُرْآنِ الْآيَاتِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرْمَرٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَا تَأْتُوا بِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانَ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]؛ والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾^(٨٤) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِرِيهِ

فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾^(٨٤)

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، ﴿أَعْرَضَ﴾ عن طاعة الله تعالى وعبادته ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾، قال مجاهد: بُعد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قَلَّمَا كُفَفْنَا عَنْهُ ضَرْمًا مَرَّ كَانَ لَوْ يَدْمُنَا إِلَىٰ ضَرْمِ مَسْمُومٍ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿قَلَّمَا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] - وبأنه إذا مسه الشر، وهو المصائب والحوادث والنواب، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾، أي: قَبِطُ أَنْ يَعُودَ يحصل له بعد ذلك خير، كما قال: ﴿وَلَمَّا آذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾^(٨٥) ولَمَّا آذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْمِهِ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾^(٨٦) إِلَّا الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٨٧) [هود: ٩ - ١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِرِيهِ﴾، قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على جذبه وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه. وكلُّ هذه الأفعال مُتَقَارِبَةٌ في المعنى. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾^(٨٨) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾^(٨٩) [هود: ١٢١ - ١٢٢]. ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِرِيهِ فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾^(٩٠)، أي: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية.

﴿وَسْتَلُونَا عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٩٠)

(١) إسناده صحيح، ليس فيه إلا غنعة أبي الزبير، لكن يتايد بما قبله، فهو صحيح.

[٤٣٣١] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود، رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَزْبٍ في المدينة، وهو مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَيْسِبٍ^(١)، فَمَرَّ بِقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ. قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا الرُّوحُ؟ فَمَا زَالَ مُتَوَكِّئًا عَلَى الْعَيْسِبِ، قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَسْتَلُوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢). قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ قَلْنَا لَكُمْ لَا تَسْأَلُوهُ^(٣). وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش، به.

[٤٣٣٢] ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حَزْبٍ، وهو مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَيْسِبٍ، إِذْ مَرَّ بِالْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا زَأَبَكُمْ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُّوهُ فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَحَمَمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَسْتَلُوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾... الآية^(٣). وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بإدبي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنها قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه وَحْيٌ بِأَن يُجِيبَهُمْ عَمَّا سَأَلُوا بِالآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ إِزْهَالَهَا عَلَيْهِ، وَهِيَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَسْتَلُوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

[٤٣٣٣] ومما يُدَلُّ عَلَى نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَكَّةَ مَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا قَتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَا، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَتْ قَرِيْشٌ لِيَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ. فَقَالُوا: سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَسَأَلُوهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَسْتَلُوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤)، قَالُوا: أَوْتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا، أَوْتِينَا التَّوْرَةَ، وَمِنْ أَوْتِيْنَا التَّوْرَةَ فَقَدْ أَوْتِيْنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَوْ كَانِ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئْسَلِهِ مَدَدًا﴾^(٥) [الكهف: ١٠٩].

[٤٣٣٤] وقد روى ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَسْتَلُوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥)، فقالوا: أتزعّم أنا لم نُؤْت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُومُ مِنْ بَعْدِهِ مَسْمُومٌ أَبْحَرُوا مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٥) [القمان: ٢٧]، قال: ما أوتيتهم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل.

(١) العيبة: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط حوصها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥ ومسلم ٢٧٩٤ والترمذي ٣١٤٠ وأحد ٤٤٤/١ وأبو يعلى ٥٣٩٠.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢١، وانظر الحديث المتقدم.

(٤) والحديث أخرجه الترمذي ٣١٣٩ وأحد ٢٥٥/١ وأبو يعلى ٢٥٠١ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. قلت: هو من رواية داود بن حصين عن عكرمة، وهي ضعيفة. ومع ذلك صحيح إسناده الألباني في صحيح الترمذي ٢٥١٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢٦٧٧ وهذا مرسل، وهو من رواية داود عن عكرمة.

[٤٣٣٥] وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أفعتينتا أم عتيت قومك؟ فقال: كلاً قد عتيت. قالوا: فإنك تتلو أنا أوتيتنا التوراة، وفيها ببيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفختم، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا على أقوال، أحدها: أن المراد بالروح بأرواح بني آدم.

[٤٣٣٦] قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسْتَلَوْكَ عَنِ الرُّوحِ﴾... الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تُعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحز إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: جاءني به جبريل من عند الله؟ فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِيَجْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا يَا ذُنَّ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٢) [البقرة: ٩٧]، الآية. وقيل: المراد بالروح ها هنا جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: المراد به ها هنا ملك عظيم يقدر المخلوقات كلها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَسْتَلَوْكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، يقول: الروح ملك (٣).

[٤٣٣٧] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرْسِ المِضْرِي، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ مَلَكًا، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين بِلَقْمَةٍ واحدة، لفعل، تسيبُحه: سبحانك حيث كنت» (٤). وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثنا أبو هِرْزَانَ يَزِيدُ بن سَمُرَةَ صاحب قيسارية، عَمَّنْ حدثه، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال في قوله: ﴿وَسْتَلَوْكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، قال: هو مَلَكٌ من الملائكة، له سبعون ألفَ وجه، في كلِّ وجه منها سبعون ألفَ لسان، لكل لسان منها سبعون ألفَ لغة، يُسَبِّحُ الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله تعالى من كلِّ تسيبحة مَلَكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة (٥). وهذا أثر غريب عجيب، والله أعلم.

وقال السهيلي: رُوِيَ عن علي أنه قال: هو مَلَكٌ، له مائة ألفِ رأس، لكلِّ رأس مائة ألفِ وجه، لكلِّ

(١) هو مرسل، ومع إرساله فيه مجاهيل.

(٢) والحديث أخرجه الطبري، وفيه عطية العوفي، ضعيف.

(٣) هذا بعيد جداً يعارض الأحاديث الصحيحة التي تقدمت آنفاً.

(٤) باطل، والثن منكر، أخرجه الطبراني ١١٤٧٦ وفي «الأوسط» ٦٤٣٨، وقال: تفرد به وهب الله بن رزق، قال الهيثمي ٢٥٤: ولم أر من ذكر له ترجمة أه فهو مجهول، والحمل عليه في هذا الحديث، فإنه من الإسرائيليات بلا ريب وقد ساقه من طريق الأوزاعي بإسناد كالشمس.

(٥) لا يصح عن علي. أخرجه أبو الشيخ في «المعظمة» ٤١٠ وفيه مجاهيل، والأشبه أنه من الإسرائيليات، فقد أسنده أبو الشيخ ٤٠٧ عن وهب بن منبه، وهو أصح، ووهب روى الكثير عن كتب الأقدمين.

وجوه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان، يُسَبِّحُ الله بلغاتٍ مختلفة. قال السهيلي: وقيل: المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم. وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم. وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ آيَاتٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. والمعنى: أنْ عِلْمُكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يُطَلِّعْكُمْ عَلَيْهِ، كما أنه لم يُطَلِّعْكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ تَعَالَى.

[٤٣٣٨] وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر «أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة، أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر». أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ آيَاتٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال السهيلي: قال بعض الناس: لم يجبهم عمًا سألوا، لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم. وعول السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: من شرعه، أي: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما يُنَالُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ. وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقَرَّرَ أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عُرُوقِ الشَّجَرِ. وقَرَّرَ أن الروح التي ينفخها المَلَكُ فِي الْجَنِينِ هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكتسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعَبْثَةِ وَعُصِرَ مِنْهَا صَارَ إِمَّضَطَّارًا (١) أو خمرًا، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا على سبيل المجاز. وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما نقول أن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم. قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها ووصفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منذر في كتاب سمعناه في الروح.

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالذِّئْرِ أَوْحِينَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يُحَدُّ لَكَ بِهِ عَيْنَانَا وَكَيْلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

يذكر تعالى نعمته وقضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: تطرق الناس ريح حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية،

ثم قرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - : ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ . . . الآية . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم ، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولا استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطيع ، وكيف يُشبهه كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق ، الذي لا نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له . وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنه - : أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود ، جاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا له : إننا نأتيك بمثل ما جئتنا به ، فأنزل الله هذه الآية . وفي هذا نظر ؛ لأن هذه السورة مكيّة ، وسيأقها كلُّه مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة ، فالله أعلم . وقوله : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ، أي : بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضّحنا لهم الحقّ وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ، أي : جحوداً للحق ورداً للضواب .

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا فَنَجِيحًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

[٤٣٣٩] قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني شيخ من أهل مصر قديم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن عبدة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلاً من بني عبد الدار ، وأبا البختري أخا بني أسد ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وثبيها ومُتَبِّها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا ، أو : من اجتمع منهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تُعذّروا فيه . فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعاً وهو يظنُّ أنه قد بدا لهم في أمره بدءاً - وكان عليهم حريصاً ، يحبُّ رُشدَهم ، ويعزُّ عليهم عنّتهم - حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لتُعذّرَ فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعيبت الدين ، وسفّهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً ، جَمَعْنَا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلبُ الشرفَ فينا سؤدناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رزياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن : الرّئي - فربّما كان ذلك ، بَدَلْنَا أموالنا في طلبِ الطبِّ ، حتى تُبرئكَ منه ، أو تُعذّرَ فيك . فقال رسولُ الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلبُ أموالكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا المُلْكَ عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فَبَلَّغْتُكُمْ رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم . أو كما قال رسول الله ﷺ . فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك ، فقد علّمت أنه ليس أحدٌ من الناس أضيق

بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشاً منّا، فسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ولييسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قضي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقتك، صدقتك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت. إنما جئتمكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، أسأله فيجعل لك جنائنا، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغيثك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتهمس المعاش كما نلتهمس، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا. وما بعثت إليكم بهذا. ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبِر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك. فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك ويُعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؛ فقد بلغنا أنه إنما يُعلمك هذا رجل باليامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعدزنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نُهلكك أو تُهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهن بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته، عاتكة ابنة عبد المطلب - فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تفعل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبعديهم إياه^(١). وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبيرة وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء. وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرةً وعناداً، فليل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة. كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتُنَا نَمُودُ الْفَاكَّةَ شَجَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا آيَاتٍ إِلَّا نَحْنُ بِهَا نَحْمِلُهَا﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَسْتَوِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٧١٩، وفيه رجل لم يسم، وكرهه ٢٢٧٢٠ من وجه آخر وفيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق، قال الذهبي: لا يعرف، راجع الميزان. لكن المتن يتأيد بالآيات الكريمة، والله أعلم.

فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِقْ إِيَّاهُ كَثْرًا أَوْ يُنْفِقْ إِيَّاهُ كَثْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِأَكْمَلٍ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشَاءُونَ وَإِلَّا رَبُّكُمُ اسْتَحْرَبُوا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيحًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَمَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَعَدَّتْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سَوِيرًا ﴿١١﴾ [الفرقان: ٧ - ١١].

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ تَقَرُّرٌ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُغًا﴾، البَيِّنُوعُ: العينُ الجارية، سأله أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ما هنا وما هنا. وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لَعَمَلَهُ ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْطَغَاءَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَقًّا بَرُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُنَّاتًا لَأَنبَغُ النَّاسِ عَلَيْكُمْ وَمَا كُنْتُمْ مِنْهُمْ سَائِلِينَ لَوَدَّعَيْنَا أَن نَحْمِلَهُمْ فِي السَّمَاءِ فَتَحْمِلَهُمْ السَّمَاءُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُسَوِّطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَيْنَا كَيْفًا﴾، أي: إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنشِقُ السماء وتبهي، وتُدَلِّي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كَسَفًا، أي: قطعاً، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكذلك سأل قومٌ شُعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْوَطَ طِينًا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظَّلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي التوبة ونبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. وكذلك وقع، فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ﴾، أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك، ﴿وَكُنْ تَوْفِيقًا مِنْ رَبِّكَ حَقًّا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا تَقْرَأُ﴾، قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تُصَبِّحُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَوْضُوعَةً. وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم بين يديه أحد في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل.

[٤٣٤٠] قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحير، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - لِي بِطِحَاءِ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا جَعْتُ تُضْرَعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمَدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ» (١). ورواه الترمذي في «الزهد» عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك، به وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وعلي بن يزيد يُضَعِّفُ في الحديث.

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٤٧ وأحمد ٢٥٤/٥، وإسناده ضعيف، فهو مسلسل بالضعفاء ابن زحر وابن يزيد والقاسم. ومع ذلك حسنه الترمذي، مع أنه قال: علي بن يزيد ضعيف الحديث، والظاهر أن مراده: حسن المتن دون الإسناد، والله أعلم.

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ﴾، أي: أكثرهم، ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَجِدُونَنَا نَكْرًا وَقَوْلُوا وَاسْتَعَفَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التغابن: ٦]. وقال فرعون وملؤه: ﴿أَتَمِنُّونَ لِبَشَرٍ يَتْلُو سِوَىٰ مَا وَصَّيْنَاهُمْ لَنَا عِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أُنشِرَ إِلَّا بِشَرٍّ مِثْلَنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى مُتَّبِعَةً عَلَىٰ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بَعَادَهُ: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ فَادْكُرُوا الْآذَانَ وَكُنُوزَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُبَلِّغَنَّكُمْ رُسُلَنا إِلَيْكُمْ وَأَلَّا تَكْفُرُوا﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢]. ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مَطْمَئِنِّينَ﴾، أي: كما أنتم فيها، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، أي: من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى الْحِجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ، فِي صَدَقَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: إنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جتتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لاتنقم مني أشد الانتقام، كما قال: ﴿وَلَوْ نَقُولُ طِينًا بَعْضَ الْأَقَابِلِ ﴿٩٦﴾ لَخَدْنَا بِنْتَهُ وَالْيَتِيمَ ﴿٩٧﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا بِنْتَهُ الْوَتِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، أي: علمهم بهم بمن يستحقّ الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحقّ الشقاء والإضلال والإزاعة، ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَا وَبُكْمًا وَصَمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، وتنفوذ حكمه، وأنه لا مُعْتَبَرُ لَهُ، بأنه من يَهْدِيهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: يهدونهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: ١٧]. وقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

[٤٣٤١] قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل، عن نُفَيْعٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ^(١). وأخرجاه في الصحيحين.

[٤٣٤٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا الوليد بن جُمَيْعٍ القرشي، حدثنا أبو

الطُفَيْلِ عامر بن وائلة، عن حُدَيْفَةَ بن أُسَيْدٍ قال: قام أبو ذر - رضي الله عنه - فقال: يا بني غِفَار، قولوا ولا تَخْلِفُوا، فَإِنَّ الصَّادِقَ المصدوق حدثني: أن الناس يُحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسيين، وفوج يمشون وَيَسْعُونَ، وفوج تَسْحَبُهُم الملائكةُ على وجوههم وتَحشُرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: يُلقى الله - عز وجل - الآفة على الظهر، حتى لا يبقى ظهرٌ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيهها بالشارف ذات القَتَب، فلا يقدر عليها^(١)، وقوله: ﴿عَمِيًّا﴾، أي: لا يبصرون. ﴿وَكَمَا﴾، يعني لا ينطقون. ﴿وَسَمًّا﴾، لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال. جزاء لهم، كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وضماً عن الحق، فُجُوزُوا في مَحشَرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مَأْوَنَهُمْ﴾، أي مُنْقَلِبهم ومَصِيرهم ﴿جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾، قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طِفِئت. ﴿رَدْنَهُمْ سَمِيرًا﴾، أي: لَهباً وَوَجْماً وَجَمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَائِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبنم والضمم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أي: بأدلتنا وحُججنا واستبعدوا وقوع البعث، ﴿وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا﴾، أي: بالية نَجْرَةً، ﴿أَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، أي: بعدما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفريق والذهاب في الأرض نَعَاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم وتبهم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَعْ بِخَلْقِهِمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٠﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٠١﴾ [يس: ٨١ - ٨٣]. وقال ما هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، يعيد أبدانهم ويُنشئهم نشأة أخرى، ويُعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضرُوباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ [هود: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾، أي: بعد قيام الحجبة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾

(١) أخرجه أحمد ١٦٤/٥ والنسائي في «الكبرى» ٢٢١٣ وصححه الحاكم ٣٦٧/٢ وقال الذهبي: على شرط مسلم، لكنه منكر، وقد قال ابن حبان في الوليد: فحش تفرده حتى بطل الاحتجاج به. وقد رجح الحاكم فقال في الوليد: لو لم يذكره مسلم في صحيحه لكان أولى، فالخبر ضعيف. والآفة: أي آفة الموت. والشارف: الناقة المسنة. والقَتب: الرحل الصغير.

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله عليه وسلامه - قُلْ لَهُمْ: يا محمد، لو أنكم، أيها الناس، تملكون التصرف في خزائن الله ﴿لَأَسْكُنَكُمْ خَشِيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾. قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر. أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. قال ابن عباس، وقتادة: أي بخيلاً متوَعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيبًا﴾ [النساء: ٥٣]، أي: لو أن لهم نصيباً من مَالِكِ الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار فقير، والله تعالى يَصِفُ الْإِنْسَانَ من حيث هو، - إلا من وفقه الله وهده -، بالبخل والجزع والهلع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١١] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٥﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ مَرُوعًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٧﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كَرَمِ الله وجوده وإحسانه.

[٤٣٤٣] وقد جاء في الصَّحِيحِينَ: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ»^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بِحَيِّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [١١١] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بَافْرِعَوْنُ مَسْجُورًا ﴿١١٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١١٣﴾ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحَّة نُبُوته وصدقه فيما أخبر به عَمَّن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والظوفان، والبحر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس. وقال مُحَمَّدُ بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والظلمنة، والحجر. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تَلَقُّفُ الْعَصَا مَا يَأْكُونُ. ﴿فَأَسْكَبُوا وَأَكَلُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نَجَعَتْ فِيهِمْ، وكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿أَنْ تُوْمِنَ لَكَ حَقٌّ تَفْعَرْنَا مِنَ الْأَرْضِ يُبُوعًا﴾... إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا، إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات، قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هنا، وهي المعنيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْ عَسَاءَ لِمَا رَاهَا تَهَيَّرَتْ كَأَنَّهُمَا جَاءَ وَلَمْ يَدْبِرَا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الرَّسُولِ﴾ [١١] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ مَوِّ فإِنِّي عَنْوَرٌ رَّجِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَةً مِّنْ غَيْرِ سُوِّ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِكْفِرُونَ وَيَوْمَؤُهُمْ كَأَوْ قَوْمًا قَتِيلِينَ ﴿١١﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفصلها. وقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أحرَّ كثيرة، منها: ضربُه الْحَجَرِ بِالْعَصَا، وخروج الأنهار منه، ومنها تَظْلِيلُهُمُ الْغَمَامَ، وإنزال المُنِّ والسُلُوى، وغير ذلك مما

(١) تقدم في سورة هود عند آية: ٧.

أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكرها هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرأ وجحوداً.

[٤٣٤٤] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال؛ قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. فقال: لا تقل له: نبي، فإنه لو سمعك لصارت له أربعة أعين. فسألاه، فقال النبي ﷺ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحرُوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمسحوا ببيري؛ إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تَقْرُوا من الزحف - شعبة الشاك - وأنتم يا يهود، عليكم خاصة ألا تغدوا في السبت. فقبلاً يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟ قالوا: لأن داود - عليه السلام - دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى أن تقتلنا يهود»^(١). فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير في تفسيره من طُرق، عن شعبة بن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ﴾، أي: حُججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: هالِكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس - رضي الله عنه - ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُورًا﴾، أي: مغلوباً. والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزبير:

إذ أجازي الشيطان في سنن العرِّي وَمَنْ مَالَ مَسِيلَهُ مَثْبُورٌ

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: «علمت» وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مَبْهُورَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [١٣] ﴿وَعَمَلُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حُجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فإن هذه الوصايا ليس فيها حُجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة»، فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي يُجليهم منها ويزيلهم عنها، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾،

(١) ضعيف، أخرجه الترمذي ٢٧٣٣ و ٣١٤٤ والنسائي في «الكبرى» ٣٥٤١ و ٨٦٥٦ وابن ماجه ٣٧٠٥ وأحد ٢٣٩/٤ - ٢٤٠، وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن سلمة، قال شعبة: عن عمرو بن مرة، سمعت عبد الله بن سلمة يحدثنا، وإنا لنعرف وننكر، وكان قد كبر، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. ووفقه العجلي ويعقوب بن شيبه. وقال أبو حاتم والنسائي: يعرف وينكر. أم من الميزان ٤٣٦٠ والظاهر أنه رواه بعدما كبر فأتى بالفاظ غريبة، به ابن كثير على بعضها، وسكت عن بعضها الآخر، والله أعلم.

وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ كَادُوا يَسْتَخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٦﴾ سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿١٠٧﴾﴾. ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوةً على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلاً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاريها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال ما هنا: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٩﴾﴾، أي: جميعكم أنتم وعدوكم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾، أي: جميعاً.

﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١١٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمناً الحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُصَلِّوْنَ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطَّلِعَكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَالْحَقِّ نَزَلَ﴾، أي: ووصل إليك، يا محمد، محفوظاً محروساً، لم يُشَبَّ بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملا الأعلى، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾، أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾، أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلي بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفترقاً متنجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأه «فرقناه»، بالشديد. أي: أنزلناه آية آية، مبيّناً مفصلاً، ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾، أي: ليبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مُكْتَبٍ﴾، أي: مهل، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾، أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تَوْمِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُ عَلَيْهِمْ يَخِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾ وَيَخِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٩﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جشتم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تَوْمِنُوهُ﴾، أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله وتوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رُسُلِهِ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسْكُونُ بكتابتهم ويقيمونه، ولم يُبدلوه ولا حَرفوه ﴿إِنَّا يُسْئَلُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، جمع ذفن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾، أي: لله - عز وجل - شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَا﴾، تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يُخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقوله: ﴿وَيَخِزُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ﴾، أي: خضوعاً لله - عز وجل - وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، الله ﴿خُشُوعًا﴾، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى

وَأَنْتُمْ تَقْرَبُونَ ﴿١٧﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿يَجْرُونَ﴾، عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلى المليك القرم وابن الهمام
وَأَنْتِ كَتَيْبَةَ فِي الْمُرْدَحَمِ
﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا
وَكَبِيرَةٍ تَكْبِيرًا ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

[٤٣٤٥] وقد روى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية^(١). وكذا روي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾... الآية.

[٤٣٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارباً بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى: لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾، أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذه عنك، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢). أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك، يفعل أي ذلك شاء».

[٤٣٤٧] وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق السمع دونهم فقرأ منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع. فإن خفض رسول الله ﷺ صوته لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ فیتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ فلا تسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك [دونهم]، لعله يزعم إلى بعض ما يسمع فينتفع به، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٠٢ عن مكحول مرسلًا، ووصله ٢٢٨٠١ من وجه آخر، وكذا ابن مردويه، كما في «أسباب النزول» للسيوطي ٧٠٥ كلاهما عن ابن عباس، وفي إسناده الحسين بن داود - سنيذ - وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٢ ومسلم ٤٤٦ والترمذي ٣١٤٦ والنسائي في «التفسير» ٣٢٠ وأحمد ٢٣/١ و٢١٥ والطبري ٢٢٨٢٥.

سَيِّلاً^(١). وهكذا قال عكرمة، والحسنُ البصري، وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة. وقال شعبة، عن أشعث بن سُليم، عن الأسود بن هلال، عن عبد الله بن مسعود: لم يُخافت بها مَنْ أسمع أذنيه.

[٤٣٤٨] قال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابنُ عُليَّة، عن سَلَمَةَ بنِ علقمة، عن محمد بن سيرين قال: بُثِّثُ أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان إذا صَلَّى فقرأ حَفْضَ صوته، وأن عمر - رضي الله عنه - كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ قال: أناجي ربي - عز وجل - وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنعُ هذا؟ قال: أطرُدُ الشيطانَ وأوقظ الوَسْطَانَ. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً^(٢). وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وكذا رَوَى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنها: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبَّير، وأبو عِيَّاض، ومكحول، وعروة بن الزبير. وقال الثوري، عن ابن عِيَّاش العائري، عن عبد الله بن شدَّاد قال: كان أعرابٌ من تميم إذا سلم رسول الله ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾.

قولٌ آخر، قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفصُ بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها -: نزلت هذه الآية في التشهُد: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قولٌ آخر، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ﴾، قال: لا تُصَلِّ وراءَ الناس، ولا تُدَعِّعها مخافة الناس. وقال الثوري، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾، قال: لا تُحَسِّنُ علائقتها وتُسييء سيريتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهشيم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قولٌ آخر، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: أهل الكتاب يخافتون. ثم يجهر أحدُهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يُخَافِتَ كما يُخَافِتُ القوم، ثم كان السبيلُ الذي بين ذلك الذي سنُّ له جبريلُ من الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ لِنَفْسِهِ الْكُرِيمَةَ الْأَسْمَاءَ الْحَسَنَى، نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ النَّقَائِصِ فَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ لِنَفْسِهِ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفْراً أحد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنَ الدَّلِّ﴾، أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليٌّ أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ، بل هو تعالى خالقُ الأشياء وحده، لا شريك له ومُقدِّرها ومُدبِّرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنَ الدَّلِّ﴾: لم يُخَالِفْ أحداً ولا يبتغي نَصْرَ أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾، أي: عَظْمَةٌ وأجلُّهُ عما يقول الظالمون المعتدون عُلُوًّا كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ لِنَفْسِهِ الْكُرِيمَةَ﴾. . . الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً. وقالت

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٠ وإسناده ضعيف لأنه من رواية داود عن عكرمة، لكن له شواهد تعضده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٥ وهذا مرسل ضعيف.

العرب: لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذُلُّ. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكاً فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وِثْرًا مِنَ الدَّلِيلِ وَكَوْثَرًا تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾ .

[٤٣٤٩] وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يُعَلِّمُ أهله هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكاً فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وِثْرًا مِنَ الدَّلِيلِ وَكَوْثَرًا تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾ ، الصغير من أهله والكبير^(١).

[٤٣٥٠] قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سَمَّاهَا آية العِزِّ^(٢). وفي بعض الآثار: أنها ما قرئت في بيت في ليلة فَيُصِيبُهُ سَرَقٌ أو آفَةٌ. والله أعلم.

[٤٣٥١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سِيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الرَبَذِيُّ، عن محمد بن كعب القُرظي، عن أبي هريرة قال: خرجتُ أنا ورسولُ الله ﷺ ويده في يدي - أو يدي في يده - فأتى عَلِيَّ رَجُلٌ رَثٌ هَيْئَةً، فقال: أي فلان، ما بَلَغَ بك ما أَرَى؟ قال: السُّقْمُ والضُّرُّ يا رسولَ الله. قال: ألا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تُذْهِبُ عَنْكَ السُّقْمَ والضُّرَّ؟ قال: لا ما يسُرُّني بها. إني شَهِدْتُ معك بدرأً وأحدأً.. قال: فَضَحِكَ رسولُ الله ﷺ وقال: وهل يُدْرِكُ أهلُ بدرٍ وأهلُ أحدٍ ما يدركُ الفقيرُ القانعُ؟ قال: فقال أبو هريرة: يا رسولَ الله، إياي فَعَلَّمَنِي. قال: فقل يا أبا هريرة: توكلتُ على الحي الذي لا يموتُ، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِنَا وَلاً وَكَانَ لَكُمْ شَرِيكاً فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وِثْرًا مِنَ الدَّلِيلِ وَكَوْثَرًا تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾ . قال: فأتى عَلِيَّ رسولُ الله ﷺ وقد حَسُنَتْ حَالِي، قال: قال لي: مَهَيِّمٌ. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، لم أزل أقولُ الكَلِمَاتِ التي علمتني^(٣). إسناده ضعيفٌ، وفي متنه نكارةٌ. والله أعلم.

آخر تفسير سورة «سبحان»، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٥٢ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، لكن ورد من وجه آخر أخرجه ابن السني ٤٢٤ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وإسناده ضعيف، فيه عبد الكريم، أبو أمية، ضعيف، وكذا سفيان بن وكيع تغير حفظه، فضعفوه.

(٢) أخرجه أحمد ٤٣٩/٣ - ٤٤٠ والطبراني ١٩٢/٢٠ من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً، قال في «المجمع» ١١١٤٢: رواه أحمد من طريقين، في إحداهما رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وفي الأخرى، ابن لهيعة، وهو أصح منه، وله علة ثانياً زيان بن فائد ضعيف، وكذا شيخه سهل بن معاذ، فهذه علة ثالثة للحديث، والله أعلم.

(٣) ضعيف منكر. أخرجه أبو يعلى ٦٦٧١، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٣: فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. وقوله: «مهم» أي ما شأنك، ما أمرك.



وهي مكية

ذُكِرَ مَا وَرَدَ فِي قَضَلِهَا، وَالْعَشْرِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا، وَأَنَّهَا عِصْمَةٌ مِنَ الدُّجَالِ:

[٤٣٥٢] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا صبابة، أو: سحابة، قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن»^(١). أخرجه في الصحيحين، من حديث شعبة، به. وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو: أسيد بن الحضير، كما تقدم في تفسير سورة البقرة.

[٤٣٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال^(٢). رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث قتادة به، ولفظ الترمذي: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح.

[٤٣٥٤] طريق آخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال^(٣). ورواه مسلم أيضاً والنسائي، من حديث قتادة، به. وفي لفظ النسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

[٤٣٥٥] حديث آخر وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال»^(٤). فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء.

[٤٣٥٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان بن فايد، عن سهل بن معاذ بن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦١٤ ومسلم ٧٩٥ والترمذي ٢٨٨٥ وأحمد ٢٨١/٤ وابن حبان ٧٦٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٠٩ وأبو داود ٤٣٢٣ والترمذي ٢٨٨٦ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ٩٥١.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٤٤٦/٦ ومسلم ٨٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٤، وإسناده صحيح إن كان سمعه سالم من ثوبان، فإنه كثير الإرسال. لكن يقويه ما قبله.

أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وأخراها كانت له نوراً من قَدَمِهِ إلى رأسه. ومن قرأها كُلُّهَا كانت له نوراً ما بين السماء إلى الأرض»^(١). انفرد به أحمد ولم يخرجوه.

[٤٣٥٧] وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مَرْزِيم، عن نافع، عن ابن عَمْرٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سُورَةَ الكَهْفِ في يوم الجُمُعَةِ سطع له نورٌ من تحت قدمه إلى عَنَانِ السماء، يُضِيءُ له يومَ القيامة، وَغُفِرَ له ما بين الجمعتين»^(٢). وهذا الحديث في رفعه نظراً، وأحسنُ أحواله الوقْفُ. وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سننّه، عن هُشَيْمِ بْنِ بَشِيرٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مجلِّزٍ، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي سعيد الخُدْرِي - رضي الله عنه - أنه قال: من قرأ سورة الكهف إلى يوم الجمعة أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق. هكذا وقع موقوفاً. وكذا رواه الثوري، عن أبي هاشم، به، من حديث أبي سعيد.

[٤٣٥٨] وقد أخرجه الحاكم في مُسْتَدْرَكه، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضل بن محمد الشعرائي، حدثنا نعيم بن حَمَادٍ، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي مجلِّزٍ، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبينه الجمعتين»^(٣). ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننّه، عن الحاكم.

[٤٣٥٩] ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة»^(٤). والله أعلم.

[٤٣٦٠] وفي «المختارة» للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وَإِنْ خَرَجَ الدَّجَالُ عُصِمَ مِنْهُ^(٥).

* * *

(١) أخرجه أحمد ٤٣٩/٣ والطبراني ١٩٧/٢٠ من حديث معاذ بن أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٤: في إسناده أحمد، ابن لهيعة، وهو ضعيف، وقد يحسن بحديثه أه، قلت: وفيه زياد بن فائد، ضعيف، وسهل بن معاذ ضعيف أيضاً، وأحسن منه المتن الآتي برقم ٤٣٥٩.

(٢) إسناده ضعيف جداً، ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٤٧٠ في ترجمة محمد بن خالد الختلي، ونقل عن ابن الجوزي قوله: كذوبه، وقال ابن مندة: روى متاكير. ثم ساقه الذهبي بهذا الإسناد.

(٣) أخرجه الحاكم ٣٦٨/٢ والبيهقي في «السنن» ٢٤٩/٣ وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: نعيم بن حماد، ذو متاكير. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٤٤٤ والدارمي ٤٥٤/٢ من طريق هشيم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، وصوب البيهقي الوقف فيه.

(٤) أخرجه الحاكم ٥٦٤/١ والبيهقي في «الشعب» ٢٤٤٦ والطبراني في «الأوسط» ١٤٧٨ وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ورواه الثوري فوقه اه ووافقه الذهبي. ورجح البيهقي الوقف فيه على أبي سعيد وانظر «مجمع الزوائد» ٢٣٩/١.

(٥) فيه عبد الله بن مصعب الجهني، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦١٠ فقال: عن أبيه عن جده، فرغ خطبة منكراً، وفيهم جهالة أه، والغرابة في صدر المتن فقط، وأما عجزه، فتقدم قبل قليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

قد تقدّم في أول التفسير أنه تعالى يحمّد نفسه المقدّسة عند فوّاح الأمور وخوّاتيمها، فإنه المحمود على كلّ حال، وله الحمد في الأولى والآخرة. ولهذا حمّد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه أعظمّ نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين. ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿قِيمًا﴾، أي: مستقيماً. ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾، أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، يُنذِرُهُ بَأْسًا شَدِيدًا، عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الآخرة، ﴿مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾، أي: من عند الله الذي لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، ولا يُورِثُ وَثاقَهُ أَحَدٌ. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بهذا القرآن الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي: مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ جَمِيلَةً، ﴿مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾، في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه، ﴿أَبَدًا﴾، دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبُد الملائكة، وهم بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بهذا القول الذي افتروه وتقولوه، ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نصب على التمييز تقديره: كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ هَذِهِ كَلِمَةً. وقيل: على التعجب، تقديره: أعظمّ بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرمّ يزيد رجلاً. قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة «كبرت كلمة»، كما يقال: «عظم قولك»، و«كبر شأنك». والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيع لمقاتلتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليهم إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

[٤٣٦١] وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر، قديم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدام المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو

نبي مُرْسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوْلٌ قَرَوَا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذَهَبُوا في الدهرِ الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيب. وسلوه عن رَجُلٍ طَوَّافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبْوُهُ؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رَجُلٌ متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضرُ وعقبهُ حتى قَدِمَا على قريش، فقالا: يا معشرَ قريش، قد جئناكم بِفَضْلِ ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحرارُ يهودَ أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أمرُوهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً بما سألتكم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أَرَجَفَ أهلُ مَكَّةَ وقالوا: وَعَدْنَا محمدَ غداً، واليومَ خمسَ عشرةَ قد أصبحتنا فيها، لا يُخبرنا بشيءٍ عما سألتناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مُكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهلُ مَكَّةَ، ثم جاءه جبرائيلُ - عليه السلام - من عند الله - عزَّ وجلَّ - بسورة أصحاب الكهف، فيها معانيته إياه على حُزْنِهِ عليهم، وخَبَّرَ ما سألوه عنه من أمرِ الفِتْيَةِ والرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] (١).

﴿فَلَمَّا كَذَبَتْ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَن تَدْرِيهِمْ إِنْ لَمْ يَأْمُرْنَا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّياً رسوله ﷺ في حُزْنِهِ على المشركين، لتركهم الإيمان ويُعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠]، وقال: ﴿لَمَّا كَذَبَتْ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. باخ، أي: مُهِلِكَ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عليهم. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا كَذَبَتْ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَن تَدْرِيهِمْ إِنْ لَمْ يَأْمُرْنَا بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾، يعني: القرآن. «أَسْفًا»، يقول: لا تُهْلِكُ نَفْسَكَ أَسْفًا، قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وحُزْنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية، مُزَيَّنَةً بزينة زائلة. وإنما جعلها دارَ اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

[٤٣٦٢] قال قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (٢). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وحزابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، أي: وإنا لَمُصَيِّرُوهَا بعد الزينة إلى الحُزَابِ والدَّمَارِ، فنجعلُ كُلَّ شيءٍ عليها هالِكًا ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، لا يُنْبِتُ ولا يُنْتَفِعُ به، كما قال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بِلِقْعًا. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابنُ زيد: الصعيد الأرض

(١) والحديث ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٨٦١ من طريق ابن إسحق به، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحق، فإنه لم يسته، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٦٥.

التي ليس فيها شيء، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزَ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَرَبَّنَا لَجَعَلُونَا مَا عَلَيْنَا صَعِيدًا جُرْزًا﴾، يعني الأرض، إن ما عليها لفانٍ وبانثٌ، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى.

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [٩] إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَنَقَلُوا رِبَّنَا ءَايَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا [١٠] فَضَرَرْنَا عَلَيَّ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا [١١] ثُمَّ بَدَّلْنَاهُمْ لِيُعَلِّمَهُمُ الْهَيْبَةَ الْكِبْرَىٰ وَأَعَلَّمْنَاهُمْ الَّتِي كَانُوا لَا يَلْمِزُوكَ لِذَلِكُمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِكُلِّ سُلْطَانٍ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ فَذَكَّرْنَا عَلَيْهِمْ تِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [١٢]

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ﴾، يعني يا محمد، ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليس أمرهم عجيبياً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء، أعجب من خبر أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك. وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حجبتي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفي، وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو: غار الوادي، والرقيم اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيم: كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «الرقيم»، قال: يزعم كعب أنها القرية. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذي فيه الكهف. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس. وقال ابن جرير: أخبرني وهب بن سليمان، عن شعيب الجبتي: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران. وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حناناً، والأواه، والرقيم. وقال ابن جرير: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم ببيان؟. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الرقيم» الكتاب. وقال سعيد بن جبير: «الرقيم» لوخ من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرقيم» الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْزُومٌ﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» قيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَنَقَلُوا رِبَّنَا ءَايَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. يُخْبِرُ تعالى عن أولئك الفتية الذين فرّوا بدينهم من قَوْمِهِمْ لئلا يفتنوهم عنه، ففرّوا منهم فَلَجَجُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَبُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا ءَايَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾،

أي: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمُنَا بِهَا وَتَسْتَرِنَا عَنْ قَوْمِنَا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: وَقَدَّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا، أي: اجعل عاقبته رشداً، كما جاء في الحديث:
[٤٣٦٣] «وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا»^(١).

[٤٣٦٤] وفي المسند من حديث بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً. ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ﴾، أي: مِنْ رَقْدَتِهِمْ تِلْكَ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدَرَاهِمَ مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا شَيْئًا يَأْكُلُونَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانَهُ وَتَفْصِيلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ لَنَجْعَلََنَّ الْأَمْزِينَ﴾، أي: الْمَخْتَلِفِينَ فِيهِمْ، ﴿أَحْسَنَ لِمَا لَيْسُوا أَمَدًا﴾، قيل: عَدَدًا. وقيل: غَايَةً، فَإِنَّ الْأَمَدَ الْغَايَةَ كَقَوْلِهِ:
سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ

﴿مَنْ نَقَضَ عَلَيْهِمْ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِيَّتِهِمْ فَتِيَةً ءَأَسَّوْا بِرَبِّهِمْ وَرَدَدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ افْتَرَسْتُهُمْ وَمَا يَسْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

من ها هنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً. وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرظة - يعني الخلق - فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تفواهم. فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَرَدَدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص. ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَدَدْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتِهِمْ تَقَرَّبَتْهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَأَسَّوْا بِرَبِّهِمْ إِسْبَاطًا وَهُمْ يَسْتَبْسِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين [المسيح] عيسى ابن مريم - عليه السلام - والله أعلم. والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أجباز اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايئتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أجباز اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول

(١) هو بعض حديث سيأتي.

(٢) أخرجه أحمد ١٨١/٤ والطبراني ١١٩٦ - ١١٩٨ وابن حبان ٩٤٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٧٨/١٠ وقال: ورجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني ثقات اهـ، لكن بسر مختلف في صحبته.

الله ﷻ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبير هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومبايئتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة؛ فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز عنهم، ويتبرز عنهم ناحية. وكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هنالك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.

[٤٣٦٥] كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١). وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

والناس يقولون: الجنسية علة الضم. والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظنهم كل واحد منكم ما بأمره. فقال الآخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء، هو الله الذي خلق كل شيء، السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِلَّا هَا﴾. ولن: لنفي التأييد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً. ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَكُم بِلُكُؤِنٍ بَيِّنٍ﴾، أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟ ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك. فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبي عليهم، وتهذهم وتوعدهم، وأمر يتزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم، لعلمهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى

(١) ذكره البخاري ٣٣٣٦ معلقاً من حديث عائشة. وأخرجه مسلم ٢٦٣٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٩٠١ وأبو داود ٤٨٣٤

الهُزْب منه، والفِرَارِ بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يَفِرَّ العبدُ منهم خَوْفًا على دينه، كما جاء في الحديث:

[٤٣٦٦] «يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتَّبِعُ بها شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القطرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن»^(١)؛ ففي هذه الحال تُشْرَعُ العزلة عن الناس ولا تُشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع. فلما وقع عزمهم على الذهاب والهَرَب من قومهم، واختار الله [تعالى] لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ وَمَا يَمْبُتُونَ إِلَّا اللَّهُ»، أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأديانكم، «فَأَوَّاهُوا إِلَى الكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، أي: ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، «وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» الذي أنتم فيه، «مِرْقَفًا»، أي: أمراً ترتفقون به. فعند ذلك خَرَجُوا هُرَابًا إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدتهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خبرهم.

[٤٣٦٧] كما فعل بنبية ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطَّلَب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يَمُرُّون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جَزَعَ الصديق في قوله: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا»، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». وقد قال الله تعالى: «إِلَّا نَضْرِبُهَا فَعَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودِهِمْ لَمَّا تَوَلَّوْا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ هَزِيزٌ حَقِيكٌ»^(٢) [التوبة: ٤٠]، فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف. وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دَخَلُوا فيه فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بزدم بابه عليهم لِيَهْلِكُوا مكانهم، ففعل ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿وَرَوَى السَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اللَّيْلِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(٣)

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزْوَرُّ عنه «ذَاتَ اللَّيْلِ»، أي: يتقلصُ الفَيءُ يمنة، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: «تَزْوَرُّ»، أي: تميل. وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ»، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٩ و ٣٣٠٠ وأبو داود ٤٢٣٧ والنسائي ١٢٣/٨ - ١٢٤ وأحمد ٤٣/٣ و ٥٧ وأبو يعلى ٩٨٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تنزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه والله الحمد.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ﴿تَقْرُضُهُمْ﴾: تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين بذلك، فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأي بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه.

[٤٣٦٨] فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركت شيئاً يُقرَّبكم إلى الجنة ويُبعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به»^(١). فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَرَزَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرًا عَنْ كَهْفِهِمْ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: تمثيل ﴿ذَاتِ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتِ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾، أي: في متسع منه داخلًا، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت ثيابهم وأجسادهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَلِكَ مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ﴾، حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والرياح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَرَسْمٌ يُضِلُّ قَلْبَ مَن يَحَدِّ لَهُمْ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم؛ فإنه من هداه الله امتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَّلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتْ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾^(٢)

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يطبق هذه ويفتح هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنَامُ بِإِخْدَى مُثَلَّثِيهِ وَتَحْسَبِي بِأَخْرَى الرِّزَايَا، فَهَوَ يَقْظَانُ نَائِمٌ

وقوله تعالى: ﴿وَنَقَّلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، قال بعض السلف: يُقَلِّبون في العام مرّتين. قال ابن عباس: لو لم يُقَلِّبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة: الوصيد الفئاء. وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾^(٣)، أي: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد». ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب. قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث ربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر^(٤)، كما ورد به

(١) هو بعض حديث تقدم.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٢٧ و٤١٥٢ والنسائي ١/١٤١ و٧/١٨٥ من حديث علي، حسنه ابن كثير رحمه الله، وفي ذلك نظر، فإن في إسناده نُجَيّ الحضرمي، قال عنه الحافظ: مقبول، وقال عنه الذهبي في الميزان ٩٠١٩: لا يدرى من هو. قلت: وللحديث شواهد سوى لفظ «جنب» فقد تفرد به، وهو فير حجة، وضعف حديثه هذا غير واحد. وذكر الكلب والصورة في الصحيح، وقد تقدم.

الحديث الحسن . وسَمِلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكْتُهُمْ فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَهَذَا فَائِدَةٌ صُحِبَةِ الْأَخْيَارِ ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذَكَرٌ وَخَبِيرٌ وَشَأْنٌ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ كَلْبٌ صَيِّدٌ لِأَحَدِهِمْ ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ . وَقِيلَ : كَانَ كَلْبٌ طَبَاخِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ قَدْ وَاقَفَهُمْ عَلَى الدِّينِ فَصَحَّبَهُ كَلْبُهُ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي» : حدثنا صدقة بن عمر الغساني ، حدثنا عباد المنقري ، سمعت الحسن البصري رحمه الله يقول : كان اسم كلب بن إبراهيم جريز ، واسم هدهد سليمان عنقز ، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير ، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبده : بهُموت . وهبط آدم - عليه السلام - بالهند ، وحواء بجدة وإبليس بدست بيسان ، والحية بأصبهان . وقد تقدم عن شعيب الجبتي أنه سماه حمران . واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هي مما ينهى عنه فإن مُسْتَدَّهَا رجم بالغيب .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ ، أي : إنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم ، لما ألبسوا من المهابة والذعر لثلاثا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والرحمة البالغة ، والرحمة الواسعة .

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِهِمْ لِيَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى : وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعازهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ ، أي : كم رقدتم ؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا﴾ ، كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، وإيقاظهم كان في آخر نهار ، فلماذا استدركوا فقالوا : ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ ، أي : الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تزدد في كثرة نومهم ، فالله أعلم ، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب ، فقالوا : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ ، أي : فضتكم هذه . وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها ، فتصدقوا منها وبقي منها ، فلماذا قالوا : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ، أي : مدينتكم التي خرجتم منها . والألف واللام للعهد . ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ ، أي : أطيب طعاماً ، كقوله : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور : ٢١] ، وقوله : ﴿قَدْ أَطْلَعَ مَنْ نَزَّكَ﴾ [الأعلى : ١٤] . ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره . وقيل : أكثر طعاماً ، ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال الشاعر :

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَتَمُّنَا ثَلَاثَةٌ وَلِلْسَبْعِ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول ؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال ، سواء كان قليلاً أو كثيراً . وقوله : ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ ، أي : في خروجه وذهابه ، وشرايه وإيابه ، يقولون : وَلْيَتَخَفْ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ،

أَي: يُغْلَمَنَّ ﴿يَكُمُ أَحَدًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أَي: إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ رَجَمُوكُمْ، ﴿أَوْ يُبِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، يَعْنُونَ أَصْحَابَ دَقْيَانُوسَ. يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُبْعِدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَوْ يَمُوتُوا، وَإِنْ وَاثَرَهُمْ عَلَى الْعُودَةِ فِي الدِّينِ فَلَا فَلَاحَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تَقْلِقُوا إِذَا أَبَدْنَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُ عُنُقَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِينَ الَّذِينَ عَلَّمَهُم بِهَهُمْ قَالَ الَّذِينَ عَلَّمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنْتَخَذَنَّكَ عَلَيْنَا

مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾، أَي: أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمُ النَّاسَ، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ شُكٌّ فِي الْبَعْثِ وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ قَالُوا: تُبْعَثُ الْأَرْوَاحُ وَلَا تُبْعَثُ الْأَجْسَادُ. فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكَهْفِ حُجَّةً وَدَلَالَةً آيَةً عَلَى ذَلِكَ. وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شِرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الْجَاذَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا دَفْسُوسُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَتَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أما الذباز فلأنها كديارهم وأزى رجال الحى غير رجاله

فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا، لَا خَوَاصَّهَا وَلَا عَوَامَّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ: لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا، أَوْ أَنَا حَالِمٌ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ امْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ تَعْجِيلَ الْخُرُوجِ مِنْ هَا هُنَا لِأَوْلَى لِي. ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفْقَةِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَ بِهَا طَعَامًا. فَلَمَّا رَأَاهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: لَعَلَّ هَذَا قَدْ وَجَدَ كَنْزًا. فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ، وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ النَّفْقَةُ؟ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَنْزٍ، وَبِمَنْ أَنْتَ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ امْسٍ وَفِيهَا دَقْيَانُوسُ. فَتَسَبَّوهُ إِلَى الْجُنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَعَنْ أَمْرِهِ، حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ مَتَحَيَّرٌ فِي حَالِهِ، وَمَا هُوَ فِيهِ. فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ، مُتَوَلِّيَ الْبَلَدِ وَأَهْلِهَا، حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى اتَّقَدُّمَكُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَعْلَمَ أَصْحَابِي، فَدَخَلَ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ، وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبْرَهُ، وَيُقَالُ: بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ، وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمُ الْمَلِكَ وَاعْتَنَفَهُمْ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ، وَاسْمُهُ تَيْدُوسِيْسُ، فَفَرَحُوا بِهِ وَأَنْسَوْهُ بِالْكَلَامِ، ثُمَّ وَدَعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَفَّاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال قتادة: غزا ابنُ عباسٍ مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهفٍ في بلاد الروم، فرأوا فيه عظامًا، فقال قائل: هذه عظامُ أصحابِ الكهف؟ فقال ابنُ عباسٍ: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أَي: كَمَا أَرَقَدْنَا هُمْ وَأَيَقظْنَا هُمْ بِهَيَاتِهِمْ أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُ عُنُقَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾، أَي: فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ مُثَبِّتٌ لَهَا وَمَنْ مُنْكَرٌ، فَجَعَلَ اللَّهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ. ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِينَ الَّذِينَ عَلَّمَهُم بِهَهُمْ

أَعْلَمُ بِهِمْ»، أي: سُدُوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه، وَذَرَوْهم على حالهم، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين، أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال:

[٤٣٦٩] «لعمرك الله اليهود والنصارى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»^(١)، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا. وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه لما وَجَدَ قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تُدْفَنَ تلك الرقعة التي وَجَدَهَا عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَاقِمْنَاهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدّة أصحاب الكهف، فَحَكَى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصابَ قَبِيلاً قصيد. ثم حكى الثالث وسَكَتَ عليه أو قرّره بقوله: ﴿وَاقِمْنَاهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رَدُّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وَقَفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة. وكذا رَوَى ابن جرير، عن عطاء الخراساني، عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله عز وجل، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابن بشار، حَدَّثَنَا عبد الرحمن، حَدَّثَنَا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيدٌ صحيحةٌ إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حَدَّثْتُ أنه كان على بعضهم من حدائثه سنّه وَضَحَ الْوَرِيقِ. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، يبيكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مَكْسَلَمِينَا، وكان أكبرهم وهو الذي كَلَّمَ الملك عنهم ومحسيميلىنا، ويمليخا، ومَرَطُوس، وكشوطوش، وبيرونس، ودينموس، ويطونس قالوش. هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن يكون هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شُعَيْبِ الْجَبِّيِّ أن اسم كلبهم حُمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقَّى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: فإنهم لا عِلْمَ لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رَجْمًا

بالغيث، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءه الله - يا محمد - بالحق الذي لا شك فيه ولا مزية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله - عز وجل - علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

[٤٣٧٠] كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود - عليهما السلام -: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية: على تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله. فقيل له، وفي رواية: فقال له الملك: قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله»، لم يحدث، وكان ذكراً لحاجته»^(١) وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(٢). وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سُئِلَ عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أُحييكم». فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري. وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة. وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى زهب كساني هذا. ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به. ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة»، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله»، وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير - رحمه الله - ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومُسِقِطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح. وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم. وقال عكرمة: ﴿وَأَذْكُرُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي: إذا غُضِبْتَ. وهذا تفسير بالألزام. وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عبادة بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجبيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حصين، عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَذْكُرُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: إذا نسيت الاستثناء فاستثنى إذا ذكرت. وقال: هي خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد منّا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تفرّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين. ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله عز وجل - قد أُرشد من نسي الشيء في كلامه إلى

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٢ ومسلم ١٦٥٤ والنسائي ٣١/٧ وأحمد ٢٧٥/٢ وأبو يعلى ٦٢٤٤.

(٢) هذه الرواية عند مسلم برقم ١٦٥٤ ح ٢٥.

ذكر الله تعالى لأن النسيان مَنشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْئِنُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ﴾، وذكر الله تعالى يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فإذا ذَهَبَ الشَّيْطَانُ ذَهَبَ النسيانُ، فذَكَرَ اللهُ تَعَالَى سَبَبَ لِلذِّكْرِ، ولهذا قال: ﴿وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقَرَبٍ مِنْ هَذَا رَبَّنَا﴾، أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يُوقِّفَكَ لِلصَّوَابِ والرشد في ذلك. وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦)

هذا خبرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾، أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك في ذلك توقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعته الله عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾، قال: وفي قراءة عبد الله: «وقالوا: ولَيْسُوا»، يعني أنه قاله الناس. وهكذا قال - كما قال قتادة - مطرف بن عبد الله. وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، وظاهر الآية إنما هو من أخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير - رحمه الله - ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور. فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، أي: إنه لبعير بهم سمع لهم. وقال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه. وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء». ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، يَرَى أَعْمَالَهُمْ، وَيَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ سَمِيعًا بَصِيرًا. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا مُعْتَبَرٌ لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مُشِيرٌ، تعالى وتقدس سبحانه.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِسَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: غير مُعَيَّرٍ لها ولا محرف ولا مؤوَّل. وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، عن مجاهد ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن

قتادة: ولياً ولا مولى قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوجي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله. كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِبَلَاغٍ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رسالتهُ واللهُ يَقصِّمُكَ مِنَ الْكَاثِبِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ لَكَ مَعَاذٌ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: سائلك عما فَرَضَ عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمِيرٌ نَّفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويُسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرةً وعشيماً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقرباء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وخذَه ولا يُجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليُفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]... الآية، وأمره أن يَضِير نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَأَمِيرٌ نَّفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

[٤٣٧١] وقال مسلمٌ في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - وقال: كُنَّا مع النبي ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطْرُدْ هؤلاء لا يَجْتَرِئُونَ علينا. قال: وكنتُ أنا وابن مسعود، ورجلٌ من هذيل، وبلال، ورجلان نسيْتُ اسمَهُمَا. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يَقَع، فَحدَّث نفسه، فانزل الله - عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١). انفراد بإخراجه مسلم دون البخاري.

[٤٣٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي التياح قال: سَمِعْتُ أبا الجَعْدِ يُحدِّثُ عن أبي أمامة قال: خَرَجَ رسولُ الله ﷺ على قاصٍ يقصُّ، فأَمَسَكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «فُصِّصْ، فَلَأَنْ أَفْعُدَ غَدُوَّةً إِلَى أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ»^(٢).

[٤٣٧٣] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هشام، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سَمِعْتُ كُرْدُوسَ بن قيس - وكان قاصُّ العامَّةِ بالكوفة - يقول: أَخْبَرَنِي رجلٌ من أصحابِ بَدْرِ: أَنَّهُ سَمِعَ النبي ﷺ يقول: «لَأَنْ أَفْعُدَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَجْلِسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ». قال شعبة: فقلت: أَيُّ مَجْلِسٍ؟ قال: «كَانَ قَاصًّا»^(٣).

[٤٣٧٤] وقال أبو داود الطيالسي في مُسنَدِهِ: حدثنا مُحَمَّدٌ، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَأَنْ أَجَالِسَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَدَاةِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَلَأَنْ أَذْكَرَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ ثَمَانِيَةَ مِنْ وَكْدِ إِسْمَاعِيلَ، دِيَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا». فَحَسَبْنَا دِيَاتِهِمْ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ أَنَسٍ، فَبَلَغَتْ سِتَّةَ وَتَسْعِينَ أَلْفًا، وَهَذَا هُنَا

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦١/٥ ح ٢١٧٥١ والطبراني كما في «المجمع» ٩١١ من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي: رجاله موثقون، إلا أن أبا الجعد، إن كان الغطفاني، فهو من رجال الصحيح. وإن كان غيره، فلم أعرفه أحد... قلت: لم ينسب، ولم أجد قرينة تعينه، فليُنظر.

(٣) أخرجه أحمد ٤٧٤/٣ من حديث كردوس عن رجل من أهل بدر، قال الهيثمي في «المجمع» ٩١٢: كردوس ابن قيس، وثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح أحد، وقال الذهبي في «الميزان» ٦٩٥٦: كردوس بن قيس، لا يُعرف أحد، وقال أبو حاتم الرازي: فيه نظر.

من يقول: أربعة من ولد إسماعيل، والله ما قال «إلا ثمانية، دِيَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»^(١).

[٤٣٧٥] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم - وهو كوفي - أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي ﷺ سَكَتَ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ»^(٢). هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلًا.

[٤٣٧٦] وحدثناه يحيى بن المَعْلَى بن منصور، حدثنا محمد بن الصَّلْتِ، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ قَالَا: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجُلٌ يقرأ سُورَةَ الْجِنِّ أَوْ سُورَةَ الْكُهْفِ، فَسَكَتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هذا المجلس الذي أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ»^(٣).

[٤٣٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون المَرْتَبِيُّ، حدثنا ميمون بن سبياه، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرُونَ الله، لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَوْمُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بَدَلْتُ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ»^(٤). تفرد به أحمد رحمه الله.

[٤٣٧٨] وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَعْضِ آيَاتِهِ: «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، فخرج يَلْتَمِسُهُمْ، فوجد قوماً يذكرُونَ الله، منهم ثائر الرأس، وجافي الجليد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جَلَسَ مَعَهُمْ وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي مَنْ أَمَرَنِي اللهُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ»^(٥). عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادة الصحابة رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: «وَلَا تَقَدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زَيْتَةَ الْحَيَّةِ الدُّنْيَا»، قال ابن عباس: «ولا تُجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ». يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة. «وَلَا تَطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا»، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، «وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا»، أي: أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريط وضياع، ولا تكن مُطِيعاً له ولا مُحِبّاً لطريقته، ولا تُغَيِّطْهُ بِمَا هُوَ فِيهِ، كما قال تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» ﴿١٣١﴾ [طه: ١٣١].

(١) أخرجه الطيالسي ٢١٠٤ وفيه يزيد بن أبان الرقاشي، ضعيف لكن للحديث شواهد راجع للمجموع ١٩٠/١ و ١٠٤/١٠ - ١٠٥. وفي الباب أحاديث أخرى، والله تعالى أعلم.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عمرو بن ثابت، وهو متروك.

(٣) ضعيف. أخرجه البزار ٢٣٢٦ «كشف» وذكره الهيثمي في «المجموع» ١٦٤/٧ وقال: رواه البزار متصلًا ومرسلًا، وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدم، وهو متروك.

(٤) أخرجه أحمد ١٤٢/٣ وأبو يعلى ٤١٤١ والطبراني في «الأوسط» ١٥٧٩ وذكره الهيثمي في «المجموع» ٧٦/١٠ وقال: وفيه ميمون المرثي وثقه جماعة، وفيه ضعف، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٠١٧ عن عبد الرحمن بن سهل وهو مختلف في صحبته، وفيه أسامة بن زيد، وهو متروك ليس بشيء وتقدم أن السورة مكية وهذا الخبر مدني.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَقُلِ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ؛ هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾: هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾، أي: أرسدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها.

[٤٣٧٩] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ذرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةٌ كُلُّ جِدَارٍ مِثْلُ مَسَافَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١). وأخرجه الترمذي في «صفة النار»، وابن جرير في تفسيره، من حديث ذرّاج أبي السّمح، به. وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: حائط من نار.

[٤٣٨٠] قال ابن جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حبيب بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنّم»^(٢)، قال: فقيل له: كيف ذلك؟، فتلا، أو قرأ هذه الآية: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: والله لا أدخلها أبداً، أو: ما دمت حياً، ولا تصيني منها قطرة»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَسْتَفِيضُوا بِغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، قال ابن عباس: المهل: ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت. وقال مجاهد: هو كالدّم والقِيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حرّه. وقال آخرون: هو كلّ شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخذود، فلما انماح وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحّاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسود، وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنّ المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلّها، فهو أسود مثنين غليظ حارّ، ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾، أي: من حرّه، إذا أراد الكافر أن يشربه وقرّبه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.

[٤٣٨١] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، بإسناده المتقدم في سُرَادِقِ النَّارِ، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال: ماء كالمهل، قال: كَعَكَرِ الزَّيْتِ فإذا قُرْبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ قَرْوَةٌ وَجِهَهُ فِيهِ»^(٤). وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من «جامعه»، من حديث رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن ذرّاج، به. ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تُكَلِّمُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حَفْظِهِ. هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن ذرّاج، والله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٤ وأبو يعلى ١٣٨٩، وأحمد ٢٩/٣، والحاكم ٦٠٠/٤ - ٦٠١ كلهم من حديث أبي سعيد، وابن لهيعة تابعه رشدين، لكن في رواية ذرّاج عن أبي الهيثم ضعف، ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي هذه الأحاديث يمكن التساهل.

(٢) إلى هنا الحديث المرفوع، وما بعده من كلام يعلى بن أمية، كما هو واضح في مسند أحمد.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٠٦ وأحمد ٢٢٣/٤، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٦٩: رجال أحمد ثقات.

(٤) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم: ١٧.

[٤٣٨٢] وقال عبد الله بن المبارك، وبقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن نسر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَقَىٰ مِنَ مَاءٍ مَّكَدٍ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّمُهُ، فَإِذَا قُرَّبَ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ قَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسْتَفِيثُوا يُفَاؤُوا بِمَاءٍ كَالثَّهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ يَسْكَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١). وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يغرفهم لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يُصَبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿يَسْكَ الشَّرَابُ﴾، أي: بشس هذا شراباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَشُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ مَّائِيَّةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٥]، أي: حارّة، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَّاءٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضِعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَنَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، والعَدْنُ: الإقامة. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: من تحت عُرفهم ومنازلهم، قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ الآية. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ الْحَلِيَّةِ﴾ فيها من أساور من ذهب، وقال في المكان الآخر: ﴿وَلَوْوُا وَيَلْبَسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وفضله ها هنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، فالسندس: ثياب رفيع رقائق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق. وقوله: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا﴾، الإنكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا.

[٤٣٨٣] ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكناً»^(٢)، فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة. والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، قال: هي الجبال. قال معمر: وقال غيره: السُرُرُ في الجبال. وقوله: ﴿يَنَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: نِعِمَّتِ الْجَنَّةُ ثَوَاباً عَلَى أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حَسُنَتْ مَنْزَلاً وَمَقِيلاً وَمُقَامًا، كما قال في النار: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُفْتَرُونَ فِيهَا قَيْدًا وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ حَلِيدٌ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

(١) تقدم كتابه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٨ والترمذي ١٨٣٠ وابن ماجه ٣٢٦٢ وأحمد ٣٠٩/٤ وابن حبان ٥٢٤٠ من حديث أبي جحيفة.

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانِتًا أُمَّلَهُمَا وَلَمْ نَطْلِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَمْ نُحْمَرْ فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مخالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكلٌ من الأشجار والزروع شمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانِتًا أُمَّلَهُمَا﴾، أي: أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ نَطْلِرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾، أي: والأنهار تتخرق فيهما ها هنا وها هنا. (وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ) قيل: المراد المال. روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار. وهو أظهر ها هنا، ويؤيده القراءة الأخرى. (وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ) بضم الشاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة، كخشبة وخشب. وقرأ آخرون: ﴿ثَمْرٌ﴾ بفتح الشاء والميم. ﴿فَقَالَ﴾، أي: صاحب هاتين الجننتين ﴿لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفخر عليه ويرأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - والله - أمانة الفاجر: كثرة المال وعزوة الثغر.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبّره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفتى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: كائنه، ﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، أي: ولئن كان معاد وزجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأنني مخطئ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٧﴾﴾ [مریم: ٧٧]، أي: في الدار الآخرة، تألّى على الله عز وجل. وكان سبب نزولها في العاص بن ائيل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

﴿ قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّاتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه جُحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: كيف تجحدون ربكم،

ودلالته عليكم ظاهرة جليّة، كلُّ أحدٍ يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحدٍ من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وُجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابة، فعلم استناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كلِّ شيء، ولذا قال المؤمن: ﴿لَيْكَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية، والوحدانية، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ كَرِيحَ آفَاقٍ لَمِنْ تَحْتِهَا وَمَا يَسْمَعُ مِنْ هَاجَاتٍ وَلَا يَخَفُ مِنْ عَذَابٍ لَبِيبٍ﴾. وهذا ما هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعطي غيرك، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

[٤٣٨٤] وقد روي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده. حدثنا جراح بن مُخلد، حدثنا عمّار بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زُرارة، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبده نعمةً من أهل أو مال أو وليد، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فيرى فيه آفةً دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١). قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زُرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

[٤٣٨٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا مُحَمَّد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رُفم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله»^(٢). تفرد به أحمد.

[٤٣٨٦] وقد ثبت في الصحيح، عن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣).

[٤٣٨٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا بكير بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت: نعم، فإني أرى أمي». قال: أن تقول: لا قوة إلا بالله. قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم. قال: فقلت لعمرو، قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٤).

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٨٨ و «الأوسط» كما في «المجمع» ١٧١٥١، وقال الهيثمي: عبد الملك بن زرارة، ضعيف. وانظر «الميزان» ٥٢٠٦. ونسبه ابن كثير لأبي يعلى، والظاهر أنه في المسند الكبير، والخبر ضعيف بكل حال.

(٢) أخرجه أحمد ٤٦٩/٢ وإسناده لين، عبيد هو ابن كثير مقبول. والصحيح ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٨٤ و ٦٦١٠ ومسلم ٢٧٠٤ وأبو داود ١٥٢٨ والترمذي ٣٣٧١ وأحمد ٤٠٢/٤ وأبو يعلى ٧٢٥٢.

(٤) أخرجه أحمد ٣٣٥/٢ و ٣٠٩ والبخاري ٣٠٨٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٩٩/١٠ وقال: رواه أحمد والبخاري بنحوه، =

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رِبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَرِئِيسًا عَلَيْهَا﴾، أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تُبِيد ولا تفتى، ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطرٌ عظيم مزعج، يقلع رزعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فَتَصْبِحُ صَوِيدًا زَلَقًا﴾، أي: بلقماً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدمٌ. وقال ابن عباس: كالجزر الذي لا يثبت شيئاً. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاوَمًا غَوْرًا﴾، أي: غائراً في الأرض، وهو ضدُّ النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٤٠﴾ [الملك: ٣٠]، أي: جارٍ وسائح، وقال ما هنا: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاوَمًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ ﴿٤١﴾، والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ مُقَلَّدَةٌ أَعْنَتْهَا صُفُونَا

بمعنى: نائحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَضُرُّوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾: بأمواله، أو بشماره، على القول الآخر. والمقصود أنه وَقَعَ بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوْفَهُ به المؤمن من إرسال الحُسابان على جَنَّتِهِ التي اغتر بها وألتهته عن الله عز وجل، ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾، قال قتادة: يصفق كَفَيْهِ متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها. ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً، أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز، ﴿يَضُرُّوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ - اختلف القراء ما هنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك الموطن الذي حلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدىء بقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾، ويبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾. ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلِيَّةُ﴾، فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك المُوَالاة لله، أي: هنالك كلُّ أحدٍ من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى مُوالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كَانُوا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ مَا كُنَّا نَرَى قَدْرَهُمْ قَبْلَ وَكُنَّا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ [يونس: ٩٠ - ٩١]. ومنهم من كَسَرَ الواو من ﴿الْوَلِيَّةُ﴾، أي: هنالك الحكمُ لله الحق. ثم منهم من رَفَعَ ﴿الْحَقِّ﴾، على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٢٦]. ومنهم من خَفَضَ القاف، على أنه نعت لله - عز وجل - كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾، أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كُلُّهَا خير.

ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي بلج الكبير، وهو ثقة اهـ. قلت: وثقه ابن معين والنسائي والدارقطني، وقال البخاري: فيه نظر، وقال أحمد: روى حديثاً منكراً، وقال الجوزجاني: غير ثقة، وقال ابن حبان: كان يخطيء. فالخير ضعيف بهذا اللفظ، والصحيح حديث أبي موسى المتقدم.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَمْالًا وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والشور والشجرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، يابساً، ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾، أي: تُفْرِقُهُ وتَطْرُقُهُ ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، أي: هو قادرٌ على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴿٢٤٤﴾﴾ لِيونس: ٢٤٤. الآية، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفاً لَوْنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُخْضَراً ثُمَّ يَجْمَعُ حُطَّلَاتٍ إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾﴾. وقال في سورة الحديد: ﴿أَطْلَمْنَا النَّامُوسَ الدُّنْيَا لَوْحٌ وَزِينَةٌ وَقَاسِرٌ بَيْنَكُمْ وَكَاتِبٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ قَلْبَهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَّلَاتٍ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لِحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْقُرْآنِ ﴿٦٠﴾﴾.

[٤٣٨٨] وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»^(١). وقوله: ﴿أَمْالًا وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصْمَةِ وَالْحَمَلِ الْمَسْمُومِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَقَابِلِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [التغابن: ١٥]، أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جببر، وغير واحد من السلف: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الصلوات الخمس. وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جببر، عن ابن عباس: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عن ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[٤٣٨٩] رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حنيفة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان - رضي الله عنه - يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بقاء في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين العشاء، وهن الحسنات يذهن السيئات. قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله،

وسبحانه الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١). تفرّد به.

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سعيد بن المسيّب قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألتني سعيد بن المسيّب عن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تُصِب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تُصِب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قاله ابن جُرَيْج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك. وقال مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات.

[٤٣٩٠] قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المُقْبِرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مِنَ الباقيات الصالحات»^(٢).

[٤٣٩١] قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن ذَرَجًا أبا السَّمْح حَدَّثَهُ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: استكثروا من الباقيات الصالحات. قيل: وما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: الجملة. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣). وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به.

[٤٣٩٢] وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حَدَّثَهُ قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي، فقال: قل له: أَلْقَيْتَ عِنْدَ زَاوِيَةِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قال: فالتقيا، فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَ، ثم قال سالم: ما تعدُّ الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال سالم: متى جعلتَ فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: ما زلت أجعلها، قال: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فلم يَنْزِع، قال: فَأَبَيْت. قال سالم: أجل قَأْبِت؟ فإن أبا أيوب الأنصاري حَدَّثَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو يقول: «عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَأَرَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا جَبْرِيْلُ، مِنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. فَرَحَّبَ بِي وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ أُمَّتَكَ فَتَلْتَكْتَرُ مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تَرْتِبَهَا طَيِّبَةٌ، وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ. فقلت: وما غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله^(٤).

(١) أخرجه أحمد ٧١/١ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٩٧/١ وقال: ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد الله، وهو ثقة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٠٠ وجادة، وهي أضعف أنواع تحمل الحديث. لكن للحديث ما يؤيده. وأخرجه الطبراني في «الصغير» ٤٠٧ من حديث أبي هريرة من وجه آخر بنحوه وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٨/١٠: ورجال الصغير، رجال الصحيح غير داود بن بلال، وهو ثقة اهـ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣١٠٢ وإسناده ضعيف لضعف دراج، لكن له شواهد، راجع «المجمع»، ٨٨/١٠ - ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣٠٩٩ وإسناده ضعيف لضعف أبي صخر واسمه حيد بن زياد.

[٤٣٩٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم حَفَضَ، حتى ظَنَنَّا أنه قد حَدَثَ في السماء شيء، ثم قال: أما إنه سيكون بعدي أمراء، يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فمن صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَمَالَاهُمْ عَلَى ظَلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَا أَنَا مِنْهُ، ومن لم يُصَدِّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يَمَالْتَهُمْ عَلَى ظَلْمِهِمْ، فهو مني وأنا منه. أَلَا وَإِنَّ «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ^(١).

[٤٣٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أن رسول الله قال: بَيْخُ بَيْخٍ لِحُمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَالِدُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّى فِي حَتْسَبِهِ وَالِدَهُ. وقال: بَيْخُ بَيْخٍ لِحُمْسٍ، من لقي الله مستيقناً بهنَّ دخل الجنة، يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالْحِسَابِ^(٢).

[٤٣٩٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حَسَّانَ بن عطية قال: كان شداد بن أوس - رضي الله عنه - في سفر فَتَزَلَّ منزلاً، فَقَالَ لِفُتْلَانِهِ: «اتننا بالشفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزُمُّها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِذَا كَثُرَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَانْكَبُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حَسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَاناً صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ»^(٣). ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر، عن شداد، بنحوه.

[٤٣٩٦] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين، عن يونس بن نُمَيْعِ الْجَدَلِيِّ، عن سعد بن جُنَادَةَ - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ فِي أَوَّلِ مَنْ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَخَرَجْتُ مِنْ أَهْلِهَا مِنَ السَّرَاةِ غُدُوَّةً، فَأَتَيْتُ مَنْى عِنْدَ الْعَصْرِ، فَتَصَاعَدْتُ فِي الْجَبَلِ ثُمَّ هَبَطْتُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْلَمْتُ، وَعَلَّمَنِي: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾»، و «إِذَا زُلْزِلَتْ»، وعلمني هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وقال: «هِنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»^(٤).

[٤٣٩٧] وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة - غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ إِلَّا الدَّمَاءَ فَإِنَّهَا لَا تَبْطُلُ»^(٥). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «وَالْبَقِيَّتُ الْفَاصِلَاتُ»، قال: هي ذكرُ الله، قول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٦٧ - ٢٦٨ وفي إسناده رجل لم يسم، لكن لصدوره شواهد في كتاب أحاديث الإمارة، ولعجزه شواهد، وهي المقدمة. فالتمن حسن إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٤٤٣ - ٤٤٣ وفي إسناده الهيثمي في «المجمع» ١٠/٨٨ وقال: ورجاله رجال الصحيح، والصحابي الذي لم يسم هو ثوبان إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٣٥.

(٤) أخرجه الطبراني ٥٤٨٢، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٧٦: فيه الحسين بن الحسن العوفي، وهو ضعيف اهـ قلت: لكن لعجزه شواهد، وهي المقدمة.

(٥) إسناده كسابقه، وأصل هذا الحديث في الصحيح.

إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ، وَالْعِشْقِ، وَالْجِهَادِ، وَالصَّلَاةِ، وَجَمِيعِ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ. وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتِ، الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُنَّ الْكَلَامِ الطَّيِّبِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿وَيَوْمَ نُسِخَ الْبَيْتَاطِ وَرَأَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٤٦﴾ وَنَسِيرَ الْجِبَالِ سَيْرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٩ - ١٠]، أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال: ﴿وَرَأَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ السَّنْفِيِّ ﴿٤٨﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٤٩﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٥٠﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا شَيْءٌ مِمَّا كَانَتْ تَكُونُ ﴿٥١﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: سطحاً مستويًا لا عوج فيه، ﴿وَلَا أَمْتًا﴾، أي: لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٧﴾﴾، أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلّم لأحد ولا مكان يوارى أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَرَأَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، لا حَمْرَ فيها ولا غَيَابَةَ. وقال قتادة: لا بناء ولا شجر. وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخريين، فلم نترك منهم أحدًا، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِقْدَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٤٩﴾﴾ [الرازمة: ٤٩ - ٥٠]. وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ [مود: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبي: ٢٨]، ويحتمل أن يقوموا صفوفاً صفوفاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾، أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾، أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، أي: ضبطها وحفظها.

[٤٣٩٨] وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سفيد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: اجمعوا، من وجد غوداً فليأت

به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فُلَيَاتٍ به . قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه زُكاماً، فقال النبي ﷺ: أترون هذا؟ فكَذَلِكَ تُجْمَعُ الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هذا. فُلَيْتِقِ اللهُ رجُلٌ ولا يذنب صغيرةً ولا كبيرةً، فإنها مُنْخَصَّةٌ عليه^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، أي: من خَيْرٍ أو شَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْتَضِرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْإِنسَانُ يَوْمِيهِمَّا بِمَا قَدَّمَ وَالْآخِرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكِلُ الْأُكُوفُ إِلَى السُّرُوفِ﴾ [الطارق: ٩]، أي: تَظْهَرُ الْمُخْبَاتُ وَالضَّمَانُ.

[٤٣٩٩] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبَةُ، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرَفُ به»^(٢). أخرجه في الصحيحين.

[٤٤٠٠] وفي لفظ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِيقَادِ غِذْرَتِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غِذْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكْبًا أَحَدًا﴾، أي: فيحكّم بين عبادته في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويُعَدَّبُ من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخَلِّدُ فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدَرْوٍ وَإِنَّكَ تَكُ حَسَنَةً يُصَنِّفُهَا وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَصَنَعَ الْمَرْوِينَ الْاِسْطَ لِيُورِ الْاِقِيمَةَ فَلَا نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْكَ حَبْكُورٌ مِنْ خَزَلٍ أَيْتَسَا بِهَآ وَكُنِّي بِتَا حَسِيْبِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والآيات في هذا كثيرة.

[٤٤٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشترت بعيراً ثم شدت عليه رحلي، فميزت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنس. فقلت للبوب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج يظاً ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة، أو قال: العباد، عُرَاءَ عُرْلَاءَ بُهْمًا - قلت: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء - ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أفضه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند أحد من أهل النار حق حتى أفضه منه حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عُرَاءَ عُرْلَاءَ بُهْمًا؟ قال: بالحسنات والسيئات^(٤).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥٤٨٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٩٠/١٠: وفيه نفي بن داود، وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٨٧ ومسلم ١٧٣٧ وأحمد ١٤٢/٣ وأبو يعلى ٣٣٨٢.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٩٥/٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٤٥/١٠: ورجاله وثقوا.

[٤٤٠٢] وعن شُعبَةَ، عن العَوَّامِ بنِ مُزَاحِمٍ، عن أَبِي عُثْمَانَ، عن عُثْمَانَ بنِ عَفَانَ - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَلْقَتُنَّ مِنَ الْقَرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه عبد الله ابنُ الإمام أحمد. وله شواهدُ من وجوهٍ أُخرى، قد ذكرناها عند قوله تعالى: «وَصَنَعَ الْمَرْزُوقِ الْقِسْطَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا»، وعند قوله تعالى: «إِلَّا أُمَّمٌ أَنْتَ لَكُمْ مَا قَرَأْتُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لَكُمْ رِيحٌ يَوْمَ يُمْشِرُونَ»^(١) [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومُفَرَّعًا لمن أتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه، وبإلطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كُلُّهُ والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ»، أي: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة». «اسْجُدُوا لِآدَمَ»، أي: سجودَ تشریف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُورٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾» [الحجر، الآيتان ٢٨ - ٢٩]. وقوله: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور.

[٤٤٠٣] كما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم»^(٢). فعند الحاجة نُصِّحَ كُلُّ وعاءٍ بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّمَ بأفعال الملائكة وتَشَبَّهَ بهم، وتَعَبَّدَ وتَسَنَّكَ، فلهذا دخل في خطابهم، وعَصَى بالمخالفة. وثَبَّه تعالى ها هنا على أنه «مِنَ الْجِنِّ»، أي: إنه خلق من نار، كما قال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» [ص: ٧٦]. قال الحسنُ البصري: ما كان إبليس من الملائكة طَرَفَةً عين قَطُّ، وإنه لأصلُ الجنِّ، كما أن آدم - عليه السلام - أصل البشر. رواه ابنُ جرير بإسنادٍ صحيح عنه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة، يقال لهم «الجنُّ»، خلقوا من نار السَّمُومِ من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازنًا من خُزَّانِ الجنة، [قال:] وخُلِقَتْ الملائكة من نور غَيْرَ هذا الحي، قال: وخُلِقَتْ الجنُّ الذين ذُكِرُوا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكْرَمهم قبيلة، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سَوَّلَتْ له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كِبَرٌ لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكِبَرُ منه حين أمره بالسُّجُودِ لِآدَمَ، «وَأَسْتَكَرَّ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٣٤]، قال ابن عباس: وقوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، أي: من خُزَّانِ الجنان، كما يُقال للرجل: مَكِّي، ومَدَنِي، وبَصْرِي، وكُوفِي. وقال ابن جرير، عن ابن عباس، نحو ذلك.

(١) وتقدم تخريج الحديث هناك.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: هو من خُزَّانِ الْجَنَّةِ، وكان يُدبِّرُ أمر السماء الدنيا. رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به. وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاووس، عن ابن عباس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سُكَّانِ الْأَرْضِ. وكان من أشدَّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبير، وكان من حَيٍّ يسمون جِنًّا.

وقال ابن جرير، عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فَعَصَى، فَسَخَطَ اللهُ عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً - لعنه الله - مَسْخُوحاً، قال: وإذا كانت خطيئَةُ الرَّجُلِ فِي كِبَرٍ فَلَا تَرْجُهِ، وإذا كانت في معصية فارجه. وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنَّانِ، الذين يعملون في الجنة. وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقَلُ لِيُنْظَرَ فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يُقَطَّعُ بكذبه لمخالفته الحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُثَيَّةٌ عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يَنْفُوقُونَ عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العُلَمَاءِ، والسادة الأتقياء، البررة النجباء، من الجهابذة القُتَّادِ، والحُفَّاظِ الجيَّادِ، الذين ذَوَّنوا الحديدَ وحرَّروه، وبيَّنوا صحيحه من حَسَبِهِ، من منكره وموضوعه، ومثروكه ومكذوبه، وعرفوا الرُضَاعِينَ والكُذَّابِينَ والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كلُّ ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر - عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات - أن يُنْسَبَ إليه كَذِبٌ، أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه. فَرَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس ماوَاهم، وقد فَعَلَ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: فَخَرَجَ عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: «فَسَقْتُ الرُّطْبَةَ»: إذا خرجت من أكمامها «وَفَسَقَتِ الْفَارَةُ من جُحْرِهَا»: إذا خرجت منه للغيث والفساد. ثم قال تعالى مُقَرَّعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَنْتَحِدُونَ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَهُ مِنْ دُونِي﴾، أي: بَدَلًا عَنِّي، ولهذا قال: ﴿يَتَسَلَّطُونَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُ عَدُوٌّ شَيْنٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنْ أَنْصَرْتُمْ هَذَا يَصِرْطٌ مَسْتَقِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ أَنْصَلْنَا مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكْفُرُوا تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخْذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبید أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خَلْقِي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومُدبِّرُها ومُقَدِّرُها وخدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مُشِيرٌ ولا نَظِيرٌ، كما قال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْبٍ السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ لَوْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَاهِرٍ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِيَ لَمْ﴾ [سبا: ٢٢]... الآية. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مَخْذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. قال مالك: أغواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٣﴾ وَرَوَّأَ

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مُخْبِرًا عما يُخَاطَبُ به المشركين يوم القيامة: على رؤوس الأشهاد، تقرعاً لهم وتوبيخاً: ﴿تَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا، ادعوهم اليوم، يُقَدُّونَكُمْ مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَهُ ظُهُورُكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُعَمَاءَ الَّذِينَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ زَعُمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِن بَدْعُوهم بَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِكْبَادُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَمَمًا أَعْدَاءَهُمْ وَكَانُوا بِبِعَادِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]... وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١ - ٨٢]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، قال ابن عباس، وقناة، وغير واحد: مهلكاً. وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَمْرًا الْبِكَالِيَّ حَدَّثَ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَقَالَ: هُوَ وَادٍ عَمِيقٌ، فُرِقَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَىٰ وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ. وقال قتادة: ﴿مَوْبِقًا﴾: وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن دزهم، سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، قال: واد في جهنم، من قنيح ودم. وقال الحسن البصري: ﴿مَوْبِقًا﴾: عداوة. والظاهر من السياق ها هنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخير أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يُفَرِّقُ بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لواحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهو عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يُفَرِّقُ بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْقَرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْتَدْنَا الْيَوْمَ آيَاتِ الْمُنْجِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّتْ سُرُجَاتُهَا وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِذَا تَدْبَرُونَ ﴿١٨﴾ فَكَلَّمَ اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿١٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُنْجِرُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها نقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهيم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز؛ وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: وليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

[٤٤٠٤] قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَىٰ جَهَنَّمَ فَيُظَنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعُته من مسيرة أربعين سنة»^(١).

[٤٤٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي

سَعِيدُ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْصَبُ الْكَافِرُ مَقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيَا. وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقًّا جَدًّا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها لئلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

[٤٤٠٦] قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ، أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ: أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا. فَانصَرَفَ حِينَ قُلْتَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٌّ يَضْرِبُ فِخْذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقًّا جَدًّا﴾^(٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ.

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا لِرَبِّهِمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى عن ترمذ الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر، مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [المنكوت: ٢٩]. وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابِ إِلَهِكَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقالوا يَأْتِيهَا الْآيَةُ نَزْلًا عَلَيْهِ الْإِكْرَامُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦١﴾ لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكِ كَذِبًا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ﴾، من غشيانهم بالعذاب، وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: يزورهم عياناً مواجهةً ومقابلةً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وأمن بهم، ومُنذرين من كذبهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم.

(١) أخرجه أحمد ٧٥/٣ وأبو يعلى ١٣٨٥ والحاكم ٥٩٧/٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا حسنه الهيثمي ٣٣٦/١٠ «مجمع» مع أنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف. لكن ورد من طريق آخر عن دراج عن ابن حبيزة، وهو ثقة، عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه ابن حبان ٧٣٥٢، ودراج حسن الحديث في روايته عن غير أبي الهيثم، وقد حسن إسناده الشيخ شعيب، والله تعالى أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٧ و٤٧٢٤ ومسلم ٧٧٥ والنسائي في «التفسير» ٣٢٥ وأحمد ٩١/١ وابن حبان ٢٥٦٨.

﴿وَأَعْتَدُوا عَائِنِي وَمَا أَنْزَرُوا هُزْلاً﴾، أي: اتخذوا الحُجَجَ والبراهين وخَوَارِقَ العادات التي بُعث بها الرسل وما أنذروهم وخَوَفوهم به من العذاب ﴿هُزْلاً﴾، أي: سَخِرُوا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التَكْذِيبِ.

﴿وَمَنْ أظَلَّمْ وَمَنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: وأي عباد الله ﴿أظلمَ ومن ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾، أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قلوب هؤلاء ﴿أكِنَّةً﴾، أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صممٌ معنوي عن الرشاد، ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: ربك - يا محمد - غفورٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ﴾، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنْبِ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَقْبَرٍ لِنَاسٍ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يومٌ يثيب فيه الوليد، ونضع كل ذات حمل حملها. ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾، أي: ليس لهم عنه محيدٌ ولا مَحِيصٌ ولا مَغْدِلٌ. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾، أي: جعلناهم إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسولٍ وأعظم نبيٍّ، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي وتذري.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَعِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

سبب قول موسى - عليه السلام - لفتهاء، وهو يوشع بن نون، هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحظ به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتهاء ذلك: ﴿لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أي: لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَثَ نِسَاؤُهُمْ بِسَطْحَاءِ ذِي قَارِ، عِيَابَ اللَّطَائِمِ

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾، أي: ولو أنني أسير حقبا من الزمان. قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْب في لغة قيس سنّة. ثم روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سَبْعُونَ خَرِيفًا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾، قال: دهرًا. وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَلَغًا جَمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيًا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أُمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو نَمّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهنالك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رَشَاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مِكْتَلٍ مع يَوْشَع، وطَفَر^(١) من المِكْتَل إلى البحر، فاستيقظ يَوْشَع - عليه السلام - وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلًا فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أي: مثل السَّرْب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر، وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا ييس، حتى يكون كَصَخْرَةٍ.

[٤٤٠٧] وقال محمد - هو ابن إسحاق - عن الزُّهْرِيِّ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أَبِي بِن كَعْبٍ قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾^(٢). وقال قتادة: سَرَبٌ مِنَ الْبَرِّ^(٣) حتى أفضى إلى البحر، ثم سَلَكَ فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي: المكان الذي نسييا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يَوْشَع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح على أحد القولين. فلما ذهب عن المكان الذي نسياه فيه مَرَحَلَةٌ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنَةٍ آتَيْنَا غَدَاةً لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾، أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَسِيًا﴾، يعني تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْكُوتَ وَمَا أَتَسْتَبِينِي إِلَّا آلِ الشَّيْطَانِ أَنْ أَذْكَرُمُ﴾، قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «أذكره». ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾، أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [١٧] قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ، أي: هذا الذي نطلب، ﴿فَأَرْزَقْنَا﴾، أي: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾، أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾، أي: يَقْضَانُ أثر مشيها، ويقفون أثرهما. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [١٥]، وهذا هو الخَظِيرُ عليه السلام، كما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة بذلك عن رسول الله ﷺ.

[٤٤٠٨] قال البخاري: حدثنا الحَمِيدِيُّ، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن توفياً البِكَالِي يزعم أن موسى صاحب الخَظِير ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ. حدثنا أبي بن كعب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئِل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يرد

(١) المِكْتَل: زنبيل يُعمل من خوص. وطفَر: وثب.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٨٥، بإسناد ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن.

(٣) كذا في الأصل والذي في تفسير الطبري ٢٣١٨٧ «الجزء» بدل «البر». والجز: الحبل.

العِلْمَ إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمَع البحرين هو أعلمُ منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذُ معك حُوتاً، فتجعله في مكتلٍ، فحيثما فقدت الحوتَ فهو ثمٌّ. فأخذ حُوتاً، فجعله بمكتلٍ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نونٍ عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوتُ في المكتلِ، فخرَج منه، فسقط في البحر، فأتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جزيةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿إِنِّي أَعِدُّكَ لَهُ إِنِّي أَنَا رَجُلٌ نَصِيحٌ﴾. ولم يجد موسى النَّصْبَ حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبَّيْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا السَّيْطَانَ أَن أذْكَرُكَ وَأَتَذَكَّرُ فِي الْبَحْرِ عَجَابًا﴾. قال: فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُحُّ فَارْتَدًّا عَلَيْهِ إِتَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: فرجعا يقضآن أثرهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجلٌ مسخى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضيرُ: وأتى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٧)، يا موسى، إني على علم من علم الله علمني، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قال له الخضيرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُتِيتَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ففرّوا الخضيرُ، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يقبجاً إلا والخضير قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، عمدت إلى سفنتهم فخرقتها، لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرأ. ﴿قَالَ أَتَرَى أَقْلَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٦) قال لا تؤاخذني بما نبيت ولا ترهقني من أمري عسراً (٧٦)، قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوقَّع على حزب السفينة، فنقر في البحر نقرَةً، فقال له الخضيرُ: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضيرُ غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضيرُ رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَفَلَتَ تَسْأَلُنَا رَبَّكَ بِمَن قَتَلْنَا فَأَن يَكُن مِنَّا شَيْئًا نَّكِرًا﴾ (٧٥) ﴿قَالَ أَتَرَى أَقْلَ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥). قال: وهذه أشد من الأولى. ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنِ شَيْءٍ فَقَدْ بَلَّغْتَ مِن لَّدُنِّي عَذْرًا﴾ (٧٦) فانطلقا حتّى إذا آتيا أهل قريّة استظعموا أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: مائل، فقال الخضيرُ بيده ﴿فَأَقْصِبْ كَيْدَكَ يَا كَافِرِينَ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَخَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً (٧٨). فقال رسول الله ﷺ: «وإدنا أن موسى كان صبر حتى يقض الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبّير: كان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا»، وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»^(١).

[٤٤٠٩] ثم رواه البخاري عن قتيبة، عن سفيان بن عيينة، فذكر نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٥ واحد ١١٧/٥ و ١١٨ و مسلم ٢٣٨٠ وأبو داود ٤٧٠٧ والترمذي ٣١٤٩ وابن حبان

حَيِّي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسلَّ من المِكْتَل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿إِنِّي أَنَا غَدَاةَا﴾. الآية قال، وساق الحديث: «ووقع عصفورٌ على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلمُ الخلائق في عِلْمِ الله إلا مقدارٌ ما غمس هذا العصفورُ منقاره». وذكر تمامه بنحوه^(١).

[٤٤١٠] وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبَّير - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يُحدِّث عن سعيد بن جبَّير قال: إنَّ لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلُوني. فقلت: أيُّ أبا عباس. جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصٌّ، يقال له «نَوْفٌ»، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لي: قال: كَذَّبَ عَدُوُّ الله. وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حَدَّثَنِي أَبِي بن كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: موسى رسولُ الله، ذَكَرَ النَّاسَ يوماً، حتى إذا فاضتِ العيونُ ورقتِ القلوبُ ولَّى فادركه رجل فقال: أيُّ رسولِ الله، هل في الأرض أحد أعلمُ منك؟ قال: لا. فعتبَ الله عليه إذ لم يزد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أيُّ ربِّ، وأين؟ قال: بمجمَع البحرين. قال: أيُّ رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به. قال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت. وقال لي يعلى: حُذِّ حوتاً ميتاً حيث يُنفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله في مِكْتَل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كَلَّفْتُ كبيراً. فذلك قوله جلُّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبَّير - قال: فينا هو في ظل صخرة في مكان ثُرَيَّان^(٢) إذ تَضَرَّبَ الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظُه، حتى استيقظ فتسبي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جزية الماء حتى كأن أثره في حَجَرٍ، قال: فقال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حَجَرٍ، وحلَّق بين إيهاميه واللتين تليانيهما - ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قال: «وقد قطع الله عنك النَّصَب» ليست هذه عن سعيد أخيره - فرجعاً فوجدا خضيراً. قال: قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طِفْسِيَّة خضراء على كبد البحر. قال سعيد بن جبَّير: مُسَجَّى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتُك لِتُعَلِّمَنِي مما علِّمتَ رسداً. قال: أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جَنِّبِ علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبنا في السفينة وجدا مَعَابِرَ صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى ذلك الساحل الآخر - عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح؟ قال: قلنا لسعيد: خَضِرٌ؟ قال نعم: لا تحمله بأجر. فخرقها، ووَتَدَ فيها وتداً. قال موسى: ﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ - قال مجاهد: منكرأ - قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عَمْدًا. ﴿قَالَ لَا تُؤْمِنُنِي بِمَا نَسِيْتُ وَلَا تَرْفَعْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾، فانطلقا حتى لقيَا غلاماً قَتَلَهُ - قال يعلى: قال سعيد، وجد غلاماً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، قال: ﴿أَتَأْتِكُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾: لم تَعْمَلِ الجُنْحَ، وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ - ﴿زَكِيَّةً﴾: مُسَلِّمَةٌ كقولك: غلاماً زكياً - فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٧ وانظر ما تقدم.

(٢) الثريان: يقال ذلك إذا رسخ المطر في الأرض حتى التقى ونداها.

ينقض فأقامه قال بيده، هكذا ورفع بيده فاستقام - قال يعلَى: حَسِبْتُ أَنْ سَعِيداً قَالَ: فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَّدْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قال سعيد: أجراً نأكله. ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾: وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: ﴿أمامهم ملك﴾، يزعمون عن غير سعيد أنه هذد بن بَدَدَ، والغلام المقتول اسمه - يزعمون - جيسور ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعيها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفخوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبُوهُمُ مُؤْتَبِرًا﴾، وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حبه على أن يتابعه على دينه ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبِّهِنَّ خَيْرًا مِمَّا كَانَا﴾ لقوله: ﴿أَقْبَلْتُ نَفْسًا رَكِيَةً﴾. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خَضِرُ. ورَعَمَ غيرُ سعيد بن جبير أنهما أبديلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية^(١). وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى - عليه السلام - بني إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني. فأَمِرَ أن يلقى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدمت بزيادة وتقصان؛ والله أعلم.

[٤٤١١] وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عُمارة، عن الحكم بن عَتِيبة، عن سعيد بن جبير قال: جلستُ عند ابن عباس، وعنده نَفَرٌ من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوماً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب، أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميثا؟ قال سعيد: فقال ابنُ عباس: أتوفٍ يقولُ هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعتُ نوماً يقولُ ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم، قال: كَذَبَ نَوْفٌ. ثم قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: أن موسى بن إسرائيل سأل ربه فقال: أي رب، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني، فدُلني عليه. فقال له: نعم، في عبادي من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه وأذن له في لِقِيهِ. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوث مَلِيحٌ، قد قيل له إنه إذا حَيِيَ هذا الحوث في مكان فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوث يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ماء الحياة، من شرب منه خَلَدَ، ولا يقاربه شيء مِتَّ إلا حَيِيَ. فلما نَزَلَا ومَسَّ الحوث الماء حَيِيَ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَكًا﴾. فانطلقا فلما جاوزا مُنْقَلَبَهُ قال موسى لفتاه: ﴿إِنَّا عَدَاءُ مَا لَقَدَ لَيْتِنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا﴾ قال الفتى، وذكر: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْمَوْتُ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ وَأَتَّخِذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ حَيًّا﴾، قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا إليها، فإذا رجلٌ مُتَلَفِّفٌ في كساء له، فسلم موسى عليه، فرد عليه العالم، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لَشَغْلٌ؟ قال له موسى: جئتُك لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَلِيحَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ - وكان رجلاً يعلم علم الغيب، قد علم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا تَرَى يُطْرَقُ بِهِ صَبْرًا﴾؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَدِينُنِي وَإِنَّ شَاةَ اللَّهِ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وإن رأيت ما يخالفني، قال: ﴿فَإِنْ أَنْبَأْتَنِي فَلَا تَتَّبِعْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ - وإن أنكرته - ﴿حَقٌّ أُخْبِرْتُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس، يلتمسان من يحملهما، حتى مرَّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرَّ بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما، فلما اطمانا فيها ولججت بهما مع أهلها، أخرج مئقاراً له ويطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فصرَّب فيها بالمنقار

حتى خَرَقَهَا. ثم أخذ لوحاً فطَبَقَهُ عليها، ثم جلس عليها يَرْقَعُهَا. فقال له موسى، وَرَأَى امراً فَطَع به: ﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِكَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً امراً﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَنْتَ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤْتِيْنِي بِمَا نَسِيتُ، أي: بما تَرَكْتُ من عَهْدِكَ، ﴿وَلَا تُرْفَعُنِي مِنْ أَرْضِي عَسْرًا﴾. ثم خرجا من السفينة فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية فإذا غلمانٌ يَلْعَبُونَ خَلْفَهَا، فيهم غلام ليس في الغلمان غلامٌ أَظرف منه ولا أثري ولا أَوْضأ منه، فأخذه بيده، وأخذ حجراً، قال: فضرب به رأسه حتى دَمَعَهُ فقتله، قال: فرأى موسى امراً فَطِيعاً لا صَبْرَ عليه، صَبِي صغير قتله لا ذَنْبَ له، قال: ﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا رَكِيَةً﴾، أي: صَغِيرَةً ﴿بِعَمْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً ثَكُوراً﴾ ﴿٧٣﴾ قَالَ أَلَمْ أَنْتَ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ نَوْمٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَبِّحُنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٥﴾، أي: قد أعذرت في شأني، ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلْظَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، فَهَدَمَهُ ثم قَعَدَ بَيْنَهُ، فَصَجَرَ موسى مما يراه يصنع من التكليف، وما ليس له عليه صبر، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: قد استطعمناهم فلم يُطْعِمُونَا، وَضِفْنَاهم فلم يُضَيِّقُونَا، ثم قعدت تعمل من غير صَنِيعَةٍ، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله. قال: ﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْتِيَنَّكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَثَتُهُمْ مِلًّا فَاخْتُدَ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٧﴾﴾ - وفي قراءة أبي بن كعب: «كل سفينة صالحة» - وإنما عَيْبْتُهَا لأرَدَهُ عنها، فَسَلِمَتْ منه حين رأى العيب الذي صَنَعْتُ بها. ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آبَاءَ مُؤْمِنِينَ فَعَشِيرَتًا أَنْ يُرْهِقُوهَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِي﴾، أي: ما فعلتُه عن نَفْسِي، ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فكان ابن عباس يقول: ما كان الكثر إلا علماً^(١).

[٤٤١٢] وقال العوفي، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله: أن ذكروهم بأيام الله^(٢). فخطب قومه، فذَكَرَ ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكروهم إذ أنجاهم الله من آل فرعون، وذكروهم هلاك عَدُوِّهم، وما استخلفهم الله في الأرض، وقال: كلم الله نبيكم تكليماً، واصطفاني لنفسه، وأنزل عليّ محبة منه، وآتاكم الله من كُلِّ ما سألتموه، فنييكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمةً أنعمها عليهم إلا ذكرها وعزفهم إياها. فقال له رجل من بني إسرائيل: هُنْ كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذي تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا. فبعث الله جبريل - عليه السلام - إلى موسى - عليه السلام - فقال: إن الله يقول: وما يُدريك أين أضغ علمي؟ بلى، إن على شَطِّ البحر رجلاً أعلم منك - قال ابن عباس: هو الخَصِرُ - فسأل موسى ربه أن يُرِيه إياه، فأوحى إليه: أن اتت البحر، فإنك تجد على شَطِّ البحر حوتاً، فَخُذْه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شَطِّ البحر، فإذا نَسِيت الحوت وهَلَك منك فَتَمَّ تجدُ العبدَ الصالح الذي تطلب. فلما طال سَفَرُ موسى نبي الله ونَصِب فيه سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَسنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيتُ الحوتَ حين اتخذ سبيله في البحر سَرَباً فَأعجبه ذلك. فرجع حتى أتى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر وَيَتَّبِعُهُ موسى، وجعل موسى يقدِّم عصاه يُفْرُجُ بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يَمَسُّ شيئاً من البحر إلا يَس، حتى يكون

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٩، وإسناده ضعيف، فيه عن عنة ابن إسحاق، وضعف الحسن بن عماره.

(٢) انظر سورة إبراهيم: ٥.

صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام. وأتى يكون هذا السلام بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخضر: أصحاب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُؤَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعته حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أَحَدِيثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٦٧).

[٤٤١٣] وقال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحُرُّ بن قيس بن حضن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمرَّ بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيته، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بيننا موسى - عليه السلام - في ملا من بني إسرائيل، إذ جاءه رجلٌ فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لقيته، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت، فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر. فقال فتى موسى لموسى: «أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فآتينا نبي الحوت؟ قال موسى: «ذلك ما كنا نتبع فأرشدنا على آثارهما قصصاً». فوجدنا عبدنا خضرًا، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه» (٦٧).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ آتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُؤَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحَدِيثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى - عليه السلام - لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يُطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يُعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ آتَيْتَكَ﴾، سؤال بتلطف لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿آتَيْتَكَ﴾، أي: أصحبك وأزافك، ﴿عَلَىٰ أَنْ تُؤَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: مما علمك الله شيئاً استرشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: أنت لا تقدر أن تصابني، لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيته الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨)، فإنا نعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما أطلعت على حكمته ومصطلحاته الباطنة التي اطلعتُ أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، أي: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، أي: ولا أخالفك في شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أَحَدِيثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن هارون بن عثرة، عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢١١ موقوفاً على ابن عباس، وهو ضعيف لضعف العوفي وهو عطية بن سعد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٤ والطبري ١٣٢١٣.

موسى عليه السلام ربه - عز وجل - قال: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأبي عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يتبغي علم الناس إلى عليه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أي رب، فهل في الأرض أعلم مني؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتبهن موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني. قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى. قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُ وَكِيلًا﴾ قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه. قال: ويعت الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً^(١) من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً. قال: يا موسى، فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، فمن ثم أير أن يأتي الخضر^(٢). وذكر تمام الحديث في خرق السفينة وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدىء به من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرّفوا الخضر، فحملوهما بغير نول - يعني بغير أجرة - تكروماً للخضر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من الواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى - عليه السلام - نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا﴾. وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لِنُوا لِنَمُوتَ وَإِنُّوَا لِنُخْرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مُدْكَرًا بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خيراً، ولها داخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾، أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أي: لا تضيق علي ولا تشدد. ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عَذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

(١) رزاه: أصاب منه شيئاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٤ هكذا موقوفاً، وإسناده غير قوي لأجل هارون بن عترة.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾، أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَغَنَّمَهُ﴾. وقد تقدّم أنّه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمّد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم، فقتله، فزوي أنه احتز رأسه، وقيل: رَضَخه بحجر. وفي رواية: اقتلعه بيده. فالله أعلم. فلما شاهد موسى - عليه السلام - هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَنْتَ تَقْسَا رِكْبَتِي﴾، أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا حملت إثمًا بعد مقتلته ﴿بِنَبِيٍّ نَفْسٍ﴾، أي: بغير مُسْتَنَد لقتله، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾، أي: ظاهر التُّكَارَة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرّة، ﴿فَلَا تُصِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، أي: قد اغدّرت إليّ مرّة بعد مرّة.

[٤٤١٤] قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حفزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لو كُنت مع صاحبه لأَبْصَرَ الْعَجَبَ، ولكنه قال: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، مُتَقَلَّةٌ^(١).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأَيْتُكَ يَتَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما أنّهما انطلقا بعد المرتين الأوليين، ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأيلة.

[٤٤١٥] وفي الحديث: «حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ لَيْثَامًا»^(٢)، أي: بخلاء، ﴿فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، إسناده الإرداء ما هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرداء في المحدثات بمعنى الميل. والانتقاض هو السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، أي فرّده إلى حالة الإستقامة. وقد تقدّم في الحديث أنه رذّه بيديه، ودعّمه حتى رذّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: لأجل أنهم لم يُضَيِّقُونَا، كان ينبغي ألاّ تعمل لهم مجاناً، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تُصاحبني، فهذا فراق بيني وبينك، ﴿سَأَيْتُكَ يَتَأْوِيلُ﴾، أي: يتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى - عليه السلام - وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر - عليه السلام - على حكمة باطنه، فقال: أما السفينة فإنما حرقناها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرّون بها على ملك من

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٣٢٣٢ بهذا الإسناد. وأخرجه أبو داود ٣٩٨٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣١٠ وابن حبان ٩٨٩ من طرق عن حفزة الزيات به. وهو حديث صحيح. وأخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ في أثناء حديث طويل.

(٢) جاء في رواية مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢، دون البخاري.

الظَّلْمَةَ، يأخذ كل سفينة صالحة، أي: جيدة غضباً، فأردت عينيها لأرده عنها بعينيها فينتفع بها أصحابها من المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام. وروى ابن جرير، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبني: أن اسم ذلك الملك هُذْدُ بن بُدَد. وتقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق، وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْعَلَكُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرِهَهُمَا طُغْيَانَنَا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾﴾

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور.

[٤٤١٦] وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا»^(١). رواه ابن جرير من حديث أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به، ولهذا قال: «فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرِهَهُمَا طُغْيَانَنَا وَكُفْرًا»، أي: يحملهما حبه على متابعتها على الكفر. قال قتادة: قد فرح به أبواه حين وُلِد، وحزننا عليه حين قُتِل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب.

[٤٤١٧] وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا»، أي: ولداً أذكى من هذا، وهما أرحم به منه. قال ابن جرير. وقال قتادة: أبرّ بالديه. وقد تقدم أنهم بُدِّلوا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جرير.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً: ﴿حَقَّقْ إِذَا نَبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وقال ها هنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يَكُونُ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَةٍ الَّتِي لَأَخْرَجَنَّكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعني مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقاتدة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير. وقال مجاهد: صُحِف فيها علم. وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك:

[٤٤١٨] قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار - في مسنده المشهور - . حدثنا

(١) أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ والترمذي ٣١٤٨ في أثناء حديث طويل. وأخرجه أبو داود ٤٧٠٥ و ٤٧٠٦ والطبري ٢٣٢٤٧ وابن حبان ٦٢٢٢ من حديث أبي بن كعب مختصراً.

(٢) صحيح. وقد تقدم.

إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس القتيبي، عن ابن حُجيرة، عن أبي دُرٍّ - رضي الله عنه - رَفَعَهُ قَالَ: إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لو ح من ذهب مُضْمَتٌ^(١) مكتوب فيه: عَجِبْتُ لمن أيقن بالقدر، لِمَ يَنْصِبُ؟ وَعَجِبْتُ لمن ذكر النار، لِمَ يضحك؟ وَعَجِبْتُ لمن ذكّر الموت، لِمَ عَفَلَ؟ لا إله إلا الله، مُحَمَّدٌ رسول الله^(٢). وبشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصَيضة، قال الحافظ أبو جعفر العُقيلي: في حديثه وَهْمٌ. وقد روي في هذا آثار عن السلف. فقال ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب، حدثني الحسن بن حبيب بن نُدْبَةَ، حدثنا سلمة، عن نُعيم العنبري - وكان من جلساء الحسن - قال: سَمِعْتُ الحسن - يعني البصري - يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قال: لو ح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجِبْتُ لمن يؤمن القدر، كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن بالموت، كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رسول الله.

وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن عَمْرٍ مولى عُقْرَةَ قَالَ: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قال: كان لوحاً من ذهب مُضْمَتٌ، مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجِبْتُ لمن عرف النار ثم ضحك. عَجِبْتُ لمن أيقن بالقدر ثم نصب. عَجِبْتُ لمن أيقن بالموت ثم آمن. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثني أحمد بن حازم الغفاري، حَدَّثَنَا هُنَادَةُ بنتُ مالك الشيبانية قالت: سَمِعْتُ صاحبي حَمَادَ بن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾، قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عَجِبْتُ للموقن بالرزق كيف يتعب؟ وَعَجِبْتُ للموقن بالحساب كيف يغفل؟ وَعَجِبْتُ للموقن بالموت كيف يفرح؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ حَرْدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكْفَنٌ يَا حَسْبَيْتُ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. قالت: وذكر أنهم حُفِظَا بِصَلَاحِ أبيهما، ولم يُذكَرَ منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حُفِظَا بِهِ سبعة آباء، وكان ناسجاً. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم، وإن صح^(٣) لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالاً؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مالٌ جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكّم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحْفَظُ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة، قال سعيد بن جبّير عن ابن عباس: حُفِظَا بِصَلَاحِ أبيهما، ولم يُذكَرَ لهما صلاح. وتقدم أنه كان الأب السابع، فالله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾، ها هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأنّ بلوغهما الحُلُم لا يقدر عليه إلا الله. وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا مِمَّا كَانَا﴾، وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمِيبَهَا﴾، فالله أعلم.

(١) أي خالص، لا يخالطه شيء.

(٢) إسناد ضعيف، والمتن منكر، أخرجه البزار ٢٢٢٩ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١٥١: بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. أم، قلت: بشر بن المنذر، صدوق، ذكره ابن أبي حاتم، وعله الحديث، شيخه الحارث اليحصبي، فإنه مجهول، والمتن منكر، والأشبه أنه متلف عن أهل الكتاب، وليس بمرفوع، وقد ورد عن الحسن وغيره كما هو الآتي، وهو أصح، والصواب أنه كنز من المال.

(٣) لم يصح كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾، أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، واليذي الغلام، ووَلَدَي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾، لكنني أمرتُ به ووقفتُ عليه. وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر - عليه السلام - مع ما تقدم في قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا لَّهُ نِعْمَ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾﴾. وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. فالله أعلم.

وذكر ابنُ قتيبة في «المعارف» أن اسم الخضر يُلَبَّأ بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالغ بن أَرْفَخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام. قالوا: وكان يُكْتَبَى أبا العباس، ويُلقَّب بالخَضِر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابنُ الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف^(١)، وجاء ذكره في بعض الأحاديث: ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديثُ التعزية^(٢)، وإسناده ضعيفٌ. وَرَجَّح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِنَشْرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

[٤٤١٩] ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبَد في الأرض»^(٣)، ويأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حَضَرَ عنده، ولا قَاتَلَ معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس.

[٤٤٢٠] وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيِّين ما وَسِعَهُمَا إِلَّا تَابِعِي»^(٤).

[٤٤٢١] وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يَبْقَى مِمَّنْ هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرَفُ^(٥). إلى غير ذلك من الدلائل.

[٤٤٢٢] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابنُ المبارك، عن معمر، عن همام بن مَثَبَةَ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في الخضر قال: إنما سُمِّيَ خَضِرًا لأنه جَلَسَ على قَرْوَةٍ بيضاء، فإذا هي تحته تهتزُّ خضراء^(٦). ورواه أيضاً عن عبد الرزاق.

[٤٤٢٣] وقد ثبت في صحيح البخاري، عن هَمَّام، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّيَ الخَضِرُ لأنه جَلَسَ على قَرْوَةٍ فإذا هي تهتزُّ من تحته خضراء»^(٧). والمراد بالقَرْوَةِ ها هنا الحشيش اليابس، وهو الهَشِيمُ من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: هذا تفسير ما ضِغْتْ به ذرعاً، ولم تُصْبِرْ حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه

(١) لا يحتج بالحكايات والآثار في هذه المواضع، فإنه يعارض ظاهر الآيات، والأحاديث الصحيحة.

(٢) تقدم الكلام عليه، وأنه خبر باطل، وانظر تفسير القرطبي بتعليقي عقب حديث ٤١٨٩.

(٣) تقدم.

(٤) يأتي في سورة يوسف عند آية: ٣ وفي سورة العنكبوت عند آية: ٥١ إن شاء الله. وتقدم أيضاً في سورة آل عمران عند آية: ٨٢.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ١١٦ و٥٦٤ ومسلم ٢٥٣٧ وأبو داود ٤٣٤٨ والترمذي ٢٢٥١ وأحمد ٨٨/٢ وابن حبان ٢٩٨٩ من حديث ابن عمر.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٠٢ والترمذي ٣١٥١ وأحمد ٣١٢/٢ وابن حبان ٦٢٢٢.

(٧) هو الحديث المتقدم.

وروضه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَر تَسْلِطَ﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سَأَتَيْتَكَ يَا أُوبِيلِ مَا لَر تَسْلِطَ قَلْبِي وَسَبْرًا﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعْنَا أَنْ يَطْهَرُوهُ﴾، وهو الصمود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَعْنَا لَمَّ تَقْبًا﴾، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما. وفتى موسى معه تبع. وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليهم السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره، حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع بفتى موسى يُذكر في حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يُذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرِب. إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْعَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَاتَيْنَتَهُ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنْ ذِي الْقَرْعَيْنِ﴾، أي: عن خبره. وقد قدمنا أنه بعث كفاراً مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض. وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح. فنزلت سورة الكهف^(١).

[٤٤٢٤] وقد أورد ابن جرير ما هنا، والأموي في مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر: أن نفرأ من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب»^(٢). وفيه طول وتكارة، ورفع لا يصح، وأكثر ما فيه من أخبار بني إسرائيل. والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلاله قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيليب المقدوني، الذي تُورِّخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل - عليه السلام - أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه الخضر عليه السلام. وأما الثاني فهو إسكندر بن فيليب المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي تُورِّخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح - عليه السلام - بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرق وغيره، وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم -

(١) تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٢٧٥ من حديث عقبة بن عامر، وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة وعبد الرحمن بن زياد الأفريقي، وكلاهما ضعيف، والراوي عن عقبة لم يسم.

عليه السلام - وقَرَّبَ إلى الله تعالى قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، والله الحمد.

قال وهب بن مُتَّبه: كان ملكاً، وإنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنَّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس. قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه مَلَكَ الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سُئِلَ علي - رضي الله عنه - عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصحاً الله عز وجل فناصره، دعا قومه إلى الله فَضْرِبَ على قَرْزِهِ فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قَرْزِهِ فمات، فَسُمِّيَ ذا القرنين. وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، سَمِعَ علياً يقول ذلك. ويقال: إنه إنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بَلَغَ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرْنُ الشمس ويغرب. وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أعطيناه مُلكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما تُؤْتَى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحضارات. ولهذا مَلَكَ المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وَخَضَعَتْ له ملوك العِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الأمم، من العَرَبِ والعَجَم. ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سُمِّيَ ذا القرنين لأنه بلغ قَرْزِي الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿وَأَيُّنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً. وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَأَيُّنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾، قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾، قال: تعليم الألسنة، قال كان لا يغزو قوماً إلا كَلَّمَهُم بلسانهم. وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يَرْبِطُ خيله بالثرثيا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَيُّنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾. وهذا الذي أنكره معاوية - رضي الله عنه - على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو عليه الكذب». يعني فيما ينقله، لا أنه كان يعتمد نقل ما ليس في صُحْفِهِ، ولكن الشأن في صُحْفِهِ أنها من الإسرائيليات التي غَالِبُهَا مُبَدَّلٌ مصحَّفٌ مُحَرَّفٌ مختلَقٌ، ولا حاجة لنا مع خَبَرِ الله تعالى ورسوله ﷺ إلى شيء منها بالكُفْيَةِ، فإنه دَخَلَ منها على الناس شر كثير، وفَسَادٌ عَرِيضٌ. وتَأْوِيلُ كعب قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا﴾، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صُحْفِهِ من أنه كان يربط خيله بالثرثيا، غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترفي في أسباب السموات. وقد قال الله تعالى في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يَسَّرَ الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكَسَّرَ الأعادي، وَكَبَّتْ مُلُوكُ الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء ما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضيَاء المقدسي، من طريق قتيبة، عن أبي عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن جَمَارٍ قال: كنتُ عند علي - رضي الله عنه - وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيف بَلَغَ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله، سَحَّرَ له السُّحَابَ، وَقَدَّرَ له الأسبابَ، وبسط له اليَدَ.

﴿فَأَنْبَعِ سَبِيحًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرِيقَيْنِ

إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تُلَاحِظَ فِيهِمْ حَسَنًا﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ وَسَنُقَدِّرُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٧)

قال ابن عباس: ﴿فَأَنْجَبَ سَبِيًّا﴾ (٨٥)، يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَأَنْجَبَ سَبِيًّا﴾ (٨٥): منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبِيًّا﴾، قال: طَرَفِي الأَرْضِ. وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعاليمها. وقال الضحاك: ﴿فَأَنْجَبَ سَبِيًّا﴾ (٨٥)، أي: المنازل. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَبَ سَبِيًّا﴾ (٨٥)، قال: عَلِمًا. وهكذا قال عكرمة، وعبيد بن تغلى، والسدي. وقال مطر: معالم الأرض وآثارٌ كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ﴾، أي: فَسَلَّكَ طَرِيقًا حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَا يُسَلَّكَ فِيهِ مِنَ الأَرْضِ من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبتهم. وقوله: ﴿وَيَجِدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. والحَمِئَةُ: مُشْتَقَّةٌ عَلَىٰ إِحْدَى القراءتين من «الحَمَاءة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مُّسْتَوِين﴾ [الحجر: ٢٨]، أي: طين أملس. وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نعيم: سَمِعْتُ عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس [يقول] (١): ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، ثم فسرها: ذات حَمَاءة. قال نافع: وسُئِلَ عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وغير واحد.

[٤٤٢٥] وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مصدع، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَةٍ﴾ (٢). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وجدتها تغرب في عين حامية»، يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القاريء فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين مَعْنِيَهُمَا، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهَجَ الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. و ﴿حَمِئَةٍ﴾: في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

[٤٤٢٦] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابَتْ، فقال: «في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يَزْعُمُهَا من أمرِ الله لأَحْرَقَتْ ما عَلَى الأَرْضِ» (٣). قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زَامِلَيْهِ اللَّتَيْنِ وَجَدَهُمَا يَوْمَ اليرموك، والله أعلم.

(١) سقط من الأصل، والاستدراك من تفسير الطبري.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٨٦ والترمذي ٢٩٣٤ والطبري ٢٣٣٠٨ وضعفه الترمذي بقوله: غريب. والصحيح ما روي عن ابن عباس قراءته اهـ. أي ليس بمرفوع. لكن ورد من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعاً: أخرجه الحاكم ٢/٢٤٤ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر «فتح القدير» للشوكاني ١٥٢٧ بتخريري.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٣٠٧ وأحمد ٦٩٣٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٦١: فيه راوٍ لم يسم أه فالخير ضعيف، وقد أشار ابن كثير لذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حُمزة، حدثنا محمد - يعني ابنَ بشرٍ - حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس دُكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف: «تغرب في عين حامية»، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرأها إلا ﴿حِجَّةً﴾، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو: كيف تقرأها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: قلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن. فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب، قال ابن حاضر: لو أتني عندكم أهدتكم بكلام تزداد فيه بصيرة في ﴿حِجَّةً﴾. قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين، في تخلفه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَعَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
أَسْبَابَ أَمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ
فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَأطِ حَزْمِدٍ

قال ابن عباس: ما الخُلب؟ قلت: الطين بكلامهم - يعني بكلام جَمِيرٍ - قال: فما الثَأطُ؟ قلت: الحَمأة. قال: فما الحَزْمِدُ؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابنُ عباس رجلاً أو غلاماً، فقال: اكتُب ما يقول هذا الرجل. وقال سعيد بن جبیر: بينا ابنُ عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَبَدَّأَ تَقْرُبُ فِي عَيْبِ حِجَّةٍ﴾. فقال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعتُ أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس؛ فإننا نجدتها في التوراة تغرب في مدرّة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾، قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب. وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾، أي: أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿فَلَمَّا يَدَّا آلَ فِرْعَوْنَ إِثْمًا أَن تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَن نَجَّجَدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، معنى هذا: أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظهره عليهم، وخيّر إن شاء قتل وسبي، وإن شاء من وأفدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه، في قوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، أي: من استمر على كفره وشركه بزئه، ﴿فَسَوْفَ نُنَبِّئُكَ﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم بقرة النحاس ويضعهم فيه حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يُسلط الظلّمة فتدخل أفواههم ويوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ يَرُؤُا إِذْ رَبُّهُمْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَّكْرًا﴾، أي: شديداً بليغاً وجيعاً اليماً. وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾، أي: تابعتنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْمُسْتَقِيمِ﴾، أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَقُورٌ لَهُمْ مِنْ أَمْرٍ يُسْرَرُ﴾، قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَنْبِئْ سَبَّابًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّهَا جَعَلُ لَهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

يقول: ثم سلّك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة فهزّم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أدلّهم وأرغم آفاتهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتأخّم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمئة سنة، يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: أمة ﴿لَّهَا جَعَلُ لَهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، أي: ليس لهم بناء يكتنهم، ولا

أشجار تُظِلُّهم وتسترهم من حر الشمس. قال سعيد بن جبير: كانوا حُمْراً قصاراً، مَسَاكِينُهم الغيرانُ، أَكْثَرُ معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت، سَمِعْتُ الحسنَ وسُئِلَ عن قَوْلِ الله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا يَتَرَ﴾، قال: إن أرضهم لا تحمِلُ البناء، فإذا طلعت الشمسُ تَغَوَّرُوا في المياه، فإذا غَرَبَت خَرَجُوا يترافعون كما ترغي البهائم.

[٤٤٢٧] فَحَدَّثْتُ عن الحسن، عن سَمْرَةَ قال: قال النبي ﷺ: ﴿يَتَرَ: أي بناء، لم يُبْنَ فيها بناء قط؛ كانوا إذا طَلَعَتِ الشمسُ دَخَلُوا أَسْرَاباً لَهُمْ حَتَّى تَزُولَ الشمسُ﴾^(٩١). وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنهم بأرض لا تُنْبِت لهم شيئاً، فهُم إذا طَلَعَتِ الشمسُ دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حُرُوثهم ومعاشهم. وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طَلَعَت عليهم، فَلَا حِدِيمَ أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْرِ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا يَتَرَ﴾، قال: هم الزنج. وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْرِ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا يَتَرَ﴾، قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يُبْنَ عليهم فيها بناء قط؛ كانوا إذا طَلَعَتِ الشمسُ دخلوا أسراباً لهم حتى تَزُولَ الشمسُ، أو دَخَلُوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبلٌ، جاءهم جيش مرّة فقال لهم أهلها: لا تطلعنَّ عليكم الشمسُ وأنتم بها. قالوا: لا تَبْرُحْ حتى تطلع الشمسُ، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جِيفُ جيش طَلَعَت عليهم الشمسُ ما هنا فماتوا. قال: فَذَهَبُوا هَارِبِينَ في الأرض. وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾^(٩٢)، قال مجاهد، والسَّدْيِيُّ: عِلْماً. أي: نحن مُطَّلِعُونَ على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تَفَرَّقَتْ أُمَّمهم وتَقَطَّعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٩٣) [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا﴾^(٩٤) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٩٥) قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا^(٩٦) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا^(٩٧) وَأَتُوفِّي زُبْرًا مُّكَلِّدًا حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُحُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُوفِي أَوْفِيهِ عَلَيْهِ قَطْرًا^(٩٨) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا﴾^(٩٤)، أي: ثم سَلَكَ طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾، وهما جبلان متناوحيان بينهما نُفْرَةٌ يخرج منها يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ على بلاد الترك، فَيَعِيشُونَ فيهم فساداً، وَيُهْلِكُونَ الحرث والنسل، ويَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ من سَلَاةِ آدَمَ عليه السلام.

[٤٤٢٨] كما ثَبَّتَ في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدَمُ. فيقول: لِيَبِّكُ وَسَعْدِيكَ. فيقول: ابْعَثْ بَعَثَ النار. فيقول: وما بَعَثَ النار؟ فيقول: من كلِّ أَلْفِ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وتسعون إلى النار، وواحد إلى

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٩٧٨ و ٩٧٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، له علتان: ابن جريج لم يذكر من أخبره به عن

الحسن، والحسن لم يسمع من سمرة سوى حديث العقيقة، وهذا قول الأكثر، والله أعلم.

تنبيه: كان هذا الحديث في الأصول بعد أثر ابن جريج الذي رواه أبو يعلى الموصلي في الصفحة السابقة. وفي الأصول هنا عبارة «قال الحسن: هذا حديث سمرة! هكذا فقط. ولا معنى له في المحل الأول، ويفهم من العبارة في المحل الثاني أن مكانه هنا فليقل؛ وهذا ما فعلناه، والله أعلم.

الجنة؟ فحينئذ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، فيقال: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، ما كانتا في شيءٍ إلا كَثُرَتْ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ^(١). وقد حكى النووي - رحمه الله - في «شرح مسلم»، عن بعض الناس: أن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خُلِقُوا مِنْ مَتْنِي خَرَجَ مِنْ أَدَمَ فَاخْتَلَطَ بِالتُّرابِ، فَخُلِقُوا مِنْ ذَلِكَ. فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا القول غريب جداً، لا دليل عليه لا من عقلٍ ولا نقلٍ، ولا يجوز الاعتمادُ ما هنا على ما يحكيه بعضُ أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم.

[٤٤٢٩] وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ»^(٢). فقال بعضُ العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك. قال: إنما سُمُّوا هؤلاء تَزْكَاً لأنهم تَرَكُوا مِنْ وَرَاءِ السُّدِّ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، أَوْ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبَاءُ أَوْلَئِكَ، وَلَكِنْ كَانَ فِي أَوْلَئِكَ بَغْيٌ وَفَسَادٌ وَجَزَاءٌ. وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجبياً في سير ذي القرنين، وبنائه السدِّ، وكيفيته ما جرى له. وفيه طولٌ وغرابةٌ ونكارةٌ في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَحَادِيثَ غَرِيبَةً فِي ذَلِكَ لَا تَصِحُّ أُسَانِيدُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَتْقَوْنَ رَبَّهُمْ قَوْلًا﴾، لاستعجاب كلامهم وبُعدهم عن الناس. ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُّسَيِّدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا﴾، قال ابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس: أجرأ عظيماً. يعني أنهم أرادوا أن يجتمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجتمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِأَلْفِ مِائَةِ مَنَاقِبٍ مِمَّا مَاتَكُمْ بِهَا أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فَرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بعملكم وآلات البناء، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾^(٣) أَتَوْنِي زُبُرَ لَعَلِّي يَدِي، والزُّبُرُ: جمع زُبُرَةٍ، وهي القطعة منه. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة. وهي كاللينة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الضَّنْدَيْنِ﴾، أي: وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّىٰ إِذَا حَاذَىٰ بِهِ رُؤُوسَ الْجَبَلَيْنِ طَوَّالًا وَعَرَضًا. واختلفوا في مساحة عرضيه وطوله على أقوال، ﴿قَالَ أَنْفَخُوا﴾ أي: أَجَجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّىٰ صَارَ كُلُّهُ نَارًا، ﴿قَالَ مَاتَوْهُمْ أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ - قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقاتدة، والسدِّي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المُدَّاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ [سبا: ١٢]، ولهذا يشبه بالبرد المحبَّر.

[٤٤٣٠] قال ابن جرير: حدثنا بشرٌ، حدثنا يزيدٌ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادة قال: «ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَأَيْتُ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. قال: انعته لي. قال: كَالْبُرْدِ الْمُحَبَّرِ، طَرِيقَةٌ سَوْدَاءٌ، وَطَرِيقَةٌ حَمْرَاءٌ. قال: قَدْ رَأَيْتَهُ»^(٤). هذا حديث مرسل. وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، وجَهَّزَ مَعَهُ جَيْشًا سَرِيَّةً، لِيَنْظُرُوا إِلَى السُّدِّ وَيُعَايِنُوهُ وَيَنْعَثُوهُ لَهُ إِذَا رَجَعُوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْكٍ إِلَى

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٣٠ ومسلم ٢٢٢ وأحمد ٣٢٢/٣ - ٣٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد ١١/٥ من حديث الحسن عن سمرة، وفيه عنقة الحسن. وأخرجه الطبراني ١٨/١٤٥ - ١٤٦ والحاكم ٢/٥٤٦ من حديث الحسن عن عمران بن حصين عن سمرة بن جندب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وفيه عنقة الحسن، وهو مدلس، ونفى أو حاتم سماعه من عمران.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٣٤٠ عن قتادة، وهذا مرسل، وهو بصيغة التمريض، فهو ضعيف جداً، والمتن باطل.

مُلك، حتى وَصَلُوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللّبن والعَمَل في بُرج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاق، لا يُسْتَطَاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رَجَعُوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلَعُوا لَمْ نَبْقَا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فِجْمَعْتَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قَدَرُوا على أن يصعدوا فوق هذا السدِّ، ولا قَدَرُوا على تَقْبِهِ من أسفله. ولما كان الظهورُ عليه أسهل من تَقْبِهِ قابلٌ كلاً بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلَعُوا لَمْ نَبْقَا ﴿٩٧﴾﴾. وهذا دليل على أنهم لم يقدرُوا على تَقْبِهِ، ولا شيء منه.

[٤٤٣١] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرُونَ شِعَاعَ الشَّمْسِ قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً. فيعودون إليه كأشدَّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتْهُمْ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شِعَاعَ الشَّمْسِ قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تَرَكُوهُ، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فَيَنْشِفُونَ المِياه، ويتحصنُ الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهية الدم، فيقولون: قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ. فيبعث الله عليهم نَعْفًا في أقبانهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن دوابَّ الأَرْضِ لتسمنَّ، وتَشْكُرُ شُكْرًا من لحومهم ودمائهم»^(١). ورواه أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان، عن قتادة، به. وكذا رواه ابن ماجه، عن أزهري بن مَرْوَانَ، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا إسناد جيّد قويٌّ، ولكن في رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكّنوا من ارتقائه ولا من تَقْبِهِ، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد رُوِيَ عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحها. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحها. ويُلْهَمُونَ أن يقولوا: «إن شاء الله» فيصبحون وهو كما فارقه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجِه، ولعل أبا هُرَيْرَةَ تلقاه من كعب، فإنه كثيرٌ ما كان يجالسه وَيُحَدِّثُهُ، فَحَدَّثَ به أبو هُرَيْرَةَ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه. والله أعلم. ويؤكد ما قلناه، من أنهم لم يتمكّنوا من تَقْبِهِ ولا تَقْبِ شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع، قول الإمام أحمد:

(١) إسناد حسن، ومتن غريب، أخرجه الترمذي ٣١٥٣، وابن ماجه ٤١٩٩، والحاكم ٤/٤٨٨، والطبري ٢٣٣٣١ وأحمد ٢/٥١٠ - ٥١١ من حديث أبي هريرة، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن استنكر ابن كثير رحمه الله المتن وذكر أحاديث - ستاتي - أصح منه، ومفادها أن فتح الروم يكون شيئاً فشيئاً، والله أعلم، وانظر الأحاديث الآتية.

[٤٤٣٢] حدثنا سفيان، عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمّرٌ وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شرٍ قد اقترب. ففتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلقت، قلت: يا رسول الله، أتهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث^(١). هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخرجه، من حديث الزهري. ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد، منها رواية الزهري عن عروة، وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده، كلهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنان زوجتان، رضي الله عنهن.

[٤٤٣٣] وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين^(٢). وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾، أي لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾، أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حاجلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾، أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، أي ساواه بالأرض تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويلاً لا سنام لها وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ لُدِّيَّ لِلْجِبَالِ جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الاعراف: ١٤٣] أي مساوياً للأرض. وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، قال: طريقاً كما كان. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، أي: كائناً لا محالة. وقوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أي: الناس يومئذ، أي: يوم يُدَكُّ هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويُفسدون على الناس أموالهم ويُتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿حَقًّا إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِمَّن كَلِمَ تَطَّيَّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧]، وهكذا قال ها هنا: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَيُفِخُ فِي أَشْوَارِهِمْ جَمًّا﴾، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾. قال: هذا أول يوم القيامة، ثم ﴿وَيُفِخُ فِي أَشْوَارِهِمْ جَمًّا﴾ على أثر ذلك، ﴿جَمًّا جَمًّا﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أي: يوم القيامة يختلط الإنسان والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عثرة، عن شيخ من بني قزاة في قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قال: إذا ما ج الجن والإنس قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد تطبقوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة تطبقوا الأرض، ثم يظعن يمينا وشمالاً حتى ينتهي إلى أقصى الأرض، فيجد الملائكة تطبقوا الأرض، فيقول: ما من مَحِيصٍ فبينما هو كذلك إذ عَرَضَ له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو ودُرَيْتِه، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟ ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله قرَضَ عَلَيَّ فريضة لعبده فيها عبادة لم يُعْبِده مثلها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وأحمد ٤٢٨/٦ والترمذي ٢١٨٧ وابن ماجه ٣٩٥٣ وابن حبان ٣٢٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٧ ومسلم ٢٨٨١.

أحد من خلقه. فيقول: فإن الله قد فرّض عليك فريضةً. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فَيَتَلَكَّأُ عَلَيْهِ، فيقول به ويدّزّيته بجناحيه فيقذّفهم في النار. فتزفر جهنم زفرة لا يبقى ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل إلا جثّاً لِرُكْبَتَيْهِ. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القُفْمِي، به. ورواه من وجه آخر، عن يعقوب، عن هارون بن عَنَثَرَةَ، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْضٍ﴾، قال: الجن والإيس، يموج بعضهم في بعض.

[٤٤٣٤] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم. ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتاريس، ومنسك»^(١). هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

[٤٤٣٥] وروى النسائي من حديث شعبة، عن النعمان بن سالم، عن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يُجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»^(٢). وقوله: ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

[٤٤٣٦] والصُّورُ كما جاء في الحديث: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام^(٣)، كما تقدّم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

[٤٤٣٧] وفي الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر. قالوا: كيف نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٤). وقوله: ﴿بِمَشِئَتِهِمْ جَمْعًا﴾، أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ بَئِذٍ يَوْمَ نَمُلُوكُمْ ﴿١١٢﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُسْرًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١١١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخْلَوْا بِعِبَادِي مِنَ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة، أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يُبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والثكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهَمِّ والحُزْنِ لهم.

(١) أخرجه الطيالسي ٢٢٨٢ والطبراني كما في «المجمع» ١٢٥٧١، وقال الهيثمي: رجاله ثقات أمه. ومداره على وهب بن جابر الخثيوي، جاء في التهذيب: وثقه يمين في رواية، وكذا العجلي، وابن حبان، وقال علي المدني والنسائي: مجهول. وذكره الذهبي في «الميزان» ٩٤٢٣ فقال: قال ابن المدني: مجهول، قلت: لا يكاد يعرف تفرد عنه أبو إسحق أمه وللحديث علة ثانية أبو إسحق هو السبيعي، مدلس، وقد عنعن. وقال ابن كثير في النهاية ١٤٥/١: غريب، وقد يكون من كلام عبد الله بن عمرو من الزاملتين، والله أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٣٣٤ وفيه ابن أوس ذكره الحافظ في التهذيب من غير جرح ولا تعديل، وقال: اسمه عبد الرحمن.

(٣) تقدم في سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٤) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

[٤٤٣٨] وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَقَاذُ سَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»^(١). ثم قال مخبراً عنهم: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطْلَوْ عَن ذِكْرِي»، أي: تعامروا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى وأتباع الحق، كما قال تعالى: «وَمَن يَقْسُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يُرِينَ»^(٢) [الزخرف: ٣٦]، وقال ها هنا: «وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا»، أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهييه. ثم قال: «أَنحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجُوْا عِبَادِي مِن دُونِ أَوْلِيَاءِ»، أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، ويستفهمون بذلك؟ «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»^(٣) [مريم: ٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٤) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٥﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ
 بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٦﴾

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب قال: سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص - عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٤) أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنَّة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد - رضي الله عنه - يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يخسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطيء وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِلُ وَخَيْمَةٌ ﴿١٥﴾ عَابِلَةٌ نَّاصِيَةٌ ﴿١٦﴾ تَصَلَّى نَارًا حَاطِيَةً ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ٢ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِذْ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مِّنْهُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ مُّدْمِجَةٍ يَّتَجَمَّعُ فِيهَا مَاءٌ حَمِيمٌ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَيْبًا﴾ [النور: ٣٩]. وقال في هذه الآية الكريمة، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: نخبركم «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»؟ ثم فسره فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾، أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبزاهيته التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾، أي: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير.

[٤٤٣٩] قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»^(٢). وعن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٤٦٧٨.

يحيى بن بكير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله. هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً. وقد رواه مسلم، عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به.

[٤٤٤٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التوامية، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوتَى بِالرُّجُلِ الْأَكْبُولِ الشَّرِيبِ الْعَظِيمِ، فَيُوزَنُ بِحَبَّةٍ فَلَا يَزِيئُهَا». قال: وقرأ: «فَلَا تُقِيمُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا»^(١). وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي الصلت عن ابن أبي الزناد، عن صالح مولى التوامية، عن أبي هريرة مرفوعاً. فذكره بلفظ البخاري سواء.

[٤٤٤١] وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عمارة، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطب في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: يا بريدة، هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً^(٢). ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبسة، وعنه عون بن عمارة وليس بالحافظ. ولم يتابع عليه.

وقد قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يوتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: «فَلَا تُقِيمُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا»، وقوله: «ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ»، أي: إنما جازيناكم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد الكذب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسله وصدقوهم فيما جاؤوا به، بأن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية. وقال كعب، والسدي، والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعتاب. وقال أبو أمامة: الفردوس سرّة الجنة. وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

[٤٤٤٢] وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ: «الفردوس ربوة الجنة، هي أوسطها وأحسنها»^(٣). وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً. وروي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. روى ذلك كله ابن جرير.

[٤٤٤٣] وفي الصحيحين: «إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تنجز أنهار الجنة»^(٤). وقوله تعالى: «نُزُلًا»، أي: ضيافة، فإن النزول الضيافة. وقوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا»، أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، «لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا»، أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر:

(١) أخرجه الطبري ٢٣٣٩٩، وفي الإسناد صالح بن نهان، اختلط، لكن يشهد له ما قبله.

(٢) أخرجه البزار ٢٩٥٦، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٥٣٢: عون بن عمارة، ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٤١٥ و٢٣٤١٦ والطبراني ٦٨٨٦ و٨٨٥ و٧٠٨٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٩٨/١٠، وقال: وأحد أسانيد الطبراني رجاله وتقوا، وفي بعضهم ضعف اهد. قلت: يشهد له ما بعده.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٣٣.

فَحَلَّتْ سُودًا الْقَلْبَ، لَا أَنَا بَأَعْيَا سِوَاهَا، وَلَا عَنِ حُبِّهَا اتَّحَوَّلُ

وفي قوله عز وجل: ﴿لَا يَتَّخِذُونَ عِتَابًا حَوْلًا﴾، تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، لأنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يملّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مديداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة عليه، لتفقد البحر قبل أن تفرغ كتابة ذلك، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، أي: بمثل البحر آخر، وهلم جزءاً، بحور تمدّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَدَنِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾. يقول: لو كان البحر مديداً، والشجر كلها أقلام، لانكسرت الأقلام ونفي ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يفنّد قدرها ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمْذًا ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، فمن يزعم أنني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه. وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ الذي أَدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَهُ وَحْدَهُ﴾، لا شريك له، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمْذًا﴾، وهو الذي يراؤ به وجهه الله وحده لا شريك له. وهذان ركننا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

[٤٤٤٤] وقد روى ابن أبي حاتم، من حديث معمر، عن عبد الكريم الجوزي، عن طاووس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يري موطني. فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمْذًا﴾^(١). وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

[٤٤٤٥] وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك عنه: أرايت رجلاً يصلّي بيثني وجه الله ويحب أن يُحمّد، ويصوم ويبتغي وجه الله ويحب أن يُحمّد، ويتصدق ويبتغي وجه الله ويحب أن يحمّد، ويحج ويبتغي وجه

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٣٤٢٧ مرسلًا، وذكر نزول الآية ضعيف، فإنها مكية، والصواب أنه تلاها عليه.

الله وَيُحِبُّ أَنْ يُحَمَدَ؟ فقال عبادة: ليس له شيء، إِنَّ الله تعالى يقول: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَعِيَ شَرِيكَ فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ^(١).

[٤٤٤٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا كثير بن زيد، عن زبيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه عن جده قال: كُنَّا نَتَنَاطَبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَبِّيتُ عِنْدَهُ، تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، أَوْ يَطْرُقُهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَبِيعُنَا. فَكَثُرَ الْمُحْتَسِبُونَ وَأَهْلَ الثُّوبِ، فَكُنَّا نَتَحَدَّثُ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذِهِ التَّخْوِيُّ؟ [ألم أنْهَكُم عن النَّجْوَى] قَالَ: قُلْنَا: تَبْنَا إِلَى اللَّهِ أَيُّ نَبِيِّ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا فِي ذِكْرِ الْمَسِيحِ، وَفَرِقْنَا مِنْهُ، فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَسِيحِ عِنْدِي؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: الشَّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّيَ لِمَكَانِ الرَّجُلِ^(٢).

[٤٤٤٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، يعني ابن بهرام، قال: قال شهر بن حوشب: قَالَ ابْنُ عَنَمٍ: لَمَّا دَخَلْنَا مَسْجِدَ الْجَابِيَةِ أَنَا وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، لَقِينَا عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَأَخَذَ يَمِينِي بِشِمَالِهِ، وَشِمَالِ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِيَمِينِهِ، فَخَرَجَ يَمْشِي بَيْنَنَا وَنَحْنُ نَتَنَاجَى بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا نَتَنَاجَى بِهِ، فَقَالَ عَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: إِنْ طَالَ بِكُمَا عَمْرٌ أَحَدُكُمَا أَوْ كَلَيْكُمَا لَتُوشِكَا أَنْ تَرَيَا الرَّجُلَ مِنْ تَبِيعِ الْمُسْلِمِينَ - يَعْنِي مِنْ وَسْطِ - قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَعَادَهُ وَأَبْدَأَهُ، وَأَحَلَّ حِلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ مَنْزَلِهِ. أَوْ قَرَأَهُ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَعَادَهُ وَأَبْدَأَهُ، وَأَحَلَّ حِلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَنَزَلَ عِنْدَ مَنْزَلِهِ، لَا يَخُورُ فِيكُمْ إِلَّا كَمَا يَخُورُ رَأْسُ الْحِمَارِ الْمَيْتِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ، وَعُوفُ بْنُ مَالِكٍ، فَجَلَسَا إِلَيْنَا، فَقَالَ شَدَادٌ: إِنْ أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مِنْ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ وَالشَّرْكِ. فَقَالَ عَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ: اللَّهُمَّ غَفْرًا. أَوْلَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حَدَّثَنَا أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَبْسُ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَأَمَّا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، هِيَ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا مِنْ نَسَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَمَا هَذَا الشَّرْكُ الَّذِي تُخَوِّفُنَا بِهِ يَا شَدَادُ؟ فَقَالَ شَدَادُ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ رَأَيْتُمْ رَجُلًا يُصَلِّيَ لِرَجُلٍ، أَوْ يَصُومُ لِرَجُلٍ أَوْ يَتَصَدَّقُ لَهُ، أَتَرُونَ أَنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَاللهُ إِنَّهُ مِنْ صَلَّى لِرَجُلٍ أَوْ صَامَ لَهُ أَوْ تَصَدَّقَ لَهُ، لَقَدْ أَشْرَكَ. فَقَالَ شَدَادُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ». فَقَالَ عُوفُ بْنُ مَالِكٍ عِنْدَ ذَلِكَ: أَفَلَا يَعْبُدُ اللهُ إِلَى مَا ابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ كُلُّهُ، فَيَقْبَلُ مَا خَلَصَ لَهُ وَيَدَعُ مَا أَشْرَكَ بِهِ؟ فَقَالَ شَدَادُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مِنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ عَمَلَهُ قَلِيلٌ وَكَثِيرُهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، أَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ»^(٣).

[٤٤٤٨] طريق آخرى لبعضه، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَابِ، حدثني عبد الواحد بن زيد، أخبرنا عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني، سمعت رسول الله يقول: أتخوف على أممي الشرك والشهوة الخفية. قلت: يا رسول

(١) أخرجه الطبري ٢٣٤٢٩ وفيه إرسال بين شهر وعبادة بن الصامت، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠/٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣١٥/١ وقال: ورجاله موثقون. قلت: بل زبيح غير معروف، وقال البخاري: منكر الحديث، فالإسناد ضعيف. لكن لأصل الحديث شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٢٥ - ١٢٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٢١/١٠ وقال: وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقي رجاله ثقات. قلت: شهر غير حجة، لكن للحديث شواهد.

اللَّهُ، أَتَشْرِكُ أُمَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا، وَلَا حَجْرًا وَلَا وُتْنًا، وَلَكِنْ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يَصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرُضَ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهْوَاتِهِ فَيَتْرَكَ صَوْمَهُ^(١). ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي، به. وعبادة فيه ضعف، وفي سماعه من شداد نظر. [٤٤٤٩] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كله»^(٢).

[٤٤٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال: أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك^(٣). تفرد به من هذا الوجه.

[٤٤٥١] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ. قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُتِمْتُمْ تَرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جِزَاءً»^(٤).

[٤٤٥٢] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبد الحميد - يعني ابن جعفر - أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٌ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشَّرْكَاءَ عَنِ الشَّرْكَ^(٥). وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمد بن بكر، وهو البزستاني به.

[٤٤٥٣] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ»^(٦).

[٤٤٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فزاس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُسْمَعُ يُسْمَعُ اللَّهُ بِهِ»^(٧).

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/١٢٤ ح ١٦٦٧١، وابن ماجه ٤٢٠٥ والحاكم ٤/٣٣٠ ح ٧٩٤٠ وصححه، ورده الذهبي بقوله: عبد الواحد - بن زيد - متروك. وذكره المنذري ٥٠، ونقل تصحيح الحاكم، ثم عقبه: كيف، وعبد الواحد بن زيد الزاهد، متروك اهـ. وأعله ابن كثير بعبادة بن نسي أيضاً.

(٢) إسناده غير قوي، علي بن ثابت فيه ضعف، لكن المتن صحيح بشواهد.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٤/٢٢٨٩ وأحمد ٢/٣٠١ و٤٣٥ والطيالسي ٢٥٥٩ وابن ماجه ٤٢٠٢ وابن حبان ٣٩٥.

(٤) تقدم.

(٥) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٤ وابن ماجه ٤٢٠٣ وأحمد ٣/٤٦٦ والبيهقي في «الشعب» ٦٨١٧، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وله شواهد كثيرة تقويه.

(٦) جيد. أخرجه أحمد ٥/٤٥ والبزار ٣٥٦٣ والطبراني كما في «المجمع» ١٠/٢٢٢ وقال الهيثمي: وأسانيدهم حسنة.

(٧) متن جيد، أخرجه الترمذي ٢٣٨١ وأحمد ٣/٤٠ وقال الترمذي: حسن صحيح. كذا قال، والإسناد ضعيف لضعف عطية بن سعد، لكن المتن محفوظ بشواهد.

[٤٤٥٥] حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمع الله به، سامع خلقه، وصغره وحقره». فدرفت عينا عبد الله^(١).

[٤٤٥٦] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله - عز وجل - يوم القيامة في صُحفٍ مُخْتَمَةٍ فيقول الله: ألقوا هذا، واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي»^(٢). ثم قال: الحارث بن غسان، روى عنه جماعة، وهو ثقة بصري ليس به بأس.

[٤٤٥٧] قال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزازي: أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياءً وسمعةً لم يزل في مقب الله حتى يجلس»^(٣).

[٤٤٥٨] وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو. فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل»^(٤).

[٤٤٥٩] وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكندي: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية... «فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِبِئَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»، وقال: إنها آخر آية نزلت في القرآن^(٥). وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

[٤٤٦٠] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قرّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِبِئَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كان له نورٌ من عَدَنِ آيِنٍ إِلَى مَكَّةَ، حَشْوَةُ الْمَلَائِكَةِ»^(٦). غريب جداً.

(١) حسن. أخرجه أحمد ١٦٢/٢ و ١٩٥ و ٢١٢ و ٢٢٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٢/١٠ وقال: رواه الطبراني وأحمد باختصار، وسمى الطبراني الرجل، وهو هيشمة بن عبد الرحمن، فهذا الاعتبار رجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني في «الكبير» رجال الصحيح.

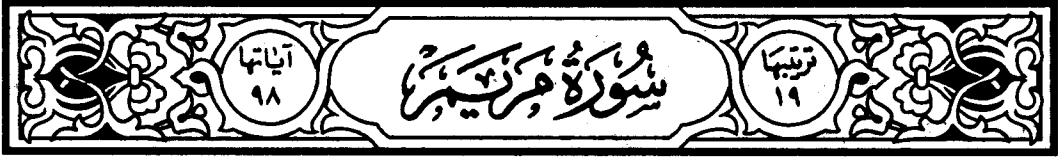
(٢) أخرجه العقيلي ٢١٨/١، وأعله بالحارث بن غسان، وأنه حدث بمنكير. وقال الذهبي في الميزان: مجهول، فالخبر إلى الضعف أقرب.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٢٣/١٠ وقال الهيثمي: وفيه يزيد بن عياض، وهو متروك.

(٤) تقدم في سورة النساء: ١٤٢.

(٥) فيه هشام بن عمار، صدوق، لكن تغير بأخزه، وفيه إسماعيل بن عياض غير قوي، وقد صح أن آخر آية نزلت «وَأَنقُضُوا يَوْمَئِذٍ مَّا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَقَاتِلُ فَإِذَا جَاءَ إِلَيْكُم مِّنْهُنَّ فَأَقْرُبُوا إِلَيْهِنَّ وَأَجْرُهُمْ فِي يَدَيْ اللَّهِ فَأَلْفُ مِائَةٍ أَلْفًا».

(٦) ضعيف، أخرجه الحاكم ٣٧١/٢ ح ٥٤٠٣، والبزار ٣١٠٨، صححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: أبو قرّة، فيه جهالة، ولم يضعف اهـ. وقال في الميزان: مجهول، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٦٢: أبو قرّة لم يرو عنه غير النضر بن شميل اهـ.



وهي مكية

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل، عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَمِيعًا ۝١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝١ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا ۝٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٣ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٥﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾. أي: هذا ذكر رحمة ربك بعبده زكريا. وقرأ يحيى بن يعمر: «ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا». «ذَكَرَ رَبَّكَ»: يُمَدُّ وَيُقْصَرُ، قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً^(١)، أي: إنه كان يأكل من عمل يديه في التجارة. وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا﴾، قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الزعونة ليكبروه. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا﴾: «إن الله يعلم القلب الثقفي، ويسمع الصوت الحففي». وقال بعض السلف: قام من الليل وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بزبه، يقول حُفِيَّةً: يارب، يارب، يارب. فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك. «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي»، أي: ضَعْفٌ، وخَارَتِ الْقُوَى، «وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»، أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دريد في مقصورته:

إِذَا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طُرَّةٌ صُبْحَ تَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى

وَاسْتَعَلَ الْمُبِيضُ فِي مُسْوَدِّهِ مِثْلَ اسْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. وقوله: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ

(١) أخرجه مسلم ٢٣٧٩ وأحمد ٢/٢٩٦ و٤٠٥ و٤٨٥ وابن ماجه ١١٥٠ وأبو يعلى ٦٤٢٦ من حديث أبي هريرة، ولم أره عند

رَبِّ شَقِيًّا»، أي: ولم أعهذ منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تُرُدني قط فيما سألتك. وقوله: ﴿وَرَأَيْ خِفْتُ
الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَثَتِي﴾، قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من «الْمَوْلَىٰ»، على أنه مفعول. وعن الكسائي أنه سكن
الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ فِي السَّعَاعِ الْقَرِيقِ^(١) أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطِينَ الْوَرِقِ

وقال الآخر:

فَتَىٰ لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارِي لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تَغَايِرَ الشَّعْرِ فِيهِ إِذْ سَهَرَتْ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَائِمِهِ سَتَقْتَتَلُ

وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: أراد بالموالي العصبية. وقال أبو صالح: الكلالة. وروي عن أمير
المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه كان يقرؤها: «وَأِنِّي خَفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَثَتِي»، بتشديد
«الفاء»، بمعنى: قلت عصباتي من بعدي. وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في
الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحي إليه. فأجيب في ذلك، لا
أنه خشي من ورثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يُشْفَقَ على ماله إلى ما هذا حذاه وأن
يأنف من وراثته عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، لينحور ميراثه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يُذكر أنه كان ذا مال، بل كان تجاراً يأكل من عمل يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا
سيما الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم كانوا أزهدي في الدنيا.

[٤٤٦١] الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا نُورَثُ؛ مَا تَرَكْنَا
فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(٢).

[٤٤٦٢] وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نَحْنُ - مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ - لَا نُورَثُ»^(٣). فعلى هذا
تعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَبَلًا ۖ بَرِيًّا﴾، على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَبَرِيًّا مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين
إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمثل أن
الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثَةٌ خاصة لما أخبر بها. وكل هذا يُقرُّه وَيُبَيِّنُهُ ما صحَّ في الحديث:

[٤٤٦٣] «نَحْنُ - مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ - لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(٤).

(١) القرق: المكان المستوي، والقاع: أرض سهلة مطمئنة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠٩٤ ومسلم ١٧٥٧ وأبو داود ٦٩٦٣ والترمذي ١٦١٠ وأبو يعلى ٢ من حديث أبي بكر
الصديق، في أثناء حديث.

(٣) لم يروه الترمذي ولا غيره بلفظ «نحن» وقد نص على ذلك الحافظ في «الفتح» ١٢/٨ بقوله: وما اشتهر في كتب الأصول
وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة للفظ «نحن» لكن أخرجه
النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ «إنا معشر الأنبياء لا نورث» وهو كذلك يمسند الحميدي عن ابن عيينة،
وهو أنقن أصحاب ابن عيينة. اهـ ملخصاً، وانظر مسند الحميدي ٢٢ وانظر ما قاله الحافظ في الجمع بين هذه الأحاديث
والآية الكريمة.

(٤) هو كسابقه.

قال مجاهد في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾: كان ورثته علماً، وكان زكرياً من ذرية يعقوب. وقال هُشَيْم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، قال: يكون نبياً، كما كانت أبواؤه أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه. وكذا قال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَرِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، قال: نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، قال: يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

[٤٤٦٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله زكريا. وما كان عليه من ورثة؟ ويرحم الله لوطاً. إن كان لياوي إلى ركن شديد»^(١).

[٤٤٦٥] وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك - هو ابن فضالة - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي زكريا. ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾»^(٢). وهذه مُرسَلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَجْمَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تُحبّه وتحبّه إلى خلقك، في دينه وخلقه.

﴿يَنْزَكِرِيًّا إِنَّا نَبِّئُكَ بِإِسْمِهِ لَمَّا جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾^(٧)

هذا الكلام يتضمّن محذوفاً، وهو أنه أُجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَنْزَكِرِيًّا إِنَّا نَبِّئُكَ بِإِسْمِهِ لَمَّا جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٢٨) فتأدّه المَلَكِيَّةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُسَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنْ اللَّهُ يَبْشُرُكَ بِبَعْتِ مَسَدًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ^(٢٩) ﴿آل عمران: ٣٨ - ٣٩. وقوله: ﴿لَمَّا جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، قال قتادة: وابن جريج وابن زيد، أي لم يُسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿لَمَّا جَعَلَ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَقْلَهُ لَمْ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: شبيهاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله. وهذا دليل على أن زكريا - عليه السلام - كان لا يُولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة - عليهما السلام - فإنهما إنما تَعَجَّبَا من البشارة بإسحاق لكبيرهما، لا ليعقوب، ولهذا قال: ﴿أَبَشِّرْتُمُنِي بِحَبْلِ أَنْ سَمِيَّ الْكَبِيرِ فِيمَ بَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، مع أنه كان وُلد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَكُونُ لِي بَوْلًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقِيٌّ عَجِيبٌ﴾^(٧٢) قَالُوا أَمْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ الْبَنَاتِ فَكَيْفَ آهْلِ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ^(٧٣) ﴿هود: ٧٢ - ٧٣.﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾^(٨) قَالَ

كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تَكُ شَيْئًا﴾^(٩)

(١) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٧٣٥، والطبري ٢٣٥٠٠ و ٢٣٥٠١ هكذا مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، والوهن في صدره فقط، وأما عجزه، فقد ورد موصولاً بأسانيد صحيحة.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٤٩٩ عن الحسن مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، وله علة ثانية: جابر بن نوح ضعفه يمين وغيره. وفيه مبارك بن فضالة، غير قوي.

هذا تَعَجَّبَ من زكريا - عليه السلام - حين أُجيب إلى ما سأل، ويُشَرُّ بالولد، وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يُؤلِّد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته عاقرة لم تلد من أول عمرها مع كِبَرها، ومع أنه قد كبر وعَتَا، أي: عَسَا عَظْمُهُ ونَحُل، ولم يبق فيه لِقَاح ولا جَمَاعُ. تقول العرب للغُود إذا بَيس: «عَتَا يَعتُو عِتْيَاً وَعُتْوَاً، وَعَسَا يَعْسُو عُسْوَاً وَعِيسِيَاً». وقال مجاهد: «سَيِيَاً» بمعنى نُحُولِ العظم. وقال ابن عباس وغيره: «عِيِيَاً»، يعني الكِبَر. والظاهر أنه أخض من الكِبَر.

[٤٤٦٦] وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قد عَلِمْتُ السَّنَةَ كُلَّهَا، غير أنني لا أدري أكانَ رسولُ الله ﷺ يقرأ في الظُّهر والعَصْرِ أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: «وَقَدْ بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيَاً»، أو «عِيسِيَاً»^(١). وَرَوَاهُ الإمامُ أحمد عن سُريج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هُشَيْم، به. «قَالَ»، أي: الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: «كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ»، أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، «هَيِّنٌ»، أي: يَسِيرٌ سَهْلٌ على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل فقال: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَكَرْتُكَ سَيِيَاً»، كما قال تعالى: «هَلْ أَرَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّكَرُورًا»^(٢) [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾^(٣) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٤)

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً»، أي: علامةً ودليلاً على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثَوَمٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يُطْمِئِنُّ قَلْبِي» [البقرة: ٢٦٠]... الآية، «قَالَ آيَاتُكَ»، أي: علامتك «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، أي: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا عِلَّة. قال ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، وهب بن مُثَنَّب، والسدي، وقتادة، وغير واحد: اعْتَقِلَ^(٥) لسانه من غير مرض ولا علة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويُسَبِّح، ولا يستطيع أن يُكَلِّمَ قَوْمَهُ إلا إشارة. وقال العوفي، عن ابن عباس: «ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، أي: متتابعات. والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذُنًا رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكِرِ»^(٦). وقال مالك، عن زيد بن أسلم: «ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، من غير خرس. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها «إِلَّا رَمْرًا»، أي: إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ»، أي: الذي يُشَرُّ فيه بالولد، «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أي: أشار إشارةً خَفِيَّةً سريعة: «أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، أي: موافقةً له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادةً على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه، قال مجاهد: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أي: أشار إليهم. وبه قال وهب، وقتادة. وقال مجاهد في رواية عنه: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، أي: كتب لهم في الأرض. وكذا قال السدي.

(١) أخرجه الطبري ٢٣٥١٤ وأحمد ٢٤٩/١ و٢٥٧ - ٢٥٨. وإسناده ضعيف: حصين هو ابن عبد الرحمن اختلط.

(٢) كذا ورد عن جمهور المفسرين، لكن يشكل على ذلك الآية في آل عمران «وَأَذِّنْ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالنَّيْتِ وَالْإِنْكِرِ» فامر الله عز وجل له بالذكر والتسبيح، يدل على أنه لم يعقد لسانه، أو أنه عقد عن الناس دون ذكر الله، والله تعالى أعلم.

﴿يَبِيحُنِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَتْهُ الْمَلَكُمُ صَبِيحًا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٢﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المُبَشَّر به. وهو يحيى - عليه السلام - وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكمُ بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريائيون والأخبار. وقد كان سيئه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نُوهَ بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَبِيحُنِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: تَعَلَّم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجِدِّ وحرصٍ واجتهادٍ، ﴿وَأَتَيْنَتْهُ الْمَلَكُمُ صَبِيحًا﴾ أي: الفهم والعلم والجِدُّ والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السن. قال عبد الله بن المبارك، قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما لِلْعَبِّ خُلْفَتًا. قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَتْهُ الْمَلَكُمُ صَبِيحًا﴾. وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقاتدة، والضحاك وزاد: لا يقدرُ عليها غيرنا. وزاد قاتدة: رجم الله بها زكريا. وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أمَّا الحنانُ فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: تعظيماً من لدنا. وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سَمِعَ عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: لا والله، ما أدري ما حَنَانًا.

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابن حُمَيْد، حَدَّثَنَا جرير، عن منصور، سألت سعيد بن جبيرة عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها ابن عباس، فلم يُحز فيها شيئاً. والظاهر من هذا السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَتْهُ الْمَلَكُمُ صَبِيحًا﴾، أي: وأتيناها الحكم، وحناناً، وزكاة، أي: وجعلناه ذا حنانٍ وزكاةٍ، فالحنان هو المحبة في شَفَقَةٍ ومِئَلٍ، كما تقول العرب: ﴿حَنَّتِ الناقَةَ على ولدها، وَحَنَّتِ المرأةُ على زوجها. ومنه سميت المرأة ﴿حَنَّةً﴾ من الجنة، وَحَنُّ الرجلُ إلى وَطَنِهِ، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر:

تَحَنَّنَ عَلَيَّ - هَذَاكَ الْمَلِيكَ - فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

[٤٤٦٧] وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار، ينادي ألف سنة: يا حَنَّانُ، يا مَنَّانُ»^(١). وقد يُقْنَى، ومنهم من يجعل ما وَرَدَ من ذلك لغةً بذاتها، كما قال طرفة:

أبَا مُنْدِرٍ، أَفْتَيْتِ، فَاسْتَبَقِي بَعْضَنَا حَنَانِيكَ، بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَاةً﴾، معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾، فالزكاةُ الطهارةُ من الدُّنْسِ والآثامِ والذنوبِ. وقال قاتدة: الزكاة: العملُ الصالح. وقال الضحاك، وابن جريج: العملُ الصالحُ الزكوي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنوب. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾^(١٤): لَمَّا ذَكَرَ تعالى طاعته لرَبِّهِ وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةً وَتَقِيًّا، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عُقُوبَهُمَا، قولاً وفعلاً أمراً ونهياً. ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٠ وأبو يعلى ٤٢١٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٨٤ وقال: ورجالهما رجال الصحيح،

غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، وثقه ابن حبان.

الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٦﴾، أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عُيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم وُلِدَ، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه. ويوم يَمُوتُ، فيرى قوماً لم يكن عاينتهم. ويوم يُبْعَثُ، فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا، فمخّصه بالسلام عليه فقال: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٦﴾. رواه ابن جرير، عن أحمد بن منصور المروزي، عن صدقة بن الفضل، عنه.

[٤٤٦٨] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيّب يذكر قال: قال النبي ﷺ: ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا. قال قتادة: ما أذنب، ولا همّ بامرأة^(١). مرسل.

[٤٤٦٩] وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب، حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(٢). ابن إسحاق مدلس. وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم.

[٤٤٧٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حمّاد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو همّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(٣). وهذا أيضاً ضعيف، لأن علي بن زيد بن جُدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى - عليهما السلام - التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له الآخر: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني، سلّمت على نفسي، وسلّم الله عليك. فغرف والله فضلها.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٧﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٨﴾ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ قَرِينًا ۝١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝٢٠﴾ قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝٢٢﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا - عليه السلام - وأنه أوجد منه في حال كِبَرِهِ وعُثْم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا، عطّف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى - عليهما السلام - منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران وها هنا، وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما

(١) هو مرسل لكن يعتضد بما بعده، ومراسيل ابن السيب صحيحة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٥٦٦ وفي إسناده ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن كما ذكر المصنف.

(٣) أخرجه أحمد ٢٥٤/١ و٢٩٢ وأبو يعلى ٢٥٤٤ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جُدعان، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٩/٨: وفيه علي بن زيد ضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقيّة رجال أحمد رجال الصحيح. اهـ. قلت: لكن للحديث شواهد يقوى بها، انظر «مجمع الزوائد» ٢٠٨/٨ - ٢٠٩ وهو يعتضد بما قبله عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويمرسل ابن السيب، والله أعلم، وعجز الحديث صحيح.

بينهما في المعنى، ليدلّ عباده على قدرته وعظّمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادرٌ، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصّة ولادة أمّها لها في «آل عمران»، وأنها نذرتُها مُحَرَّرَةً، أي: لخدمة بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَقَبَلْنَا رُوحَهَا بِقَوْلِ حَسَنٍ وَأَلْبَسْنَاهَا ثِيَابًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدُّوب، وكانت في كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبيّ بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يَرْجِعُونَ إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهّره، ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِجًا قَالَ يَسْمُوكَ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران». فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجّة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى - عليه السلام - أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أي: اعتزلتُهم وتنفّخت عنهم، وذهبت إلى شرقيّ المسجد المقدس. قال السدي: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُذَيْبَةَ، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كُتِبَ عليهم الصلاة إلى البيت والحجّ إليه، وما صرّفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله لقوله الله تعالى: ﴿أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾؛ واتخذوا ميلاد عيسى قبله. وقال قتادة ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً مُتَنَجِّحاً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلبتها تستقي من الماء. وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَدْتَ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، أي: استترت منهم وتوارثت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل - عليه السلام - ﴿فَمَثَلَلَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، أي: على صورة إنسان تامّ كامل. قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، ووهب بن منبّه، والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، يعني جبريل عليه السلام. وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٧﴾ عَلَٰنَ فَلَكَ لِتُكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]. وقال أبو جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: إن روح عيسى - عليه السلام - من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام، وهو الذي تمثّل لها بشراً سويّاً، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها. وهذا في غاية الغرابة والثكارة، وكأنه إسرائيلي. ﴿قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ﴿١٧﴾﴾، أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنّت أنه يريد بها على نفسها، فقالت: ﴿إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾، أي: إن كنت تخاف الله، تذكير له بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل [فالأسهل]، فخوّفته أولاً بالله عزّ وجلّ.

قال ابن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل - وذكر قصّة مريم - فقال: قد علمتُ أن الثقيّ ذو نهيّة حين قالت: ﴿إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ قال: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ. أي: فقال لها الملك مجيئاً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنّين، ولكنني رسول ربك، أي: بعثني الله إليك. ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً، وعاد إلى

هَيْبَتِي، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِئَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء، أحد مشهوري القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لِيَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. واليغني: هي الزانية.

[٤٤٧١] ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي^(١). ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّبٌ﴾، أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْمِكُمْ آيَةٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمَكَلِّينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، أي: يدعو إلى عبادة الله ربّه في مهديه وكهولته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دحيم - حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم - عليها السلام - كنت إذا خلوتُ حَدَّثَنِي عِيسَى وَكَلَّمَنِي وَهُوَ فِي بَطْنِي، وَإِذَا كُنْتُ مَعَ النَّاسِ سَبَّحَ فِي بَطْنِي وَكَبَّرَ^(٢). وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جَبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَقْدَرٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرُهُ وَمَشِيئَتُهُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ كَتَبَ بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: إن الله قد عَزَمَ عَلَى هَذَا، فَلَيْسَ مِنْهُ بَدُءٌ. وَاخْتَارَ هَذَا أَيْضاً ابْنَ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَلَمْ يَخْلِكْ غَيْرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولّجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت ضاقت ذراعاً به، ولم تدر

(١) يشير المصنف لحديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري ٢٢٣٧ ومسلم ١٥٦٧ وأبو داود ٣٤٨١ والترمذي ١٢٧٦ وابن ماجه ٢١٥٩ وأحمد ١١٩/٤ و١٢٠ وابن حبان ٥١٥٧ ولغظه النبي رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن.

(٢) هو متلفى عن أهل الكتاب، لا حجة فيه البتة.

ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدّقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرّها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا - عليه السلام - كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعزيت يا مريم أي حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أي حبلى؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجدّ الذي في بطنها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يُعظّمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعا، كما سجّد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام. ولكن حُرّم في ملتنا هذه، تكميلاً لتعظيم جلال الربّ تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرىء على الحارث بن مسكين وأنا أسمع: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك - رحمه الله - : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى - عليه السلام - لأن الله جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى - عليه السلام - فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿١٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاشِ إِذْ يَجْعَزُ الْخَلْدُ﴾، فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٣٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الْأُطْفَلَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَوْنًا الْمُظَلَّرَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]. فهذه الفاء للتعقيب بحسبها.

[٤٤٧٢] وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً^(١). وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنْ سَكَّاءَ مَاءٍ فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمّل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراياتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى يقل بطنها ويكره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرّفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره، لا يستطيع صرّفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سألتك عن أمر فلا تعجلي عليّ. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون شجر قط من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - وفهمت ما أشار إليه - : أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب، وزرع من غير بذر» فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر. «وهل يكون ولد من غير أب»، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدّقها، وسلّم لها حالها. ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالرّبية، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يزوها. قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملاّت قلبتها ورّجعت استمسكّ عنها الدم، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحّم وتغيّر اللون حتى فطّر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما

(١) مراده «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة...» الحديث أخرجه البخاري، وتقدم.

دَخَلَ عَلَى آلِ زَكَرِيَّا، وَشَاعَ الْحَدِيثُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا صَاحِبُهَا يُوسُفُ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا فِي الْكَنِيسَةِ غَيْرُهُ، وَتَوَارَتْ مِنَ النَّاسِ، وَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ وَلَا تَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاشِئُ لَكَ جِنْعَ النَّخْلِ﴾، أَي: فَاضْطَرَّهَا وَالْجَاهُ الطَّلُقُ إِلَى جَذَعِ النَّخْلَةِ، وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتُ إِلَيْهِ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السَّدِّيُّ: كَانَ شَرْقِيَّ مَحْرَابِهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُتَيْبَةَ: ذَهَبَتْ هَارِيَّةً، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ ضَرَبَهَا الطَّلُقُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: بَيْتُ لَحْمٍ.

[٤٤٧٣] قلت: وقد تقدّم في حديث الإسراء، من رواية النسائي عن أنس - رضي الله عنه - والبيهقي عن شداد بن أوس - رضي الله عنه -: أن ذلك بيت لحم^(١). فالله أعلم. وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تُشكُّ فيهِ النَّصَارَى أَنَّهُ بَيْتُ لَحْمٍ، وَ [قد] تلقاه الناس. وقد وُزِدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتَبْتَلَى وَتَمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ، الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبِعَدَمِ كَانَتِ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً، تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَطْفُونَ عَاهِرَةَ زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾، أَي: قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، أَي: لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السَّدِّيُّ: قَالَتْ وَهِيَ تُطَلَّقُ مِنَ الْحَبْلِ، اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْكَرْبِ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَالْحَزَنَ بَوْلَادَتِي الْمَوْلُودِ مِنْ غَيْرِ بَغْلٍ ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، نَسِيٌّ فَتَرَكَ طَلْبَهُ، كَخَرَقِ الْحَيْضِ الَّتِي إِذَا أُلْقِيَتْ وَطُرِحَتْ لَمْ تُطَلَّبْ وَلَمْ تُذَكَّرْ. وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ نَسِيٌّ وَتَرَكَ فَهُوَ نَسِيٌّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، أَي: شَيْئًا لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذَكَّرُ وَلَا يُذَرَى مِنْ أَنَا. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَكَنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ هُوَ السَّقَطُ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَمْ أَكُنْ شَيْئًا قَطُّ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ إِلَّا عِنْدَ الْفِتْنَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاحِيْنَ﴾.

﴿فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِنْعَ النَّخْلَةِ سَلْقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جِينًا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

قرأ بعضهم: «مَنْ تحتها» بمعنى الذي تحتها. وقرأ آخرون «بِن تَحِيَّهَا»، على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك، مَنْ هُوَ؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس «فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا»: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقَتَادَةُ: إِنَّهُ الْمَلَكُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَي: نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَيْهَا مِنْ تَحِيَّهَا﴾، قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ ابْنُهَا. وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ ابْنُهَا^(٢)، قَالَ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: وَاخْتَارَهُ ابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾، أَي: نَادَاهَا قَائِلًا: لَا تَحْزَنِي، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ

(١) تقدم في سورة الإسراء كما ذكر المصنف.

(٢) الراجح ما قاله ابن عباس وغيره، والله أعلم.

سَرِيًّا»، قال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: «قَدْ جَمَلَ رَبُّكَ مَحَنَكَ سَرِيًّا»، قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السَّرِيُّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تَشْرَبُ منه. وقال مجاهد: هو النهر، بالسريانية. وقال سعيد بن جبيرة: السَّرِيُّ: النهر الصغير بالْبَطِيَّةِ، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيم التَّخَمِيُّ: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال وهب بن مُنْبَه: السَّرِيُّ: هو رَبِيعِ الماء. وقال السدي: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير.

[٤٤٧٤] وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابتلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سَمِعْتُ ابن عمر - رضي الله عنه - يقول: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لِمَرْيَمَ: «قَدْ جَمَلَ رَبُّكَ مَحَنَكَ سَرِيًّا»، نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لِتَشْرَبَ مِنْهُ»^(١). وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحُبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضَعِيفٌ. وقال أبو زُرْعَةَ. منكر الحديث، وقال أبو الفتح الأزدِيُّ: متروك الحديث. وقال آخرون: المراد بالسَّرِيُّ عيسى عليه السلام، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر: وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: «وَهَرِيَّ إِلَيْكَ يَجْنَعُ أَلْتَلَخَذَ»، أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مشمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثوري، عن أبي داود نفيح الأعمى: كانت صَرْفَانَةً. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن مُنْبَه. ولهذا امتن عليها بذلك أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: «تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا» ﴿٢٥﴾ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَفَرِحْ عَيْتًا»، أي: طيبي نفساً. ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

[٤٤٧٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْرَمُوا عَمَتَكُمْ النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلَقَّحُ غيرها، وقال رسول الله ﷺ: أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطباً فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران»^(٢). هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان به.

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٣٣٠٣ من حديث ابن عمر، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١١١٥٦ بضعف يحيى بن عبد الله البابتلي أنه وله علة ثانية وهي ضعف أيوب بن نهيك، بل هو متروك.

ورود من حديث البراء بن عازب أخرجه الطبراني في «الضعيف» ٦٨٥ وقال الهيثمي ١١١٥٥: فيه معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف أنه. وله علة ثانية بقية بن الوليد مدلس، وقد عنعن، وفيه سعيد بن سنان فيه ضعف، والأشبه في هذا كونه عن ابن عباس، وغيره كما تقدم، والله أعلم.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه أبو يعلى ٤٥٥ وابن حبان في «المجروحين» ٤٤/٣ وأبو نعيم ١٢٣/٦ وابن عدي ٤٣١/٦ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٨٤/١ وأعله الهيثمي في «المجمع» ٨٩/٥ بمسرور بن سعيد، وهو ضعيف أنه وقال ابن حبان: يروي عن الأوزاعي المناكير، وحكم ابن الجوزي بوضعه، وللحديث علة ثانية: عروة بن رويم عن علي منقطع، والله أعلم.

وقرأ بعضهم: «تَسَاقُطُ»، بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نهيك: «تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا»، وروى أبو إسحاق، عن البراء: أنه قرأها «تَسَاقُطُ»، أي: الجذع؛ والكل متقارب.

وقوله تعالى: ﴿فَمِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أُمَّةٌ﴾، أي: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسِيَاتٍ﴾، والمراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي، لثلا ينافي ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسِيَاتٍ﴾. قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾، أي: صمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفي رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليه الطعام والكلام، نص على ذلك السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: خلف الأيكلم الناس اليوم. قال عبد الله: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَا تَحْزَنِينَ﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟ لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام، ﴿فَمِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أُمَّةٌ فَلَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسِيَاتٍ﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلاً﴾ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَذُونَ مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بِنِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بخجتها فسلمت لأمر الله - عز وجل - واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلاً﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها. قال: وكانت من أهل بيت نبوة وشرف، فلم يحسوا منها شيئاً، فرأوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعتها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة سجداً نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، أمراً عظيماً. ﴿يَتَّخِذَ هَذُونَ﴾، أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بِنِيًّا﴾، أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك. قال علي بن أبي طلحة، والسدي: قيل لها: ﴿يَتَّخِذَ هَذُونَ﴾، أي: أخي موسى، وكانت من نسله،

كما يقال للتيمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر. وقيل: نُسِبَتْ إلى رَجُلٍ صالح كان فيهم اسمه هارون، وكانت تُقاس به في العبادة والزهادة. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شَبَّهُوا بِرَجُلٍ فَاجِرٍ كان فيهم، يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْهَيْسَنَجَانِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا الْمُفْضَلُ - يَعْنِي ابْنَ قُضَّالَةَ - حَدَّثَنِي أَبُو صَخْرٍ، عَنِ الْقُرْظِيِّ، فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿يَتَأَخَّتْ هَنُورًا﴾، قَالَ: هِيَ أُخْتُ هَارُونَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَهِيَ أُخْتُ مُوسَى أَخِي هَارُونَ الَّتِي قُصَّتْ أَمْرُ مُوسَى، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ. عَنْ جُنْحٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]. وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأً مُحَضَّرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ قَفَى بَعِيسَى بَعْدَ الرَّسْلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ بَعَثًا، وَلَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

[٤٤٧٦] وللهذا ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه ليس بيني وبينه نبي»^(١)، ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي لم يكن متأخرًا على الرسل سوى محمد، ولكان قبل سليمان وداود؛ فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى - عليهم السلام - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِ مَوْسَى إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ لَبِئْسَ مَا كُنَّا فَعَلْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ دَاوُدُ جَالُوتًا﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١]... الآية. والذي جَرَأَ الْقُرْظِيُّ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مَا فِي التَّوْرَةِ بَعْدَ خُرُوجِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْبَحْرِ، وَإِعْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، قَالَ: «وَكَانَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مُوسَى وَهَارُونَ النَّبِيِّينَ تَضَرَّبُ بِالذُّفِّ هِيَ وَالنِّسَاءُ مَعَهَا يُسَبِّحُنَ اللَّهَ وَيَشْكُرُنَّهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ». فَاعْتَقَدَ الْقُرْظِيُّ أَنَّ هَذِهِ هِيَ أُمُّ عِيسَى. وَهِيَ مَهْوَةٌ وَغُلَطَّةٌ شَدِيدَةٌ، بَلْ هِيَ بِاسْمِ هَذِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

[٤٤٧٧] حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ، سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وائِلٍ، عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى نَجْرَانَ، فَقَالُوا: أَرَأَيْتَ مَا تَقْرَؤُونَ: ﴿يَتَأَخَّتْ هَنُورًا﴾، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: «إِلَّا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»^(٢). انفرد بإخراجه مسلمٌ والترمذي والنسائي، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سِمَاكِ، به. وقال الترمذي: «حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس». وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَلِيَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي صَدَقَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: بُنِيَ أَنَّ كَعْبًا قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَتَأَخَّتْ هَنُورًا﴾. لَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَى. قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: كَذَبْتَ. فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَهُ فَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ، وَإِلَّا فَإِنِّي أَجِدُ بَيْنَهُمَا سِتْمَةً سَنَةً. قَالَ: فَسَكَتَتْ^(٣). وَفِي هَذَا التَّارِيخِ نَظَرٌ.

وقال ابن جرير أيضاً: حَدَّثَنَا بَشْرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: ﴿يَتَأَخَّتْ هَنُورًا مَا كَانَ أُولَوِ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَيْتًا﴾، قَالَ: كَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ يَعْرِفُونَ بِالصَّلَاحِ وَلَا يَعْرِفُونَ بِالْفَسَادِ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْرِفُونَ بِالصَّلَاحِ وَيَتَوَالِدُونَ بِهِ، وَآخَرُونَ يَعْرِفُونَ بِالْفَسَادِ وَيَتَوَالِدُونَ بِهِ. وَكَانَ هَارُونَ مُصْلِحًا مُحِبًّا فِي عَشِيرَتِهِ، وَلَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَى، وَلَكِنَّهُ هَارُونَ آخِرُ، قَالَ: وَذَكَرْنَا أَنَّهُ شَبَّعَ جَنَازَتَهُ يَوْمَ مَاتَ أَرْبَعُونَ

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٥٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٣٥ والترمذي ٣١٥٥ والنسائي في الكبرى ١١٣١٥ وأحمد ٢٥٢/٤ والطبري ٢٣٦٩١.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٦٨٩ بإسناد ضعيف لانقطاعه، حيث فيه لفظ «بُئِيت».

ألفاً، كلهم يُسَمَّى هارونَ، من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٧)، أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قصتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها وزنيها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمكين بها، ظانين أنها تزكري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قالت: كلّموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا! وقال السدّي: لما أشارت إليه غَضِبُوا، وقالوا: لَسُخْرِئِهَا بِنَا حِينَ تَأْمُرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاهَا. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿قَالَ إِنْ عَبْدُ اللَّهِ﴾، أوّل شيء تكلم به أن نَزَّهَ جناب ربه تعالى، وبَرَأَ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبوديّة لربه. وقوله: ﴿ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تيرته لأمه مما نسبت إليه من الفاحشية. قال نَوْفُ الْبِكَالِيُّ: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديّه، فنزَعَ الثدي من فمّه، وأثكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿إِنْ عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البناني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبيه، وهو يقول: ﴿إِنْ عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. . . الآية. وقال عكرمة: ﴿ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، أي: قضى أن يؤتيني الكتاب فيما قضى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصطفى، حدثنا يحيى بن سعيد - هو العطار - عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عيسى ابن مريم قد دَرَسَ الإنجيل وأحكمه وهو في بطن أمه، فذلك قوله: ﴿ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١). يحيى بن سعيد العطار الجمصي متروك.

وقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾، قال مجاهد، وعمر بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً. وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي، سمعتُ وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذي أعلين من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾، قيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان. وقوله: ﴿وأوصني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وأوصني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾، قال: أخبره ما هو كائن من أمره حتى يموت، ما أنبتها لأهل القدر. وقوله: ﴿وبيراً بلادي﴾، أي: وأمرني ببرّ والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه، لأنه تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال: ﴿وقصص ربك ألا تعدوا إلا آياته وآلوالدين أحسنآ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾، أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبرّ والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يُقْبَلُ على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وبيراً بلادي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ (٢٧)، قال: ولا تجد سيئة الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وما ملكك أينكلم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ [النساء: ٣٦].

(١) لا يصح عن أنس، وهو من منكرات يحيى بن سعيد العطار، فقد روى موضوعات ومناكير، وشيخه مجهول، ولم يدرك أنساً، وهو ظاهر البطلان.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يُحيي الموتى ويُبْرِئ الأكمّة والأبرص، في آيات سَلَطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حَمَلَك والثدي الذي أَرْضَعْت به. فقال نبي الله عيسى - عليه السلام - يُجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله، فأتبع ما فيه، ولم يكن جبّاراً شقيّاً. وقوله: ﴿وَأَلْسَلَكُمْ عَلَى يَوْمِ وُلْدِكُمْ وَيَوْمِ أُمُوتِكُمْ وَيَوْمِ أَمْتِكُمْ حَيًّا ۝٣٤﴾: إثبات منه لعبوديته لله - عز وجل - وأنه مخلوق من خلق الله، يحيي ويموت ويُبْعَث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصنا عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يختلف المُبْطِلُونَ والمُحِقُّون ممن آمن به وكفّر به، ولهذا قرأ الأكثرون: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾. والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرُونَ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ۝٤٧﴾ [البقرة: ١٤٧]. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾، أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِنَّمَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمُر به، فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٥١﴾ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرُونَ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ۝٤٧﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾، أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهديه، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربّه وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، من أتبعه رشداً وهدياً، ومن خالفه ضلّ وغوى. وقوله: ﴿فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنيّة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقاتدة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتمروا في عيسى حين رُفِع، فقال أحدهم: هو الله مَبْطُ إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء. وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه. قال: هو ابن الله. وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنتين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله. وهم الإسرائيلية ملوك النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فافتتلوا، فظهر على

المسلمين، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَفُّوا عَلَى الدِّبْرِ بِأَمْشُورٍ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عُرْوَةَ بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جَمَعَهُمْ فِي مَحْفَلٍ كَبِيرٍ مِنْ مَجَامِعِهِمُ الثَّلَاثَةَ الْمَشْهُورَةَ عِنْدَهُمْ، فَكَانَ جَمَاعَةَ الْأَسَاقِفَةِ الْفَيْنِ وَمِنَّةً وَسَبْعِينَ أَسْقِفًا، فَاخْتَلَفُوا فِي عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا جَدًّا، فَقَالَتْ كُلُّ شَرْمِزَةٍ فِيهِ قَوْلًا، فَمِنَّةٌ تَقُولُ فِيهِ قَوْلًا، وَسَبْعُونَ تَقُولُ فِيهِ قَوْلًا آخَرَ، وَخَمْسُونَ تَقُولُ فِيهِ شَيْئًا آخَرَ، وَمِنَّةٌ وَسْتُونَ تَقُولُ شَيْئًا، وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى مَقَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ وَثَمَانِيَةَ مِنْهُمْ، انْفَقُوا عَلَى قَوْلٍ وَصَمُّوا عَلَيْهِ، وَمَالَ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ، وَكَانَ فِيلَسُوفًا، فَقَدِمَهُمْ وَنَصَرَهُمْ وَطَرَدَ مِنْ عِدَاهِمُ، فَوَضَعُوا لَهُ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ، بَلْ هِيَ الْخِيَانَةُ الْعَظِيمَةُ، وَوَضَعُوا لَهُ كِتَابَ الْقَوَانِينِ، وَسَرَّعُوا لَهُ أَشْيَاءَ، وَابْتَدَعُوا بِدَعَا كَثِيرَةٍ، وَحَرَّفُوا دِينَ الْمَسِيحِ وَغَيَّرُوهُ، فَابْتَدَى لَهُمْ حَيْثُذَ الْكِنَانِسُ الْكِبَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ كُلِّهَا: بِلَادِ الشَّامِ، وَالْجَزِيرَةِ، وَالرُّومِ، فَكَانَ مَبْلَغُ الْكِنَانِسِ فِي أَيَّامِهِ مَا يَقَارِبُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ، وَبِنْتُ أُمِّهِ هِيلَانَةُ قَمَامَةٌ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ الْمَصْلُوبُ الَّذِي تَزْعُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ الْمَسِيحُ، وَقَدْ كَذَّبُوا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديدٌ ووعدٌ شديدٌ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَافْتَرَى، وَزَعَمَ أَنْ لَهُ وَلَدًا. وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَجَلَهُمْ جِلْمًا وَثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ:

[٤٤٧٨] «إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلِمُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَسِيُّ وَهِيَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَخَذَهُ أَيْمٌ شَدِيدٌ﴾ (١) [هود: ١٠٢].

[٤٤٧٩] وفي الصحيحين أيضاً، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا أَحَدٌ أَصْبِرُ عَلَى أَدْتِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنْهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٢)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ أَنْ يَنْ قَرِيْبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِنَّ الْمَصِيرَ﴾ (٣) [الحج: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيْلًا عَمَّا يَفْعَلُونَ إِنَّهَا يُوَفِّرُهُمْ يَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤) [إبراهيم: ٤٢]، وَلِهَذَا قَالَ هَا هُنَا: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أَي: يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٤٤٨٠] وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عَيْسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» (٥).

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٨)

(١) وتقدم الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٧١.

يقول تعالى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرِيُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يُجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿اتَّبِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ﴾، أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿لَكِنَّ الْغَالِبُونَ الْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا ﴿فِي صَلَائِلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لا يسمعون ولا يُبصرون ولا يَعْقِلُونَ، فحيث يُطَلَّبُ منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مُطِيعِينَ حيث لا ينفعهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ﴾، أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مُخَلِّدًا فيه، ﴿وَمَ﴾، أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به، ﴿وَمَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يُصَدِّقُونَ به.

[٤٤٨١] قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْرِي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يُجاء بالموت كأنه كبش أَمْلَحٌ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَمَ فِي غَفْلَةٍ﴾، وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»^(١). هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، من حديث الأعمش. به. ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفي سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحوه. وهو في الصحيحين عن ابن عمر. ورواه ابن جريج قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يوتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون.

وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل: حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة. فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أذعه الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمتم وعملمت صالحاً، كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة. فتأخذهم الحسرة، قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار. فيقال: لولا أن من الله عليكم. وقال السدي. عن زياد، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتى بالموت في صورة كبش أَمْلَحٌ، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مُنَادٍ: يا أهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُمِيتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا تنظر إليه، ثم ينادي: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يُمِيتُ الناس في الدنيا. فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا تنظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٩/٣. وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ وأبو يعلى ١٠٧٥ والبيهقي في «البعث» ٥٨٤ من طرق عن الأعمش به بنحوه. وفي الباب من حديث أبي هريرة عند الترمذي ٢٥٥٧ وابن ماجه ٤٣٢٧ وأحمد ٢٦١/٢ وابن حبان ٧٤٥٠. ومن حديث ابن عمر عند البخاري ٦٥٤٤ و٦٥٤٨ ومسلم ٢٨٥٠ وأحمد ١١٨/٢ وابن حبان ٧٤٧٤.

يُنَادَى: يا أهل الجنة، هو الخلودُ أبدَ الأبدِين، ويا أهل النار، هو الخلودُ أبدَ الأبدِين. فَيُفْرَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحَةً لو كان أحدٌ ميتاً من فرح مائتوا، وَيَشْهَقُ أَهْلُ النَّارِ شَهَقَةً لو كان أحدٌ ميتاً من شَهَقَةٍ مائتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْقَسْرِ إِذْ يَقُولُ لِأَمْرٍ﴾، يقول: إذ ذُبِحَ الموت. رواه ابنُ أبي حاتم في تفسيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْقَسْرِ﴾، من أسماء يوم القيامة، عَظَمَهُ اللهُ وَحَدَّرَهُ عِبَادَهُ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْقَسْرِ﴾، قال: يومُ القيامة، وَقَرَأَ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّرْتُ فِي حُجُبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْحِمُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالقُ المالكُ المتصرفُ، وأنَّ الخلقَ كُلَّهُمْ يَهْلِكُونَ ويبقى هو - تعالى وتقدس - ولا أحدٌ يَدْعِي مُلْكاً ولا تَصْرُفاً، بل هو الوارثُ لجميعِ خلقه، الباقي بعدهم، الحاكمُ فيهم، فلا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً ولا جَنَاحٌ بَعْضِيَّةً ولا يُثْقَلُ ذَرَّةً.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هُدْبَةُ بن خالد القيسي: حدثنا حَزْمُ بن أبي حَزْمِ القُطَعي قال: كتب عُمَرُ بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعدُ فإن الله كَتَبَ على خَلْقِهِ حين خَلَقَهُم الموت، فَجَعَلَ مَصِيرَهُم إليه، وقال فيما أنزَلَ في كتابِهِ الصَّادِقِ الذي حَفَظَهُ بِعِلْمِهِ، وأشهد ملائِكَتَهُ على خلقه: إنه يرث الأرضَ ومن عليها، وإليه يُرْجَعُونَ.

﴿وَأَذَكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴿٤١﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

يقولُ تعالى لنبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَذَكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واثله على قويمك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكُرْ لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذُرِّيَّتِهِ، ويَدْعُونَ أَنَّهُمْ على ملته، وَقَدْ كان صِدِّيقاً نَبِيًّا مع أبيه، كيف نَهَاهُ عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾، أي: لا يَنْفَعُكَ ولا يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرراً. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾. يقول: فإن كنت من صُلبِكَ وَتَرَى أَنِي أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أَنِي قد أطلعت من العلم من الله على ما لم تَعْلَمْ أنت ولا أطلعت عليه ولا جاءك بعدُ، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً مُوصِلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، أي: لا تُطِعه في عبادتِكَ هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضِي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنُؤْمِنُ بِهِ وَإِنْ يُدْعُونَ إِلَّا لِنُؤْمِنُ بِهِ وَإِنْ يُدْعُونَ إِلَّا لِنُؤْمِنُ بِهِ وَإِنْ يُدْعُونَ إِلَّا لِنُؤْمِنُ بِهِ﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾، أي: مُخَالَفاً مستكبراً عن طاعة رَبِّهِ، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فلا تُشَبِّهه بغيرِ مثله. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أي: على شركك وعصيانك لما أمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصرٌ ومغيثٌ إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمورِ شِيءٌ، بل اتباعك له موجبٌ لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِئَاناً لِمَنْ الشَّيْطَانُ أَهْلَاهُمْ فَهُوَ وَرِثُهُمْ أَلِيمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَبْنَؤُهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَيْلًا﴾ (٤٦) ﴿قَالَ سَلَّمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧) ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دَعَاهُ إليه أنه: ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ﴾ يعني إن كنت لا تُريدُ عبادتها ولا تُرضَاهَا؟ فانتَه عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتكَ وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾، قاله ابنُ عباس، والسدي، وابنُ جرير، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَيْلًا﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعني دهرأ. وقال الحسنُ البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَيْلًا﴾، قال: أبدأ. وقال علي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَيْلًا﴾، قال: سويأً سالماً قبل أن تصيبك مني عُقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة، وعطية الجذلي، وأبو مالك، وغيرهم. واختاره ابن جرير. فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَلِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِذَا سَمِعُوا اللَّفْظَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) [القصص: ٥٥]. ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ﴾، يعني: أما أنا فلا ينالك مِنِّي مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، أي: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويعفِرَ ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾. قال ابنُ عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له، وقال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، قالوا: عَوْدَةُ الإِجَابَةِ. وقال السدي: «الحفي» الذي يَهْتَمُّ بأميره.

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مُدَّةً طويلةً، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِ وَإِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ مِنَ الدُّهُورِ وَالْبُغْيَاءِ أَبْدًا حَتَّى تَقُومُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن قَوْلٍ ﴿المتحنة: ٤﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أفلح عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْسَبُ لِلْجَحِيمِ﴾ (١١٦) ﴿وَمَا كَانَتِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٧) [التوبة: ١١٣ - ١١٤]، وقوله: ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن الهتك التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى» هذه مُوجِبَةٌ لا مُحَالَةٌ فإنه - عليه السلام - سيّد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّمْنَا نَبِيًّا﴾ (٤٩) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن

رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمُ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ (٥٠) ﴿

يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله أبدله الله من هو خيرٌ منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب،

يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ وَدَّوِّهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِسِنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِزْمِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكرها هنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نُبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضًا.

[٤٤٨٢] كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سُئِلَ عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله»^(١).

[٤٤٨٣] وفي اللفظ الآخر: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ يَوْسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»^(٢). وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الشفاء الحسن. وكذا قال السدي، ومالك بن أنس. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيمًا﴾، لأن جميع الليل والأديان يُشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا مَخْلُصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأتى عليه عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا مَخْلُصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. قال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي لُبَابَةَ قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمدَهُ النَّاسُ. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مُصْطَفَى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، جَمَعَ اللهُ له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾، أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانبه الأيمن من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدتها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غزيبه عند شاطئ الوادي. فكلمه الله تعالى، وناداه وقربه فناجاه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى - هو القَطَّان - حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن عباس: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، قال: أذني حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، قال: نجا بصدقه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبيه وأصله، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرَّب اللهُ موسى نَجِيًّا بطور سيناء، قال: يا موسى،

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٤.

(٢) أيضًا تقدم في تفسير سورة يوسف.

إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تُعِينُ على الخير فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه [هذا] فلم أفتح له من الخير شيئاً. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِنَا لَأَخَذَهُنَّ مِنْكَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ ، أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مِنْهُ رِذَاءً يَصْدَقُونَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوْتِيتَ شَوْكًا يَمْشُونَ﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾ وَكَمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ فَاخَاؤُ أَنْ يَقْتُلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣ - ١٤]. ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعَةً في الدنيا أعظم من شفاعَةِ موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِنَا لَأَخَذَهُنَّ مِنْكَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾. قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّةَ، عن داودَ، عن عكرمة قال: قال ابن عباس قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِنَا لَأَخَذَهُنَّ مِنْكَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد، وهب له نبوته. وقد ذكره ابن أبي حاتم مُعلِّقاً، عن يعقوب - وهو ابن إبراهيم الدوزقي - به.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وهو والد عَزَبِ الحجاز كلَّهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. قال ابن جرير: لم يعذر ربُّه عدَّةً إلا أنجزها. يعني ما التزم عبادةً قَطُّ بِبَدْرٍ إلا قام بها، ووقَّاهَا حَقَّهَا. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدَّثه: أن إسماعيل النبي - عليه السلام - وَعَدَ رَجُلًا مكاناً أن يأتيه فيه، فجاء ونسي الرجل، فظَلَّ به إسماعيل ويات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما بَرِحْتَ من ها هنا؟ قال: لا. قال: إني نسيْتُ. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني. فلذلك: ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾. وقال سفيان الثوري: بَلَغَنِي أَنَّهُ أَقَامَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ يَنْتَظِرُهُ حَوْلًا حَتَّى جَاءَهُ. وقال ابن شوذب: بَلَغَنِي أَنَّهُ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ سَكَنًا.

[٤٤٨٤] وقد روى أبو داود في سنَّته، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق»، من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بُدَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عن عبد الكريم - يعني ابن عبد الله بن شقيق - عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسولَ الله ﷺ قبل أن يُبعَثَ فَبَيَّضَتْ لَهُ عَلِيٌّ بِقِيَّةٍ، فوعده أن آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث، وهو في مكانه ذلك، فقال لي: يا فتى، لقد شققت عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرُك^(١). لفظ الخرائطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك. ورواه ابن منْذَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ»، بِإِسْنَادِهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمَانَ، عَنْ بُدَيْلِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ، بِهِ.

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ. فَصَدَّقَ الْوَعْدَ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كَمَا أَنَّ خُلْفَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَمْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[٤٤٨٥] وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود ٤٩٩٦، ومداره على عبد الكريم بن عبد الله العقيلي. ذكره الذهبي في الميزان ٥١٦٢ فقال: لا يعرف، وقال عنه الحافظ في التقریب: مجهول، وفي هذا المتن نكارة.

خَانَ^(١). ولما كانت هذه صفات المنافقين، كَانَ التلبس بِضَدِّهَا من صفاتِ المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إِسْمَاعِيلَ بِصِدْقِ الوعد، وكذلك كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلا وَفَى لَهُ بِهِ.

[٤٤٨٦] وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: حَدَّثَنِي فَصَّدَّقَنِي، ووَعَدَنِي فَوَفَى لِي^(٢).

[٤٤٨٧] ولما ثُوِّفِي النَّبِيَّ ﷺ قَالَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: من كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دِينٌ فَلْيَأْتِنِي أَنْجِزْ لَهُ. فَجَاءَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَالَ: «لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - يَعْنِي مِثْلَهُ كَعَيْنِهِ - فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ الصِّدِّيقُ جَابِرًا بِغَرْفِ بِيَدِهِ مِنَ الْمَالِ، ثُمَّ أَمَرَ بِعَدْوِهِ، فَإِذَا هُوَ خُمْسَمَةٌ دَرَاهِمَ، فَأَعْطَاهُ بِمِثْلِهَا مَعَهَا^(٣)».

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، في هذا دلالة على شَرَفِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا وُصِفَ بِالنَّبُوَّةِ فَقَطْ، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ بِالنَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

[٤٤٨٨] وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ^(٤)». وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ، فَذَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: هذا أيضاً من الثناء الجَمِيلِ، وَالصِّفَةُ الْحَمِيدَةُ وَالْخَلَّةُ السُّدِيدَةُ، حَيْثُ كَانَ مُثَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرًا بِهَا أَهْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَلِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَكْبِرْ رِزْقًا مِمَّنْ رَزَقَكَ وَالْمَنْعِبَةَ لِتَقْرَأَ﴾ [طه: ١٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَرَأَ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦]... الآية، أَي: مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا تَدْعُوهُمْ فَمَمَلًا فَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٤٤٨٩] وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَبْقِظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَجِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَبْقِظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ^(٥)». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ.

[٤٤٩٠] وعن أبي سعيد، وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَبْقِظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلِّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ^(٦)». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَاللَّفْظُ لَهُ.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِذْ رَسَّ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

(١) تقدم.

(٢) صحيح - أخرجه البخاري ٣٧٢٩ من حديث المسور بن مخرمة.

(٣) لم أراه بعد، فليظنر.

(٤) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

(٥) جيد - أخرجه أبو داود ١٣٠٨ والنسائي ٢٠٥/٣ وابن ماجه ١٣٣٦ وأحمد ٢٥٠/٢ و٤٣٦ وابن حبان ٢٥٦٧ والبيهقي ٢/١٠١ وصححه الحاكم ٣٠٩/١ ووافقه الذهبي، وإسناده قوي.

(٦) جيد - أخرجه أبو داود ١٣٠٩ والنسائي في الكبرى ١٣١٠ وابن ماجه ١٣٣٥ وابن حبان ٢٥٦٨ والبيهقي ٥٠١/٢ وإسناده صحيح، صححه الحاكم ٣١٦/١ ووافقه الذهبي، وانظر «صحيح أبي داود» ١١٦٣.

وهذا ذِكْرُ إدریسَ - عليه السلام - بالثناء عليه، بأنه كان صِدِّيقاً نَبِيّاً، وأن الله رَفَعَهُ مَكَاناً عَلِيّاً.

[٤٤٩١] وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرَّ به ليلة الإسراءِ وهو في السماء الرابعة^(١).

وقد روى ابنُ جريرٍ ما هنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابنُ عباس كعباً وأنا حاضر، فقال له: ما قولُ الله - عزَّ وجلَّ - لإدریس: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾؟ فقال كعب: أما إدریسُ فإن الله أوحى إليه أني أرفعُ لك كلَّ يومٍ مثلَ عملِ جميعِ بني آدم. فأحبُّ أن يزيداد عملاً. فاتاه خليلٌ له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليَّ كذا وكذا، فكلمتُ لي ملك الموت، فليؤخرني حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت مُتَحَدِّراً، فكلمتُ ملك الموت في الذي كلمه فيه إدریس، فقال: وأين إدریس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجبُ. بُعثتُ وقيل لي: اقبض روح إدریس في السماء الرابعة: فجعلت أقول: فكيف أقبضُ روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبضُ روحه هناك. فذلك قولُ الله: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾. هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. وقد رواه ابنُ أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: «أنه سأل كعباً... فذكر نحو ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله - يعني ملك الموت - كم بقي من أجلي؟ لكي أزداد من العمل... وذكر باقيه، وفيه أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتى أنظر، فنظر ثم قال: إنك تسألني عن رجلٍ ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدریس، فإذا هو قد قبض عليه السلام، وهو لا يشعر به. ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدریس كان خياطاً، فكان لا يفرغُ إبرةً إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسي حين يمسي، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقية كالذي قبله، أو نحوه.

وقال ابنُ أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾، قال: إدریسُ رُفِعَ ولم يَمُتْ، كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾ قال: السماء الرابعة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾، قال: رُفِعَ إلى السماء السادسة فمات بها، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال الحسن، وغيره، في قوله: ﴿رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ۝٥٧﴾، قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمُ الرِّحْمَانُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا ۝٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾... الآية. قال السدي وابن جرير: فالذي عُني به من ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِبْرَاهِيمَ، والذي عُني به من ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عُني به من ذُرِّيَةِ إِسْرَائِيلَ موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: «ولذلك فُرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأنَّ فيهم من ليس من ولد مَنْ كان مع نوح في السفينة، وهو إدریس، فإنه جدُّ نوح». قلت: هذا هو الأظهر أنَّ إدریسَ في عمود نَسَبِ

نوح عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ:

[٤٤٩٢] «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»^(١) ولم يقل: والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن عمرو أن إدريس أقدم من نوح، بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شأوا، فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل. ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَذَلِكَ حُجَّتًا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَذَكَرْنَا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَمِن آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَأَجْيَابَهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آفْتَدَ قُلُوبُهُمْ لَمْ يَأْمُرْكَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ أَن يَفْعَلُوا فَرَضًا فَرِيقًا كَرِيمًا ﴿٩٠﴾﴾، وقال سبحانه تعالى: ﴿يُنْفِرُ مَن قَضَيْنَا عَلَيْكَ وَإِن تَقْصُصْ عَلَيْهِمْ مِّن مِّن قَصِّ مِمَّا قَدْ نَسُوا لَيُبْغِضَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن نَقَصْتُمُ الْقَصَصَ أَن يَكُونَ لَهُمْ آيَاتٍ فَذَكَّرْتُمُوهَا وَأَعْلِمُ لِمَ يَكْفُرُونَ الْكُفْرَ أَن لَّا يَعْلَمُونَ الْقَوْلَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي «ص» سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آفْتَدَ قُلُوبُهُمْ﴾، فنبهكم ممن أير أن يقتدي بهم، قال: وهو منهم. يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نُنزِّلُ الْكِتَابَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ لِّرَحْمَتِنَا وَأَعْلَامٍ لِّذِكْرٍ لِّلْقَوْمِ الَّذِي هَدَيْنَاهُمْ سَبِيلًا وَإِن تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَمَا يُحْيِي الْقُلُوبَ﴾، أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والبُكِّيُّ: جمع بك، فهذا أجمع العلماء على شرعية السجود لها هنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مغمّر، قال: قرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سورة مريم فسجد وقال: هذا السجود، فأين البُكِّيُّ؟ يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسقط من روايته ذكرُ أبي مغمّر - فيما رأيت - والله أعلم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظَلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر تعالى جزب السعداء، وهم الأنبياء - عليهم السلام - ومن أتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدِّين فرائض الله، التاركين لزواجه، ذكر أنه خَلَفَ ﴿مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ﴾، أي: قرون أخرى، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد. وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيَلْقَوْنَ غِيَاً، أي: خساراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ما هنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ وَالْأُمَّةِ كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، لحديث:

[٤٤٩٣] «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(١).

[٤٤٩٤] والحديث الآخر: «المعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(٢). وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُحَيِّمَةَ في قوله: «خَلَّفَ مِنْ بَدِيمٍ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ»، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كُفْراً. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن مسعود، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يُكْثِرُ ذِكْرَ الصَّلَاةِ فِي الْقُرْآنِ: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥٩﴾» [الماعون: ٥٩]، و«عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» [المعارج: ٢٣]، و«عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَاطَرُونَ» [المعارج: ٣٤]، فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الشرك؟ قال: ذلك الكفر. [و] قال مسروق: لا يحافظ أحدٌ على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي أفراطهن الهلكة. وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن. وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: «خَلَّفَ مِنْ بَدِيمٍ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً ﴿٥٩﴾»، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: «خَلَّفَ مِنْ بَدِيمٍ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّبَعُوا الشُّهُوتَ»، قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، يترؤ بعضهم على بعضهم في الأرزقة، وكذا روى ابن جريج، عن مجاهد، مثله. وروى جابر الجعفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة. يعثون في آخر الزمان. وقال ابن جريج: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: «خَلَّفَ مِنْ بَدِيمٍ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَأَتَّبَعُوا الشُّهُوتَ»، قال: هم في هذه الأمة، يترابون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض.

[٤٤٩٥] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقروا القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يتأكل به^(٣). وهكذا رواه أحمد، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به.

[٤٤٩٦] وقال ابن حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، عن مالك، عن أبي الرجال: أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصفة، وتقول: لا تعطوا منه بزبرياً ولا بزبرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: هم الخلف الذين قال الله تعالى: «خَلَّفَ مِنْ بَدِيمٍ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ»^(٤). هذا حديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١ وهو صحيح.

(٢) تقدم أيضاً في تفسير سورة النساء، وهو صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٣٨/٣ بهذا الإسناد، من حديث أبي سعيد، ورجاله ثقات كلهم سوى الوليد بن قيس، وثقه ابن حبان والمعجلي فقط وقال الحافظ في الترتيب: مقبول أه أي حيث يتابع. والغريب فيه ذكر «ستين سنة» ولباقه شواهد، والله تعالى أعلم.

(٤) إسناد ضعيف، والتين منكر، أخرجه الحاكم ٢/٢٤٤ ح ٢٩٦٣، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: عبيد الله - ابن عبد الرحمن بن موهب - مختلف في توثيقه، ومالك لا أعرفه، ثم هو منقطع أه فهذه علل ثلاث مع نكارة متنه، والظاهر أنه من وضع أحد دعاة الشعبيية.

عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حريز، عن شَيْخٍ من أهل المدينة: أنه سمع مُحَمَّد بن كعب القُرَظِيُّ يقول في قوله: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب، يملكون، وهم شُرٌّ من ملك.

وقال كعب الأحمار: والله إني لأجدُ صِفَةَ المنافقين في كتاب الله - عز وجل - شَرَّابِينَ لِلقَهَوَاتِ، تَرَائِكِينَ لِلصَّلَوَاتِ، لَعَابِينَ بِالكَعَبَاتِ، رُقَادِينَ عَنِ العَنَمَاتِ، مُفْرَطِينَ فِي العَدَوَاتِ، تَارِكِينَ لِلجُمُعَاتِ، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ (٥٩). وقال الحسنُ البصريُّ: عَطَلُوا المساجدَ ولَزَمُوا الضَّيْعَاتِ. وقال أبو الأشهب العَطَّارِدِيُّ: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داودُ، حَذِرْ وَأَنْذِرْ أصحابَكَ أَكَلْ الشَّهَوَاتِ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عُقِلها عَنِّي محجوبة، وإن أهونَ ما أصنعُ بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوةً من شهواته عَلَيَّ أن أُخْرِجه طاعتي.

[٤٤٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو السَّمْح السَّهْمِي، عن أبي قَبِيل، أنه سمع عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أخاف على أمتي اثنتين: القرآن واللبن، أما اللبن فيبْتَعُونَ الرِّيفَ، وَيَبْتَعُونَ الشهوات، ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»^(١). ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو قَبِيل، عن عُقْبَةَ، به مرفوعاً بنحوه. تفرد به.

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾، أي: خسراً. وقال قتادة: شراً. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي عُبَيْدَةَ، عن عبد الله بن مسعود: ﴿سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾، قال: وإد في جَهَنَّمَ، بعيدُ القعر، حَبِيبُ الطَّعْمِ. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿سَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾، قال: واد في جهنم من قَبِيحٍ وِدْمٍ.

[٤٤٩٨] وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زَبَّار، حدثنا شُرَيْقُ بن قَطَايِمٍ، عن لُقْمَانَ بن عامر الخَزَاعِيِّ قال: جئتُ أبا أَمَامَةَ صُدَيْي بن عَجَلَانَ البَاهِلِي فقلت: حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: لو أن صَخْرَةَ زِنَةٍ عَشْرَ أَوْاقٍ قُدِفَ بِهَا مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ ما بَلَغَتْ قَعْرَهَا خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غِيٍّ وأثام. قال: قلت: وما غِيٍّ وأثام؟ قال: بثران في أسفل جَهَنَّمَ، يسيل فيهما صديدُ أهل النار، وهما اللتان ذَكَرَ اللهُ في كتابه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾. وقوله في الفرقان: ﴿وَلَا يَزُولُكُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٢) [الفرقان: ٦٨]. هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعه منكرٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: إلا من رَجَعَ عن تَرْكِ الصلواتِ واتباعِ الشهواتِ فإن الله يتقبلُ تَوْبَتَهُ، وَيُحَسِّنُ عاقبته، ويجعله من وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم. ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظَلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها.

(١) أخرجه أحمد ١٥٦/٤ ٢٧٤/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٨٧/١ وقال: وفيه ذراج أبو السمح، وهو ثقة مختلف في الاحتجاج به اهـ، وأخرجه أحمد ١٥٥/٤ وأبو يعلى ١٧٤٦ من وجه آخر بنحوه وإسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة. وأخرجه الحاكم ٣٧٤/٢ من وجه آخر أيضاً وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) والحديث أخرجه الطبري ٢٣٧٩٠ والبيهقي في «البعث» ٥٢٢ والطبراني ٧٧٣١. قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩١: فيه ضعفاء، قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون اهـ. وهو في الزهد لابن المبارك ٣٠٢ عن أبي أمامة موقوفاً، ولاكثره شواهد، والوهن فقط في قوله «غِيٍّ وأثام».

[٤٤٩٩] وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)، ولهذا لا يُنْقَضُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قُوبِلُوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وتُركَ نسيًا، وذهب مَجَانًا، من كَرَمَ الكريم، وجَلِمَ الحَلِيم. وهذا الاستثناء ها هنا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْكُذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَذُ بِهِمْ سُحْقًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

يقول: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رآه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُ مَأْتِيًا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يُخْلِفُ الميعادَ ولا يُبَدِّلُهُ، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: كائن لا محالة. وقوله ها هنا: ﴿مَأْتِيًا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسياثونه. ومنهم من قال مأتياً آتياً، لأن كل ما أتاك فقد آتته، كما تقول العرب: آتت عليّ خمسون سنة، وآتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾، أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا ﴿٧٥﴾﴾ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي: في مثل وقت البُكْرَاتِ ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيئها بأضواء وأنوار.

[٤٥٠٠] كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمرَةٍ تَلِجُ الجنةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ. آتِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ»^(٢)، ورَشْحُهُمُ الْبِسْكَ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يَرَى مَخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ؛ مِنَ الْحَسَنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٣). أخرجه في الصحيحين، من حديث مَعْمَرِ بِهِ.

[٤٥٠١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارقي نهرِ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةِ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٤). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

(١) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٠ والطبراني في «الكبير» ١٠٢٨١ وأبو نعيم في «الحلية» ٤/٢١٠ والقصاعي ١٠٨ من حديث ابن مسعود، وإسناده منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً على الراجح، وقيل: سمع أحرافاً سيرة. وللحديث شواهد منها حديث أبي سعيد الأنصاري عند الطبراني ٧٧٥/٢٢ وأبي نعيم ٤٩٨/١٠، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» ٣٤٢٧.

(٢) الألوة: عود يتبخر به.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٤٥ ومسلم ٢٨٣٤ والترمذي ٢٥٣٧ وأحمد ٣١٦/٢ وابن حبان ٧٤٣٦.

(٤) أخرجه أحمد ٢٦٦/١ والطبراني ٨٢١٣ والطبراني ١٠٨٢٥ وابن حبان ٤٦٥٨ وصححه الحاكم ٧٤/٢ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٩٨/٥: رجال أحمد ثقات.

وقال الضحّاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَمْ يَرْفُتْهُمُ فِيهَا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾، قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْفُتْهُمُ فِيهَا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾، قال: ليس في الجنة ليل، هم في نورٍ أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار برفع الحُجُب وفتح الأبواب. وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُليد، عن الحسن البصري - وذكر أبواب الجنة فقال -: أبواب يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فتفهم انتفحي انتفحي، فتفعل. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَمْ يَرْفُتْهُمُ فِيهَا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾. فيها ساعتان، بكُرَّةٍ وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس فيها بكرة ولا عشي، ولكن يُوتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: كانت العرب، الأتعم فيهم، من يتعدى ويتعشى، ونزل القرآن على ما في أنفسهم من التّعيم، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَرْفُتْهُمُ فِيهَا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾. وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿وَلَمْ يَرْفُتْهُمُ فِيهَا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾، قال: البكور يرد على حدير العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل.

[٤٥٠٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شمشاط^(١)، عن عبد الله بن خدير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من عداة من عداوات الجنة، وكل الجنة عداوات، إلا أنه يُرف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التي خلقت من الزعران^(٢)». قال أبو محمد: هذا حديث غريب منكر.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نُورثها عبادنا المُتقين، وهم المطيعون لله - عز وجل - في السراء والضراء، والكاطمون الغيظ، والمعاون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ ﴿٢﴾﴾، إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ يُرِثُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا خَالِدِينَ﴾.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٤﴾ رَبِّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾

[٤٥٠٣] قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن دُرّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمتنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٣). انفرد بإخراجه البخاري، فزواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نُعيم، عن عَمَر بن دُرّ به. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عَمَر بن دُرّ، به. وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

[٤٥٠٤] وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك

(١) مدينة بالروم على شاطئ الفرات أحد معجم البلدان.

(٢) حكم أبو محمد، وهو ابن أبي حاتم، بكتابة هذا الحديث، وهو كما قال، في إسناده، منصور بن عمار الواعظ، قال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: يروي عن ضعفاء أحاديث، لا يتابع عليها أحد، الميزان، وشيخه مجهول لم أجد من ترجمه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣ و٧٤٥٥ والترمذي ٣١٥٨ والنسائي في «التفسير» ٣٣٩.

وَحَزَنٌ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمَّا بَكَينَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُبِينًا﴾ (١).

[٤٥٠٥] وقال مجاهدٌ: لَبِثَ جَبْرِيلُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَيَقُولُونَ: أَقْلِي؟ فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ، لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَتَّى ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ كُلُّ ظَنَّ. فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمَّا بَكَينَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُبِينًا﴾ (٢)، قال: وهذه الآية كَأَلْتِي فِي الضحَى. وكذلك قال الضحاك بن مُزَاهِمٍ، وقتادة، والسدي، وغير واحد: إنها نزلت في احتباسِ جبريل.

[٤٥٠٦] وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريلُ النزولَ على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقتُ إليك. فقال له جبريلُ: بل أنا كنتُ إليك أشوقاً، ولكنتي مأموراً، فأوجيَ إلى جبريلُ أن قل له: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الآية (٣). رواه ابنُ أبي حاتمٍ [رحمه الله]، وهو غريبٌ.

[٤٥٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرُّسُلُ على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريلُ فقال له: ما حبسك يا جبريلُ؟ فقال له جبريلُ: وكيف تأتيمكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُثَقِّنون بزاجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستأثنون؟ ثم قرأ: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الآية (٤).

[٤٥٠٨] وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النحووي، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أن جبريلُ أبطأ عليه، فذكر ذلك له، فقال: وكيف وأنتم لا تستئنون، ولا تَقْلَمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تُثَقِّنون رَوَاجِبِكُمْ (٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه.

[٤٥٠٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب ختن مالك بن دينار: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أصلحي لنا المَجْلِسَ، فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مَلِكٌ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ إِلَيْهَا قَطُّ» (٦). وقوله: «لَمَّا بَكَينَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا»، قيل: المراد بـ «مَا بَكَينَ أَيْدِينَا»: أمرُ الدنيا، «وَمَا خَلَقْنَا»: أمرُ الآخرة، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»: ما بين النَفَخَتَيْنِ. هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة. وقتادة - في رواية عنهما - والسدي، والربيع بن أنس. وقيل: «مَا بَكَينَ أَيْدِينَا» ما نستقبل من أمر الآخرة، «وَمَا خَلَقْنَا»، أي: ما مضى من الدنيا، «وَمَا بَيْنَ

(١) أخرجه الطبري ٢٣٨٠٧. بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن يتأيد بما قبله.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٨١١ وإسناده ضعيف، والمحفوظ لفظ البخاري وأحمد.

(٣) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٤) ضعيف، أورده الواحدي ٦٠٧ عن مجاهد بدون إسناد، وعلته الإرسال، وانظر ما بعده.

(٥) منكر. في إسناده سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي فيه كلام، لكن وثق، وفيه ثعلبة بن مسلم، قال عنه الحافظ: مستور،

وقال الذهبي في الميزان: عن أبي كعب، وعنه إسماعيل بن عياش، بخبر منكر.

سن الأضراس: سوكها. والرواجب: مفاصل أصول الأصابع، أو بواطن مفاصلها.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٥٩٤. فيه تابعي لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

ذَلِكَ، أي: ما بين الدنيا والآخرة. يُروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، قال مجاهد: معناه ما نسيك ربك. وقد تقدّم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَالصَّحْحَىٰ ۝١ وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١ - ٣].

[٤٥١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصّمدِ الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان - يعني أبا الجماهر - حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن خنوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء - يرفعه - قال: ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(١). وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فَأَعْيَدُهُ أَطْلَقًا لِجَنَدَيْهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَيِّئًا﴾، قال علي بن أبي طلحة. عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبهها. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبّير، وقتادة، وابن جريج، وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحدٌ يسمي الرحمن غيره. تبارك وتعالى، وتقدّس اسمه.

﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ أَوْدًا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ۝٦٦ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَعْبِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَمَعْجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوْدًا مَثَلًا ۚ وَرَبُّكَ أَشَدُّ حَسْبًا ۝٥٥﴾. وقال: ﴿أَوْلَىٰ بِرِ الْإِنْسَانِ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ تَلْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُؤْتَمِرٌ ۝٧٧ وَصَرَبٌ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّنِي الْعِظَمُ وَهِيَ رَيْبٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]. وقال هاهنا: ﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ أَوْدًا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ۝٦٦ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٦٧﴾، يستدلّ تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

[٤٥١١] وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذّبي ابن آدم ولم يكن له أن يكذّبي. وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدّاني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره. وأما أذاه إيّاي فقوله: إن لي ولداً؛ وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الربّ - تبارك وتعالى - بنفسه الكريمة، أنّه لا بد أن يحشّرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني قعوداً، كقوله: ﴿وَرَبِّي كُلُّ أَنتَرٍ جَائِيَةٌ﴾. وقال السدي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾

(١) أخرجه البزار ١٢٣ و ٢٢٣١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٥/٧، ورجاله ثقات اهـ. وإسناده لا بأس به، عاصم صدوق يخطيء، وإسماعيل حسن الحديث في روايته عن أهل بلده، وهذا إسناد شامي.

(٢) صحيح. وقد تقدم في سورة البقرة عند آية: ١١٦

﴿جِيئًا﴾ ، يعني: قياماً. ورُوي عن مُرّة، عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ ، يعني من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيْبًا﴾. قال الثوري، عن علي بن الأقرم، عن أبي الأخرص، عن ابن مسعود قال: يُحْبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَكْبَارِ فَالْأَكْبَارِ جُرْمًا. وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيْبًا﴾ (٦٦). وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيْبًا﴾ (٦٦). قال: ثم لَنَنْزِعَنَّ مِنْ أَهْلِ كُلِّ دِينٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤُوسَهُمْ فِي الشَّرِّ. وكذا قال ابن جُرَيْج، وغير واحد من السَّلَفِ. وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَذَاكَوْنَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا مَكُولًا أَسْكَلْنَا فَنَاقِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَجْتَهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَنَدَوْنَا لَلْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٩) [الأعراف: ٣٨ - ٣٩]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيْبًا﴾ (٧٠)، ثُمَّ هَاهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَضَلِّيَ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيَخْلُدَ فِيهَا وَمَنْ يَسْتَحِقُّ تَضَعِيفَ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَنْ يَنْزِعَهُنَّ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نَتَوَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا

﴿جِيئًا﴾ (٧٢)

[٤٥١٢] قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسَانِي، عن أبي سُمَيْة قال: اختلفنا في الوُورِدِ، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الوُورِدِ، فقال: يَرُدُّونَهَا جَمِيعًا - وقال سليمان مرّة^(١): يدخلونها جميعاً - فأهوى بإصبعه إلي أذنيه، وقال: صُمْتًا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى إِنْ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِيئًا»^(٢). غريب، ورواه الحاكم وصححه، والبيهقي، ولم يُخْرِجُوهُ.

وقال الحسن بن عرفة: حَدَّثَنَا مَرْزَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، عَنْ بَنَكَارٍ، عَنْ أَبِي مَرْزَانَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْدَمَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ: أَلَمْ يَعِدْنَا رَبُّنَا الْوُورِدَ عَلَى النَّارِ؟ قَالَ: قَدْ مَرَزْتُمْ عَلَيْهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رِزَاخَةَ وَاضِعًا رَأْسَهُ فِي جِجْرِ امْرَأَتِهِ، فَبَكَى، فَبَكَتْ امْرَأَتُهُ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَتْ: رَأَيْتُكَ تَبْكِي فَبَكَيْتُ. قَالَ: إِنِّي ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَنْزِعَهُنَّ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فَلَا أُدْرِي أَنْجُو مِنْهَا أَمْ لَا؟ وَفِي رِوَايَةٍ: وَكَانَ مَرِيضًا.

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ يَمَانَ، عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: كَانَ أَبُو مَيْسَرَةَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي. ثُمَّ يَبْكِي، فَقِيلَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا مَيْسَرَةَ؟ فَقَالَ: أَخْبَرْنَا أَنَا وَارِدُهَا، وَلَمْ نُخْبِرْ أَنَا صَادِرُونَ عَنْهَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِأَخِيهِ: هَلْ أَتَاكَ بِأَنَّكَ وَارِدُ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ أَتَاكَ أَنَّكَ صَادِرٌ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَفِيمَ الضَّحِكِ؟

(١) في مسند أحمد ٣/٣٢٩ «وقال بعضنا» بدل «وقال سليمان مرّة».

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٢٩ وقال الهشبي في «المجمع» ٧/٥٥: ورجاله ثقات، ولجابر في الصحيح في الوُورِدِ شيء موقوف غير هذا ام. وصححه الحاكم ٤/٥٨٧ ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن.

قال: فما زُئي ضاحكاً حتى لَحَقَ بالله. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، أخبرني من سَمِعَ ابن عباس يُخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورودُ الدخولُ؟ فقال نافع: لا. فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [١٨٨] ﴿الأنبياء: ٩٨﴾، ورُدُّوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الشَّارُّ﴾ [مرد: ٩٨]، أوردوها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكديك. فضحك نافع.

وروي ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو رائيد الحُروري - وهو نافع بن الأزرق -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيْسِبَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]: فقال ابن عباس: ويلك. أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الشَّارُّ﴾، ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وُرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم، أخرجني من النار، سالمًا، وأدخلني الجنة غانمًا. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مُجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أريت قول الله: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتَا مَقْضِيًّا﴾ [٧١]؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فستردُّها، فانظر: هل تصدر عنها أم لا؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائب، عن سَمِعَ ابن عباس يقرؤها كذلك: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا﴾ يعني الكفار. وهكذا روى عَمْر بن الوليد الشني، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا﴾، قال: وهم الظلمة، كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتَا مَقْضِيًّا﴾ [٧١]، يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأْوَدُهُمُ الشَّارُّ وَيَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [١٨٨]، ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وُرْدًا﴾ [١٨٦]، فسمي الورود في النار دخولاً، وليس بصادر.

[٤٥١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرِدْهَا﴾، قال رسول الله ﷺ: ﴿يَرِدُ النَّاسُ كُلَّهُمْ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ﴾^(١). ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، به. ورواه من طريق شعبة، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً^(٢). هكذا وقع هذا الحديث ها هنا مرفوعاً.

وقد رواه أسباط، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود قال: يَرِدُ النَّاسَ جَمِيعاً الصَّرَاطُ، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعذو الرجل، حتى إن آخرهم مرّاً رجل نوره على موضعي إبهامي قديمي، يمر يتكفأ به الصراط،

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٩ وأحمد ٤٣٥/١ والدارمي ٣٢٩/٢ والحاكم ٣٧٥/٢ وإسناده حسن لأجل السدي، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن، فهو وإن روى له مسلم، لكن فيه كلام، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد تعضده. انظر «الترغيب والترهيب» ٥٢٦٥ و ٥٣١٤.

(٢) هكذا وقع في بعض النسخ «موقوفاً» وفي بعض «مرفوعاً» وكلاهما محتمل فهو عند الترمذي ٣١٦٠ عن شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود موقوف، ثم ذكر الترمذي عن شعبة قوله لابن مهدي: وقد سمعته من السدي مرفوعاً، ولكنني عدلاً أدعته.

والصراط دَخُضَ مَزَلَّةً، عليه حَسَكٌ كَحَسَكِ الْفَتَادِ، حَافَتَاهُ مَلَائِكَةٌ، معهم كَلَالِيْبٌ من نارٍ، يَخْتَطِفُونَ بها الناسَ... وذكر تمام الحديث. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا خَلَادُ بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرْدَهَا﴾، قال: الصُّرَاطُ على جَهْتِهِمْ مثلُ حَدِّ السِّيفِ، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يَمُرُونَ والملائكة يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. ولهذا شواهد في الصُّحُوحِ وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم.

وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابنُ عُليَّة، عن الجُرَيْرِي، عن أبي السليل، عن عُثَيْمِ بن قيس قال: ذَكَرُوا وُرُودَ النَّارِ، فقال كعبٌ: تَمَسُّكَ النَّارُ لِلنَّاسِ كَمَا أَنَّهَا مَثْنٌ إِهَالَةٌ حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَيْهَا أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ، بَرِّهْمٍ وَفَاجِرْهَمٍ، ثم يناديها منادٌ: أن أنسيكي أصحابك، ودعي أصحابي. قال: فَتَخْشِفُ بِكُلِّ وُلِيِّ لَهَا، وَلَهْيَ أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون نَدِيَّةً ثِيَابُهُمْ. قال كعبٌ: ما بين مَنَكِبَيْ الخازن من خَزْنَتِهَا مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عُمُودٌ ذُو شُعْبَتَيْنِ، يَدْفَعُ به الدَّفْعَةُ فيصْرَعُ به في النار سَبْعَمِئَةَ أَلْفٍ.

[٤٥١٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة قالت: قال رسولُ الله ﷺ: إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله أحدٌ شهد بدراً والحديبية. قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرْدَهَا﴾؟ قالت: فسَمِعْتُهُ يقول: ﴿ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ أَتَقُوا وَنَذَرُ الْفَالِغِينَ فِيهَا جِيئًا﴾^(١).

[٤٥١٥] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا ابنُ إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسولُ الله ﷺ في بيتِ حفصة، فقال: لا يدخل النار أحدٌ شهد بدراً والحديبية. قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا وَاِرْدَهَا﴾؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ أَتَقُوا﴾^(٢).

[٤٥١٦] وفي الصُّحُوحِ، من حديث الزُّهري، عن سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثة من الولدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إلا تحلَّه القَسَمُ^(٣).

[٤٥١٧] وقال عبدُ الرزاق: قال معمرٌ: أخبرني الزُّهري، عن ابنِ المسيب، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تَمَسُّهُ النَّارُ إلا تحلَّه القَسَمُ». يعني الوُرُودَ^(٤).

[٤٥١٨] وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زَمْعَةُ، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يموتُ لمسلمٍ ثلاثة من الولدِ، فتمسه النارُ إلا تحلَّه القَسَمُ». قال

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٨١ وأحمد ٦/٢٨٥. وأخرجه مسلم ٢٤٩٦ وأحمد ٦/٤٢٠ من وجه آخر عن جابر به.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٦/٣٦٢ وابن حبان ٤٨٠٠ والطبري ٢٣٨٥٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥١ و٦٦٥٦ ومسلم ٢٦٣٢ والترمذي ١٠٦٠ والنسائي ٤/٢٥ وأحمد ٢/٢٣٩ وابن حبان ٢٩٤٢ من طرق عن الزهري به.

(٤) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٧٨، ورجاله رجال البخاري ومسلم.

الزهرري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا كَانَ عَلَيَّ رَيْكَ حَتَّىٰ مَقْضِيًّا﴾ (١).

[٤٥١٩] وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلابي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ يعوّد رجلاً من أصحابه ويعكأ، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقول: هي نار يأسطها على عبدي المؤمن، لتكون حظه من النار في الآخرة» (٢). غريب، ولم يُخرجه من هذا الوجه.

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحُمي حَطُّ كُلِّ مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾.

[٤٥٢٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يخطمها عشر مرات، بتي الله له قصرًا في الجنة. فقال عمر: إذا نستكر يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب» (٣).

[٤٥٢١] وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية في سبيل اللّه كُتِبَ يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله مُتَطَوِّعاً لا بأجرة سلطانٍ لم يَزِ النارَ بعينيه إلا تحلة القَسَمِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾، وإن الذكر في سبيل الله يُضَاعَفُ فوق النفقة بسبعمئة ضعف، وفي رواية: بسبعمئة ألف ضعف» (٤).

[٤٥٢٢] وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، كلاهما عن زبّان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر تُضَاعَفُ على النفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف» (٥). وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾، قال: هو الممر عليها.

[٤٥٢٣] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزألون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سباطان» (٦) من الملائكة، دعاؤهم: يا الله، سلّم سلّم» (٧). وقال السدي، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَيَّ رَيْكَ حَتَّىٰ مَقْضِيًّا﴾، قال: قسماً واجباً. وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا الَّذِينَ آتَقُوا﴾، أي: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من

(١) متن صحيح. أخرجه الطيالسي ٢٣٠٤ بإسناد ضعيف لضعف زمعة، وهو ابن صالح، لكن توبع في الحديث المتقدم، والمتن صحيح.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٣٨٥١ وفي إسناده: عبد الرحمن بن يزيد، وهو ضعيف متروك.

(٣) إسناده ضعيف، ويأتي في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(٤) إسناده ضعيف، تقدم تخريجه في سورة النساء: ٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٤٩٨ وقد تقدم تخريجه.

(٦) سباط القوم: صفهم.

(٧) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٨٤٩، وهذا معضل، وابن زيد ضعيف الحديث.

الكُفَّار والمُصَافِيَة ذوي المعاصي، بحسبهم، نَجَى اللهُ تعالى المؤمنين المُتَّقِينَ منها بحسب أعمالهم. فجَوَّزَهُمْ على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يُشْفَعُونَ في أصحاب الكيِّات من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبِيُّونَ والمؤمنون، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهي مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخْرِجُونَ أَوْلَاداً من كان في قلبه مثقالَ دينارٍ من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخْرِجُونَ من كان في قلبه أدنى أدنى مثقالِ ذرَّةٍ من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله»، وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وَجِبَ عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدْرُ الظُّلُمَاتِ فِيهَا جِينًا﴾.

﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَلْسَنُوا قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٦﴾ وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَا وَرِيًّا ﴿٧٧﴾﴾

يخبر تعالى عن الكُفَّار حيث تُلَى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحججة واضحة البرهان، أنهم يَصِدُّونَ عن ذلك، ويُعَرِّضُونَ ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومُحتَجِّينَ على صِحَّة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: أحسن منازل وأرفع دُوراً وأحسن ندياً، وهو مُجْتَمَعُ الرجال للحديث، أي: ناديتهم أعمارٌ وأكثر وادراً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الأحاف: ١١]. وقال قومٌ نوح: ﴿الَّذِينَ لِلَّهِ وَأَتَمَّكَ الْأَرْضُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتَوَلَّوْا أَهْلَكَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُتَكِبِّينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، ولهذا قال تعالى رداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، أي: وكم من أمة وقرنٍ من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمُ أَحْسَنُ أَثْنَا وَرِيًّا﴾، أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعةً ومناظرٍ وأشكالاً. قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرأي: المنظر. وقال العوفي، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندي: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله تعالى لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَذَلِكَ نَرْكُؤُا مِنْ جَنَّتِ وَيَجُوبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنُدُّوعٌ وَقَمَارٌ كَبِيرٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُتَكَبِّرِ﴾ [المنكبت: ٢٩]، والعربُ تُسَمِّي المجلس: النادي. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قسافة^(١)، فَعَرَّضَ أَهْلَ الشَّرْكِ بما تسمعون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب. والرئي: المنظر، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال الحسن البصري: يعني الصُور. وكذا قال مالك: ﴿أَثْنَا وَرِيًّا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَسُدَّهُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بزئهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَسُدَّهُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، أي: فأنهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿إِنَّمَا الْعَذَابُ﴾ يُصِيبُهُ، ﴿وَإِنَّمَا السَّاعَةَ﴾ بَغْتَةً تَأْتِيهِ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَسُدَّهُ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، فليدعه الله في طغيانه. وهكذا قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أُولِي سُلْطَانٍ عَلَىٰ دُونِ آلِ مَرْيَمَ لَمَّا فَتَنَتْنَاهُ فَانْتَبِهَتْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الجمعة: ٦٦]، أي: ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم، إن كنتم تدعون أنكم على الحق فإنه لا يضركم الدعاء. فتكلموا عن ذلك، وقد تقدّم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، والله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة «آل عمران» حين صمّموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَهُ وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدُوِّ مَا جَاءَكَ مِنَ النَّاسِ فَقُلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنِّي وَانْتَبِهُوا قُلْ وَإِنِّي لَأَنْبِيَاكُمْ وَإِنِّي لَأَكْفَرُ وَانْتَبِهُوا قُلْ وَإِنِّي لَأَكْفَرُ وَأَنْتُمْ كُفْرَانٌ وَأَنْتُمْ كُفْرَانٌ وَأَنْتُمْ كُفْرَانٌ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، فتكلموا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلِيغَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ إِنَّا سَمِعْنَا هَذِهِ هِيَ مِمَّا قَالُوا قَدْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَذَرْنَاهُمْ وَمَنْ حَقَّ كِتَابُ رَبِّكَ فَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ أُتُوا بِآيَاتِنَا إِذْ نزلَتْ سَمِعُوا مِنَ رَبِّكَ رَبًّا رَّحِيمًا فَاتَّقَوْا رَبَّكَ لَتُؤْتِيَنَّهُمُ اللَّهُ كَرَامًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنَّا نَسُفُّنَا فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالْبَلِيغَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، قد تقدّم تفسيرها والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾، أي: عاقبة ومردّاً على صاحبها.

[٤٥٢٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فحطّ ورزقه ثم قال: «إِنْ قَوْلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ تَحُطُّ الْخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدرداء قبل أن يُحَال بينك وبينهن، هُنَّ الباقيات الصالحات، وهُنَّ من كُنُوزِ الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهلكن الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رأيته الجاهل حَسِبَ أنني مجنون^(١). وهذا ظاهره أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سنن ابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن عمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٨٥ والطبري ٢٣٨٩٨. وابن ماجه ٣٨١٣ وقال البوصيري في «الزوائد» في إسناده عمر بن راشد قال فيه البخاري: حديثه عن ابن أبي كثير مضطرب ليس بالقائم، قال ابن حبان: يضع الحديث، لا يجل ذكره إلا على سبيل القدح فيه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

[٤٥٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم تبعث جنتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾^(١). أخرجه صاحب الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به. وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة، فعلمت للعاص بن وائل سيقاً، فجئت أتقاضاه^(٢)... فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾، قال: مؤثفاً.

[٤٥٢٦] وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الارت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا تبعث كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَيَأْتِنَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾^(٣). وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فاتوه يتقاضونه، فقال: السثم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِنَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل. وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً»، وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال روية:

الْحَمْدُ لَهُ الْعَزِيزُ فَزَدَا
لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدٍ شَيْءٍ وُلْدًا
وقال الحارث بن جلة:

وَلَقَدْ زَايْتُ مَعَايِرًا
قَدْ تَمَرُّوا مَالًا وَّوُلْدًا
وقال الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وُلْدَ جِمَارِ

وقيل: إن الولد - بالضم - جمع، والولد - بالفتح - مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾، إنكار على هذا القائل: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، يعني يوم القيامة، أي: أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، أم له عند الله عهد أن سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري: أنه المؤثف. وقال الضحاک، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٩١ ومسلم ٢٧٩٥ الترمذي ٣١٦٢ وأحمد ١١١/٥ وابن حبان ٤٨٨٥.

(٢) هذا اللفظ عند البخاري برقم ٤٧٣٣.

(٣) صحيح. أخرجه عبد الرازق في «التفسير» ١٧٩٣ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

عَهْدًا ﴿٨١﴾، قال: لا إله إلا الله، فِيرْجُوهُ بها. وقال محمد بن كعب الشَّرْطِيُّ: ﴿أَرِ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، قال شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَرِ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾: هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَتَكُنُّنَّ مَا يَقُولُ﴾، أي: من طلبه ذلك وحُكِّمَه لنفسه بما تمناه، وكُفِّرَه بالله العظيم، ﴿وَنَسُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾، أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفروه بالله في الدنيا، ﴿وَنَزِئُكَ مَا يَقُولُ﴾، أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتَى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادةً على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسَلَّبُ مِنَ الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿وَنَزِئُكَ مَا يَقُولُ﴾ قال: نَزِئُهُ. وقال مجاهد: ﴿وَنَزِئُكَ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَنَزِئُكَ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾. وفي حَرْفِ ابن مسعود «ونرثه ما عنده». وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَزِئُكَ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما جَمَعَ من الدنيا، وما عَمِلَ فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً إِيَّاكُمْ لِيَكُونَ لَهُم عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًّا ﴿٨٢﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٣﴾﴾

يُخْبِرُ تعالى عن الكُفَّارِ المشركين برَبِّهم أنهم اتَّخَذُوا من دونه آلهة، لتَكُونَ لهم تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعْتَرُونَ بهم ويستنصرونهم. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زَعَمُوا، ولا يكون ما طَعَبُوا، فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما ظَنُّوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِن بَدْعِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ عَنِ ذٰلِكَ هُوَ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا خَيْرٌ لِّلنَّاسِ كَآوِلًا لَهُمْ أَصْلَٰهُمُ وَكَآوِلًا عَلَيْهِمْ كَفِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الاحقاف: ٥ - ٦]. وقرأ أبو نَهَيْك: «كُلُّ سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ». وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ﴾، أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما رَجَوْا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعواناً. قال مجاهد: عَوْنًا عليهم، تُخَاصِمُهُمْ وَتُكَذِّبُهُمْ. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: قُرَنَاء. وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض. وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: الخصماء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعداء. وقال ابن زيد: الضدُّ: البلاء. وقال عكرمة: الضدُّ: الحسرة. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًّا ﴿٨٢﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: تُغْوِيهِمْ إغواء. وقال العوفي عنه: تُحَرِّضُهُمْ على محمدٍ وأصحابه وقال مجاهد: تُشْلِيهِمْ إشلاء. وقال قتادة: تُزَعِّجُهُمْ إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوري: تُغْرِيهِمْ إغراء وتستمحلهم استمعجلاً. وقال السدي: تُطْغِيهِمْ طغياناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمْشِ عَنِ الرَّحْمَنِ نَمِيضٌ لَّمْ يَسْمَعْ لَهُ سَمْعًا فَهُوَ لَمْ يَرِئْ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٣﴾﴾، أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾، أي: إنما نُؤَخِّرُهُمْ لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة، إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ عَمَّا يُعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَفْصَحُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٧]، ﴿تَهْبَلُ الْكٰفِرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبُّنَا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿نَمِيضُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطُّهُمْ إِك عَذَابٍ

فَيَلْظُرُ ﴿٨٦﴾ [القمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَسُّوْا فِإِنَّ مَصِيْرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. وقال السدي: ﴿إِنَّمَا نَمَدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾، السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَمَدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾، قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَذَٰكَ ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذي خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوه فيما أخبروهم، وأطاعوه فيما أمرهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وقد آتاه. والوفد: هم القادِمون ركبانا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار، ﴿وَذَٰكَ﴾: عطاشا، قاله أبو هريرة، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وها هنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَوِيًّا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن أبي مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾، قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رأها، وأطيبه ريحا، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن [الله] قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عمك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما زيكك في الدنيا، فهل أمركبني. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾، قال: ركبانا.

وقال ابن جرير: حدثني ابن المنثي، حدثنا ابن مهدي، عن سعيد، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾، قال: علي الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل الثوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾، قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سويد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا الثمان بن سعيد قال: كنا جلوسا عند علي - رضي الله عنه - فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ ﴿٨٥﴾﴾، قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بثوق لم يَزِ الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضرُّوا أبواب الجنة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد»^(١)، والباقي مثله.

[٤٥٢٧] وقد روى ابن أبي حاتم ما هنا حديثا غريبا جدا مرفوعا، عن علي - رضي الله عنه - فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري قال: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ علي هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ

(١) موقوف ضعيف جدا، أخرجه الطبري ٢٣٩٢٩، وفي إسناده ابن أبي حاتم، سويد بن سعيد ضعيف جرحه ابن معين، لكن توبع عند الطبري، ومداره عندهما على عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي، جاء في الميزان ٤٨١٢: ضعفه، قال أحمد: منكر الحديث، وقال يمين: متروك، وضعفه النسائي.

وَقَدْ ﴿٨٥﴾ ، فقال: ما أظنُّ الوفدَ إلا الركبَ يا رسولَ الله . فقال رسولُ الله ﷺ : والذي نفسي بيده إنهم إذا خرَّجوا من قبورهم يُسْتَقْبَلُونَ - أو: يُؤْتَوْنَ - بثوقٍ بيض لها أجنحة، وعليها رجالُ الذهب، شُرْكُ نعالهم نور، يتلأأ كلُّ خطوةٍ منها مَدَّ البصر، فينتهون إلى شجرةٍ يُنْبَعُ من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما في بطونهم من دَنَسٍ ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشازهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فينتهون، أي: فيأتون باب الجنة، فإذا حلَّقَتْ من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنينٌ يا علي، فيبلغ كلُّ حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرَّ له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكَلْتُ بأمرك فيتبعه ويقفؤ أثره، فتستخفُّ الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدُرِّ والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت جِبي وأنا جبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن. فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مئة ألف ذراع، بناؤه على جذل اللؤلؤ طرائق أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريق تشاكل صاحبها. وفي البيت سبعون سريراً، على كلِّ سرير سبعون حشيشة، على كل حشيشة سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون خلعة، يزي مئخ ساقها من وراء الحلل، يُقضى جماعها في مقدار ليلة من ليايكم هذه، الأنهار من تحتهم تطرد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صافٍ لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلي الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَائِئَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَظْهُنَّا نَدْلِيلًا﴾ ﴿٨٦﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أي الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلامٌ عليكم، ﴿وَيَلَّكُ لُكْمَةُ آلِهَةٍ أُرْوِيَتْهُمُوهَا بِمَا كَثُرَ تَعْمَلُوكَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحور العين وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نور^(١). هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً، وقد روينا في المقدمات من كلام علي - رضي الله عنه - بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُنْجِبِينَ إِلَيْكُمْ وَدَا﴾ ﴿٨٦﴾ ، أي: عطاشاً، لا يملكون الشفاعة، أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَلَا صِدْقٍ جِيمٍ ﴿٨٦﴾ ﴿٢﴾ . وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبدالله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقيم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعَلَّمْنَا . قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض،

(١) ضعيف جداً، فيه أبو معاذ سليمان بن أرقم، متروك الحديث، ولم يدرك علياً، فهاتان علتان تقدحان في صحة الحديث، وتقدم موقوفاً.

(٢) الشعراء، الأيتان ١٠٠ - ١٠١.

عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي يُقربني من الشر ويُباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤدبه إلي يوم القيامة، إنك لا تُخلف الميعاد. قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يلحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩١﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٤﴾ ﴿

لما قرّر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، ودكر خلفه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾، أي: في قولكم هذا «شَيْئًا إِدًّا»، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيمًا. ويقال: «إِذَا» بكسر الهمزة وفتحها، ومع مَدَّها أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى. وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾، أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدِهِ، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأخذ الصمد:

وفي كل شيء له آية تذل على أنه واجد

[٤٥٢٨] وقال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾، قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفق مع الشرك إحسان المشرك، كذلك تزجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين. وقال رسول الله ﷺ: «لَقَنُوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب. ثم قال: والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعت في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن^(١). هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة^(٢)، والله أعلم.

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾، أي: يتشققن فرقا من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾، أي: غضبا لله عز وجل. ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، قال ابن عباس: هذما. وقال سعيد بن جبير: ﴿هَذَا﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

(١) أخرجه الطبري ٢٣٩٥٣ وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، لكن له ما يشهد له.

(٢) يأتي في سورة الأنبياء عند آية: ٤٧ إن شاء الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عوف بن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مرَّ بك اليوم ذاكُ الله عزَّ وجلَّ؟ فيقول: نعم، ويستبشرُ قال عوف: فهي للخير أسمع، أفيسمعن الزورَ والباطلَ إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزْرٌ لِلْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ﴿٩٧﴾﴾.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هوزة، حدثنا عوف، عن غالب بن عجرود، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجرُ بذلك، حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿أَتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقتشعرت الأرض، وشاك الشجرُ. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا.

[٤٥٢٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي عبد الرحمن السلمى عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: لا أحد أضبر على أذى سمعه من الله؛ إنه يشرك به، ويُجعل له ولد، وهو يعافيههم ويدفع عنهم، ويرزقهم^(١). أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيههم». وقوله: ﴿وَمَا يُبَدِّئُ الرَّحْمَنُ أَنْ يُتَّخَذَ وَلَدًا ﴿٩٦﴾﴾، أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كُفء له من الخلق، لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٦﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٧﴾﴾، أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنشاهم، وصغيرهم وكبيرهم. ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ﴿٩٧﴾﴾، أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يفرس لعباده المؤمنين الذي يعملون الصالحات - وهي الأعمال التي ترضي الله - عزَّ وجلَّ - لمتابعتها الشريعة المحمدية - يفرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

[٤٥٣٠] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فبُغِبَّه جبريلُ. قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً. قال: فبُغِبَّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فبُغِضَ جبريلُ. ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضه. قال: فبُغِضَ أهل السماء، ثم توضع له

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦ و ١٢٦ وهو عند البخاري ٦٠٩٩ ومسلم ٢٨٠٤ وأحمد ٤/٣٩٥.

البغضاء في الأرض^(١). ورواه مسلم من حديث سَهْلٍ. ورواه أحمدُ والبخاريُّ، من حديث ابن جُرَيْجٍ، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

[٤٥٣١] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ، حدثنا ميمون أبو محمد المَرْزِيُّ، حدثنا محمد بن عَبَّاد المخزومي، عن ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن العبد لَيَلْتَمِسُ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فلا يَزَالُ بذلك، فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلاناً عبدي يَلْتَمِسُ أن يُرَضِّيَنِي؛ ألا وإنَّ رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها مَنْ حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم تهبط إلى الأرض^(٢). غريبٌ، ولم يُخْرِجوه من هذا الوجه.

[٤٥٣٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسودُ بن عابر، حدثنا شريكٌ، عن مُحَمَّدِ بن سعدِ الواسطيِّ، عن أبي ظَبْيَةَ، عن أبي أمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن المِقة من الله - قال شريكٌ: هي المحبة - والصيت من السماء، فإذا أحبَّ الله عبداً قال لجبريل عليه السلام: «إني أحبُّ فلاناً». فينادي جبريل: إن ريكم يَمُتُ - يعني يُحِبُّ - فلاناً، فأجيبوه - وأرى شريكاً قد قال: فتنزَّل له المحبَّة في الأرض - وإذا أبغضَ عبداً قال لجبريل: إني أبغضُ فلاناً فأبغضه. قال: فينادي جبريل: إن ريكم يُبغضُ فلاناً فأبغضوه - قال: أرى شريكاً قد قال: فيجري له البغضُ في الأرض^(٣). غريبٌ، ولم يُخْرِجوه.

[٤٥٣٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو داودَ الحَفَرِيُّ، حدثنا عبد العزيز - يعني ابنَ محمد، وهو الدَّرَاوَزْدِيُّ - عن سَهْلِ بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] أن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريل: «إني قد أحببت فلاناً فأحبه». فينادي في السماء، ثم يُنزلُ له المحبة في أهل الأرض، فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا﴾^(٤). ورواه مسلم والترمذي كلاهما عن قُتَيْبَةَ، عن الدَّرَاوَزْدِيِّ به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا﴾، قال: حَبًا. وقال مجاهد عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ رِزْقًا﴾، قال: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جُبَيْرٍ، عنه: يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ، يعني: إلى خَلْقِهِ المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك، وغيرهم. وقال العوفي، عن ابن عباس أيضاً: الرُّزْقُ من المسلمين في الدنيا، والرُّزْقُ الحَسَنُ، واللسان الصادق. وقال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا﴾. أي والله، في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنا أن هَرَمَ بن حَيَّان كان يقول: ما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله إلا أقبلَ الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يَرزُقَهُ مَوَدَّتَهُم ورحمتهم. وقال قتادة: وكان عثمانُ بن عفان - رضي الله عنه - يقول: ما من عبدٍ يعملُ خيراً أو شراً، إلا كَسَاهُ الله -

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٩ و٧٤٨٥ ومسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١ وأحد ٢٦٧/٢ و٥٠٩ وابن حبان ٣٦٤ من طرق عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه أحمد ٢٧٩/٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٢/١٠: ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة. وقال الذهبي في «الميزان» ٢٣٤/٤٠: قال الفلاس: صدوق، لكنه ضعيف الحديث. وقال النسائي: ليس بالقوي. ثم ذكر الذهبي حديثاً غير هذا قال هذا منكر. فالإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ٢٦٣/٥ و٢٥٩ والطبراني ٧٥٥١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٧١/١٠: ورجاله وثقوا. قلت: شريك ساء حفظه لما تولى القضاء، فالإسناد ضعيف لكن لأصله شواهد.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١.

عز وجل - رِذَاءَ عَمَلِهِ . وقال ابنُ أبي حاتم - رحمه الله - : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبدُ الرحمن بن مهدي ، عن الربيع بن صبيح ، عن الحسن البصري - رحمه الله - قال رجلٌ : والله لأعبدنَّ الله عبادةً أذكرُ بها . فكان لا يُزِي في حين صلاةٍ إلا قائماً يُصَلِّي ، وكان أولُ داخلٍ إلى المسجد وأخِرَ خارجٍ ، فكان لا يُعْظَمُ ، فمكث بذلك سبعةَ أشهر ، وكان لا يمرُّ على قومٍ إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرائي . فأقبل على نفسه فقال : لا أراني أذكرُ إلا بِشْرٍ ، لأجعلن عملي كُلَّهُ لله عز وجل ، فلم يَزِدْ على أن قلبَ نيته ، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل . فكان يمرُّ بعدُ بالقوم ، فيقولون : رحم الله فلاناً الآن . وتلا الحسن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٩٦) . وقد رَوَى ابنُ جريرٍ أثراً أن هذه الآية نزلت في هجرَةِ عبد الرحمن بن عوف . وهو خطأ ، فإن هذه السورة بِتمامها مكية لم ينزل منها شيءٌ بعد الهجرة ، ولم يصحَّ سندُ ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ ﴾ ، يعني : القرآن ، ﴿ بِإِسْرَائِيلَ ﴾ ، أي : يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، ﴿ يُثَبِّتُ بِهِ أَتْمَنِينَ ﴾ ، أي : المستحبيين لله المُصدِّقين لرسوله ، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ ، أي : عوجاً عن الحقِّ مائلين إلى الباطل . وقال ابن أبي نجيع ، عن مُجاهدٍ : ﴿ قَوْمًا لُدًّا ﴾ : لا يستقيمون . وقال الثوري ، عن إسماعيل ، وهو السدي ، عن أبي صالح ، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ : عوجاً عن الحق . وقال الضحَّاك : الألدُّ : الخَصِيمُ . وقال القُرظيُّ : الألدُّ الكذابُ . وقال الحسن البصري : ﴿ قَوْمًا لُدًّا ﴾ : ضماً . وقال غيره : ضَمُّ آذانِ القلوب . وقال قتادة : ﴿ قَوْمًا لُدًّا ﴾ يعني قريشاً . وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ قَوْمًا لُدًّا ﴾ : فُجَّاراً . وكذا رَوَى ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد . وقال ابن زيد : الألدُّ : الظلوم ، وقرأ قول الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] . وقوله : ﴿ وَرَكَّمَ أَفْئِدَتَنَا قَبْلَهُمْ بَيْنَ قَرْنَيْنِ ﴾ ، أي : من أمةٍ كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ، ﴿ هَلْ تُحِشُّ بِتَهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، هل ترى منهم أحداً ، ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، قال ابن عباس ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والحسن البصري ، وسعيد بن جببير ، والضحَّاك ، وابن زيد : يعني : صوتاً . وقال الحسن ، وقاتدة : هل ترى عيناً ، أو تسمعُ صوتاً . والركزُ في أصلِ اللغة هو : الصوتُ الخفيُّ ، قال الشاعر :

فَتَوَجَّسْتُ رِكْزَ الْأَيْبِ قَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ ، وَالْأَيْبُ سَقَامُهَا

آخر تفسير سورة مريم، ولله الحمد والمنّة



وهي مكية

[٤٥٣٤] وروى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الجزامي: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن يسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الحرقه - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بالف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا. وطوبى لألسن تكلم بهذا^(١). هذا حديث غريب، وفيه تказرة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَى ﴿٨﴾

تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبير بن - أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأبطس، عن سعيد بن جببير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جببير، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن أبي عمير أنهم قالوا: طه: يا رجل. وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جببير، والثوري: أنها كلمة بالبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح: هي مُعَرَّبَةٌ.

[٤٥٣٥] وأسد القاضي عياض في كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى،

(١) ضعيف جداً. أخرجه الدارمي ٤٥٦/٢ ح ٣٢٩٠ وابن عدي ٢١٦/١ وابن حبان في «المجروحين» ١٠٨/١ وابن الجوزي ١١٠/١ «موضوعات». قال ابن عدي: لم أجد لإبراهيم بن مهاجر حديثاً أنكر من هذا. وقال البخاري: ابن المهاجر: منكر الحديث. وقال ابن الجوزي: وفيه عمر بن حفص، قال أحمد: خرقتنا حديثه، وقال ابن حبان: هذا متن موضوع، وتعبه السيوطي في «اللائي» بما لا طائل تحته، عل أن الدارمي يطلقون على كتابه اسم الصحيح، أه واكتفى العراقي في الإحياء ٢٧٤/١ بقوله: ضعيف أه.

فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾، يعني طم الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١). ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة. وقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، قال جُوَيْر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿إِلَّا نَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً؛ كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال:

[٤٥٣٦] قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»^(٢). وما أحسن الحديث الذين رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال:

[٤٥٣٧] حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن مسleme أبو سالم، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سُفْيَانَ، عن سِمَاكِ بن حرب، عن ثعلبة بن الحَكَم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لِقْضَاءِ عِبَادِهِ: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أباي»^(٣). إسناده جيد، وثعلبة بن الحَكَم هذا هو الليثي، ذكره أبو عَمْرٍو في استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: هي كقوليه: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَرِ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يُعْلَقُونَ الْجِبَالَ بُضُورَهُمْ فِي الصَّلَاةِ. وقال قتادة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿٢﴾: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا نَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ﴿٣﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعث رسوله رحمة، رَجِمَ بها العباد، ليتذكر ذاكراً، وينتفع رجلٌ بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه. وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ﴿٤﴾، أي: هذا القرآن الذي جاءك

(١) هذا مرسل، الربيع بن أنس تابعي، وأبو جعفر هو الرازي عيسى بن أبي عيسى، ضعفه غير واحد، وورد موصولاً من حديث علي بلفظ «كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه، يقوم على كل رجل، حتى نزلت ﴿طه...﴾»، أخرجه البزار ٢٢٣٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٥: فيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات أهد وحسنه السيوطي في «الدر» ٥١٦/٤ أهد وهذا اللفظ أقرب وأحسن من لفظ الربيع بن أنس المتقدم. وورد من وجوه أخرى، أودعها السيوطي في «الدر المنتور» ٥١٦/٤، وبهذا يعلم أن له أصلاً، لكن المعتمد حديث علي رضي الله عنه، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٩.

(٣) منكر. أخرجه الطبراني ١٣٨١، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٢٧: رجاله موثقون أهد وكذا وقع للمنذري في «الترغيب» ١٣١: رجاله موثقون. وجوده الحافظ ابن كثيرًا مع أن مداره على العلاء بن مسleme أبو سالم، ذكره الذهبي في «الميزان» ٥٧٤٣ ونقل عن الأزدي قوله: لا تحمل الرواية عنه، وقال ابن طاهر: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات، ثم إنه تفرد بلفظ «إذا قعد على كرسيه» وهذه اللفظة منكرة جداً، وورد بدون هذه اللفظة، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٩١ من حديث أبي موسى، وقال الهيثمي ٥٢٨: فيه موسى بن عبيدة الزبدي، وهو ضعيف جداً. وأدرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦٣/١ وأعله بطلحة بن زيد أيضاً. وورد من حديث أبي أمامة أو وائلة بن الأسقع، أخرجه ابن عدي ١٦٢/٥، ومن طريقه ابن الجوزي ٢٦٣/١ - ٢٦٤ وأعله بعثمان بن عبد الرحمن وأن عنده عجائب. وورد من حديث ابن عباس أخرجه العقيلي ٣٣٢ وفيه مجاهد بن سعيد، ضعيف، وأعله العقيلي بعدي بن أرطاة. والخبر منكر، فإن العالم يسأل ويحاسب كثيره من العامة، أو أكثر، والحديث لا يرتقي عن درجة الضعيف لشدة ضعف أسانيد، والله أعلم.

قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم - عن القاسم بن عبد الرحمن، عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين في حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشربين، قال: وكنت في أول العسكر إذ عارضتنا رجل فسلم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابي ووقف معي، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العسكر على جمل أحمر، مفتح بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول الله قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البكر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه رسول الله، فقال: أنت محمد؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان. فقال رسول الله ﷺ: سل عما شئت. فقال: يا محمد، أينام النبي؟ فقال رسول الله ﷺ: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، من أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال رسول الله: ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأبي المامين غلب على الآخر نزع الولد. فقال: صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: للرجل العظام والمروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والكبد والشعر. قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه؟ يعني الأرض. فقال رسول الله ﷺ: خلقت. فقال: فما تحتهم؟ قال: أرض. قال: فما تحت الأرض؟ قال: الماء. قال: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة. قال: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء. قال: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى. قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس، هل تدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل ﷺ^(١). هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب تفرّد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يساوي شيئاً»، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقد قال ابن عدي: لا يعرف. قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يحتمل أنه تعمّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجْعَزَ بِالْقَوْلِ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾، أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفْوَراً رَجِيماً﴾ [الفرقان: ٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال: السر ما أسر ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾، ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ لِأَلَّا يَكْفُرُوا وَلَا يَكْفُرُوا بِكُمْ لِأَلَّا يَكْفُرُوا﴾ [سورة لقمان: ٢٨]. وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تيسر اليوم، ولا تعلم ما تيسر غداً، والله يعلم ما تيسر اليوم، وما تيسر غداً. وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾، يعني الوسوسة. وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾، أي: ما هو

(١) إسناد واو. أهله ابن كثير رحمه الله بالقاسم بن عبد الرحمن ذكره الذهبي في الميزان ٦٨٢٢ بقوله: وضعفه أبو حاتم، وقال: حدثنا عنه محمد بن عبد الله الأنصاري بحديثين باطلين. وقال ابن معين: لا يساوي شيئاً أه، والظاهر أن أحد الحديثين هو هذا، وقد خلط في هذا الحديث كما ذكر ابن كثير، فبعضه محفوظ، جاء في روايات أخرى، وبعضه الآخر منكر. والله أعلم.

عامله مما لم يُحدّث به نفسه. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَوَىٰ﴾ (٨)، أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى. وقد تقدّم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف، والله الحمد والمئة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

من ها هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهروه في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأصل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شِعَابٍ وَجِبَالٍ، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزئد معه ليؤري نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرراً ولا شيئاً. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يَبْشُرْهُمْ: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾، وهي الجمر الذي معه لَهَبٌ، ﴿لَمَّا كَرِهَ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَمَّا أَسْبَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [التقصص: ٢٩]، دل على وجود البزد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى﴾، أي: يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق. كما قال الشوري، عن أبي سعيد الأعمور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى﴾، قال: من يهديني إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق. فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنهَا لُؤَيُّ يَمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾، أي: النار واقترب منها، ﴿لُؤَيُّ يَمُوسَىٰ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿لُؤَيُّ يَمُوسَىٰ﴾، ﴿لُؤَيُّ يَمُوسَىٰ﴾، قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي. وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبسة. قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد دخول الكعبة. وقيل: ليظا الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعيل. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿طُوًى﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه. وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوي له البركة وكُزرت. والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٦]. وقوله: ﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ﴾، كقوله: ﴿إِنِّي أَمَطَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: على جميع الناس من

الموجودين في زمانه . وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى ، أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا . قال : لأنني لم يتواضع لي أحدٌ تواضعك . وقوله : ﴿ فَاسْتَجِبْ لِمَا يُوْحَىٰ ﴾ ، أي : اسمع الآن ما أقول لك وأوجبه إليك ، ﴿ إِنَّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ : هذا أول واجبٍ على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ ، أي : وحدي وطم بعبادتي من غير شريك ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ، قيل : معناه صلِّ لتذكركني . وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي .

[٤٥٤١] ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا المشنى بن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : إذا زُفد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها ، فليُصلِّها إذا ذكرها ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾^(١) .

[٤٥٤٢] وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يُصلِّيها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك »^(٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ ، أي : قائمة لا محالة ، وكانت لا بد منها . وقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ، قال الضحاک ، عن ابن عباس : أنه كان يقرأها : « أكاد أخفيها من نفسي » ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً . وقال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : من نفسه . وكذا قال مجاهد ، وأبو صالح ، ويحيى بن رافع . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ، يقول : لا أطلع عليها أحداً غيري . وقال السدي : ليس أحدٌ من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود : « إنني أكاد أخفيها من نفسي » ، يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتُمها من نفسي لفعلت . وقال قتادة : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ، وهي في بعض القراءة « أخفيها من نفسي » ، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقال : ﴿ نُفِثْنَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا نَأْتِيكَ إِلَّا بَشْرًا ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، أي : نقل علمها على أهل السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب ، حدثنا أبو ثميلة ، حدثني محمد بن سهل الأسدي ، عن وقياء قال : أقرانيها سعيد بن جبیر « أكاد أخفيها » - يعني بنصب الألف وخفض الفاء - يقول : أظهرها ، ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

دَابَّ شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ شَهْرًا دَمِيكَأً بِأَرْيَكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرًا

وقال السدي : الغمير : نبت رطب ، يثبت في خلال بيس . والأريكين : موضع ، والدميك : الشهر التام . وهذا الشعر ليعكب بن زهير . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ، أي : أقيمها لا محالة لأجزئي كل عاملٍ بعمله ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾^(٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿^(٤) [الزلزلة : ٦ ، ٧] ، و ﴿ إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحریم : ٧] . وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾^(٥) ، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي : لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذ في دنياه ، وعصى مولا ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ، ﴿ فَتَرْدَى ﴾ ، أي : تهلك وتغطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾^(٦) [الليل : ١١] .

(١) صحيح . أخرجه مسلم ٦٨٤ و ٣١٦ وأحمد ٣/١٨٤ من طريق المشنى به .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٥٩٧ ومسلم ٦٨٤ وأبو داود ٤٤٢ والترمذي ١٧٨ والنسائي ١/٢٩٣ وابن ماجه ٦٩٦ وأحمد

٣/٢٤٣ و ٢٦٩ وابن حبان ١٥٥٥ .

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ سَنُيِّدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى - عليه السلام - ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله - عز وجل - وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. فقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن. ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، استفهام تقرير، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾، أي: اعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: أهرؤ بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي. قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المخبجن في الغضن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وتمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَىٰ﴾، أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المنازب التي أبهت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور المخارقة للعادة. والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفرض منها هارياً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية. وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عليه السلام. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، أي: صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك بحركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهي أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي وتضطرب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جَمِيع، حدثنا سِمَاك، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾. ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مديراً، فتودي أن: يا موسى، خذها. فلم يأخذها، ثم تودي الثانية: أن خذها ولا تحف. فقيل له في الثالثة: إنك من الآيين. فأخذها. وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، قال: فآلقها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يتغني شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخليفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالثاب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عينا تتقدان ناراً، وقد عاد المخبجن منها عرفاً، قيل: شعره مثل الثيازك، وعاد الشعبان منها مثل القليب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف. فلما عين ذلك موسى ولئى مديراً ولم يعقب. فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم تودي: يا موسى، أن ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَحْفَظْ سَنُيِّدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾، وعلى موسى حينئذ مذرعة من صوف، قد خلها بخلاك من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المذرعة على يديه،

فقال ملك: أرايت يا موسى، لو أذن الله بما تُحاذِر أكانت المدرعة تُغني عنك شيئاً؟ قال: لا. ولكنني ضعيف، ومن ضَعِفِ خُلِفْتُ. فكشَفَ عن يده ثم وضعها على فم الحيَّة، حتى سَمِعَ جَسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عَصَاهُ التي عَهدَها، وإذا يَدُهُ في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشَّعْبَيْنِ. ولهذا قال تعالى: ﴿سَمِعْتُمْهَا سِوَرَتَهَا الْأُولَى﴾، أي: إلى حالها التي تُعَرَفُ قبل ذلك.

﴿وَأَضْمَمُ بِدَلِّكَ إِنْ جَنَّاكَ فَخَرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوِّءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٧٧﴾ لِزَيْدِكَ مِنْ ءَابِتِنَا الْكَبْرَى ﴿٧٦﴾ أَذْهَبَ إِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٧٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٦٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ﴿٧٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٧٨﴾ وَأَجْمَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ ﴿٧٩﴾ هَنُورٍ أَمْحَى ﴿٨٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٨١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٨٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٨٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٨٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٨٥﴾﴾

وهذا برهان ثانٍ لموسى عليه السلام، وهو أنَّ الله أمره أن يُدْخَلَ يده في جيبه، كما صرَّح به في الآية الأخرى، وها هنا عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمُ بِدَلِّكَ إِنْ جَنَّاكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَّاكَ مِنْ الرَّهْمِ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمُ بِدَلِّكَ إِنْ جَنَّاكَ﴾: كَفَّ تَحْتَ عَضِيدِهِ وذلك أن موسى - عليه السلام - كان إذا ادَّخَلَ يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألا كأنها فلقة قمر. وقوله: ﴿فَخَرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوِّءٍ﴾، أي: من غير بَرَصٍ ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لِزَيْدِكَ مِنْ ءَابِتِنَا الْكَبْرَى﴾. وقال وهب: قال له ربه: اذنه. فلم يزل يُدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمَع يده في العَصَا، وخَضَع برأيه وعُنُقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجْتَ فَارًا منه وهاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُخَيِّسَ إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبتغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى. وقال وهب بن منبّه: قال الله لموسى: انطلق برسالتني فإنك وبعميني وسَمِعِي، وإن معك أيدي ونُضْرِي، وإنِّي قد البستك جُنَّةً من سلطاني لتَسْتَكْمِلَ بِهَا الْقُوَّةَ فِي أَمْرِي، فانت جند عَظِيمٌ من جندي، بعثتك إلي خَلْقِي ضَعِيفٌ من خَلْقِي، بَطِرَ نِعْمَتِي، وأَمِنَ مَكْرِي، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حَقِّي، وأنكر زُبُوبِي، ورَعَمَ أنه لا يَعْرِفُنِي؛ فإنِّي أقسم بعزتي لولا القَدْرُ الذي وضعت بيني وبين خَلْقِي لبطشتُ به بطشة جَبَّارٍ، يَغْضَبُ لَغْضَبِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حَصْبَتَهُ، وإن أمرت الأرض ابتلغته، وإن أمرت الجبال دَمَرْتَهُ، وإن أمرت البحار غرقتَه، ولكنه هان عليّ، وسقط من عيني، ووسعه جَلْمِي، واستغنيت بما عندي. وحقّ إنِّي أنا الغني لا غني غيري. قبله رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذَكَرَهُ أيامي، وحَذَرَهُ نِقْمَتِي وبَأْسِي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لِعُضْبِي، وقُلْ له فيما بين ذلك قولاً لينا لعلّه يتذكر أو يخشى، وخبره أني إلي العفو والمغفرة أسرع مني إلى العُضْبِ والعقوبة ولا يُروِعُكَ ما البسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس ينطق ولا يَطْرِفُ ولا يَتَنَفَّسُ إلا بإذني. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمئة سنة، في كلها أنت مبارزُه بالمحاربة، تُسَبُّ وتتمثل به، وتصدُّ عباده عن سبيله، وهو يُمِطُّ عليك السَّمَاءَ، ويُبِثُّ لك الأرضَ، لم تَسْمَمْ ولم تَهْرَمْ ولم تُفْتَقِرْ ولم تُغْلَبْ، ولو شاء أن يُعَجِّلَ لك العقوبة لَفَعَلَ، ولكنه ذو أناةٍ وحِلْمٍ عظيم. وجاهدُه

بنفسك وأخيك، وأتما تحتسيان بجهاده، فإني لو شئت أن آتية بجنود لا قِبَلُ لَه بها لَفَعَلْتُ، ولكن ليَعْلَم هذا العبدُ [الضعيف] الذي قد أَعْجَبَتْهُ نفسه وجموعُه أن الفِئَةِ القليلة - ولا قليلٌ مِنِّي - تغلبُ الفِئَةَ الكثيرةَ بِإِذْنِي. ولا تُعْجِبَنَّكُمَا زِينَتُهُ، ولا ما مُتَّعَ بِهِ، ولا تُمَدُّوا إِلَى ذَلِكَ أَعْيُنَكُمَا، فإنها زَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وزِينَةُ الْمُتَرَفِّينَ. ولو شِئْتُ أَنْ أُزَيِّنَنَّكُمَا مِنَ الدُّنْيَا بزيْنَةٍ لِيَعْلَمَنَّ فِرْعَوْنُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنْ مَقْبِرَتَهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ مَا أُوتِيْتُمَا، فَعَلْتُ. ولكن أَرْغَبُ بِكُمَا عَنْ ذَلِكَ وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا. وكذلك أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي. وقديماً ما جرت عَادَتِي فِي ذَلِكَ، فإني لأذودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا وَرَحَائِهَا، كما يَذُودُ الرَّاعِي إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ المَعْرَةِ. وما ذاك لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ، ولكن لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيْبَهُمْ مِنْ كَرَامَتِي سَالِماً مَوْفِراً لَمْ تَكْلُمَهُ الدُّنْيَا. واعلم أَنَّهُ لَا يَتَزَيَّنُ لِي العِبَادُ بِزِينَةٍ هِيَ أَبْلَغُ فِيْمَا عِنْدِي مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فإنها زِينَةُ المَتَّقِينَ، عَلَيْهِمْ مِنْهَا لِبَاسٌ يُعْرَفُونَ بِهِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالخُشُوعِ، سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، أَوْلِيَاكَ أَوْلِيَائِي حَقّاً حَقّاً، فَإِذَا لَقِيْتَهُمْ فَاحْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَذَلِّ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ، واعلم أَنَّهُ مِنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً أَوْ أَخَافَهُ فَقَدْ بَارَزَنِي بِالمُحَارَبَةِ، وَبَادَأَنِي وَعَرَّضَ لِي نَفْسَهُ وَدَعَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي، أَقِيظُنُّ الَّذِي يَحَارِبُنِي أَنْ يَقُومَ لِي، أَمْ يَظُنُّ الَّذِي يُعَادِيْنِي أَنْ يُعْجِزَنِي، أَمْ يَظُنُّ الَّذِي يُبَارِزُنِي أَنْ يَسْبِقَنِي أَوْ يَقُوتَنِي. وكيف وأنا الثائر لهم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، لَا أَكْبَلُ نُصْرَتَهُمْ إِلَى غَيْرِي، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، هذا سؤال من موسى - عليه السلام - لربه - عز وجل - أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمرٍ عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مدةً وليدأ عندهم، في حجرٍ فزعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكاملها. ثم بعد هذا بعثه ربه - عز وجل - إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له. ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾، أي: إن لم تكن عونِي ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك. ﴿وَأَمَلَلْتُ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ بِقَهْوَتِي قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾، وذلك لما كان أصابه من اللغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعتها على لسانه، كما سيأتي بيانه. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث ما يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قذر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقيته. قال الله تعالى إخباراً عن فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢]، أي: يفصح بالكلام. وقال الحسن البصري: ﴿وَأَمَلَلْتُ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي ﴿٢٧﴾﴾، قال: حلُّ عُقْدَةٍ وَاحِدَةٌ، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي. وقال ابن عباس: شكاً موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فِرْعَوْنَ فِي القَتِيلِ، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عُقْدَةٌ تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِذَاءٌ وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكثير مما لا يُفصح به لسانه، فاتاه سؤله، فحلَّ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ. وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عَنْ عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ، حَدَّثَنَا بِقِيَّتِهِ، عَنْ أَرْطَاةِ بْنِ المَنْذَرِ، حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْهُ قَالَ: أَنَا ذُو قُرَابَةٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا بَكَ بِأَسَى لَوْلَا أَنَّكَ تَلَحَّنُ فِي كَلَامِكَ، وَلَسْتُ تُعْرَبُ فِي قِرَاءَتِكَ، فَقَالَ الفَرَّظِيُّ: يَا ابْنَ أَخِي، أَلَسْتُ أَفْهَمُكَ إِذَا حَدَّثْتُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ مَوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ كَمَا يَفْعَلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَلَامَهُ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا. هذا لفظه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَخِي ٱلْحَارُونَ﴾، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فُتِيَ هارونُ ساعتئذٍ حين نُبِئَ موسى عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن ابن ثُمير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها خَرَجَتْ فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسَمِعَتْ رجلاً يقول: أي أخ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه؟ قالوا: ما نُدري. قال: أنا والله أدري؟ - قالت: فقلْتُ في نفسي: في خَلِيفِهِ لا يستثنى إنه لَيَعْلَمُ أي أخ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه - قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلْتُ: صدَّقَ الله. وفي هذا قال الله تعالى في الشفاء على موسى - عليه السلام -: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِرًّا أَرِي ٱلْأَرْضَ﴾، قال مجاهد: ظَهري. ﴿وَأَشْرَكَ فِيَّ أُمِّي﴾ أي: في مشاورتي، ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَيْبَرًا﴾ و﴿نَذَرْتُكَ كَيْبَرًا﴾، قال مجاهد: لا يكون العبدُ من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا﴾، أي: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وَبِعْتِكَ لنا إلى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ۗ﴾ وَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْبِدِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْبِدِيهِ فِي الْيَمِّ فَيَلْقِيهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَسْتَوِي أُنْتُمْ فَاقْبُدْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٤٠﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى - عليه السلام - فيما سأل من ربه - عز وجل - وتذكير له بتعميره السالفة عليه، فيما كان أهم أمه حين كانت تُرضعه، وتَحَذَّرُ عليه من فرعون وملئيه أن يقتلوه، لأنه كان قد وُلِدَ في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتا، فكانت تُرضعه ثم تَضَعُه فيه، وتُربِّسُه في البحر - وهو النيل - وتُمسِكُه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فَحَصَلَ لها من الغم والهَمِّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُرْمَى مَوْسَىٰ قَدِيْرًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهٖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحرُ إلى دارِ فِرْعَوْنَ، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: قَدْرًا مقدورا من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حَذْرًا من وجود موسى، فَحَكَّمَ الله - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - أن لا يُرْبِي إلا على فراش فرعون، ويُغْذِي بِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مع مَحَبَّةٍ وزوجية له. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. أي: عند عَدُوِّكَ، جَعَلْتُهُ يُحِبُّكَ. قال سلمة بن كهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قال: حَبَبْتُكَ إلى عبادي: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، قال أبو عمران الجوني: تُرْبِي بعين الله. وقال قتادة: تُغْذِي على عيني. وقال معمر بن المشي: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، يَحِيْثُ أَرَى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجمعه في بيت المَلِكِ، يَنْعَمُ وَيَتْرَفُ، غِذَاؤُهُ عندهم غِذَاءُ المَلِكِ، فتلك الصنعة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَوِي أُنْتُمْ فَاقْبُدْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، وذلك أنه لما استقرَّ عند آل فِرْعَوْنَ، عَرَضُوا عليه المَرَضِعَ، فأباهَا. قال الله - عز وجل - ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ المَرَضِعَ مِن قَبْلِ﴾، فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِي يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيْرُونَ﴾ [القصص: ١٢]، تعني

هل أدلكم على من تُزِيعُهُ لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه نذيتها، فقبله، ففَرَحُوا بذلك فَرَحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادةً ورفعةً وراحةً في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل. ولهذا جاء في الحديث:

[٤٥٤٣] **«مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى، تُرَضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»**^(١). وقال تعالى ما هنا: **«فَرَجَمْنَاكَ إِلَهُ أَيْكَ كَيْ نَفَرَّ عَيْنَا وَلَا نَحْزَنُ»**، أي: عليك، **«وَقَلَّتْ نَفْسًا»**، يعني: القبطي، **«فَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَمْرِ»**، وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففَرَّ منهم هارباً، حتى وَرَدَ ماء مَدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: **«لَا تَخَفْ فَمَوْتٌ مِنْكَ أَلْقَوْمِ الْقَلِيلِينَ»** [القصص: ٢٥].

وقوله تعالى: **«وَقَتَّلَكَ فُتُونًا»**؛ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي - رحمه الله - في كتاب التفسير من سننبيه: قوله: **«وَقَتَّلَكَ فُتُونًا»**، حديث الفتون:

[٤٥٤٤] حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله - عز وجل - لموسى - عليه السلام -: **«وَقَتَّلَكَ فُتُونًا»**، فسألته عن الفتون، ما هو؟ فقال: استأنف النصارى ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لآتجوز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل في ذريته أنبياء ومُلوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب. فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم. فقال فرعون: فكيف تزون؟ فاتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم والصغار يذبحون، قالوا: لئوشك أن تفتوا بني إسرائيل فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فائقوا عاماً كل مولود ذكراً، فيقتل نباتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشرب الصغار مكاناً من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولن يقتلوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - ما دخل عليه وهو في بطن أمه، مما يزداد به. فأوحى الله إليها أن لا تخافي **«وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»**. فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنتها أتتها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت يا بني، لو ذبح عندي فواريته وكففته كان أحب إلي من أن ألقية إلى دواب البحر وحياته. فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضة مُستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذته فهممن أن يفتح التابوت، فقال بعضهم: إن في هذا مالاً، وإننا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته كهيته لم يخرج منه شيئاً حتى دقته إليها. فلما فتحته رأته غلاماً، فألقى عليها منه محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم: أفرؤه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى أتى فرعون فاستوهبه منه، فإن وقبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر يذبحه لم ألكم. فأنت فرعون

(١) لم أره بعد بحث، ولا يصح، ويشبه أن يكون من كلام أهل التفسير.

فقلت: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي مِنَ الْوَلَدِ﴾ فقال فِرْعَوْنُ: يكونُ لك، فأما لي فلا حاجةَ لي فيه؛ فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُخَلِّفُ به لو أقر فِرْعَوْنُ أن يكون قُرَّةَ عين له، كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حَزَمَهُ ذلك». فأرسلت إلى من حَوْلَهَا، إلى كلِّ امرأة لها لبَنٌ لتختار له ظئراً، فجعلت كُلُّها أخذته امرأةٌ منهنَّ لِثَرِيعَهُ لم يَقْبَلْ ثَدْيَهَا حَتَّى أَشْفَقَتْ امرأةٌ فِرْعَوْنَ أن يَمْتَنِعَ من اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فأحزنتها ذلك. فأمرت به فأخرج إلى السوق ومَجْمَعِ النَّاسِ، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذها منها، فلم يَقْبَلْ.

وأصبحت أم موسى والهاً، فقالت لأختها: قُصِي أثره واطلبيها، هل تسمعين له ذكراً؟ أحيى ابني أم قد أكلته الدواب؟ وتبييت ما كان الله وَعَدَهَا فيه، فَبَصُرَتْ به أخته عن جُنبٍ وهم لا يشعرون - والجُنبُ: أن يَسْمُوَ بَصَرَ الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يُشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّنُورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يُدريك؟ ما نصحهم له؟ هل تعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر - فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رَغْبَتُهُمْ في ظنورة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها فَمَضَه حَتَّى امتلأ جنبها رِثاً، وانطلق البُشراء إلى امرأة فِرْعَوْنَ يُبَشِّرُونَهَا أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها فأتت بها وبِهِ، فلما رأت ما يصنعُ بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حَبَّهُ قَط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أزع بيتي وولدي قَيْصِيح، فإن طابت نفسك أن تعطيني، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا ألوه خيراً فَعَلْتُ، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذَكَرْتُ أم موسى ما كان الله وَعَدَهَا فيه، فتعاسرت على امرأة فِرْعَوْنَ، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فَرَجَعْتُ به إلى بيتها من يَوْمِهَا، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظ لما قد قُضِيَ فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني؟ فوعدهتها يوماً تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديّة وكرامة لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يُحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فِرْعَوْنَ، فلما دخل عليها تحلته وأكرمه وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لا يتين به فِرْعَوْنَ فَلْيَنحِلْهُ وَلْيُكْرِمْهُ. فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحيّة فِرْعَوْنَ فَمَدَّهَا إلى الأرض، فقال العوّاة من أعداء الله لِفِرْعَوْنَ: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك. فأرسل إلى الذُّبّاحين ليذبحوه؛ وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر، بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به قُتُوناً. فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدأ لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترى، إنه يزعم أنه يصرعني ويعلوني. فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، إني بجمرتين ولؤلؤتين فقريهنّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يغفل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤيّر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يغفل. فقرب إليه، فتناول الجمرتين فانزعوهما منه مخافة أن تحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد همّ به، وكان الله بالغا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فِرْعَوْنَ يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه يظلم ولا سُخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع. فبينما موسى - عليه السلام - يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فِرْعَوْنِي والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفِرْعَوْنِي، فغضب موسى غضباً

شديداً، لأنه تناوله وهو يعلمُ منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يُطْلغ عليه غيره. فوكز موسى الفِرْعَوْنِي فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله - عز وجل - والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ حَلِي الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَكَ إِكْرَامُهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار. فأتي فرعون قبيلاً له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قوميه لا يستقيم له أن يقيد بغير بيته ولا ثبت. فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبثاً إذا موسى من العُد قد رأى ذلك الإسرائيلي يُقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفِرْعَوْنِي، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفِرْعَوْنِي، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَنُورٌ مُبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفِرْعَوْنِي، فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَنُورٌ مُبِينٌ﴾، أن يكون إياه أراة، ولم يكن أراة إنما أراد الفِرْعَوْنِي. فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَمُرُّونَ أَثَرِيذَ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ﴾، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتنازكا، وانطلق الفِرْعَوْنِي فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ﴾، فأرسل فرعون الدُّبَّاحِينَ ليقتلوا موسى، فأخذ رُسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتيهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شبيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبهم إلى موسى، فأخبره الخبر؛ وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا أحسن ظنه بربه عز وجل؛ فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ فقلتا: ليس لنا قوة نزاجم القوم، وإنما ننتظر فضول جياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء. فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما. وانصرف موسى - عليه السلام - فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لساناً. فأخبرتا بما صنع موسى. فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ جَبَّوتَ مِنَ الْقَوِيِّ الظَّالِمِينَ﴾، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقلتا إحداهما: ﴿يَتَأْتِي آمَنَّا شَجَرَةٌ إِسْرَائِيلَ خَيْرٌ مِنْ آمَنَّا شَجَرَتِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ﴾. فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يُدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ قالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانمتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسرتي عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿أَنْ أَكْحَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيْهِ أَنْ تَأْجُرَنِي فَتَكُنِي حِجَابًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَحَنِّ عَيْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١). ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمانين سنين واجبة، وكانت ستان عده منه، ففضى الله

عنه عِدَّتْه فَاتَمَّتْهَا عَشْرًا. قَالَ سَعِيدٌ، وَهُوَ ابْنُ جُبَيْرٍ: فَلَقِينِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي أَيَّ الْأَجْلِينَ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا - وَأَنَا يَوْمُنْذَ لَا أُدْرِي - فَلَقِيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ وَاجِبَةً، لَمْ يَكُنْ نَبِيُّ اللَّهِ لِيَنْقُصْ مِنْهَا شَيْئًا، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ كَانَ قَاضِيًا عَنْ مُوسَى عِدَّتَهُ الَّتِي وَعَدَهُ فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ. فَلَقِيْتُ النَّصْرَانِيَّ فَاخْبَرْتُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتَهُ فَاخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ. قُلْتُ: أَجَلٌ، وَأَوَّلَى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله سبحانه ما يتخوف من آل فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَعُقْدَةَ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةً تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِذَاءً، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ. فَأَتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ، وَحَلَّ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَارُونَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هَارُونَ - عليهما السلام - فانطلقا جميعاً إلى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤَدُّنَ لِهَمَّا، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قَالَ: ﴿فَمَنْ رَزَقْنَاكَ﴾ [طه: ٤٧ - ٤٩]. فَاخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ. قَالَ: فَمَا تُرِيدَانِ؟ وَذَكَرَهُ الْقَتِيلَ، فَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَعَيْتَ. قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تَوْمِنَ بِاللَّهِ، وَتُرْسِلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ: ﴿فَأَنْتَ بِآيَاتِي إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فَأَلْقَى عَصَاهُ فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى عَظِيمَةً فَاعْرَضَهَا، فَسُرِعَتْ إِلَى فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنَ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَافْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفُفَهَا عَنْهُ. فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جِيْبِهِ فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ - ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ. فَاسْتَشَارَ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا مِنْ سِحْرَانِ ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكَ مِنَ الْثَلْثِ﴾ [طه: ٦٣] - يَعْنِي مُلْكِهِمُ الَّذِي هُمَ فِيهِ وَالْعَيْشُ - فَأَبَوْا عَلَى مُوسَى أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لِهَمَّا السَّحْرَةَ، فَإِنَّهُمَا بَارِضُكَ كَثِيرٌ حَتَّى تَغْلِبَ بِسِحْرِكَ سِحْرَهُمَا. فَارْسَلْ إِلَى الْمَدَائِنِ فَحَشِّرْ لَهُ كُلَّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا: بِمِ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟ قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَاتِ. قَالُوا: فَلَا وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ بِالسَّحْرِ بِالْحَيَاتِ وَالْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ. وَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَقْرَابِي وَخَاصَّتِي، وَأَنَا صَانِعُ إِلَيْكُمْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْبَبْتُمْ. فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ، ﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ سِحْرِي﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيد بن جبير: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ يَوْمَ الزَّيْنَةِ الْيَوْمِ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةَ، هُوَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الْأَمْرَ، ﴿لَمَّا تَبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ اسْتَهْزَأَ بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى - لَقَدْزَيْتَهُمْ بِسِحْرِهِمْ - ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. ﴿قَالَ بَلْ الْفُلُوكُ﴾ [طه: ٦٦]. ﴿فَالْقُرْآنُ جِبَالُهُمْ وَصَيْبُهُمْ وَقَالُوا بَعْزُهُ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا لَتَعْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فَرَأَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ ﴿أَنْتَ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ ثَعْبَانًا عَظِيمَةً فَاعْرَضَهَا، فَجَعَلَتِ الْعِصِيَّ تَلْتَبِسُ بِالْحِبَالِ حَتَّى صَارَتْ جَزْرًا إِلَى الثَّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصَاً وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحْرَةَ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا كُلِّ هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَّا بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَتَثُوبَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ. فَكَفَسَرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، ﴿وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿فَقُلِّبُوا هُنَاكَ وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، [١١٩] وَاِمْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَدِّلَةٌ تَدْعُو اللَّهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، فَمَنْ رَأَاهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظَنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا ابْتَدَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى.

فلما طال مُكُثُّ مُوسَى بِمَرَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الكاذبة، كُلَّمَا جَاءَ بآيَةٍ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُزِيلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَى قَوْمِهِ الطُّوفَانَ وَالجِرَادَ وَالقُمَّلَ وَالصَّفَادِيحَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْضِلَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفُفَهَا عَنْهُ، وَيُؤَاتِيهِ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كُفِّ ذَلِكَ عَنْهُ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَنَكَثَ عَهْدَهُ. حَتَّى أَمَرَ اللهُ مُوسَى بِالخُرُوجِ بِقَوْمِهِ فَخَرَجَ بِهِمْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنَ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضُوا أَرْسَلَ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ، فَتَبِعَهُمْ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، وَأَوْحَى إِلَى البَحْرِ؛ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ فَانفَلِقْ ائْتِي عَشْرَةَ فِرْقَةً، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ اتَّقَ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ. فَتَسَبَّى مُوسَى أَنْ يَضْرِبَ البَحْرَ بِالعَصَا، وَانْتَهَى إِلَى البَحْرِ وَلَهُ قَصِيْفٌ مَخَافَةٌ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ وَهُوَ غَافِلٌ قَيْصِرٌ عَاصِبًا لِلَّهِ.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنُدْرِكُوكَ﴾ [الشعراء: ٦١] افعل ما أمرتك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب: قال: وَعَدَنِي إِذَا آتَيْتُ البَحْرَ انْفِرَقْ ائْتِي عَشْرَةَ فِرْقَةً حَتَّى أَجَاوِزَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ العَصَا، فَضَرَبَ البَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَرَأَيْتَ جُنْدَ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى، فَانْفِرَقَ البَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى، فَلَمَّا أَنْ جَاوزَ مُوسَى وَأَصْحَابَهُ كُلَّهُمُ البَحْرَ، وَدَخَلَ فِرْعَوْنَ وَأَصْحَابَهُ، التَقَى عَلَيْهِمُ البَحْرُ كَمَا أَمَرَ، فَلَمَّا جَاوَزَ مُوسَى البَحْرَ قَالَ أَصْحَابُهُ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنَ غَرِقَ وَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ. فَدَعَا رَبُّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ بَيْدِنَهُ حَتَّى اسْتَبَقُوا بِهَلَاكِهِ. ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [١٧٨] إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ بِبِذِينِ وَكَلَّافًا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ العِبَرِ وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ وَمَضَى. فَانزَلَهُمُ مُوسَى مَنْزِلًا وَقَالَ: أَطِيعُوا هَارُونَ فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي. وَأَجَلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فِيهَا. فَلَمَّا أَتَى رَبُّهُ وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ، وَكَبَّرَهُ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَرِيحٌ فِيهِ - رِيحٌ فَمِ الصَّائِمِ - فَتَنَّاوَلُ مُوسَى مِنْ نَبَاتِ الأَرْضِ شَيْئًا فَمَضَعَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ آتَاهُ: لِمَ أَفْطَرْتَ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالذِّئْبِ كَانِ - قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِي طَيْبِ الرِّيْحِ. قَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتِ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبٌ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، ارْجِعِ قَضْمُ عَشْرًا ثُمَّ ائْتِي. فَفَعَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا أَمَرَ بِهِ.

فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي الأَجَلِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ هَارُونَ قَدْ حَطَّبَهُمْ وَقَالَ: إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلِقَوْمِ فِرْعَوْنَ عِنْدَكُمْ عَوَارِي وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنَّكُمْ تَحْتَسِبُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ، وَلَا أَحُلُّ لَكُمْ وَدِيعةً اسْتَوْدِعْتُمُوهَا وَلَا عَارِيَّةً، وَلَسْنَا بِرَأْيَيْنِ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا مُنْسِكِيهِ لِأَنْفُسِنَا، فَحَقَّرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ جَلِيَّةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ فِي ذَلِكَ الحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمِ يَعْبُدُونَ البَقْرَ جِيرَانِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقَضِي لَهُ أَنْ رَأَى أَثْرًا فَقَبِضَ مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فَقَالَ لَهُ هَارُونَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تَلْقِي مَا فِي يَدِكَ؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرِّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ البَحْرَ، وَلَا أَلْقِيهَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهُ إِذَا أَلْقَيْتُمَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ. فَالْقَاهَا، وَدَعَا لَهُ هَارُونَ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا. فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الحَفِيرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ جَلِيَّةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حديدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجُوفًا، لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، لَهُ حَوَارٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتٌ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ فِي ذُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ. فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْقَاتًا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ، مَا هَذَا؟ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ. قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنْ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نُكَذِّبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنَّ كَانَ رَبَّنَا لَمْ نَكُنْ ضَعِيفَةً وَعَجَزْنَا فِيهِ

حين رأينا وإن لم يكن زُبناً فإننا نَتَّبِعُ قولَ موسى . وقالت فرقة: هذا عملُ الشيطان، وليس بِرَبِّنا ولا نُؤْمِنُ به ولا نُصَدِّقُ، وَأَشْرَبُ فرقةً في قلوبهم الصِّدْقُ بما قال السَّامِرِيُّ في العجل وأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ به، فقال لهم هارون: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ٩٠] وليس هكذا. قالوا: فما بأل موسى وَعَدَدْنَا ثلاثين يوماً ثُمَّ أَخْلَفْنَا؟ هذه أربعون يوماً قد مضت . وقال سفهاؤهم: أخطأ رَبُّه فهو يطلبه ويتبعه . فلما كلم الله موسى وقال له ما قال: أخبره بما لقي قَوْمُه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، فقال لهم ما سَمِعْتُمْ في القرآن، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عَدَرَ أخاه بعُذْرِهِ، واستغفر له، وانصرف إلى السامريِّ فقال له: ما حَمَلَكَ على ما صنعت؟ قال: قبضتُ قَبْضَةً من أثر الرسول، وَقَطِنْتُ لها وَعُمِيْتُ عليكم، ﴿فَسَبَّحْتَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّكْتُ لِي نَفْسِي﴾ ﴿١٦٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْجِدًا لَنْ تُغْلَبَهُمُ وَالْقُرْآنُ لِلَّذِينَ هَدَى اللَّهُ الْبُرُوجَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ سَبْعَ سَبِيلًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلهاً لم يُخَلِّصْ إلى ذلك منه . فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا، فَيُكْفِرَ عَنَّا مَا عَمَلْنَا . فاختار موسى قَوْمَه سبعين رجلاً لذلك، لا يَأْلُوا الخَيْرَ خيار بني إسرائيل، ومن لم يُشْرِكْ في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فَرُجِحَتْ بهم الأرض، فاستحيا نبيُّ الله مِنْ قَوْمِهِ ومن وفده حين فَعَلَ بهم ما فَعَلَ، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكَ بِمَا مَقَلَّ الْأَسْمَاءُ إِنَّمَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم من كان الله أطلع منه على ما أُشْرِبَ قلبه من حُبِّ العجل وإيمان به، فلذلك رَجِحَتْ بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَسَأَكْتُمِبُ الَّذِينَ يَنْقُورُونَ وَرُوؤُفُوكَ الرَّكُوعَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦] . فقال: يا رب، سألْتُكَ التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبها لقوم غير قومي، فليتكَ أخرتني حتى تُخرجني في أمة ذلك الرَّجُلِ المَرْحُومَةِ . فقال له: إن توبتهم أن يُقْتَلَ كُلُّ رجلٍ منهم مَنْ لقي من وَالِدٍ وَوَالِدٍ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قَتَلَ في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون وأطلع الله من ذُنُوبِهِم فاعتزفوا بها، وَقَعَلُوا ما أمروا، وَغَفَرَ اللهُ للقاتلِ والمقتولِ .

ثم سار بهم موسى - عليه السلام - مُتَوَجِّهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سَكَتَ عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره به أن يُبَلِّغَهُم من الوظائف، فَتُقَلَّ ذلك عليهم، وَأَبَوْا أن يَقْرَؤُوا بها، فَتَنَّقَ اللهُ عليهم الجبل كأنه ظُلَّةٌ، وَدَنَا منهم حتى خَافُوا أن يَقَعَ عليهم، فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مُصْغُورُونَ ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يَقَعَ عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خَلَقَهُمُ خَلْقٌ مُنْكَرٌ - وَذَكَرُوا من ثمارهم أمراً عجبياً من عِظْمِهَا - فقالوا: ﴿يَكُونُ مِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين - آمنا بموسى . وَخَرَجَا إِلَيْهِ، فقالوا: نحن أعلم بقومنا، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمُ عَلَيْهِمُ غَلِيُونَ﴾، ويقول أناس: إنهما من قوم موسى - فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿يَكُونُ مِنْ إِنَّا كَنَّا نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَعَدِّتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَوَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ . فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدعُ عليهم قبل ذلك، لِمَا

رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله تعالى له، وسَمَّاهم كما سَمَّاهم موسى: فاسقين، فَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ. ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ فِي النَّهْيِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَجَعَلَ لَهُمْ نَيَابًا لَا تَبْلَى وَلَا تَسْتَيْخُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ حَجْرًا مَرْبُوعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، ﴿فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ أَلْفَ عَشْرَةٍ حَيْثَمَا﴾ [البقرة: ٦٠]، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثَ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلُّ سَبِيحٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرِبُونَ مِنْهَا، فَلَا يَزْتَحِلُّونَ مِنْ مَرِحَلَةٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْحَجَرَ بَيْنَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالْأَمْسِ. رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَصَدَّقَ ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ مَعَاوِيَةَ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْفِرْعَوْنِي الَّذِي أَفْسَى عَلَى مُوسَى أَمْرَ الْقَتِيلِ الَّذِي قُتِلَ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْثِي عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ عَلِيمًا بِهِ وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي حَضَرَ ذَلِكَ؟ فَغَضِبَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَأَخَذَ يَبِيدُ مَعَاوِيَةَ فَاَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَالِكِ الزُّهْرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، هَلْ تَذَكَّرُ يَوْمَ حَدَّثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتِيلِ مُوسَى الَّذِي قُتِلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ؟ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي أَفْسَى عَلَيْهِ أَمْ الْفِرْعَوْنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَفْسَى عَلَيْهِ الْفِرْعَوْنِي بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ وَحَضَرَهُ^(١). هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى»، وَأَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِيهِمَا، كُلُّهُمَا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ، بِهِ. وَهُوَ مَوْقُوفٌ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ، وَكَانَهُ تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِمَّا أُبِيحَ نَقْلُهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْ كَتِّبِ الْأَحْبَارِ أَوْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا الْحَجَّاجِ الْمِزَنِيَّ يَقُولُ ذَلِكَ أَيْضًا.

﴿فَلَيْسَتْ سَيِّئًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤْنَ ﴿٤١﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْحَوْكُ بِنَائِبِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٤﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى - عليه السلام -: إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارَاً مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، يَزْعَى عَلَى صَهْرِهِ، حَتَّى انْتَهتِ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لِقَدْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْمَسْتَبِرُّ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ فِيمَا يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ عَلَى مَوْعِدٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤْنَ﴾، قَالَ: عَلَى قَدَرِ الرَّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤٢﴾، أَيُّ: أَصْطَفَيْتَكَ وَاجْتَبَيْتَكَ رَسُولًا لِنَفْسِي، أَيُّ: كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ.

[٤٥٤٥] وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا

(١) أَخْرَجَهُ بَطْوَلَةُ النَّسَائِيِّ فِي «الْكُبْرَى» ١١٣٢٦ وَأَبُو يَعْلَى ٢٦١٨ وَالطَّبْرِيُّ ٢٤١٣١ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ مَوْقُوفٌ، لَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ، وَفِيمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ نَظَرَ، فَإِنَّ الرَّوَّيَ ذَكَرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَفَعَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلِّ الْحَدِيثِ. وَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ بِكُلِّ حَالٍ مَدَارُهُ عَلَى أَصْبَغِ بْنِ زَيْدٍ، جَاءَ فِي «الْمِيزَانِ» ١٠١٠: وَثَقَهُ يَحْيَى، وَقَالَ النَّسَائِيُّ: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: ثَقَّةٌ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ وَقَدْ سَأَلَ لَهُ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ: وَهَذِهِ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ، وَهُوَ رَوَاهُ حَدِيثِ الْفَتَوَى. وَزَادَ الْحَافِظُ فِي التَّهْذِيبِ ٦٥٦/١: وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: شَيْخٌ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: مَا بَحَدِيثِهِ بَأْسٌ، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: كَانَ ضَعِيفًا فِي الْحَدِيثِ، وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ: كَانَ يَجْطِئُ كَثِيرًا، لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِغَيْرِهِ إِذَا انْفَرَدَ، وَقَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ قَاسِمٍ: لَيْزَنٌ، لَيْسَ بِحُجَّةٍ أَهْلٌ فَتَلْخِصْ بِهِذَا أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى تَوْهِينِهِ، وَأَنَّهُ إِلَى الضَّعْفِ أَقْرَبُ، وَلَمْ يَتَابِعْهُ هَلْ هَذَا الْحَدِيثُ أَحَدٌ، فَالْمَرْفُوعُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ سِوَاهُ بَعْضُهُ، أَوْ كُلُّهُ، وَأَمَّا كَوْنُهُ مَوْقُوفًا، فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَوَى أَشْيَاءَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ كَثِيرٍ هَهُنَا، وَكَذَا شَيْخُهُ الْمِزَنِيُّ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، واصطفاك لنفسيه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتبت عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فتحج آدم موسى^(١). أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْحُوكَ بِقَائِبِي﴾، أي: بحججني وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تُبطلنا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فزعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسيراً له؛ كما جاء في الحديث:

[٤٥٤٦] «إِنْ عَبْدِي كُلِّ عَبْدِي لِلَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُتَاجِرٌ قِرْنَهُ»^(٢). ﴿أَذْهَبَا إِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، أي: تمرد وعتا وتجهرم على الله وعصاه، ﴿فَقَوْلَا لَوْ لَمَلْنَا لَمَلْنَا بِمَنْ يَذُكِّرُكُمُ اللَّهُ فِيهَا بَعْدَ بَعْدِهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَنْ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ، وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، وَمَعَ هَذَا أَمِيرُ الْأَيُّمِ يَخَاطَبُ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمَلَاطِفَةِ وَاللَّيْنِ، كَمَا قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَقَوْلَا لَوْ لَمَلْنَا﴾: يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يِعَادِيهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ؟ وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مَثَبَةَ: قَوْلَا لَهُ: إِنِّي إِلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ أَقْرَبُ مِنْنِي إِلَى الْعُضْبِ وَالْعُقُوبَةِ. وَعَنْ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَوْلَا لَوْ لَمَلْنَا﴾، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ عَبِيدٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: ﴿فَقَوْلَا لَوْ لَمَلْنَا﴾: أَعِذْرَا إِلَيْهِ، قَوْلَا لَهُ: إِنَّ لَكَ رَبًّا، وَلَكَ مَعَادًا، وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً وَنَارًا. وَقَالَ بَقِيَّةٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنِ الضُّحَّاكِ بْنِ مَرْجَانٍ، عَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ، عَنْ عَلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَوْلَا لَوْ لَمَلْنَا﴾، قَالَ: كُنْهُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: كُنْهُ بِأَبِي مُرَّةٍ. وَالْحَاصِلُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ أَنَّ دَعْوَتَهُمَا لَهُ تَكُونُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ لَيْنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ، لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ وَأَنْجَعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]... الآية. وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَلْنَا يَذُكِّرُكُمُ اللَّهُ فِيهَا بَعْدَ بَعْدِهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أَي لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ، ﴿أَوْ يَمْشِقُونَ﴾، أَي: يُوجِدُ طَاعَةً مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، فَالْتَذَكُّرُ: الرَّجُوعُ عَنِ الْمَحْذُورِ، وَالْخَشْيَةُ: تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿لَمَلْنَا يَذُكِّرُكُمُ اللَّهُ فِيهَا بَعْدَ بَعْدِهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يَقُولُ: لَا تَقُلْ أَنْتَ يَا مُوسَى وَأَخُوكَ هَارُونَ: أَهْلِكُمْ، قَبْلَ أَنْ تُعْذِرَا إِلَيْهِ.

وها هنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويؤيّد لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق: وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلِ مَنْ وَرَحْمَةٍ قُلْتِ لَهُ: فَادْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا فَقَوْلَا لَهُ: هَلْ أَنْتِ سَوِيَتْ هَذِهِ وَقَوْلَا لَهُ: أَنْتِ رَقِيفَتْ هَذِهِ وَقَوْلَا لَهُ: أَنْتِ سَوِيَتْ وَسَطَهَا وَقَوْلَا لَهُ: مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً

لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق: بَعَثَتْ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مُنَادِيًا إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ بَاغِيًا بِلَا وَتِدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ؟ بِلَا عَمَدٍ؟ أَرَفِئْتُ إِذَا بِكَ بَانِيَا مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا؟ فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا؟

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٦ ومسلم ٢٦٥٢ من طريق ابن سيرين به.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ من حديث عمارة بن زعكرة وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي اهـ. قلت: فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف الحديث.

وقولاً له: مَنْ يُنْبِئُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي زُرُوسِهِ
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَمُّ رَبَابِيَا؟
فَفِي ذَٰلِكَ آيَاتٌ لِّمَنْ كَانَ وَعِيَا

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَنَّا﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾
فَأَيُّاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا
مَنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُرْهِقْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيْنَا مِنْ كَذِّبٍ وَقَوْلِي ﴿٤٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون - عليهما السلام - أنهما قالَا مُسْتَجِيرِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَنَّا﴾ ، يعنِيَانِ أَنْ يَبْدُرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ ، أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهِمَا فَيَعاقِبُهُمَا وَهَمَا لَا يَسْتَحِقَانِ مِنْهُ ذَلِكَ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ: «أَنْ يُقْرَطَ»: يَعْجَلُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَنْسَطُ عَلَيْنَا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَوْ أَنْ يَطْفَنَّا»: يَعْتَدِي . «قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» ، أَي: لَا تَخَافَا مِنْهُ ، فَإِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَكَلَامَهُ ، وَأَرَى مَكَانَكُمْ وَمَكَانَهُ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ ، وَاعْلَمْنَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي ، فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْتَفِسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي وَبَعْدَ أَمْرِي ، وَأَنَا مَعَكُمْ بِحِفْظِي وَنَضْرِي وَتَأْيِيدِي .

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِيسِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو معاويةَ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَةَ ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ قَالَ: رَبِّ ، أَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: هِيَ شَرُّ هَيْبَا . قَالَ الْأَعْمَشُ: تَفْسِيرُ ذَلِكَ . الْحَيُّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْحَيُّ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ (١) . إسنَادٌ جَيِّدٌ ، وَشَيْءٌ غَرِيبٌ . ﴿فَأَيُّاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ، قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ «الْفُتُونِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَكَّنَّا عَلَى بَابِهِ حِينَمَا لَا يُؤَدُّنَ لِهَمَّا ، ثُمَّ أُذِنَ لِهَمَّا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ .

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ: أَنَّ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ خَرَجَا فَوْقَ بِيَابِ فِرْعَوْنَ يَلْتَمِسَانِ الْإِذْنَ عَلَيْهِ وَهَمَا يَقُولَانِ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأَذِنُوا بِنَا هَذَا الرَّجُلِ . فَمَكَّنَا فِيمَا بَلَّغْنِي سِتِّينَ يَغْدُوَانِ وَيَزُورِحَانِ ، لَا يَعْلَمُ بِهِمَا وَلَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ عَلَيَّ أَنْ يُخْبِرَهُ بِشَأْنِهِمَا ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَطَّالٌ لَهُ يَلَاعِبُهُ وَيُضْحِكُهُ ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ عَلَيَّ بَابَكَ رَجُلًا يَقُولُ قَوْلًا عَجَبًا ، يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ إِلَهًا غَيْرَكَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ . قَالَ: بِيَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ . قَالَ: أَدْخِلُوهُ . فَدَخَلَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ وَفِي يَدِهِ عَصَاهُ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيَّ فِرْعَوْنَ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَعَرَفَهُ فِرْعَوْنُ . وَذَكَرَ السَّيِّدِي أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ بِلَادَ مِصْرَ ، ضَافَ أُمَّهُ وَأَخَاهُ وَهَمَا لَا يَعْرِفَانِهِ ، وَكَانَ طَعَامُهُمْ لِيَلْتَمِذِ الطَّفَقِشَلِ وَهُوَ اللَّفْتُ ، ثُمَّ عَرَفَاهُ وَسَلَّمَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ مُوسَى: يَا هَارُونَ ، إِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَتِيَ هَذَا الرَّجُلَ فِرْعَوْنَ فَادْعُوهُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَمْرٌ أَنْ تُعَاوَنَنِي . قَالَ: افْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ . فَذَهَبَا ، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا ، فَضَرَبَ مُوسَى بَابَ الْقَصْرِ بِعَصَاهُ ، فَسَمِعَ فِرْعَوْنَ فَنَغَضِبَ وَقَالَ: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيَّ هَذَا الصَّنِيعِ؟ فَأَخْبِرَهُ السَّنْدَةُ وَالْبَزَائِبُونَ أَنَّ هُنَا رَجُلًا مَجْنُونًا يَقُولُ: «إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ» . فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِ . فَلَمَّا وَقَفَا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَا وَقَالَ لِهَمَّا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ .

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ ، أَي: بِدَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّكَ﴾ ، أَي: وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنْ أَتَيْتَ الْهُدَى .

[٤٥٤٧] ولهذا لما كتبت رسول الله ﷺ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ كِتَابًا ، كَانَ أَوَّلَهُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

(١) جوده المصنفا وفيه نظر، فإن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وفيه عنمة الأعمش، فالإسناد ضعيف.

الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يوتك الله أجرَك مرتين»^(١).

[٤٥٤٨] وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، فلك المدد ولي الوبر، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من أتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»^(٢). ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون: ﴿وَأَسَلْتُمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعْتُ الْمُنَكَ (١٧) إِنَّا قَدْ أُرِجِي إِيَّتَا أَنْ الْمَدَابِ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٨)﴾، أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب ممتحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَطَمَ (١٧) وَآثَرَ لِلْبَيْتِ الْآثِمِ (١٨) لَمَّا لَبِثَ فِي الْمَوْتِ (١٩)﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْكُنْ (١٤) لَا يَسْمَلُهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦)﴾ [الليل: ١٤-١٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا سَفَكٌ وَلَا مَلْ (٢١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٢٢)﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]، أي: كذب بقلبه وتولى بغيره.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ (٥٢)﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً ووجود الصانع الخالق، إليه كل شيء وربه ومليكه، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾، أي: الذي بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، يقول: خلق لكل شيء زوجة. وقال الضحاك، عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: سوي خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل ذي شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والزرق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ قَدْرٌ فَهَيْكَلٌ (٣)﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قدر قدرأ، وهدي الخلاق إليه، أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلاق ماشون على ذلك، لا يحدون عنه، ولا يقدرون أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق، وقدر القدر، وجبل الخليفة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)﴾، أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق وزرق وقدر فهدي، شرع يحتج بالقرن الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذ كان الأمر كما تقول لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه، فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٠٩/١ في أثناء خبر طويل عن ابن عباس والمسور بن رفاعه وعمرو بن أمية وغيرهم، وفي الإسناد الواقدي، وهو إمام في المغازي لكنه واهي الحديث، ولكن الشواهد تعضده.

الاعمال، ﴿لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، أي: لا يتبدل عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتربه نقصانان، أحدهما: عَدَمُ الإِخَاطَةِ بِالشَّيْءِ، والآخر نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٤ وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَإِنَّا نُمِدُّكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥ وَلَقَدْ آرَيْنَا آدَمَ كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۝٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه - عز وجل - حين سأله فزعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَنْطَلِقُ كُلَّ نَفْسٍ فَخَرَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾^(١)، وفي قراءة بعضهم: ﴿مَهْدًا﴾، أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسايقرون على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في منابجها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّمَنْ لَّمْ يَهْتَدِ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾. أي: من ألوان النباتات من زروع وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لانعامكم لأقواتها خضراً ويابساً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: للدلالات وحججاً وبراهين ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: ليدوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَإِنَّا نُمِدُّكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥﴾، أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أبائكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَمِنَّا نُمِدُّكُمْ﴾، أي: وإليها يصيرون إذا يتمم ويلبثهم، ﴿وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ﴾، ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَقُلْتُمْ أَن لَّيْسَ مِنَّا إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَإِنَّا نُمِتُّوْنَ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٢٥٠].

[٤٥٤٩] وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حَضَرَ جَنَازَةً، فَلَمَّا دُفِنَ المَيِّتَ أَخَذَ قَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ فَأَلْقَاهَا فِي القَبْرِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنَّا نُمِدُّكُمْ﴾. ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَا آدَمَ كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۝٥٦﴾، يعني فزعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره، فكذب بها وأبامها كُفْرًا وَعِدَادًا وَبَغْيًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَعَهُدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلْمًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝٥٧﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَحِثْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۝٥٧ فَلَنَأْيِتَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ بِسِحْرِ النَّاسِ ضِغَى ۝٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فزعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر، جئت لتسخرنا وتستولي به على الناس، فيثبمونك وتكاثرننا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يعزتك ما أنت فيه، ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكانٍ مُّعَيَّنٍ ووقْتٍ مُّعَيَّنٍ. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ﴾، وهو يوم عيدهم

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: (مهاداً)، وقرأ عاصم وحزرة والكسائي: (مهاداً).

وَتَوَرَّوْهُمْ وَتَفَرَّغَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ جَمِيعِهِمْ، لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُطْلِقُ مَعَارِضَ السَّحَرِ لِحَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾، أَي: جَمِيعِهِمْ ﴿شُنِي﴾، أَي: ضَخْوَةٌ مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ. وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ أَمْرِهِمْ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، لَيْسَ فِيهِ حَفَاةٌ وَلَا تَرْوِيحٌ. وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: لَيْلًا، وَلَكِنْ نَهَارًا ضَحِيًّا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ يَوْمَ الزَّيْنَةِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَ يَوْمَ عِيدِهِمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَوْمَ سُوقِهِمْ. وَلَا مَنَافَاةَ. قُلْتُ: وَفِي مِثْلِهِ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ^(١). وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُثَنَّى: قَالَ فِرْعَوْنُ: يَا مُوسَى، اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجْلًا نَنْظُرُ فِيهِ. قَالَ مُوسَى: لَمْ أَمُرْ بِهَذَا، إِنَّمَا أَمُرْتُ بِمُنَاجَزَتِكَ، إِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ دَخَلْتُ إِلَيْكَ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنْ اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَجْلًا، وَقُلْ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ هُوَ. قَالَ فِرْعَوْنُ: اجْعَلْهُ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا. فَفَعَلَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾، قَالَ: مُنْصِفًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَدَلًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: يَتَّبِعِينَ النَّاسُ مَا فِيهِ، لَا يَكُونُ صَوْبٌ وَلَا شَيْءٌ يَتَغَيَّبُ بَعْضُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضٍ، مُسْتَوٍ حِينَ يُرَى.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنْ﴾ (٦٠) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَرَكُمْ بِعَذَابٍ وَقد خَابَ مِنْ أَفْتَرِي﴾ (٦١) ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَرُوهَا النَّجْوَى﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ (٦٣) ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقد أفلحَ الْيَوْمَ مِنَ اسْتَعْلَى﴾ (٦٤)

يقول تعالى مخبراً عن فِرْعَوْنَ أنه لما تواعد هو وموسى - عليه السلام - إلى وقتٍ ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من نُسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ غَلِيظٍ﴾ (٦٨) [يونس: ٧٩]. ثمَّ ﴿أَنْ﴾، أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فِرْعَوْنُ على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى - عليه السلام - يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فِرْعَوْنَ صُفُوفًا، وهو يُحَرِّضُهُمْ وَيُحْتَمُّهُمْ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَتَمَتَّنُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ، فيقولون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٦٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَوِ الْفُقَرَاءِ ﴿٦٤﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٤]. ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: لا تُخَيَّلُوا للناس بأعمالكم إيجادَ أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيَسْحَرَكُمْ بِعَذَابٍ﴾، أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقیة له، ﴿وَقد خَابَ مِنْ أَفْتَرِي﴾ (٦١) ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُمْ مِنْهُمْ﴾، قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبوي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك. والله أعلم. وقوله: ﴿وَاسْتَرُوهَا النَّجْوَى﴾، أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ﴾، هذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على إعرابها. ومنهم من قرأ: (إن هذين لساحران)، وهذه اللغة المشهورة. وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران

(١) يأتي عند الآية ٨٢، والمراد يوم عاشوراء.

بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم. وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾، أي: ويستبدأ بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا مُعْظَمِينَ بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرّدا بذلك، وتمحّضت لهما الرياسة بها دونكم. وقد تقدّم في حديث الفتون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾، يعني: مُلْكُهُم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ثُمَيْم بن حَمَاد، حدثنا هُثَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سَمِعَ الشَّعْبِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾، قال: يَضْرِفَانِ وجوه الناس إليهما. وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾: قال: أولي الشرف والعقل والأنساب. وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾: أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يُريدان أن يذْهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ النَّتْنُ﴾، بالذي أنتم عليه. وقوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفَاً﴾، أي: اجتمعوا كلكم صفواً واحداً، والقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَقَلَّ﴾، أي: منّا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تَتْلِيَّ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٦٥) قَالَ بَلِ الْقَوْمَ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ لَتَلْقَىٰ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَىٰ ﴿٦٩﴾ فَالَّذِي السَّحْرَةَ سُبْحَانَ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى - عليه السلام - أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تَتْلِيَّ﴾، أي أنت أولاً. ﴿وَلِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلِ الْقَوْمَ﴾، أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليّة أمرهم، ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَى﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما القوا قالوا: ﴿بِعِزَّةِ رَبِّكَ إِذَا لَحْنُ الْفَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَيْتُهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]: وقال ها هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَى﴾. وذلك أنهم أودعوا من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يُخَيَّلُ للنّاظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماعاً غفيراً وجمعاً كبيراً، فالقى كل منهم عصاً وحبلًا، حتى صار الوادي ملآن حيايت يرتكب بعضها بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (٦٧)، أي: خاف على الناس أن يفشيوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ﴾، يعني عصاه، فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت ثعباناً عظيماً هائلًا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تسع تلك الحبال والعصي حتى لم يبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلغته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جَهْرَةً، نهاراً ضحوة. فقامت المعجزة، وأتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾.

[٤٥٥٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشيباني، حدثنا حماد بن خالد،

حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البَجَلِي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أخذتم - يعني الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُلْقِ السَّاحِرُ حَيْثُ أَرَادَ﴾، قال: لا يُؤْمَنُ به حيث وُجِدَ»^(١). وقد رَوَى أصله الترمذِيُّ موقوفاً ومرفوعاً. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، عَلِمُوا عَلِمَ اليَقِينِ أَنَّ هذا الذي فَعَلَهُ موسى ليس من قِبَلِ السحر والحيل، وأنه حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، ولا يَبْدُرُ على هذا إلا الذي يقولُ للشيءِ كُنْ فيكون. فعند ذلك وَقَعُوا سَجْدًا لله وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَى رَبَّنَا الْمَلَكَيْنِ ﴿٧١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]. ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سَحْرَةً، وفي آخر النهار شُهَدَاءُ بَزْرَةَ. وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً. وقال القاسم بن أبي بَزْرَةَ: كانوا سبعين ألفاً. وقال السديُّ: بضعَةٌ وثلاثين ألفاً. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيْع، عن أبي ثُمَامَةَ: كان سَحْرَةً فرعون تسعة عَشَرَ ألفاً. وقال محمد بن أبي إسحاق: كانوا خمسة عَشَرَ ألفاً. وقال كعب الأحمار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا مُحَمَّد بن علي بن حَمْرَةَ، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً^(٢)، أصبحوا سَحْرَةً وأمسوا شُهَدَاءً.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المُسَيَّب بن وَاضِح بمكة، حدثنا ابنُ المبارك قال: قال الأوزاعيُّ: لما خَرَّ السَحْرَةَ سَجْدًا رُفِعَتْ لهم الجنة حتى نَظَرُوا إليها. قال: ودُكِرَ عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير. قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا﴾، قال: رأوا منازلهم ثبتي لهم وهم في سجودهم. وكذا قال عكرمة، والقاسم بن أبي بَزْرَةَ.

﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ أَدْنَكَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشْدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْذِيَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِنَعْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهٍ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخْبِرًا عن كفر فِرْعَوْنَ وعناده وغيبه ومكابرتيه الحقِّ بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصروا بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبُهْتِ، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم، وقال: ﴿أَمَنْتُمْ لَمْ﴾، أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ أَدْنَكَ لَكُمْ﴾، أي: وما أمرتكم بذلك وافتيئتكم علي في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعييتي لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْوَيْدِيَةِ لِيُفْرِحُوا مِنْهَا وَأَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١١٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾، أي: لأجعلنكم مثلة ولاقتلنكم ولأشهرنكم. قال ابنُ عباس: فكان أول من

(١) الحسن عن جندب، منقطع، لم يسمع منه كما في «مرايسيل» ابن أبي حاتم ص ٤٢، وتقدم الكلام على ذلك باستيفاء في سورة البقرة، عند الآية ١٠٢.

(٢) الأرقام المتقدمة، فيها ضرب من الخيال، وهذا الوارد عن ابن عباس، هو الأقرب، فلو كانوا آلافًا مولفة لا يجوز لهم الاستسلام بل عليهم مقاتلة فرعون وجنوده. كيف ومعهم نبي من أولي العزم. والله أعلم.

فَعَلْ ذَلِكَ . رواه ابنُ أبي حاتم . وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ آيَاتُنَا أَشَدُّ حَذًا وَأَبْقَى﴾ ، أي : أنتم تقولون : إني وقومي على ضلالةٍ ، وأنتم مع موسى وقوميه على الهدى . فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه . فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم ، هانت عليهم أنفسهم في الله - عز وجل - ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ﴾ ، أي : لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين . ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ : يحتجّل أن يكون قسماً ، ويحتجّل أن يكون معطوفاً على البينات . يعنون : لن نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، المبتدىء وخالقنا من الطين ، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت . ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ، أي : فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، ﴿إِنَّمَا تَقْبِضُ يَدَيْكَ هَذِهِ لِكَيْتَابِ الدُّنْيَا﴾ ، أي : إنما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار . ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُنْفِرَ لَنَا خَلْقَيْنَا﴾ ، أي : ما كان منا من الآثام ، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر ليعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبي سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ ، قال : أخذ فيزعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالقرم ، وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، الذين قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُنْفِرَ لَنَا خَلْقَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقوله : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، أي : خير لنا منك ، ﴿وَأَبْقَى﴾ ، أي : أدام ثواباً مما كنت وعدتنا ومثيبتنا . وهو رواية عن ابن إسحاق ، رحمه الله . وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ ، أي : لنا منك إن أطيع ، ﴿وَأَبْقَى﴾ ، أي : منك عذاباً إن عصي ، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً . والظاهر أن فيزعون - لعنة الله - صنم على ذلك وقعله بهم ، رحمه الله . ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء .

﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون ، يُحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد ، فقالوا : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ ، أي : يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ . كقوله : ﴿لَا يَفْضَنَ عَلَيْهِمْ فَمُوتُوا وَلَا يُحْيَفُ عَنْهُمْ مِنْ مَدَائِبِهَا كَذَلِكَ تَجْرِي كُلُّ كَفُورٍ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وقال : ﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ الَّذِي يَصَلُّ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٧﴾ [الأعلى : ١١ ، ١٣] . وقال تعالى : ﴿وَكَأَنَّا يَدُوكَ لِمِصْرَ لَقِضَ عَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مُكُودٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [الزخرف : ٧٧] .

[٤٥٥١] وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناسٌ نصيبهم النار بثوبهم فتميتهم إمامته ، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة ، فجيء بهم ضبائز ، فثبوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، أبيضوا عليهم . فينبئون نبات الحبة تكون في حميل السليل ، فقال رجل من القوم : كان رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١) . وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل ، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن يزيد ، به .

(١) صحيح . أخرجه مسلم ١٨٥ وابن ماجه ٤٣٠٩ وأحد ١١/٣ و٧٨ وابن حبان ١٨٤ .

[٤٥٥٢] وقال ابنُ بي حاتم: دُكِرَ عن عبد الوارث بن عبد الصَّمَدِ بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حَيَّان، سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيَّ، عن أَبِي نَضْرَةَ، عن أَبِي سَعِيدٍ: أن رسولَ الله ﷺ خَطَبَ فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ مَن يَأْتِ رَبَّهُ بِحَسَنَةٍ فَإِنَّ لَكُم مِّنْ جَهَنَّمَ لَأَيُّ مَوْتٍ فِيهَا وَلَا يَحْسِبُ﴾، قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يَمُوتون فيها ولا يَحْيَوْنَ، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسُّهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى بهم نهراً يقال له: نهرُ الحياة - أو: الحيوان - فينبتون كما ينبت العُشاء في حَمِيل السَّيْلِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾، أي: ومن لقي ربَّه يوم المعاد مؤمناً القلب، قد صدَّق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَمْ يَذَرِكْ آلَمَلُ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغُرف الآمنات، والمسكن الطيبات.

[٤٥٥٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيدُ بن أسلم، عن عطاءِ بن يسار، عن عبادة بن الصَّامِتِ، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مئة درجة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس»^(٢). ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن هَمَّام، به.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مئة درجة، في كلِّ درجة مئة درجة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض، فيهنَّ الباقوت والحلي، في كلِّ درجة أمير، يزون له الفضل والسؤدد.

[٤٥٥٤] وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليزون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٣).

[٤٥٥٥] وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعماء»^(٤). وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة. وهو بدل من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكتين فيها أبداً، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَ﴾، أي: طهر نفسه من الدُّنْسِ وَالْحَبْثِ وَالشَّرْكَ، وعبد الله وحده لا شريك له، وأتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خَيْرٍ وَطَلَبَ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَىٰ﴾^(٧٧)
﴿فَأَنبَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْرَمِيهِمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَاشِيَهُمْ﴾^(٧٨) وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَىٰ﴾^(٧٩)

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى - عليه السلام - حين أرى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري

(١) إسناده ضعيف، فهو معلق بصيغة التمريض، والوهن في تفسير الآية، وأما أصل الحديث ففي الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٣١ وأحمد ٢٩٢/٢ ٣١٦/٥ وإسناده على شرط الشيخين وله شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٥٦ ٦٥٥٦ ومسلم ٢٨٣١ وأحمد ٣٤٠/٥ وابن حبان ٧٣٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري وصدوره «إن أهل الجنة ليرامون الغرف...».

(٤) أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٩ وابن ماجه ٩٦ وأحمد ٢٧/٣ ٩٨ وأبو يعلى ١١٣٠ من حديث أبي سعيد الخدري، وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا موجب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورسايقه يقول: ﴿إِنَّ كَلَّاءَ لَيَرْتُمُهُ قَلِيلُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَهُمْ لَنَا لَقَائَطُونَ ﴿٥٥﴾﴾. ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَيْكِيكَ ﴿٥٦﴾﴾، أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنَدْرِكُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٩﴾﴾، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: ﴿انفلق ياذن الله﴾، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْكَلْبِ الْعَظِيمِ﴾^(١)، أي: الجبل العظيم. وأرسل الله الريح على أرض البحر فلنفتحه حتى صار يابساً كوجه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَأَضْرِبْ لَمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا﴾، أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخَفْنَ﴾، يعني من البحر أن يغررق قومك، ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَمْشِي مَشْيُوهُ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ﴾، أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُوكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ ﴿فَقَشْنَاهَا مَا غَشَيْنَا﴾ ﴿النجم: ٥٣ - ٥٤﴾، وكما قال الشاعر:

أنا أبو النخيم وشيخري وشيخري

أي: الذي يعرف، وهو مشهور. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأصلهم وما هذاهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَتَدَمَّرُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَزْدُهُمْ النَّارَ وَيَبَسَ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ ﴿٦٠﴾﴾ [مرد: ٩٨].

﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْبَيْتَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٦١﴾ كَلُوا مِن طَيْبِهَا مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَى ﴿٦٢﴾ وَإِنِّي لَفَقِيرٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٦٣﴾﴾

يذكرُ تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجاهم من عدوهم فرعون، وأمر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرِقوا في صبيحة واحدة، لم ينبج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا مَا يَزْعُمُونَ وَأَشْرَ نَظَارِينًا﴾.

[٤٥٥٦] وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون. فقال: نحن أولى بموسى، فصوموه^(٢). رواه مسلم أيضاً في صحيحه. ثم إنه تعالى وأعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك. وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقضه تعالى قريباً. وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها. فالمن: خلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كَلُوا مِن طَيْبِهَا مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا

(١) الآيات السابقة من سورة الشعراء: ٥٤ - ٦٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٠ و٤٣٣٧ ومسلم ١١٣٠ ح ١٢٧ وأبو داود ٢٤٤٤ وأحمد ٢٩١/١ وابن حبان ٣٦٢٥.

تَلْفَوْا فِيهِ فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي)، أي: كلوا من هذا الذي رزقتم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به، ﴿فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، أي: أغضب عليكم، ﴿وَمَنْ يَجِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فقد شقي. وقال شفي بن ماتب: إن في جهنم قصراً يُرمى الكافر من أعلاه، فيهبوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَجِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَوْ لَفَنَّا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا مِمَّا آتَيْنَاهُ﴾، أي: كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله: ﴿تَابَ﴾، أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وَأَمَنَ﴾، أي: بقلبه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: بجوارحه. وقوله: ﴿مِمَّا آتَيْنَاهُ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿مِمَّا آتَيْنَاهُ﴾، أي: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿مِمَّا آتَيْنَاهُ﴾، أي: لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: ﴿مِمَّا آتَيْنَاهُ﴾، أي: علم أن لهذا ثواباً. وثم ما هنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوليه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]... الآية.

﴿وَمَا أَصْبَلِكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى - عليه السلام - ببني إسرائيل - بعد هلاك فرعون، وأتوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُونَ عَلَىٰ أَصْنَابِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجَاهِلُونَ﴾ (٨٥) إِنَّ هَذَلِكَ مُتَّبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٨٤﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩]. وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتمها له عشراً، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسار موسى - عليه السلام - مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَلِكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، أي: لتزداد عني رضا. ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥). أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحديث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذُّهَا يُقْوَىٰ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا سَائِرًا وَدَارَ الْقَائِمِينَ﴾ (٢٥) [الأعراف: ١٤٥]، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، أي: بعدما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم. ولهذا رجع

إليهم غضبانً أسيفاً. والأسفُ: شدة الغضب. وقال مجاهدٌ: ﴿عَضِبْنَ أَيْسَافاً﴾، أي: جَزَعاً. وقال قتادة والسُّدِّي: ﴿أَيْسَافاً﴾، أي: حزيناً على ما صنع قومُه من بعده. ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا﴾، أي: أما وعدكم على لساني كُلِّ خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما قد شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم واطهاركم عليه، وغير ذلك من أيديه عندهم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قديم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. أم: ها هنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعودي إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مَوَدِّي قَالُوا﴾، أي: بنو إسرائيل في جواب ما أتبهم موسى وقرَّعهم: ﴿مَا أَتْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾، أي: عن قُدْرَتنا واختيارنا. ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، ويخبرون عن تَوْرَعهم كما كان بأيديهم من خلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَدَّفْنَاهَا﴾، أي: ألقيناها عنا، وقد تقدَّم في حديث «الفتون» أن هارون - عليه السلام - هو الذي كان أمرهم بالقاء الحلي في حفيرة فيها ناز. وفي رواية السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى - عليه السلام - رأى فيه ما يشاء. ثم جاء بعد ذلك السامريُّ فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعُو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون - وهو لا يعلم ما يُريد - فأجيب له، فقال السامريُّ عند ذلك: أسأل الله أن يكون عَجلاً. فكان عَجلاً له حَوَارٌ، أي: صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختياراً، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ آتَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُمُ حَوَارٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البخترى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد، عن سيناك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن هارون مرَّ بالسامريِّ وهو يتنحَّ العجل. فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضُرُّ ولا ينفع. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه. ومضى هارون، فقال السامريُّ: اللهم، إني أسألك أن يخورَ، فكان إذا خاز سجداً له، وإذا خاز رفعا ورؤسهم. ثم رَوَاهُ من وجهٍ آخر عن حماد، وقال: أعمل ما ينفع ولا يضُرُّ. وقال السُّدِّي: كان يخورُ ويمشي. ﴿فَقَالُوا﴾، أي: الضلال منهم الذين افتتئوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَتَيْبٍ﴾، أي: نسيه ها هنا، ودَّهَبَ يتطلبه. كذا تقدَّم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد. وقال سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَتَيْبٍ﴾، أي: نسي أن يُذَكِّرُكم أن هذا إلهكم. وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: ﴿قَتَيْبٍ﴾، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامريِّ. قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريباً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سُرًّا وَلَا نَفْثًا﴾ ﴿؟﴾ أي: العجل، ﴿أَفَلَا يَرْجِعُ﴾ أنه لا يُجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سُرًّا وَلَا نَفْثًا﴾، أي: في دنياهم ولا في أخراهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان حواره إلا أن يدخل الرِّيح في دُبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت. وقد تقدَّم في متون الحديث عن الحسن البصري: أن هذا العجل اسمه بُهموث. وحاصل ما اعتدَّر به هؤلاء الجهلة أنهم تَوْرَعوا عن زينة القبط، فألقوا عنهم وعبدوا العجل. فتَوْرَعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير.

[٤٥٥٧] كما جاء في الحديث الصَّحِيح عن ابن عُمر: أنه سأل رجل من أهل العراق عن دم البتوض إذا

أصاب الثوب - يعني: هل يُصلى فيه أم لا؟ - فقال ابنُ عمر - رضي الله عنه -: انظروا إلى أهلِ العراقِ، قتلوا ابنَ بنتِ رسولِ الله ﷺ - يعني الحسينَ - وهم يسألون عن دمِ البعوضِ^(١)؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْوَمُوا لَنَا قَوِيًّا إِنْ مَا فَتَنَّاكُمْ بِهِ بِدِينِكُمْ الرَّحْمَنُ فَأَلْبِسُوا بِأَعْيُنِنَا قَوْلًا أَنْ تَبَرَّحَ عَلَيْهِمْ عَنَّا حَتَّىٰ يَبْرُجَ إِنِّي أَنَا مُوسَىٰ﴾ (٩١)

يُخبر تعالى عما كان من نهي هارون - عليه السلام - لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم أنما هذا فتنة لكم، ﴿وَأَنَّ رَبَّكَمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيءٍ فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعّال لما يريد، ﴿فَأَلْبِسُوا بِأَعْيُنِنَا قَوْلًا﴾ أي: فيما أمركم به، واطركوها ما أنهاكم عنه. ﴿قَالَ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَنَّا حَتَّىٰ يَبْرُجَ إِنِّي أَنَا مُوسَىٰ﴾ (٩١)، أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلامَ موسى فيه. وحالفوا هارونَ في ذلك وحازبوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن موسى - عليه السلام - حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلا عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك.

[٤٥٥٨] وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبرُ كالمُعانيه»^(٢). وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾، ترفق له بذكر الأم، مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ما هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الحسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَشْرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول موسى - عليه السلام - للسامرية: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامرية

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٧٧٠ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري ٥٩٩٤ وأبو يعلى ٥٧٣٩ بنحوه.

(٢) تقدم تحريجه في سورة الأعراف.

رجلاً من أهل باجرماً، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبَّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسم السامريّ: موسى بن ظفر. وفي رواية عن ابن عباس: كان من كزمان. وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامراً. «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»، أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فزعون، «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» أي من أثر فرسيه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمارة، عن علي - رضي الله عنه - قال: إن جبريل - عليه السلام - لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامريّ من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس، قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح. فلما أخبره أن قومه قد قُتِلوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ»، قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع. قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقي ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسداً له خوّار، حفيف الريح فيه، فهو خوّاره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن [زريع]، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة: أن السامريّ رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فآلقتها في شيء، فقلت له: كُن، فكان. فقبض قبضة من أثر الرسول، فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فزعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه. فجمعوه فأرقدوا عليه، فذاب، فرأه السامريّ فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: كُن. فكان. فقذف القبضة وقال: كُن. فكان عجلًا له خوّار، فقال: «هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى». ولهذا قال: «فَنَبَذْتُهَا»، أي: ألقيتها مع من ألقى، «وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي»، أي: حسنت وأعجبها إذ ذاك، «قَالَ فَأَذْهَبَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ»، أي: كما أخذت وميسنت ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: لا ميساس، أي: لا ثماس الناس ولا يمسونك. «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا»، أي: يوم القيامة، «أَنْ تَخْلَعَهُ»، أي: لا محيد لك عنه. قال قتادة: «أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ»، قال: عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون: لا ميساس. وقوله: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تَخْلَعَهُ»، قال الحسن، وقاتدة، وأبو نهيك: لن تغيب عنه. وقوله: «وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهُكَ»، أي: معبودك، «الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا»، أي: أقمت على عبادته - يعني العجل - «لَنْ نَرْتَدَّ فِيهِ أَلْيَسَ سَعْتًا». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي - رضي الله عنه - قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمّد السامريّ فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلًا، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها، وهو على شط نهر. فلم يشرب أحد من ذلك الماء ومن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما تويتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً. وهكذا قال السدي. وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفئون بسط ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٩٨)، يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبده. وقوله: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٩٨)، نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَمَلًا يَكُلُّ شَيْءًا﴾ (الطلاق: ١٢)، ﴿وَأَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ عَدْلًا﴾ (الحج: ٢٨) فلا ﴿يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (سبأ: ٣)، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُكُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ تُرْبَةٍ إِلَّا بِأَيْمِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: ٦). والآيات في هذه كثيرة جداً.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية وبالأمم الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾، أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤١) ﴿فصلت: ٤٢﴾، الذي لم يعط نبي من الأنبياء - منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ - كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى في غيره فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠)، أي: إثماً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدُهُ﴾ (هود: ١٧).

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤْذِرُكُمْ بِهِ﴾ (الأنعام: ١٩)، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وذاع، فمن أتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهِ﴾، أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُعْجَمِينَ يَوْمِ بَدْرًا﴾ (١٠٢) ﴿يَتَخَلَّفُونَ بِنَبَمٍ إِذَا عَسَرْنَا﴾ (١٠٣) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لِيُنْتَرَى إِلَّا يَوْمًا﴾ (١٠٤)

[٤٥٥٩] ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قرن يفتح فيه»^(١).

[٤٥٦٠] وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه بقدر السموات والأرض، يفتح فيه إسرافيل عليه السلام^(٢).

[٤٥٦١] وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقتم القرن وحنى جبته وانتظر أن يؤذن

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٢) تقدم.

له. فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(١). وقوله: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، قيل: معناه زُرُقُ العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال. ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، قال ابن عباس: يتسارون بينهم. أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، أي: في الدار الدنيا، لقد كان لُبُثُكُمْ فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿فَتَحْنُ أَظْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: في حال تناجيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا بِمِيقَاتِهِمْ طَرِيقَةً﴾، أي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: ليقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكرر أوقاتها وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصِرُ الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غرضهم في ذلك ذرة قيام الحجّة عليهم، ليقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ لَقَدْ لَبِثُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَيْتِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَيْتِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥ - ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَحْزَنْكُمْ مَا تَدَّكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ لِمَا كُنتُمْ تُنذِرُونَ فَذُوقُوا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يُوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنَّا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ قَدْ لَبِثْنَا لَبِثًا لَوْ أُنْكُمُ كُنتُمْ قَلْبًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]، أي: إنما كان لُبُثُكُمْ فيها قليلاً، ولو أنكم كنتم تعلمون لأثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، فقدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ اللَّبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا

﴿١١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ اللَّبَالِ﴾، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا﴾، أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصاف تأكيد لمعنى ذلك. وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم. ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١٧﴾﴾، أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾، أي: يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بآدوا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث كان لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَابْتِيعَ يَوْمٍ يَأْتُونَ﴾ [مریم: ٣٨]، وقال: ﴿مُهَيَّبِينَ إِلَى النَّارِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَئِذٍ عِوَجٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]. قال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾. وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾، لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾، لا عوج عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السدي. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا

هَسَاً: الصوت الخفي وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَسَاً﴾ الحديث وسره، ووَطْءُ الأقدام. فقد جَمَعَ سعيدُ كلا القولين وهو مُحْتَمِلٌ، أما وَطْءُ الأقدام فالمراد سَغْيُ الناس إلى المحشر، وهو مَشِيهُمٌ في سُكُونٍ وَخُضُوعٍ. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حالٍ دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَنْهَرُ شَرِيحًا وَسَعِيدًا﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿هود: ١٠٥﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ يَعَلِّمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٥﴾ ﴿١١٥﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ﴾، أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، كقولِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِهِ: ﴿وَكُرْ مِنْ مَلَائِكَةٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْهِمُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ ﴿١١٦﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿١١٧﴾ [النبأ: ٣٨].

[٤٥٦٢] وفي الصحيحين من غير وجه، عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وهو سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وأكرم الخلائق على الله عزَّ وجلَّ أنه قال: «أتيت تحت العرش فأخبرني الله ساجداً، ويفتح عليَّ بمحامدٍ لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع. قال: فيحُدُّ لي حَدًّا، فأدخِلُهُم الجنة، ثم أعود». فذكر أربع مرَّات. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء^(١).

[٤٥٦٣] وفي الحديث أيضاً «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقالَ من إيمان. فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصفُ مثقالٍ من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرَّةً، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقالٍ ذرَّةً من إيمان»^(٢)... الحديث.

وقولُهُ: ﴿يَعَلِّمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: يُحِيطُ علماً بالخلائق كلِّهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، كقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقولُهُ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ واستسلمت الخلائقُ لجبارها الحيِّ الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قَيِّمٌ على كُلِّ شَيْءٍ، يُدَبِّرُهُ ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لا قِوَامَ له إلا به. وقولُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، أي: يومَ القيامة، فإن الله سيؤدِّي كلَّ حقٍ إلى صاحبه، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَمَاءِ من الشاة القَرْنَاءِ.

[٤٥٦٤] وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا يُجاوِزُنِي اليومَ ظلمٌ ظالم»^(٣).

[٤٥٦٥] وفي الصحيح: «ياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٤). والخيبة كُلُّ الخيبةِ لمن

(١) تقدم.

(٢) تقدم، وانظر صحيح مسلم ١٨٣ حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) يأتي تحريجه.

(٤) يأتي في سورة الحشر عند آية ٩ من حديث جابر، أخرجه البخاري.

لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْإِثْرَكَ لَأَظْلَمُ لَعَلَّهُمْ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ مِنْ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٣)، لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمتهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا يُنقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والهضم: النقص.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَرُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا، بلسان عربي مبين فصيح، لا لیس فيه ولا عيب، ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَرُونَ﴾، أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وهو إيجاب الطاعة وفعل الثورات، ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعدته حق، ووعدته حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحدا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة. وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تَحْرُجْ يَوْمَ لِسَانِكَ لَتَعْجَلَ يَوْمَ ۖ ﴿١١٣﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١٤﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١١٦﴾﴾.

[٤٥٦٦] وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يُعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرّك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١). يعني أنه - عليه السلام - كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة جزئه على حفظ القرآن، فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تَحْرُجْ يَوْمَ لِسَانِكَ لَتَعْجَلَ يَوْمَ ۖ ﴿١١٣﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١٤﴾﴾، أي: أن نجمته في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١١٦﴾﴾. وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، أي: زدني منك علما. قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل - ﷺ - في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل. ولهذا جاء في الحديث:

[٤٥٦٧] إِنَّ اللَّهَ تَابِعَ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِهِ، حَتَّى كَانَ الْوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تُوْفِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (٢).

[٤٥٦٨] وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نعيم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله - ﷺ - يقول: «اللهم، انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما». والحمد لله على كل حال (٣). وأخرجه الترمذي، عن أبي كريب، عن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٢٧ ومسلم ٤٠٤٨ والنسائي ١٤٩/٢ والترمذي ٣٣٢٩ وأحمد ٣٤٣/١ وابن حبان ٣٩ من حديث ابن عباس بأتم منه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٢ ومسلم ٣٠١٦ وأحمد ٢٣٦/٣ والنسائي في «فضائل القرآن» ٨ من حديث أنس.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٩٩ وابن ماجه ٢٥١ و٣٨٣٣. حسنه الترمذي، واستغربه، والإسناد ضعيف، له علتان: موسى بن عبيدة الردي، ضعيف، ومحمد بن ثابت مجهول كما في التقريب، والوهن فقط في «الحمد...» وأما صدره فله شواهد.

عبد الله بن نُمَيْر، به. وقال: غَرِيبٌ من هذا الوجه. ورواه البَرَّازُ عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عُبيدة، به. وزاد في آخره: «وأعوذُ بالله من حالِ أهلِ النارِ»^(١).

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ قَنُوسٍ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ (١١٦) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ (١١٧) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (١١٨) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (١١٩) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ﴾ (١٢٠) ﴿فَأَكَلَا مِنهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رِّزْقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) ﴿ثُمَّ أَعْبَنَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١٢٢)

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عُهِدَ إليه قَنُوسِي. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عنه. وقال مجاهد، والحسن: تَرَكَ. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه، وما فَضَّلَهُ به على كثير ممن خَلَقَ تفضيلاً. وقد تقدّم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف» وسيأتي في آخر سورة (ص) - إن شاء الله تعالى - يذكر فيها تعالى خَلَقَ آدَمَ وأمره ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾، أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ﴾، يعني حواءَ عليهما السلام، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾، أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب وتغنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كُلفَ ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (١١٧): إنما قرَنَ بين الجوع والعزى لأن الجوع ذلُّ الباطن والعزى ذلُّ الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (١١٩): وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حرُّ الباطن، وهو العطش. والضحى: حرُّ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ﴾ (١٢٠): قد تقدم أنه دلّاهما بفرور، ﴿وَأَسْمَهُمَا إِنِّي لَكُلًّا لَوْنٌ النَّارِ﴾ (١٢١) [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - يعني التي من أكل منها خلد ودام مكته -

[٤٥٦٩] وقد جاء في الحديث ذُكِرَ شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي الضحاك، سمعتُ أبا هريرة يُحدِّث، عن النبي - ﷺ - قال: «إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائة عام، ما يقطعها، وهي شجرة الخلد»^(٢). ورواه الإمام أحمد.

[٤٥٧٠] وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءُهُمَا﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله خَلَقَ آدمَ رجلاً طويلاً كثيرَ شعرِ الرأس، كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة،

(١) هذه الرواية عند البيهقي في «الشعب» ٤٣٧٦ من طريق أبي عاصم به.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٢٩.

فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مِثِّي تَفَرُّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبُّ لَا، وَلَكِنْ اسْتِحْيَاءُ، أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَيْتَ وَرَجَعْتُ، أَعَائِدِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَهُ قَابَ عَلَيْهِ﴾ (١) [البقرة: ٣٧]. وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْفَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، ﴿وَلَوْفَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، قال: يترعان ورق الثين، فيجعلانه على سواترهما. وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢).

[٤٥٧١] قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن الثجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو: قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله - ﷺ -: فحج آدم موسى» (٢). وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد.

[٤٥٧٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قال: نعم. قال: أقتلوني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال رسول الله - ﷺ -: فحج آدم موسى». قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - (٣).

﴿قَالَ أَهْبَطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقُ﴾ (١٢٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْبَانُنَا فَتَسِينُنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنُسَى﴾ (١٢٦)

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم. وقد قدمنا بسط ذلك في سورة البقرة. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقُ﴾، قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي،

(١) وإسناد الحديث ضعيف، وتقدم تحريجه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٨ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٦٦١٤ ومسلم ٢٦٥٢ وأبو داود ٤٧٠١ وابن ماجه ٨٠ وأحمد ٢٤٨/٢ وابن حبان ٦١٨٠ من طرق من حديث سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٢ ح ١٥ من طريق أنس بن عياض به.

أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هِدَاهِ، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدريه، بل صدره ضيقٌ حرجٌ لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قَلْبِي وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فلا يزال في ريبه يتردد. فهذا من ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: الشقاء. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: كل مال أعطيته عبداً من عبادي، قل أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة. ويقال أيضاً: إن قوماً ضللاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ ذلك أنهم كانوا يزرون أن الله ليس مخلصاً لهم معاشهم، من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله، ويسيء الظن به والثقة به، اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء، والرزق الخبيث. وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار. وقال سفيان بن عيينة، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه. وقال أبو حاتم الرازي: النعمان بن أبي عياش يكتئب أبا سلمة.

[٤٥٧٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ - في قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: ضمة القبر^(١). الموقوف أصح.

[٤٥٧٤] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حَجِيرَةَ - واسمه عبد الرحمن - عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - قال: «المومن في قبره في روضة خضراء، ويُرحَّب له في قبره سبعون ذراعاً، ويُتَوَرَّ له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه يُسَلَط عليه تسعة وتسعون تيناً، أتدرون ما التين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسده، ويلسعونه ويخيشونهُ إلى يوم يُبعثون^(٢). رُفِعَهُ مُنْكَرُ جَدًّا.

[٤٥٧٥] وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا هشام بن سعيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ابن حَجِيرَةَ، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - في قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: المعيشة الضنك الذي قال الله تعالى: أنه يُسَلَط عليه تسعة وتسعون حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة^(٣).

[٤٥٧٦] وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن

(١) إسناده ضعيف؛ له علتان: ابن لهيعة، ضعيف، ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.

(٢) أخرجه ابن حبان ٣١٢٢ والطبري ٢٤٤٢٦ من طريقين عن دراج بهذا الإسناد، وعل هذا توبع ابن لهيعة عند ابن حبان، لكن علة الحديث دراج، وقد حسن بعضهم حديثه إذا كان من روايته عن غير أبي الهيثم، وقد حسن إسناده الشيخ شعيب. وقد توبع دراج عند البزار ٢٢٣٣، لكن قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٧٠: فيه من لم أعرفه. وورد من حديث أبي سعيد مختصراً. أخرجه ابن حبان ٣١٢١ والدارمي ٢٧١١ وأحمد ٣٨/٣ لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف. وانظر ما بعده.

(٣) تقدم مع ما قبله.

أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: عذاب القبر^(١). إسناده جيد.
 وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، قال مجاهد: وأبو صالح، والسدي: لا حُجَّةَ له. وقال
 عكرمة: غُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد أنه يُحشَرُ أو يبعث إلى النار أعمى البصر
 والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ
 زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿قَالَ
 كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، أي: لما عرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم
 يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم تُعاملك معاملة من ينسأك، ﴿فَالْيَوْمَ
 نَسْنَاهُمْ كُلًّا نُسُوءًا يَوْمَهُمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]؛ فإنَّ الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع
 فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى؛ فإنه
 قد وَرَدَتِ السُّنَّةُ بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

[٤٥٧٧] قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى ابن
 فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من رجل قرأ القرآن فَنَسِيَهُ
 إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجْدَمُ»^(٢) ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن
 عبادة بن الصامت، عن النبي - ﷺ -، فذكر مثله سواء.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧)

يقول تعالى: وهكذا نَجْزِي المَسْرِفِينَ المَكْذِبِينَ بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، أي:
 أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مَخْلُدُونَ فيه.

[٤٥٧٨] ولهذا قال رسول الله - ﷺ - للمتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(٣).

(١) جوده المصنف، وفي ذلك نظر، فإن محمد بن عمرو روى له الشيخان متابعه، وقال يحيى ثقة، وفي رواية: كانوا يتقون
 حديثه. وقال الجوزجاني: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقد أخرجه الطبري ٢٤٤٢١ من وجه
 آخر عن محمد بن عمرو بهذا الإسناد موقوفاً، وورد عن أبي سعيد مرفوعاً. أخرجه الحاكم ٣٨١/٢ ح ٣٤٣٩ وصححه على
 شرط مسلم، ووافقه الذهبي، لكنه معلول، فقد أخرجه الطبري ٢٤٤١٧ ٢٤٤١٨ ٢٤٤١٩ و٢٤٤٢٠ و٢٤٤٢٥ من عدة
 طرق عن أبي سعيد موقوفاً، وهو أصح من المرفوع لمجيئه من طرق كلها صحاح. فالخبر فيه ضعف، وظاهر الآية أن المراد
 بذلك في الحياة الدنيا، كما يفهم من لفظ «معيشة»؛ والله أعلم بالصواب.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٨٥/٥ ح ٢١٩٥٧. والبخاري ١٦٤٢ والطبراني ٥٣٨٨، وإسناده ضعيف جداً، له ثلاث علل:
 يزيد بن أبي زياد ضعفه الجمهور، وعيسى بن فائد، هو أمير الرقة مجهول، وفيه رجل لم يسم، والظاهر أن له علة رابعة،
 وهي أنه جعله من حديث سعد بن عبادَةَ، والظاهر أنه وهم فيه أحد الرواة، وأن صوابه من حديث عبادة بن الصامت،
 كما أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ ح ٢٢٢٥ وإسناده ضعيف جداً فهو الإسناد السابق. وقد أخرجه عبد الله ٣٢٣/٥ ح ٢٢٢٧٥
 عن يزيد عن عيسى عن عبادة، وهكذا أسنده عبد الله بإسقاط الرجل الذي لم يسم في رواية أبيه، وأياً كان فله ثلاث علل
 كما تقدم. وهذا يبين أن قول الهيثمي في «المجمع» ٩٠٣٤ و٩٠٣٥: - فيه راو لم يسم، وبقية أحد إسنادي أحمد رجالها
 رجال الصحيح - غير سليم، فإن يزيد بن أبي زياد، ما روى له مسلم في الأصول، وإنما روى له متابعه، وقد ضعفه يحيى
 وابن المبارك وغيرهما كما تقدم، فالخبر وإو، والله تعالى أعلم. ثم إن عيسى بن فائد مجهول كما في التقريب، وروايته عن
 الصحابة مرسله. فإسناده عبد الله بن أحمد منقطع أيضاً.

(٣) يأتي في سورة النور إن شاء الله.

﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٢٨﴾ وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بم جنتهم به - يا محمد - كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا، فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: العقول الصحيحة، والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَاِتِّمُوا لَهَا وَلَا تَنْسُوا وَلَكِنْ نَسُوا الْقُلُوبَ أَلَمْ يَنْسُوا أَلَّا يَسْمَعُوا﴾ [الحج: ٤٦]، وقال في سورة «السجدة»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ يَسْمَعُونَ﴾ [١٢٩]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [١٢٩]، أي: لولا الكلمة السابقة من الله، وهو أنه لا يُعَذَّب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه - والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة مُعَيَّنة - لجاءهم العذاب بغتة. ولهذا قال لبيبة مسلماً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: تكذبيهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾، يعني صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر.

[٤٥٧٩] كما جاء في الصحيحين، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَظَّرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةِ قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلِ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

[٤٥٨٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن عبد الملك بن عُمر، عن عمارة بن رُوَيْبَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»^(٢). رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عُمر، به.

[٤٥٨١] وفي المُسنَدِ والسُّنَنِ، عن ابن عُمر قال: قال رسول الله ﷺ: - «إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزَلَةٌ مَنْ يَنْظُرُ فِي مَلِكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ، يَنْظُرُ إِلَىٰ أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَدْنَاهُ، وَإِنْ أَعْلَاهُ مَنْزَلَةٌ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ»^(٣). وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أي: ساعاته فتَهَجِّدُ به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾، في مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥].

[٤٥٨٢] وفي الصحيح: يقول الله تعالى: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعدنا. فيقول: هل رضيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٥٥٤ و٤٨٥١ ومسلم ٦٣٣ وأبو داود ٤٧٢٩ والترمذي ٢٥٥١ وابن ماجه ١٧٧ وأحمد ٣٦٠/٤ وابن حبان ٧٤٤٢.

(٢) صحيح . أخرجه مسلم ٦٣٤ وأبو داود ٤٢٧ والنسائي ٢٣٥/١ وأحمد ١٣٦/٤ وابن حبان ١٧٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٥٣ وأحمد ٦٤/٢ وأبو يعلى ٥٧١٢ والأجري في «الشرعية» ٦٣١ والبيهقي في «البعث والنشور» ٤٧٧ وإسناده ضعيف، لضعف نويرة بن أبي فاختة، وكذا ذكره الهيثمي في «المجمع» ٤١٠/١٠ وقال: وفي أسانيدهم نويرة بن أبي فاختة جمع على ضعفه اهـ.

ذَلِكَ. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أجل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١).
[٤٥٨٣] وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه». فيقولون:
وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؛ ويثقل موازيننا؛ ويترحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون
إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة^(٢).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾
﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: لا تنظر إلى ما متعنا به هؤلاء المترفين وأشباههم
ونظراءهم، وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنتخبهم بذلك، وقليل من عبادي
الشكور. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، يعني الأغنياء، فقد أتاك الله خيراً مما أتاهم. كما قال في الآية
الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سِمًا مِنْ الْمَكَّانِ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ۝١٣١﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴿الحجر:
٨٧-٨٨﴾، وكذلك ما دخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، كما قال
تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرْصًا ۝٥﴾ ﴿الشمس: ٥﴾، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

[٤٥٨٤] وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله - ﷺ - في تلك المشربة التي كان قد
اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، فراه متوسداً مضطجعاً على رمالٍ حصير، وليس في البيت إلا صبرةٌ من قَرِظٍ
وأهبةٌ مُعلَّقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله - ﷺ -: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله، إن
كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم
عُجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(٣). فكان - صلوات الله وسلامه عليه - أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة
عليها، إذا حصلت له يُنفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

[٤٥٨٥] وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن
عطاء بن يسار، عن أبي سعيد: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ
زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض»^(٤). وقال قتادة، والسدي:
زهرة الدنيا، يعني زينة الحياة الدنيا، وقال قتادة: ﴿لِنَفِثَنَّهُمْ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ. وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ
عَلَيْهَا﴾، أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ
آمَنُوا قَرَأْ أُنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا
ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده [من
غلمانة] أنا ويروفا^(٥). وكان له ساعة من الليل يُصلي فيها، قرئاً لم يتم فتقول: لا تقوم الليلة كما كان يقوم.
وكان إذا استيقظ أقام - يعني أهله - وقال: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٤٩ و٧٥١٨ ومسلم ٢٨٢٩ وأحمد ٨٨/٣ والترمذي ٢٥٥ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٢٨٢
من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) تقدم في سورة يونس.

(٣) يأتي في سورة التحريم عند آية: ٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٢١ ومسلم ١٠٥٢ في أثناء حديث.

(٥) هو مولى عمر، وما بين المعقوفين من الطبري ٢٤٤٦١.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْتَلِكْ رِزْقًا مِّنْ رَّبِّكَ﴾، يعني إذا أتممت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٥٦﴾ وَرِزْقَهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْ رِزْقِي وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، ولهذا قال: ﴿لَا تَسْتَلِكْ رِزْقًا مِّنْ رَّبِّكَ﴾، قال الثوري: ﴿لَا تَسْتَلِكْ رِزْقًا﴾، أي: لا تكلّمك الطلّب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجّع إلى أهله فدخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿مَنْ رَزَقَهُ﴾﴾، ثم يقول: الصلاة الصلاة، رجمكم الله.

[٤٥٨٦] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ - إذا أصابه خصاصة نادى أهله: يا أهلاه، صلّوا. صلّوا. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزغوا إلى الصلاة^(١).

[٤٥٨٧] وقد روى الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ -: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي مملأً صدرك غنى، وأسد فقرك. وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٢).

[٤٥٨٨] وروى ابن ماجه من حديث الضحّاك عن الأسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همّاً واحداً هم المعاد كفاه الله همّ دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك»^(٣).

[٤٥٨٩] وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عمر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتيه من الدنيا إلا ما كتبت له. ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤). ﴿وَالْمَعْقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾، أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة - وهي الجنة - لمن اتقى الله.

[٤٥٩٠] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب»^(٥).

(١) هذا مرسل، ثابت هو بن أسلم البناني، تابعي فحديثه مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٢٤٦٦ وابن ماجه ٤١٠٧ وأحمد ٣٥٨/٢ والحاكم ٤٤٣٢ وابن حبان ٣٩٣ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب اه، وانظر الصحيحة ١٣٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٥٧ و٤١٠٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف، فيه نeshل، قيل إنه يروي المناكير، وقيل بل الموضوعات اه. لكن المتن محفوظ فقد أخرجه الحاكم ٤٤٣/٢ والبيهقي في «الشعب» ١٠٣٤٠ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وهو بهذا الإسناد حسن.

(٤) جيد. أخرجه ابن ماجه ٤١٠٥ وابن حبان ٦٨٠ والطبراني في «الأوسط» ٧٢٦٧ والبيهقي في «الشعب» ١٧٣٦ و١٠٣٣٨. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وللحديث شواهد يقوى بها، انظر «تفسير البغوي» ٤٦٣ بتخريري، و«الترغيب والترهيب» ٢٤/٤ - ٢٦ للمنزري.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٠ وأبو داود ٥٠٢٥ وأحمد ٢٨٦/٣ وأبو يعلى ٣٥٢٨ من حديث أنس.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا رَبَّنَا نُنزِّلُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ وَنَحْزَرَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلُّ مَرْرٍصٍ فَتَرِصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى مُخْبِراً عن الكُفَّارِ في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾، أي: هَلَا ﴿يَا أَيُّهَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿يَا أَيُّهَا رَبَّنَا﴾، أي: بعلامةٍ دالةٍ على صِدْقِهِ في أَنَّهُ رَسولُ اللَّهِ؟ قال اللهُ تعالى: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه اللهُ وهو أُمِّي لا يُحِسُّ الكتابةَ، ولم يُدَارِسْ أهلَ الكتاب، وقد جاء فيه أخبارُ الأولين بما كان منهم في سالفِ الدُّعْوَرِ، بما يُوافقه عليه الكُتُبُ المتقدِّمةُ الصحيحةُ منها، فإن القرآنَ مُهَيِّئٌ عليها، يُصَدِّقُ الصحيحَ، وَيُبَيِّنُ خَطَأَ المكذوبِ فيها وعليها. وهذه الآيةُ كقولهِ تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْكَ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١].

[٤٥٩١] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي من الآيات ما آمنَ على مثله البشرُ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابِعاً يومَ القيامةِ»^(١). وإنما دُكِرَ هاهنا أعظمُ الآياتِ التي أعطيتها عليه السلام، وهو القرآنُ، وله مِن المعجزاتِ ما لا يُحَدُّ ولا يُحصَرُ، كما هو مُودَعٌ في كُتُبِهِ، ومُقرَّرٌ في مواضعِهِ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، أي: لو أَنَّا أَهْلَكْنَا هؤلاء المكذِبين قبل أن نُرْسِلَ إليهم هذا الرسولَ الكريمَ، ونُنزِّلَ عليهم هذا الكتابَ العظيمَ لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نُؤْمِنَ به ونُتَّبِعَهُ؟ كما قال: ﴿فَتَنبِّئْ عَائِيكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ وَنَحْزَرَ﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذِبين مُتَعَتِّتُونَ مُعَانِدُونَ لا يُؤْمِنُونَ، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى رَوَوْا الْمَدَابِ الْأَلِيمَةَ ﴿١٣٧﴾﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتِجُوهُ وَأَتَّقُوا قَوْلَكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أن تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ وِرَاسَتِهِمْ لَفَنَائِلٌ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةٌ فَفَنَ أَظَلُّوا وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنَّا سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصِدُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْمَدَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدُّونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُتُوا بِاللَّهِ لَيَكُونَنَّ أَهْدَى مِنْ إِسْحَاقَ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢]. وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُمْ بِهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: يا محمد لمن كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ واستمرَّ على كفرِهِ وعنادِهِ: ﴿كُلُّ مَرْرٍصٍ﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَرِصًا﴾، أي: فانظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، أي: الطريق المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾، إلى الحق وسبيل الرِشَادِ. وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَلْمُونَ جِبَّتَ بَرُونَ الْمَدَابِ مَنْ أَصْلُ سَيْلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَاؤَ مِنَ الْكُذَّابِ الْأَبْرَارِ ﴿١٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦].

أخرُ تفسيرِ سورة طه، والله العَظِيمُ والمَنَّةُ



وهي مكة

قال البخاري: حدثنا مُحَمَّد بن بَشَّار، حدثنا عُثْرَد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سَمِعْتُ عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هُنَّ من العِتَاقِ الأول، وهُنَّ من تِلَادِي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم مَّا أَفْتَاوْكَ الْيَسْحَرَ وَأَنْتَ تَبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلِمِ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِسْنَا نِسَاءَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (٥) مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

[٤٥٩٢] وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ -: ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، قال: «في الدنيا»^(٢). وقال تعالى: ﴿ أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) [القمر: ١-٢]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نؤاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذت هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

[٤٥٩٣] [٤٥٩٣] وَرَوَى فِي تَرْجَمَةِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ فَأَكْرَمَ عَامِرٌ مَشْوَاهُ، وَكَلَّمَ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَجَاءَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: إِنِّي اسْتَقَطَعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وادياً في العَرَبِ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطِعَ لَكَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٩، وتقدم في سورة الإسراء.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٥٢ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ ج ٤١ من طريق عمدة عن الأعمش به مطولاً.

منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلنا عن الدنيا: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أنزله الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ﴾، أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِئُونَ﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكُتُب عما بأيديهم وقد حَرَفوه وبدلوه، وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكُتُب بالله تقرأونه مَخضاً لم يُسب. رواه البخاري بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: قائلين فيما بينهم خفية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعنون رسول الله - ﷺ - يستبعدون كونه نبياً، لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟! ولهذا قال: ﴿أَفَأَتُوكَ السِّحْرَ وَأنتَ تُبْصِرُونَ﴾، أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه، من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: السميع لأقوالكم، ﴿الْفَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعد. وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّكُمْ أَهْلِكُمْ بَلْ أَقْرَبَهُ﴾: هذا إخبار عن تَعَثُّتِ الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يَصِفُونَ به القرآن وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مُفترى، كما قال: ﴿أَنظَرَ كَيْفَ صَرُفُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨]. وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُنزِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا مُّؤَدَّةً مُّبِينَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١)، أي: ما آتينا قرية من القرى الذين بُعِثَتْ فيهم الرسل آية على يَدَي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الْآيَاتِ كَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) ولو جاءتهم كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات، على يَدَي رسول الله - ﷺ - ما هو أظهر وأجلنى، وأبهز وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

[٤٥٩٤] قال ابن أبي حاتم رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحُبَاب: حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا الحارث ابن يزيد الحضرمي، عن علي بن رِيَّاح اللخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول: كُنَّا فِي المسجد، ومعنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يُقرئ بعضنا بعضاً القرآن، فجاء عبد الله بن أبي ابن سلُول، ومعهُ مُرْمَقة وزريرة، فوضع وانكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جَدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داوُدُ بِالزُّبُور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالماندة. فبكى أبو بكر - رضي الله عنه - فخرج رسول الله - ﷺ - فقال أبو بكر: قوموا بنا إلى رسول الله - ﷺ - نستغيث به من هذا المناق. فقال رسول الله: إنه لا يقام لي، إنما يقام لله عز وجل. فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المناق! فقال: أتى جبريل فقال لي: أخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك، وقصيلته التي فضلت بها.

فبشرني أنه بعثني إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجحش، وآتاني كتابه وأنا أتمي، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان، وأمّدتني بالملائكة، وآتاني النصر، وجعل الرّعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حوضي من أعظم الجياض يوم القيامة، ووعّدتني المقام المحمود والناس مهبطون مغمّون رؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعة سبعين ألفاً من أمّتي الجنة بغير حساب، وآتاني السلطان والملك، وجعلني في أعلى عُرْقَةٍ في الجنة في جنات عدن، فليس فوقي أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لي ولأمّتي الغنائم، ولم تحل لأحد كان قبلنا^(١). وهذا الحديث غريب جداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرّسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾، أي: جميع الرّسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرّسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾، أي: بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، أي: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْنَا كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَشْهُورًا﴾ [الفرقان: ٧ - ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَالِدِينَ﴾، وخاصتهم أنهم يُوحى إليهم من الله عز وجل، ينزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه، مما يأمر به وينهى عنه. وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾، أي: الذي وعدهم ربهم، ﴿لَنُظِلِّيَنَّهُمْ﴾، صدقهم الله وعده، ففعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾، أي: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾، أي: المكذّبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنْسَاءَ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ

(١) إسناده ضعيف، له علتان: ابن لهيعة ضعيف الحديث، وفيه راو لم يسم، وتقدم بسياق آخر، والله اعلم.

فِيهِ وَوَسَلِكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بُولَئِنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا عَلَى شَرْفِ الْقُرْآنِ، وَمُحْرَضًا لَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شَرَّفَكُمْ، وقال مجاهد: حَدِيثَكُمْ. وقال الحسن: دِينَكُمْ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: هذه النعمة وتثقلونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَذِكْرِكُمْ لَكُمْ وَلِقَابِكُمْ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾. هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَبْرِيَّةٍ أَمْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَهَا عَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْتَئِنُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَيْشِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ [الحج: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، أي: أمة أخرى بعدهم. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾، أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ﴾، أي: يفرّون هاربين، ﴿لَا تَرْكَبُوا وَأَنْتُمْ كَالَّذِينَ لَا تَرْكَبُوا﴾، هذا تهكم بهم نزرأ، أي: قيل لهم نزرأ: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من التعمية والشورور، والعيشة والمسكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَا بُولَئِنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ ﴿١٤﴾، أي: ما زالت تلك المقالة - وهي الاعتراف بالظلم - هجيزاً لهم حَتَّى حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا. وحُمدت حركاتهم وأصواتهم خُموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿يَجْزِي الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوْا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ التَّكْوِينِ﴾ ﴿١٧﴾ [ص: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾، قال ابن أبي نجيب، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾، يعني من عندنا، يقول: وما خَلَقْنَا جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا بَعْثًا، وَلَا حِسَابًا. وقال الحسن، وفتادة وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾، اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [قال: نساء] ^(١)، ﴿لَآتَخَذْنَاهُ﴾، من الحور العين. وقال عكرمة، والسدي: المراد باللهو هاهنا الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْجَذَ وَلَكَّا لَأَصْطَلَقَنِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: ٤]، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا، لا يبيها عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذه عيسى، أو عَزِير، أو الملائكة، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قال قتادة،

وَالسَّادِي، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيُّ، وَمَغِيرَةَ بْنِ مِقْسَمٍ: أَي مَا كُنَّا فَاعِلِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ «إِنْ» فَهُوَ إِنْكَارٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَقْدِرُ بِأَلْمِي عَلَى الْبَطِيلِ﴾، أَي: نُبَيِّنُ الْحَقَّ قَيْدَ حُضِّ الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أَي: ذَاهِبٌ مُضْمَجِلٌ، ﴿وَلَكُمْ أَوْلَىٰ﴾، أَي: أَيُّهَا الْقَائِلُونَ: اللَّهُ وَوَلَدُهُ، ﴿يَمَّا نَصِفُونَ﴾، أَي: تَقُولُونَ وَتَقْتَرُونَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنِ عُثُوبِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَذَأِبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَقَالَ: ﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾، يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أَي: لَا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُرْتُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَتَكْبِرُ فَيَسْحَرْتُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾، أَي: لَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَمَلُونَ، ﴿يَسْحَرُونَ أَيْلًا وَالتَّهَارَ لَا يَقْتَرُونَ﴾ (١٧٣)، فَهَمَّ دَائِبُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، قَادِرُونَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

[٤٥٩٥] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي دُلَامَةَ الْبَغْدَادِيُّ، أَنبَأَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بَيْنَ أَصْحَابِهِ إِذْ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟» قَالُوا: مَا نَسْمَعُ مِنْ شَيْءٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيبَ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَامُ أَنْ تَيْطُ، وَمَا فِيهَا مَوْضِعٌ شَيْئٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلِكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ» (١). غَرِيبٌ وَلَمْ يُجْرِحُوهُ. ثُمَّ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدِ بْنِ زُرَيْعٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ، مَرْسَلًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ حَسَّانِ بْنِ مَخْرَاقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَأَنَا غَلَامٌ، فَقُلْتُ لَهُ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿يَسْحَرُونَ أَيْلًا وَالتَّهَارَ لَا يَقْتَرُونَ﴾ (١٧٣)، أَمَا يَشْغَلُهُمْ عَنِ التَّسْبِيحِ الْكَلَامُ وَالرِّسَالَةُ وَالْعَمَلُ؟ فَقَالَ: مِنْ هَذَا الْغُلَامِ؟ فَقَالُوا: مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. قَالَ: فَقَبَّلْتُ رَأْسِي، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا بَنِيَّ، إِنَّهُ جَعَلَ لَهُمُ التَّسْبِيحَ كَمَا جَعَلَ لَكُمْ التَّمَسُّسَ، أَلَيْسَ أَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنْتَ تَتَنَفَّسُ، وَأَنْتَ تَمْشِي وَأَنْتَ تَتَنَفَّسُ؟

﴿أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِمَّنْ آتَّخَذُوا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحْنَ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ (٢٣)

يُنْكَرُ تَعَالَىٰ عَلَيَّ مِنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، فَقَالَ: ﴿أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِمَّنْ آتَّخَذُوا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾ (٢١)، أَي: أَمُّهُمُ يُحْيُونَ الْمَوْتَى وَيُنْشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ!؟ أَي: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ جَعَلُوهُمُ اللَّهُ نِدَاءً وَعَبْدُوهُا مَعَهُ!؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ آلِهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ﴾، أَي: فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا جَعَلْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ غُلَبًا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٢١) ﴿فَسَبَّحْنَ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أَي: عَمَّا يَقُولُونَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيُفَكِّونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (٢٣)، أَي: هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَانِهِ، وَعُلوُّهُ وَحُكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ وَأَلْفَتُهُ، ﴿وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾، أَي: وَهُوَ سَائِلٌ خَلْقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَرَيْكَ لَتَشْتَأْنَهُنَّ آجِمِينَ﴾ (٢٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٣) [الحجر: ٩٢ - ٩٣]. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

(١) فِي إِسْنَادِهِ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ الْخِيفَاقِيُّ قَالَ يَمِينِي: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. وَقَالَ أَحْمَدُ: ضَعِيفُ الْحَدِيثِ مُضْطَرَبٌ، وَوَثَقَهُ الدَّارِقُطَنِيُّ. وَهُوَ غَرِيبٌ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلَعَجْزُهُ شَوَاهِدٌ. وَالغَرَابَةُ فَقَطْ فِي صَدْرِهِ.

﴿أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِيَّ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: دليلكم على ما تقولون، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِيَّ﴾، يعني القرآن، ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾، يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم - أيها المشركون - لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه. ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلًا آجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلًا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبُرْهَانَ وَآجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والبطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا بزهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلٰهَةٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنُجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نُجْزِي الْظٰلِمِيْنَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، أي: الملائكة عباد الله، مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمر به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾، أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ومن يقل منهم إله من دونه، أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي: مع الله، ﴿فَلْنُجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نُجْزِي الْظٰلِمِيْنَ﴾، أي: كل من قال ذلك. وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنآ أَوَّلَ الْعٰبِدِيْنَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَعْبُدَنَّ عَمَّا كَفَرْنَا﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَفَافًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيٰتِنَا مُّعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى متبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم تعلموا أن الله هو المستقل بالخلق،

المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره أو يُشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، أي: كان الجميع مُتصلاً، بعضه ببعض متلاصقاً، مترامك بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، فَتَقَّتْ هذه من هذه فَجَعَلَ السَّمَوَاتِ سَبْعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾، أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع، الفاعل المختار، القادر على ما يشاء:

فِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ نَّذُرٌ عَلَيْنَا لِنُنذِرَ وَأَجِدُ

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سُئِلَ ابن عباس: الليلُ كان قبلُ أو النهار؟ فقال: أرايتُم السموات والأرض حين كانتا رَتْقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني ما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رَتْقاً لا تُمطر، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنبث، فلما خَلَقَ للأرض أهلاً فَتَقَّتْ هذه بالمطر، وَفَتَقَّتْ هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمتُ أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق، هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجبني جِزَاءُ ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد عَلِمْتُ أنه قد أوتي في القرآن علماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رَتْقاً لا تُمطر، فأمرت. وكانت هذه رَتْقاً لا تُنبث فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة فَفَتَقَتْ منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة فَفَتَقَتْ منها سبع أرضين. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن الأرض والسماء متماسكتين. وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض مُلتزقتين، فلما رَفَعَ السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فَتَقَّتْهُمَا الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن، وقاتدة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهَوَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾، أي: أصلُ كُلِّ الأحياء منه.

[٤٥٩٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهِر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قاتدة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قرئت عيني وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء»^(١).

[٤٥٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قاتدة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبثني عن كل شيء. قال: كل شيء خلق من ماء قال: قلت: أنبثني عن أمر إذا عملتُ به دخلتُ الجنة. قال: أفش السلام، وأطعم الطعام، وصِل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام^(٢). ورواه أيضاً عن عبد الصمد، وعفان، وبهر، عن

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٥، وصححه الحاكم ٤/١٦٠ ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في «المجموع» ١٦/٥: رواه أحمد، ورجال رجال الصحيح، خلا أبو ميمونة، وهو ثقة. قلت: إسناده ضعيف. قال الذهبي في الميزان ٤/٥٧٩: أبو ميمونة عن أبي هريرة، وعنه قاتدة قال الدارقطني: مجهول يُترك. وفيه عننة قاتدة وهو مدلس.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه. لكن لفظ «أفش السلام»... له شواهد صحاح.

هَمَامٌ. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ. إِلَّا أَنَّ أَبَا مَيْمُونَةَ مِنْ رِجَالِ السُّنَنِ وَاسْمُهُ سُلَيْمٌ^(١)، وَالتِّرْمِذِيُّ يُصَحِّحُ لَهُ. وَقَدْ رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ مَرْسَلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، أي: جبالاً أَرَسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا، لِثَلَا تَمِيدِ النَّاسِ، أي: تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ، فَلَا يَحْضُلُّ لَهُمْ عَلَيْهَا قَرَارٌ، لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مَقْدَارَ الرَّبِيعِ، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ، لِشَاهِدِ أَهْلِهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ آيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالْحَكْمِ وَالذَّلَالَاتِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾، أي: لِثَلَا تَمِيدَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا﴾، أي: ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى أَقْلِيمٍ، كَمَا هُوَ الشَّاهِدُ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فُجُوزَةً لغيره، لَيْسَلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمَّا كَلَّمَهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَاءً﴾، أي: عَلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ كَالْقُبَّةِ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِأَيْتِكُمْ وَإِنَّا لَمُؤَيَّدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ⑤﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَنَّهُ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَازَنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ⑥﴾ [ق: ٦]، وَالْبِنَاءُ هُوَ نَضْبُ الْقُبَّةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:

[٤٥٩٨] «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خُمْسٍ»^(٢)، أي: خَمْسَ دَعَائِمٍ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخِيَامِ، عَلَى مَا تَعَهَّدَهُ الْعَرَبُ. «مَحْفُوظًا»، أي: عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يَنَالَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَرْفُوعًا.

[٤٥٩٩] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدُّشْتُكِيُّ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَشْعَثٍ - يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ الْقُمِّيَّ - عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمَغِيرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ السَّمَاءُ، قَالَ: «هَذَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُمْ»^(٣). إِسْنَادٌ غَرِيبٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنَّا بِنِعْمَتِنَا كَفُورُونَ﴾. كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَاتِي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنَّا مُغْرِضُونَ ⑩﴾ [يوسف: ١٠٥]، أي: لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْإِتْسَاعِ الْعَظِيمِ وَالْإِرْتِفَاعِ الْبَاهِرِ، وَمَا زِيَّتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّرَائِبِ وَالسِّيَّارَاتِ فِي لَيْلِهَا، وَفِي نَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفُلُكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَليلةٍ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكير والاعتبار»: أَنَّ بَعْضَ عُبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَعَبَّدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا تَعَبَّدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ الرَّجُلَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُرَى لغيره، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أُمِّهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا بَنِي فَلَعْلِكَ أَذْنِبْتَ فِي مَدَّةِ عِبَادَتِكَ هَذِهِ، فَقَالَ: لَا، وَاللَّهُ مَا أَعْلَمُ، قَالَتْ: فَلَعْلِكَ هَمَمْتَ؟ قَالَ: لَا، وَاللَّهُ وَلَا هَمَمْتُ. قَالَتْ: فَلَعْلِكَ رَفَعْتَ بَصْرَكَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ رَدَدْتَهُ بِغَيْرِ فِكْرٍ، فَقَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا. قَالَتْ: فَمِنْ هَاهُنَا أُتَيْتَ. ثُمَّ قَالَ مُنْبَهًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: هَذَا فِي ظِلَامِهِ وَسُكُونِهِ، وَهَذَا بِضِيَّائِهِ وَأُنْسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى، وَعَكْسُهُ الْآخَرُ، ﴿وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، هَذِهِ لَهَا

(١) أبو ميمونة الذي في الإسناد مجهول، وهو غير أبي ميمونة الذي يروي له أصحاب السنن.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٥٤١، رجاله ثقات سوى جعفر بن أبي المغيرة، ذكره ابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، وقال ابن مندة: ليس بالقوي في سعيد بن جبيرة، راجع الميزان ١٥٣٦. والراجح وقفه على ابن عباس، والله أعلم.

نور. يخصها فلنك بذاته، وزمان على جدية، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر فلنك آخر^(١)، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٤)، أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل والقمر، لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن كما قال تعالى: ﴿فَالرُّجُجُ الْوَسْبِجُ وَجَمَلُ الْيَلِّ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٥) [الأنعام: ٤٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَايِنَ مِتَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥)

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿الْخَلْدَ﴾، أي: في الدنيا، بل ﴿كُلٌّ مِنْ عَالِيَا قَانٍ﴾ (٣٤) ﴿وَبَيْنَ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ قُدْرَةُ الْبَلَدِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣٥) [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر - عليه السلام - مات وليس بحي إلى الآن، لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾. وقوله: ﴿أَفَايِنَ مِتَّ﴾، أي: يا محمد، ﴿فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾؟! أي: يؤمنون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روي عن الشافعي رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَتَّى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أُمْتُ فَتَلِكُ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَنْفِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى: تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدِ

وقوله تعالى: ﴿وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، لنتظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَبَلُّوكُمْ﴾، يقول: نتليكم بالشر والخير فتنه، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: فتجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ إِذَا هُمْ يَنْخَلِدُونَ﴾ (٣٦) ﴿إِنَّمَا هُمْ زُجْرٌ مِمَّنْ سَاءَ مَا يَكُونُ لِقَوْمٍ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ إِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ إِذَا هُمْ يَنْخَلِدُونَ﴾ (٣٧)

يقول تعالى لنبئه - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: كفار قريش، كآبي جهل وأشباهه، ﴿إِنَّمَا هُمْ زُجْرٌ مِمَّنْ سَاءَ مَا يَكُونُ لِقَوْمٍ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا فِي الْإِسْلَامِ﴾، أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلَكُمْ﴾، يعنون: أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الْهَيْكَلَكُمْ﴾، أي: وهم كفارون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُ إِذَا هُمْ يَنْخَلِدُونَ﴾ (٣٦) ﴿إِنَّمَا هُمْ زُجْرٌ مِمَّنْ سَاءَ مَا يَكُونُ لِقَوْمٍ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا فِي الْإِسْلَامِ﴾ (٣٧) [الفرقان: ٤١ - ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجْوَلًا﴾ [الإسراء: ١١]، أي: في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقني قبل غروب الشمس.

(١) كذا قال المصنف رحمه الله جرياً على ما كان عليه الأقدمون، والصواب، وكما ثبت علمياً في العصر الحديث، أن القمر لا نور له خاص، وإنما هو يعكس ضياء الشمس ونورها. وقله تبع فلنك الشمس.

[٤٦٠٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بنُ سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو ابن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي - وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ يَقْلُلُهَا - فَسَأَلَ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. قَالَ أَبُو سَلْمَةَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: قَدْ عَرَفْتُ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَهِيَ آخِرُ سَاعَاتِ النَّهَارِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَهِيَ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا آدَمَ^(١)».

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يُعَلِّي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يُؤَجِّل ثم يُعَجِّل، ويُنظِر ثم لا يُؤخِّر، ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾، أي: يُقِيمِي وَحُكْمِي وَاقْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ، تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِعَادًا، فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةٌ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، ﴿لَمْ يَنْ قَوْعِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾، وَقَالَ: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ فِطْرَانِ وَنَشْتَى وَجُوهِهِمُ النَّارُ﴾ (٤٠) [إبراهيم: ٥٠]، فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لَا نَاصِرَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاوٍ﴾ [الرعد: ١٣٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾، أي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً، أي: فَجَاءَةً ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾، أي: تَدْعُرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ لَا يَذْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: وَلَا يُؤخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسُلٌ مِنْ قِبَلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَرَلَمْ تَكُنْ أَلِلهَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مُسْتَلِيًّا لِرَسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الِاسْتَهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسُلٌ مِنْ

(١) صحيح . أخرجه أبو داود ١٠٤٦ و الترمذي ٤٩١ وأحمد ٤٨٦/٢ و الحاكم ٢٧٨/١ - ٢٧٩ و ابن حبان ٢٧٧٢ و صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، و إسناده قوي . و أخرج صدره فقط مسلم ٨٥٤ و الترمذي ٤٨٨ و النسائي ٨٩/٣ - ٩٠ و أحمد ٤٠١/٢ .

قَبْلِكَ فَكَافٍ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٤﴾، يعني: من العذاب الذي كانوا يستعبدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنْهَمُ صَعْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أي: بَدَلِ الرَّحْمَنِ، بمعنى غيره كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمُرْقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتَقَا

أي: لم تذوق بَدَلِ الْبُقُولِ الْفُسْتَقَا. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَالْآيَةِ. ثم قال: ﴿أَمْ لَمْ آهِلَهُتُم بِالنِّسَاءِ فَتُؤْتُونَ مِنْهَا دُورِيًّا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألم آهلهتُم بِنِسَائِكُمْ وَتَكَلَّمْتُمْ بِهِمْ غَيْرُنَا؟ ليس الأمر كما توهموا، لا ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ صَبْرًا أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾، قل العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾، أي: يُجَاوِزُونَ. وقال قتادة: لا يُصْحَبُونَ مِنْ اللَّهِ بِخَيْرٍ. وقال غيره: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يُمْنَعُونَ.

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّعْرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نُونَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما عَزَّمْهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ أَنَّهُمْ مُتَعَمِّدُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُعْمُوا، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد» وأحسن ما فُسِّرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظُهور الإسلام على الكُفْرِ. والمعنى: أفلا يعتبرون بِنُصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَّةِ الْمَكْذِبَةِ وَالْقُرَى الظَّالِمَةِ، وَإِنجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، يعني: بل هُمُ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْدَلُونَ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾، أي: إنما أنا مبلغٌ عن الله ما أُنذِرُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَلَكِنْ لَا يُجِدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللَّهُ بِصِيرَتِهِ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّعْرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نُونَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾، أي: ولئن مَسَّ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَيُعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، أي: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ. وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]،

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿بَيِّنْتُ لِقَامًا إِنْ تَكُ شَقَالًا حَبْرٌ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

[٤٦٠١] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

[٤٦٠٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمْتُكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ. قَالَ: أَفَلْكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: فَيُبْهَتِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا تَظْلِمُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ. فَيُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السُّجُلَاتِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَا تَظْلِمُ قَالَ فَتَوَضَّعَ السُّجُلَاتِ فِي كِفَّةٍ وَالبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السُّجُلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ. قَالَ: وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(٢). ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث ابن سعد، به، وقال الترمذي: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[٤٦٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عامر^(٣) بن يحيى، عن أبي الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تَوَضَّعَ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أَحْصَى عَلَيْهِ، فَتَمَازِيلُ بِهَ الْمِيزَانِ، قَالَ: فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَإِذَا أَدْبَرَ بِهِ إِذَا صَاحَّ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: لَا تَعْجَلُوا فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ. فَيُؤْتَى بِبَطَاقَةٍ فِيهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَتَوَضَّعَ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ»^(٤).

[٤٦٠٤] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو نُوحٍ قُرَادٌ، أَنبَأَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَعْلُوكَيْنِ يَكْذِبُونَنِي وَيُحُونُونَنِي وَيَعْضُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَشْتُمُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصُوكَ وَكَذَّبُوكَ وَعَقَابُكَ إِيَاهُمْ، إِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٠٦ و٧٥٦٣ ومسلم ٢٦٩٤ والترمذي ٣٤٦٧ وابن ماجه ٣٨٠٦ وأحمد ٢٢٢/٢ وابن حبان ٨٣١.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٦٣٩ وابن ماجه ٤٣٠٠ وأحمد ٢١٣/٢ و٢٢٢ والحاكم ٦/١ - ٥٢٩ وابن حبان ٢٢٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن غريب اهـ. ورجاله ثقات رجال مسلم.

(٣) وقع في مسند أحمد «عمرو» وكذا في سائر الأصول، والوهم، إما من ناسخ المسند، أو من غيره، والتصويب عن رواية أحمد المتقدمة، وكتب التراجم، والله أعلم.

(٤) أخرجه أحمد ٢٢١/٢، وقال الهيثمي في «الجمع» ٨٢/١٠: وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. قلت: ابن لهيعة ضعيف، لكن لحديثه شواهد.

اقتصص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله - ﷺ - ويهتف ، فقال رسول الله - ﷺ - : « ما له !؟ أما يقرأ كتاب الله ؟ : ﴿ وَصَحَّ الْمَوْتِينَ الْقِسْطَ لِيُرِيَ الْيَتِيمَ فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِنْكَ حَكْمَةٌ مِنْ حَرِّدَلِ آئِنَا يَهْمًا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبًا ﴾ (٤٧) . فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم (١) .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذِكْرًا لِلْمُنْتَفِعِينَ ﴾ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - وبين كتابيهما ، ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ . قال مجاهد : يعني الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة . وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : يعني النصر . وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية تستعمل على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والعبي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخَوْفاً وإِنابةً وخشيةً ، ولهذا قال : ﴿ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذِكْرًا لِلْمُنْتَفِعِينَ ﴾ ، أي : تذكيراً لهم وعظة . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ ، كقولهم : ﴿ مَنْ خِشِيَ الرَّعْنَ بِالْقَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبِ ثَيْبٍ ﴾ (٤٩) [ق : ٢٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٥٠) [الملك : ١٢] ، ﴿ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ ، أي : خائفون وجلون . ثم قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، يعني القرآن العظيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ، أي : أفتكفرونه وهو في غاية الجلاء والظهور !؟ .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم - عليه السلام - أنه آناه رُشدَه من قبل ، أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال : ﴿ وَرَبِّكَ حُجَّتًا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَا قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، وما يُذكر عنه من الأخبار في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام ، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعاتمها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك ردّدناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نُصدّقه ولا نُكذّبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في

(١) منكر . أخرجه الترمذي ٣١٦٥ وأحمد ٦/٢٨٠ وقال الترمذي : غريب . وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٢٨ وقال : إسناده أحمد والترمذي متصلان ، وروايتا ثقات . وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٣١ ولم يذكر له شواهد كعادته ، وليس بصحيح ، مداره على فراد ، وهو وإن وثقه غير واحد ، فقد قال غير واحد : روى منكر ، ومنها هذا الحديث ، بل قال أبو أحمد الحاكم : روى عن الليث حديثاً منكراً ، ومراده هذا الحديث . وقال أحمد بن صالح : هذا باطل ، بما وضع الناس . وقال الدارقطني : ليس هذا من حديث مالك ، أخطأ فراد فيه . راجع «الميزان» ٢/٥٨١ و«التهذيب» ٦/٢٢٤ .

رَوَاتِهَا، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما يُنتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلّفين في دينهم لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلّكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروّج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رُشدَه من قبل، أي: من قبل ذلك. وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، أي: وكان أهلاً لذلك. ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ وَقَوِيهِ مَا هَذَا قَتَائِلَ آلِيَّ أَنْتَ لِمَا عَصَاكَ﴾ (٥٧)، هذا هو الرُشد الذي أوتيه من صغره، الإنكار على قومه عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذَا قَتَائِلَ آلِيَّ أَنْتَ لِمَا عَصَاكَ﴾، أي: مُعتكفون على عبادتها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمغ بن نباتة، قال: مرّ عليّ رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عافكون؟ لأنّ يمسّ صاحبكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسّها. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا مَا لَنَا عَلَيْكَ عَيْدِينَ﴾ (٥٨)، لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلّام معكم، فأنتم وهم في ضلال، على غير الطريق المستقيم. فلما سَفِهَ أحلامهم، وضلّ آباءهم، واحتقر ألهتهم ﴿قَالُوا أَيْحَتْنَا يَأْتِيكَ آمَنَاتٌ مِنَ اللَّهِ عَالِمِينَ﴾ (٥٩)، يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لآبَاءٍ أَوْ مُحَقِّقًا فِيهِ؟ فإنا لم نسمع به قبلك. قال: ﴿بَلْ زَكَّرَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾، أي: ربّكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتداء خلقهنّ، وهو الخالق لجميع الأشياء، ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٧) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ نَعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠) ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَالِقَ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُم كِبْرَهُمْ هَٰذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣)

ثم أقسم الخليل قسماً سمعه بعض قومه: ليكيدنّ أصنامهم، أي: ليحرصنّ على أذاهم وتكبيرهم بعد أن يُولُوا مُدْبِرِينَ، أي: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدّي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق التقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم. فجعلوا يَمْزُون عليه وهو صريع فيقولن: مَهْ! فيقول: إني سقيم. فلما جاز عائلتهم وبقي ضِعْفَاؤُهُمْ، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ﴾، فسمعه أولئك. وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خَرَجَ قوم إبراهيم إلى عيدهم، مرّوا عليه فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرج معنا؟ قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾، فسمعه ناس منهم. وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾، أي: خطاماً، كَسَرَهَا كُلِّهَا ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ نَعْلَهُمْ﴾، يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ سَمْرًا بِالْيَمِينِ﴾ (٦٣) [الصفات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأيّف أن تُعبَد معه هذه الأصنام

الصُّغَارِ، فَكَسَّرَهَا. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٥٧)، أي: حين رَجَعُوا وشاهدُوا ما فعله الخليلُ بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدالُّ على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٥٨)، أي في صنيعه هذا. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُم يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ (٥٩)، أي: قال من سَمِعَهُ يَحْلِفُ إنه ليُكَيِّدُهُمْ: ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ﴾، أي: شاباً ﴿يَدُكُرُّهُم يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً^(١)، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُم يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَٰئِ أَصْنَانِ﴾، أي: على رؤوس الأشهاد في الملا الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبيِّن في هذا المحفل العظيم كثيرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تستطيع لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك. ﴿قَالُوا أَأَتَتْ فَعَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦١) قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبْرُهُمْ هَذَا، يعني الذي تَرَكَه لم يكسره، ﴿فَتَتَّوَكَّلُوا إِن كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾. وإنما أراد بهذا أن يبادرُوا من تلقاء أنفسهم فيعتبرُوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد.

[٤٦٠٥] وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: إن إبراهيم - عليه السلام - لم يكذب غير ثلاث، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمُ كِبْرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَمِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]. قال: وبيننا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، ومعه سارية إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا بأرضك رجلٌ معه امرأة أحسن الناس. فأرسل إليه فجاه، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي. فانطلق إلى سارية فقال: إن هذا الجبار سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك. فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما دخلت عليه فرأها أفزى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ. فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابها فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت. فلما أحس إبراهيم بمجيئها انقلبت من صلاته، قال: مهيم^(٢)؟ قالت: كف الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمني هاجر. قال محمد بن سيرين. فكان أبو هريرة - رضي الله عنه - إذا حدث بهذا الحديث قال: فبتلك أمكم يا بني ماء السماء^(٣).

(١) في صحة ذلك عن ابن عباس نظر. فيه قابوس بن أبي ظبيان، ضعفه غير واحد. وأما المتن ففيه نظر، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فيما بعد الكهولة، وهو في الأربعين، في حين قال عن يحيى ﴿يَبْعَثُ خِذِّ الْعَكْتَبِ يَتَوَدَّى وَيَأْتِيَهُ لَفْظُكُمْ صَبِيحًا﴾ والحكم هنا النبوة. فنتبه، والله تعالى أعلم.

(٢) قوله «مهيم» أي ما الشأن، ما الأمر.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٨ و٥٠٨٤ ومسلم ٢٣٧١ وأبو داود ٢٢١٢ وأحمد ٤٠٣/٢ وابن حبان ٥٧٣٧ والبيهقي

﴿فَرَجَعُوا إِلَيْنَا أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَكُ لَكُمْ وَلِيًّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ: ﴿فَرَجَعُوا إِلَيْنَا أَنفُسِهِمْ﴾، أَي: بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ احْتِرَازِهِمْ وَجِرَاسَتِهِمْ لِأَلْهَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أَي: فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مَهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا. ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أَي: ثُمَّ أَطْرَقُوا فِي الْأَرْضِ فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. قَالَ قَتَادَةُ: أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حَيْرَةً سَوْءًا، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أَي: فِي الْفِتْنَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ فِي الرَّأْيِ. وَقَوْلُ قَتَادَةَ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَيْرَةً وَعَجْزًا، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا: سَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ؟! فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ لِمَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، أَي: إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِن دُونِ اللَّهِ؟! ﴿أَلَمْ يَكُ لَكُمْ وَلِيًّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، أَي: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ الْغَلِيظِ، الَّذِي لَا يَرْجُو إِلَّا عَلَىٰ جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ؟! فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمَمَ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّكَ حُجَّتًا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]... الآية.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَبْنَؤُا كَوْفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

لَمَّا دَحَضَتْ حُجَّتَهُمْ، وَبَانَ عَجْزُهُمْ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ، عَدَلُوا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾. فَجَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا جَدًّا - قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّىٰ إِنْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ، فَتَنْزِدُ إِنْ عَوْفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطْبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ - ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْزَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَضْرَمُوا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ وَلَهَبٌ مَرْتَفِعٌ، لَمْ تَوْقِدْ قَطُّ نَارًا مِثْلَهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي كَفَّةِ الْمَنْجَنِيْقِ بِإِشَارَةِ رَجُلٍ مِنَ أَعْرَابِ فَارَسٍ مِنَ الْأَكْرَادِ - قَالَ شُعَيْبُ الْجَبْتِيُّ: اسْمُهُ هَيْزَنٌ - فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا أَلْفَوْهُ قَالَ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

[٤٦٠٦] كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

[٤٦٠٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: ﴿لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ قَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ عَبْدُكَ﴾^(١). وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا جَعَلُوا يُوَثِّقُونَهُ قَالَ: لَا

(١) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٦٣.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ٢٣٤٩ «كشف الأستار» والدارمي في «الرد على الجهمية» ٧٥ وأبو نعيم ١٩/١ والخطيب ٣٤٦/١٠ والذهبي في «الميزان» ٨٣٢٦. قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٦٦: فيه عاصم بن عمر ابن حفص، وثقه ابن حبان، =

إله إلا أنت، سُبْحَانَكَ، لك الحمدُ، ولك الملكُ، لا شريك لك. وقال شُعَيْبُ الْجَبَلِيُّ: كان عمره إذ ذلك ستَّ عشرة سنةً. فإله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى. وقال سعيد بن جبَّير - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقى إبراهيمُ جَعَلَ خازنُ المَطَرِ يقول: متى أوامر بالمطر فأرسله؟ قال: وكان أمرُ الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يَنْتَازُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبراهيمَ﴾، قال: فلم يبقَ من الأرض نازٌ إلا طِفِثَتْ. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحدٌ يومئذٍ بنارٍ، ولم تحرق النارُ من إبراهيم سيوى وثاقه.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قَلْنَا يَنْتَازُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبراهيمَ﴾ (١٦٦)، قال: بردت عليه حتى كادت تقتله (١٦٦)، حتى قيل: ﴿وَسَلْمًا﴾، قال: لا تضره. وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله - عز وجل - قال: ﴿وَسَلْمًا﴾، لآذى إبراهيمُ بَرْدَهَا. وقال جُوَيْرٌ، عن الضحاک: ﴿كُوْنِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبراهيمَ﴾، قال: صنَعُوا له حظيرةً من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يُصبه منها شيء، حتى أخذها الله. قال: ويذكرون أن جبريلَ كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يُصبه منها شيء غير ذلك. وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى في النار، فقال: كان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنتُ أياماً وليالي قط أطيّب عيشاً إذ كنتُ فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنتُ فيها. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رُفِعَ عنه الطبق وهو في النار، وجده يزحج جبينه، قال عند ذلك: نعم الربُّ ربُّك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذٍ دابةٌ إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ.

[٤٦٠٨] وقال الزهري: أمر النبي - ﷺ - بقتله وسماه فوسقاً (٢).

[٤٦٠٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير ابن حازم، أن نافعا حدثه قال: حدثتني مولاةُ الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلتُ على عائشة فرايتُ في بيتها رُمحاً. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرُمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاع، إن رسول الله - ﷺ - قال: إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النارَ غيرَ الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم. فأمرنا رسول الله - ﷺ - بقتله (٣). وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِوَيْهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠)، أي: المغلوبين الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجَّاه من النار، فغلبوا هنالك. وقال عطية

= وقال: يخطىء، ويخالف، وضعفه الجمهور. وكذا وقع للهيثمي، وقد نسبة الذهبي فقال: عاصم بن بهدلة اه وهو صدوق سيء الحفظ. ثم إن فيه أبو جعفر، وهو الرازي اسمه عيسى ابن عبد الله وضعفه الجمهور، وكذا فيه أبو هشام، محمد بن يزيد قال البخاري: رأيتهم جميعين على ضعفه. وقال ابن نمير: كان يسرق الحديث، والحديث ضعفه الذهبي بقوله: غريب جداً.

(١) لا يصح عن أمير المؤمنين، فلم تكد النار لتقتله، وهو بحفظ الله ورعايته، وفيه رجل لم يسم، والصواب أن يقال: لو لم يقل الله «وسلاماً» ربما قتله من بردها. والله أعلم.

(٢) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية كما هو مقرر في كتب المصطلح، وانظر ما بعده.

(٣) إسناده ضعيف. فيه أحمد بن عبد الرحمن أبو عبيد الله: قال ابن عدي: رأيت شيوخ مصر جميعين على ضعفه، وقال ابن حبان: أتى بمتاكر في آخر عمره. وقال ابن يونس: لا تقوم به حجة.

العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إبهاميه، فأحرقته مثل الصوفة.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِذْ جَاءَهُ بِبَنَاتِهِ فَكَفَّاهُنَّ أَهْلَهُنَّ بِمَا جَاءَهُنَّ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا تُعَذِّبُونَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾. قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كنا بأرض العراق، فأنجينا إلى الشام، وكان يقال الشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين. وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال. وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: إلى حران. وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها في دينهم، فترجوها على ألا يغيرها. رواه ابن جرير. وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلده. وقال العوفي، عن ابن عباس: إلى مكة، ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال عطاء، ومجاهد: عطية. وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد. يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَبِوَدَّ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأله واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾، أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، أي: فاعلمين لما يأمرون الناس به. ثم عطف بذكر لوط - وهو لوط بن هاران بن آزر - كان قد آمن بإبراهيم وأتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتَنَ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فاهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير ما موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا تُعَذِّبُونَ﴾. ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي

مَقْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٧٦﴾ [القمr: ١٠]، «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَدْرِعْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾» [نوح: ٢٦ - ٢٧]. ولهذا قال هاهنا: «إِذْ تَأَذَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَكَ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ»، أي: الذين آمنوا به، كما قال: «وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» [هود: ٤٠]. وقوله: «مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ»، أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله - عز وجل - فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه. وقوله: «وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْرِ»، أي: ونجيناها وحلصناها منتصراً من القوم «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾»، أي: أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً، إذ دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْرِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَآءَنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِصُونَ لِمُ وِيعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قال أبو إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرمًا قد تبثت عناقده. وكذا قال شريح. قال ابن عباس: النفس الرغي. وقال شريح، والزهرى، وقاتدة: النفس بالليل. زاد قتادة: والهمل بالنهار. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قالوا: حدثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْرِ»، قال: كرم قد أثبتت عناقيده، فأفسدته، قال: ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبا، فذلك قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ». وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد حدثنا خليفة، عن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينهم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث فيكون لهم أولادها وألبانها وسبلاؤها ومنافعها، ويؤدر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حزبهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرث، وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن مسروق قال: الحرث الذي نفست فيه الغنم إنما كان كرمًا نفست فيه الغنم، فلم تدع فيه ورقة ولا عثوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فتعطى أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيغمره ويصلحوه، حتى يعود كالذي كان ليلة نفست فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم. وهكذا قال شريح، ومرة، ومجاهد، وقاتدة، وابن زيد، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهراً أم ليلاً؟ فإن كان نهراً فقد برىء صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغُرُوثِ﴾... الآية. وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد عن الزهري، عن حزام بن مَحِيصَةَ:

[٤٦١٠] أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله - ﷺ - على أهل الحوائط جفطها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامين على أهلها^(١). وقد غُلل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا آيِنًا حَكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد: أن إياس بن معاوية لما استفضي أتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبي داود وسليمان - عليهما السلام - والأنبياء - حكماً يراد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغُرُوثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْرِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨)، فأنسى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال: - يعني الحسن -: إن الله أتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِبَائِقِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قلت: أما الأنبياء - عليهم السلام - فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف.

[٤٦١١] وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٢)، فهذا الحديث يراد ناصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

[٤٦١٢] وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار: رجل عليم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكيم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل عليم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»^(٣). وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال:

- (١) أخرجه أبو داود ٣٥٧٠ وأحمد ٤٣٦/٥ وابن ماجه ٢٣٣٢ وابن الجارود ٧٩٦ والحاكم ٤٧/٢ من طرق عن الزهري به. وفيه إرسال. وورد موصولاً عند أبي داود ٣٥٦٩ وأحمد ٤٣٦/٥ والبيهقي ٣٤٢/٨ من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محبصة عن أبيه به، وانظر مزيد الكلام عليه في «الأحكام» ١٤٩٧ لابن العربي بتخريري.
- (٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٥٢ ومسلم ١٧١٦ وأبو داود ٣٥٧٤ وأحمد ١٩٨/٤ وابن ماجه ٢٣١٤ وابن حبان ٥٠٦١.
- (٣) حسن. أخرجه أبو داود ٣٥٧٣ وابن ماجه ٢٣١٥ والحاكم ٩٠/٤ والبيهقي في «الشعب» ٧٥٣١ من حديث بريدة، وإسناده حسن. ويشهد له حديث ابن عمر عند الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» ١٩٣/٤ والقضاعي ٣١٧ وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.

[٤٦١٣] حدثنا علي بن حَفْصٍ، أَخْبَرَنَا وَرْقَاءُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا، جَاءَ الذُّبُّ فَأَخَذَ أَحَدَ الْابْنَيْنِ، فَتَحَاكَمْتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكَبِيرَى، فَخَرَجْنَا. فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ: هَاتُوا السُّكَيْنِ أَشَقَّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: يَرَحْمَتِكَ اللَّهُ! هُوَ ابْنُهَا، لَا تَشَقَّهُ. فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»^(١). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا. وَبَوَّبَ النَّسَائِيُّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ الْقَضَاءِ: «بَابُ الْحَاكِمِ يُوهِمُ خِلَافَ الْحُكْمِ لِيَسْتَعْلِمَ الْحَقُّ».

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تَرْجَمَةِ سُلَيْمَانَ - عليه السلام - من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ قَتَادَةَ، عَنِ مَجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَذَكَرَ قِصَّةَ مُطَوَّلَةٍ، مَلْخُصُّهَا: أَنَّ امْرَأَةً حَسَنَاءَ فِي زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا أَرْبَعَةَ مِنْ زُؤَانِيَّتِهِمْ، فَاِمْتَنَعَتْ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ، فَاتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَيْهَا، فَشَهِدُوا عَلَيْهَا عِنْدَ دَاوُدَ - عليه السلام - أَنَّهَا مَكَّنَتْ مِنْ نَفْسِهَا كَلْبًا لَهَا، قَدْ عَوَّدَتْهُ ذَلِكَ مِنْهَا، فَأَمَرَ بِرَجْمِهَا. فَلَمَّا كَانَ عَشِيَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ جَلَسَ سُلَيْمَانُ، وَاجْتَمَعَ مَعَهُ وَلَدَانُ مِثْلَهُ، فَانْتَصَبَ حَاكِمًا، وَتَرَيَا أَرْبَعَةَ مِنْهُمْ بِزِيٍّ أَوْلَكُ، وَآخَرَ بِزِيٍّ الْمَرْأَةِ وَشَهِدُوا عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مَكَّنَتْ مِنْ نَفْسِهَا كَلْبًا، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: قَرُّوْا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ لِأَوْلَاهُمْ: مَا كَانَ لَوْنِ الْكَلْبِ؟ فَقَالَ: أَسْوَدٌ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَدْعَى الْآخَرَ فَسَأَلَهُ عَنِ لَوْنِهِ، فَقَالَ: أَحْمَرٌ. وَقَالَ الْآخَرُ: أَغْبِشٌ. وَقَالَ الْآخَرُ: أَيْضٌ. فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ، فَحَكِي ذَلِكَ لِدَاوُدَ، فَاسْتَدْعَى مِنْ قَوْمِهِ بِالْأَرْبَعَةِ، فَسَأَلَهُمْ مُتَّفَرِّقِينَ عَنِ لَوْنِ ذَلِكَ الْكَلْبِ، فَاحْتَلَفُوا عَلَيْهِ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزُّبُورِ، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّمَ بِهِ تَقَفَ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتُجَاوِبُهُ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ الْجِبَالَ تَأْوِيًا.

[٤٦١٤] ولهذا لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ - ﷺ - عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ، وَكَانَ لَهُ صَوْتٌ طَيِّبٌ جَدًّا، فَوَقَّفَ وَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ، وَقَالَ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَخْيِيرٌ^(٣). وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّهْدِيُّ: مَا سَمِعْتُ صَوْتَ صَنْجٍ وَلَا بَزِيظٍ^(٤) وَلَا يَزْمَارٍ مِثْلَ صَوْتِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمَعَ هَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَقَدْ أُوتِيَ يَزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾، يعني: صَنْعَةَ الدَّرُوعِ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا كَانَتْ الدَّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حِلْقًا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْمُدْيَةَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَحْتَلَّ سَيْفَيْنِ وَيَقْدِرَ فِي الْكُرْبِيِّ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، أَي: لَا تَوْسِعُ الْحَلْقَةَ، فَتَقْلِقُ الْجِسْمَانَ وَلَا تُغْلِظُ الْجِسْمَانَ فَتَقْتَدُّ الْحَلْقَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾، يعني: فِي الْقِتَالِ، ﴿فَقَهَلْ أَنْتُمْ سَكَرُونَ﴾، أَي: نِعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لَمَّا أَلَّهَمَّ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ، فَعَلَّمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْلَمْنَا الرِّيحَ غَائِبَةً﴾، أَي: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٧ و ٦٧٦٩ و مسلم ١٧٢٠ والنسائي ٢٣٤/٨ - ٢٣٦ وأحمد ٣٢٢/٢ و ٣٤٠ وابن حبان ٥٠٦٦.

(٢) هو متلفى عن أهل الكتاب، ولعله لا يصح عن ابن عباس أصلاً، فإن الوليد بن مسلم، يدلس التسوية، وقد عنعن. وهو أثر غريب جداً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٧٩٣ والنسائي في فضائل القرآن ٨٣ وأحمد ٣٤٩/٥ والبيهقي ٢٣٠/١٠ من حديث بريدة.

(٤) الصنج: صفيحة مدورة من صُفْرٍ يُضْرَبُ بِهَا عَلَى أُخْرَى مِثْلَهَا؛ وَالرِبِيطُ: الْعُودُ (وَهُمَا مِنْ آلَاتِ الْمَوْسِيقَى).

العاصفة، ﴿تَمْجِرُ بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَزَكْنَا فِيهَا﴾، يعني أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾، وذلك أنه كان له بساطٌ من خشبٍ يُوضَعُ عليه كُلُّ ما يُحتاج إليه من أمورِ المملكة، والخيلِ والجمالِ والخيامِ والجُنْدِ، ثم يأمرُ الرِّيحَ أن تَحْمِلَه فتَدْخُلُ تحته، ثم تحمله فترفعه وتسيرُ به، وتُظِلُّه الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزلُ وتُوضَعُ آلاته وخَشْبُه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَمْجِرُ بِأَمْرِهِ ذُفَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن سفيان بن عُيَيْتَةَ، عن أبي سنان، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قال: كان يُوضَعُ لسليمان ستمئة ألف كُرْسِيٍّ، فيجلسُ مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطيرَ فتنزلُهم، ثم يأمر الرِّيحَ فتحمله - ﴿٨٤﴾ - . وقال عبدُ الله بن عُبيد بن عمير: كان سليمانُ يأمر الرِّيحَ فتجتمعُ كالطُورِ العظيم - كالجبل - ثم يأمرُ بفراشه فيُوضَعُ على أعلى مكانٍ منها، ثم يدعُو بفَرَسٍ من دَوَابِّ الأجنحة فترتفع حتى تصعدُ على فِزَاشِه، ثم يأمرُ الرِّيحَ فترتفع به كل شَرَفٍ دون السماء، فهو مطايطٌ رأسه، ما يَلْتَمِثُ يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله - عَزَّ وَجَلَّ - وشُكْراً لما يعلم من صِغَرِ ما هو فيه في ملك الله تعالى، حتى تَضَعَهُ الرِّيحَ حيث يشاء أن تَضَعَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَفُوسُونَ لَكُمْ﴾، أي: في الماء يستخرجون الجواهر واللاكيء، ﴿وَبِعِلْمِكُمْ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاسٍ ﴿٢٧﴾﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٧ - ٣٨]. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾، أي: يحرسه الله أن يناله أحد الشياطين بسوء بل كلُّ في قَبْضَتِهِ وتحت قهره، لا يتجاسرُ أحد منهم على الدُّنُوِّ إليه والقرب منه، بل هو يحكمُ فيهم إن شاء أطلق، وإن شاء حبسَ منهم من يشاء. ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّهِمْ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعَدْنَاهُ وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يذكرُ تعالى عن أيُّوبَ - عليه السلام - ما كان أصابَه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدوابِّ والأنعام والحَزْبِ شيءٌ كثيرٌ، وأولادٌ كثيرةٌ، ومنازلٌ مرضيةٌ، فأبتليَ في ذلك كُلِّه وذَهَبَ عن آخره، ثم ابتليَ في جسده - يقال بالجدام في سائرِ بَدَنِه، ولم يبقَ منه سليمٌ سوى قلبه ولسانه، يذكرُ بهما الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى عافه الجليسُ، وأُفْرِدَ في ناحيةٍ من البلد، ولم يبقَ من الناسِ أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقومُ بِأَمْرِهِ، ويقال: إنها احتاجت فصارَتْ تخدمُ الناسَ من أجله.

[٤٦١٥] وقد قال النبي - ﷺ -: «أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياءِ ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل»^(١).

[٤٦١٦] وفي الحديث الآخر «يُبتلى الرجلُ على قدرِ دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زيدَ في بلائِهِ»^(٢).

وقد كان نبيُّ الله أيُّوبُ - عليه السلام - غايةً في الصُّبرِ، وبه يُضربُ المثلُ في ذلك. وقال يزيدُ بن مَيْسَرَةَ: لما ابتلى الله أيُّوبَ - عليه السلام - بذهابِ الأهلِ والمالِ والوَلَدِ، ولم يبقَ له شيءٌ، أحسنَ الذِّكْرَ، ثم قال: أحمدُكَ ربُّ الأَرَبِيَّابِ الذي أحسنتَ إليَّ، أعطيتني المالَ والوَلَدَ، فلم يبقَ من قلبي شعبةٌ إلا قد دَخَلَه

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٩٨ وابن ماجه ٤٠٢٣ وأحمد ١٧٢/١ و١٨٥ والحاكم ٤١/١ من حديث سعد ابن أبي وقاص. وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة وله شواهد، وليس فيه قوله «ثم الصالحون».

(٢) هو تمة الحديث المتقدم انظر الإحسان ٢٩٠١ وجامع الأصول ٧٣٥٢.

ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوِّي إبليس بالذي صنعت حسدني! قال: فلقي إبليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب - عليه السلام -: يا رب إنك أعطيتني المال والولد فلم يثم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلماته، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يؤطأ لي الفِرَاش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلق لي لوطه الفُرُش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبي حاتم. وقد ذكر عن وهب بن مُنبه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المُفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول. وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا في السبب المُهِيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقادة: ابتلي أيوب - عليه السلام - سبع سنين وأشهرًا مُلقًى على كُناسة^(١) لبني إسرائيل، تختلِف الدواب في جسده، ففرج الله عنه، وعظم له الأجر، وأحسن عليه الثناء. وقال وهب بن مُنبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدي: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت الله ففرج عنك! فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل لله أن أصبر سبعين سنة؟ فجزعت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس باجر وتأتيه بما نصيب فقلعه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وآخرين، فاتاهما فقال: أخوكم أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملاً معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برأ. فأتياه فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتم؟ فقالا: نحن فلان وفلان. فرحب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء. فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرقع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يعلم، ما أسزرت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربي ابتلاني لينظر أصبر أم أجزع؟ فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا، فإنك إن شربت منه برأت. قال: فعصّب وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا؟ كلاكما وطعامكما وشرابكما عليّ حرام؟ فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس، فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قِرصة وكان ابنهم نائماً، فكرهوا أن يوقظوه، فوهبه لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر، قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القُرص فلم يجده، فهو يبكي على أهله، فأنطقتي به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم فنطختها شاة لهم فقالت: تعيس أيوب الخطاء! فلما صعِدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القُرص، ويبكي على أهله، لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب! فدفعت إليه القُرص ورجعت. ثم إن إبليس أتاه في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإذا أراد أن يبرأ فليأخذ دُباباً فليذبحه باسم صنم بني فلان، فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك؟ فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث، لله عليّ إن برأت أن أجلك مائة جلدة! فخرجت تسمى عليه، فحظرت عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت قريديونها، فلما اشتد عليها ذاك وحافت على أيوب الجوع، حلقت من شعرها قرناً، فباعته من صبيبة من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً، فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فاطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد، فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين

(١) ذكر الكناسة ونحو ذلك، لا يليق بأنبياء الله، وهو متلفن عن أهل الكتاب، لم يرد شيء من ذلك عن الصادق

رَدَّ اللهُ عَلَيَّ جَسَدِي. وبه قال ابن عباس: وَرَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عِيَانًا، ومثلهم معهم. وقال وَهْبُ بْنُ مَثْبُةٍ: أوحى الله إلى أيوب: قد رَدَدْتُ عَلَيْكَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ ومثلهم مَعَهُمْ، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبك قربانًا، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

[٤٦١٨] وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا عمرو بن مرزوق، حَدَّثَنَا هَمَامٌ، عن قتادة، عن الضُّبْرِ ابن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «لما عافى الله أيوبَ أمطرَ عليه جراداً من ذهبٍ فجعلَ يأخذُ بيدهِ ويجعلُه في ثوبِهِ، قال: فقيلَ له: يا أيوبُ، أما تشبِعُ؟ قال: يا ربِّ ومَن يشبِعُ من رَحْمَتِكَ؟! أصله في الصَّحِيحِينَ، وسيأتي في مَوْضِعٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْتَبَتْهُ أَهْلَهُ وَوَفَّيْتَهُم مَّعَهُمْ﴾، قد تقدّم عن ابن عباس أنه قال: رُدُّوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً، وزوي مثله عن ابن مسعود ومجاهد. وبه قال الحسن وقتادة. وقد زعم بعضهم أن اسم رُؤُوبِيته رَحْمَةٌ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد التُّجعة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وضح ذلك عنهم، فهو مما لا يُصدَّق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساکر في تاريخه - رَجَمَهُ اللهُ تعالى - قال: ويقال: اسمها لِيَا ابْنَةُ مَيْسَا بن يوسف بن يعقوب بنت إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: لِيَا بنت يعقوب عليه السلام، زوجة أيوب، كانت معه بأرض البَيْتِيَّة. وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة، وعوضناك مثلهم؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة. فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن نوب البكالي قال: أوتي أجرحهم في الآخرة، وأعطيت مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مطرفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم. وهكذا زوي عن قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف، والله أعلم. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾، أي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَزَكَرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك ليهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدرات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ

الصَّالِحِينَ (٨٦)

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدّم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرّن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقيسطاً. وتوقف ابن جرير في ذلك، والله أعلم. وقال ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾، قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لئبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقمهم له، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسُمي: ذا الكفل. وكذا روى ابن أبي نجيع، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل؟

فجمع الناس، فقال: مَنْ يَتَقَبَّلُ بِثَلَاثٍ: أَسْتَخْلِفُهُ يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَلَا يَغْضَبُ؟ قال: فقام رجلٌ تَزَدِيهِ الْعَيْنُ، فقال: أنا. فقال: أَنْتَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، وَلَا تَغْضَبُ؟ قال: نعم. قال: فَرُدُّهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَالَ مِثْلَهَا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَسَكَتَ النَّاسُ، وَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَنَا. فَاسْتَخْلَفَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَقُولُ لِلشَّيَاطِينِ: عَلَيْكُمْ بِفُلَانٍ. فَأَعْيَاهُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ، قَالَ: دَعُونِي وَإِيَاهُ، فَأَنَاهُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ فَقِيرٍ، فَأَنَاهُ حِينَ أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِلْقَائِلَةِ - وَكَانَ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِلَّا تِلْكَ النَّوْمَةَ - فَدَقَّ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَظْلُومٌ. قَالَ: فَمَا فَتَحَ الْبَابَ، فَجَعَلَ يَقْصُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي خَصُومَةٌ وَإِنَّهُمْ ظَلَمُونِي، وَفَعَلُوا بِي وَفَعَلُوا. وَجَعَلَ يُطَوِّلُ عَلَيْهِ حَتَّى حَضَرَ الرَّوَّاحُ وَدَهَبَتِ الْقَائِلَةُ، فَقَالَ: إِذَا رَحْتُ فَأَنْتِي أَخَذَ لَكَ بِحَقِّكَ. فَانْطَلَقَ، وَرَاحَ، فَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ هَلْ يَرَى الشَّيْخَ؟ فَلَمْ يَرَهُ، فَفَقَامَ يَتَّبِعُهُ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ جَعَلَ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ، وَيَنْتَظِرُهُ فَلَا يَرَاهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْقَائِلَةِ فَأَخَذَ مَضْجَعَهُ أَنَاهُ فَدَقَّ الْبَابَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ الْمَظْلُومُ. فَفَتَحَ لَهُ فَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ، إِذَا قَعَدْتُ فَأْتِنِي؟ قَالَ: إِنَّهُمْ أَخْبَثُ قَوْمٌ، إِذَا عَزَفُوا أَنْكَ قَاعِدٌ قَالُوا: نَحْنُ نَعْطِيكَ حَقَّكَ وَإِذَا قَمَتِ جَحَدُونِي. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ، فِإِذَا رَحْتُ فَأْتِنِي. قَالَ: فَفَاتَتْهُ الْقَائِلَةُ، فَوَرَّاحَ، فَجَعَلَ يَنْتَظِرُهُ وَلَا يَرَاهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ الثَّمَاعُ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: لَا تَدْعُنَّ أَحَدًا يَقْرُبُ هَذَا الْبَابَ حَتَّى أَنَامَ، فَإِنَّهُ قَدْ شَقَّ عَلَيَّ النَّوْمَ. فَلَمَّا كَانَ تِلْكَ السَّاعَةَ جَاءَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَرَاءَكَ وَرَاءَكَ. فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَتَيْتُهُ أَمْسَ فَذَكَرْتُ لَهُ أَمْرِي. فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَقَدْ أَمَرْنَا الْأَنْدَعَ أَحَدًا يَقْرُبَهُ. فَلَمَّا أَعْيَاهُ نَظَرَ فَرَأَى كُوَّةَ فِي الْبَيْتِ، فَتَسَوَّرَ مِنْهَا، فِإِذَا هُوَ فِي الْبَيْتِ، وَإِذَا هُوَ يَدُقُّ الْبَابَ مِنْ دَاخِلِ، قَالَ: فَاسْتَيْقِظَ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، أَلَمْ أَمْرُكَ؟ فَقَالَ: أَمَا مِنْ قِبَلِي وَاللَّهِ فَلَمْ تُؤْتِ، فَانْظُرْ مِنْ أَيْنَ آتَيْتَ؟ قَالَ: فَقَامَ إِلَى الْبَابِ فِإِذَا هُوَ مُغْلَقٌ كَمَا أَغْلَقَهُ، وَإِذَا الرَّجُلُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، فَعَرَفَهُ، فَقَالَ: أَعَدُّوا اللَّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْيَيْتَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَفَعَلْتُ مَا تَرَى لِأَغْضِبَكَ. فَسَمَّاهُ اللَّهُ ذَا الْكَيْفَلِ، لِأَنَّهُ تَكْفَلُ بِأَمْرٍ، فَوَقَى بِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ زُهَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ مُجَاهِدٍ، بِمِثْلِهِ.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ قَاضٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَحَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: مَنْ يَقُومُ مَقَامِي عَلَى الْأَلْيَمِ يَغْضَبُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. فَسُمِّيَ ذَا الْكَيْفَلِ. قَالَ: فَكَانَ لَيْلَهُ جَمِيعًا يَصَلِّي، ثُمَّ يُصْبِحُ صَائِمًا فَيَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ - قَالَ: وَهُوَ سَاعَةٌ يَقِيلُهَا - قَالَ: فَكَانَ كَذَلِكَ، فَأَنَاهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ نَوْمَتِهِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنْسَانٌ مَسْكِينٌ، لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ، وَقَدْ غَلِبَنِي عَلَيْهِ. قَالُوا: كَمَا أَنْتَ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ - قَالَ: وَهُوَ فَوْقَ نَائِمٍ - قَالَ: فَجَعَلَ يَصْبِحُ عَمْدًا حَتَّى يُوقِظَهُ، قَالَ: فَسَمِعَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنْسَانٌ مَسْكِينٌ، لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ. قَالَ: أَذْهَبَ فَقُلْ لَهُ يُعْطِيكَ. قَالَ: قَدْ أَبِي. قَالَ: أَذْهَبَ أَنْتَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَذَهَبَ، ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْعَدُوِّ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْفَعْ بِكَلَامِكَ رَأْسًا. قَالَ: أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يُعْطِيكَ حَقِّكَ. قَالَ: فَذَهَبَ، ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْعَدُوِّ حِينَ قَالَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: أَخْرُجْ، فَعَلَّ اللَّهُ بِكَ، تَجِيءُ كُلُّ يَوْمٍ حِينَ يَنَامُ، لَا تَدْعُهُ يَنَامُ؟ فَجَعَلَ يَصْبِحُ: مِنْ أَجْلِ أَنِّي إِنْسَانٌ مَسْكِينٌ، لَوْ كُنْتُ غَنِيًّا؟ قَالَ: فَسَمِعَ أَيْضًا، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: ذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَضَرَبَنِي. قَالَ: امْسِ حَتَّى أَجِيءَ مَعَكَ. قَالَ: فَهُوَ مَمْسُكٌ بِيَدِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ دَهَبَ مَعَهُ نَثْرَ يَدِهِ مِنْهُ، فَفَرَّ. وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ، وَابْنِ حُجْبِرَةَ الْأَكْبَرِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ، نَحْوًا مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْجُمَاهِرِ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ بَشِيرٍ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَبِي كِنَانَةَ

الأخس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مئة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مئة صلاة، فسمي ذا الكفل. وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعري...». فذكره منقطعاً، والله أعلم.

[٤٦١٩] وقد زوى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله - ﷺ - حديثاً لو لم أسمعها إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: كان الكفل من بني إسرائيل، لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امراته، أزعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتُك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل فقال: اذهبي فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابي: قد غفر الله للكفل^(١). هكذا وقع في هذه الرواية: «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة^(٢)، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعنه رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَرِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

هذه القصة المذكورة هاهنا وفي سورة «الصفات» وفي سورة «ن»، وذلك أن يونس بن متى - عليه

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٤٩٦ وأحمد ٢٣/٢ والمحاكم ٢٥٤/٤ ح ٧٦٥١ وصححه وسكت الذهبي مع أن في إسناده سعد مولى طلحة، وهو مجهول كما في التريب. وأخرجه ابن حبان ٣٨٧ عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عبد الله الرازي إلا أنه قال: عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر، وهذا إسناد ظاهره الحسن لكنه معلول. قال الترمذي عقب روايته: حديث حسن، ورواه غير واحد عن الأعمش، رفعوه، ورواه بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه. ورواه أبو بكر بن عياش، فأخطأ فيه، فقال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر، وهو غير محفوظ اهـ فالحديث إنما هو عن سعد مولى طلحة، وقد ذكره الذهبي في «الميزان» ٣١٣٠ فقال: عن ابن عمر، وهنه عبد الله الرازي فقط، وهذا إشارة منه إلى جهالته. وهناك علة أخرى، وهي الاضطراب في المتن ففي مسند أحمد وسنن الترمذي والمستدرک «كان الكفل» وعند ابن حبان «ذو الكفل». وعند ابن حبان «سمعت أكثر من عشرين مرة» وعند غيره «سبع مرات». ولو كان حدث به النبي ﷺ «سبع مرات» لرواه جمع من الصحابة غير ابن عمر. بل جاء عند ابن حبان «عشرين مرة» فكيف ذلك ولا يرويه إلا رجل مجهول، فأما الوهن على هذا الخبر ظاهرة، وقد جاء في قصة «أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بصالح أعمالهم» نحو هذا، وهو أصح. والله تعالى أعلم.

تبييه: ولفظ «ذو الكفل» كما وقع في رواية ابن حبان، لا يصح البتة، فقد جاء ذكره مع الأنبياء، ووصفه الله بالصبر، والحديث يذكر أنه مات من ليلته التي تاب فيها. فلم يكن منه صبر، والحديث ضعيف بكل حال كما تقدم، والله تعالى أعلم.

(٢) كذا وقع للمصنف رحمه الله، وتقدم أن الترمذي قد رواه، والله تعالى أعلم.

السلام - بعثه الله إلى أهل قرية «يَنْتَوَى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، وزعت الإبل وفضلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغيت الغنم وحملاتها. فرجع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَعَمْنَا لِمَإِيْنَتِهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَابَ الۡعِزِّي فِي الۡحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم سفينة فلججت بهم وخافوا أن تفرق بهم، فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفقون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس - عليه السلام - وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطئك يكون له سجناً.

وقوله تعالى: ﴿وَدَا الۡنُّورِ﴾، يعني الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾، قال الضحاك: لقومه ﴿فَطَلَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ يَمَّا ءَانَدَهُ اللهُ أَنْ يَكِلِفَ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَدَلًا وَسِعَ بُرْتُكُ﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العوفي: ﴿فَطَلَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: نضيق عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدر بمعنى واحد، قال الشاعر:

فَلَا عَائِدَ ذَاكَ الزَّمَانُ الۡذِي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرُ يَكُنْ، فَلَكَ الْأَمْرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الۡنَّمَاءُ عَلٰٓءَ أَمْرِ مَدْيَنَ﴾ [القمر: ١٢]، أي: قدر. وقوله: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا زوي عن ابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت، في بطن حوت آخر، في ظلمة البحر. قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر حتى سمع يونس تسبيح الحصى في قراره. فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحٰنَكَ﴾. وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع ما أتخذه أحد من الناس. وقال سعيد بن أبي الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جرير.

[٤٦٢٠] وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عمّن حدّثه، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر عظماً. فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس جساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح ذواب البحر. قال: فسبح وهو في بطن

الحوث، فَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا: يَا رُبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضِ غَرِيبَةٍ! قَالَ: ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسَ، عَصَانِي فَحَبَسْتَهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ. قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الْحَوْتَ فَقَدَفَهُ فِي السَّاحِلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْ سَيِّئًا﴾^(١). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَوَاهُ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ، مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَى عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ.

[٤٦٢١] وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْحَقِّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَةَ، عَنْ عَلِيِّ مَرْفُوعًا: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، سَبَّحَ اللَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ»^(٢). وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَسَيِّئَاتِي أَسَانِيدُهَا فِي سُورَةِ «ن».

[٤٦٢٢] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبِيدَةَ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَخِي ابْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمِّي: حَدَّثَنِي أَبُو صَخْرٍ أَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيُّ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - وَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنْ أَنَسًا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يُونُسَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ يَدَا لَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، قَالَ: اللَّهُمَّ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَأَقْبَلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ تَحْفًا بِالْعَرْشِ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، صَوْتٌ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بِلَادِ غَرِيبَةٍ؟ فَقَالَ: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: لَا، يَا رَبَّنَا، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: عَبْدِي يُونُسَ. قَالُوا: عَبْدُكَ يُونُسَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لَهُ عَمَلًا مُتَقَبَّلًا، وَدَعْوَةً مُجَابَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: يَا رَبِّ أَفَلَا تَرَحَّمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ فَتَنْجِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَمَرَ الْحَوْتَ فَطَرَحَهُ فِي الْعَرَاءِ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْتَجَبْنَا لَكَ وَتَجَنَّبْنَا مِنَ الْفَحْرِ﴾، أَي: أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ وَتَلَكِ الظُّلُمَاتِ، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِدِ وَدَعَوْنَا مُنِيبِينَ إِلَيْنَا، وَلَا يَسِيئًا إِذَا دَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهَا عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ.

[٤٦٢٣] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَمَرَ، حَدَّثَنَا يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي وَالِدِي مُحَمَّدٌ، عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ - وَهُوَ ابْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: مَرَزْتُ بِعَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مَنِي ثُمَّ لَمْ يَرُدِّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ؟ مَرَّتَيْنِ، قَالَ: لَا، وَمَا ذَاكَ؟

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢٤٧٧٨ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ رَأَى لَمْ يَسْمُ. وَأَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ ٢٢٥٤ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ سَقَطُ الْوِاسِطَةِ بَيْنَ ابْنِ إِسْحَاقَ وَعَبْدِ اللَّهِ، فَابْنُ إِسْحَاقَ مَدْلَسٌ، وَقَدْ نَعْنَعْنَا هَهُنَا، وَقَالَ الْهَيْشَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» ١١٣٠٢: رَوَاهُ الْبَزَّازُ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَسْمُهُ. وَفِيهِ ابْنُ إِسْحَاقَ مَدْلَسٌ أَيْ. فَالْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ، وَلَهُ شَاهِدٌ ضَعِيفٌ، وَهُوَ الْآتِي.

(٢) إِسْنَادُهُ غَيْرُ قَوِيٍّ مِنْ أَجْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَةَ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» ٣١٨٥٤ وَالطُّحَاوِيُّ فِي «الْمَشْكَلِ» ١٠١٣ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ ابْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... فَذَكَرَهُ وَلَمْ يَرْفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَةِ» ٣٢ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ يَزِيدُ بْنُ أَبَانَ الرَّقَاشِيُّ ضَعِيفٌ، وَعَنْهُ أَبُو صَخْرٍ حَمِيدُ بْنُ زِيَادٍ خْتَلَفَ فِيهِ، ضَعْفُهُ النَّسَائِيُّ، وَوَقْتُهُ يَجِيئُ وَابْنُ حِبَّانَ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا قَبْلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قلت: لا، إلا أتى مرث بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه، فعلاً عينيه بي، ثم لم يزد علي السلام: قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما متك ألا تكون رذذت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مزرت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله - ﷺ - لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنيئك بها، إن رسول الله - ﷺ - ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله - ﷺ - فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله - ﷺ - فقال: من هذا؟ أبو إسحاق؟ قال قلت: نعم، يا رسول الله، قال: «فمه» قلت: لا والله إنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: نعم دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له^(١). ورواه الترمذي والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به.

[٤٦٢٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعيد - عن سعد قال: قال رسول الله - ﷺ - من دعا بدعاء يؤس استجيب له. قال أبو سعيد: يُريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

[٤٦٢٥] وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكر الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى. قال قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دَعُوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَتَسَاءَلُونَ أَطْلَمْتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاتَّجَبْنَا لَهُ وَجَّيْتَهُ مِنَ النَّارِ وَكَذَلِكَ نُشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾. فهو شرط من الله لمن دعاه به^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا داود بن المحبر بن قحدم المقدسي، عن كثير بن مغيد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قول الله عز وجل: ﴿وَدَا الْثَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْبِياً﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

(١) أخرجه أحمد ١٧٠/١ وأبو يعلى ٧٧٢ من طريق إسماعيل بن عمر به، وإسناده صحيح. وأخرجه الترمذي ٣٥٠٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠٤٩٢ وصححه الحاكم ٥٠٥/١ و٣٨٢/٢ - ٣٨٣ ووافقته الذهبي من طريق إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن سعد به مختصراً، ويؤيده ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أبو يعلى ٧٠٧، ورجاله ثقات. خلا كثير بن زيد، وهو صالح الحديث، ويشهد لما قبله.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه الحاكم ٥٠٥/١ - ٥٠٦ ح ١٨٦٥ والطبري ٢٤٧٧٩ كلاهما من حديث سعد، وفي إسناده الطبري، علي بن زيد، وهو ضعيف. وعند الحاكم عمرو بن بكر السكسكي الرمي، قال ابن عدي: له منكري عن الثقات، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات الطامات، وقال الذهبي: أحاديثه موضوعة. وذكر الحاكم أحاديث في اسم الله الأعظم تعارضه، وهي أصح من هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ
يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩١﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا، حِينَ طَلَّبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا، يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ سُورَةِ «مَرِيَمَ» وَفِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» أَيْضًا، وَهَاهُنَا أَخْصَرُ مِنْهَا، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، أَي: خَفِيَّةً عَنْ قَوْمِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، أَي: لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دَعَاءٌ وَثَنَاءٌ مَنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أَي: امْرَأَتَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ، فَوَلَدَتْ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ: كَانَ فِي لِسَانِهَا طَوْلٌ فَاصْلَحَهَا اللَّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ فِي خَلْقِهَا شَيْءٌ فَاصْلَحَهَا اللَّهُ. وَهَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالسَّدِّيُّ. وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الْأَوَّلِ.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أَي: فِي عَمَلِ الْفُرُبَاتِ وَفِعْلِ الطَّلَاعَاتِ، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، قَالَ الثَّورِيُّ: ﴿رَغَبًا﴾، فِيمَا عِنْدَنَا، وَ﴿رَهَبًا﴾، مِمَّا عِنْدَنَا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَي مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ: مُؤْمِنِينَ حَقًّا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: خَافِيَيْنَ. وَقَالَ أَبُو سَيَّانٍ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا. وَعَنْ مَجَاهِدٍ أَيْضًا ﴿خَشِيعِينَ﴾، أَي: مُتَوَاضِعِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَي: مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِئِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَشِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَتَشُورًا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَتَخْلِطُوا الرُّغْبَةَ بِالرُّهْبَةِ، وَتَجَمَّعُوا الْإِلْحَافَ بِالْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَثْنَىٰ عَلَىٰ زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

هَكَذَا يَقْرُنُ تَعَالَىٰ قِصَّةَ مَرِيَمَ وَابْنِهَا عِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَيَذْكَرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا، ثُمَّ يَتْبَعُهَا بِقِصَّةِ مَرِيَمَ، لِأَنَّ تِلْكَ مُوَطَّئَةٌ لِهَذِهِ، فَإِنَّمَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السَّنِّ، وَمِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا، ثُمَّ يَذْكَرُ قِصَّةَ مَرِيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ، فَإِنَّمَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ أُنْثَىٰ بِلَا ذَكَرٍ. هَكَذَا وَقَعَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَفِي سُورَةِ مَرِيَمَ، وَهَاهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرِيَمَ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، يَعْنِي مَرِيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ. كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾ [التَّحْرِيمِ: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أَي: دَلَالَةً عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، عَنْ شَيْبِيبٍ - يَعْنِي ابْنَ بَشِيرٍ - عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، قَالَ: الْعَالَمِينَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَمَا لَئِنَّا رَجَعْنَاهُمْ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ صَالِحًا يَرَهُ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري في هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: سئلتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، وأمتكم خير إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿﴿﴾﴾، كما قال: ﴿يَأْتِيَا الرَّسُولَ كُلًّا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

[٤٦٢٦] وقال رسول الله - ﷺ -: «نحن مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ (١) دِينُنَا وَاحِدٌ»، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسوله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدقٍ لهم ومكذبٍ، ولهذا قال: ﴿كَمَا لَئِنَّا رَجَعْنَاهُمْ﴾، أي: يوم القيامة، فيجازي كلًا بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، أي: قلبه مصدقٌ، وعمل عملاً صالحاً، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، أي: لا نكفر سعيه، وهو عمله، بل نشكر، فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونٌ﴾، أي: نكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قَرَبِيِّهِ أَهْلَ كَنْهَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيؤْتِلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قَرَبِيِّهِ﴾، قال ابن عباس: وجب. يعني قدراً مقدراً أن كل أهل قرية أهلوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. وهكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: لا يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، قد قدمنا أنهم من سلالة آدم - عليه السلام - بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين. وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي إِذَا جَاءَ وَقَدْ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوجُ فِي سَعِيرٍ وَيُفِجُ فِي الْأَشْوَارِ لَهْمَتُهُمْ جَمًّا﴾ [الكهف: ٩٨ - ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقَّ إِذَا فُيْحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. أي: يسرعون في المشي إلى الفساد. والحَدَبُ: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري، وغيرهم. وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا ينزرو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يا جوج وماجوج. وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

[٤٦٢٧] فالحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِن كَلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾»، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: ثم يهزأ أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختبئة دماً، للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمعون لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فيما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر^(١) عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من الثبات أصابته قط^(٢). ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، به.

[٤٦٢٨] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع الثوراس بن سفعان الكلبي قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدجال ذات غداة، فحفض فيه ورقع. حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرّف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فحفضت فيه ورقعت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب جعد قلط عينه طافية، وإنه يخرج خلّة بين الشام والعراق، فعات يميناً وشمالاً، يا عباد الله، اثبتوا. قلنا: يا رسول الله، ما لبثت في الأرض؟ قال: أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهرا، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا، لا أقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله، فما إسرأه في الأرض؟ قال: كالغيث استدرته الريح. قال: فيمر بالحي فيدعوهم، فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذراً، وأمده خواصر، وأسبغه ضروراً. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمجّلين، ليس لهم من أموالهم شيء! ويمر بالخرية فيقول لها: «أخرجي كنوزك». فتتبعه كنوزها كيغاييب النحل. قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية

(١) تشكر: أي تمنن.

(٢) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٩ وأحمد ٧٧/٣ وأبو يعلى ١٣٥١ والحاكم ٤٨٩/٤ - ٤٩٠ وابن حبان ٦٨٣٠ وصحح إسناده البوصيري في الزوائد، وكذا الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر الصحيحة ١٧٩٣.

الغَرَضُ، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلَّل وجهه. فبينما هم على ذلك إذ بَعَثَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - المسيحَ ابنَ مَرْيَمَ، فينزلُ عندَ المَنَارَةِ البيضاء، شرقِي دِمَشقَ، بينَ مَهْرُودَتَيْنِ واضعاً يَدَهُ على أجنحةِ مَلَكينِ، فبِتَبَعِهِ فَيُذَرِّكُهُ، فيقتله عندَ بابِ لُدِّ الشَّرْقِيِّ. قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إلى عيسى ابنِ مَرْيَمَ أَنِّي قد أخرجتُ عباداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطورِ، فبِيعَثَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ وهم كما قال اللهُ: ﴿مِنَ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فيرغَبُ عيسى وأصحابه إلى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فيرسل اللهُ عليهم نَعْفًا^(١) في رقابهم، فيصبحون فَرَسَى، كموتِ نفسٍ واحدة. فيهبطُ عيسى وأصحابه فلا يجدونَ في الأرض بيتاً إلا قد ملاءَ رَهْمَهُمُ وتَنَثَّمُ، فيرغَبُ عيسى وأصحابه إلى اللهُ فيرسلُ عليهم طيراً كاعناقِ البُخْتِ^(٢)، فتحمِلُهُمُ فتطرَحُهُمُ حيثُ شاء اللهُ. قال ابنُ جابرٍ: فحدثني عطاء بن يزيدِ السُّكْسَكِيِّ، عن كعب أو غيره، قال: فتطرَحَهُمُ بالمَهْبِلِ. قال ابنُ جابرٍ: فقلت: يا أبا يزيدِ، وأين المَهْبِلُ؟ قال: مَطْلِعُ الشَّمْسِ. قال: ويرسلُ اللهُ مطراً لا يَكُنُّ منه بيتٌ مَدْرٌ ولا وَبَرٌ أربعين يوماً، فيغسيلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقالُ للأرضِ: أنبتني ثمرتك، وَرَدِّي بَرَكَتِكَ. قال: فيومئذٍ يأكلُ النَّفَرُ من الرَّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِفُحُوفِهَا، وَيَبَارِكُ فِي الرَّسْلِ، حتى إن اللَّفْحَةَ من الإبلِ لتكفي الفِئَامَ من الناسِ، واللَّفْحَةَ من البقرِ تكفي الفِخْذَ^(٣). والشاةُ من الغنمِ تكفي أهلَ البيتِ. قال: فبينما هم على ذلك إذ بَعَثَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ريحاً طيبةً تحتَ آباطهم فتقبضُ رُوحَ كُلِّ مسلمٍ - أو قال: كُلِّ مؤمنٍ - ويبقى شرارُ الناسِ يتهازجونَ تهازجَ الحميرِ، وعليهم تقومُ الساعةُ^(٤). انفرد بإخراجه مُسلمٌ دونَ البخاريِّ، فرواه مع بَقِيَّةِ أهلِ السُّنَنِ من طُرُقٍ، عن عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ يزيدِ بنِ جابرٍ، به. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٤٦٢٩] الحديث الثالث، قال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن بشرٍ، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابنِ حَزْمَلَةَ، عن خالته قالت: خَطَبَ رسولُ اللهُ - ﷺ - وهو عاصِبٌ إصْبَعُهُ من لَدَعَةِ عَقْرَبٍ، فقال: إنكم تقولون: لا عَدُوٌّ لكم. وإنكم لا تزالون تُقاتِلونَ عَدُوًّا حتى يأتي يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ عِراضَ الوجوهِ صغارَ العيونِ، شَهَبَ الشُعَافِ من كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، كانَ وَجُوهُهُمُ المَجَانَّ المَطْرَقَةَ^(٥). وكذا رواه ابنُ أبي حاتمٍ من حديثِ مُحَمَّدِ بنِ عمرو، عن خالدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حَزْمَلَةَ المَدْلِجِيِّ، عن خالتهِ له، عن النبي - ﷺ - فذكره مثله سَوَاءً.

[٤٦٣٠] الحديث الرابع: قد تقدَّم في تفسيرِ آخِرِ سُورَةِ الأعرافِ من رواية الإمامِ أحمدَ، عن هُشَيْمِ، عن العَوَامِ، عن جَبَلَةَ بنِ سُهَيْمِ، عن مُؤَثِّرِ بنِ عَفَّازَةَ، عن ابنِ مسعودٍ، عن رسولِ اللهِ - ﷺ - قال: «لَقِيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بي إبراهيمَ وموسى وعيسى - عليهم السلام - قال: فتذاكروا أمرَ الساعةِ، فَرَدُّوا أمرَهُمُ إلى إبراهيمَ، فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرَهُمُ إلى موسى، فقال: لا علمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرَهُمُ إلى عيسى، فقال: أما وَجِبْتُهَا فلا يعلمُ بها أحدٌ إلا اللهُ، وفيما عهدُ لي ربيُّ أن الدجالَ خارجٌ. قال: ومعِي قَضِيبانِ، فإذا رأيَ ذابَ كما يذوبُ الرِّصاصُ، قال: فَيُهْلِكُهُ اللهُ إذا رأيَ، حتى إنَّ الحَجَرَ والشجرَ يقول: يا مسلمُ إن تحمي كافرًا فتعال

(١) النَّعْفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) البُخْت: النوق الخراسانية، وما وراء النهر.

(٣) بعض القبيلة. كني هاشم، فإبهم بعض قريش.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٣٧ وأبو داود ٤٣٢١ والترمذي ٢٢٤٠ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٣ وابن ماجه ٤٠٧٥.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٢٧١/٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٦ وزاد نسبه للطبراني وقال: ورجالهما رجال الصحيح.

فأثله. قال: **فِيهِلِكُهُمُ اللَّهُ**. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم. قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطنون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرؤن على ماء إلا شربوه. قال: ثم يرجع الناس إلي يشكوتهم فادعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من ثنن ربيهم، وينزل الله المطر فيجتري أجسادهم، حتى يقدفهم في البحر. ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحاميل المتيم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً^(١). ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، به نحوه وزاد: «قال العوام، ووجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿حَوَّاتٌ إِذَا فُجِعَتْ بِأَجُوجٍ وَمَاجُوجٍ وَهُم مِّن كَلْبٍ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾». ورواه ابن جرير هاهنا من حديث جبلة، به. والأحاديث في هذا كثير جداً. والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مغمّر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصنف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمعون الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجيء غداً فنخرج. فعيده الله كما كان، فيجيئون من الغد، فيجدونه قد أعاده الله كما كان. فيحفرونه حتى يسمعون الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه. فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان هاهنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، لا يقوم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخصبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول: اللهم، لا طاقة ولا يدين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت. فيسلط الله عليهم دوداً يقال له الثغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقبهم في البحر، ويبعث الله عيناً يقال لها: الحياة، يطهر الله الأرض ويُنبتُها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكّن - قيل: وما السكّن يا كعب؟ قال: أهل البيت - قال: فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصريرخ أن ذا السويقتين يريد فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمئة، أو بين السبعمئة والثمانمئة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس، فيتسافدون كما تتسافد البهائم، فتمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول قبره ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي هذا شيئاً أو: بعد علمي هذا شيئاً - فهو المتكلف. هذا من أحسن سياقات كعب الأخبار، لما شهد له من صحيح الأخبار، وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم - عليه السلام - يحج البيت العتيق.

[٤٦٣١] وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لِيَحْجُنَّ هَذَا الْبَيْتُ، وَلِيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ»^(٢). انفرد بإخراجه البخاري. وقوله تعالى: «وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» يعني يوم القيامة، إذا وجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزلت الساعة واقتربت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: «هَذَا يَوْمٌ عَيْرٌ» [القم: ٨]. ولهذا قال تعالى: «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام. «يَتَوَلَّاتَا» أي: يقولون: «يَتَوَلَّاتَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا»، أي: في الدنيا، «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ»، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا يتفهم ذلك.

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٨٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٧.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ
 ٱلْهِيَآءِ مَآ وَرَدُوهَآ وَكُلٌّ فِيهَا خَآلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجِرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
 سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْبَىٰ أُو۟لَٔئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُسْتَهْتَمَتْ
 أَنفُسُهُمْ خَآلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ ٱلْفَرَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ ٱلَّذِي كُنْتُمْ
 تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قُرَيْشٍ ومن ذان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ، قال ابن عباس: أي وقودها. يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا
 النَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ، بمعنى شجر جهنم. وفي رواية قال: ﴿حَصَبُ
 جَهَنَّمَ﴾ يعني حطب جهنم، بالزنجية. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهي كذلك في قراءة علي
 وعائشة، رضي الله عنهما. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ، أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره.
 والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ، أي: داخلون. ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ ٱلْهِيَآءِ مَآ وَرَدُوهَآ﴾ ،
 يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما
 دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَآلِدُونَ﴾ ، أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون. ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجِرٌ﴾ ، كما
 قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجِرٌ وَشَهِيْقٌ﴾. والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا
 يَسْمَعُونَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنائفسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد
 الرحمن - يعني المسعودي - عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي من يُخلد في النار جُعِلُوا في توابيت من
 نار، فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجِرٌ وَهُمْ
 فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. ورواه ابن جرير، من حديث حجاج ابن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن
 خباب، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْبَىٰ﴾ ، قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة،
 ﴿أُو۟لَٔئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ ، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شirkهم بالله، عطف بذكر السعداء من
 المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال
 تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَآءٍ وَزِيَادَةٍ﴾ وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦١﴾﴾ ، فكما أحسنوا العمل في
 الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُو۟لَٔئِكَ عَنَّا
 مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ ، أي: حريقها في الأجساد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه،
 عن الجريري، عن أبي عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ ، قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم
 قال: حس حس. وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا أُسْتَهْتَمَتْ أَنفُسُهُمْ خَآلِدُونَ﴾ ، فسلمهم من المحذور والمرهوب،
 وحصل لهم المطلوب والمحبوب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا
 محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن ليث بن أبي سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن
 بشير قال: - وسمر مع علي - رضي الله عنه - ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْبَىٰ أُو۟لَٔئِكَ عَنَّا
 مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ، قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن

منهم - أو قال: سَعَدُ مِنْهُمْ - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يَجْرُ ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيْسَهُمْ﴾.

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المكي، عن محمد بن حاطب قال: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قال: عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعيد - وليس بابن مَاهِك - عن محمد بن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عثمان منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يَمُرُّونَ عَلَى الصُّرَاطِ مَرًّا هُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ، وَيَبْقَى الْكِفَاؤُ فِيهَا جَيِّتًا. فهذا مطابق لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عُزَيْرُ وَالْمَسِيحُ. كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيْجٍ وَعُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وكذا قال عكرمة، والحسن وابن جُرَيْجٍ. وقال الضحاک، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قال: نزلت في عيسى ابن مَرْيَمَ وَعُزَيْرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحُسَيْنُ بْنُ عِيْسَى بْنِ مَيْسَرَةَ، حدثنا أبو زُهَيْرٍ، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصْبَغِ، عن عَلِيِّ بْنِ رِضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ - في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شيء يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي النَّارِ إِلَّا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَعِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ. إسناده ضعيف^(١). وقال ابن أبي نجیح، عن مُجَاهِدٍ: ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعُزَيْرٌ، والملائكة. وقال الضحاک: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا زُوي عن سعيد بن جبیر، وأبي صالح وغير واحد. وقد رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا غَرِيبًا جَدًّا، فقال:

[٤٦٣٢] حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ يَعْقُوبَ الرُّخَامِيُّ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مَعِيْثِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ (١١١)، قال: عيسى، وعُزَيْرٌ، والملائكة^(٢). وذكر بعضهم قِصَّةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَمَنَاظَرَةَ الْمُشْرِكِينَ.

[٤٦٣٣] قال أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْأَنْطَاطِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَزْرَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، حَدَّثَنَا الْحَكَمُ، - يَعْنِي ابْنَ أَبَانَ - عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: تَزَعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١١١)، فقال ابنُ الزُّبَيْرِ: قد عُيِّدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَعُزَيْرٌ وَعِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ، كُلُّ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ مَعَ الْكُهَنَاءِ؟ فنزلت: ﴿وَلَكَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِيدُونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا يَا أَلْهِنَّا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا صَرَفُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَاسِرُونَ﴾ (٥٨) [الزخرف: ٥٧ - ٥٨]. ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ (١١١). رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه «الأحاديث المختارة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي،

(١) سعد وأصبغ كلاهما واو.

(٢) إسناده ضعيف، له علتان: سعيد بن مسلمة وليث بن أبي سليم، كلاهما ضعيف. وقد صح عن ابن عباس من قوله، وهو الصواب.

حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان - يعني الثوري - عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ (٩٨)، قال المشركون: فالملائكة، وعزير، وعيسى يُعبدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ آلِهَةٍ مَا وَرَدَوْهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وَرَوَى عن أبي كُدَيْبَةَ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ (٩٩).

[٤٦٣٤] وقال الإمام مُحَمَّد بن إِسْحَاق بن يسار - رحمه الله - في كتاب السيرة وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ - ففرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ - حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ (٩٨). ثم قام رسول الله ﷺ - وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفاً ولا قعداً، وقد زعم مُحَمَّد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصَبُ جهنم. فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، فسألوا محمداً: كل ما يُعبد من دُونِ اللَّهِ في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهودُ تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟! فعجب الوليدُ ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ - فقال: «كل من أحب أن يُعبد من دُونِ اللَّهِ فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ (٩٩) لا يسمعون حيسباً وهم في ما أشتهت أنفسهم خَالِدُونَ»، أي: عيسى، وعزير ومن عبداً من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرهم أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٠٦) لا يسمعون بالقول وهم بأمره يملكون». إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى، وأنه يُعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ (٩٧) وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَاصِمُونَ﴾ (٩٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٩٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (١٠٠) وَإِنَّهُ لَوَلِيمٌ لِّسَاعَةٍ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦١]، أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّقِمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١١). وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لآبائِهَا، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يُورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبده، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يُهاجى المسلمين أولاً، ثم قال مُعْتَبِراً:

(١) هذا إسناد معضل، أخرجه الطبري ٢٤٨٣٦، وأصله شواهد عن ابن عباس. والله تعالى أعلم، وانظر «الدر المنثور» ٤

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي زَاتِي مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَمِّي وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾، قيل: المراد بذلك الموت. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ زَيْبَعَةَ، عَنْ عَطَاءٍ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالْفَرَجِ الْأَكْبَرِ الْفِتْنَةُ فِي الصُّورِ. قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سَيَانَ سَعِيدُ بْنُ سَيَانَ الشَّيْبَانِي، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقِيلَ: حِينَ يُؤَمَّرُ بِالْعَبْدِ إِلَى النَّارِ. قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَقِيلَ: حِينَ تُطَبَّقُ النَّارُ عَلَى أَهْلِهَا. قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ. وَقِيلَ: حِينَ يُدْبَحُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الْهَذَلِيُّ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَلَقْنَهُهُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يَعْنِي تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، تُبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أَي: قَابِلُوا مَا يَسْرُكُمْ.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا

فَعَلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

[٤٦٣٥] وقد قال البخاري: حدثنا مُقَدَّمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنِي عَمِّي الْقَاسِمُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ الْأَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ»^(١). انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَجَّاجِ الرَّقْمِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي الْوَاضِلِ، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ بِمَافِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، يَطْوِي ذَلِكَ كُلَّهُ بِيَمِينِهِ، يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي يَدِهِ بِمَنْزِلَةِ خَزَائِلَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قِيلَ: الْمَرَادُ بِالسِّجِلِّ الْكِتَابُ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالسِّجِلِّ هَاهُنَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْوَفَاءِ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. قَالَ: السِّجِلُّ مَلَكٌ، فَإِذَا صَعِدَ بِالِاسْتِغْفَارِ قَالَ: اكْتُبْهَا نُورًا. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ ابْنِ يَمَانَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَيْتُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّ السِّجِلَّ مَلَكٌ. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: السِّجِلُّ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالصُّحُفِ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ رُفِعَ كِتَابُهُ إِلَى السِّجِلِّ فَطَوَاهُ، وَرَفَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِهِ اسْمُ رَجُلٍ مِنْ صَحَابِي كَانُ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - الْوَحْيَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْجَوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ، قَالَ: السِّجِلُّ هُوَ الرَّجُلُ. قَالَ نُوحُ: وَأَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ كَعْبٍ - هُوَ الْعَوْدِيُّ - عَنْ عَمْرٍو بْنِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ الْجَوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: السِّجِلُّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ من حديث ابن عمر.

كَاتِبُ النَّبِيِّ - ﷺ . وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قُتَيْبَةَ بن سعيد، عن نُوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السَّجَلُ كَاتِبُ النَّبِيِّ - ﷺ - ^(١) . ورواه ابن جرير عن نُضْر بن علي الجَهْضَمِيِّ، كما تقدم. ورواه ابنُ عَدِيٍّ من رواية يحيى بن عمرو بن مالك الثُّكْرِيِّ، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي - ﷺ - كَاتِبٌ يُسَمَّى السَّجَلُ، وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ لِلْكَتُبِ﴾، قال: كما يَطْوِي السَّجَلُ الْكِتَابَ، كذلك نَطْوِي السَّمَاءَ ^(٢) ثم قال: وهو غير محفوظ.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر ^(٣)، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السَّجَلُ كَاتِبُ النَّبِيِّ - ﷺ . وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه - وإن كان في سنن أبي داود - منهم: شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج الجزي، فسح الله في عمره، ونسأ في أجله، وحتّم له بصلاح عمّله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة، والله الحمد. وقد تصدّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورّده أتم ردّ، وقال: لا يُعرَف في الصحابة أحدٌ اسمه السَّجَلُ، وكتاب النبي - ﷺ - معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السَّجَلُ. وصدّق - رحمه الله - في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السَّجَلُ هي الصحيفة. قاله علي بن أبي طلحة والعمري، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقناة، وغير واحد. واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ لِلْكَتُبِ﴾ أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقولهِ: ﴿قَلَمًا أَنشَأْنَا وَنُكَلِّمُ بِهِ الْبَشَرِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على البَشَرِ، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِآثَانَا كَمَا فَعَلِينَا﴾، يعني هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾، أي: كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَمَا فَعَلِينَا﴾.

[٤٦٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر وعفان المَعْنِي قالوا: حدثنا شعبة، عن المغيرة ابن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله - ﷺ - بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله - عز وجل - حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلَا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِآثَانَا كَمَا فَعَلِينَا﴾ ^(٤) . . . وذكر تمام الحديث. أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة. ورواه البخاري عند هذه الآية في كتابه. وقد روى

- (١) باطل. لا يصح هذا عن ابن عباس، فيه يزيد بن كعب العمري، وهو مجهول، كما في التريب. وقال الذهبي في «الميزان» ٩٧٤٣: لا يدرى من ذا أصلاً، ثم ذكر له هذا الحديث. وقد حكم بوضعه الإمام المزي وابن كثير وكذا رده الطبري، والله أعلم.
- (٢) في إسناده يحيى بن عمرو النكري، رماه حماد بن زيد بالكذب. راجع الميزان ٩٥٩٥.
- (٣) ذكره الذهبي في ترجمة حمدان بن سعيد ٢٢٨٦ «ميزان» وقال: هذا خبر كذب اه بتصرف.
- (٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٠ و٤٦٢٥ ومسلم ٢٨٦٠ ح ٥٧ وأحمد ٢٣٥/١ و٢٥٣.

ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي - ﷺ - نحو ذلك^(١). وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾، وقال: نُهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُؤُسَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نُعْطِيهِمُ الْأَشْهَادَ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَدَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَاكَ مِنَ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]... الآية. وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقال مجاهد: الزبور الكتاب. وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة. وعن ابن عباس: الذكر القرآن. وقال سعيد بن جبيرة: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الكُتُبُ بعد الذكر. والذكر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله. وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكُتُبُ التي أنزلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمد - ﷺ - الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري. وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. وقال السدي: هم المؤمنون. وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾، أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد - ﷺ - بلالغاً لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحببه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - ﷺ - رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَاطِ ﴿٧٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْئِسُ الْقَرَارُ ﴿٧٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَرَحْمَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

[٤٦٣٧] وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، مزوان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن أبي

(١) ليث فيه ضعف، ومجاهد عن عائشة منقطع، إلا أن الحديث يمتنع بما قبله، والله أعلم.

حازم، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أبعث لَعْنَاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمة»^(١). انفراد بإخراجه مسلم.

[٤٦٣٨] وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمةٌ مُهداة»^(٢). رواه عبد الله بن أبي عرابَةَ وغيره، عن وَكَيْعٍ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي. وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سُئِلَ عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غِيَاثٍ مرسلاً.

[٤٦٣٩] قال الحافظُ ابنُ عسَاكِرَ: وقد رواه مالكُ بن سَعْيَرِ بن الخُمَيسِ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعاً. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنما أنا رحمةٌ مُهداة»^(٣).

[٤٦٤٠] ثم أورده من طريق الصُّلَبيِّ بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عُمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله بعثني رحمةً مُهداة، بُعِثْتُ بِرَفْعِ قَوْمٍ وَخَفْضِ آخَرِينَ»^(٤).

[٤٦٤١] قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحَّانُ، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدتُ كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدَّرَاوَزْدِيَّ وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عُمر بن عبد الرحمن بن عَوْفٍ، عن محمد بن صالح الثمار، عن ابن شِهَابٍ، عن محمد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قَدِمَ مكة مُنْصَرِّفَهُ عن حَمْزَةَ: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسلَ طلائِغَهُ، وإنما يُريد أن يُصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تُمرؤوا طريقَهُ أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري، إنه حينئذٍ عليكم لأنكم تَقْتُمُوهُ نفي القِرْدَانِ عن المَنَاسِمِ^(٥)، والله إن له لَسَحْرَةَ. ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوةَ ابني قَيْلَةَ - يعني الأوس والخزرج - فهو عدو استعان بعدو، فقال له مُطْعِمُ بن عَدِي: يا أبا الحكم والله ما رأيته أحداً أصدق لساناً ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طَرَدْتُم، وإذ فعلتم الذي فَعَلْتُم فكونوا أكفَّ الناس عنه. قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتم عليه، إن ابني قَيْلَةَ إن ظَفَرُوا بكم لم يَرْفُؤا فيكم إلا ولا دِيْمَةَ، وإن أظَعْتُمُونِي أَلْحَمْتُمُونِي خَيْرَ كِنَانَةٍ، أو تُخْرِجُوا مُحَمَّدًا من بين ظَهْرَانِيهِمْ، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيْلَةَ فوالله ما هُما وأهل ذَمَلِك في المذلة إلا سِوَاة، وسأُكْفِيكُمْ حَدَّهُمْ، وقال:

سَأَمْنَحُ جَانِباً مَثِي غَلِيظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدِ
رَجَالِ الْخَزْرَجِيَّةِ أَفْلُ دُلُّ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَسْفِدَ جِدُّ
فَبَلَّغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فقال: والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٩٩ وأبو يعلى ٦١٧٤.

(٢) جيد. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٠٠٥ والحاكم ٣٥/١ والقضاعي ١١٦٠ من طريق الأعمش به وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو يتقوى بما قبله، وله شواهد أخرى، منها ما يأتي، وانظر «مجمع الزوائد» ٦٩/٥ و٣٠٥.

(٣) إسناده حسن، رجاله ثقات وله طرق وشواهد.

(٤) فيه راوٍ لم يسم، وصدرة يتقوى بشواهد، والوهن فقط في عجزه.

(٥) النسب: خف البعير.

إني رحمة بعثني الله، ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشير الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب^(١). وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

[٤٦٤٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبي قرّة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ - كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله ﷺ - خطب فقال: أيما رجل من أمي سبته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فلأنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة^(٢). وزواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة. فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق بن شامير، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودي، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وهكذا زواه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سعيد - وهو سعيد بن المرزبان البقال - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرملي، عن أيوب بن سويد، عن المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤)، قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَمْرٍ بَعِيدٍ مَّا تُوْعَدُونَ ﴿٦﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا نَكْتُمُونَ ﴿٧﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ ﴿٨﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا
الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى أمراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥)، أي: متبوعون على ذلك مستسلمون منقادون له. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أي: أعلمتكم أنني حزبت لكم كما أنكم

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ١٥٣٢ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «الجمع» ٩٩٤٠: رواه الطبراني من طريق أحمد بن صالح وجادة ورجاله ثقات امر قلت: علته فقط كونه وجادة، وهي أدنى أنواع التحمل، ثم إن في أحمد بن صالح كلام، وإن وثقه الجمهور. فقد ورد عن يحيى أنه جرحه وكذا النسائي، راجع الميزان، وذكر الأسماء محفوظ في الصحيح؛ والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٥٩ وأحمد ٤٣٧/٥ وإسناده حسن، لكن الثن صحيح فله شاهد من حديث أنس عند مسلم ٣٦٠٣ وابن حبان ٦٥١٤، وله شواهد أخرى.

حزب لي، بريء منكم كما أنكم براء مني، كقوله: ﴿وَلَا كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَلَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٌ فَأَنْزِلْنَاهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: ليكن علمك وعلمهم يتبذ العهود على السواء، وهكذا هاهنا، ﴿فَإِنْ قَوْلُوا فَكُلْ مَا أَذْرَبُ﴾، أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وببراءتكم مني، لعلمي بذلك. وقوله: ﴿وَلَا أَذْرِبُ أَقْرَبُ أَمْ يَبِيدُ مَا قُودُونَ﴾، أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا أعلم لي بقربه ولا يبعده، ﴿لَا تَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَتَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾، أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يُظهره العباد وما يُسررون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إظهارهم وإسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل. وقوله: ﴿وَلَا أَذْرِبُ لَعَلَّ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَّعُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾، أي: وما أذري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مُسمى. وحكاه عن ابن عباس والله أعلم. ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكِرْ بِالْحَقِّ﴾، أي: افضل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كان الأنبياء - عليهم السلام - يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وأمر النبي ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان النبي ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ أَسْكِرْ بِالْحَقِّ﴾. وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات الكذب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

هذا آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، والله الحمد والمنة

سُورَةُ الْحَجِّ

آياتها
٧٨ترتيبها
٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المُفسِّرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم تُشورهم إلى عَرَصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَتْرَجَّتِ الْأَرْضُ أْفْعَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١-٢]. وقال تعالى: ﴿وَجِلَّتِ الْأَرْضُ وِلْجَالًا فَذُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةً ﴿١١﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الرُّاقِعَةُ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٤-١٥]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿١﴾ وَوَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٢﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا ﴿٣﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عُمر الدنيا، وأولِ أحوال الساعة. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة. ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وزوي عن الشعبي، وإبراهيم وعبيد بن عمير، نحو ذلك. وقال أبو كُدينة، عن عطاء، عن عامر الشعبي: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ﴾، الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

[٤٦٤٣] وقد أورد الإمام أبو جعفر ابن جرير مُسْتَنَدًا مَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ، مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ رَافِعٍ قَاضِيِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَزَعَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ، شَاحِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الصُّورُ؟ قَالَ: قُرْنٌ. قَالَ: فَكَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفْخَاتٍ، الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصُّعْقِ، وَالثَّلَاثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ. فَيَفْزَعُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمْدُهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْشُرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٢﴾﴾ [ص: ١٥] فَيُسَيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ فَتَكُونُ سَرَابًا، وَتُرْجَحُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًا، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٢﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٣﴾﴾ [النازعات: ٦-٨]، فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ الْمُؤْتَبِقَةِ فِي الْبَحْرِ، تُضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ تَكْفُوها بِأَهْلِهَا، وَكَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بِالْعَرْشِ تُرْجَحُهُ الْأَرْوَاحُ، فَتَمِيدُ النَّاسَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ، وَيَشِيبُ الْوَلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِيَ الْأَفْطَارَ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ

فَنَضْرَبُ وَجُوهَهَا، فترجع ويؤلي الناس مُدْبِرِينَ، يُنادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾^(٢٢) **يَوْمَ تَقُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيَةٍ وَنَنْصُرِيكُمْ يَوْمَ تَقُولُونَ مَا لَمْ يَأْتِكُمْ مِنْ قَبْلِهِ وَمَنْ يَعْبُدِ اللَّهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَ** ذلك إذ انصدعت الأرض من قَطْرِ إلى قَطْرِ، فزأوا أمراً عظيماً فأخذهم لذلك من الكَرْب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل. ثم خِيفَ شمسها وخِيفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم. قال رسول الله - ﷺ -: والأموث لا يعلمون بشيء من ذلك. قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَنَفِخْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفَرْعُ إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقامهم الله شر ذلك اليوم وأمنتهم، وهو عذاب الله يبعثه على شِرَارِ خَلْقِهِ، وهو الذي يقول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفَعُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٣) **يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنْهَضُونَ كَأَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ** كَلُّ مُرْمِضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٢٤) ﴿٢٤﴾. وهذا الحديث قد رواه الطبراني، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد، مُطَوَّلًا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لِقُرْبِهَا مِنْهَا، كما يُقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم. وقال آخرون: بل ذلك هوَ وَفَرْعٌ وَزَلْزَالٌ وَبَلْبَالٌ، كائناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ، بعدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ. واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

[٤٦٤٤] الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين: أن رسول الله - ﷺ - قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رَفَعَ بِهِاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ صَوْتَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفَعُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٥) **يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنْهَضُونَ كَأَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ** أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ^(٢٦) ﴿٢٦﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حَثُوا الْمَطِيَّ، وعرفوا أنه عند قولِ يقوله. فلَمَّا تَأَشُّبُوا حَوْلَهُ قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادَىٰ آدَمُ - عليه السلام - فيناديه ربه - عَزَّ وَجَلَّ - فيقول: يا آدَمُ، ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألفٍ تسعمئة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة. قال: فَأَبْلَسَ أَصْحَابُهُ حَتَّى مَا أَوْضَحُوا بوضاحية فلما رأى ذلك قال: أبشروا واعملوا، فولذي نفس محمد بيده إنكم لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس، قال: فَسُرِّيَ عَنْهُمْ، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فولذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرُقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ^(٢٧). وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سنتهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو القطان - عن هشام - وهو الدستوائي - عن قتادة، به بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٤٦٤٥] طريق أخرى لهذا الحديث، قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين أن النبي - ﷺ - قال لما نزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفَعُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٨) إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعَثْ

(١) هو بعض حديث الصور المطول، وتقدم تحريجه؛ بعضه منكر، وبعضه الآخر له شواهد.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٦٩ والنسائي في «التفسير» ٣٦٠ وأحمد ٤٣٥/٤ والطبري ٢٤٩٠٤، وصححه الحاكم ٢٨/١

ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ. وفيه عننة الحسن، لكن له شواهد سنائي.

النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله - ﷺ -: قَارِبُوا وَسَدُّوا، فإنها لم تكن نُبُوءَةً قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فَيُؤَخِّدُ الْعَدَدُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلَّا كَمَلَتْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وما مثلكم والأسم إلا كمثل الرُقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ، أو كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا رُبِعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فكبروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا^(١). وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة به، ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي من غير وجه، عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي، عن عمران بن الحصين، فذكره.

[٤٦٤٦] وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَارٍ، عن عُثْدَرٍ، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله - ﷺ - لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْرَأُ رِيبَكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)... وذكر الحديث^(٣)، فذكر نحو سياق ابن جعدان، فالله أعلم.

[٤٦٤٧] الحديث الثاني، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطباع، حدثنا أبو سفيان المغمري، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾... وذكر يعني نحو سياق الحسن عن عمران، غير أنه قال: «ومن هلك من كفره الجن والإنس»^(٤). رواه ابن جرير بطوله، من حديث مغمري.

[٤٦٤٨] الحديث الثالث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عبادة - يعني ابن العوام - حدثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية... فذكر نحوه، وقال فيه: «إني لأرجو أن تكونوا رُبِعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. ففرحوا، وزاد أيضاً: وإنما أنتم جزء من ألف جزء^(٥).

[٤٦٤٩] الحديث الرابع، قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمئة وتسعة وتسعين. فحيثئذ تضع الحمل حملها، ويشيب

(١) أخرجه الترمذي ٣١٦٨ وأحمد ٤/٣٢٢ وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: فيه علي بن زيد بن جعدان ضعيف، لكن توبع كما تقدم وله شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٩٠٦ عن الحسن مرسلًا، وتقدم موصولًا.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣١٢٢ والحاكم ١/٢٩ وابن حبان ٧٣٥٤ والطبري ٤٩١٠، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٤: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن مهدي، وهو ثقة اهـ.

(٤) جيد. أخرجه البزار ٣٤٩٧ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٤: ورجاله رجال الصحيح، غير هلال بن خباب، وهو ثقة اهـ وله شواهد.

الوليذ، ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجوهُهُمْ. قال النبي - ﷺ -: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تَسْعَمْتُهُ وَتَسْعَةُ وَتَسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشُّعْرَةِ السُّودَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ. أَوْ كَالشُّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبِّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: ثَلَاثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبِّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبِّرْنَا»^(١). وقد رواه البُخَارِيُّ أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في تفسيره، من طُرُقٍ، عن الأعمش، به.

[٤٦٥٠] الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا عمَّارُ بن محمد - ابنُ أُخْتِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ - وعبيدة المَغْنِي، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَادِيًّا يُنَادِي: يَا آدَمُ، إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَبْعَثَ بَعثاً مِمَّا مِنْ دُونِكَ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ آدَمُ: يَا رَبِّ مَنْ هُمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: مِنْ كُلِّ مَنَةٍ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: مَنْ هَذَا النَّاجِي مِمَّا بَعْدَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّمَامَةِ فِي صَدْرِ الْبَعِيرِ»^(٢). انقَرَدَ بِهَذَا السَّنَدِ وَهَذَا السِّيَاقِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

[٤٦٥١] الحديث السادس، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبي - ﷺ -: قال: «إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاءَ عِرَاءِ غَدَلَاءَ» قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهتمم ذلك»^(٣). أخرجه في الصحيحين.

[٤٦٥٢] الحديث السابع، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابنُ لَهَيْعَةَ، عن خالد ابن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاثٍ فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا. وأما عند تطاير الكُتُبِ فلما أن يُعْطَى بِمِمينه أو يُعْطَى بِشماله، فلا. وحين يخرج عُقْبُ مِنَ النَّارِ فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَيَتَغَيَّبُ عَلَيْهِمْ، ويقول ذلك المُتَّقِ: وَكِلْتُ ثَلَاثَةَ، وَكِلْتُ ثَلَاثَةَ، وَكِلْتُ ثَلَاثَةَ: وَكِلْتُ بِمَنْ أَدْعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهَا آخِراً، وَوَكِلْتُ بِمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَوَكِلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. قَالَ: فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَيَزِيهِمْ فِي عَمَرَاتٍ، وَلَجْهَتُّمْ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَاحِدٌ مِنَ السَّيْفِ، عَلَيْهِ كَلَالِيْبٌ وَحَسَكٌ يَأْخُذْنَ مِنْ شَاءِ اللَّهِ، وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وَكَالْبِزْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرُّكَابِ، وَالْمَلَانِكَةُ يَقُولُونَ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَنَاجَ مُسَلِّمٌ، وَمُخَدَّوْشٌ مُسَلِّمٌ، وَمُكَوَّرٌ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ»^(٤).

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً، لها موضعٌ آخَرُ. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ رَزَقْتَ السَّاعَةَ شَفْعًا عَظِيمًا﴾، أي: أمرٌ كبيرٌ، وخطبٌ جليلٌ، وطارقٌ مُفْطِطٌ، وحادثٌ هائلٌ، وكائنٌ عجيبٌ.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤١ ومسلم ٢٢٢ والنسائي في «التفسير» ٣٥٩ وأحمد ٣٢٢/٣ - ٣٣ والطبري ٢٤٩٠٧.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٣٨٨/١ وأبو يعلى ٥١٢٤ وإسناده ضعيف، لضعف إبراهيم بن مسلم الهجري، لكن له شواهد يقوى بها.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢٧ ومسلم ٢٨٥٩ والنسائي ١١٤/٤.

(٤) هذا مرسل، أخرجه أحمد ١١٠/٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣٥٨/١٠ - ٣٥٩ وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: ابن لهيعة ضعيف الحديث، فليس الراوي عنه أحد العبادة، وقد أتى بالفاظ منكورة في هذا المتن، ولبعضه الآخر شواهد. وهو يشهد لما قبله.

والزلازل: هو ما يحصل للنفوس من الفزع والرعب كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذَهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدعش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل «مرضعة». وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: قبل تماويه لشدّة الهول، ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾. وقرىء: «سكزى»، أي: من شدّة الأمر الذي صازوا فيه قد ذهبت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء. ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، قال مجاهد: (يعني الشيطان)، يعني كتبت عليه كتاباً قدرته ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾، أي: أتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: يضلّه في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحارّ المؤلم المزعج المقلق. وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذا قال ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم البصري، حدثنا عمرو بن المحرّم أبو قتادة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبيث قريش: أخبرونا عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو نحاس هو؟ فقعقت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب: الرعد - فإذا خف رأسه ساقط بين يديه. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من ذر من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته (١).

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْسَنَ مَسَئِمٍ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَبُوءُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَيْنَا أُرْدِي الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما

يُشَاهِدُ مِنْ بَدَنِهِ لِلخَلْقِ، فَقَالَ: ﴿يَكَايِبُهَا النَّاسُ إِنْ كَثُرَ فِي رَبِّهِ﴾، أي: في شك ﴿مِنْ أَلَمَتِهِ﴾، وهو المعادُ وقيامُ الأرواح والأجساد، يوم القيامة، ﴿فَلَمَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، أي: أصلُ بَرزِهِ لكم من تُرَابٍ، وهو الذي خُلِقَ منه آدمُ عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، أي: ثم جعل نسله من سُلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ تُدْرَى مِنْ مُضْغَةٍ﴾. وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رَحِمِ المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يُضَافُ إليه ما يجمع إليها، ثم تنقلب عِلْقَةً حمراء بإذن الله، فتكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصيرُ مُضْغَةً: قطعة من لحم لا شكلَ فيها ولا تخطيط، ثم يشرعُ في التشكيل والتخطيط، فَيُصَوِّرُ منها رأساً وَيَدَانِ، وصدر ويطن، وفخذان، ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسْقَطُها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تُلْقِيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: كما تشاهدونها، ﴿لَيْسَ بَيْنَ لَكُمْ وَبَيْنَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي: وتارة تُسْتَقِرُّ في الرَّحِمِ لا تُلْقِيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السَّقَطُ مخلوقٌ وغيرُ مخلوقٍ. فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مُضْغَةٌ، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فَنَفَخَ فيها الروحَ، وسَوَّاهَا كما يشاء الله عز وجل، من حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَذَكَرَ وَأُنْثَى، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، وَشَقِي أَوْ سَعِيدٍ.

[٤٦٥٣] كما نَبَتْ في الصُّحُوحِ، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤَمِّرُ بَارِعَ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ عَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَرِزْقَهُ، وَشَقِي أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»^(١).

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءت مَلَكٌ بِكُفِّهِ قَالَ: يَا رَبِّ، مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ؟ فَإِنْ قِيلَ: «غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ» لَمْ تَكُنْ نَسَمَةً، وَقَدَفْتَهَا الْأَرْحَامُ دَمًا. وَإِنْ قِيلَ: «مُخَلَّقَةٌ»، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى؟ شَقِي أَوْ سَعِيدٌ؟ مَا الْأَجَلُ، وَمَا الْأَثَرُ؟ وَيَأْتِي أَرْضَ يَمُوتُ؟ قَالَ: فَيُقَالُ لِلنُّطْفَةِ: مِنْ رَبُّكَ؟ فَتَقُولُ: اللَّهُ. فَيُقَالُ: مِنْ رِزْقِكَ؟ فَتَقُولُ: اللَّهُ. فَيُقَالُ لَهُ: إِذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ فِيهِ قِصَّةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ. قَالَ: فَتَخْلُقُ فَتَعِيشُ فِي أَجْلِهَا، وَتَأْكُلُ رِزْقَهَا وَتَطَأُ أَثَرَهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا مَاتَتْ، فَدَفِنَتْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. ثُمَّ تَلَا عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: ﴿يَكَايِبُهَا النَّاسُ إِنْ كَثُرَ فِي رَبِّهِ مِنْ أَلَمَتِهِ فَلَمَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾. فإذا بلغت مُضْغَةً نِكِسَتْ فِي الْخَلْقِ الرَّابِعِ فَكَانَتْ نَسَمَةً، فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ قَدَفْتَهَا الْأَرْحَامُ دَمًا، وَإِنْ كَانَتْ مُخَلَّقَةً نِكِسَتْ فِي الْخَلْقِ.

[٤٦٥٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطَّيْلِ، عن حذيفة بن أسيد - يبلغُ به النبي - ﷺ - قَالَ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَ أَرْبَعِينَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ، وَيَكْتُبَانِ، فَيَقُولُ: أَذْكَرُ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ وَيَكْتُبَانِ، وَيَكْتُبُ عَمَلَهُ وَآثَرَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحْفُ، فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»^(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَمَنْ طُرِقَ أَحْزَرُ، عَنْ أَبِي الطَّيْلِ، بِنَحْوِ مَعْنَاهُ.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٣٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٤ وأحمد ٦/٤ - ٧ والطحاوي في «المشكل» ٢٦٦٣ وابن أبي عاصم في «السنن» ١٧٩ من طرق عن عاصم به. وأخرجه مسلم ٢٦٤٥ والطحاوي ٢٦٦٤ وابن حبان ٦١٧٧ من وجه آخر من حديث حذيفة بنحوه.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ لِفَلَاحٍ﴾، أي: ضِعِيفاً فِي بَدَنِهِ وَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِهِ، وَيَطْلِيهِ وَعَقْلَهُ. ثم يعطيه الله القُوَّةَ شيئاً فشيئاً وَيَلطُفُ بِهِ. وَيُحَسِّنُ عَلَيْهِ وَالِدِيهِ فِي آتَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِنَسْتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، أي: يتكامل القوي ويتزايد، وَيَصِلُ إِلَى عُقُوفَانِ الشَّبَابِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ. ﴿وَمِنْكُمْ مَن يَتُوفَّى﴾، أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ، وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَتِنَاقُصِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَرَفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ، ولهذا قال: ﴿لِيَكْتَلِبَا يَلْمَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

[٤٦٥٥] وقد قال الحافظ أبو يعلَى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود بن سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رَفَعَ الْحَدِيثَ - قال: المولود حتى يبلغ الجُنُثَ، ما عَمِلَ مِنْ حَسَنَةٍ كَتَبَتْ لوالده أو لوالدته، وما عَمِلَ مِنْ سَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى وَالِدِيهِ، فإذا بلغ الجُنُثَ أَجْرَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَلَمَ، أَمِيرَ الْمَلَائِكَةِ اللَّذَانِ مَعَهُ أَنْ يَحْفَظَا وَأَنْ يُشَدَّدَا، فإذا بلغ أربعين سنةً فِي الْإِسْلَامِ أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنَ الْبَلَايَا الثَّلَاثِ: الْجُنُونِ، وَالْجُدَامِ، وَالْبَرَصِ. فإذا بلغ الخمسين، حَفَّفَ اللَّهُ مِنْ حَسَابِهِ. فإذا بَلَغَ السَّتِينَ رَزَقَهُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّ، فإذا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فإذا بلغ الثمانين كَتَبَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، فإذا بلغ التسعين غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَفَعَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فإذا بلغ أَرْدَلَ الْعُمُرِ ﴿لِيَكْتَلِبَا يَلْمَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صِبْغَتِهِ مِنَ الْخَيْرِ، فإذا عَمِلَ سَيِّئَةً لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ^(١). هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفيه نكارةٌ شديدة. ومع هذا قد رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مسنده مرفوعاً وموقوفاً فقال:

[٤٦٥٦] حدثنا أبو النضر، حدثنا الفَرَجُ، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامري، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بَلَغَ الرَّجُلُ الْمَسْلُمُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا، مِنَ الْجُنُونِ وَالْجُدَامِ وَالْبَرَصِ. فإذا بلغ الخمسين لَئِنِ اللَّهُ حَسَابَهُ، وَإِذَا بَلَغَ السَّتِينَ رَزَقَهُ اللَّهُ إِنَابَةً يُحِبُّهَا عَلَيْهِا. وَإِذَا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَإِذَا بَلَغَ الثَّمَانِينَ تَقَبَّلَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِ، وَمَعَا عَنهُ سَيِّئَاتِهِ. وَإِذَا بَلَغَ التَّسْعِينَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَسُمِّيَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَشَفَعَ فِي أَهْلِهِ.

[٤٦٥٧] ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمرو بن الخطاب، عن النبي - ﷺ - مثله^(٢).

[٤٦٥٨] ورواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أنس بن عِيَاضٍ، حدثني يُوْسُفُ بْنُ أَبِي ذَرَّةَ^(٣) الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك: أن رسول الله - ﷺ - قال: ما من مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ فِي

(١) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٣٦٧٨ وفيه خالد الزيات عن داود بن سليمان، وكلاهما مجهول، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٨٩/٢، وفيه الفرج بن فضالة، ضعفه النسائي والدارقطني، وقال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به، ومحمد بن عبد الله العامري، لا يعرف كما في الميزان ٧٧٧٦. واكتفى الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٠ بقوله: رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم كثير اهـ وقال العراقي كما في «المسدد» ص ٤٠ لم يذكر ابن الجوزي في الموضوعات حديث ابن عمر، وكان ينبغي أن يذكره، فإنه موضوع قطعاً.

(٣) وقع في الأصل وفي مستند أحمد والموضوعات «بردة» وهو تصحيف. والمثبت من مصادر التخريج.

الإسلام أربعين سنة إلا صَرَفَ اللهُ عنه ثلاثة أنواعٍ من البلاء: الجُنُونُ والجُدَامُ والبَرَصُ...^(١) وذكر تمام الحديث، كما تقدم سَوَاءً.

[٤٦٥٩] ورواه الحافظُ أبو بكر البزَّازُ، عن عبد الله بن شبيبٍ، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قَتَادَةَ العُدْرِي، عن ابن أخي الزهري، عن عَمِّه، عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من عبد يُعْمَرُ في الإسلام أربعين سنة، إلا صَرَفَ اللهُ عنه أنواعاً من البلاء: الجُنُونُ والجُدَامُ والبَرَصُ، فإذا بلغ خمسين سنةً لَينَ اللهُ له الحساب، فإذا بلغ ستين سنةً رَزَقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ إليه بما يُحِبُّ، فإذا بلغ سبعين سنةً غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تَأَخَّرَ، وسُمِّيَ أسيرَ اللهِ، وَأَجَبَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فإذا بلغ الثمانين تَقَبَّلَ اللهُ منه حَسَنَاتِهِ وتجاوزَ عن سيئاته، فإذا بَلَغَ التسعين غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، وسُمِّيَ أسيرَ اللهِ في أَرْضِهِ، وشُفِعَ في أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً﴾: هذا دليلٌ آخِرُ على قُدْرَتِهِ تعالى على إحياءِ الموتى، كما يُحيي الأرضَ المَيِّتَةَ الهامدة، وهي القَحْلَةُ التي لا نبت فيها ولا شَيْءٌ. وقال قتادة: غبراءٌ مُتَهَشِّمَةٌ. وقال السُّدِّي: مَيِّتَةٌ. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾، أي: فإذا أنزل اللهُ عليها المَطَرُ ﴿اهْتَزَّتْ﴾، أي: تحركت بالنبات وحيث بعد موتها، ﴿وَرَبَّتْ﴾، أي: ارتفعت لما سَكَنَ فيها الثَّرَى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفُتُون، من ثمار وزروع، وأشتاتِ النباتات في اختلاف ألوانها وطُعموها، وروائحها وأشكالها ومَنافعها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾، أي: حَسَنَ المَنْظَرِ طَيِّبِ الرِّيحِ. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَّقَى﴾، أي: الخالق المدبِّرُ الفَعَّالُ لما يَشَاءُ، ﴿وَأَنْتُمْ بِنِعْمَةِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: كما أحيا الأرضَ وأنبتَ منها هذه الأنواعَ، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى الرَّحْمَنُ إِنَّهُ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٢٣٩]، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿وَأَنْ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: كائنة لا شَكَّ فيها ولا مِرْيَةَ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يُعيدهم بعد ما صَارُوا في قُبُورِهِمْ رَمَمًا، ويُوْجِدُهُم بعد العَدَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الظَّالِمَ وَهِيَ رَيْبٌ﴾ [الأنعام: ٨٨] قُلْ يُحْيِيهَا

(١) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٢١٧/٣ ح ١٢٨٦٦ وأبو يعلى ٤٢٤٦ و٤٢٤٧ وابن حبان في «المجروحين» ١٣١/٣ - ١٣٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١٧٩/١ من حديث أنس بهذا الإسناد، قال ابن حبان: يوسف ابن أبي ذرّة منكر الحديث جداً، ممن يروي المناكير التي لا أصول لها من حديث رسول الله ﷺ على قلة روايته، لا يجوز الاحتجاج به بحال. قال ابن معين: لا شيء. ووافقه ابن الجوزي. وورد من وجه آخر أخرجه ابن الجوزي ١٧٩/١ وأعله بعباد بن عباد ونقل عن ابن حبان قوله: كان يحدث بالتوهم، فيأتي بالمناكير، فاستحق الترك. وأخرجه أبو يعلى ٤٢٤٩ و٤٢٥٠ من طريقين عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان عن أنس، وإسناده ضعيف، فهو منقطع بين محمد هذا وأنس، وفي روايته من يجهل حاله. والخبر منكر بكل حال. وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البزار ٣٥٨٧ و٣٥٨٨ من حديث أنس، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٢: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات اهد وفيما قاله الهيثمي نظراً، فإن في الإسناد الذي ذكره ابن كثير عبد الله ابن شبيب، ضعفه الذهبي، ونقل عن أبي أحمد الحاكم قوله: ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار، ويسرقها. راجع الميزان ٤٣٧٦، والإسناد الآخر واه أيضاً فيه مجاهيل. والخبر منكر حكم ببطلانه ابن حبان وابن الجوزي والذهبي والعمري وخالفهم ابن حجر في «الذب من المسند» ص ٦٢ على أنه ليس بموضوع، وتبعه على ذلك السيوطي في «اللآلئ» لكن قول الجمهور أولى بالصواب، فالحديث منكر من جهة التن، بل هو باطل، فإن الكثير من المسلمين والمؤمنين يصاب بجنون أو غير ذلك، بعد الأربعين بل وبعد الخمسين والستين، وقد تفرد به ضعفاء هلكن ومجاهيل، والظاهر أن بعضهم سرقه من البعض الآخر، وركبوا له أسانيد، حتى يروج على الطالب، نسأل الله السلامة.

أَلَذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ حَلْقِي عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَلَّذِي جَعَلَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتَهُ تُنْزِلُونَهُ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] . . . والآيات في هذا كثيرة.

[٤٦٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع ابن عدس، عن عمه أبي زرّين العُقَيْلي - واسمه لَقِيْطُ بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يَزِي ربه - عز وجل - يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِياً به؟ قلنا: بلى. قال: فإله أعظم. قال: قلت: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مَرَزَتْ بِوَادِي أَهْلِكَ مُنْجِلًا قال: بلى. قال: ثم مررت به يهتز خَصِرًا؟ قال: بلى. قال: فكذلك يُحْيِي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه^(١). ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد ابن سلمة، به.

[٤٦٦١] ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي زرّين العُقَيْلي قال: أتيت رسول الله - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله الموتى؟ قال: أمررت بأرض من أرض قومك مُجْدِبَةٌ، ثم مَرَزَتْ بها مُخْصِبَةٌ؟ قال: نعم. قال: كذلك الشُّور^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبيس بن مرحوم، حدثنا بَكَيْر بن أبي السَّمِيْطِ، عن قتادة، عن أبي الحَجَّاج، عن مُعَاذِ بن جبل قال: مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ. والله أعلم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ

لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المُقَلِّدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخَبُّ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾﴾، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾، أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾، قال ابن عباس وغيره: مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ. وقال مجاهد، وقتادة، ومالك، عن زيد بن أسلم: ثاني عطفه، أي: لاوي عُنُقِهِ، وهي رقبته. يعني يُعرض عما يُدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِذْ فُرِعُونَ لِشَطْلَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ فَنَوَّلَ رُكْبَتَهُ وَقَالَ سَكِرٌ أَوْ بَحْتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَسَاءَلُوا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَسَاءَلُوا يَسْتَفْتِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَآءُ رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ

(١) أخرجه أحمد ١١/٤ وأبو داود ٤٧٣١ وابن ماجه ١٨٠ وإسناده لين لأجل وكيع بن عدس، لكن لأصله ما يشهد له، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٥٧.

(٢) أخرجه أحمد ١١/٤ - ١٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥٣/١ - ٥٤ وقال: وفي إسناده سليمان بن موسى، وقد وثقه ابن معين، وأبو حاتم، وضعفه آخرون. قلت: تابعه على سياقه وكيع بن عدس.

خَلَقَ لِلنَّاسِ ﴿لقمان: ١٨﴾، أي: تُعَلِّمُهُ عَنْهُمْ اسْتِكْبَاراً عَلَيْهِمْ. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَنَسَوهُ إِذْ كَانَ بِمَذَآبِ أَيْمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جعلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يُضِلُّ عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَاهُ اللهُ المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر منه ومبلغ علمه، ﴿وَتَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾، أي: يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿حُدُودُ مَا قَاتَلْتُمُوهُ إِلَىٰ سَوَاكُمُ الْجَبَرِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الدخان: ٤٧ - ٥٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بَلَّغْنِي أَنَّ أَحَدَهُمْ يُحْرَقُ فِي الْيَوْمِ أَلْفَ مَرَّةٍ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْحُسْرَانُ الْمُمِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن صَرَّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك. وقال غيرهم: على طَرْفٍ. ومنه حَرْفُ الجبل. أي: طَرْفُهُ، أي: دخل في الدين على طَرْفٍ، فإن وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقْرَأَ، وَإِلَّا انْتَمَرَ.

[٤٦٦٢] وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قال: كان الرجل يقدِّم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت خَيْلَهُ، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خَيْلَهُ قال: هذا دين سَوْءٌ ^(١).

[٤٦٦٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان ناسٌ من الأعراب يأتون النبي - ﷺ - فيسألون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خضب وعام ولادٍ حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح. فتمسكوا به. وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولادٍ سَوْءٌ وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير. فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ ^(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدِمَ المدينة، وهي أرض وبيثة، فإن صحَّ بها جسْمُهُ، وتنجت فرسه مَهْرًا حسنًا، وولدت امرأته غلاماً، رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبَتْ منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيراً. وإن أصابته فتنة - والفتنة: البلاء - أي: وإن أصابه وجمع المدينة، وولدت امرأته جاريةً،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٢.

(٢) إسناده لا بأس به لأجل جعفر بن أبي المغيرة، لكن له شواهد كما ترى.

وتأخّرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرّاً. وذلك الفتنة. وهكذا ذكّر قتادة، والضحاك، وابن جرير، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلّحت له دُنياه أقام على العبادّة، وإن فسدت عليه دُنياه وتغيّرت انقلب فلا يقيم على العبادّة إلا لِمَا صلّح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدّة أو اختبارٌ ضيقٌ ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَنَ وَجْهِهِ﴾، أي: ارتدّ كافراً.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كَفَرَ بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَكْبَرُ﴾، أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستزيرقها، وهي لا تنفعه ولا تنصره، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْأَبْعِيدُ﴾ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ سَوَّاهُ قُرْبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، أي: ضرّوه في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فَضَرُّهُ مُحَقَّقٌ مَتَيْقِنٌ. وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْمَعْتَبِرُ﴾، قال مجاهد: يعني الوثن. يعني يشس هذا الذي دَعَا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَيْسَ الْمَعْتَبِرُ﴾، وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لَيْسَ ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَنَ وَجْهِهِ﴾. وقول مجاهد إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سُكْنَى الدرجات العاليات، في روضات الجنّات. ولما ذكر تعالى أنه أضلّ أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَصْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ

يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن يصره الله محمداً - ﷺ - في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾، أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: سماه بيته، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: ليتوصّل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدّر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غايظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿١٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِضُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سَوْءُ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾. قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾، أي: وأصحاح في لفظها ومعناها، حجة

من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، أي: يُضِلُّ من يشاء ويَهْدِي من يشاء، وله الحكمة الثامنة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورخمته وعذله، وعلمه وقهره وعظمتيه، لا معقَّب لحكميه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

يخبرُ تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصَّابِغِينَ - وقد قَدَّمنا في سورة البقرة التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا قَبَدُوا غير الله مَعَهُ؛ فإنه تعالى ﴿يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيدٌ على أفعالهم، حفيظٌ لأقوالهم، عليمٌ بسرَّاتهم، وما تَكُنُّ ضَمَائِرُهُمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

يخبرُ تعالى أنه المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له؛ فإنه يسجدُ لعظمته كلُّ شيء طوعاً وكرهاً، وسجودُ كلِّ شيءٍ ممَّا يختصُّ به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ بَرًّا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَتِنًا ظِلْمَةٌ عَنِ السَّمَاوَاتِ سُبْحًا لِلَّهِ وَهُوَ دَجْرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾، أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجنِّ والدوابِّ والطير، ﴿وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾، إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُدَّت من دون الله، فبيَّن أنها تسجدُ لخالقها، وأنها مربوبةٌ مُسَخَّرَةٌ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

[٤٦٦٤] وفي الصحيحين عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «أتندري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجدُ تحت العرش، ثم تستامرُ قيوثك أن يقال لها: ارجعي من حيثِ جِئتِ» (١).

[٤٦٦٥] وفي المسند وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْفَانِ من خَلْقِ الله، وإنهما لا يَنْكسِفَانِ لموت أحدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، ولكنَّ الله - عزَّ وجلَّ - إذا تجلَّى لشيءٍ من خَلْقِهِ خَشَعَ له» (٢). وقال أبو العالية: ما في السماءِ نجمٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ إلا يَقَعُ لله ساجداً حين يَغِيب، ثم لا يَنْصَرِفُ حتى يُؤدَّنَ له، فيأخذُ ذات اليمين حتى يرجع إلى مَطْلَعِهِ. وأما الجبالُ والشجرُ فسجودُهُما بَقِيَّةٌ لظلالهما عن اليمين والشمال.

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه النسائي ١٤١/٣ وابن ماجه ١٢٦٢ من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرجه أحمد ٢٦٧/٤ من طريق أبي قلابة عن رجل عن النعمان بن بشير مرفوعاً، وهذا هو الصواب أنه عن رجل، وأبو قلابة كثير الإرسال. فالإسناد ضعيف، والوهن فقط في عجزه، وأما أصله ففي الصحيحين.

[٤٦٦٦] وعن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائمٌ كأنني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم! اكتب لي بها عندك أجراً، وصنع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتَهُ وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١). رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جبان في صحيحه. وقوله: ﴿وَالذَّوَابُّ﴾ أي: الحيوانات كلها.

[٤٦٦٧] وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله - ﷺ - نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فربت مركوبة خير وأكثر ذكراً لله من رآبها^(٢). وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أي: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَنْ يُؤِنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيضرك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف.

[٤٦٦٨] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة. وأمرت بالسجود فأبى، فلي النار»^(٣) رواه مسلم.

[٤٦٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالوا: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بشر بن هاشم أبو مصعب المصعب قال: سمعت عتبة بن عامر يقول: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدةتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما^(٤). ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة، به، وقال الترمذي: «ليس هو بقوي». وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما نقموا عليه تذييليه.

(١) أخرجه الترمذي ٥٧٩ و ٣٤٢٤ وابن ماجه ١٠٥٣ وابن حبان ٢٧٦٨ وابن خزيمة ٥٦٢ والحاكم ٢١٩/١ و ٢٢٠ والمقبلي ٢٤٣/١ والمزي في «تهذيب الكمال» ٣١٤/٦ كلهم من حديث ابن عباس. صححه الحاكم، وقال: رواه مكين لم يذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح! ووافقه الذهبي! وقال الترمذي: غريب، وهذا منه توهين للحديث. ومدار الحديث على الحسن بن محمد بن عبيد الله، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه، وقال الذهبي: فيه جهالة، وقال في المغني: غير معروف، وقال في الكاشف: غير حجة.

تنبيه: وقد سقط «حسن بن محمد» من صحيح ابن خزيمة، لهذا صححه محققه جرياً على ظاهره! ووافقه الألباني! راجع كلام الشيخ شعيب في «الإحسان».

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ من حديث معاذ بن أنس وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة عن زياد بن فائد عن سهل بن معاذ، ثلاثهم ضعفاء. وله شاهد عن وابصة أخرجه الطبراني ١٤٤/٢٢ وفيه بشر بن عبيد ضعيف متروك.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٨١ وابن ماجه ١٠٥٢ وأحمد ٤٤٣/٢ وابن حبان ٢٧٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود ١٤٠٢ والترمذي ٥٧٨ وأحمد ١٥١/٤ والحاكم ٢٢١/١ والدارقطني ٤٠٨/١ وفيه مشرح مقبول، وصدر الحديث حسن يتأيد بما بعده. ولفظ «فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما» تفرد به ابن لهيعة، وهو واه، وانظر القرطبي ٣١٧٠ و ٣١٦٩.

[٤٦٧٠] وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جثيب، عن خالد بن معدان أن رسول الله - ﷺ - قال: «فصلت سورة الحج على القرآن بسجدة»^(١). ثم قال أبو داود: وقد أسيد هذا - يعني من غير هذا الوجه - ولا يصح.

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن غياث، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدة في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فصلت بسجدة.

[٤٦٧١] ورؤي أبو داود وابن ماجه: من حديث الحارث بن سعيد المتقي، عن عبد الله بن مثنى، عن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفضل، وفي سورة الحج سجدة^(٢). فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَمْ يَبِ مِنْ تَارِ يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَمْتَعِ مِنْ حَبِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

[٤٦٧٢] ثبت في الصحيحين، من حديث أبي مجليز، عن قيس بن عباد، عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، نزلت في حمزة وصاحبه، وعتبة وصاحبه يوم بزوا في بدر^(٣). لفظ البخاري عن تفسيرها.

[٤٦٧٣] ثم قال البخاري: حدثنا حجاج بن مثقال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجليز، عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخضومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة^(٤). انفرد به البخاري.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلح الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وقال شعبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: مُصَدِّقٌ وَمُكَدِّبٌ. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث. وقال - في رواية هو وعطاء في هذه

(١) هذا مرسل، أخرجه أبو داود في «المراسيل» ص ١٣ وهو يشهد لما قبله، ويتأيد بما بعده سواء الموقوف، أو المرفوع. وذلك لاختلاف خارجه. والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود ١٤٠١ وابن ماجه ١٠٥٧ والحاكم ٢٢٣/١ والدارقطني ٤٠٨/١ وقال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» ٦/٢: حسنه المنذري، والنووي، وضعفه عبد الحق، وابن القطان، وابن منين مجهول، والراوي عنه لا يعرف أيضاً. اهـ. لكن يتأيد بما قبله، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٤٣ ومسلم ٣٠٣٣ والنسائي في «التفسير» ٣٦١ وابن ماجه ٢٨٣٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٤ والنسائي في «التفسير» ٣٦٢.

الآية - : هم المؤمنون والكافرون. وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ حَصَّانٍ أَخْصَصُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾، قال: هي الجنة والنار، قالت النار: جَعَلَنِي لِلْمُتَّقِيَةِ. وقالت الجنة: جَعَلَنِي لِلرُّحْمَةِ. وقول مجاهد وعطاء: إِنَّ المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قِصَّة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يُريدون نُصْرَةَ دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير. وهو حسن. ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾، أي: فُصِّلَتْ لهم مُقَطَّعات من نار. قال سعيد بن جبير: من نُحَّاس وهو أشدُّ الأشياء حَرَارَةً إذا حمي. ﴿يُصَبُّ مِنْ قَوْقِرٍ رُّوْسُهُمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَاللَّكُودُ ﴿٢٠﴾﴾، أي: إذا صُبَّ على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحارُّ في غاية الحرارة. وقال سعيد: هو النَّحَّاسُ المَذَابُ، أذاب ما في بُطُونِهِم من الشَّخْم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تُدَوَّب جُلُودُهُم، وقال ابن عباس وسعيد: تَسَاقَطُ.

[٤٦٧٤] وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سعيد بن زيد، عن أبي السَّمْح، عن ابن حَجْبِرَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي - قال: ﴿إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجُمُجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ﴾. ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وقال: «حسن صحيح». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي نُعَيْم، عن ابن المبارك، به. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الخوارزمي، سمعت عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكزَّهه، قال: فيرفع بمقمة معه فيضرب بها رأسه، فيفزع دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَاللَّكُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

[٤٦٧٥] وقوله: ﴿وَلَكُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - قال: «لو أن مقمعا من حديد وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانُ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ» (٢١).

[٤٦٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ - : «لو ضربَ الجبلُ بمقمع من حديد لفتت ثم عاد كما كان. ولو أن دلوًا من عُسَاقِي يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا» (٢٢). وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾، قال: يُضْرَبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ عَضْوٍ عَلَى جِوَالِهِ، فَيَدْعُونَ بِالشُّبُورِ.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوهَا مِنَّا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٥٨٢ والطبري ٢٤٩٩٣ والبيهقي في «البعث والنشور» ٥٧٩ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. والصواب أنه ضعيف لضعف سعيد بن زيد مداره عليه، والراجح وقفه.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٩/٣ وأبو يعلى ١٣٨٨ والحاكم ٤/٦٠٠ ح ٨٧٧٣ كلهم من حديث أبي سعيد، وإسناده أحمد ضعيف، له علتان ابن لهيعة، ودراج، وقد تويع ابن لهيعة في المستدرک، وعلته فقط دراج، وهو ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها. ومع ذلك صححه الحاكم وسكت الذهبي! لكن تكلم الذهبي على دراج في مواضع من المستدرک بقوله: ذو منكر.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٧٧ وأحمد ٨٣/٣ وفيه دراج وابن لهيعة، وانظر ما قبله. لكن يتساهل في أحاديث الترهيب كما نص عليه العلماء.

سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ . وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ، قال: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون. وقال الفضيل بن عياض: والله ما طبعوا في الخروج، إن الرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها، وترددهم مقامعها. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكْفَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار - عياداً بالله من حالهم - وما هم فيه من العذاب والثكال والحرق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ، أي: تتحرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصفرونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ ، من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ، أي: في أيديهم.

[٤٦٧٧] كما قال النبي - ﷺ - في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(١). وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها - أي: سوازه منها - لرد شعاع الشمس، كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ، في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، استبرقه وسنديه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُفْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوفٌ أُسَاوِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمْتُمْ رَبِّهِمْ سَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢].

[٤٦٧٨] وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(٢). قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ . وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ، كقوله: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْتِيهِمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَيْنٍ سَلِيمَةٍ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُفِّرْتُمْ فِيهَا حَرِيَّةً وَسَلَامًا﴾ ، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يروعون به ويقرعون

(١) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٦.

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٥٨٣٤ ومسلم ٢٠٦٩ ج ١١ والنسائي في الكبرى ٩٥٨٤ من حديث عبد الله بن الزبير عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وليس فيه ذكر الديباج، وإنما ورد ذكره في حديث حذيفة بن اليمان عند البخاري ٥٦٣٣ ومسلم ٢٠٦٧.

به، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله: ﴿وَهُدُوا لَكُمْ صِرَاطَ الْمَسِيدِ﴾، أي: إلى المكان الذي يَحْمَدُونَ فيه رَبِّهِمْ، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم،

[٤٦٧٩] كما جاء في الصَّحِيح: «إنهم يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ، كما يُلْهَمُونَ التَّنْفِيسَ»^(١). وقد قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا لَكُمْ الصِّرَاطَ مِنَ الْقَوْلِ﴾، أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكارُ المشروعة. ﴿وَهُدُوا لَكُمْ صِرَاطَ الْمَسِيدِ﴾، أي: الطَّرِيقَ المستقيم في الدنيا. وكلُّ هذا لا ينافي ما ذكرناه. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مُنْكَرًا على الكفار في صَدْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عن إتيانِ المسجدِ الحرامِ، وقَضَاءِ مناسِكَهِمْ فيه، ودَعْوَاهِمُ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ: إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا النَّسْتُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وفي هذه الآية دليلٌ أنها مَدِينَةٌ، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَتَعَلَّقُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ومن صِفَتِهِمْ مع كُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ والمسجدِ الحرامِ، أي: ويَصُدُّونَ عَن المسجدِ الحرامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. وهذا التركيبُ في هذه الآية كقولهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، أي: ومن صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ. وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُضُوءِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وقد جَعَلَهُ اللهُ شَرْعًا سَوَاءً، لا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ وَالنَّائِي عَنهُ الْبَعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ، ومن ذلك استواءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: يَنْزِلُ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وقال مجاهد: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أهلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِيهِ سَوَاءً فِي الْمَنَازِلِ، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قَتَادَةَ: سَوَاءً فِيهِ أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ. وهذه المسألةُ اختلفتَ فيها الشافعيُّ وإسحاقُ بن راهويه بمسجدِ الْخَيْفِ، وأحمدُ بن حنبلٍ حاضرٌ أيضًا، فذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن رِبَاعَ مَكَّةَ تَمْلِكُ وَتُورَثُ وَتُؤَجَّرُ، واحتجَّ بحديثِ الزُّهري، عن علي بن الحُسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال:

[٤٦٨٠] قلت: يا رسولَ الله، أتَنْزِلُ غَدَاً فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فقال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ من رِبَاعٍ؟ ثم قال: «لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ»^(٢). وهذا الحديثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وبما تَبَيَّنَ أن عمر بن الْخَطَّابِ اشْتَرَى مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةَ دَارًا بِمَكَّةَ، فَجَعَلَهَا سِجْنًا بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ. وبه قال طائفةٌ من السلفِ، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاقُ بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تُؤَجَّرُ. وهو مذهبُ طائفةٍ من السلفِ، ونصَّ عليه مجاهدٌ وعطاء.

(١) تقدم في تفسير سورة يونس عند آية: ١٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٨٢ و ٤٢٨٣ ومسلم ١٣٥١ وأبو داود ٢٩١٠ وابن ماجه ٢٧٣٠ وأحمد ٢٠١/٥ وابن حبان ٥١٤٩ والبيهقي ٣٤/٦ واللفظ للبخاري.

[٤٦٨١] واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة؛ عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نضلة قال: تُوْفِي رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباغ مكة إلا السوائب، من احتاج سَكَن، ومن استغنى أسكَن^(١).

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها. وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحَرَم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبَوَّب دور مكة، لأن ينزل الحاج في عَرَساتها، فكان أول من بَوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجرأ، فأردت أن أتخذ بابين يحسان لي ظهري قال: فذلك إذا. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن مجاهد: أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء. قال: وأخبرنا معمر، عن سمع عطاء يقول: ﴿سَوَاءَ الْمَنِكْفِ فِيهِ وَالْبَاءِ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا. ورَوَى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً. وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتوزت ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة. والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَطْلُرُ نَفَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَبَّتْ يُدُومَةُ أَلْدُهْنُ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تَبَّتْ الدُهْنُ، وكذا قوله، ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ﴾، تقديره الحادأ، وكما قال الأعشى:

ضَمِنْتُ بِرِزْقِي عِيَالِنَا أَرْمَاحِنَا
بَيْنَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحِ الْأَجْرَدَا
وقال الآخر:

بَوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشُّكَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَهَانَ^(٢)
والأجود أنه ضَمَّنَ الفعل هاهنا معنى «يَهْمُ»، ولهذا عداه بالياء، فقال: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ﴾، أي: يَهْمُ فيه بامرٍ فطبيع من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿يَطْلُرُ﴾، أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتاوِّل، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَطْلُرُ﴾: يشرك. وقال مجاهد: أن يُعَبَّدَ فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَطْلُرُ﴾ هو أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان، أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا قتل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال مجاهد: ﴿يَطْلُرُ﴾، يعمل فيه عملاً سيئاً. وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب التاوي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

[٤٦٨٢] حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السدي: أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله - يعني ابن مسعود - في قوله: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَطْلُرُ﴾، قال: لو أن رجلاً أراد فيه بالحاد يظلم، وهو بعدن آيين، لأذاه الله من العذاب الأليم. قال شعبة: هو رَفَعَهُ لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رَفَعَهُ^(٣). ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به. قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رَفَعَهُ، ولهذا صَمَّم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان

(١) أخرجه ابن ماجه ٣١٠٧، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح عن شرط مسلم.

(٢) الشث: شجر طيب الريح، مَر الطعم يُدبغ به. والمرخ: شجر من العضاء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الاشتعال يقتلح به. والشبهان: من الرياحين، وهو النمام.

(٣) أخرجه أحمد ٤٠٧١ وأبو يعلى ٥٣٨٤ والبزار ٢٢٣٦، والوهم في رفعه من قبل السدي، فإنه تكلم فيه غير واحد، بل وضعه بعضهم. والله أعلم.

الثَّورِيَّ، عن السُّدِّيِّ، عن مُرَّةَ، عن ابنِ مَسْعُودٍ مَوْقُوفًا. والله أعلم. وقال الثَّورِيَّ، عن السُّدِّيِّ، عن مُرَّةَ، عن عبد الله قال: ما من رَجُلٍ يَهْمُ بِسَيِّئَةٍ فَتَكْتَبَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا بَعَدَنَ أَبِينَ هَمَّ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا بِهَذَا الْبَيْتِ لِأَذَاةِ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ. وكذا قال الضُّحَّاكُ بن مَرْحَمٍ. وقال سفيان الثَّورِيَّ، عن منصور، عن مجاهد: إلْحَادٌ فِيهِ: لا والله، وَيَلَى وَاللَّهِ. وَرُوِيَ عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وقال سعيد بن جُبَيْرٍ: شَتْمُ الْخَادِمِ ظَلَمٌ فَمَا قَوَّه. وقال سفيان الثَّورِيَّ، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْلَمِ﴾، قال: تِجَارَةُ الْأَمِيرِ فِيهِ. وعن ابنِ عُمَرَ: بَيْعُ الطَّعَامِ بِمَكَّةَ الْإِلْحَادُ. وقال حَبِيبُ بن أَبِي ثَابِتٍ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْلَمِ﴾، قال: الْمُحْتَكِرُ بِمَكَّةَ. وهكذا قال غيرُ واحد.

[٤٦٨٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية: أن رسول الله - ﷺ - قال: «احتكأُ الطعامِ بِمَكَّةَ الْإِلْحَادُ»^(١).

[٤٦٨٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جُبَيْرٍ قال: قال ابنُ عباسٍ في قول الله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْلَمِ﴾، قال: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَنَسٍ أن رسول الله - ﷺ - بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجرٌ والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مَكَّةَ، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْلَمِ﴾، يعني من لجأ إلى الحرام بالحداد يعني بميل عن الإسلام^(٢). وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿الفيل: ٤ - ٥﴾، أي: دمرهم وجعلهم عبدةً ونكالا لكل من أراد به سوء.

[٤٦٨٥] ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال: «يَغزُو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم»^(٣). . . الحديث.

[٤٦٨٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَّاسَةَ، حدثنا إسحاق بن سَعِيدٍ، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر^(٤) عبد الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إنه سيلحد فيه رجلٌ من قُرَيْشٍ، لو تَوَزَّنَ ذُنُوبَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَجَحَتْ»^(٥)، فانظر لا تكونه.

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٠٢٠، وله علتان: موسى بن باذام قال في «التقريب»: مجهول. وقال الذهبي في «اليزان» لا يعرف، والعللة الثانية عمارة بن ثوبان، قال في «التقريب»: مستور.

(٢) إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة، ضعفه الجمهور، وعطاء بن دينار هو الهذلي، قال أحمد بن صالح: تفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبيرة صحيفة، ليس فيها ما يدل على أنه سمع منه، وهذا اختاره أيضاً أبو حاتم الرازي، راجع اليزان ٥٦٣٨.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢١١٨ وابن حبان ٦٧٥٥.

(٤) كذا وقع في المسند والمجمع، وقد رجح العلامة أحمد شاكر، كون الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص، لا من رواية ابن عمر. راجع كلامه ٦٢٢٠.

(٥) أخرجه أحمد ١٣٦/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٨٥/٣ وقال: ورجاله ثقات.

[٤٦٨٧] وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو ابن الزبير: وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهدُ سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: يُحَلُّها ويُحَلُّ به رَجُلٌ من قريش، لو وُزِنَتْ ذنوبُه بذنوب الثقلين لوزنتها. قال: فانظر لا تكون هو^(١). لم يُخرجه أحدٌ من أصحاب الكُتُب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَِيبٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تفرُّيع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّت من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلَّمه له، وأذن له في بنائه. واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يُبن قبله. كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر:

[٤٦٨٨] قلتُ يا رسول الله، أي مسجدٍ وُضِعَ أولُ؟ قال: المسجدُ الحرام. قلت: ثم أيُّ؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعمائة سنة^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدًا نَأْتِيهِمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتَ اللَّطَائِفِينَ وَالْمَكِينِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قَدَّمنا ذكر ما وُرد في بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾، أي: ابنه على اسمي وخدي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، والقائمين، أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة، لأنهما لا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصِمِينَ بِالْبَيْتِ، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، أي: ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سميعة من حجر أو مدر أو شجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة:

(١) إسناده على شرطهما، أخرجه أحمد ١٩٦/٢ و٢١٩ ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» ٣/٢٨٤ - ٢٨٥.

وكون الحجاج هو المراد بالحديث أقرب من كونه ابن الزبير، فالحجاج لم يقتصر على رمي الكعبة بالمنجنيق، بل قتل عشرات الآلاف من المسلمين، فجزاه الله بما كسبت يده.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

«لِيكَ اللَّهُمَّ لِيكَ». هذا مضمون ما رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردنا ابن جرير، وابن أبي حاتم مطولة. وقوله: «يَأْتُوكَ رِكَاكًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَيْبِي»، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج ركباً، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم. وقال وكيع، عن أبي العَمَيْس، عن أبي حنيفة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما أسى على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً، إن الله يقول: «يَأْتُوكَ رِكَاكًا». والذي عليه الأكثرون أن الحج ركباً أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ - فإنه حج ركباً مع كمال قوته عليه السلام. وقول: «يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ»، يعني طريق، كما قال: «وَعَمَلْنَا فِيهَا رِجَالًا وَنُكَلًا» [الأنبياء: ٣١]. وقوله: «عَيْبِي»، أي: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدّي، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان، والثوري، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: «فَجَعَلْ أَوْدَةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَلَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْأَنْفُسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ

الْعَيْبِيُّ ﴿٢٨﴾

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البذن والريح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» [البقرة: ١٩٨]. وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ»، قال شعبة وهشيم، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر. وعلقه البخاري عنه، بصيغة الجزم به، ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

[٤٦٨٩] وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَزْرَةَ، حدثنا شُعْبَةُ، عن سُلَيْمَانَ، عن مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ - قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل يخرج يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَزَجَعْ بِشَيْءٍ». ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عَمْرٍو، وأبي هُرَيْرَةَ، وعبد الله بن عَمْرٍو، وجابر. قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حديثه.

[٤٦٩٠] فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عَمْرٍو قال: قال رسول الله ﷺ -: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر؛ فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»^(٢). وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٩٦٩ والترمذي ٧٥٧ وأبو داود ٢٤٣٨ وابن ماجه ١٧٢٧ وأحمد ٢٢٤/١.

(٢) أخرجه أحمد ٧٥/٢ و١٣١ والبيهقي في «الشعب» ٣٧٥٠ وإسناده غير قوي لأجل يزيد، لكن للحديث شواهد يحسن بها.

ابن عُمَرَ، بنحوه. وقال البخاري: وكان ابنُ عُمَرَ، وأبو هُرَيْرَةَ يخرجان إلى السُّوق في أيام العشر، فيُكَبِّران ويُكَبِّر الناس بتكبيرهما.

[٤٦٩١] وقد رَوَى أحمدُ عن جابر مرفوعاً: «أن هذا هو العَشر الذي أقسمَ الله به في قوله: ﴿وَالْقَبْرِ ﴿١﴾ وَليَالِي عَشْرِ ﴿٢﴾﴾^(١). وقال بعضُ السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَّتْهَا بِمَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

[٤٦٩٢] وفي سُنَنِ أَبِي داوُدَ: أن رسولَ الله - ﷺ - كان يَصُوم هذا العَشر^(٢). وهذا العشر مشتمل على يوم عَرَفة.

[٤٦٩٣] والذي ثَبِت في صحيح مسلم عن أبي قَتَادَةَ - رضي الله عنه - قال: سئل رسولُ الله - ﷺ - عن صيام يوم عرفة، فقال: أحْتَسِبُ على الله أن يُكَفِّرَ السنةَ الماضية والآتية^(٣). ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحجِّ الأكبر، وقد وَرَدَ في حديثٍ أنه أفضلُ الأيام عند الله. وبالجملة فهذا العَشرُ قد قيل: إنه أفضلُ أيام السنة، كما نَطَقَ به الحديث، فضله كثيرٌ على عشرِ رمضانِ الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فَرَضِ الحجِّ فيه. وقيل: ذلك أفضلُ لاشتماله على ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر. وتَوَسَّطَ آخرون فقالوا: أيام هذا أفضلُ، وليالي ذلك أفضلُ. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثانٍ في الأيام المعلومات؛ قال الحكم، عن مُقَسِّم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عُمَرَ، وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمدُ بن حنبلٍ في رواية عنه.

قول ثالث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المَدِينِي، حدثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا ابن عَجَلان، حدثني نافع: أن ابنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هُنَّ جَمِيعُهُنَّ أربعةُ أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثةُ أيام بعد يوم النحر. هذا إسنادٌ صحيحٌ إليه وقاله السُّدِّي. وهو مذهبُ الإمام مالك بن أنس، ويُعَضَّدُ هذا القولُ والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، يعني به ذَكَرَ الله عند ذبحها.

قولٌ رابعٌ: إنها يومُ عَرَفةَ، ويوم النحر، ويومٌ آخرُ بعده. وهو مذهبُ أبي حنيفة. وقال ابنُ وهب: حدثني ابنُ زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يومُ عَرَفةَ، ويوم النحر، وأيام التَّشْرِيقِ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، يعني الإِبِلَ والبقرَ والغنمَ، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿فَنَبِيئَةٌ أَرْسَلْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٣]... الآية وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَلْبَسُوا أَبْكَاسَ الْقَبَرِ﴾، استدُلُّ بهذه الآية مَنْ ذَهَبَ إلى وُجُوبِ الأكل من الأضاحي. وهو قولٌ غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب.

[٤٦٩٤] كما ثَبِتَ أن رسولَ الله - ﷺ - لما نَحَرَ هَذِيهَ أَمَرَ من كُلِّ بَدَنَةٍ بِيَضْعَةٍ فَتَطْبُخُ، فأكلَ من لَحِيحِهَا، وَحَسَا من مَرَقِهَا^(٤). وقال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أَحِبُّ أن يأكل من أَصْحِيَّتِيه، لأن الله يقول:

(١) يأتي في سورة الفجر، إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٤٣٧ وإسناده حسن لكن لفظه «تسع ذي الحجة» بدل «العشر» وانظر صحيح أبي داود ٢١٢٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٢ وأبو داود ٢٤٢٥ والترمذي ٧٥٢ وابن ماجه ١٧٣٠ وابن حبان ٣٦٣٢.

(٤) صحيح. هو بعض حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ أخرجه مسلم ١٢١٨.

﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾. قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك. وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾، قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وزوي عن مجاهد، وعطاء، نحو ذلك.

قال هشيم، عن حسين، عن مجاهد في قوله ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأصاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطِعُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحي، ونصف للفقراء. والقول الآخر أنها ثلثة أجزاء، ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به، لقوله في الآية الأخرى: ﴿كُلُوا مِنهَا وَأَطِعُوا الْفَاقِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وسيأتي الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة. وقوله: ﴿الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، والفقير: المتعفف. وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزمن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلّ الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، قال: التفت: المناسك. وقوله: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني نحر ما نذر من أمر البذن. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي. وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾، قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل. وقال عكرمة: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾، قال: حجهم.

وكذا روى الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ﴾، قال: نذر الحج. وكل من دخل بالحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمي الجمار، على ما أمروا به. وزوي عن مالك نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبي جهمرة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن أجز المناسك الطواف بالبيت قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ - فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ بزمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وخلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت.

[٤٦٩٥] وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «أبزر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم الثقة. ولهذا طاف رسول الله ﷺ - من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين، لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٥٥ ومسلم ١٣٢٨ والبيهقي ١٦١/٥.

[٤٦٩٦] ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن هشام بن حجير، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَبِطَوْفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله - ﷺ - من وزائه^(١). وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلَبِطَوْفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال: لأنه أول بيت وُضِعَ للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سُمِّيَ البيت العتيق، لأنه أعتق يوم العزق زمان نوح. وقال خصيف: إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نجيع، وليث، عن مجاهد: أعتق من الجابرة أن يُسَلِّطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرْذَءَ أحدٌ بسوءٍ إلا هلك. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجابرة.

[٤٦٩٧] وقال الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»^(٢). وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل البخاري، عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحاً^(٣). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلًا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعليها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾، أي: ومن يَحْتَنِبِ معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال ابن جرير: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾، قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

(١) إسناده ضعيف، فيه راو لم يسم.

(٢) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والحاكم ٣٨٩/٢ ح ٣٤٦٥ والطبري ٢٥١١٧، صححه الحاكم على شرط البخاري، وسكت الذهبي. وقال الترمذي: وقد روي مرسلًا، ثم ساق إسناده وكذا الطبري ٢٥١١٨ كلاهما عن الزهري مرسلًا، ومراسيل الزهري واهية، كما هو مقرر في كتب التراجم. والمتصل ضعيف، تفرد بوصله عبد الله بن صالح كاتب الليث، وهو وإن روى له البخاري - لكن كان ذلك في أثناء شبابه ثم كبر وفسد بأخرة - قال أبو حاتم: أخرج أحاديث في آخر عمره، أنكرها عليه، ثرى أنها مما افتعل خالد بن نجيع، وكان أبو صالح يصحبه، وقال ابن حبان: كان في نفسه صدوقًا إنما وقعت المناكير في حديثه من قبل جاره له. قال ابن خزيمة: كان له جار يضع له أحاديث ويكتبها بخط شبه خطه، ويرميها في داره. وقال صالح جزرة: هو عندي ممن يكذب اهد راجع الميزان، فالحديث ضعيف، وحسبه الوقف على ابن الزبير.

(٣) كذا وقع في سائر النسخ، وفي العبارة غموض، وبيانه هو أن الطبري ذكر أفعالاً مختلفة، في تسمية البيت «البيت العتيق» ثم قال: وأرجح الأقوال قول ابن زيد، غير أن الذي روي عن ابن الزبير أولى بالصحة، إن كان صحيحاً اهد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُشْرِكُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: أحللتنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُشْرِكُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: من تحريم التيسة والذم ولحم الخنزير وما أول لغير الله يوه والمخنقة والموقدة والمترددة والتطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم... الآية، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة. وقوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الاعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور.

[٤٦٩٨] وفي الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله - ﷺ -: ألا أتبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى؛ يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان منكثاً فجلس - فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زاد يكررها، حتى قلنا: ليته سكت^(١).

[٤٦٩٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن قاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله - ﷺ - خطيباً فقال: يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٢). وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن مزوان بن معاوية، به. ثم قال: غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي - ﷺ -.

[٤٧٠٠] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العصفري، عن أبيه: عن حبيب بن النعمان الأسدي، عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله - ﷺ - الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله - عز وجل - ثم تلا هذه الآية: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور الشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ﴾، أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه ويُعيد عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: سقط منها، ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطُّيُورُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء: ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾، أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه. ولهذا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٧٦ ومسلم ٨٧ والترمذي ١٩٠١.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٢٩٩ وأحمد ١٧٨/٤ و٢٣٣ بهذا الإسناد، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، ولا نعرف لأيمن هذا سماعاً من النبي ﷺ؛ وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٩٩ والترمذي ٢٣٠٠ وابن ماجه ٢٣٧٢ وأحمد ٢٣١/٤، قال الترمذي: هذا عندي أصح. خريم له صحبة اه والحديث معلول فهو من رواية زياد العصفري عن حبيب بن النعمان الأسدي. قال الحافظ في التقریب عقب كل: مقبول. في حين قال الذهبي في ترجمة زياد ٢٩٧٩: زياد لا يدري من هو، عن مثله. ثم ذكر هذا الحديث. أي وشيخه لا يدري من هو اه وورد عن ابن مسعود من قوله أخرجه الطبري ٢٥١٣٤ والطبراني ٨٥٦٩ وهو أصح من المرفوع. وانظر ضعيف أبي داود ٧٧٣، والله أعلم.

[٤٧٠١] جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بزوجه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرْحاً من هناك. ثم قرأ هذه الآية^(١). وقد تقدّم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه. وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في «سورة الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنتَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَعْبَهُونَهُ إِلَىٰ آلِهِمْ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمَّ لِيكَ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمَّا الْكُفْرُ فَهُوَ سَرْمَيسٌ مَّرْمُوسَةٌ يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِقَابًا ذَلِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٦٦﴾ لَكَرُ فِيهَا مَنْفَعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ جَحْمَهَا إِلَىٰ الْآيَةِ الْعَتِيقِ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى: هذا: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ﴾، أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. ومن ذلك تعظيم الهدايا والبذن، كما قال الحكم، عن يقسم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمائها واستحسانها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون. رواه البخاري.

[٤٧٠٢] وعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين^(٢) رواه أحمد، وابن ماجه. قالوا: والعفراء هي البياض بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يُجزئ أيضاً.

[٤٧٠٣] لما ثبت في صحيح البخاري، عن أنس: أن رسول الله - ﷺ - ضحى بكبشين أملحين أقرنين^(٣).

[٤٧٠٤] وعن أبي سعيد: أن رسول الله - ﷺ - ضحى بكبش أقرن فجيل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد^(٤). رواه أهل السنن، وصححه الترمذي. أي: فيه نكتة سواد في هذه الأماكن.

[٤٧٠٥] وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: أن رسول الله - ﷺ - ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجودين^(٥). قيل: هما الخصيان. وقيل: اللذان رض خضياهما، ولم يقطعهما، والله أعلم.

(١) تقدم في سورة إبراهيم كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٧/٢ والحاكم ٢٢٧/٤ من حديث أبي هريرة بلفظ: «دم عفراء أحب إلي من دم سوداوين» وفي إسناده رباح بن عبد الرحمن، وأبو ثقال، وكلاهما مقبول كما في «التقريب» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨/٤: وفيه أبو ثقال، قال البخاري: فيه نظر اهـ. وللحديث شاهد عند الطبراني في «الكبير» ١٥/٢٥ - ١٦ من حديث كبيرة بنت سفيان، وفيه محمد بن سليمان، وهو ضعيف. وله شاهد آخر من حديث ابن عباس عند الطبراني ١١٢٠١ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ ومسلم ١٩٦٦ وأبو داود ٢٧٩٤ والترمذي ١٤٩٤ والنسائي ٢٢٠/٧ وابن ماجه ٣١٢٠ وأحمد ١٧٠/٣ وابن حبان ٥٩٠٠.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٧٩٦ والترمذي ١٤٩٦ والنسائي ٢٢١/٧ وابن ماجه ٣١٢٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٥) جيد. أخرجه الحاكم ٢٢٩/٤ والبيهقي ٢٦٨/٩ من حديث أبي رافع دون قوله «موجودين» ولم أره عند ابن ماجه من حديث أبي رافع، وإنما أخرجه ابن ماجه ٣١٢٢ من حديث أبي هريرة وكذا الحاكم ٢٢٧/٤ والبيهقي ٢٦٧/٩، وله شاهد من حديث جابر، وهو الآتي وإسناده صحيح.

[٤٧٠٦] وكذا زَوَى أبو داود وابن ماجه عن جَابِرٍ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بكبشين أقرنين أملحين موجودين^(١).

[٤٧٠٧] وعن علي - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العَيْنَ والأذُنَ، ولا نُصْحِي بمقابِلَةٍ، ولا مُدَابِرَةٍ، ولا شَرْقَاءَ، ولا خَرْقَاءَ^(٢). رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

[٤٧٠٨] ولهم عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعْضَبِ القَرْزِ والأذُنِ^(٣). قال سعيد بن المُسَيَّبِ: العَضْبُ: النُّصْفُ فأكثر. وقال بعضُ أهل اللُّغَةِ: إن كُئِبِرَ قرنِها الأعلى فهي قصماء، فأما العَضْبُ فهو كسر الأسفل وأعْضَبِ الأذن قطع بعضها. وعند الشافعي أن التَّضْحِيَةَ بذلك مُجَزَّئَةٌ، لكن تُكْرَهُ. وقال أحمدٌ: لا تُجْزِئُ الأضحية بأعْضَبِ القَرْزِ والأذن، لهذا الحديث. وقال مالكٌ: إن كان الدَّمُ يسيلُ من القَرْزِ لم يُجْزِئُ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابِلَةُ: فهي التي قُطِعَ مُقَدِّمُ أذنها، والمدابِرَةُ: من مَوْجَزٍ أذنها. والشَّرْقَاءُ: هي التي قُطِعَت أذنها طُولاً، قاله الشافعي والأصمعي. والخَرْقَاءُ: هي التي خَرَقَتِ السَّمَةَ أذنها خَرْقاً مُدَوِّراً، والله أعلم.

[٤٧٠٩] وعن البراء قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أربعٌ لا تجوزُ في الأضاحي: العَوْرَاءُ البَيِّنُ عَوْرَها، والمرِيضَةُ البَيِّنُ مَرَضُها، والعَرْجَاءُ البَيِّنُ ظَلْعُها، والكسيرة التي لا تُثْقِي»^(٤). رواه أحمد، وأهل السنن، وصحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ. وهذه العيوبُ تَنْقُصُ اللَّحْمَ، لِضَعْفِها وَعَجْزِها عن استكمال الرُّعْيِ، لأنَّ الشَّاءَ يَسِقُونُها إلى المرعى، فلهذا لا تُجْزِئُ التَّضْحِيَةُ بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعي في المريضة مَرَضاً يسيراً، على قولين.

[٤٧١٠] وروى أبو داود، عن عُثْبَةَ بن عَبْدِ السَّلْمِيِّ: أن رسول الله - ﷺ - نهى عن المَصْفُورَةِ، والمُسْتَأْصَلَةِ، والبَخْقَاءِ، والمَشْيِيعَةِ والكسيرة^(٥). فالمَصْفُورَةُ قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذن. والمُسْتَأْصَلَةُ: المكسورة القَرْزِ. والبَخْقَاءُ: هي العَوْرَاءُ. والمَشْيِيعَةُ: هي التي لا تَزَالُ تُشْبِعُ خَلْفَ العَنَمِ، ولا تُتَّبِعُ لِضَعْفِها. والكسيرة: العَرْجَاءُ. فهذه العيوبُ كُلُّها مانعةٌ من الإجزاء. فأما إن طَرَأَ العيبُ بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضرُّ عيبه عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة.

[٤٧١١] وقد زَوَى الإمامُ أحمدُ، عن أبي سعيد قال: اشتريتُ كبشاً أَضْحِي به، فعدا الذئبُ فأخذ الأليةَ، فسألت النبي - ﷺ - فقال: صَحَّ به^(٦).

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه ٣١٢١ وأبو يعلى ١٧٩٢ وأحمد ٣/٣٧٥ وإسناده أحمد لا بأس به، وله شاهد عن أنس، أخرجه البخاري ٥٥٦٥ ومسلم ١٩٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٨٠٤ والترمذي ١٤٩٨ والنسائي ٢١٦/٧ وابن ماجه ٣١٤٢ وأحمد ١/٨٠ و١٤٩، وصححه الحاكم ٤/٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده غير قوي لأجل شريح بن النعمان.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٨٠٥ والنسائي ٢١٧/٧ و٢١٨ والترمذي ١٥٠٤ وابن ماجه ٣١٤٥ وأحمد ١/٨٣ و١٢٧ وابن حبان ٥٩٣١ وصححه الحاكم ٤/٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: إسناده غير قوي لأجل جري بن كليب.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٠٢ والترمذي ١٤٩٧ والنسائي ٢١٥/٧ وابن ماجه ٣١٤٤ وأحمد ٤/٢٨٤، وقال الترمذي: حسن صحيح، وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٥) ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٨٠٣ وفي إسناده أبو حميد الرعيني، وهو مجهول.

(٦) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٣/٣٢ و٨٦ وإسناده ضعيف جداً، فيه جابر الجعفي، وهو متروك، وشيخه محمد بن قرظلة، وهو مجهول.

[٤٧١٢] ولهذا في الحديث: «أمرنا رسول الله ﷺ - أن نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأُذُنَ»^(١). أي: تكون الهدية أو الأضحية حسنة سميئة.

[٤٧١٣] كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً، فأعطيني بها ثلاثمئة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أهديت نجيباً فأعطينت بها ثلاثمئة دينار، أفأبيعها واشتري بسمنها بُذناً؟ قال: لا، انحرها إياها^(٢). وقال الضحاك، عن ابن عباس: البُذُن من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والبدن والحلق: من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله تعالى: ﴿لَكُلِّ فِيهَا مَنفَعٌ﴾، أي: لكم في البدن منافع من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وزكوبها. ﴿إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَمٌّ﴾، قال مفسم، عن ابن عباس: - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿لَكُلِّ فِيهَا مَنفَعٌ إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَمٌّ﴾، قال: ما لم يستم بُذناً. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُلِّ فِيهَا مَنفَعٌ إِنَّ أَجْلِيَ مُسْتَمٌّ﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بذنة أو هدياً ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقناة، ومقاتل، وعطاء الخراساني، وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن يتنفع بها وإن كان هدياً، إذا احتاج إلى ذلك.

[٤٧١٤] كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ - رأى رجلاً يسوق بذنة، قال: اركبها. قال: إنها بذنة. قال: اركبها، ويحك! في الثانية أو الثالثة^(٣).

[٤٧١٥] وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا»^(٤). وقال شعبة، عن زهير بن أبي ثابت الأعمى، عن المغيرة بن أبي الحر، عن علي أنه رأى رجلاً يسوق بذنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، أي: محل الهدى وانتهاهؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال: «وَالْهَدْيُ مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ» [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريباً، والله الحمد. وقال ابن جرير، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كَالْبَهْمِ وَالْحَيَّةِ وَجِدْ فَلَهُ أَسْلُمُوا وَيَشْرِ الْمُنْتَهَيْنِ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِنَ الرَّزَقِ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدَّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَشْرُوعًا فِي جَمِيعِ الْمَلَلِ. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾، قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً. وقال زيد بن

(١) تقدم تحت رقم ٤٧٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود ١٧٥٦ وإسناده ضعيف لجهالة الجهم بن الجارود، وانظر ضعيف أبي داود ٣٨٥.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٦٩٠ ومسلم ٢٣٢٣ والترمذي ٩١١ والنسائي ١٧٦/٥ وابن ماجه ٣١٠٤.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٣٢٤. وأبو داود ١٧٦١ والنسائي ١٧٧/٥ وأحمد ٣٢٤/٣ وابن حبان ٤٠١٧.

أَسَلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾: إنها مَكَّةُ، لم يجعل الله لأمةٍ قطْ مَنْسَكًا غيرَها. وقوله: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتِهِ الْأَمْتِ﴾.

[٤٧١٦] كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسجد وكبر ووضع رجله على صفاحهما^(١).

[٤٧١٧] وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو نفع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت - أو قالوا -: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنة أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بكلُّ شعرةٍ حسنةٍ. قالوا: فالصوف؟ قال: بكلُّ شعرةٍ من الصوف حسنة^(٢). وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سنينه، من حديث سلام بن مسكين، به.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُكُورُ لِلَّهِ وَجِدَّ فَلَهُ أُسْلِمُوا﴾، أي: معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أُسْلِمُوا﴾، أي: أحلصوا واستسلموا لحكميه وطاعته. ﴿وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال مجاهد: المظمنين. وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجيلين. وقال عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: ﴿وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال: المظمتين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له. وأحسن ما يُفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ رَجَعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالْعَصِيدِينَ عَلَىٰ مَا أُصَابَهُمْ﴾، أي: من المصائب. قال الحسن البصري: والله لتصبرن أو لتهلكن. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾، قرأ الجمهور بالإضافة، وبقية العشرة أيضاً. وقرأ ابن السميع: «والمقيمين الصلاة» بالنصب. وقال الحسن البصري: «والمقيمي الصلاة». وإنما حذفت الثون هانئا تخفيفاً، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت. أي: المؤدبين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقربائهم وقرباتهم، ومحاويجهم، ويحسبون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في «سورة براءة».

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦)

يقول تعالى مُمتثاً على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تُهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يُهدى، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعْتِيرَ اللَّهِ وَلَا تَنْتَهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْمُدَىٰ وَلَا الْقَلْبِدَ وَلَا مَائِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: ٢]. قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ و ٥٥٦٤ ومسلم ١٩٦٦ وقد تقدم برقم ٤٧١٥.

(٢) باطل. أخرجه ابن ماجه ٣١٢٧ وأحمد ٣٦٨/٤ وابن حبان في «المجروحين» ٥٥/٣ - ٥٦. قال ابن حبان: نفع بن الحارث أبو داود، كان ممن يروي عن الثقات الموضوعات توهماً، وقال البوصيري في الزوائد: هو متروك، واتهم بوضع الحديث - اهـ.

لَكَرِّينَ شَعْتِيرِ اللَّهِ»، قال: البقرة، والبعير. وكذا روي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البذن من الإبل. قلت: أما إطلاق البذنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البذنة على البقرة، على قولين، أحدهما أنه يُطلق عليها ذلك شرعاً كما صحَّ في الحديث. ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البذنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

[٤٧١٨] كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله، قال: أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نشترك في الأضاحي، البذنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١). وقال إسحاق بن زَاهِرٍ وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة، وقد ورد به حديث في مُسْنَدِ الإمام أحمد، وسُنَنِ النسائي، وغيرهما. فإله أعلم. وقوله: ﴿لَكَرِّ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثواب في الدار الآخرة.

[٤٧١٩] وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما عجل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هزأة دم. وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»^(٢). رواه ابن ماجه، والترمذي وحسنه. وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البذن، فقيل له: تستدين وتسوق البذن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكَرِّ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

[٤٧٢٠] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نجيرة في يوم عيدي»^(٣). رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهد: ﴿لَكَرِّ فِيهَا خَيْرٌ﴾، قال: أجرٌ ومنافع. وقال إبراهيم التيمي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها. وقوله: ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً﴾.

[٤٧٢١] وعن المُطَّلِبِ بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صَلَّيْتُ مع رسول الله - ﷺ - عيد الأضحى، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عتي وعمن لم يضح من أمتي»^(٤). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

[٤٧٢٢] وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عيَّاش، عن جابر قال: ضحى رسول الله - ﷺ - - بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: ﴿وَجَّهَتْ وَجْهِي لِأَذَى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَيْفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك لله وَوَدَّكَ بُرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمثه. ثم سُمِّي الله وكبُرَ وذَبِحَ^(٥).

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٣١٨ وأبو داود ٢٨٠٩ والترمذي ٩٠٤ وابن ماجه ٣١٣٢ وابن حبان ٧٠٠٦ والبيهقي ١٦٨/٥ - ١٦٩.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي ١٤٩٣ وابن ماجه ٣١٢٦، وفي إسناده سليمان بن يزيد الكعبي، ضعيف كما في التريب.

(٣) ضعيف، أخرجه الدارقطني ٢٨٢/٤ بهذا اللفظ من حديث ابن عباس، وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك الحديث.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٨١٠ والترمذي ١٥٢٠ وأحمد ٣/٣٦٢ والحاكم ٤/٢٢٩ والبيهقي ٤/٢٨٥ وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، والمطلب بن حنطب يقال إنه لم يسمع من جابر اهـ وروي من غير هذا الوجه أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه من طريق أبي عيَّاش الزرقي عن جابر، وانظر مزيد الكلام عليه في مسند أبي يعلى ١٧٩٢.

(٥) فيه عن ابن إسحق، وابن أبي حبيب، وكلاهما مدلس، لكن يشهد لأصله ما قبله وما بعده. والله أعلم.

[٤٧٢٣] وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع: أن رسول الله - ﷺ - كان إذا ضحى اشترى كبشَيْن سَمِيئَيْنِ أقرنين أملحين، فإذا صَلَّى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مُصَلَاةٍ فذبحه بِنَفْسِهِ بِالْمُدْيَةِ، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمّتي جميعها، مَنْ شَهِدَ لَكَ بالتوحيد وشَهِدَ لي بالبلاغ». ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: هذا عن مُحَمَّدٍ وَأَلِّ مُحَمَّدٍ، فَيُطْعِمُهَا جَمِيعاً الْمَسَاكِينَ، وَيَأْكُلُ هو وأهلُه مِنْهَا^(١). رواه أحمدُ وابنُ ماجه. وقال الأعمشُ، عن أبي ظبيان، عن ابن عباسٍ في قوله: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ»، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولةٌ يدها اليسرى، يقول: «باسمِ الله والله أكبرُ، اللهم منك ولك». وكذلك رَوَى مجاهدٌ، وعلي بن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباسٍ، نحوه هذا. وقال ليثٌ، عن مجاهد: إذا عَقَلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبي نَجِيحٍ، عنه، نحوه. وقال الضحاك: تغفلُ رجلٌ واحدة فتكون على ثلاث.

[٤٧٢٤] وفي الصَّحِيحَيْنِ عن ابن عُمر: أنه أتى على رجلٍ قد أناخ بَدَنَتَهُ وهو ينحرها، فقال: ابْنَعُهَا قياماً مقيدةً، سُنَّةُ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ^(٢).

[٤٧٢٥] وعن جابر أن رسولَ الله - ﷺ - وأصحابه كانوا ينحرون البُذُنَ معقولةً اليُسْرَى، قائمةً على ما بقي من قوائمها^(٣). رواه أبو داود. وقال ابنُ لهيعةَ: حدثني عطاء بنُ دينارٍ، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك، قف من شِقِّهَا الأيمن، وَأَنْحَرْ من شِقِّهَا الأيسرِ.

[٤٧٢٦] وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صَفَةِ حَبَّةِ الْوَدَاعِ، قال فيه: فَتَنَحَّرَ رسولُ الله - ﷺ - بيده ثلاثاً وستين بَدَنَةً. جَعَلَ يَطْعُمُهَا بِحَزْبَةٍ فِي يَدِهِ^(٤).

وقال عبدُ الرزَّاقِ: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: «صوافن»، أي: مُعَقَّلَةٌ قياماً. وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ: من قرأها «صوافن»، قال: معقولة. ومن قرأها «صَوَافَّ»، قال: تُصَفُّ بين يديها. وقال طاووسٌ، والحسنُ، وغيرهما: فاذكروا اسم الله عليها صوافي، يعني خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وكذا رَوَاهُ مالكٌ، عن الزُّهري. وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدٍ: «صوافي»، ليس فيها شِرْكٌ كَشِرْكِ الْجَاهِلِيَّةِ لِأَصْنَامِهِمْ. وقوله: «فَإِذَا وَجَّتَ جُنُوبَهَا»، قال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: يعني سَقَطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس. وكذا قال مقاتلُ بنُ حَيَّانَ. وقال العمري، عن ابن عباس: «فَإِذَا وَجَّتَ جُنُوبَهَا» يعني نُحِرَتْ. وقال عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلم: «فَإِذَا وَجَّتَ جُنُوبَهَا» يعني ماتت. وهذا القول هو مُرَادُ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَةِ إذا نُحِرَتْ حتى تموتَ وتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا.

[٤٧٢٧] وقد جاء في حديث مرفوع: «ولا تُعْجِلُوا النَفْسَ أَنْ تَزْهَقَ»^(٥). وقد رَوَاهُ الثوريُّ في جامعه، عن أيوبَ، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن قُرَافِصَةَ الْحَقِّي، عن عُمر بن الخطاب أنه قال ذلك.

[٤٧٢٨] وَيُؤَيِّدُهُ حديثُ شَدَادِ بنِ أوسٍ في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ»، فإذا

(١) أخرجه أحمد ٨/٦ - ٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٧١٣ ومسلم ١٣٢٠ وأبو داود ١٧٦٨ وأحمد ٣/٢ - ٨٦ وابن حبان ٥٩٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود ١٧٦٧ وإسناده حسن، ويشهد له ما قبله.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٢١٨ وهو قطعة من حديث جابر المطول في صفة حجة النبي ﷺ.

(٥) لم أره مرفوعاً مستنداً، ولا يصح، وإنما هو موقف، انظر «فتح الباري» ٦٤١/٩.

قتلتم فأحسبوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسبوا الذبح، وليأخذ أحدكم شفرته، وليأخذ شفرته، وليأخذ شفرته، وليأخذ شفرته. (١)

[٤٧٢٩] وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ -: «ما قطع من البهيمة وهي حيّة فهو ميتة» (٢). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصحّحه.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، قال بعض السلف. قوله: ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾، أمر بإباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يجب. وهو وجه لبعض الشافعية. واختلف في المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطته وهو في بيته. والمعتر: الذي يتعرض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف، والمعتر: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وعكرمة، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومقاتل بن حيان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذي يتنع عليك ويسألك. والمُعْتَرُّ: الذي يغتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشماخ:

لَمَّا لَمَزَهُ يُضْلِحُهُ فَيُنْفِي مَفَاقِرَهُ، أَعْفُ مِنَ الْقُنُوعِ

قال: يعني من السؤال. وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يطوف، والمعتر: الصديق والضعيف الذي يزور. وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانع: جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك. والمعتر: الذي يغتريك من الناس. وعنه أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذي يغتر بالبدن من غني أو فقير. وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أتعق بيديه إذا رفعها للسؤال. والمعتر من الاعتزاز، وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء، فثلث لصاحبها يأكله. وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء، لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

[٤٧٣٠] وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيئكم عن أذخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وأذخروا ما بدا لكم» (٣). وفي رواية: «فكلوا وأذخروا وتصدقوا» (٤). وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا» (٥).

والقول الثاني: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، ولقوله في الحديث: «فكلوا وأذخروا وتصدقوا». فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٥٥ وأبو داود ٢٨١٥ والترمذي ١٤٠٩ والنسائي ٢٢٧/٧ وابن ماجه ١٣٧٠ وابن حبان ٥٨٨٢ وأحمد ١٢٣/٤.

(٢) حسن صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٥٨ والترمذي ١٤٨٠ والحاكم ٢٣٩/٤ وأحمد ٢١٨/٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن ماجه ٣٢١٦ والدارقطني ٢٩٢/٤ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم ١٢٤/٤ ووافقه الذهبي. انظر «العدة» ص ٢٩ - ٣٠ بتخريري.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٧٧ والترمذي ١٥١٠ والنسائي ٢٣٤/٧ من حديث بريدة.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ١٩٧١ وأبي داود ٢٨١٢ والنسائي ٢٣٥/٧ وابن حبان ٥٩٢٧ من حديث عائشة.

(٥) هذه الرواية عند البخاري ٥٥٦٩ وابن حبان ٥٩٢٩ من حديث سلمة بن الأكوع، لكن فيه «وأذخروا» بدل «وتصدقوا».

شيئاً. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يَضْمَنُهَا كُلُّهَا بِمَثَلِهَا أَوْ قِيمَتِهَا، وَقِيلَ: يَضْمَنُ نِضْفَهَا، وَقِيلَ: ثَلَاثُهَا. وَقِيلَ: أَدْنَى جُزْءٍ مِنْهَا. وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ.

[٤٧٣١] وَأَمَّا الْجَلُودُ، فَبِئْسَ مَسْأَلَةٌ، فِيهِ مُسْنَدُ أَحْمَدَ، عَنِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ، فِي حَدِيثِ الْأَضَاحِيِّ: «فَكُلُّوْا، وَتَصَدَّقُوا، وَاسْتَمْتِعُوا بِجُلُودِهَا، وَلَا تَبْيُغُواهَا»^(١). وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ رَخَّصَ فِي ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُقَاسِمُ الْفُقَرَاءَ ثَمَنَهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٧٣٢] مَسْأَلَةٌ: عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَتَنْحَرُ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لِحْمٍ قَدَّمَهُ لِأَهْلِيهِ، لَيْسَ هُوَ مِنَ النَّسْكِ فِي شَيْءٍ»^(٢). أَخْرَجَاهُ. فَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ أَوَّلَ وَقْتِ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَمَضَى قَدْرُ صَلَاةِ الْعِيدِ وَالْخُطْبَتَيْنِ. زَادَ أَحْمَدُ: وَأَنْ يَذْبَحَ الْإِمَامُ بَعْدَ ذَلِكَ. لَمَّا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:

[٤٧٣٣] «وَأَلَّا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ»^(٣). وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: «أَمَّا أَهْلُ السُّوَادِ مِنَ الْقُرَى وَنَحْوِهِمْ فَلَهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ إِذْ لَا صَلَاةَ عِيدٍ تُشْرَعُ عِنْدَهُمْ لَهُمْ. وَأَمَّا أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَلَا يَذْبَحُوا حَتَّى يُصَلِّيَ الْإِمَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قِيلَ: لَا يُشْرَعُ الذَّبْحُ إِلَّا يَوْمَ النَّحْرِ وَحْدَهُ. وَقِيلَ: يَوْمَ النَّحْرِ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ لِتَيْسُرِ الْأَضَاحِيِّ عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا أَهْلُ الْقُرَى فَيَوْمَ النَّحْرِ وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَقِيلَ: يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَوْمَ بَعْدَهُ لِلْجَمِيعِ، وَقِيلَ: وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ. وَقِيلَ: يَوْمَ النَّحْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، لِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:

[٤٧٣٤] «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ»^(٤). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ جَبَانَ. وَقِيلَ: إِنَّ وَقْتَ الذَّبْحِ يَمْتَدُّ إِلَى آخِرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَبِهِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو سَلْمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ. وَهُوَ قَوْلُ غَرِيبٍ. وَقَوْلُهُ: «كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِمَلِكِكُمْ فَتَشْكُرُونَ»، يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ هَذَا «سَخَّرَهَا لَكُمْ»، أَي: ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ، وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً، إِنَّ شِئْثَكُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شِئْثَكُمْ حَلَبْتُمْ، وَإِنْ شِئْثَكُمْ ذَبَحْتُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مِنْبَغٌ وَمَسَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)» [يس: ٧١ - ٧٣]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِمَلِكِكُمْ فَتَشْكُرُونَ».

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَآئِهِ النَّقْوَى وَنُكْمٌ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ عَلَى مَا هَدَيْنَاكُمْ وَنُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣٧)

يقول تعالى: إنما شرع لكم نخز هذه الهدايا والضحايا لتذكروهم عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق، لا أنه

(١) أخرجه أحمد ١٥/٤ وذكره الهيثمي في «الجمع» ٢٦/٤ وقال: وهو مرسل صحيح الإسناد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٩٥١/٥ و٩٦٥ و٥٥٤٥ ومسلم ١٩٦١ وأبو داود ٢٨٠١ والترمذي ١٥٠٨ والنسائي ٢٢٢/٧ وأحمد ٣٠٣/٤ وابن حبان ٥٩٠٦.

(٣) غريب هكذا. وأخرجه مسلم ١٩٦٤ من حديث جابر بلفظ «ولا تنحروا حتى ينحر النبي ﷺ».

(٤) أخرجه أحمد ٨٢/٤ والبيهقي ٢٩٥/٥ من طريق سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم بأتم منه، وإسناده منقطع. وأخرجه ابن حبان ٣٨٥٤ والبيهقي ٢٩٥/٩ - ٦٩٦ من طريق سليمان بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن جبير، وعبد الرحمن لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يلق جبير بن مطعم.

يناله شيءٌ من لحومها ولا دمانها، فإنَّه تعالى هو الغنيُّ عما سِوَاهُ. وقد كانوا في جاهليَّتهم إذ ذَبَّحُوا لآلهتهم وَضَعُوا عَلَيْهَا من لَحُومِ قَرَابِيئِهِمْ، وَنَضَّحُوا عَلَيْهَا من دِمَائِهَا، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا﴾. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهلُ الجاهلية ينضحون البيتَ بلحوم الإبل ودمانها، فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ -: فنحن أحقُّ أن ننضح. فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّعْرَى مِنكُمْ﴾. أي: يتقبَّل ذلك ويَجْزِي عليه؛ كما جاء في الصحيح:

[٤٧٣٥] «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

[٤٧٣٦] وما جاء في الحديث: إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتَنْعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ^(٢). كما تقدَّم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه، عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً - فمعناه أنه سبقَ لتحقيق القبولِ من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سيوى هذا، والله أعلم. وقال وكيع، عن يحيى بن مسلم ابن الضحاك: سألتُ عامراً الشعبيَّ عن جُلُودِ الْأَصْحَابِ، فقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا﴾، إن شئتُ فقبَّح، وإن شئتُ فأمسك، وإن شئتُ فتصدَّق. وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، أي: من أجل ذلك سَخَّرَ لَكُمْ البدنَ، ﴿لِتُكْفِرُوا بِاللَّهِ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾، أي: لِيُعْظَمُوهُ كما هداكم لدينه وشرعه وما يُجِبُّه وما يرضاه، نَهَاكُمْ عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقوله: ﴿وَيَنْبِئُ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: ويُنَبِّئُ يا محمدُ المحسنين، أي: في عَمَلِهِمْ، القائمِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَعَيِّنِينَ ما شَرَعَ لَهُمْ. المصدِّقِينَ بالرسولِ فيما أبلَّغَهُمْ وجاءَهُم به من عِنْدِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

مسألة: وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوريُّ إلى القولِ بوجوبِ الْأَصْحَابِ عَلَى مَنْ مَلَكَ نِصَاباً، وزاد أبو حنيفة اشتراطَ الْإِمَامَةِ أَيْضاً.

[٤٧٣٧] واختجَّ لهم بما رواه أحمدُ وابنُ ماجه بإسنادٍ رجاله كلُّهم ثقاتٌ، عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحَّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّتَانَا»^(٣). على أن فيه غرابيةً، واستنكره أحمدُ بن حنبلٍ.

[٤٧٣٨] وقال ابنُ عمر: أقامَ رسولُ الله ﷺ - بالمدينة عَشْرَ سِنِينَ يُضْحِي^(٤). رواه الترمذي. وقال الشافعي وأحمد: لَا تَجِبُ الْأَصْحَابُ، بل هي مُسْتَحَبَّةٌ.

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢١/٢ وابن ماجه ٣١٢٣ وابن عدي ٢٤٢/٦ والحاكم ٣٨٩/٢ والدارقطني ٢٨٥/٤، وإسناده غير قوي. قال البوصيري في «الزوائد»: عبد الله بن عياش، وإن روى له مسلم، فإنما أخرج له في المتابعات والشواهد. وضعفه أبو داود والنسائي وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن يونس: منكر الحديث. ووثقه ابن حبان اهـ وكرره الحاكم ٢٣١/٤ - ٢٣٢ وصححه ثم كرهه عن أبي هريرة موقوفاً، وقال: أوقفه ابن وهب، إلا أن زيادة الثقة مقبولة، وأبو عبد الرحمن المقرئ، فوق الثقة. وقال الزيلعي في نصب الراية ٢٠٧/٤: قال في «التنقيح» - ابن عبد الهادي - وكذلك رواه حيوة بن شريح وغيره عن عبد الله بن عباس مرفوعاً، ورواه جعفر بن ربيعة وعبيد الله بن أبي جعفر عن الأخرج موقوفاً وهو أشبه بالصواب اهـ فالراجح وقفه والذي رفعه ابن عياش وحده، وقد اضطرب فيه فرغته تارة، وأوقفه تارة. ورواه غيره موقوفاً. والله أعلم.

(٤) ضعيف، أخرجه الترمذي ١٥٠٧ وأحمد ٣٨/٢ وفي إسناده الحاجب بن أوطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس وقد تفرد به، فهو ضعيف. ومع ذلك حسنه الترمذي.

[٤٧٣٩] لما جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ»^(١). وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ - ﷺ - ضَحَّى عَنْ أُمَّتِهِ فَاسْقَطَ ذَلِكَ وَجُوبَهَا عَنْهُمْ. وَقَالَ أَبُو سَرِيحَةَ: كُنْتُ جَاراً لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، فَكَانَا لَا يُضَحِّيَانِ خَشِيَةً أَنْ يَتَّقِدَيِ النَّاسُ بِهِمَا. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْأَضْحِيَّةُ سَنَةٌ كِفَايَةً، إِذَا قَامَ بِهَا وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ دَارٍ أَوْ مَحَلَّةٍ أَوْ بَيْتٍ سَقَطَتْ عَنِ الْبَاقِينَ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِظْهَارُ الشُّعَارِ.

[٤٧٤٠] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَهْلُ السُّنَنِ - وَحَسَنَةُ التِّرْمِذِيُّ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلِيمٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ بِعَرَفَاتٍ: «عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أَضْحَاةٌ وَعَتِيْرَةٌ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الْعَتِيْرَةُ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجِيْرَةَ»^(٢). وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي إِسْنَادِهِ.

[٤٧٤١] وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يُضَحِّي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعَمُونَ حَتَّى تَبَاهِيَ النَّاسُ فَصَارَ كَمَا تَرَى^(٣). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَاجَةَ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ يُضَحِّي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[٤٧٤٢] وَأَمَّا مَقْدَارُ سِنِّ الْأَضْحِيَّةِ. فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسَرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّانِ»^(٤). وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ الزُّهْرِيُّ إِلَى أَنَّ الْجَذْعَ لَا يُجْزَىءُ. وَقَابِلُهُ الْأَوْزَاعِيُّ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْجَذْعَ يُجْزَىءُ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَهُمَا غَرِيْبَانِ. وَقَالَ الْجُمْهُورُ: إِنَّمَا يُجْزَىءُ الثَّنِيءُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعْزِ، وَالْجَذْعُ مِنَ الضَّانِّ. فَأَمَّا الثَّنِيءُ مِنَ الْإِبِلِ فَهُوَ: الَّذِي لَهُ خَمْسُ سِنِينَ. وَدَخَلَ فِي السَّادِسَةِ. وَمِنَ الْبَقَرِ مَا لَهُ سِنَتَانِ وَدَخَلَ فِي الثَّلَاثَةِ. وَقِيلَ مَا لَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ وَدَخَلَ فِي الرَّابِعَةِ. وَمِنَ الْمَعْزِ مَا لَهُ سِنَتَانِ، وَأَمَّا الْجَذْعُ مِنَ الضَّانِّ فَقِيلَ: مَا لَهُ سَنَةٌ، وَقِيلَ: عَشْرَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ: ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ: سِتَّةُ أَشْهُرٍ، وَهُوَ أَقْلُ مَا قِيلَ فِي سِنِّهِ، وَمَا دُونَهُ فَهُوَ حَمَلٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْحَمَلَ شَعْرُ ظَهْرِهِ قَائِمٌ، وَالْجَذْعُ شَعْرُ ظَهْرِهِ نَائِمٌ، قَدْ انْعَدَلَ صَدْعَيْنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَذْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ كَفْرًا مُّبِينًا﴾ [الزمر: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾،

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧ وانظر «تلخيص الحبير» ١٦٠/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٧٨٨ والترمذي ١٥١٨ والنسائي ١٦٧/٧ وابن ماجه ٣١٢٥ وأحمد ٤/٢١٥. قال الترمذي: حسن غريب. وقال الزيلعي في «نصب الرابة» ٤/٢١١: قال عبد الحق: إسناده ضعيف. قال ابن القطان: علته الجهل بحال أبي رملة، واسمه عامر، فإنه لا يعرف إلا بهذا. ورواه أيضاً حبيب بن غنم، وهو مجهول اهـ. قال الزيلعي: وهذا الطريق عند عبد الرزاق في «مصنفه». وقال البيهقي في «المعرفة»: إن صح هذا، فالمراد الاستحباب، بدليل أنه قرن بين الأضحية والعتيرة، والعتيرة غير واجبة بالإجماع اهـ. فالحديث غير قوي، تفرد به اثنان وكلاهما مجهول، والمتن غريب. وذكر العتيرة منكر، فقد روى الستة عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا فرع ولا عتيرة». راجع نصب الرابة ٤/٢٠٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٥٠٥ وابن ماجه ٣١٤٧ من حديث أبي أيوب وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٦٣ وأبو داود ٢٧٩٧ وابن ماجه ٣١٤١ وأحمد ٣/٣١٢ وأبو يعلى ٢٣٢٤، وهو وإن رواه مسلم، فإن فيه عننة أبي الزبير، وضعفه بعضهم.

أي: لا يُحِبُّ من عباده من اتَّصَفَ بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفني بما قال. والكفر: الجحد للنعيم، فلا يعترف به.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَكُنَّا عَنَّا لِدَارٍ مُّكْرَمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد. وقال غير واحد من السلف كابن عباس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، ومقاتيل بن حيان، وقتادة، وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

[٤٧٤٣] وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البطين - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما خرج النبي - ﷺ - من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾. قال أبو بكر - رضي الله عنه -: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به، وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال^(١). ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سننهما، وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف - زاد الترمذي: ووكيع - كلاهما عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثوري، وليس فيه ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرَبَ الرَّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَغْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا الرِّجَالُ فَإِنَّمَا مَتَا بَدُّ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَصْعَ الرُّمُوزُ أَوْ رِقَابًا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ مُّغْنِيهِمْ وَصَلُّوا بِاللَّهِ ﴿٤٠﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا كَيْفَ ﴿٤١﴾﴾ [محمد: ٤ - ٦]. وقال تعالى: ﴿قَتَلْتَهُمْ بِمُؤْمِنِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِصُرُوفِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِئُ صُدُودَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَيُدْهِبُ عَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥]، وقال: ﴿أَمَرَ حَسْبَتَهُ أَنْ تَتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَصَلُّونَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: ١٦]. وقال: ﴿أَمَرَ حَسْبَتَهُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَاهِنِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال: ﴿وَلِيَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ تَقَرَّ الْكُفْرَانُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَلَوُوا آيَاتِكُمْ ﴿٤٦﴾﴾ [محمد: ٣١]. والآيات في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعل.

وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لشقَّ عليهم.

(١) حسن، أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والنسائي ١١٣٤٥ وكبرى والطبري ٢٥٢٥٤ و٢٥٢٥٥ عن ابن عباس، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم، فهو وإن ذكر الترمذي أنه روي مرسلًا، فإن ذلك لا يعمل المرفوع لثقة رجاله، وزيادة الثقة مقبولة، والله أعلم.

[٤٧٤٤] ولهذا لما بايَعَ أهل يثرب ليلة العقبة رسولَ الله ﷺ - وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسولَ الله، ألا نَمِيلُ على أهل الوادي - يَعْنُونَ أَهْلَ مِثْنَى - لِيَأَيَّ مِثْنَى فَنَقْتَلَهُمْ؟ فقال رسولُ الله ﷺ -: إني لم أؤمر بهذا^(١). فَلَمَّا بَعَى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ - من بين أظهرهم، وهُمُوا بِقَتْلِهِ، وَشَرَّدُوا أَصْحَابَهُ شَدْرَ مَثَرٍ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الْحَبِشَةِ، وَآخَرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ. فلما استَقَرُّوا بِالْمَدِينَةِ، ووافاهم رسولُ الله ﷺ - واجتمعوا عليه، وقاموا بِنُضْرِهِ، وصارت لهم دارُ إسلامٍ ومعقلاً يُلجِجُونَ إليه - شَرَعَ اللهُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ، فكانت هذه الآيةُ أَوَّلَ ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِظُرُومِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، يعني محمداً وأصحابه. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾. أي: ما كانَ لهم إلى قومهم إساءةٌ، ولا كانَ لهم ذنبٌ إلا أَنَّهُمْ وَحَدُّوا اللهُ وَعَبَدُوهُ لا شريكَ له. وهذا استثناءٌ منقطعٌ بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبرُ الذنوبِ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٤٠﴾﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يَرْتَجِزُونَ في بناء الخندقِ، ويقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقِينَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَرُوا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أُنِينَا

فيوافقهم رسول الله ﷺ - ويقول معهم آخرُ كُلِّ قافيةٍ، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنةً أئينا»، يقول: «أئينا»، يمدُّ بها صوتَه. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، أي: لولا أَنَّهُ يَدْفَعُ عن قومٍ بقومٍ، وَيَكْشِفُ شَرَّ أَتَّاسٍ عن غيرهم، بما يخلقه ويُقدِّره من الأسبابِ لفسدتِ الأرضُ، وأهلكَ القويُّ الضعيفَ. ﴿فَلَمَّيْتُ صَوْبِعٌ﴾، وهي المعابد الصغار للربان، قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامعُ المجوسِ. وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق. ﴿صَوْبِعٌ﴾، وهي أوسعُ منها، وأكثرُ عابدين فيها. وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية، وقاتدة، والضحاك، وأبو صخر، ومقاتل بن حيان، وحُصَيْفٌ، وغيرهم. وحكى ابن جبير عن مُجاهِدٍ وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السديُّ عن حذته، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود. ومجاهدٌ إنما قال: هي الكنائس. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَصَلَّوْا﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقاتدة: إنها كنائس اليهود. وهم يُسَمُّونَهَا: صَلَّوَاتَا. وحكى السديُّ، عن حذته، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: الصلوات: مساجدُ لأهل الكتاب ولأهل الإسلامِ بالطرق، وأما المساجدُ فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، فقد قيل الضميرُ في قوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عائدٌ إلى المساجد لأنها أقربُ المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال ابن جرير: الصوابُ لهدمت صوامع الرهبان وَيَبِغُ النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذَكِّرُ فيها اسمُ الله

(١) لم أره مسنداً. والمرفوع منه ورد في أثناء حديث آخر، انظر «أسباب النزول» للواحدي ٦٢١.

كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تزقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن يتهي إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عبادة، وهم ذُوو القُضدِ الصَّحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْضُرُنَّ اللَّهُ مَنْ يَضُرُّهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَضُرُوا اللَّهَ يُضِرُّكُمْ وَيَتَيْتْ أَقَامَتَكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلْتُمْ وَأَسْأَلُ أَهْلَهُمْ (٨) [محمد: ٧-٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَيَقْوِيهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ، فَقِيرٌ إِلَيْهِ. وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ، وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُنُوتُنَا لِصَادِقَاتِ الْمُزْنِجَلِيقِ (٧٦) إِنَّهُنَّ لَمُتَّصِرُونَ (٧٧) تِلْكَ جُنُودُنَا لَمْ يَلْتَمِثْ لَكُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].
وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٦١)﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فَأَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا بغير حق إلا أن قلنا: ﴿زُيِّنَا لِلَّهِ﴾، ثُمَّ مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ، فَأَقَمْنَا الصَّلَاةَ، وَآتَيْنَا الزَّكَاةَ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْنَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، فَهِيَ لِي وَلِأَصْحَابِي. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ الصَّبَّاحُ بْنُ سَوَادَةَ الكِنْدِيُّ: سَمِعْتُ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية، ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا عَلَى الْوَالِي وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ، أَلَا أَنْتَبِّحُكُمْ بِمَا لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكَ، وَمِمَّا لِلْوَالِي عَلَيْكُمْ مِنْهُ؟ إِنْ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُوَاجِدَكُمْ بِحُفُوقِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ، وَإِنْ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعَةِ غَيْرِ الْمَنْبُورَةِ وَلَا الْمُسْتَكْرَهَةِ بِهَا، وَلَا الْمُخَالَفِ بِبِرْهَا عِلَاقَتِهَا. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَرَفِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَتَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].
وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَا صَنَعُوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَدَعْ مَا يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَشُعُوبٌ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكُلَّيْنِ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا هَارُونَ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَسْرَ مُعْتَلَمَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

يقول تعالى مسلماً نبيه محمداً - ﷺ - في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات والبراهين الواضحات. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: انظرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكارِي عليهم ومُعاقبتي

لهم !؟ ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

[٤٧٤٥] وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلْعَالَمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا لِيكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَّا شَيْدٌ ﴿٤٧﴾﴾ (١) [مورد: ١٠٢]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: كَمَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مُكذِّبَةٌ لِرُسُولِهَا، ﴿فَهِيَ خَاطِئَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، قال الضحاك: سُقُوفُهَا، أي: قَد خَرِبَتْ مَنَازِلُهَا وَتَعَطَّلَتْ خَوَاصِرُهَا. ﴿وَيَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ﴾، أي: لَا يُسْتَقَىٰ مِنْهَا، وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالْإِزْدِحَامِ عَلَيْهَا. ﴿وَقَصِيرٌ مُّشِيدٌ﴾، قال عكرمة: يَعْنِي الْمَبِيعُ بِالْجِصِّ. وَرُوي عَنْ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي الْمَلِيحِ، وَالضَّحَّاكِ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الْمَنِيْفُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَشِيدُ الْمَنِيْعُ الْحَصِينُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلَهُ شِدَّةً بِنَائِهِ وَلَا ارْتِفَاعَهُ، وَلَا إِحْكَامَهُ وَلَا حَصَانَتَهُ عَنْ حُلُولِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أَبْدَانُهُمْ وَبِفِكَرِهِمْ أَيْضًا، وَذَلِكَ كَافٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ. حَدَّثَنَا هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ يَا مُوسَى، اتَّخِذْ تَعْلِيمَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَعَصَا، ثُمَّ سِيحْ فِي الْأَرْضِ وَاطْلُبِ الْأَثَارَ وَالْعَبْرَةَ، حَتَّى تَتَخَرَّقَ النَّعْلَانِ وَتُكْسِرَ الْعَصَا.

وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أخي قَلْبِكَ بِالْمَوَاعِظِ، وَتَوَرَّهِ بِالْفِكْرِ، وَمَوْتَهُ بِالزُّهْدِ، وَقُوَّةَ بِالْيَقِينِ، وَذُلَّهُ بِالْمَوْتِ وَقَرُّهُ بِالْفَنَاءِ، وَبِصْرَهُ فَجَائِعِ الدُّنْيَا، وَحَذْرَهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفَحْشَ تَقَلُّبِ الْأَيَّامِ، وَاعْرَضَ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِيْنَ، وَذَكَرَهُ مَا أَصَابَ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَسِيَّرَ فِي دِيَارِهِمْ وَأَنَارِهِمْ، وَانظُرْ مَا فَعَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوْا، وَعَمَّ انْقَلَبُوا. أَي: فَيَنْظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ مِنَ التَّمَمِ وَالتَّكَاثُلِ، ﴿فَتَكُونُ لَكُمْ قُلُوبٌ يَقُولُونَ يَا أَوْ مَاذَا نَرَى سَمْعُونَ يَا﴾، أَي: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، أَي: لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفِذُ إِلَى الْعَبْرِ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبْرُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَارَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ الشُّتْرِينِيِّ، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاتَهُ سِتَّةٌ سَبْعٌ عَشْرَةَ وَخَمْسَمِئَةَ:

يَا مَنْ يُصِيحُ إِلَى دَاجِيِ السَّقَاءِ، وَقَدْ نَادَى بِهِ السَّاعِيَانِ: السُّنْبُ وَالْكَبِيرُ
إِنْ كُنْتُ لَا تَسْمَعُ الذُّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى فِي رَأْسِكَ الْوَاعِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصْرُ؟
لَيْسَ الْأَصْمُ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأَنْزُرُ
لَا الذَّهْرُ يَنْقَى وَلَا الدُّنْيَا، وَلَا الْفَلَكُ الْأَعْلَى وَلَا السُّنْبُ وَالْقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَرِهَا فِرَاقَهَا، الثَّوَابِيَانِ: الْبَدْوُ وَالْحَضْرُ

﴿وَسَمِعَ لَوْلَاكَ بِالْمَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

(١) والحديث تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

يقول تعالى لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - : ﴿وَسْتَعْمِلُونَكُم بِالْعَذَابِ﴾ ، أي : هؤلاء الكفار المُلحِدُونَ المُكذِبُونَ بالله وكتابه ورَسُوله واليَوْم الآخر، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا نُزِّلَتْ مِنَّا فَهِيَ إِلَّا لَآئِمَّةٌ مَّقْدَرَةٌ لَّآئِمَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قُلُوبَنَا قَلْبًا يُؤْمِرُ بِالْحَسَابِ﴾ [ص: ١٦] . وقوله : ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ، أي : الذي قد وَعَدَ ، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه . قال الأصمعي : كنتُ عند أبي عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عبَّيد ، فقال : يا أبا عمرو ، وهل يُخْلِفُ الله الميعاد؟ فقال : لا . فذكر آيةً وعبيد ، فقال له : أمن العجم أنت؟ إن العرب تُعَدُّ الرجوع عن الوَعْدِ لَوْمًا ، وعن الإيعاد كرمًا ، أو ما سمعت قول الشاعر :

لا يُزهِبُ ابنَ العمِّ والجارِ سَطَوَتِي ولا يَنْثِنِي عن سَطَوَةِ الْمُتَهَدِّدِ
فإنِّي وإنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخِلْفُ إِعَادِي وَمُنْجِرُ مَوْعِدِي

وقوله تعالى : ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ، أي : هو تعالى لا يَعَجَلُ ، فإنَّ مقدارَ ألفِ سَنَةٍ عند خَلْقِهِ كيومٍ واحدٍ عنده بالنسبة إلى حُكْمِهِ ، لِعِلْمِهِ بأنَّه على الانتقام قَادِرٌ ، وأنه لا يَفُوتُهُ شَيْءٌ ، وإنْ أَجَلَ وَأَنْظَرَ وَأَمَلَى . ولهذا قال بعد هذا : ﴿وَكَايُنَ مِن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّمَا أَخَذَتْهَا وَلِيَّ الْمَعِيرِ﴾ [١٨] .

[٤٧٤٦] قال ابنُ أبي حاتم : حَدَّثَنَا الحسنُ بنُ عَرَفَةَ ، حَدَّثَنِي عبْدَةُ بنُ سُلَيْمَانَ ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أَنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال : يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يَوْمٍ ، خمسمئةَ عامٍ . وَرواهُ الترميذِيُّ والنسائيُّ ، من حديثِ الثوريِّ ، عن محمد بن عمرو ، به . وقال الترميذِيُّ : «حسن صحيح» . وقد رواه ابنُ جرير ، عن أبي هريرةَ مَوْقُوفًا ، فقال : حَدَّثَنِي يعقوبُ ، حَدَّثَنَا ابنُ عُليَّةَ ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ الجُرَيْرِيُّ ، عن أبي نُضْرَةَ ، عن سُمَيْرِ بنِ نَهَارٍ قال : قال أبو هريرةَ : يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بمقدارِ نصفِ يَوْمٍ . قلت : وما نصفِ يَوْمٍ؟ قال : أو ما تقرأ القرآن؟ قلت : بلى . قال : ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

[٤٧٤٧] وقال أبو داود في آخر كتاب المَلَّاحِمِ من سُنَنِهِ : حَدَّثَنَا عمرو بن عُثمانَ ، حَدَّثَنَا أبو المغيرة ، حَدَّثَنَا صفوانُ ، عن شريح بن عبَّيد ، عن سعد بن أبي وقاص ، عن النبي - ﷺ - أنه قال : «إني لأرجو أَلَّا تُعْجِرَ أُمَّتِي عند رَبِّهَا أن يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ . قيل لسعد : وما نِصْفُ يَوْمٍ؟ قال : خَمْسُمِئَةِ سَنَةٍ .» وقال ابنُ أبي حاتم : حَدَّثَنَا أحمدُ بنُ سَيَّانَ ، حَدَّثَنَا عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ ، عن إسرائيل ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن ابنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ، قال : من الأيام التي خَلَقَ اللهُ فيها السموات والأرض . رواه ابنُ جرير ، عن ابنِ مهدي ، وبه قال مجاهدٌ ، وعكرمة ، ونصَّ عليه أحمدُ بنُ حنبلٍ في كتاب الرِّدَّةِ على الجَهَنميَّةِ . وقال مجاهدٌ : هذه الآيةُ كقولهِ : ﴿يَذُرُّ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] .

وقال ابنُ أبي حاتم : حَدَّثَنَا أبي ، حَدَّثَنَا عارمٌ - محمد بن الفضل - حَدَّثَنَا حَمَّادُ بنُ زيد ، عن يحيى ابن

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٥٣ و٢٣٥٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٤٨ وابن ماجه ٤١٢٢ وأحمد ٢٩٦/٢ و٤٥١ وابن حبان ٦٧٦ من حديث أبي هريرة ، وإسناده حسن ، وله شواهد كثيرة راجع «الترغيب والترهيب» ٤٦٥٥ و٤٦٥٦ و٤٦٥٧ و٤٦٥٨ و٤٦٥٩ و٤٦٦٠ وعند مسلم ٢٢٧٩ بسياق آخر .

(٢) أخرجه أبو داود ٤٣٥٠ وإسناده صحيح ، رجاله ثقات .

عَتِيقِي، عن محمد بن سيرين، عن رجلٍ من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحابل إذا دخلت شهرها، ففي آيةٍ لحظةٍ ولدت كان تمامًا.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى لنبِيِّهِ - ﷺ - حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾، أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذابٍ شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمرتكم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعل لما يشاء ويريد ويختار، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكُومِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنتم قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فهو الجنة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾، قال مجاهد: يُعْبَطُونَ الناس عن متابعة النبي ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مُتَّبِعِينَ. وقال ابن عباس: ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مُرَاغِمِينَ. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وهي النار الحارة الموجهة الشديدة عذابها ونكالتها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُتْهُمْ عَذَابًا قَوْفًا عَالِيًا يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّنِيَّتِهِ فَبِئْسَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَيْتِيهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، فلما منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مُرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

[٤٧٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة قال: قرأ رسول الله - ﷺ - بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَرْيَمَ ﴿١٦﴾ وَنَوَافِلَهُنَّ الْأَخْرَى ﴿١٧﴾﴾، قال: فالقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن تزلجن». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فانزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّنِيَّتِهِ فَبِئْسَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ أَيْتِيهِ﴾^(١). رواه ابن جرير، عن بندار، عن عُثْمَر، عن شعبة، به نحوه. وهو مرسل.

(١) أخرجه الطبري ٢٥٣٣١ و٢٥٣٣٢ عن سعيد بن جبيرة مرسلًا، والمرسل من قسم الضعيف، والثنى باطل.

[٤٧٤٩] وقد رواه البزار في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فيما أحسب - الشك في الحديث - أن النبي ﷺ - قرأ بمكة سورة النجم، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَؤَنَّى﴾ (١). وذكر يقيته (١). ثم قال البزار: «لا نعلمه يزوى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوضله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. إنما يروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس». ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالمة، وعن السدي، مرسلاً. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلاً أيضاً.

[٤٧٥٠] وقال قتادة: كان النبي ﷺ - يُصَلِّي عند المقام إذ نَعَسَ، فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لثرتجى. وإنها لَمَعَ الْغَرَائِقُ الْعُلَى. فَحَقَّقَهَا الْمُشْرِكُونَ. وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فذلت بها السننهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ﴾ ... الآية، فدحر الله الشيطان (٢).

[٤٧٥١] ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المصنبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أفزنا وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشتم. وكان رسول الله ﷺ - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأخزته ضلالهم، فكان يتمنى هذاهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَؤَنَّى﴾ (١) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَى (٢) أَلَمْ أَلْكُمْ الْأَذْرَ وَالْأَنْثَى (٣) ، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لهي التي ثرتجى». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوعدت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وذلت بها السننهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ - آخر النجم، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً، فزفع على كفه تراباً، فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين منهم على غير إيمان ولا يقين - ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين - وأما المشركون فاطمأنوا أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنيته رسول الله ﷺ - وحذتهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ - قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحيشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحذثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ - وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحذثوا أن المسلمين قد أمثروا بمكة. فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله تعالى

(١) باطل. تفرد بوضله أمية بن خالد القيسي، كما ذكر البزار، وهو وإن وثقه الجمهور لكن نقل الذهبي في الميزان ١٠٢٩ عن أحمد أنه لم يحمده. وذكره العقيلي في «الضعفاء» اهـ وقد رواه غيره عن سعيد بن جبير، ليس فيه ذكر ابن عباس. وقد ذكر البزار أن هذا الحديث، إنما يروى من طريق الكلبي. والكلبي هو محمد ابن السائب متروك متهم. وورد عن أبي العالمة مرسلاً أخرجه الطبري ٢٥٣٢٩ و٢٥٣٣٠، وورد عن الضحاك ٢٥٣٣٤ وعن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس ٢٥٣٢٧ وهي مراسيل واهية، لاجحة في شيء منها، وألفاظها مضطربة.

(٢) هو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

آياته، وحفظه الله من الفرية، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىَ الْشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ قِسْمًا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾﴾، فلما بين الله قضاءه، ويزراه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم^(١). وهذا أيضاً مرسل. وفي تفسير ابن جرير عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فلم يجز به موسى بن عقبة، ساقه في مغازيه بنحوه، قال: وقد زينا عن ابن إسحاق هذه القصة. قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا^(٢)، وكلها مراسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها الغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: «كيف وقع مثل هذا مع العظمة المضمونة من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من الظن: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ - وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحيح. وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله:^(٣). وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىَ الْشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية - لصلوات الله وسلامه عليه - أي: لا يهدئك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّا تَمَنَّىَ الْشَّيْطَانُ

(١) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية، لأنه حافظ ثبت، لا يرسل إلا لعله، كما قرر علماء هذا الفن، وهو عند الطبري ٢٥٣٣٥ مختصراً.

(٢) باطل. وورد عن ابن عباس أخرجه الطبري ٢٥٣٣٣ وفيه عطية العوفي، واه، روى مناكير كثيرة، وفي الإسناد مجاهيل. وأعجب من ذلك ما أخرجه الطبراني ٩٠٧٨ عن عروة مرسلًا فذكر في ذلك خبر طويلاً وفيه «أن من هاجر إلى الحبشة بلغه هذا الخبر فرجع إلى المدينة». وفيه ابن لهيعة، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٦: رواه الطبراني مرسلًا، وفيه ابن لهيعة، ولا يثبت هذا من ابن لهيعة، أي أن راو آخر ركب هذا الحديث.

الخلاصة: «خير الغرائق» باطل لا أصل له، والظاهر أنه من وضع الزنادقة، ركبوا له أسانيد إلى بعض التابعين، بل وصل به بعضهم إلى ابن عباس، ولا يصح عنه، وابن عباس على فرض ثبوته عنه، لم يدرك تلك الحادثة، وقد قال ابن كثير رحمه الله: وكلها مراسلات ومنقطعات. وقد حكم بطلان قصة الغرائق، أبو بكر بن العربي، والشوكاني، والبيهقي، وابن إسحاق صاحب السيرة حيث سنل عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة. نقله عنه أبو حيان في البحر. وقال أبو منصور المثيري: هذا الخبر من إجماع الشيطان إلى أوليائه الزنادقة، والرسالة بريئة من هذه الرواية، وقال القاضي عياض: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، راجع ما ذكره العلامة الألويسي في «روح البيان» ١٧/١٨٢، قال الألويسي: ويكفي في ردها قوله تعالى في وصف القرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. اهـ. وقد جمع الألباني رسالة جمع طرق هذا الخبر وتكلم على تلك الطرق وسماها «نصب المجانيق في نسف قصة الغرائق». وحكم بوضعها العلامة أحمد شاکر، والله تعالى أعلم.

(٣) هنا بياض في بعض الأصول، وفي بعض الطبقات زيد جملة: «أنها كذلك لشبوتها»! ولا ندري من أين جيء بهذه الخلاصة؟! لأن خلاصة كلام القاضي عياض تفيد بعدم تسليمه بصحة قصة الغرائق من أساسها. راجع «الشفاء»: ٧٥٠/٢ وما بعدها.

فِي أُثَيَّتِيهِ، يقول: إذا حَدَّثَ ألقى الشيطانُ في حديثه. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا نَسَخَ﴾، يعني: إذا قال. ويقال: ﴿أُثَيَّتِيهِ﴾: قراءته، ﴿إِلَّا آمَانِي﴾، يقولون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿نَسَخَ﴾، أي: تلاَ وقرأ كتاب الله، ﴿ألقى الشيطانُ فِي أُثَيَّتِيهِ﴾، أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قُتِلَ:

نَمَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَأَخْرَمَهَا لَأْسَى جِمَامَ الْمَقَادِيرِ

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا نَسَخَ﴾، إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلقى الشيطانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: فَيُبطلُ الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطانُ. وقال الضحاك: نسخ جبريلُ بأمر الله ما ألقى الشيطانُ، وأحكم الله آياته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: في تقيده وخلقه وأمره، له الحكمة التامة، والحنجة البالغة. ولهذا قال: ﴿لِيَجْزَلَ مَا يُلقى الشيطانُ يَسْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك وشيزك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جرير: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمُ﴾: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود.

﴿وَالَّذِينَ الَّذِينَ لَقِيَ شِقَاقِي بَعِيدٍ﴾، أي: في ضلالٍ ومخالفةٍ وعبادٍ بعيد، أي: من الحق والصواب. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا السُّحْرَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفترقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرصه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٤٢]. وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: يُصَدِّقُوهُ وينقادوا له، ﴿فَتُحِبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فيرشدُهم إلى الحق واتباعه، ويؤفقه لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويُخرَجُهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ عَقِيبِهِ ﴿٥٥﴾﴾
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في صيرورة، أي: في شكٍ وريبٍ من هذا القرآن، قاله ابن جرير، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبیر، وابن زيد: ﴿يَتَنَّهُ﴾، أي: مما ألقى الشيطانُ. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بَغتُ القومُ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغيبتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يتغتر بالله إلا القومُ الفاسقون. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ عَقِيبِهِ﴾، قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد - في روايةٍ عنهما -: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصري. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أُعدوا به، لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُونَ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

﴿١﴾ وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ صِيرًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿قَالَتِ الْأَنْبِيَاءُ آمَنَّا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنت قلوبهم، وصدّقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾، أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: كفرت قلوبهم بالحقّ وجمدته وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِمٌّ﴾، أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحقّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ ﴿٦٠﴾

يُخبر تعالى عمّن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاتيه، وطلبًا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلائق، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله، ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أي: في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾، أي: خنّف أنفسهم - أي: من غير قتال على فرسهم - فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي: ليخبرنّ عليهم من فضله وريزقه من الجنة ما تقرّ به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانُهُ﴾، أي: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿رَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَحَسَنُ نَسِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩]، فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾، أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قُتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حيّ عند ربه يُرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٤٣﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدّم. وأما من تُوفي في سبيل الله من مهاجر أو غيره فقد تضمّنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

[٤٧٥٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا المسيّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن ابن الحارث - يعني عبد الكريم - عن ابن عُبّة - يعني أبا عُبّيدة بن عُبّة - قال: حدثنا شرحبيل بن السّمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمرّ بي سلمان - يعني الفارسي، رضي الله عنه - فقال: إني سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: مَنْ مَاتَ مُرْبِطًا أَجْرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ الرُّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفِتْنَانِ. واطروا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا رِضْوَانُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿١﴾.

(١) إسناده غير قوي لأجل المسيّب بن واضح، وقد تفرد بذكر الآية. وأخرجه مسلم ١٩١٣ من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح به دون ذكر الآية.

وقال أيضاً: حدثنا أبو رزعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرني همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان: كنا برؤيس، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله - ﷺ - فمَرَّ بجناتين، أحدهما قَيْبِلُ والأخرى مَتَوْفَى، فمال الناس على القَيْبِلِ، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيلٌ في سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالي من أي حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَبِيرٌ الرَّزِيقِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال أيضاً: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بن سُلَيْمَانَ، أَنبَأَنَا ابن المبارك، أَنبَأَنَا ابن لهيعة، حَدَّثَنَا سَلَامَانَ ابن عامر الشَّعْبَانِي، أَنَّ عبد الرحمن بن جَحْدَمَ الخولاني حَدَّثَهُ: أَنَّهُ حَضَرَ فضالة بن عبيد في البحر مع جَنَاتَيْنِ، أَحَدُهُمَا أُصِيبَ بِمَنْجَنِيْقٍ وَالْآخَرُ تَوْفَى، فَجَلَسَ فضالة بن عبيد عند قبر المَتَوْفَى، فقيل له: تَرَكْتَ الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَبِيرٌ الرَّزِيقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رِزْوَانَهُ: فما تَبْتَغِي أَيُّهَا العبدُ إذا أَدْخَلْتَ مُدْخَلًا تَرْضَاهُ وَرَزَقْتَ رِزْقًا حَسَنًا؟! والله ما أبالي من أي حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ؟! ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن ابن شريح، عن سَلَامَانَ ابن عامر قال: كان فضالة برؤيس أميراً على الأرباع، فخرج بجناتني رجلين، أحدهما قتيلٌ والآخر مَتَوْفَى... فذكر نحو ما تقدم. وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت في سريّة من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين في شهر مُحَرَّم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوه في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعُوذٌ عَفُوٌّ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى مُنْبِئاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ السُّفْلَى وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ السُّفْلَى وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدَ الْغَنِيَّ الْحَمِيدَ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ السُّفْلَى وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدَ الْغَنِيَّ الْحَمِيدَ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ السُّفْلَى وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدَ الْغَنِيَّ الْحَمِيدَ﴾ (الملك: ١-٤). ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أي: سميعٌ بأقوال عباده، بصيرٌ بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم. ولما بين أنه المتصرف في الوجود الحاكم الذي لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ. قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الإله الحق الذي لا تُبَغِي العبادُ إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عُبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضرراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْعَمَلُ﴾

[الرمح: ٤٩]، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحاباً، فيمطر على الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامة يابسة سوداء منجلدة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [الحج: ٥]. وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمِلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا مِنْهَا صَافِحَاتٍ عِظْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت أن بين كل شيئين أربعين يوماً، ومع هذا هو مُعْتَبَرٌ بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾، أي: خضراء بعد يبسها ومحولها. وقد ذُكِرَ عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقيب المطر خضراء. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزاءها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبئه به، كما قال لقمان: ﴿يَبْقَىٰ إِثْمًا إِنْ تَكَّ يُنْقَلِ حَبْرٌ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]، وقال: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْثَ فِي السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَسْقُطُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَسْرُبُ عَنْ رَبِّكَ يَنْتَقِلُ دَرَقٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. ولهذا قال أمية بن أبي الصلت - أو: زيد بن عمرو بن نفيل - في قصيدته:

وقولاً له: مَنْ يُنْبِتِ الْحَبَّ فِي الثَّرَى فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ زَابِئًا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ فَنَفِي ذَاكَ آيَاتُ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾﴾، أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مِّنَ السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّمَّا كَفَبْتُمْ﴾ [الجنانية: ١٣]، أي: من إحسانه وقضيه وامتنانه، ﴿وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾، أي: بتسخيره وتسييره، أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها، بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجارٍ وبضائعٍ ومنافعٍ، من بلدٍ إلى بلدٍ، وقطرٍ إلى قطرٍ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَمَسِكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته، يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

أي: مع ظلمهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقَرٍّ يَخَلُّكَ عَلَىٰ ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنعَمَ عَلَيْكُمْ ثُمَّ يُعَيْشُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِنَّ أَلْسِنَ لَكُفُورًا﴾ [٦٦]، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْرَكًا فَأُخِيذُكُمْ ثُمَّ يُعَيْشُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِنَّ أَلْسِنَ لَكُفُورًا﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْكُمُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِیْهِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّا نَحْنُ بِعَالَمِينَ﴾ [غافر: ١١]. ومعنى الكلام: كيف تجعلون الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصريف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنعَمَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأنجدكم، ﴿ثُمَّ يُعَيْشُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَإِنَّ أَلْسِنَ لَكُفُورًا﴾، أي: جحوداً.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمًا﴾ [٦٧] وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَنْسَكًا، قال ابن جرير: يعني لكل أمة نبي منسكاً قال: وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر. قال: ولهذا سُميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد «لكل أمة نبي جعلنا منسكاً»، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون، وإن كان المراد: لكل أمة جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْجِبٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾، أي: فاعلموه. فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يضررك ذلك عما أنت عليه من الحق. ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّآبِئِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَأَنْذَرْتُكَ إِلَيْكَ﴾ [القصاص: ٨٧]. وقوله: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيحٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَهْلَكَ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [الاحقاف: ٨]، ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٦٩]. وهذه كقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَوِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلِ مَآ أَنزَلَ إِلَهُي مِنَ الْكِتَابِ وَأَمَرْتُ لِأَعْمَلُ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٧٠]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَن كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمَ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

[٤٧٥٣] كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ

مقاييرِ الخلائقِ قبل خَلْقِ السموات والأرضِ بخمسينَ ألفَ سنَةٍ، وكان عرشه على الماءِ^(١).

[٤٧٥٤] وفي السنن من حديثِ جَمَاعَةٍ من الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قال: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، قال له: اكْتُبْ. قال: وما أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ ما هو كائِنٌ. فَجَرَى القَلَمُ بما هو كائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ^(٢)». وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو رُزَعَةَ، حدثنا ابنُ بَكِيرٍ، حدثني ابنُ لَهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سَعِيد بن جُبَيْر قال: قال ابنُ عَبَّاسٍ: خَلَقَ اللهُ اللُّوْحَ المَحْفُوظَ كَمَسِيرَةِ مِئَةِ عامٍ، وقال للقلم قبل أن يَخْلُقَ الخَلْقَ - وهو على العرش - تبارك وتعالى -: اكْتُبْ. فقال القلم: وما أَكْتُبُ؟ قال: عَلِمِي في خَلْقِي إلى يَوْمِ تَقُومُ السَّاعَةُ. فَجَرَى القَلَمُ بما هو كائِنٌ في عِلْمِ اللهِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَذَلِكَ قولُهُ تعالى للنبي ﷺ -: ﴿أَلَمْ نَقُلْ لَكَ اللهُ يَعْلمُ ما في السَّمْوَ والأَرْضِ﴾. وهذا من تَمَامِ عِلْمِهِ تعالى أَنه علم الأشياء قبل كونها، وَقَدَرها، وَكَتَبها أيضاً، فما العبادُ عايلُونَ قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يُطِيع باختياره، وهذا يَعْصِي باختياره، وَكَتَبَ ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سَهَّلَ عليه، يَسِيرٌ لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ في كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَعَبُدُونِ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَكُمْ بِهِ يُنْزَلُ بِهِ سُلْطَنًا وما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آياتنا بَيِّناتٍ نَعْرِفُ في وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ بِمَكادُوتٍ يَسْطُورُ بِالذِّبْرِ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آياتنا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللهُ الذِّبْرَ كَفَرُوا وَمَنْ يَسِّرُ﴾

الْصِّبْرُ ﴿٧١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حُجَّةٌ وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنا ما حَسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ لَأَنَّهُ لا يَفْضَحُ الكَذِبُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] ولهذا قال هانئاً: «ما لَكُمْ بِهِ يُنْزَلُ بِهِ سُلْطَنًا وما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ»، أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آباؤهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾، أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والتكاليف. ثم قال: ﴿وَإِذا نُزلَ عَلَيْهِمْ آياتنا بَيِّناتٍ﴾ أي: وإذا ذُكِرَتْ لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رُسُلَهُ الكرام حقٌ وصدق، ﴿مَكادُوتٍ يَسْطُورُ بِالذِّبْرِ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آياتنا﴾، أي: يكادون يُبادِرُونَ الذين يَحْتَجُّونَ عليهم بالدلائل الصَّحِيحَةَ مِنَ القرآن، وَيَسْطُورُونَ إليهم أيديهم والسنتهم بالسوء ﴿قُلْ﴾، أي: يا مُحَمَّدٌ لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللهُ الذِّبْرَ كَفَرُوا﴾، أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تُخَوِّفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَمَنْ يَسِّرُ﴾. أي: وبسبب النار منزلاً ومقيلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً، ﴿إِنَّها ساءت مَسْتَقَرًّا ومَقامًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَكْأُيْها النَّاسُ ضَرْبٍ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الذِّبْرَ تَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ولو

(١) صحيح . وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٧٩.

(٢) يأتي في تفسير سورة القلم إن شاء الله تعالى وهو حديث قوي.

أَجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِن يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَآ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَمَمَكَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى مُتَّبِعًا عَلَى حَقَّارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ﴾، أي: لما
يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَأَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، أي: انصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّكَ الْذَّيْبُ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾، أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا
على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٧٥٥] حَدَّثَنَا أَبُو بَرٍّ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -
رَفَعِ الْحَدِيثَ - قَالَ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ كَخَلْقِي! فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة»^(١).

[٤٧٥٦] وَأَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ، مِنْ طَرِيقِ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -
قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»^(٢).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ شَيْئًا لَآ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾، أي: هم عاجزون عن خلق ذباب
واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم
أرادت أن تستفيده منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال:
﴿ضَمَمَكَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الضم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير.
وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم. ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ﴾، أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها
وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَشَرَ رَؤُفِكَ لَسَيِّدٌ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَدِئُ ﴿٧٥﴾﴾ [البروج: ١٢ -
١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾، أي: قد عز كل شيء فقهره
وغلبه، فلا يُمانع ولا يُغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرَعِهِ وَقَدْرِهِ، وَمِنَ النَّاسِ لِإِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ،
﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ:
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾،
أي: يعلم ما يفعل رُسُلُهُ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، كَمَا قَالَ: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَتِي رَحِيمًا وَأَحَدًا بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٧٨﴾﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨] فهو - سبحانه - رقيب عليهم، شهيد

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٩١/٢ ح ٨٨٣٩ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شريك، وقد توبع.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٩٥٣ و٧٥٥٩ ومسلم ٢١١١ وابن حبان ٥٨٥٩ والبيهقي ٧/٢٦٨.

على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَأْتِيَا الرَّسُولَ بِبَلِّغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنْ أَتَائِهِ﴾ [المائدة: ٦٧]... الآية.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَتَكَلَّمُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
 ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ
 إِزْرَاهُمْ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
 فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اختلف العلماء - رحمهم الله - في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين.

[٤٧٥٧] وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبه بن عامر عن رسول الله - ﷺ -: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يقرأهُمَا»^(١). وقوله: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»، أي: بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» [آل عمران: ١٠٢]. وقوله: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ»، أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرف. «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزَمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تُقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يُصلِّيها بعض الأئمة ركعة، كما ورد بها الحديث، وتصلَّى رجلاً وربكناً، مستقبلي القبلة وغير مستقبلها. كذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها. والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلِّيها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات.

[٤٧٥٨] ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٢).

[٤٧٥٩] وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشُرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَيَسْرَا وَلَا تُعَسْرَا»^(٣). والأحاديث في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، يعني من ضيق.

وقوله تعالى: «مِثْلَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»، أي: من ضيق، بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم. قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: «قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي لَأَنْ يَرْبُطَ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا نَزَّلَ لِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» [الأنعام: ١٦١]... الآية. وقوله: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا»، قال الإمام عبد الله ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ»، قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال عبد الرحمن بن

(١) تقدم تخريجه تحت رقم ٤٦٦٩، وعجزه غريب.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٣) تقدم أيضاً في تفسير سورة البقرة.

زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ ، يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. قال ابن جرير: هذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يُسَمَّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ ، قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾ ، يعني القرآن. وكذا قال غيره. قلت: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، ثم حُثِّمُوا وأغرامهم على ما جاء به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل. ثم ذكر ميثقه تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها، والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء، يُتلى على الأحرار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَتَنُكُّمُ الْمَسْلُوبِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ ، أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ .

[٤٧٦٠] وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبي سلام أنه أخبره، قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله - ﷺ - قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جبي جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلّى؟ قال: نعم، وإن صام وصلّى. فادعوا بدعوى الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله. وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) من سورة البقرة، ولهذا قال: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً، مشهوداً بعد التكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتهم وفضلهم على كل أمة سواها، فلهذا تُقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ آبِيكَ دِينًا مُسْلِماً وَمَا كَفَرَ﴾ ، أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وتزك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحايج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من «سورة التوبة». وقوله: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ آبِيكَ دِينًا مُسْلِماً وَمَا كَفَرَ﴾ ، أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيّدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ، أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يُقِيمُوا صُحُفَهُمْ بِاللُّغَةِ الَّتِي كَانُوا يُحِبُّونَ﴾ ، يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الأزدي: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحك فيمن أمحك وإذا ظلمت فاصبر، وارض بئصرتي، فإن نُصرتي لك خير من نُصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة الحج وف الحمد والمثنة،
والثناء الحسن الجميل، لا نحصي ثناء عليه

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢١ كما ذكر المصنف.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

آيَاتُهَا
١١٨تَرْتِيلُهَا
٢٣

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفُرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

[٤٧٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله - ﷺ - الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: اللهم، زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا. ثم قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ حتى ختم العشر^(١). وكذا رواه الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال النسائي^(٢): منكر، لا تعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

[٤٧٦٢] وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيد بن بابتوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله - ﷺ -؟ قالت: كان خلق رسول الله - ﷺ - القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٧٣ والنسائي ١٤٣٩ في «الكبرى» وأحد ٣٤/١ والحاكم ٣٩٢/٢ ح ٣٤٧٩، وإسناده ضعيف، فيه يونس بن سليم، تفرد به، وهو مجهول كما في التقريب. ومع ذلك صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم، فقال: لا أظنه شيء، وقال الذهبي في «الميزان»: حدث عنه عبد الرزاق، وتكلم فيه، ولم يعتمد في الرواية. وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه، ولا يعرف إلا به، ثم ذكر الذهبي حديثه هذا، وقال: قال النسائي: هذا حديث منكر اهـ.

(٢) وقع في سائر النسخ «الترمذي» وهو سبق قلم، والصواب أنه كلام النسائي، وبحرفيته، وقد ذكر الترمذي كلاماً طويلاً، ليس فيه شيء من الألفاظ التي ذكرها المصنف. والله أعلم.

يُحَافِظُونَ ﴿١٠﴾، قالت: هكذا كان خُلِقَ رسول الله - ﷺ - . وقد رُوِيَ عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، نَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾. قال كعب الأحبار: لَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْكِرَامَةِ. وقال أبو العالية: فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ. وقد رُوِيَ ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

[٤٧٦٣] فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجزي، عن أبي نصر، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة لينة من ذهب ولينة من فضة، وغرسها، وقال لها تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزلة الملوك^(١).

[٤٧٦٤] وقال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجزي، عن أبي نصر، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ - قال: «خلق الله الجنة لينة من ذهب، ولينة من فضة، وملاطها المسك». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر من هذا الحديث: حائط الجنة لينة ذهب ولينة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزلة الملوك^(٢)! ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت.

[٤٧٦٥] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي - ﷺ -: «لما خلق جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾»^(٣). بقية عن الحجازيين ضعيف.

[٤٧٦٦] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجأ بن الحارث، حدثنا حماد بن عيسى العنسي، عن إسماعيل السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس يرفعه: لما خلق الله جنة عدن

(١) هو موقوف، وانظر ما بعده..

(٢) ضعيف. أخرجه البزار ٣٥٠٨ وأبو نعيم ٢٠٤/٦ وفي «صفة الجنة» ١/١٣٧/١٤٠ والبيهقي في «البعث» ٢٣٦ من حديث أبي سعيد، وضعفه البزار بقوله: لا نعلم رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وكذا وضعفه البيهقي. وجاء في الميزان: عدي بن الفضل، قال ابن معين وأبو حاتم: متروك الحديث، وقال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال غير واحد: ضعيف اهـ. فالرجل ضعيف جداً، وانظر الحديث الآتي.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ١١٤٣٩ وفي «الأوسط» ٧٤٢ من حديث ابن عباس، وقال المنذري في «الترغيب» ٥٤٦٨: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد. وتبعه على ذلك الهيثمي في «المجمع» ١٨٦٣٩، وأما ابن كثير - رحمه الله - فأعله بضعف رواية بقية عن الحجازيين. والمعروف أن إسماعيل بن عياش هو الذي يتصف بهذه الصفة، وإنما علة الحديث هي أن بقية مدلس، وقد عنعن، قال أحمد: توهمت أن بقية لا يحدث المناكير إلا عن المجاهيل، فإذا هو يحدث المناكير عن المشاهير. وللحديث علة أخرى: ابن جريج أيضاً مدلس، وقد عنعن، لكن الحمل فيه على بقية أولى، والله أعلم.

تنبيه: وقع في الأوسط تصريح بقية بالتحديث، وهو خطأ من شيخ الطبراني، أو من هشام بن خالد، فإنه كان يجعل ما رواه بقية بـ «عن» «حدثنا» توهماً، راجع ذلك في «الميزان».

بيده، ودلّى فيها ثمارها. وشقّق فيها أنهارها، ثم نَظَرَ إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل^(١).

[٤٧٦٧] وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البزّاز، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ لَبَنَةٌ مِنْ دُرَّةٍ بِيضَاءَ، وَلَبَنَةٌ مِنْ ياقوتة حمراء، وَلَبَنَةٌ مِنْ زَبْرَجَدَةٍ خَضْرَاءَ، يَمْلَأُهَا الْمَسْكُ وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ، وَحَشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: انطقي. قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»، فقال الله: وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل. ثم تلا رسول الله - ﷺ -: «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٢) [الحشر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَائِفُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا زوي عن مجاهد، والحسن، وقاتادة، والزهرّي. وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: الخشوع خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله - ﷺ - يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ، خَفَضُوا أبصارهم إلى موضع سُجُودِهِمْ. قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلِّئًا، فإن كان قد اعتاد النظر فليُغْمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[٤٧٦٨] ثم رَوَى ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلًا: أن رسول الله - ﷺ - كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية^(٣). والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عمّا عداها، وأثرها على غيرها، وحيث تكون راحة له وقرّة عين.

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٧٢٣ وفي الأوسط ٥٦٤٨ من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف جداً، وله ثلاث علل: محمد بن عثمان ضعفه غير واحد. وهما بن عيسى، فيه جهالة كما في الميزان، وأبو صالح اسمه باذام ضعفه البخاري ومغيرة والنسائي وغيرهم، والسدي وهو الكبير ضعفه غير واحد.

(٢) والحديث ضعيف. أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» ١/٣ - ٢ بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف، فيه محمد بن زياد الكلبي قال يحيى: ليس بشيء كما في الميزان، وشيخه يعيش بن حسين، لم أجد له ترجمة. ووقع عند أبي نعيم «بشر بن حسن» ولم أجد له ترجمة أيضاً. وله طريق آخر أشهر من هذا، وهو في المستدرک ٣٩٢/٢ والأسماء والصفات ٤٧/٢ وابن عدي ١٨٣٧/٥/١٩٣ كلهم من حديث أنس، صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: بل ضعيف. وذكره في الميزان ٥٨٧٣ في ترجمة علي بن عاصم مع حديث آخر وقال الذهبي: وهذان باطلان اهد وعلته علي بن عاصم ضعفه غير واحد، واتهمه يحيى. وكان يخطيء، ثم يصر ولا يرجع. راجع الميزان.

الخلاصة: هو حديث ضعيف، فإن عامة طرقه شديدة الضعف، والمتن منكر، والأشبه أنه عن كعب الأحبار كما رواه البيهقي في «البعث» ٢٣٤ وسرقه بعض الضعفاء والهلكى فركبوا له أسانيد، وجعلوه عن النبي ﷺ، والله تعالى أعلم.

(٣) مرسل عطاء أخرجه الطبري ٢٥٤٢٥ ومرسل ابن سيرين أخرجه برقم ٢٥٤١٤ و٢٥٤١٦ تارة مرسلًا بصيغة الجزم وتارة بصيغة التمرير بقوله «نُبئت» وتارة جملة موقوفًا، وهو برقم ٢٥٤١٥، وهو أشبه، والله أعلم.

[٤٧٦٩] كما قال النبي - ﷺ - في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطَّيِّبُ وَالنَّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

[٤٧٧٠] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، حَدَّثَنَا يَسْعَرٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢).

[٤٧٧١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الْمَغِيرَةِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلِيٍّ صِهْرًا لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ: يَا جَارِيَّةُ، ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لِعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ. فَرَأَانَا أَنْكَرْنَا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «فَمَ يَا بِلَالُ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضُونَ﴾، أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْوُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كَرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم - والله - من أمر الله ما وقدهم عن ذلك. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبه. والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ حَقِّ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [١] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [٢] [الشمس: ٩ - ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِكِينَ﴾ [٣] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصلت: ٦ - ٧]، على أحد القولين في تفسيرها. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مُراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاهِهِمْ حَفَظُونَ﴾ [٤] إِلَّا عَلَى الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ زَنَا فَأَيْتَنَّهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ [٥]، أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيما منهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَأَيْتَنَّهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ﴾ [٦] تَمَنَّ ابْتِغَى وَرَاءَهُ ذَلِكَ [٧]، أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأَوْلِيَّتُكَ هُمْ الْعَادُونَ﴾، أي: المعتدون. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة: أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، فأتي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له ناس من أصحاب النبي - ﷺ -: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فغضب العبد وجز رأسه، وقال: أنت بعدة حرام على كل مسلم^(٤). هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في أول تفسير سورة المائدة، وهو هاهنا اليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بتقيض قضائها، والله أعلم. وقد استدلل الإمام الشافعي - رحمه الله - ومن وافقه على تحريم

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٥ وأحمد ٣٦٤/٥ وهو حديث قوي. رواه لم يسم. لكن يشهد له ما بعده.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٦ وأحمد ٣٧١/٥ والطحاوي في «المشكّل» ٥٥٤٩ وإسناده حسن صحيح، وجهالة الصحابي لا

تضر، وانظر صحيح أبي داود ٤١٧١.

(٤) موقوف ضعيف، لانقطاعه بين قتادة وعمر، وهو منكر شبه موضوع.

الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال: فهذا الصنيع خارجٌ عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَدَىٰ زَوْجًا فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَادُونَ ﴿٧﴾﴾.

[٤٧٧٢] وقد استأنسوا بحديث زوّاه الإمام الحسَن بن عَرَفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجَزْرِي، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حُميد، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ - قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»^(١). هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يُعرف، لجهالة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾، أي: إذا أوثمنوا لم يُخونوا، بل يُؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أو فؤوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله - ﷺ -:

[٤٧٧٣] «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذّب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثمن خان»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٦﴾﴾، أي: يواظبون عليها في مواقيتها.

[٤٧٧٤] كما قال ابن مسعود: «سألت النبي - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». أخرجاه في الصحيحين^(٣). وفي مستدرک الحاكم قال: الصلاة في أول وقتها.

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٦﴾﴾، يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضحى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبّير، وعكرمة. وقال قتادة: على مواقيتها ورُكوعها وسُجودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

[٤٧٧٥] كما قال رسول الله - ﷺ -: «استقيموا ولن تُحْصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٤). ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرُشيدة قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَارِهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَيْسَ لِكُلِّ يَتِيمٍ الْوَرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

[٤٧٧٦] وثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٥).

(١) ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٥٤٧٠ من طريق الحسن بن عرفة بهذا الإسناد عن أنس مرفوعاً. استغربه المصنف، وفي إسناده: مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد. ذكره الذهبي في الميزان ٨٥١٨ بهذا الحديث، وقال: يبطل، هو وشيخه.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٢٧٧ وأحمد ٢٧٦/٥ و٢٨٢ والحاكم ١٣٠/١ والبيهقي من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان مرفوعاً وإسناده منقطع: سالم لم يسمع من ثوبان. وأخرجه أحمد ٢٨٢/٥ وابن حبان ١٠٣٧ من وجه آخر عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان بنحوه وإسناده حسن وله شواهد كثيرة.

(٥) تقدم في تفسير سورة آل عمران ١٣٣.

[٤٧٧٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١). وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار. ورؤي عن سعيد بن جبيرة نحو ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل.

[٤٧٧٨] بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي - ﷺ -: قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى»^(٢).

[٤٧٧٩] وفي لفظ له قال رسول الله - ﷺ -: «إذا كان يوم القيامة دَفَعَ اللهُ لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: «هذا فكأكك من النار». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو - ثلاث مرات - أن أباه حدثه عن رسول الله - ﷺ -: قال: فحلف له^(٣). قلت: وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٤) [سريم: ٦٣]، وكقولته: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) [الزخرف: ٧٢]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب. فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٦) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَثُونًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُوثًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من طين - وهو آدم عليه السلام - خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: «بين سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ»، قال: صفوة الماء. وقال مجاهد: «بين سُلَالَةٍ»، أي: من مني آدم. قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استل آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم - عليه السلام - خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(٧) [الروم: ٢٠].

[٤٧٨٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي - ﷺ -: قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات، وأصله في الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ج ٥١.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ج ٤٩ واللفظ الموقوف هو عنده أيضاً برقم ٥٠.

الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وَبَيَّنَ ذلك، والخبيث والطيب، وَبَيَّنَ ذلك^(١). وقد رَوَاهُ أبو داودَ والترمذي، من طُرُقٍ، عن عَوفِ الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ سَلَمًا مِّن سُلْطَانٍ مِّن مَّلَآئِكَةٍ ﴿٨﴾ [السجدة: ٧-٨]، أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا﴾ ﴿٩﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ﴾ ﴿١٠﴾، يعني: الرَّجِيمُ مُعَدُّ لذلك مُهَيَّأً له، ﴿إِنَّ قَدَرَهُ تَمَلُّوهُ﴾ ﴿١١﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿١٢﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. أي: مُدَّةٌ معلومة وأجل مُعَيَّنٌ حتى استحكم وتنقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عِلَاقَةً﴾، أي: ثم صَيَّرْنَا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صُلْبِ الرجل، وهو ظهره، وترائب المرأة، وهي عظامُ صدرها ما بين الترقوة إلى السرة - فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دَمٌ. ﴿فَخَلَقْنَا أَلَمَاقَةً مُّضْغَةً﴾، وهي قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلَمًا﴾، يعني شكلناها ذات رأس وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بعظامها وَعَصَبِهَا وَغُرُوقِهَا. وقرأ آخرون: «فخلقنا المضغة عظماً». قال ابن عباس: وهو عَظْمُ الصُّلْبِ.

[٤٧٨١] وفي الصحيح، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ جَسَدٍ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ»^(٢). ﴿فَكَسَوْنَا أَلْفَظَنَةً لِّحْمًا﴾، أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، أي: نفخنا فيه الروح. فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر - يعني ابن كثير، مولى بني هاشم - حدثنا زيد بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: إذا تَمَّتْ للنطفة أربعة أشهر بُعِثَ إليها مَلَكٌ فَتَفْخُ فيها الروحُ في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني: نفخنا فيه الروح. وزوي عن أبي سعيد الخدري أنه نَفَخَ الروحَ. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني نَفَخْنَا فيه الروحَ. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، يعني نَنَقَلُهُ من حالٍ إلى حالٍ، إلى أن خَرَجَ طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً هَرِمًا. وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شَرَعٌ في هذه التقلات والأحوال. والله أعلم.

[٤٧٨٢] قال الإمام أحمد في مُسْنَدِهِ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لِيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفِخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا فِرَاقٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٦٩٣ والترمذي ٢٩٥٥ وأحمد ٤٠٠/٤ و٤٠٦ والحاكم ٢٦١/٢ و٢٦٢ وابن حبان ٦١٦٠ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٧١٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٤ و٤٩٣٥ ومسلم ٢٩٥٥ وأبو داود ٤٧٤٣ والنسائي ١١١/٤ - ١١٢ وابن ماجه ٤٢٦٦ وأحمد ٣٢٢/٢ و٤٢٨ وابن حبان ٣١٣٩.

فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَخْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»^(١). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَلِيمَانَ بْنِ يَهْرَانَ الْأَعْمَشِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - إِنَّ التُّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّجْمِ طَارَتْ فِي كُلِّ شَعْرٍ وَظَفْرٍ، فَتَمَكَّتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَنَحَّيَتْ فِي الرَّجْمِ فَتَكُونُ عَلَقَةً.

[٤٧٨٣] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ، حدثنا أَبُو كُدَيْبَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ يَحْدُثُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا يَهُودِيٌّ، إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ: لِأَسْأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: فَجَاءَهُ حَتَّى جَلَسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مِمَّ يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ؟ فَقَالَ: يَا يَهُودِيٌّ، مِنْ كُلِّ يُخْلَقُ، مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ، فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَتُطْفَةُ غَلِيظَةٍ مِنْهَا الْعِظْمُ وَالْعَصَبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةُ رَقِيْقَةٍ مِنْهَا اللَّحْمُ وَالِدَمُّ. فَجَاءَ الْيَهُودِيٌّ فَقَالَ: هَكَذَا كَانَ يَقُولُ مِنْ قَبْلِكَ^(٢).

[٤٧٨٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي الطفيل، عن حُدَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّجْمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَاذَا أَشَقِي أَمْ سَعِيدٌ أَمْ أَذْكَرُ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ مَاذَا؟ أَذْكَرُ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَيَكْتَبَانِ وَيَكْتَبُ عَمَلَهُ، وَأَثَرُهُ، وَمُصِيبَتَهُ، وَرِزْقَهُ، ثُمَّ تُطَوَّرُ الصَّحِيفَةُ، فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقُصُ»^(٣). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ حَدِيثِ سَفِيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو - وَهُوَ ابْنُ دِينَارٍ - بِهِ نَحْوَهُ. وَمِنْ طُرُقٍ أُخْرَى، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ، عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ أَبِي سَرِيحَةَ الْغِفَارِيِّ بِنَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٧٨٥] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عبد الله حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال: «إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِالرَّجْمِ مَلَكًا فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، نُطْفَةٍ. أَيُّ رَبِّ عَلَقَةٍ. أَيُّ رَبِّ، مَضْغَةٍ. فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَهَا قَالَ: أَيُّ رَبِّ. دَكَرٌ أَوْ أَنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ؟ قَالَ: فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(٤) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ حَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْكَافِرِينَ﴾، يَعْنِي: حِينَ دَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النَّطْفَةِ مِنْ حَالِ

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٣٤ وفي تفسير سورة الرعد عند آية: ٨.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه أحمد ٤٤٣٨ والبزار ٢٣٧٦ و٢٣٧٧ والطبراني ١٠٣٦٠ من حديث ابن مسعود. قال الهيثمي في «المجموع» ١٣٩٠١: رواه أحمد والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناديه، عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وفي إسناد الجماعة، عطاء بن السائب، وقد اختلط له. والراوي عن عطاء عند أحمد، حسين بن حسن الأشقر، وهو ضعيف. وللحديث علة ما ذكرها الهيثمي رحمه الله، وهي الانقطاع بين عبد الرحمن، وأبيه عبد الله بن مسعود. ثم إن المتن منكر بهذا اللفظ، والمشهور في هذا حديث «بم يشبه الرجل أباه أو أمه...» الحديث. ليس فيه ذكر العظم والعصب، واللحم والدم. والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٩٥ ومسلم ٢٦٤٦ وأحمد ١٤٨/٣ والآجري في «الشرعية» ٣٧٧.

إلى حالٍ، وشكّل إلى شكل، حتى تصوّرت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوّي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

[٤٧٨٦] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حمّاد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس، قال: قال عمر - يعني ابن الخطاب، رضي الله عنه -: وافقت ربّي في أربع: نزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧)، فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١).

[٤٧٨٧] وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملى عليّ رسول الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧) إلى قوله: ﴿خَلْقَاءَ آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله - ﷺ - فقال له معاذ: ممّ ضحكك يا رسول الله؟ قال: بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٢). وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا جَعَلْنَاهُ نَفْسًا رَافِعَةً﴾ (١٥)، يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿فَرَأَى إِذْ يَخْرُجُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَتَعَثَّرُونَ﴾ (١٦)، يعني النشأة الآخرة. ﴿ثُمَّ إِنَّهُ يُنْفِثُ الْبُرُوقَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عايل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطّف بذكر خلق السموات السبع. وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿آلِ آلِ آلِ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع. وهذه كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، و﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥) [نوح: ١٥]، و﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَرَبَّ الْأَرْضِ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢). وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)، أي: و﴿يَعْلَمُ مَا بَلَّغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطيالسي ٤١، وفي الإسناد علي بن زيد، وهو ضعيف كما في التريب.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٧، ومداره على جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف جداً كما قال ابن كثير: بل كذبه أبو حنيفة رحمه الله وغيره، ثم إن السورة مكية كما ذكر المصنف - رحمه الله - والخبر مدني معاذ أسلم في المدينة، وزيد كتب الوحي أيضاً في المدينة. فهذا المتن من تحلّيات جابر الجعفي ومع ذلك قال الهيثمي: جابر ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

[الحديد: ٤]. وهو - سبحانه - لا يَحْبُجُّ عنه سماءَ سماءَ، ولا أرضَ أرضاً، ولا جبلَ إلا يعلم ما في وِغْرِهِ، ولا بحرَ إلا يعلم ما في قَعْرِهِ، يعلم عَدَدَ ما في الجبالِ والتلالِ والرمالِ، والبحارِ، والقفارِ والأشجارِ، ﴿وَمَا سَقَطَ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ مِنْ تَلْحُكْتِ الْأَرْضِ وَلَا رَمْيٍ وَلَا بَابٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَلْهَمْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكَيْ تُدْرِكُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿يَقْدِرُ﴾، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسيد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل يقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحمل وثمرتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلادٍ أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرضُ الجُزْزُ»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويُقرُّ الطين على أرضهم ليزرعوا فيه. لأن أرضهم سباحٌ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور وقوله: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليةً له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحبِّ والثوى. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا يتنفع به ليشرب ولا يسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل يتجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يُغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتنعمون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفجر العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه، وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمثمة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾، يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾، أي: فيها نخيل وأعنان، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعم الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾، يعني الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عربي عنها سمي جبلاً لا طوراً. والله أعلم. وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - عليه السلام - وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾، قال بعضهم: الباء زائدة وتقديره: تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان

بيده أي: يده. وأما على قول من يُضْمَنُ الفعل فتقديره: تخرُجُ بالدهن، أو تأتي بالدهن. ولهذا قال: ﴿وَصَبَّحْ﴾، أي: أذم، قاله قتادة: ﴿لِلَّذَلِيلِينَ﴾، أي: فيها ما يُتَّعَقُّ به من الدهن والاصطباغ.

[٤٧٨٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد - واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «كُلُوا الزَيْتَ وَأَدْمِثُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ»^(١).

[٤٧٨٩] وقال عبد بن حميد في مُسنَّده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عُمر أن رسول الله - ﷺ - قال: «اتَّذِمُوا بِالزَّيْتِ وَأَدْمِثُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ»^(٢). ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق، قال الترمذي: ولا يُعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عُمر، وربما لم يذكره.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيينة، حدثني الصغب بن حكيم بن شريك بن نُمَلَّة، عن أبيه، عن جده. قال: ضفَّتْ عُمر بن الخطاب ليلة عاشوراء، فأطعمني كُسُوراً من رأس بعير بارِد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال لبيبة ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمُوا فِي بُطُونِهَا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لِمَلَكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، يذكر تعالى ما جعل لخلقِهِ في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْثِ وَدَمٍ، ويأكلون من حُمْلَانِهَا، وَيَلْبَسُونَ من أوصافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقَال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْسِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَيْنًا آيِينَآ أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا تَلَكُؤُونَ ﴿٦٨﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٩﴾ وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَا يُتَّبَعُوا بِهِ حَقٌّ حِينِ ﴿٧٥﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح - عليه السلام - حين بعثه إلى قومه لِيُنذِرَهُم عذابَ الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: ألا تخافون من الله في إسرائاكم به؟ فقال الملائكة - وهم السادة والأكابر منهم - : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنون: يترفع عليكم ويتعاطف بدعوى النبوة، وهو بشرٌ مثلكم. فكيف أوجي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ

(١) أخرجه أحمد ٤٩٧/٣ والحاكم ٣٩٧/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن، يتأيد بما بعده.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ١٨٥١ وابن ماجه ٣٣١٩ ورجال ثقات، لكن اضطرب فيه عبد الرزاق كما ذكر الترمذي، وقد ورد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجه ٣٣٢٠ والحاكم ٣٩٨/٢ وصححه، وقال الذهبي: عبد الله واو. وقال البوصيري في «الزوائد»: فيه عبد الله بن سعيد المقبري متروك. وانظر «مجمع الزوائد» ٤٣/٥، ومع ذلك فالحديث حسن بشواهد.

شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴿٢٦﴾ . أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ ، أي: ينبغي البشر ﴿فِي مَا بَيْنَنَا وَالْأُولَى﴾ . يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية . وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَى﴾ ، أي: مجنون فيما يزعمه ، من أن الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ، ﴿فَتَرَوْهُ مُدْعِياً مِنْكُمْ حَتَّىٰ جَاءَ﴾ ، أي: انتظروا به رب المثلون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح - عليه السلام - أنه دعا ربه يستنصره على قومه ، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلْحُومٌ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القمصر: ١٠] ، وقال هاهنا: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي: ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ ، أي: من سبق فيه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله ، كابنه وزوجته ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ، أي: عند معاينة انزال المطر العظيم ، لا تأخذنك رافة بقومك ، وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لتعلمهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرَقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقد تقدمت القصّة مبسوطّة في «سورة هود» بما يعني عن إعادة ذلك هاهنا . وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ، كما قال: ﴿وَصَلِّ لَكَ مِنَ الْفُلْكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ ﴿٢٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ذُرّاً تُحْمَلُونَ بِكُمْ وَإِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَنَا مُقَرَّبِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤] . وقد امتثل نوح - عليه السلام - هذا ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنِيهَا وَمَنْ سَبَّهَا﴾ [هود: ٤١] . فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه ، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ . وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ . أي: إن في هذا الصنيع ، وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ، ﴿لآيات﴾ ، أي: لـحججاً ودلالات واضحة على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى ، وأنه تعالى فاعل لما يشاء ، وقادر على كل شيء ، عليم بكل شيء . وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ، أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿مَرَّ أَشْنَا مِنْ بَدْرِهِمْ قَرْنَا عَاقِبِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَأَتَرَقْتُهُمْ فِي الْعِوَةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّيْرُونَ ﴿٣٨﴾ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْلاً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَهُنَا هُنَا لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِسَابُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَاخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُنُقًا فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَوْمًا آخَرِينَ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ عَادٌ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ لُؤْلَاءُ ثَمُودَ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَاخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَّه لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَبُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ لِكُونِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، وَاسْتَكْفَوْا عَنْ أَتْبَاعِ رَسُولِ بَشَرِي، فَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الْقِيَامَةِ، وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجَنَّمَانِي، وَقَالُوا: ﴿أُبَدِّدُكُمْ أَكْثَرَ تَرَابًا وَعَظْمًا أَكْثَرَ تَحْرُوتٍ ﴿٣٥﴾﴾ هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أَي بَعِيدَ بَعِيدَ ذَلِكَ. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أَي: فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرَّسَالَةِ وَالتَّذَارَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ بِمَالِ الْغَدَاةِ، ﴿وَمَا تَحْنُ لَهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾، أَي: اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولَ وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، أَي: بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، ﴿فَلَاخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، أَي: وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ لِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّغْرِصِرِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدَةِ، ﴿فَدَبَّرَ كُلُّ قَوْمٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَاسْتَبَحُوا لَا يَرْجَى إِلَّا سَكَنُكُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عُنُقًا﴾، أَي: صَرَعَى هَلَكَى كَعُنُقِ السَّيْلِ، وَهُوَ: الشَّيْءُ الْحَقِيرُ النَّافِعُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ. ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، أَي: بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يَكْذِبُوا رَسُولَهُمْ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَاةً كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾، أَي: أُمَّةً وَخَلَائِقَ، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، يَعْنِي: بَلْ يُؤْخَذُونَ حَسَبَ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ وَعَلَيْهِ قَبْلَ كَوْنِهِمْ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ وَقَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَخَلْفًا بَعْدَ سَلْفٍ. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَاةً﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾، يَعْنِي: جُمُوهَرَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْحَصِرَ عَلَى الْيَبَاوَا مَا بَأْسُهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾، أَي: أَهْلَكْنَاهُمْ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، أَي: أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفَعْنَاهُمْ كُلَّ مَرْفَعٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبا: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِيَّاكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَاتٍ مِثْلَ مَا أَنْزِلْتَ لِقَوْمِ هَارُونَ وَنَارِ هَارُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ، وَالْبُرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَأَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهِمَا، وَالتَّقِيَادِ لِأَمْرِهِمَا، لِكُونِهِمَا

بَشْرِينَ، كَمَا أَنْكَرَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةَ بَغْثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَآءَهُ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَصَمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَالْقَبْطَ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ لَمْ يَهْلِكْ أُمَّةٌ بِعَامَّةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصِغَارٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٣]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَحِطْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم - عليهما السلام - أنه جعلهما آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، يقول: ذَاتِ خَصْبٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾، يعني ماء ظاهراً، وقال مجاهد: رَبْوَةٌ مُسْتَوِيَةٌ. وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجاري. ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة في أي أرض هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى. وروي عن وهب بن منبه نحو هذا. وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق. قال: وروي عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن معدان نحو ذلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سيماء، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أوريا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي الرملة من فلسطين.

[٤٧٩٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا رواد ابن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السبباني، عن ابن وغلدة، عن كريب السخولي، عن مرة البهزي قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول لرجل: إنك تموت بالربوة. فمات بالرملة^(١). وهذا حديث

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٨ عن مرة البهزي. - وقع في الجمع «مرة الزهري» وهو تصحيف - قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم اه. قلت: فيه رواد بن الجراح، قال أحد: لا بأس به إلا أنه حدث عن سفيان بن عيينة. وقال يحيى: ثقة. وقال النسائي: روى غير حديث منكر. وقال الدارقطني: متروك، وضعفه البخاري. راجع الميزان ٢٧٩٥، وشيخه عباد بن عباد هو الأرسوفي، وثقه ابن معين وغيره، وقال ابن حبان كان يأتي بالشيء على التوهم، حتى كثرت المناكير في روايته على قلتها، فاستحق الترك اه الميزان ٤١٢٤. وأسند الطبري من هذا الوجه ٢٥٥١٠ بدون ذكر القصة.

غريب جداً. وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِنْ رَزَقُوا ذَاتَ قُرْبَرٍ وَمَيِّينَ﴾، قال: المَيعِين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ نُجُومًا سِرًّا﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك، وفتادة: ﴿إِنْ رَزَقُوا ذَاتَ قُرْبَرٍ وَمَيِّينَ﴾ هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يُفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَجِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ سَخِرَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - بالأكل من الحلال. والقيام بالصالح من الأعمال، فذل هذا على أن الحلال عونٌ على العمل الصالح، فقام الأنبياء - عليهم السلام - بهذا أنتم القيام، وجمَعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا خلوكم ولا حَامِضِكُمْ، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبیر، والضحاك: ﴿كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمته.

[٤٧٩١] وفي الصحيح: «ما من نبي إلا زعى العنم. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرحاها على قراريط لأهل مكة»^(١).

[٤٧٩٢] وفي الصحيح: «إن داود - عليه السلام - كان يأكل من كسب يده»^(٢).

[٤٧٩٣] وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفتر إذا لاقى»^(٣).

[٤٧٩٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحَكَم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب: أن أم عبد الله، أخت شداد بن أوس بعثت إلى النبي - ﷺ - بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في طول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أتى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي. فشرّب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله بعثت إليك بلبن مَرْتِيئةً

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٦٢ وابن ماجه ٢١٤٩ وابن سعد في «الطبقات» ١/١٠٠ من حديث أبي هريرة. وفي الباب من حديث جابر عند البخاري ٣٤٠٦ ومسلم ٦٠٥٠ وأحمد ٣/٣٢٦ وابن حبان ٥١٤٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٧٣ وابن حبان ٦٢٢٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٠ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨٩ وأبو داود ٢٤٤٨ والنسائي في «الكبرى» ١٣٢٧ وابن ماجه ١٧١٢ من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس الثقفي عن عبد الله بن عمرو وليس فيه قوله «ولا يفتر إذا لاقى» وإنما هذا اللفظ أخرجه البخاري ٣٤١٩ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨٧ والنسائي ٤/٢١٤ وأحمد ٢/١٨٩ من وجه آخر عن أبي العباس عن ابن عمرو مطوّلاً.

لك من طول النهار وشدة الحر، فَرَدَدَتْ إِلَيَّ الرِّسُولَ فِيهِ ١٩ قَالَ لَهَا: بِذَلِكَ أَمَرْتُ الرِّسُولَ، أَلَّا تَأْكُلِ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا تَعْمَلِ إِلَّا صَالِحًا^(١).

[٤٧٩٥] وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾»، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٢) [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب. «فأثنى يستجاب لذلك» ١٩. وقال الترمذي: «حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق».

وقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّهِ أَتَىٰ مَن وَجِدَةٌ﴾، أي: وإن دينكم - يا معشر الأنبياء - دين واحد، وملّة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله ﴿أَنَّهُ وَجِدَةٌ﴾ منصوب على الحال. وقوله: ﴿فَنَقَطُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ذُرًّا﴾، أي: الأمم الذين بعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْعُونٌ﴾، أي: يفرضون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال منهّدًا لهم ومترعدًا ﴿فَذَرَهُمْ فِي ضَلٰٓئِلِهِمْ﴾، أي: في غيهم وضلالتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى حين حين خيبتهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَكْفِيهِمْ أَنهٰلَهُمْ ذُرًّا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْبَسُوا بِأَمْوَالِهِمْ لَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّهُهُم بِمَن تَالَىٰ وَيَتَّبِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ شَارِحُ لَمْ يَلْ لَفِيَّتْ بَلْ لَا يَتَّبِعُونَ﴾، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطّيبهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزّتهم عندنا ١٩ كلاً، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿مَنْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَنْ يَمْعَدِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعلُ بهم ذلك استدراجاً وانظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَتَّبِعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَالَهُمْ وَلَا أَهْوَالَهُمْ وَلَا أَهْوَالَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيٰٓوةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كٰٓفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُفِّلُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِفْسًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرُوهُم مَّا يُكٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْوَالُكُمْ وَلَا أَهْوَالُكُمْ بِأَلِيٍّ تَتَّبِعُونَ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صٰٓلِحًا فَأُولٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءٌ كَثِيفٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفِرْقٰٓتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبا: ٣٧]، والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّهُهُم بِمَن تَالَىٰ وَيَتَّبِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ شَارِحُ لَمْ يَلْ لَفِيَّتْ بَلْ لَا يَتَّبِعُونَ﴾، قال: مكر - والله - بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا بن آدم، فلا تتعبّر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

[٤٧٩٦] وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ الصَّبَّاحِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مَرْثَةَ الهمداني، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله قسم بينكم

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٧٤/٢٥ - ١٧٥ - وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مریم، انظر «المجمع» ٢٩١/١٠.

(٢) وقد تقدم تخريج الحديث أثناء تفسيرها.

أخلاقكم، كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم. وإنَّ الله يعطي الدنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فَمَنْ أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده، لا يُسَلِّمُ عبدٌ حتى يَسَلِّمَ قلبه ولسانه، ولا يؤمنُ حتى يأمنَ جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه يا نبيَّ الله؟ قال: عَشْمُهُ وظَلْمُهُ ولا يكسِبُ عبدٌ مالا من حَرَامٍ فينتقى منه فيبازك له فيه، ولا يَتَصَدَّقُ به فيقبل منه، ولا يتركه خَلْفَ ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحُو السيء بالسَّيءِ، ولكن يمحُو السيءَ بالحسَنِ، إن الخبيث لا يمحُو الخبيث^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعمَلهم الصالح مُشْفِقُونَ مِنْ الله، خَائِفُونَ منه، وَجِلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بهم، كما قال الحسنُ البصريُّ: إن المؤمنَ جَمَعَ إحساناً وشَفَقَةً، وإن الكافر جَمَعَ إساءةً وأمناً. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم - عليها السلام -: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ التَّحَرِّمِ: [١٢]، أي: أبقت أن ما كانَ فإنما هو عن قَدَرِ الله وقَضَائِهِ، وما شرَّعه الله فهو إن كان أمراً فمما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: لا يعبدون معه غيره، بل يُؤخِّدونه وَيَعْلَمُونَ أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نُظيرَ له ولا كُفءَ له. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي: يُعْطُونَ العَطَاءَ وهم خائفون وَجِلُونَ ألا يُتَقَبَّلَ منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قَصُرُوا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاقِ والاحتياطِ؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٧٩٧] حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حَدَّثَنَا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، يا رسول الله، هو الذي يسرق ويَزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يُصَلِّي ويصومُ وَيَتَصَدَّقُ، وهو يخاف الله عز وجل^(٢)». وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه. وقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يُصَلُّون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِاتِ﴾»، قال الترمذي: «وروي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - نَحْوُ هذا». وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرظي، والحسنُ البصري في تفسيره هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما آتوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - أنه قرأ كذلك.

[٤٧٩٨] قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان حَدَّثَنَا صخرُ بن جويرية، حدثنا إسماعيلُ المكي، حدثني أبو

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٧٥ وأحمد ١٥٩/٦ و٢٠٥، وفيه إرسال، عبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة، لكن ما بعده متصل، فهو يعتضد به، والله أعلم. وله طريق آخر عند الطبري ٢٥٥٦١ وآخر ٢٥٥٦٣.

خَلَفَ مولى بني جُمَحَ: «أنه دخل مع عُبَيْد بن عُمَيْر على عائشة - رضي الله عنها - فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنحك أن تزورنا - أو: تِلْمَ بنا -؟ فقال: أَخْشَى أن أملك. فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت أسألك عن آية في كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله - ﷺ - يقرأها؟ فقالت: آية آية؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾، أو «والذين يأتون ما أتوا»؟ فقالت: أيتها آية؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ أَحْبَبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعاً - أو: الدنيا وما فيها - قالت أيتها؟ قلت: «والذين يأتون ما أتوا». فقالت: أشهد أن رسول الله - ﷺ - كذلك كان يقرأها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف»^(١). فيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف. والمعنى على القراءة الأولى - وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم - أظهر، لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُدْعَوْنَ فِي الْفَرَجِ وَهُمْ لَمَّا سَوَّفُونَ ﴿٦٦﴾﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدین أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا تَكَلَّفْ نَفْساً إلاً وَسَعَهَا وَلِدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظَلِّمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَحَدْنَا مَتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٩﴾ لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ الْيَوْمِ إِنَّا كَرِيمٌ ﴿٧٠﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَغْفِيكُمْ لِنُكُوصِمْ ﴿٧١﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّفُ نفساً إلاً وَسَعَهَا، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يُحَاسِبُهُمْ بأعمالهم التي كتبت عليهم في كتاب مَسْطُورٍ لا يُضَيِّعُ منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾، يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُوَ لَا يُظَلِّمُونَ﴾، أي: لا يُبْخَسُونَ من الخير شيئاً، وأما السيناتُ فيعفو وَيَصْفَحُ عن كثير منها لعباده المؤمنين. ثم قال منكرأ على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ﴾، أي: غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ ﴿مِّنْ هَذَا﴾، أي: القرآن الذي أنزله على رسوله - ﷺ - وقوله: ﴿وَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾، قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ أَعْمَلٌ﴾، أي: سَيِّئَةٌ من دُونِ ذلك، يعني الشرك ﴿هُم لَهَا عَمَلُونَ﴾، قال: لا بُدَّ أن يعملوها. وكذا زوي عن مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾، أي: قد كَثِبَتْ عليهم أعمال سيئة لا بُدَّ أن يعملوها قبل مؤتهم لا محالة، لِيَتَّجِقَ عليهم كلمة العذاب. وزوي نحو هذا عن مقاتل بن حيان، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوي حسن.

[٤٧٩٩] وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل ليعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فَيَسْبِقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَحَدْنَا مَتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٩٥/٦ ح ٢٤١٢٠ وح ٢٤٥٩١ و١٤٥٩٢، وأعله ابن كثير وكذا الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٩ بضعف إسماعيل بن مسلم المكي، وله علة ثانية، أبو خلف، هو المكي، ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» مع هذا الحديث بدون جرح أو تعديل، وذكره الذهبي في الميزان ١٠١٥٧ بهذا الحديث، وقال: لا يعرف، وأخرجه الطبري ٢٥٥٥٨ من وجه آخر عن أبي خلف، لكن ليس فيه ذكر النبي ﷺ وإنما هي أقرانها ذلك، وأياً كان، فأبو خلف مجبول، وهو علة هذا الخبر.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

السعداء المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَبِرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَدَرَىٰ مِنَ الْمَكَّيِّنَ أُولَىٰ الْقَتْمَةِ وَمَهَلًا قَيْلًا ﴿١١﴾ إِذْ لَدَيْنَا أَنكَالٌ وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَكَلَامًا فَا عَسَوَٰهُ آيَاتٍ لِّمَا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١١ - ١٣] وقال تعالى: ﴿كُرْهُنَّ أَهْلَكُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْرَ قَدَادٍ وَإِلَآتٍ جِئْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١٤﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَخْتَبِرُوا إِلَهُكُمْ إِنَّكُمْ بِنَاتٍ لَا تَخْتَبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾، أي: لا تُجبركم مما حلَّ بكم، سواء جأرتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وزز، لزم الأمر، ووجب العذاب. ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنزلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَهْقِيكُمْ نُنْكِرُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: إذا دُعيتُم أبيتُم، وإذا طُلبتُم امتنعتم، ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَنْ يَشْرَكَ بِهِ تَوْحُودًا فَلْيُكْفِرْ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [صافات: ١٦]. وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾﴾، في تفسيره قولان، أحدهما: أن ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال منهم حين نُكوصهم عن الحق وإبانهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله. فعلى هذا الضمير في ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرَم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون به بالهجر من الكلام. والثاني: أنه ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة». إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد - ﷺ - كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون، وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرَم صاغرين إذلاءً. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾، أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا بهم.

كما قال السَّاني في التفسير من سُنَّبه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾﴾، فقال مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَعِيرًا﴾، قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه: يهجرونه. وقد أظن ابن أبي حاتم هاتنا بما هذا حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ إِذْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَمْنُكِرُوا ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْفَرُوا بِالْحَقِّ كَرِهُوا ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا فَخَرَجَ رَيْكُ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾﴾

﴿٧٥﴾ يَحْمَهُونَ

يقول تعالى منكرأ على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسولٍ أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا آتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله الشجباء منهم بمن أسلم واتبع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ورَضِي عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون في القرآن راجراً عن مَعْصِيَةِ اللَّهِ لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوه بما تشابهه، فهلَكوا عند ذلك. ثم قال منكرأ على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَمْنُكِرُوا ﴿٦٩﴾﴾، أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانتها التي نشأ بها فيهم، أفقدون على إنكار ذلك والمُباةنة فيه؟ ولهذا قال

جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - للنجاشي ملك الحبشة: «يا أيها الملك، إن الله بعثت إلينا رسولا نعرف نُسبه وصدقه وأمانته». وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم. وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي - ﷺ - ونُسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعدُ كفارا لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك. وقوله: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ»، يَخْكِ قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أنه تقول القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يذري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدين، ولهذا قال: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ»: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ جُمْلَةٌ حَالِيَةٌ، أَي: فِي حَالِ كِرَاهَةِ أَكْثَرِهِمَ لِلْحَقِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خَبْرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[٤٨٠٠] وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّكَ لَتَدْعُونِي إِلَى أَمْرٍ أَنَا لَهُ كَارِهٌ. فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا. وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ. فَتَصَعَّدَهُ ذَلِكَ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي طَرِيقٍ وَغَيْرِ وَغَيْثٍ، فَلَقَيْتَ رَجُلًا تَعْرِفُ وَجْهَهُ. وَتَعْرِفُ نُسْبَهُ، فَدَعَاكَ إِلَى طَرِيقٍ وَاسِعٍ سَهْلٍ، أَكُنْتَ مُتَّبِعًا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّكَ لَفِي أَوْعَرَ مِنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ لَوْ قَدْ كُنْتُ عَلَيْهِ، وَإِنِّي لَادْعُوكَ إِلَى أَسْهَلِ مِنْ ذَلِكَ لَوْ دُعِيتَ إِلَيْهِ. وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ، فَتَصَعَّدَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ فِتْيَانٍ، أَحَدُهُمَا إِذَا حَدَّثَكَ صَدَقَ، وَإِذَا أَتَمَّتْهُ أَدَى إِلَيْكَ أَهْوَى أَحَبَّ إِلَيْكَ أَمْ فَتَاكَ الَّذِي إِذَا حَدَّثَكَ كَذَبَ، وَإِذَا أَتَمَّتْهُ خَانَكَ؟ قَالَ: بَلْ فَتَايَ الَّذِي إِذَا حَدَّثَنِي صَدَقَنِي، وَإِذَا أَتَمَّتْهُ أَدَى إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كَذَاكُمْ أَنْتُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ^(١).

وقوله تعالى: «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»، قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: الحق هو الله عز وجل. والمراد لو أحبهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك، «لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ»، ثم قال: «أَمْ يَرَى الْقَائِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» [الزخرف: ٣١ - ٣٢]، وقال تعالى: «قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْتَكْبَرْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» [الإسراء: ١٠٠]. وقال: «أَمْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ قَدْ قَالَ: لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَبِيًّا» [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وتذبيره لخلقهم - تعالى وتقدس - فلا إله غيره، ولا رب سواه. ثم قال: «بَلْ آيَاتُهُمْ يُلَكِّهِمْ»، يعني القرآن، «فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ».

وقوله تعالى: «أَمْ تَسْتَأْذِنُهُمْ خَيْرًا»، قال الحسن: أجزأ. وقال قتادة: جُعِلًا، «فَخَرَّجُ رَبِّكَ خَيْرٌ»، أي: أنت لا تسألهم أجرًا ولا جُعِلًا ولا شيئًا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» [سبا: ٤٧]، وقال: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» [ص: ٨٦]، وقال: «قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَى أَجْرٍ إِلَّا الْوَدْعُ فِي الْقُرْآنِ» [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: «رَبَّاعَةَ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَدْعُوهُ تَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» [٢٤] اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» [يس: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

[٤٨٠١] قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله - ﷺ - أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسي: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفَر انتهبوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد من يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة جَبَرَة، فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً مُعشبة، وحياضاً رِوَاء تُبْعُوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً مُعشبة وحياضاً رِوَاء فأكلوا وشربوا وسمنوا. فقال لهم: ألم ألقمكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً مُعشبة وحياضاً رِوَاء أن تبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشبت من هذه، وحياضاً هي أزوى من هذه فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتبعتنه. وقالت طائفة: قد رضىنا بهذا، نقيم عليه^(١).

[٤٨٠٢] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إني مُمسيك بِحُجْرِكُمْ: هلتم عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتقاحمون فيها تقاحم الفرائش والجنادب، فأوشك أن أرسيل حُجْرِكُمْ وأنا فَرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكم وأسماكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأنشيد فيكم رب العالمين: أي رب، قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها نغاة يُنادي: يا محمد، يا محمد. فاقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رُغاة يُنادي: يا محمد، يا محمد. فاقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت. ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حَمَحَمَة فينادي: يا محمد، يا محمد. فاقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت. ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادي يا محمد، يا محمد، فاقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت^(٢)». وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي. قلت: بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائي وابن جبان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: لعادِلُونَ جَائِرُونَ مُنْحَرِفُونَ. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاع عنها. وقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكُنَّفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضِرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾: يُخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أراح عِللهم وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولا استمروا على كفرهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَا إِذْ وَفَقُوا عَلَى الْكَاذِبِ فَقَالُوا يَا بَنَاتَنَا قُرُودٌ وَلَا نُكَلِّبُكُمْ بِكَايِدِ رَبِّنَا وَلَكُنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿٧٨﴾﴾ وقالوا إن هي إلا

(١) أخرجه أحمد ٢٦٧/١ والطبراني ١٢٩٤٠ وفيه علي بن زيد، وهو غير قوي، لكن له شواهد يحسن بها إن شاء الله.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ٨٥/٣ والبخاري ٩٠٠ «كشف» وقال الهيثمي: ورجاله الجميع ثقات اهد. وللحديث شواهد تقويه وهي في الصحيح.

حَيَاتِنَا أَلَدْتِنَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٧٦﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩]، فهذا من باب عليه تعالى بما لا يكون، ولو كان كيف كان يكون. قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾، أي: فما زداهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيبهم. ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا﴾ أي ما خشعوا، ﴿وَمَا يَنْضَعُونَ﴾، أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَقُولُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْمَاءٍ نَضَعُوا وَلَكِنْ سَتَ قُلُوبُهُمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

[٤٨٠٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن خشرم المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي، عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العليهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾﴾^(١). وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به.

[٤٨٠٤] وأصل هذا الحديث في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - دعا على قريش حين استعصوا فقال: اللَّهُمَّ، اعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِ يُوسُفَ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال: حُجِسَ وَهَبٌ بِنِ مَيْبَةٍ، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فصام وهب ثلاثاً متواصلة فقبل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله قال: أحدث لنا فأحدثنا. يعني أحدثنا زيادة عبادة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة - وهي العقول والفهم - التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٢ وابن حبان ٩٦٧ والطبراني ١٢٠٣٨ من طرق عن علي بن الحسين به وصححه الحاكم ٣٩٤/٢ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن من أجل علي بن الحسين بن واقد قال الحافظ في «الفتح» ٥١٠/٦: صدوق يهمل انه لكنه توبع فقد أخرجه الطبري ٦٥٦٣٣ والبيهقي في «الدلائل» ٨١/٤ من وجه آخر عن عكرمة به.

(٢) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٩٩.

وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [يوسف: ١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في بزيه الخليقة وذنه لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ انْتِفَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، لا يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهم، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفليس لكم عقول تدلکم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء، وخضع له كل شيء. ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من الكذابين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ قَالُوا أَوْدَانًا وَنَنَا وَكَنَّا تَرَابًا وَعِظْنَا أَوْدَانًا لَنَبْعَثُونَ؟ يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَكَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾، يعنون أن إعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَوْدَانًا كُنَّا وَعِظْنَا نَحْنُ﴾ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا نَارُ كَبُرَتْ خَاسِرَةٌ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجِدَةٌ ﴿٨٨﴾ فَإِذَا هِيَ بِلُتَاهِرَةٌ [النازعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِني الْعَظِيمُ وَهِيَ رَيْسٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ بِحَسْبِيَ اللَّهُ الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٧ - ٧٩]... الآيات.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مَلِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَن تَسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنْتَنَّهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والمملك، ليرشد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد - ﷺ - أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟﴾ أي: من مالكةا الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار، وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ. أي: فيعتبرون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان كذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ألا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾؟ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم؟ يعني الذي هو سقف المخلوقات.

[٤٨٠٥] كما جاء في الحديث الذي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ عَزَّاهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا. وَأَشَارَ بِيَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ»^(١).

[٤٨٠٦] وفي الحديث الآخر: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاحٍ، وَإِنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَنْتَلِكِ الْحَلْقَةِ فِي تَلِكِ الْفَلَاحَةِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ قَطْرَتَيْ الْعَرْشِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَارْتِفَاعُهَا عَنِ الْأَرْضِ السَّابِعَةَ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ عَرْشًا لِارْتِفَاعِهِ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي الْعَرْشِ كَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلُوقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ فِي أَرْضِ فَلَاحٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ سَالِمٍ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عِمَارِ الدُّهْنِيِّ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطْنِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ قُدْرَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْعَرْشُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ. وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، يَعْنِي: الْكَبِيرَ، وَقَالَ آخِرُ السُّورَةِ: «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ»، أَي: الْحَسَنَ الْبَهِيِّ. فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشَ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الْإِتْسَاعِ وَالْعُلُوِّ، وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ. وَلِهَذَا قَالَ مِنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ رَبِّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نَوْرُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «سَيَقُولُونَ لِيَلَّوْا قُلُوبَنَا أَفَلَا تَنفَعُونَ»^(٣)، أَي: إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْتَذِرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِسْرَافِكُمْ فِيهِ؟!

[٤٨٠٧] قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا الْفَرَّاشِيُّ فِي كِتَابِ «التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ»: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَثِيرًا مَا يُحَدِّثُ عَنْ امْرَأَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، مَعَهَا ابْنٌ لَهَا يَرْعَى غَنَمًا، فَقَالَ لَهَا ابْنُهَا: يَا أُمَّهُ، مَنْ خَلَقَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ أَبِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَنِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْجَبَلَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ هَذِهِ الْعِثَمَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ. قَالَ: فَإِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ شَأْنًا. ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ فَتَقَطَّعَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - كَثِيرًا مَا يُحَدِّثُنَا هَذَا الْحَدِيثَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ كَثِيرًا مَا يُحَدِّثُنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ^(٤). قُلْتُ: فِي إِسْنَادِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ الْمَدِينِيِّ، وَالْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. «قُلْ مَنْ يَبِيدُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ»: أَي: بِيَدِهِ الْمَلِكُ، «مَنْ آتَى دَابَّةً إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبِنِيهَا» [مؤد: ٥٦]، أَي: مُتَصَرِّفٌ فِيهَا.

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٢٦ من حديث جبير بن مطعم وتقدم الكلام عليه في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه ابن عدي ١٧٨/٤ بهذا الإسناد من حديث ابن عمر، وعلته عبد الله بن جعفر والد علي المدني. قال ابن كثير: تكلموا فيه. وجاء في الميزان ٤٢٤٧: متفق على ضعفه. قال يحيى: ليس بشيء. وقال ابن المدني: أبي ضعيف. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك إحد قلت: عبد الله بن دينار، ثقة، بل هو فوق الثقة، فلو كان هذا الحديث عنده لرواه الأئمة، فكيف يتفرد به عبد الله بن جعفر وحده ولا يتابع عليه كما قال ابن عدي، فهذا دليل على بطلانه، فهو ضعيف جداً.

[٤٨٠٨] وكان رسول الله - ﷺ - يقول: «لا والذي نفسي بيده»^(١)،

[٤٨٠٩] وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومُقَلَّبَ الْقُلُوبِ»^(٢). فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٣)، كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يُجِيرَ عليه لثلاث يفتات عليه. ولهذا قال الله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ»^(٤)، أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، الذي لا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: «لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ»^(٥) [الأنبياء: ٢٣] أي: لا يُسْتَلُ عما يفعل لعظمته وكبريائه، وقهره وعُظْمَتِهِ، وعزته وحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، والخلق كلهم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»^(٦) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٧) [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

وقوله تعالى: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ»^(٨)، أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه هو الله تعالى، وحده لا شريك له. «قُلْ فَأَنَّى تُشْرِكُونَ»^(٩)، أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى: «بَلْ أَنزَلْنَاهُمْ بِالْحَقِّ»^(١٠)، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، «وَأَنزَلْنَاهُمْ لَكَذِبُونَ»^(١١)، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِيهِمُ الْكَافِرُونَ»^(١٢)، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: «إِنَّمَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ وَآبَاءُنَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا نَبَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١٣) عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿

يُزَوِّهِ تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فقال: «مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا نَبَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ»^(١٤)، أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم مُتَّبِعٌ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض، في غاية الكمال، «مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ» [الملك: ٣]. ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو: لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: «وَلَمَّا نَبَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

(١) ورد في ذلك أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦١٧ و٦٦٢٨ وأبو داود ٣٢٦٣ والترمذي ١٥٤٠ والنسائي ٢/٧ وأحد ٢٥/٢ و٦٧ وأبو يعلى

٥٤٤٢ من حديث ابن عمر.

يَصِفُونَ»، أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعوهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ﴾، أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَلَّنَا مَتَا يَشْرِكُونَ﴾، أي: تقدس وتنزه، وتعالى، وعز وجل، عما يقول الظالمون الجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنِ السَّنِيئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: إن عاقبتهم - وإنني شاهد ذلك - فلا تجعلني فيهم.

[٤٨١٠] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنة فتروني إليك غير مفتون»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: لو شئنا لأريناك ما نجل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال مرشداً له إلى التزيق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء لئلا يستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقةً وبغضه محبةً، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنِ السَّنِيئَةِ﴾. وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُرَّ حَقْلٍ غَظِيرٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، أي: ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسداءهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُرَّ حَقْلٍ غَظِيرٍ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾، أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا ينفع معهم الجميل. ولا يتقادون بالمعروف.

[٤٨١١] وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(٢). وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾، أي: في شيء من أمري. ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطرّدة للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور.

[٤٨١٢] ولهذا روى أبو داود أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهذم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(٣).

[٤٨١٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله - ﷺ - يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون. قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له، فعلقها

(١) يأتي.

(٢) تقدم عند الاستعاذة كما ذكر المصنف.

(٣) أخرجه أبو داود ١٥٥٢ من حديث أبي اليسر بآتم منه، وهو صحيح.

في عُقْبِهِ^(١). ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال الترمذي: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَعْتَرَفْتُ بِكَ إِجْلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَانَ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا مِنْ أَجْلِ قَرِيبٍ فَجِئْتَنَا بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٤٤﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ قَبْلِي فَكَيْفَ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى النَّارِ يَقُولُوا يَا لَيْتَنَا كُنَّا نَدَّبُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْكَاهِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مِنْ رَبِّ سَبِيلٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْبَتْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَكِرُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْغَيْبُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]. فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض، على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في عَمَرَاتِ الْعَذَابِ فِي الْجَحِيمِ.

وقوله هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، كَلَّا: حرف رَدْعٍ وَرَجْرٍ، أي: لا تُجيبه إلى ما طَلَبَ، ولا نقبلُ منه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا محالة كلُّ مُحْتَضِرٍ ظَالِمٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ ﴿كَلَّا﴾، أي: لأنها كلمة، أي: سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلامٌ منه، وقول لا عمل معه، ولو رُدَّ لما عمل صالحاً، وكان يُكذَّبُ في مقاله هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾. وقال عمر بن عبد الله مولى عُفْرَةَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كَلَّا﴾، فإنما يقول: كَذَبٌ. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، قال: كان

(١) أخرجه أبو داود ٣٨٩٣ والترمذي ٣٥٣٨ والنسائي في «اليوم والليلة» ٧٦٥ وابن السني في «اليوم والليلة» ٧٤٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الترمذي: حسن غريب. والمرفوع منه حسن له ما يؤيده، وفعل عبد الله بن عمرو ضعيف، انظر ضعيف أبي داود ٨٤٠.

العلاء بن زياد يقول: لِيُنزِلَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَاسْتَقَالَ رَبَّهُ فَأَقَالَه، فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وقال قتادة: والله ما تَمَنَّى أن يرجعَ إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تَمَنَّى أن يرجعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَانظُرُوا أَمْنِيَّةَ الْكَافِرِ الْمَفْرُطِ فَاعْمَلُوا بِهَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه. وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل - يعني ابن عياض - عن ليث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: إِذَا وُضِعَ - يعني الكافر - فِي قَبْرِهِ، فَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فِيَقُولُ: رَبِّ، ارْجِعْنِي أَتُوبُ وَأَعْمَلُ صَالِحًا، قَالَ: فِيَقَالُ: قَدْ عُمِّرْتَ مَا كُنْتَ مُعَمَّرًا، قَالَ: فَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، قَالَ: فَهُوَ كَالْمَنْهَوَسِ، يَنَامُ وَيَفْرَخُ، تَهْوِي إِلَيْهِ هَوَامُّ الْأَرْضِ وَحَيَاتُهَا وَعَقَارُهَا.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثني سلمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة أنها قالت: ويلٌ لأهل المعاصي من أهل القبور! تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم، حية عند رأسه، وحية عند رجليه، تُقْرِصَانِهِ حَتَّى يَلْتَقِيَا فِي وَسْطِهِ، فَذَلِكَ الْعَذَابُ فِي الْبَرْزَخِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنَادِيهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَيُنَادِيهِمْ﴾ يعني أماتهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مُقِيمُونَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. وفي قوله تعالى: ﴿وَيُنَادِيهِمْ بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَادِيهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجنات: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَيُنَادِيهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث.

[٤٨١٤] كما جاء في الحديث: «فلا يزال مُعَذَّبًا فيها»^(١)، أي: في الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١١٤) ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٢) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١١٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١١٤)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةُ النَّشُورِ، وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا تنفع الأنساب يومئذٍ، ولا يرثي والد لولده، ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمًا بِصُورَتِهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١١]، أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا، ما التفت إليه ولا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْكُفْرُ مِنْ أَلْيِهِ﴾ (١٢٤) ﴿وَأَلْيَهُ وَأَيُّهُ﴾ (١٢٥) ﴿وَمَنْجَبِيهِ وَيَتَّبِعُهُ﴾ (١٢٦) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ يَنْهَجُ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١٢٧) [عبس: ٣٤ - ٣٧]. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جَمَعَ اللَّهُ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ ثُمَّ نَادَى مَنَادٍ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ مِظْلَمَةٌ فَلْيُجِئْ فَلْيَأْخُذْ حَقَّهُ، قَالَ: فَيَفْرَحُ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَقُّ عَلَى وَالِدِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ زَوْجَتِهِ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٢٦). رواه ابن أبي حاتم.

(١) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٧١ من حديث أبي هريرة. انظر الأحاديث الصحيحة ١٣٩١.

[٤٨١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن المسور - هو ابن مخرمة، رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»^(١).

[٤٨١٦] وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور أن رسول الله - ﷺ -: قال: «فاطمة بضعة مني، يريني ما رأها، ويؤذي ما آذاها»^(٢).

[٤٨١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على هذا المنبر: ما بأل رجال يقولون: إن رحم رسول الله - ﷺ - لا تنفع قومه؟ بلى، والله، إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني - أيها الناس - قرط لكم. فإذا جئتم قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان. وقال آخر: أنا فلان بن فلان. فأقول: أما النسب فقد عرف، ولكنكم أحدثتم بعدي، وارتدثتم القهقري^(٣).

[٤٨١٨] وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق متعددة عنه - رضي الله عنه -: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قال: أما - والله - ما بي إلا أنني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي^(٤). رواه الطبراني، والبرز، والهيثم بن كليب، والبيهقي، والحافظ الضياء في «المختارة»، وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً، إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه.

[٤٨١٩] فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله - ﷺ - من طريق أبي القاسم البتوي: حدثنا سليمان بن عمر الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله - ﷺ - «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»^(٥).

[٤٨٢٠] وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربي - عز وجل - ألا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إلي أحد إلا كان معي في الجنة».

(١) أخرجه أحمد ٣٢٣/٤ و٣٣٢ والطبراني في «الكبير» ٢٥/٢٠ و٢٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٣/٩: وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد، ولم يوثقها، وبقية رجاله وثقوا اهـ ويشهد لأصله ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٠ ومسلم ٢٤٤٩ وأبو داود ٢٠٧١ والترمذي ٣٨٦٦ وابن ماجه ١٩٩٨ وأحمد ٣٣٨/٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٨/٣ و٣٩ و٦٢ وأبو يعلى ١٢٣٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٦٤/١٠: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد وثق اهـ. وفيه أيضاً حمزة بن أبي سعيد الخدري، وثقه ابن حبان، وقد توبع على هذا المتن، وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١١٦٢١ وقال الهيثمي ١٥٠٢٠: رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الحاكم ١٤٢/٣ عن علي بن الحسين أن عمر... فلذكرة، وصححه، وهو مرسل، وأعله الذهبي بالانقطاع، ووصله الطبراني ٢٦٥ وقال الهيثمي ١٧٣/٩ ح ١٥٠١٩: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجلها رجال الصحيح غير الحسن بن سهل، وهو ثقة اهـ.

(٥) فيه إبراهيم بن يزيد، وهو ضعيف، لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» ٤٥٦٣ وعزاه لابن عساكر عن ابن عمر وانظر الصحيحة ٢٣٦ فقد ذكر شواهد.

فأعطاني ذلك»^(١). ومن حديث عَمَارِ بْنِ سَيْفٍ، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)، أي: من رَجَحَتْ حَسَنَاتِهِ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ، قاله ابن عباس. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الذين فازوا فَتَنَجُوا مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلُوا الْجَنَّةَ. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، وَتَجَوُّوا مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: ثقلت سيئاته على حسناته، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، أي خابوا وهلكوا، وَبَاؤُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ.

[٤٨٢١] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: لله ملك موكل بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيؤقف بين كفي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يُسمِعُ الخلائق: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا. وَإِنْ خَفَ مِيزَانُهُ نَادَى مَلِكًا بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: لَا يَسْعُدُ بَعْدَهَا أَبَدًا^(٣). إسناده ضعيف. فإن داود بن المحبر متروك. ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَلَائِقٌ﴾، أي: ما كثرت فيها، دائمون مُقِيمُونَ لَا يَظُنُّونَ. قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَقَشُّونَ وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾^(٤) [الأنبياء: ٣٩].

[٤٨٢٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قُرُوبَةُ بن أبي المَعْرَاءِ، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضِرَارِ بن مَرَّةَ، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: «إِنْ جَهَنَّمَ لَمَا سَبِقَ لَهَا أَهْلُهَا تَلْقَاهُمْ لَهَا ثُمَّ لَقَعْتَهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَتَّقْ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرْقُوبِ»^(٥).

[٤٨٢٣] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضير القطان، حدثنا سعد بن أبي سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: رسول الله - ﷺ - في قول الله: «تلفح وجوههم النار»، قال: تَلْفَحُهُمْ لَفْحَةً فَتَسِيلُ لِحْمَهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ^(٦).

(١) ضعيف جداً. فيه عمار بن سيف، وهو الضبي الكوفي، جاء في «تهذيب التهذيب» ٣٥٢/٧ ما ملخصه: قال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وفي رواية: ثقة، وقال أبو زرعة: ضعيف، وقال أبو حاتم: كان شيخاً صالحاً، وكان ضعيف الحديث، منكر الحديث. وقال أبو داود: كان مغفلاً. وقال العجلي: ثقة ثبت. وقال الدارقطني: كوفي متروك. وقال الحاكم: يروي عن الثوري وإسماعيل بن أبي خالد مناكير، وقال البخاري: لا يتابع منكر الحديث ذاهب، وكذا ضعفه العقيلي، وقال ابن عدي: الضعف على حديثه بين أهد فتلخص أن الجمهور على توهم أمره. وحديثه شبه موضوع.

(٢) أعله المصنف بدادود بن المحبر، وضعفه به، وهو كما قال؛ بل هو متروك متهم بالكذب. وهو الذي وضع أحاديث فضل العقل. راجع ترجمته في «الميزان». وفيه صالح بن بشير المري، وضعفه غير واحد.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢٨٠ والبيهقي في «البعث» ٥٦١ وأبو نعيم ٣٦٣/٤ من حديث أبي هريرة. ومداره على محمد بن سليمان بن الأصبهاني، وهو ضعيف كما في «المجمع» ١٨٥٨٦ وصوب المنذري في «ترغيبه» ١٥٤٢٦ الوقف فيه على أبي هريرة.

(٤) ضعيف، سعد بن أبي سعيد المقبري، لين الحديث. وليس هو علة الحديث، وإنما علته أخوه عبد الله بن أبي سعيد ذكره الذهبي في الميزان ٤٣٦٣ فقال: قال يحيى: ليس بشيء. وفي رواية: ليس بثقة. وقال الفلاس: منكر الحديث متروك. وقال البخاري، تركوه أهد والراوي عنه لم أجد من ترجمه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون. وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوط، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه.

[٤٨٢٤] وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: أخبرنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك، رحمه الله - أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي - ﷺ - قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سوتته^(١). ورواه الترمذي، عن سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حسن غريب.

﴿الَّذِينَ تَكُنَّ آيَاتِي تُنَلِّئُ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

هذا تفریع من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَكُنَّ آيَاتِي تُنَلِّئُ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؟ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة تذلون بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْهَا فَوَجَّعَ سُلَيْمَانَ خَرْنَبًا أَنْتَ يَا ذِكْرُ بَدْرٍ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا يَا قَدْ جَاءَنَا بَدْرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاءٍ إِنَّهُ سَمُومٌ إِلَّا فِي ضُلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٠٦﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٧﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الملك: ٨-١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونسبها، فضللنا عنها ولم نرزقها. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، أي: زدنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ يُشْرِكُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٠٧﴾﴾ [غافر: ١١-١٢]، أي: لا سبيل إلى الخروج، لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِكُمْ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَحْسَرُوا فِيهَا﴾، أي: امكثوا فيها صغرين مهنتين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٦٧ وأحمد ٨٨/٣ والترمذي ٢٥٩٠ من حديث أبي سعيد، ومداره على دجاج عن أبي الهيثم، ودجاج، ضعيف في روايته عن أبي الهيثم خاصة، ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح غريب! وقال الحاكم: صحيح! وسكت الذهبي! والظاهر من سكوت الذهبي، وتصحيح الترمذي له، هو أنه يتعلق بأنواع العذاب في جهنم، والسلف يتساهلون في أحاديث الرقاق، أو الترغيب والترهيب، والله أعلم.

جواب لَكُمْ عندي. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾، قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان المرزوي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يذعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: ﴿إِنَّكُمْ تَكَلَّمْتُمْ﴾. قال: هانت دعوتهم - والله - على مالك ورَبِّ مالك. ثم يذعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾، قال: والله ما نَبَس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعراء، قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله ألا يخرج منهم أحداً - يعني من جهنم - غير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول: يا رب. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾، فعند ذلك يقول: ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾. وإذا قال ذلك أطلقت عليهم فلا يخرج منهم بشر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنين وأوليائهم، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا﴾، أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، ﴿حَتَّىٰ أَنْزَلْنَاهُ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَعْصِمُونَ﴾، أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آمَنًا يَصْحَفُونَ ﴿١١٩﴾ وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَغْفِرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، أي: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُمُوهُم بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على إذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنْتَهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار.

﴿قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَمَّالِينَ ﴿١٢٢﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢٤﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أصاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾؟ قال: كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَمَّالِينَ ﴿١٢٢﴾﴾، أي: الحاسبين. ﴿قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: لما أترتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققتهم من الله سُخْطَه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لقرتم كما فازوا.

[٤٨٢٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن

أَيْفَعُ بْنُ عَبْدِ الْكَلَّاعِيِّ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَنِينَ؟» قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: لَيْعَمَ مَا تَجَرَّثْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، رَحِمْتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا اتَّجَرَّثْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ، نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَنحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، أي: أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث أي لتلعبوا أو تعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب بها ولا عقاب، إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل؛ ﴿وَأَنْتُمْ لِآيَاتِنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾، أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿١٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني هملًا. وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المُنزَّه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾. فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِنْ كَثَرٍ نَفْحٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن محمد الطنابيسي، حدثنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفضل بينكم، فحباب وخير من خرج من رحمة الله، وحرَمَ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ غَدَاً إِلَّا مَنْ خَلِدَ هَذَا الْيَوْمَ وَخَافَهُ، وَبَاعَ نَافِذاً بِيَاقٍ، وَقَلِيلًا كَثِيرًا، وَخَوْفًا بِأَمَانٍ، أَلَا تَرَوْنَ أَنْتُمْ مِنْ أَصْلَابِ الْهَالِكِينَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقِينَ، حَتَّى تُرْتَدُّوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ؟ ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْعَبُونَ غَادِيًا وَرَاحَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ قَضَى نَحْبَهُ، وَانْقَضَى أَجَلُهُ، حَتَّى تُغَيَّبُوهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فِي بطنِ صَدْعٍ غَيْرِ مُمَهَّدٍ وَلَا مُوسَّدٍ، قَدْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَبَاشَرَ الثَّرَابَ، وَوَجَّهَ الْحِسَابَ، مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، غَنِيٌّ عَمَّا تَرَكَ، فَيَقِيرُ إِلَى مَا قَدَّمَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ مَوَاقِفِهِ، وَتُزُولِ الْمَوْتِ بِكُمْ». ثم جعل طرف ردايه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

[٤٨٢٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بحر بن نصر الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هُبَيْرَةَ، عن حَنَشِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَجُلًا مَصَابًا مَرَّ بِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَقَرَأَ فِي أُذُنِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِآيَاتِنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ قَبْرًا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ»^(٢).

(١) هذا مرسل، أَيْفَعُ بْنُ عَبْدِ الْكَلَّاعِيِّ، تابعي صغير، وهو غير معروف. ذكره ابن أبي حاتم فلم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. وإنما ذكر أنه روى عن راشد بن سعد وهو تابعي وعنه صفوان بن عمرو اهـ وهذا يدل على جهالته حيث لم يرو عنه غير واحد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ٥٠٤٥ وابن السني ٦٣١ وأبو نعيم ٧٠/١، وفيه ابن لهيعة، وهو واهٍ، والظاهر أنه من تخليطاته. فقد سئل الإمام أحمد عن هذا المتن فقال: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين، وذكره الذهبي في «الميزان» ٢/ ١٧٥ لكن في ترجمة سلام بن رزين.

[٤٨٢٧] وروى أبو نُعَيْمٍ من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عُيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله - ﷺ - في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحنُ أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٧)، قال: فقرأناها فقمنا وسلمنا^(١). [٤٨٢٨] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خنيس، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاک بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أمانٌ لأمتي من العرق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١١٧) [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَيُرْسِلَهَا إِن رِئِي لَفُتُورٌ رَّجِيمٌ﴾ (٢) [هود: ٤١].

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧)
 وَقُلْ رَبِّ أَعْرِفْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِينَ﴾ (١١٨)

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾، أي: لا دليل له على قوله، فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، أي: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجات.

[٤٨٢٩] قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ - قال لرجل: ما تعبد؟ قال: أعبد الله وكذا وكذا. حتى عد أصناماً، فقال رسول الله - ﷺ - : فأيهم إذا أصابك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك؟ قال: الله عز وجل. قال: فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟ قال: الله عز وجل. قال: فما يحملك على أن عبدت هؤلاء معه؟ قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، أم حسبت أن يغلب عليه! فقال رسول الله - ﷺ - : «تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ قال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني^(٣). هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله - ﷺ - نحو ذلك. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعْرِفْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِينَ﴾ (١١٨)، هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالعقر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسندده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

(١) ذكره الحافظ في «الإصابة» ١/١٥٠/٥ وعزاه لابن مندة، وقال: إسناده لا بأس به. وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/٣٤.

(٢) والحدِيث ضعيف جداً، وتقدم تحريمه.

(٣) هذا مرسل، لكن يعترض بما رواه الترمذي كما ذكر المؤلف، والله أعلم.



وهي مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا يفتي ما عداها: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، قال مجاهد وقتادة: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود. وقال البخاري: «ومن قرأ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يقول: فرَضْنَا عليكم وعلى من بعدكم». ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: مفسرات واضحات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾: هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حُرٌّ بالغ عاقل. فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حُدَّه جلد مئة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُعْرَبَ عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة - رحمه الله - فإن عنده أن التعريب إلى رأي الإمام، إن شاء عَرَّبَ وإن شاء لم يُعْرَبَ.

[٤٨٣٠] وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عسيفاً - يعني أجيماً - على هذا فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمئة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مئة وتعريب عام، وأن على امرأة هذا الرجل، فقال رسول الله - ﷺ -: «والذي نفسي بيده لأقتضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مئة وتعريب عام. واغد - يا أنيس، لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها. فَعَدَا عليها، فاعترفت، فَرَجَمَهَا»^(١). ففي هذا دلالة على تعريب الزاني مع جلد مئة إذا كان بكراً لم يتزوج، فأما إن كان مُحْصَنًا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يُرَجَّمُ.

[٤٨٣١] كما قال الإمام مالك: حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١٤ و ٢٧٢٤ و ٦٦٣٣ و مسلم ١٦٩٧ و أبو داود ٤٤٤٥ و الترمذي ١٤٣٣ و النسائي ٨ / ٢٤٠ -

٢٤١ و ابن ماجه ٢٥٤٩ و أحمد ١١٥ / ٤ و ١١٦ و ابن حبان ٤٤٣٧.

ابن عباس أخيره، أن عمر - رضي الله عنه - قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعينناها، ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: «لا نجد آية الرجم في كتاب الله». فيضلوا بتزك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا حصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحيل أو الاعتراف»^(١). أخرجه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذه قطعة منه، فيها مقصودنا هاهنا.

[٤٨٣٢] ورَوَى الإمام أحمد عن هشيم، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس: حدثني عبد الرحمن بن عوف: أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعه يقول: «ألا وإن أناساً يقولون: ما بال الرجم؟ في كتاب الله الجلد». وقد رجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون - أو يتكلم متكلمون - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأبثها كما نزلت^(٢) به. وأخرجه النسائي، من حديث عبيد الله بن عبد الله، به.

[٤٨٣٣] وقد رَوَى أحمد أيضاً عن هشيم، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال: لا تُخذعن عنه فإنه حد من حدود الله تعالى، ألا إن رسول الله - ﷺ - قد رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف: «وشهد عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان، وفلان أن رسول الله - ﷺ - قد رجم ورجمنا بعده». ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالرجال وبالشفاعة وبعداب القبر، ويقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا^(٣).

[٤٨٣٤] ورَوَى أحمد أيضاً عن يحيى القطان، عن يحيى الأنصاري: عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب: «إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم»^(٤). . . الحديث. ورواه الترمذي: من حديث سعيد، عن عمر، وقال: صحيح.

[٤٨٣٥] وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عوف، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: ثبت عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مزوان وفينا زيد، فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، قال مزوان: ألا كتبت في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي - ﷺ - قال: فذكر كذا وكذا، وذكر الرجم فقال: يا رسول الله، أكثبني آية الرجم. قال: لا أستطيع الآن. هذا أو نحو ذلك^(٥). وقد رواه النسائي عن محمد بن المثني، عن عثد، عن شعبة، عن

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٨٢٩ ومسلم ١٦٩١ وأبو داود ٤٤/٨ والترمذي ١٤٣٢ وابن ماجه ٢٥٥٣ وأبو يعلى ١٥١ من حديث ابن عباس عن عمر. وأخرجه مالك ٨٢٣/٢ ح ٨ من طريق الزهري مختصراً. وأخرجه البخاري ٦٨٣٠ من طريق الزهري مطولاً.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٢٩/١ والنسائي في «الكبرى» ٧١٥١ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣/١ وأبو يعلى ١٤٦ وإسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان، وأصله شواهد. و«امتحشوا»: أي احترقت جلودهم.

(٤) أخرجه أحمد ٣٦/١ ٤٣ والترمذي ١٤٣١ وقال: حسن صحيح.

(٥) أخرجه أبو يعلى كما ذكر المصنف. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ٧١٤٥ و٧١٤٨ وعنده أن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ.

قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت، به. وهذه طرق كلها متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت متلوقة فَنَسِيخَ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به، والله أعلم.

وقد أمر رسول الله ﷺ - برجم هذه المرأة^(١)، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم النبي ﷺ - ماعزاً والغامدية. وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ - أنه جلدتهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد. ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد - رحمه الله - إلى أنه يجب أن يُجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه لما أتى بشرأحة، وكانت قد زنت وهي مُحَصَّنَةٌ، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، ثم قال: جلدتها بكتاب الله ورجمها بسنة رسول الله ﷺ.

[٤٨٣٦] وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن الأربعة، ومسلم من حديث قتادة، عن الحسن، عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ -: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر، جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، لا ترحمهما وتزثروا لهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرافة الطبيعية ألا تكون حاصلّة، وإنما هي الرافة التي تحمل الحاكم الرافة الطبيعية على ترك الحد، فإنه لا يجوز له ذلك. قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح.

[٤٨٣٧] وقد جاء في الحديث: «تَعَاوَرَا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ»^(٣).

[٤٨٣٨] وفي الحديث الآخر: «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(٤).

وقيل: المراد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، فلا تُقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبي: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن حماد بن أبي سليمان: يُجلد القاذف وعليه ثيابه، والزاني تُخلع ثيابه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد. يعني في إقامة الحد، وفي شدة الضرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجلها - قال نافع: أراه قال: وظهرها - قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا

(١) هي المذكورة في الحديث المتقدم برقم ٤٨٣٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٣٧٦ والنسائي ٧٠/٨ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وصححه الحاكم ٣٨٣/٤ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن للخلاف المعروف في رواية عمرو بن شعيب عن آبائه. وفي الباب من حديث ابن مسعود عند أبي يعلى ٥٤٠١، فيه العباس بن الفضل والحجاج بن أرطاة، وكلاهما ضعيف. ومن حديث علي أخرجه أبو يعلى ٣٢٨ وإسناده ضعيف لجمالة أبي مطر. انظر (مجمع الزوائد) ٢٥٩/٦.

(٤) هذا حديث حسن، له شواهد وطرق عدة. انظر: النسائي ٨/٧٦ وابن حبان ٤٣٩٧ والترغيب ٣٢٢٧.

رَأْفَةً فِي بَيْنِ اللَّهِ، قال: يا بُنَيَّ، ورأيتني أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدَها في رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أقيموا الحدودَ على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مُبرحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك.

[٤٨٣٩] وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: «يا رسول الله، إنني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال: ولك في ذلك أجرٌ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَدَابَتَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقيماً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حُضوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَدَابَتَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: علانية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَدَابَتَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الطائفة: الرجلُ فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى ألف. وكذا قال عكرمة، ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد. وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وبه قال إسحاق بن راهويه. وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: يعني رجلين فصاعداً. وقال الزهري: ثلاثة نفرٍ فصاعداً.

وقال عبد الرزاق: حدثني ابن وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَدَابَتَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: الطائفة أربعة نفرٍ فصاعداً، لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعي، وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة وتكالفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ببيعة قال: سمعت نصر بن علقمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَدَابَتَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا خبرٌ من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطأوه على مُزاده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾، أي: عاص بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾، لا يعتقد تحريمه. قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، قال ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه. وقد زوي عنه من غير وجه أيضاً. وقد زوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، والضحاك، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وغير واحد، نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: حرم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة، ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وتقدم في ذلك فقال: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ

مُسْفِحَتِي وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» [النساء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٤٥]... الآية. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى أنه لا يَبْصُحُ العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تُسْتَتَابَ، فإن تابَت صَحَّ العقدُ عليها وإلا فلا، وكذلك لا يَبْصُحُ تزويجُ المرأةِ الحُرَّةِ العفيفةِ بالرجلِ الفاجرِ المُسَافِحِ، حتى يتوبَ توبةً صَحيحةً، لقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٤٨٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا مُعْتَمِرُ بن سليمان قال: قال أبي، حدثنا الحَضْرَمِيُّ، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أَنَّ رَجُلًا من المسلمين استأذَنَ رسولَ الله - ﷺ - في امرأة - يقال لها: أم مهزُولٍ - كانت تُسَافِحُ، وتشرط له أن تُنْفِقَ عليه - قال فاستأذَنَ رسولَ الله - ﷺ - أو: ذَكَرَ له أمرُها - قال: فقَرَأَ عليه نَبِيُّ الله - ﷺ -: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَآ زَانِيَةٌ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(١).

[٤٨٤١] وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحَضْرَمِيِّ؛ عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزُولٍ، وكانت تُسَافِحُ، فأراد رجلٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن يتزوجها، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

[٤٨٤٢] قال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا رَوْحُ بن عُبَادَةَ، عن عُبَيْدِ الله بن الأَخْنَسِ، أخبرني عمرو بن شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه قال: كان رجلٌ يُقَالُ له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يحمل الأَسَارَى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بَغِيٍّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقةً له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يَحْمِلُهُ. قال: فجنثت حتى انتهيت إلى ظلِّ حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناقُ فأبصرت سَوَادَ ظِلِّ تحت الحائط، فلما انتهت إلي عَرَفْتَنِي، فقالت: مَرْثَدُ؟ فقلت: مَرْثَدُ. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ قَبِيتِ عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناق، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الخَنْدَمَةَ^(٣)، فأنتهيت إلى غار - أو: كهفٍ فدخلت فيه، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فطَلَّ بولهم على رأسي، فأعماهم الله عَنِّي. قال: ثم رَجَعُوا ورجعتُ إلى صاحبي فَحَمَلْتُهُ، وكان رجلاً ثَقِيلاً، حتى انتهيت إلى الإذْخَرِ، ففككت عنه أَكْبَلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعِينُنِي، حتى قَدِمْتُ المدينة، فأتيت رسولَ الله - ﷺ - فقلت: يا رسولَ الله، أُنكِحُ عناقاً؟ - مرتين - فأمسك رسولَ الله - ﷺ - فلم يرد عَلَيَّ شيئاً، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). فقال رسولُ الله - ﷺ -: «يا مَرْثَدُ، ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فلا تَنْكِحُهَا»^(٥). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ١٥٩/٢ وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٩ وأحمد ٢٢٥/٢ والطبري ٢٥٧٤٢ والبيهقي ١٥٣/٧ وصححه الحاكم ١٩٣/٢ - ١٩٤ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧٤/٧ ورجال أحمد ثقات.

(٣) الخندمة: جبل بمكة.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٥٥١ والترمذي ٣١٧٧ والنسائي في «الكبرى» ٥٣٣٨ والبيهقي ١٥٣/٧. وأخرجه الحاكم ١٦٦/٢ مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود والنسائي، في كتاب النكاح من سُنَّتهما، من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْنَسِ بِهِ.

[٤٨٤٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُسَدَّدُ أَبُو الْحَسَنِ، حدثنا عبد الوارث، عن حَبِيبِ الْمَعْلَمِ، حَدَّثَنِي عمرو بن شُعَيْبٍ، عن سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا ينكح الزاني المجلودَ إلا مثله»^(١). وهكذا أخرجه أبو داود في سُنَّته عن مُسَدَّدِ أَبِي مَعْمَرٍ - عبد الله بن عمرو - كِلَاهُمَا عن عبد الوارث، به.

[٤٨٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عُمَرُ بن محمد، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال: أشهد لَسَمِعْتُ سَالِمًا يَقُولُ: قال عبدُ الله: قال رسولُ الله - ﷺ -: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنةَ، ولا ينظرُ الله إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ المترجِّلةُ - المتشبهة بالرجال - والدُّبُوثُ. وثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالديه، ومدِينُ الخمر، والمَتَّانُ بما أعطى»^(٢). ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلَّاسِ، عن يزيد بن زُرَيْعٍ، عن عُمَرُ بن محمد العُمَرِيِّ، عن عبد الله بن يسار، به.

[٤٨٤٥] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا الوليدُ بن كثير، عن قَطَنِ بْنِ وَهَبِ بْنِ عُومِرِ بْنِ الْأَجْدَعِ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قال: «ثلاثةٌ حَرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ: مُدِينُ الخمر، والعاقُّ، والدُّبُوثُ الَّذِي يُقْرِئُ فِي أَهْلِهِ الْخَبِيثَ»^(٣).

[٤٨٤٦] وقال أبو داود الطيالسي في مُسْنَدِهِ: حدثنا شعبة، حَدَّثَنِي رجلٌ من آل سهل بن حُنَيْفٍ، عن محمد بن عَمَّارٍ، عن عمار بن ياسر قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا يدخلُ الجنةَ دَبُوثٌ»^(٤). يُسْتَشْهَدُ بِهِ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

[٤٨٤٧] وقال ابنُ ماجه: حدثنا هشام بن عَمَّارٍ، حدثنا سَلَامٌ بن سَوَّارٍ، حدثنا كَثِيرُ بن سَلِيمٍ، عن الضَّحَّاكِ بن مَرْحَمٍ: سمعتُ أَنَسَ بن مالك يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الحرائر»^(٥). في إسناده ضعفٌ. قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب «الصَّحَاحِ» في اللغة: الدُّبُوثُ القَنْدُعُ، وهو الذي لَا عَيْرَةَ لَهُ.

[٤٨٤٨] فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سُنَّته: أخبرنا

(١) أخرجه أبو داود ٢٠٥٢ وأحمد ٣٢٤/٢ والطحاوي في «المشكل» ٤٥٤٨ و٤٥٤٩ وصححه الحاكم ١٦٦/٢ ووافقه الذهبي وإسناده قوي رجاله ثقات وانظر صحيح أبي داود ١٨٠٧.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٤/٢ والنسائي ٨٠/٥ والطبراني ١٣١٨٠ من طرق عن عمر بن محمد به. وأخرجه ابن حبان ٧٣٤٠ والبيهقي ٣٨٨/٨ من طريق عمر بن محمد مختصراً، وإسناده صحيح، وله شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩/٢ و١٢٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٢٧/٤: وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات. وللحديث شواهد تقويه.

(٤) أخرجه الطيالسي ٦٤٢ وفي إسناده راوٍ لم يسم، لكن ذكره المصنف شاهداً لما قبله.

(٥) ضعيف جداً. أخرجه ابن ماجه ١٨٦٢ وابن عدي ٣١١/٣ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢٦١/٢ وأعله بقوله: كثير، متروك، قاله النسائي، وسلام قال عنه ابن عدي: منكر الحديث اهـ وأعله البوصيري في الزوائد والهيثمي في «المجمع» ١/٥٩٨ بكثير وسلام أيضاً اهـ.

محمد بن إسماعيل بن عُليّة، عن يزيد بن هارون، عن حمّاد بن سلّمة وغيره، عن هارون بن رثاب، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير؛ وعبد الكريم، عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه - قالوا: جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إنّ عندي امرأة من أحبّ الناس إليّ، وهي لا تمنع يد لأمس، قال: طلقها. قال: لا صبر لي عنها. قال: استمتع بها^(١). ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. قلت: هو ابن أبي المخارق البصري المؤدّب، تابعي ضعيف الحديث، وقد خلفه هارون بن رثاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي. لكن قد رَوَاهُ النسائي في كتاب الطلاق، عن إسحاق بن إبراهيم ابن راهوييه، عن النضر بن شميل، عن حمّاد بن سلّمة، عن هارون بن رثاب، عن عبد الله بن عُبيد بن عمير، عن ابن عباس مسنداً، فذكره، فهذا بهذا الإسناد رجّاه على شرط مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل، ورواه غير النضر على الصواب».

[٤٨٤٩] وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حريث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسين بن واقد، عن عمارة بن أبي حفصة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - فذكره^(٢). وهذا إسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مُضعف له، كما تقدّم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وحكاها النسائي في سننه عن بعضهم فقال: وقيل: «سخية تعطي». ورّد هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا ترّد يد ملتمس. وقيل: المراد إن سجيّتها لا ترّد يد لأمس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله - ﷺ - لا يأذن في مُصاحبة من هذه صفتها، فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ذيوثاً، وقد تقدّم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سجيّتها هكذا ليس فيها مُمانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله - ﷺ - بفرقتها، فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها، لأنّ محبته لها مُحقّقة، ووقوع الفاحشة منها مُتوّهم، فلا يُصار إلى الضرر العاجل لتوهم الأجل، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

(١) حسن، أخرجه النسائي ٦٧/٦ والبيهقي ١٥٤/٧، وأعله النسائي بأن هارون بن رثاب أرسله، وهو أثبت من عبد الكريم بن أبي المخارق. لكن كرهه النسائي ١٧٠/٦ بإسناد على شرط مسلم، كما ذكر ابن كثير رحمه الله، ومع ذلك أهله النسائي بالإرسال، وخطأ فيه النضر بن شميل. ويأن غيره أرسله، وله طريق آخر سيأتي.

(٢) هذا إسناد جيد، كما قال الحافظ ابن كثير، وقد أخرجه النسائي ١٧٠/٦ بهذا الإسناد، وكذا البيهقي ١٥٤/٧ وسكت عنه النسائي، ولم يعله بالإرسال كسابقه. فهو حديث قوي، وقد أخرجه البيهقي ١٥٥/٧ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/٢٧٢ عن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير، وإسناده صحيح كما في تلخيص الحبير ٢٢٥/٣ ولم يعله ابن الجوزي بضعف واحد من رواته وإنما اعتمد كلام الإمام أحمد حيث قال في رواية الخلال عنه: لا يثبت عن رسول الله ﷺ، ليس له أصل. مع أن ابن الجوزي ذكر أنه قد رواه عبيد بن عمير وحسان بن عطية، مرسلًا. فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، فإن المرسل وحده يكون ضعيفاً، فكيف وقد جاء موصولاً بأسانيد حسان. وجاء في تلخيص الحبير ٢٢٥/٣ ما ملخصه: أطلق النووي عليه الصحة، ولكن نقل ابن الجوزي عن أحمد أنه لا يثبت، وتمسك ابن الجوزي بهذا فأورده في الموضوعات مع أنه ساقه بإسناد صحيح اهـ. وله طريق آخر عن جابر أخرجه البيهقي ١٥٥/٧ وجاء في «اللآلئ المنوعة» ١٧١/٢ - ١٧٢ - ١٧٣ ما ملخصه: قال المنذري: إسناده محتج بهم في الصحيح. وقال ابن حجر: هو حديث حسن صحيح، ولم يصب من قال إنه موضوع. وقال الحافظ الذهبي: إسناده صالح، وقد أطال الكلام عليه نقلاً في عامة ذلك عن ابن حجر.

قالوا: فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رَجِمَهُ اللهُ؛ حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سَمِعْتُ شُعْبَةَ - مولى ابن عباس، رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ ابن عباس وسأله رجل قال: إني كنتُ أَلِيمٌ بامرأة آتتني منها ما حَرَّمَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عليّ، فَرَزَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - من ذلك توبةً، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة. فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فَعَلَيْ. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ذَكَرَ عنده: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، قال: كان يُقَالُ: نَسَخَتْهَا الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يُقَالُ الأيْمَى من المُسْلِمِينَ. وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رَجِمَهُ اللهُ.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِدُوهُنَّ مَنَّانِينَ جَلْدَهُ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرّة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يُجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درا عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِدُوهُنَّ مَنَّانِينَ جَلْدَهُ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. فأوجب على القاذف إذا لم يقيم بينة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام، أحدها: أن يُجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه تُردّ شهادته أبداً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بَعْدِل، لا عند الله ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾. اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذهب واتفق، سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. ونص عليه سعيد بن المسيب - سيّد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَنْزُوجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرَجٌ للأزواج وزيادةٌ مخرج - إذا قذف أحدُهم زوجته - وتَعَسَّرَ عليه إقامةُ البينة - أن يَلَاعِنَهَا، كما أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو أن يُحضرها إلى الإمام، فَيَدْعِيَّ عليها بما رماها به، فَيُحْلِفُهُ الحاكمُ أربعَ شهاداتٍ بالله في مُقَابَلَةِ أربعَةِ شُهَدَاءَ، ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: فيما رَمَاهَا به من الزِنَا، ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَعَنَّتُ اللَّهُ ظَلَمَتِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۗ﴾. فإذا قال ذلك بانت منه بِنَفْسِ هذا اللعان عند الشافعي وطائفةٍ كثيرةٍ من العلماء، وحُرِّمَتْ عليه أبدأ، ويُعْطِيهَا مَهْرَهَا، وَيَتَوَجَّهُ عليها حَدُّ الزِنَا، ولا يُدْرَأُ عنها إلا أن تَلَاغِيَن فتشهد أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رَمَاهَا به، ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَعَنَّتُ اللَّهُ ظَلَمَتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۗ﴾. ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ﴾، يعني: الحدَّ، ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ۗ﴾ ﴿وَالْفَاسِقَةُ إِنَّهُ لَعَنَّتُ اللَّهُ ظَلَمَتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۗ﴾. فَخَصَّهَا بِالغَضَبِ، لأنَّ الغالب أن الرجل لا يَتَجَسَّمُ فضيحةَ أهليه وَرَمَيْهَا بِالزِنَا إلا وهو صادقٌ مَعْدُورٌ، وهي تَعَلَّمُ صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حَقِّها أن غَضِبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يَعْلَمُ الحقَّ ثم يَحيِدُ عنه.

ثم ذكر تعالى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ، وِرَاقَتَهُ بِهِمْ، وَشَرْعَهُ لَهُمُ الْفَرَجَ وَالْمَخْرَجَ مِنْ شِدَّةٍ مَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الضِّيقِ، فقال: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، أي: لَحَرَجْتُمْ وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ على عِبَادِهِ - وإن كان ذلك بعد الحَلْفِ وَالْإِيْمَانِ الْمُعْلَظَةِ - ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما يَنْهَى عنه. وقد وردت الأحاديثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بهذه الآية، وَذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِهَا، وَفِيْمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

[٤٨٥٠] فقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا عُبَادُ بن منصور، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: لما نَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمُحْسِنَاتِ ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَأْرُسِهِمْ فَهَبَّ لَهُمْ فَجَدُوا لَكُنَّ عَلَيْهِمْ فَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، قال سعدُ بن عُبَادَةَ - وهو سَيِّدُ الْأَنْصَارِ -: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيِّدكم؟ قالوا: يا رسولَ الله، لا تَلْمُهْ فإنه رجلٌ غيورٌ، والله ما تزوج امرأةً قطُّ إلا بكرًا، وما طلق امرأةً له قطُّ فاجترأ رجلٌ منا أن يتزوجها، من شِدَّةِ غَيْرِيَتِهِ. فقال سعد: والله - يا رسولَ الله - إنني لأَعْلَمُ أنها حقٌّ، وأنها من الله، ولكنِّي قد تَعَجَّبْتُ أني لو وَجَدْتُ لَكَاعًا قد تَفَخَّخَهَا رجلٌ، لم يكن لي أن أَمَيِّجَه ولا أحرِّكَه حتى آتي بأربعة شُهَدَاءَ، فوالله لا آتي بهم حتى يَقْضِي حاجته. قال: فما لَبِثُوا إلا يسيرًا حتى جاء هلالُ بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضِهِ عِشَاءً، فوجدَ عند أهله رجلًا، فرأى بَعِيْنِيهِ، وَسَمِعَ بِأُذُنِيهِ، فلم يَهْجِهْ حتى أصبحَ، فَعَدَا على رسولِ الله - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، إنني جنثُ أهلي عِشَاءً، فوجدتُ عندها رجلًا، فرأيت بَعِيْنِيهِ وَسَمِعْتُ بِأُذُنِيهِ. فَكَّرَهُ رسولُ الله - ﷺ - ما جاء به، واشتدُّ عليه. واجتمعت الأنصارُ فقالت: قد ابْتَلَيْنا بما قال سعدُ بن عُبَادَةَ، الآن يَضْرِبُ رسولُ الله - ﷺ - هلالَ بن أمية، وَيَبْطِلُ شَهَادَتَهُ فِي النَّاسِ. فقال هلالٌ: والله إنني لأرجو أن يجعلَ الله لي منها مخرجًا. وقال هلالٌ: يا رسولَ الله، إنني قد أرى ما اشتدُّ عليك مما جنثُ به، والله يَعْلَمُ إنني لَصَادِقٌ. فوالله إن رسولَ الله - ﷺ - يريد أن يأمر بَضْرِبِهِ إذ أنزلَ الله على رسولِ الله - ﷺ - الوحي، وكان إذا نَزَلَ عليه الوحيُ عرفوا ذلك، في تَرْبِيدِ وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي - فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ بَأْرُسِهِمْ وَكَلِمَاتِهِمْ شَهَادَةً إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحْسَنُ أَرْبَعٍ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۗ﴾... الآية، فَسُرِّيَ عن رسولِ الله - ﷺ - فقال: أبشر يا هلال فقد جعلَ الله لك فرجًا ومخرجًا، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسولُ الله - ﷺ -: أرسلوا إليها. فأرسلوا إليها، فجاءت فتلاها رسولُ الله - ﷺ - عليهما، وذكرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدُّ من عذابِ الدنيا. فقال هلال: والله - يا رسولَ الله - لقد صدقتُ عليها. فقالت: كَذَبٌ. فقال رسولُ الله - ﷺ -: لا عنوا

بينهما. فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب. فقال: والله لا يُعذبني الله عليها كما لم يُجلدني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي تُوجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله لا أفصح قومي. فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فقترق رسول الله ﷺ - بينهما، وقضى أن لا يُدعى ولدُها لأب ولا يُرمى ولدُها، ومن زَمَها أو رَمَى ولدُها فعليه الحد، وقضى ألا يبيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: إن جاءت به أضيّهب أزيهبع حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابع الأيتين، فهو للذي زويت به. فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابع الأيتين^(١)، فقال رسول الله ﷺ -: لولا الأيمان لكان لي ولها شأن. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يُدعى لأمه ولا يُدعى لأب^(٢). ورواه أبو داود عن الحسن بن علي، عن يزيد بن هارون، به نحوه مختصراً. ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

[٤٨٥١] فمنها ما قال البخاري: حدثني محمد بن بشر، حدثنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، حدثني عكرمة، عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ - بشريك بن سحماء، فقال رسول الله ﷺ -: البينة أو حد في ظهرك. فقال: يا رسول الله، إذا رأيت أحداً على امرأته رجلاً ينطلق يلتبس البينة؟ فجعل النبي ﷺ - يقول: البينة وإلا حد في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إنني لصادق، ولينزلن الله ما يبئريء ظهري من الحد. فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فانصرف النبي ﷺ - فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ - يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم. فمضت، فقال النبي ﷺ -: أبصروها. فإن جاءت به أكحل العينين، سابع الأيتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ -: لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي ولها شأن^(٣). انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه، عن ابن عباس وغيره.

[٤٨٥٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعني ابن كليب - عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله،

(١) أصيب: تصغير أصهب، وهو الذي تملو شعره حمرة مع اسوداد. والشيج: ما بين الكاحل إلى الظهر، والأثيج: النائم الشيج، وقيل: العريض الشيج. وأريسح: تصغير أرسح، وهو الذي لا عجز له. وحش الساقين: دقيهما. والأورق: الأسمر. وجمالياً: ضم الأعضاء، مشبه بالجمال لعظمه وبيداته. خدلج الساقين: عظيمهما.

(٢) أخرجه أحمد ١/٢٣٨ - ٢٣٩ وأبو داود ٢٢٥٦ وأبو يعلى ٢٧٤٠، وإسناده ضعيف، لضعف عباد بن منصور ولاكثره شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٧ و٥٣٠٧ وأبو داود ٢٢٥٤ والترمذي ٣١٧٩ وابن ماجه ٢٠٦٧ والطحاوي في المشكل ٢٩٦٢.

قَرَمَى امرأته برجل، فَكَّرَهُ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَلَمْ يَزَلْ يَزِدُّهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَكُنَّ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى فَرِغَ مِنَ الْآيَتَيْنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فِدْعَاهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَنْزَلَ فِيكُمَا قَدْحًا الرَّجُلُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأَمْسَكَ عَلَى فِيهِ قَوْعَظَهُ، فَقَالَ لَهُ: كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ. ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ: ﴿لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْكَ إِنْ كَانَتْ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ثُمَّ دَعَا بِهَا، فَقَرَأَ عَلَيْهَا، فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأَمْسَكَ عَلَى فِيهَا قَوْعَظَهَا، وَقَالَ: وَيْحَكَ. كُلُّ شَيْءٍ أَهْوَنُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. ثُمَّ أَرْسَلَهَا، فَقَالَتْ: ﴿غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَتْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَمَا وَاللَّهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا قَضَاءً فَصَلًّا. قَالَ: فَوَلَدْتُ، فَمَا رَأَيْتُ مَوْلُودًا بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ غَاشِيَةً مِنْهُ، فَقَالَ: إِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكُذًا وَكَذًا فَهُوَ لِكُذًا. وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ لِكُذًا وَكَذًا فَهُوَ لِكُذًا. فَجَاءَ بِهِ يُشْبِهُ الَّذِي قُدِّمَتْ بِهِ^(١).

[٤٨٥٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جبيرة قال: سُئِلْتُ عَنِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ أَيْفَرَقَ بَيْنَهُمَا؟ فِي إِمَارَةِ ابْنِ الزَّيْبِرِ، فَمَا ذَرَيْتُ مَا أَقُولُ، فَقُمْتُ مِنْ مَكَانِي إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ عَمْرِو قُلْتُ: أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أيفرق بينهما؟ فقال: سبحان الله! إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان. فقال: يا رسول الله، رأيت الرجل يري امرأته على فاحشة فإن تكلمت تكلمت بامر عظيم، وإن سكنت سكنت على مثل ذلك؟ فسكت فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به. فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - هذه الآيات في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، حتى بلغ: ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَتْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فبدأ بالرجل قَوْعَظَهُ وَذَكَرَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَذَبْتُكَ. ثُمَّ ثَنَّى بِالْمَرْأَةِ قَوْعَظَهَا وَذَكَرَهَا، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنَّهُ لِكَاذِبٌ. قَالَ: فبدأ بالرجل، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثنى بالمرأة فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ثم فرق بينهما^(٢). رواه النسائي في التفسير، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به، وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

[٤٨٥٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشيبة الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلمم جلدتموه، وإن سكنت سكنت على غيظ، والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله ﷺ. قال: فسأله، فقال: يا رسول الله، إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلمم جلدتموه، وإن سكنت سكنت على غيظ، اللهم احكم. قال: فأنزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به^(٣). انفرد بإخراجه مسلم، فزواه من طروق، عن سليمان بن مهران الأعمش، به.

[٤٨٥٥] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا ابن شهاب، عن سهل بن سعد، قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عددي فقال: سل رسول الله - ﷺ -: رأيت رجلاً وجد رجلاً

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٣ ح ٤ والترمذي ١٢٠٢ والنسائي في «التفسير» ٣٧٧ وأحمد ١٩/٢ ٤٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٥ وأبو داود ٢٢٥٣ والبيهقي ٤٠٥/٧ وابن حبان ٤٢٨١ وأحمد ٤٢١/١.

مع امرأته فقتله، أَيْقَتَلَ به أم كيف يَصْنَعُ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ - فَعَابَ رسولَ الله ﷺ - الْمَسَائِلَ، قال: فلقية عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لأتيت رسول الله ﷺ فلا سألته. فأنا فوجدته قد أنزل عليه فيهما، قال: فدعا بهما فلأعن بينهما. قال عويمر: لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ - فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ -: أبصروها فإن جاءت به أسحَمَ أذَعَجَ العينين عظيم الأيتيين، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَّةٌ فلا أراه إلا كاذباً. فجاءت به على التعت المكروه^(١). أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي، ورواه البخاري أيضاً من طُرُقٍ، عن الزهري، به فقال:

[٤٨٥٦] حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرايت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتلته فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله ﷺ: قد قضي فيك وفي امرأتك قال: فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ، ففارقها، فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين، وكانت حاملاً فأنكر حملها، وكان ابنها يدعى إليها؛ ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها^(٢).

[٤٨٥٧] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يثيع، عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ - لأبي بكر: لو رأيت مع أم رومان رجلاً، ما كنت فاعلاً به؟ قال: كنت والله فاعلاً به شراً. قال: فانت يا عمر؟ قال: كنت والله قاتله، كنت أقول: لعن الله الأعجز، فإنه خبيث قال: فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾^(٣). ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل، عن يونس بن أبي إسحاق. ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع مرسلًا، فالحق أعلم.

[٤٨٥٨] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجزي، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: أول لِعَانٍ كان في الإسلام أن شريك ابن سَخْمَةَ قَذَفَهُ هَلَالٌ بِنِ امِيَّةَ بِامْرَأَتِهِ، فَرَفَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فقال رسول الله ﷺ -: أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك. فقال: يا رسول الله، إن الله يعلم إنني لصادق، وَلَيُنزِلُنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يَبْرِيءُ بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْجُلْدِ. فأنزل الله آية اللِّعَانِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾، إلى آخر الآية. قال: فدعا النبي ﷺ - فقال: اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا، فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له في الخامسة: ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا، ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا، فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣٣٤/٥ وأخرجه البخاري ٤٧٤٥ ومسلم ١٤٩٢ ح ٢ و٣ وأبو داود ٢٢٤٧ و٢٢٤٨ وابن ماجه ٢٠٦٦ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٦ و٤٢٣ ومسلم ١٤٩٢ وأبو داود ٢٢٤٥ والنسائي ١٤٣/٦ - ١٤٤ وابن ماجه ٢٠٦٦ وأحمد ٣٣٦/٥ - ٣٣٧ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٣) أخرجه البزار ٢٢٣٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/٧٤ وقال: ورجاله ثقات. قلت: فيه عننة ابن إسحاق، وهو مدلس، والراجح إرساله.

في الخامسة: وَعَصِبَ اللهُ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّنَا. فقالت، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سايزر اليوم. فمضت على القول. ففرّق رسول الله - ﷺ - بينهما، وقال: انظروه، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين فهو لإشريك بن سخّماء، وإن جاءت به أبيض سبطاً أقمر قضيي^(١) العينين فهو لهلال بن أمية. فجاءت به آدم جعداً حمش الساقين، فقال رسول الله - ﷺ -: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حين زماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - فأنزل بزّاءتها صيانة لِعِزِّهِ الرُّسُولِ - عليه أفضل الصلاة والسلام - فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعة منكم، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدّم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوثبه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزّه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

[٤٨٥٩] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري: قال: أخبرني سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي - ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى، وكلّمهم قد حدّثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدّثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً: ذكروا أن عائشة زوج النبي - ﷺ - قالت: كان رسول الله - ﷺ - إذا أراد أن يخرج سقراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله - ﷺ - معي، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاهما، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله - ﷺ - وذلك بعدما أنزل الحجاب، فانا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمّت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقد من جزع ظفاز قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه - قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهنّ ولم يغشهنّ اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام. فلم يستنكر القوم يُقلّ الهودج حين رحلوه وزفّعوه، وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ. فبينما أنا جالسة في منزلي، غلّبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن

(١) القضيي: طويل شعر العينين، ليس بمتوح العينين، ولا جاحظهما والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٤ والنسائي ١٧٢/٦ - ١٧٣ وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ١٤٩٦ والنسائي ١٧١/٦

والبيهقي ٤٠٦/٧ من طريق هشام به.

المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فاذلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخرمت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطيء على يدها فركبتها، فانطلقت يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤجرين في نحر الظهيرة. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي سلول. فقدمت المدينة فاشتكيته حين قدمنا شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجمعي أني لا أعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله - ﷺ - فيسلم، ثم يقول: كيف تبيكم؟ فذلك يريني ولا أشعر بالشعر، حتى خرجت بعد ما نعت، وخرجت معي أم مسطح قبيل المناصب - وهو مثيرنا - ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأما ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عبادة بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبلي بيتي حين فرغنا من شأننا، فتمت أم مسطح في مزطها، فقالت: «تيس مسطح». فقلت لها: بسما قلت! تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فزددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله - ﷺ - فسلم، ثم قال: كيف تبيكم؟ قلت: أتأذن لي أن أتى أبو؟ قالت: وأنا حيث أريد أن أتقن الخبر من قبليهما - فأذن لي رسول الله - ﷺ - فجنث أبو فقلت لأمي: يا أمته، ما يتحدث الناس؟ قالت: أي بنتي، مؤني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضينة عند رجل يحبها، ولها ضراير، إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! أوقد تحدثت الناس بهذا؟ قالت: فبكيته تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، فدعا رسول الله - ﷺ - علياً، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشاز على رسول الله - ﷺ - بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سيواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله - ﷺ - بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداخن فتأكله. فقام رسول الله - ﷺ - فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول، قالت: فقال رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يعذرن من رجل قد بلغني آذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرك الله لقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله - ﷺ - قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله - ﷺ - يخفضهم حتى سكثوا وسكت رسول الله - ﷺ - قالت: وبكيته يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبوابي

يَعْلَمُ أَنَّ الْبِكَاءَ فَالِقُ كَيْدِي . قالت : فبينما هُما جالسانِ عندي وأنا أبكي استأذنت عَلَيَّ امرأةٌ من الأنصار ، فأذنتُ لها ، فَجَلَسَتْ تبكي معي . فبينما نَحْنُ على ذلك إذ دَخَلَ علينا رسولُ الله - ﷺ - فَسَلَّمَ ثم جلس ، قالت : ولم يجلسْ عندي منذ قيلَ فيَّ ما قيلَ ، وقد لَبِثَ شهراً لا يُوحَى إليهِ في شأني شيءٌ ، قالت : فَتَشْهَدُ رسولُ الله - ﷺ - حينَ جَلَسَ ، ثم قال : أما بعدُ يا عائشةُ فإنه قد بَلَغَنِي عنكِ كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئةً فَسَيِّئْتُكَ اللهُ ، وإن كنتِ اللَّمَمْتُ بِذَنْبٍ فاستغفري اللهُ ثم تُوبِي إليه ، فَإِنَّ العبدَ إذا اعترفَ بِذَنْبٍ ثم تاب ، تاب اللهُ عليه . قالت : فلما قَضَى رسولُ الله - ﷺ - مقالته قَلَصَ دمعي ، حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً ، فقلت لأبي : أجب عَنِّي رسولُ الله ﷺ . فقال : والله ما أدري ما أقولُ للرسول ! فقلتُ لأمي : أجيبي عَنِّي رسولُ الله . فقالت : والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ! قالت : فقلت ، وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ ، لا أقرأ كثيراً من القرآن : إنِّي والله لقد عرفتُ أَنَّكُمْ قد سَمِعْتُمْ بهذا ، حتى استقرَّ في أنفُسِكُمْ وَصَدَقْتُمْ به ، فَلَيْنَ قلتُ لكم إنِّي بريئةٌ - والله يعلمُ أَنِّي بريئةٌ - لا تُصَدِّقُونِي بذلك ، وَلَيْنَ اعترفتُ لكم بأمرٍ - والله عَزَّ وَجَلَّ - يعلمُ أَنِّي بريئةٌ - تُصَدِّقُونِي ، وإنِّي والله ما أُجدُ لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسفَ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ مَا نَوَيْتُمْ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فِرَاشِي ، قالت : وأنا والله حيثُذا أعلمُ أَنِّي بريئةٌ ، وأن اللهُ مُبَرِّئِي بِيَرَاءَتِي ، ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أن ينزلُ في شأني وحْيٌ يُتلى ، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلَّم اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى . ولكن كُنْتُ أرجو أن يَرَى رسولُ الله - ﷺ - في النومِ رؤْيَا يُبَرِّئني اللهُ بها . قالت : فوالله ما رام رسولُ الله - ﷺ - من مَجْلِسِيهِ ولا خَرَجَ من أهلِ البيتِ أحدٌ ، حتى أنزل اللهُ عَلَيَّ نَبِيَّهُ ، فأخذه ما كان يأخذه من البَرَحَاءِ عند الوحي ، حَتَّى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه مثلُ الجُمَانِ ، من العَرَقِ في اليومِ الشَّامِي ، من يُثَلُّ القولَ الذي أنزلَ عليه . قالت : فلما سُرِّيَ عن رسولِ الله - وهو يضحكُ ، كان أولَ كَلِمَةٍ تكلمَ بها أن قال : أبشري يا عائشةُ ، أما اللهُ فقد بَرَأَكَ . فقالت لي أُمِّي : فومي إليه . فقلت : والله لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلا اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي أنزلَ بَرَاءَتِي . وأنزل اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ، عَشْرَ آياتٍ ، فأنزل اللهُ هذه الآياتِ بَرَاءَتِي . قالت : فقال أبو بكرٍ - رضي اللهُ عنه - وكان يُنْفِقُ على مسطحٍ لقرابته منه وَفَقْرِهِ : والله لا أنفقُ عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشةُ . فأنزل اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَلَا يَأْتِي الْفُضْلُ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا يُصِيبُ أَنْ يُغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، فقال أبو بكرٍ : والله إنِّي لأُحِبُّ أن يُغْفِرَ اللهُ لي . فَرَجَعَ إلى مسطحِ النفقةِ التي كان يُنْفِقُ عليه . وقال : لا أتزعها منه أبداً . قالت عائشةُ : وكان رسولُ الله - ﷺ - سألَ زينبَ بنتَ جَحْشِ زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ - عن أمري : ما عَلِمْتِ ، أو : ما رأيتِ ، أو : ما بَلَغَكَ ؟ فقالت : يا رسولَ اللهِ ، أحمي سَمْعِي وبصري ، والله ما عَلِمْتُ إلا خيراً . قالت عائشةُ : وهي التي كانت تُسايِبنِي من أزواجِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَعَصَمَهَا اللهُ تعالى بِالْوَرَعِ ، وَطَيَّبَتْ أَخْتَهَا حَمَةَ بنتَ جَحْشِ تُحَارِبَ لها ، فَهَلَكْتَ فيمن هَلَكَ . قال ابنُ شهابٍ : فهذا ما انتهى إلينا من أمرِ هؤلاء الرُّفَيْطِ^(١) . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، من حديثِ الزهري . وهكذا رواه ابنُ إسحاق ، عن الزهري كذلك ، قال : وحدثني يحيى بن عبد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة - وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، عن عمرة ، عن عائشة بنحو ما تقدم ، والله أعلم .

[٤٨٦٠] ثم قال البخاري : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرني أبي ، عن عائشة - رضي اللهُ عنها - قالت : لما دُكِرَ مِن شأني الذي دُكِرَ وما عَلِمْتُ به قام رسولُ الله - ﷺ - في حَظِييَا ، فتشهدَ فَحَمِيدَ

(١) صحيح . أخرجه البخاري ٢٦٦١ و ٤٧٥٠ ومسلم ٢٧٧٠ والنسائي في التفسير ٣٨٠ وأحمد ١٩٤/٦ .

الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعد أَيُّبِرُوا عَلَيَّ فِي أَناسِ أَبْنِوَا أَهْلِي، وَإِيْمُ اللهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِعَنِ اللهُ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غَيْبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي. فقام سعدُ بنُ مُعَاذِ الْأَنْصَارِيِّ فقال: ائذَنْ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. فقام رجلٌ من الْخَزْرَجِ - وكانت أم حسان بن ثابت من رَهطِ ذلك الرجل - فقال: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللهِ لَوْ كَانُوا مِنَ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتُ أَنْ تُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. حتى كاد أن يكونَ بين الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ. فلما كان مساءَ ذلكَ الْيَوْمِ، حَزَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرْتُ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ: أَيُّ أُمِّ، تَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ وَسَكَنْتُ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيُّ أُمِّ، تَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَانْتَهَرْتُهَا فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَسْبَهُ إِلَّا فِيكَ، فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: قَبَّرْتُ لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَاللهِ. فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَانَ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً، وَوُعِجْتُ، وَقُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ -: أَرْسِلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِي الْغَلَامَ، فَدَخَلْتُ الدَّارَ، فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ، وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنِيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا، وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، فَقَالَتْ: يَا بَنِيَّةُ، خَفْنِي عَلَيْكَ الشَّانَ؛ فَإِنَّهُ - وَاللهِ - لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَاهَا، وَقِيلَ فِيهَا. فَقُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ. فَاسْتَعَزَّزْتُ وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي، وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَتَنَزَّلَ فَقَالَ لَأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَّغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: أَنْسَمْتُ عَلَيْكَ - أَيُّ بَنِيَّةُ - إِلَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِكَ. فَرَجَعْتُ، وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْباً، إِلَّا أَنَّهُا كَانَتْ تَرْتُدُّ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلُ خَمِيرَهَا أَوْ: عَجِينَهَا، وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. حَتَّى اسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِعُ عَلَى يَبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ. وَبَلَغَ الْأَمْرُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ. وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَتْفَ أَنْثَى قَطُّ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَتَقْتُلُ شَهِيداً فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبُو أَيُّوبٍ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ وَقَدْ اكْتَنَفَنِي أَبُو أَيُّوبٍ عَنِ يَمِينِي وَعَنِ شِمَالِي، فَحَمِدَ اللهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتُ قَارَأْتِ سُوءاً أَوْ ظَلَمْتِ فِتْوِي إِلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ. قَالَتْ: وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فِيهَا جَالِسَةٌ بِالْبَابِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَجِي مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَذَكَّرَ شَيْئاً؟ فَوَعَّظَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَالْتَفْتُ إِلَى أَبِي فَقُلْتُ: أَجِبْنِي. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفْتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ: أَجِيبِينِي. قَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟ فَلَمَّا لَمْ يَجِيبَاهُ تَشْهَدْتُ فَحَمِدْتُ اللهُ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا بَعْدُ، فَوَاللهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَأَشْرَبَيْتُهُ قُلُوبَكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ، وَاللهِ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنِّي - وَاللهِ - مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يَوْسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَا مَا تَهَيِّقُونَ﴾، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ - مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَنَتْ، فَزَوَّعَ عَنْهُ وَإِنِّي لَأَتَّبِئُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمَسُّحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: أَيُّشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكَ. قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَباً، فَقَالَ لِي أَبُو أَيُّوبٍ: قَوْمِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا، وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمْ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، فَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقَدْ غَضَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خِيراً. وَأَمَا أَخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَأَمَا الْمَنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي ابْنِ

سَلُولٌ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: وَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَنْفَعُ مِسْطَحًا بِنَافِعَةَ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ يَنْكُرًا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتَرَا أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّنَكِينَ﴾، يعني مِسْطَحًا، إلى قوله: ﴿أَلَّا يُحِبُّوا أَنْ يَفْرَ اللَّهُ لَكَرًا وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله يا رُبَّنَا، إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وعاد له بما كان يصنع^(١). هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلَّقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ، عن أبي أسامة حَمَادِ بْنِ أَسَامَةَ أَحَدِ الْأَثَمَةِ الثَّقَاتِ. وقد رواه ابنُ جَرِيرٍ في تفسيره عن سفيانَ بنِ وَكَيْعٍ، عن أبي أسامة، به مُطَوَّلًا، مثله أو نحوه. ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة بِبَعْضِهِ.

[٤٨٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما نَزَلَ عُدْرِي مِنَ السَّمَاءِ جَاءَنِي النَّبِيُّ - ﷺ - فَأَخْبَرَنِي بِذَلِكَ، فَقُلْتُ: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ^(٢).

[٤٨٦٢] وقال الإمام أحمد: حدثني ابن أبي عدي، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ، عن عائشة قالت: لما نَزَلَ عُدْرِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فُضِرُوا حُدْمَهُمْ^(٣). وأخرجه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن). ووقع عند أبي داود تسميتهم: حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ^(٤). فهذه طرقٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَنْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - في المسانيدِ وَالصِّحَاحِ وَالسَّنَنِ وغيرها.

[٤٨٦٣] وقد رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّهَا أُمِّ رُومَانَ - رضي الله عنها - فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أخبرنا حُصَيْنٌ، عن أبي وائل، عن مَسْرُوقٍ، عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فَعَلَّ اللَّهُ بِابْنِهَا وَفَعَلَ. فقالت عائشة: وَلَمْ؟ قالت: إنه كان فيمن حَدَّثَ الْحَدِيثَ. قالت عائشة: وَأَيُّ حَدِيثٍ؟ قالت: كَذَا وَكَذَا. قالت: وَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قالت: نَعَمْ. قالت: وَيَبْلَغُ أَبُو بَكْرٍ؟ قالت: نَعَمْ. قالت: فَخَرَّتْ عَائِشَةُ - رضي الله عنها - مَعْشِيًا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَى بِنَافِضٍ^(٥). قالت: فَمَقَمْتُ فَدَثَرْتَهَا، قالت: وجاء النبي - ﷺ - فقال: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذْتَهَا حُمَى بِنَافِضٍ. قال: فَلَعَلَّهُ فِي حَدِيثٍ تُحَدِّثُ بِهِ. قالت: فَاسْتَوَتْ عَائِشَةُ قَاعِدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ لَكُمْ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَذَرْتُ إِلَيْكُمْ لَا تَعْذِرُونِي، فَمَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَتَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. قالت: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُدْرَهَا، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَدَخَلَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عُدْرَكَ. فقالت: بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِكَ. فقال لها أبو بكر: تَقُولِينَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قالت: نَعَمْ. قالت: فَكَانَ فِيْمَنْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ رَجُلٌ كَانَ يَعْوَلُهُ أَبُو بَكْرٍ. فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَصِلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ يَنْكُرًا وَالسَّعَةَ﴾. . . إلى آخر الآية، قال أبو

(١) أخرجه البخاري ٤٧٥٧ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطبري ٢٥٨٥٧ كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠/٦ وابن حبان ٧١٠٢ وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥/٦ وأبو داود ٤٤٧٤ والترمذي ٣١٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٧٣٥١ وابن ماجه ٢٥٦٧ والبيهقي ٨/٢٥٠، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، ولم يثبت أنه حدم.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٤٧٥ عن محمد بن إسحاق مرسلًا. وأخرجه أبو يعلى ٤٩٣٢ عن عروة مرسلًا.

(٥) النافض: حمى الرُعْدَة.

بكر: بلى. فَوَصَلَهُ^(١). تَقَرَّدَ به البخاريُّ دون مُسلم، من طريق حُصَيْن. وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عَوَانَةَ - وعن محمد بن سلام، عن محمد بن قُصَيْبٍ - كلاهما عن حُصَيْن، به. وفي لفظ أبي عوانة: «حدثني أم رومان». وهذا صريحٌ في سَمَاعِ مَسْرُوقٍ منها، وقد أنكر ذلك جماعةٌ من الحفاظ، منهم الخطيبُ البغداديُّ، وذلك لما ذَكَرَهُ أهلُ التاريخ أنها ماتت في زمانِ النبي - ﷺ - قال الخطيبُ: «وقد كان مَسْرُوقٌ يُرِيبُهُ فيقول: «سُئِلْتُ أم رومان»، وَيَسُوقُهُ، فَلَعَلَّ بعضهم كَتَبَ «سُئِلْتُ» بألف، فاعتقد الراوي أنها «سَأَلْتُ»، فَظَنَّهُ مُتَصَلًّا، قال الخطيبُ: «وقد زَوَّاه البخاريُّ كذلك، ولم تظهر له عِلَّتُهُ». كذا قال، والله أعلم. ورواه بعضهم عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، عن أم رومان، فإله أعلم.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾، أي: بالكذب والبهت والافتراء، ﴿عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعةٌ منكم، ﴿لَا تَنْسَوْنَ زُنْرًا لَكُمْ﴾، يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا، وَرَفْعَةٌ مَنَازِلٌ فِي الآخِرَةِ، وإظهارُ شرفٍ لهم باعْتِنَاءِ الله بعائِشَةَ أم المؤمنين، حيث أنزل اللهُ تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿١١﴾ [نصحت: ٤٢]، ولهذا لما دَخَلَ عليها ابنُ عباس - رضي اللهُ عنه - وهي في سِيَّاقِ المَوْتِ، قال لها: أَبِشِيرِي، فَإِنَّكَ زَوْجَةٌ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وكان يُحِبُّكَ، ولم يَتَزَوَّجْ بكراً غيرك، ونزلت براءةُكِ مِنَ السَّمَاءِ.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بن عون، عن المَعْلَى ابنِ عِزْفَانَ، عن محمد بن عبد الله بن جَحْشٍ قال: تَفَاخَرَتْ عائِشَةُ وزَيْنَبُ - رضي اللهُ عنهما - فقالت زينب: أنا التي نَزَلَ تَزْوِجِي مِنَ السَّمَاءِ، قال: وقالت عائشة: أنا التي نَزَلَ عُذْرِي فِي كِتَابِهِ، حين حَمَلَنِي ابنُ المَعْتَلِ على الرَّاحِلَةِ. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين رَكِبْتِيهَا؟ قالت: قلت: حَسْبِي اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ. قالت: قلتُ كلمةَ المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، أي: لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ القَضِيَةِ وَرَمَى أُمَّ المؤمنين عائِشَةَ - رضي اللهُ عنها - بشيءٍ مِنَ الفاحِشَةِ، نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ العَذَابِ. ﴿وَالَّذِي قَوْلُكُمْ كِبَرٌ مِنْهُمْ﴾، قيل: ابتداءً به. وقيل: الذي كان يجمعه وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُذِيعُهُ وَيُشِيعُهُ، ﴿لَمْ يَكُنْ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أنَّ المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول - قُبِحَ اللهُ ولعنه - وهو الذي تَقَدَّمَ النَصْرُ عليه في الحديث. وقال ذلك مجاهدٌ وغير واحد. وقيل: بل المرادُ به حسانُ بن ثابت. وهو قولٌ غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يَدُلُّ على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يَدُبُّ عن رسول الله - ﷺ - بِشِعْرِهِ.

[٤٨٦٤] وهو الذي قال له رسول الله - ﷺ - : «هاجهم وجبريلُ معك»^(٢).

[٤٨٦٥] وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مَسْرُوقٍ قال: كنتُ عندَ عائِشَةَ - رضي اللهُ عنها - فَدَخَلَ حَسَانُ بنُ ثَابِتٍ، فَأَمَرَتْ فَأَلْقَيْتُ لَهُ وَسَادَةً، فلما خَرَجَ قلتُ لعائِشَةَ: ما تَصْنَعِينَ بهذا؟ يَدْخُلُ عَلَيْكَ؟! - وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخلُ عليك - وقد قال اللهُ: ﴿وَالَّذِي قَوْلُكُمْ كِبَرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٢ - قالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِنَ العَمَى - وكان قد ذَهَبَ بَصَرُهُ - لعلَّ اللهُ أن يجعلَ ذلك هو العَذَابُ العَظِيمَ. ثم قالت: إنه

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٨٨ و٤١٤٣ والعلياشي ١٦٦٥ وأحمد ٦/٣٦٧ - ٣٦٨ وابن حبان ٧١٠٣.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٧.

كان يُنَافِحُ عن رسولِ الله ﷺ. وفي رواية أنه أنشدَها عندما دخل عليها شعراً يمتدحُها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُرْزَنُ بِرَيْبَةٍ وَتُضْبِحُ غَرْتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ^(١)
فَقالت: أما أنتِ فلستِ كذلك. وفي رواية: لكنكِ لستِ كذلك^(٢).

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن بن قَزَعَةَ، حدثنا سلمةُ بنُ عَلْقَمَةَ، حدثنا داود، عن عامر، عن عائشة أنها قالت: ما سَمِعْتُ بِشَيْءٍ أَحْسَنَ من شعرِ حسانَ، ولا تَمَثَّلْتُ به إلا رجوتُ له الجنةَ، قوله لأبي سفيانَ، يعني ابن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا، فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءِ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ بَيْنَكُمْ وَقَاءِ
أَتَشْتُمُهُ، وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ إِذْ فَسَرُّكُمْ مَا لَخَيْرِكُما الْفِيءِ
لِسَانِي صَارَ لَأَعْيَبَ فِيهِ وَبَخْرِي لَا تُكْذِرُهُ الدَّلَاءِ

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ يَتَّخِذُ أُولَىٰ آبَائِهِ حَتَّىٰ تُؤْتُوا لَهُمْ حَتْفَ عُرْوَةٍ وَهُمْ أُولَىٰ بِآبَائِهِمْ بَلَىٰ لَئِن لَّمْ يَظْهَرِ عَلَيْكُمْ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قضية عائشة - رضي الله عنها - حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَا﴾، بمعنى هلاً ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، أي: ذلك الكلام الذي رُميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأمر المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامراته - رضي الله عنهما - كما قال الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك للكذب، أكنيت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. فلما نزل القرآن ذكر الله - عز وجل - من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُونَ﴾، وذلك حسان وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبه.

وقال محمد بن عَمَرُ الواقدي: حدثني ابنُ أبي حَبِيبَةَ، عن داود بن الحُصَيْنِ، عن أبي سفيان، عن أَقْلَحِ مولى أبي أيوب، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أفكانت يا أم أيوب فاعلة ذلك! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. فلما نزل القرآن، وذكر أهل الإفك، قال الله - عز وجل -: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ

(١) حصان: حفيظة. رزان: ذات وقار. ما تزن: ما تتهم. غرثي: جاعة. الغوافل: جمع غافلة. يريد أنها لا تتكلم في أعراض الناس.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٥ و٤٧٥٦ من طريق الأعمش به، وانظر مسند أبي يعلى ٤٩٣١.

تُيَبِّئُ، يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب. ما قال، ويقال: إنما قالها أبي بن كعب. وقوله تعالى: ﴿هَذَا لَأَنَّكَ مُيَبِّئُ﴾، أي: هلاً ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهلها وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا﴾، أي: بالاستنهم: ﴿هَذَا لَأَنَّكَ مُيَبِّئُ﴾، أي: كذبت ظاهراً على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريباً، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رابطة جهرة على راحلة صفوان بن المَعَطَّل في وقت الظهيرة، والجيش بكامله يُشَاهِدُونَ ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريباً لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يُقَدِّمَانِ على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون - لو قُدِّرَ - خفيةً مستوراً، فتعيّن أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوْا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والزعونة الفاجرة، والصفقة الخاسرة. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا﴾، أي: هلاً ﴿جَاءَهُ عَلَيْهِ﴾، أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ﴾ يشهدون على صحبة ما جاؤوا به، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَنْزَلْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَكْذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كذبةً فجزة.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكَّرْنَا فِي مَا أَنْفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْأَيْدِيكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون في شان عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَسَكَّرْنَا فِي مَا أَنْفَضْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفك، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمنسجح، وحسان، وحنمة بنت جحش، أخت زينب بن جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يُعَارِضُهُ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعلٍ معيّن، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يُقَابِلُهُ من عملٍ صالح يُؤَاوِزُهُ أو يَرْجُحُ عَلَيْهِ. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْأَيْدِيكُمْ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضهم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان كذا، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا. وقرأ آخرون: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسُّنُكُمِ﴾. وفي صحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرأها كذلك^(١). وتقول: هو من ولق القول، يعني الكذب الذي يستمر صاحبه فيه، تقول العرب: ولق فلان في السير: إذا استمر فيه. القراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مزوية عن أم المؤمنين عائشة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة أنها كانت تقرأ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾، وتقول: إنما هو ولق القول. قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتَحْسَبُونُ ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي - ﷺ - لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو - سبحانه وتعالى - لا يُقَدِّرُ على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلاً ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

[٤٨٦٦] وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبليغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقي لها بالاً»^(١).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بالظن خيراً، أي: إذا ذُكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولاً ينبغي الظن بهم خيراً، وألاً يُشعر نفسه بسوى ذلك. ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله - ﷺ - قال:

[٤٨٦٧] «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تَقُلْ أو تَعْمَلْ»^(٢). أخرجاه في الصحيحين. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد، ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله. ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾، أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي: فيما يستقبل فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعيه، وتعلمون رسوله - ﷺ - فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر. ثم قال: ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٌ﴾، أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

وهذا تأديب ثالث لمن سَمِع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه منه شيء، وتكلم به، فلا يكتر منه ويشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبیح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: فزودوا الأمور إليه ترشدوا.

[٤٨٦٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرزبي، حدثنا محمد ابن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن النبي - ﷺ - قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته»^(٣).

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٨ من حديث أبي هريرة ولفظه «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم». وأخرجه مسلم ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وانظر ما يأتي في تفسير سورة الحجرات آية ٢ وسورة ق آية: ١٨.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٢٧٩/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/٨٦: ورجاله رجال الصحيح، غير ميمون بن عطاء، وهو ثقة اهـ. بل ضعفه الفلاس، وقال أحمد: كان يدللس، وقال النسائي: ليس بالقوي. فالإسناد ضعيف.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾، أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوفٌ بعباده، رحيمٌ بهم. فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من ذلك، بأفصح العبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، عمله. وقال عكرمة: نَزَغَاتِهِ. وقال قتادة: كل معصية فهي من خُطُوبَاتِ الشيطان. وقال أبو مجلز: النذورُ في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني خَرَمْتُ أَنْ أَكُلَ طَعَامًا، وسماه. فقال: هذا من نَزَغَاتِ الشيطان، كَفَّرَ عن يمينك، وكُلْ. وقال الشعبي في رجل نَذَرَ ذَبِيحَ ولده: هذا من نَزَغَاتِ الشيطان، وأفناه أن يَذْبَحَ كبشًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَسَنُ بن عبد الله المصري، حدثنا السريُّ بن يحيى، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع قال: غَضِبْتُ عَلَيَّ امرأتي فقالت: هي يومًا يهوديةً ويومًا نصرانيةً، وكل مملوك لها حر إن لم تُطَلَّقْ امرأتك. فأتيت عبد الله بن عَمْرٍو فقال: إنما هذه من نَزَغَاتِ الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفضة امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عَمْرٍو، فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي: لولا هو يرزقُ مَنْ يَشَاءُ التوبة والرجوع إليه، ويُزَكِّي النفوس شريكها وفُجُورها ودَنَسها وما فيها من أخلاق رديئة، كُلٌّ بِحَسَبِهِ لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خِيَرًا، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ﴾، أي: مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضِلُّ مَنِ يَشَاءُ وَيُزِيدُهُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالغِي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميعٌ لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمُوا أَن بَلَغُوا حُلُقُومًا أَلَا يُحِيبُونَ أَن يُغْفَرَ اللَّهُ لَكُمُ الْكُفْرَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، من الأتية وهي: الحيلف، أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾، أي: العُلُوبُ والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾، أي: الجدة، ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: لا تحلفوا ألا تصلوا قريباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غاية الترقق والمعطف على صِلَةِ الأرحام، ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَن بَلَغُوا حُلُقُومًا﴾، أي: عما تقدّم منهم في الإساءة والأذى؟ وهذا من جلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم. وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبدًا بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تقدّم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والهيئة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثانة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما يُنْفِقُ عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زَلَقَ زُلْفَةً تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق - رضي الله عنه - معروفًا

بالمعروف، له الفضلُ والأيدى على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ تَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: فإن الجزء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفك عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نُحِبُّ - يا ربنا - أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثم رَجَعَ إلى يسطح ما كان يَصِلُهُ من النفقة، وقال: والله لا أَنْزِعُهَا منه أبداً، في مقابلة ما كَانَ قال: «والله لا أنفعه بنا فاعية أبداً». فلهذا كان الصديق هو الصديق، رضي الله عنه، وعن بته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَإِسْمُ اللَّهِ يَمَّا كَانُوا يَسْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّقُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - خُرج مخرج الغالب -، فأهيات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل مُحصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبةً على أن من سبها بعد هذا وزماها بما زماها به الذين ذكروا في هذه الآية، فإنه كافر، لأنه مُعانِدٌ للقرآن. وفي بقية أهيات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي - رضي الله عنهن - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، قال: نزلت في عائشة خاصة. وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال:

[٤٨٦٩] حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُميتُ بما رُميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله ﷺ - جالس عندي إذ أوجي إليه، قالت: وكان إذا أوجي إليه أخذته كهينة السبات، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه، وقال: يا عائشة، أبشيري. قالت: قلت: بخمد الله لا بخمدك. فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حتى بلغ: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾^(١). هكذا أوردته، وليس فيه أن الحكم خاص بها، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها. ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضحاک، وأبو الجوزاء، وسلمة بن نبيب: المراد بها أزواج النبي خاصة، دون غيرهن من النساء.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية. يعني أزواج النبي ﷺ -، زماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب، وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ - ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْرِمَةٍ شَهَادَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فانزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تُقْبَلُ، والشهادة تُرَدُّ. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم،

(١) أخرجه الطبري ٢٥٨٨٢ وإسناده ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة. وله شاهد صحيح بغير هذا السياق.

حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا العَوَّامُ بن حَوْشَبٍ، عن شيخ من بني أُسَيْدٍ، عن ابن عباس، قال: فسُرَّ سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية، قال: في شأن عائشة وأزواج النبي - ﷺ - وهي مبهمة، وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْلَةٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا﴾... الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قَذَف أولئك توبة، قال: فَهَمَّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله: «وهي مبهمة»، أي: عامة في تحريم قَذْف كُلِّ محصنة، ولغنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلماتِ فله ما قال الله - عزَّ وجلَّ - ولكن عائشة كانت إمامَ ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح.

[٤٨٧٠] وَيُعْضِدُ الْعُمُومَ ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي العيث، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن بلال، به.

[٤٨٧١] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحداء الحراني، حدثني أبي، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زَفَرٍ، عن حُدَيْفَةَ، عن النبي - ﷺ - قال: «قَذَفَ المحصنة يهدم عمل مئة سنة»^(٢). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَنِّيهِمْ آلَيْهِمْ وَأَيْدِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مطرف، عن الجنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحد. فيجحدون فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً.

[٤٨٧٢] وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا كان يوم القيامة عُرفَ الكافر بعمله، فَجحدَ وخاصمَ، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصيبتهم وتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يُدخلهم النار»^(٣).

[٤٨٧٣] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبَةَ إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبَةَ الكوفي، حدثنا مَنجَابُ بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن فضيل بن

(١) تقدم في تفسير آية ١٠ من سورة النساء.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري في «الكبير» ٣٠٢٣ والبزار ١٠٥، فيه ليث، وهو ابن أبي سليم، وهو ضعيف، روى منكرات كثيرة.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٩٢ والطبري ٢٥٨٨٨، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٣٩٨: إسناده حسن على ضعف فيه بل هو ضعيف، فإنه عند أبي يعلى له علتان ضعف ابن لهيعة ودراج في روايته عن أبي الهيثم، وقد تويع ابن لهيعة عند الطبري، فالعلة فيه دراج فحسب، والله أعلم. وانظر ما بعده.

عمرو الفُقَيْمِي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند النبي ﷺ - فَصَحَّحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مَجَادِلَةِ الْعَبِيدِ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عَلِيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالكَرَامِ عَلَيْكَ شَهِودًا. فَيُخْتَمُ عَلِيٌّ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطقي، فَتَنْتَقِ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُرْنُ وَسُخْقًا، فَعَنْكُنْ كُنْتُ أَنَاضِلُ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي الثَّوْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ غَيْرَ الْأَشْجَعِيِّ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَكَذَا قَالَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ابْنُ آدَمَ، وَاللَّهُ إِنْ عَلَيْكَ لَشُھُودًا غَيْرَ مُتَّهَمَةٍ مِنْ بَدَنِكَ، فَرَأَيْتَهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي سَرَائِرِكَ وَعَلَانِيَتِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، الظُّلْمَةُ عِنْدَهُ ضُوءٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عِلَانِيَةٌ. فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللَّهِ حَسَنَ الظَّنِّ فَلْيَفْعَلْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤَيُّدُ بِيَوْمِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿دِينَهُمْ﴾، أي: حسابهم، وكلُّ ما في القرآن ﴿دِينَهُمْ﴾، أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد. ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿الْحَقَّ﴾، على أنه صفةٌ لِدِينِهِمْ، وقرأ مجاهدٌ بالرفع، على أنه نعتُ الجلالة. وقرأها بعضُ السلفِ في مُصْحَفِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ: ﴿يَوْمَ يُؤَيُّدُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، أي: وعده ووعيدُه وحسابُه هو العدلُ، الذي لا جَوْرَ فِيهِ.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾



قال ابنُ عباس: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثين من الرجالِ. والخبيثون من الرجالِ للخبيثاتِ من القولِ. والطيبات من القولِ للطيبين من الرجالِ، والطيبون من الرجالِ للطيباتِ من القولِ. قال: ونزلت في عائشةَ وأهلِ الإفكِ. وهكذا رُوِيَ عن مجاهدٍ، وعطاء، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك. واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلامَ القبيحَ أولى بأهلِ القبح من الناس، والكلامَ الطيبَ أولى بالطيبين من الناس، فما نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ مِنْ كَلَامِ هُمْ أَوْلَى بِهِ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبِرَاءَةِ وَالنِّزَاهَةِ مِنْهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ: الخبيثاتُ من النساءِ للخبيثين من الرجالِ، والخبيثون من الرجالِ للخبيثاتِ من النساءِ، والطيبات من النساءِ للطيبين من الرجالِ، والطيبون من الرجالِ للطيباتِ من النساءِ. وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللائم، أي: ما كان الله ليَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ؛ لِأَنَّهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَوْ كَانَتْ خَبِيثَةً لَمَا صَلَّحَتْ لَهُ، لَا شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بَعْدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْعُدْوَانِ، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عِنْدَ اللَّهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَفِيهِ وَعْدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن يزيد ابن عبد الرحمن، عن الحَكَمِ. عن يحيى بن الجَزَّارِ قال: جاء أُسَيْرُ بْنُ جَابِرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٩ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٥٣ وأبو يعلى ٣٩٧٧ وابن حبان ٧٣٥٨.

الوليد بن عُقْبَةَ اليوم تكلم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة غير الطيبة تتجلى في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها رجل عنده يتلها فيضمها إليه. وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلى في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿لَقَيْتُمُ الَّذِينَ لَلَّخَيْبِينَ وَالْحَيْثُونَ وَالْجَيْثُونَ لَلَّخَيْبَتِ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لَلَّطَيْبَتِ﴾ الآية.

[٤٨٧٤] ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً: «مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث بشراً ما سمع، كممثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال: أجزني شاة. فقال: اذهب فخذ بأذن أبيها شئت. فذهب فآخذ بأذن كلب الغنم» (١).

[٤٨٧٥] وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها» (٢).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَّا كُم تَدْخُرُونَ ﴿٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزكىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ أَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩﴾﴾

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف.

[٤٨٧٦] كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ انذتوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعتك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليصرف». فقال: لتأتين على هذا بيئته وإلا أوجعتك ضرباً. فذهب إلى ملا من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق (٣).

[٤٨٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس - أو غيره - أن رسول الله - ﷺ - استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي - ﷺ - حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه. فرجع النبي - ﷺ - فأتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد زدذت عليك ولم أسمغك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت. فقترب إليه زبيباً، فأكل نبي الله، فلما

(١) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٤١٧٢ وأحمد ٣٥٣/٢ و٥٠٨ والطحاوي ٩٠ وأبو يعلى ٦٣٨٨ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، لضيف علي بن زيد بن جدهان، قال البوصيري في «الزوائد».

(٢) ضعيف. أخرجه القضاة ١٤٦ عن زيد بن أسلم مرسلاً. وأخرجه الترمذي ٢٦٨٧ وابن ماجه ٤١٦٩ وابن الجوزي في «العلل» ١١٤ من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. قال يحيى: إبراهيم ليس حديثه بشيء.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٦٣ ومسلم ٢١٥٣ وأبو داود ٥١٨١ وأحمد ٣٩٨ و٤٠٠ وابن حبان ٥٨٠٧.

فَرَّغَ قَالَ: «أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارَ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ»^(١).

[٤٨٧٨] وقد رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَسَائِي، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيِّ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ - هُوَ ابْنُ عُبَادَةَ - قَالَ: زَاوَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فِي مَنْزِلِنَا، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيئًا، قَالَ قَيْسٌ: فَقُلْتُ: أَلَا تَأْذُنُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: ذَهَبَ يُكَيِّرُ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَفَرَدَ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيئًا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ، وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفِيئًا، لَتَكْثُرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ. قَالَ: فَانصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغُسْلٍ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ نَاولَهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوغَةً بِزَعْفَرَانٍ - أَوْ وَرْسٍ^(٢) - فَاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ. قَالَ: ثُمَّ أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْانصِرَافَ قَرَّبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ حَمَارًا قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ، فَركَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسَ، اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. قَالَ قَيْسٌ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: ارْكَبْ. فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ. قَالَ: فَانصَرَفْتُ^(٣). وَقَدْ رَوَى هَذَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَهُوَ حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزَلِ الْأَيْقِفَ تَلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ، وَلَكِنْ لِيَكُنِ الْبَابُ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ.

[٤٨٧٩] لَمَّا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ - فِي آخِرِينَ - قَالُوا: حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبَلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سِتُورًا^(٤). تَقَرَّرَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

[٤٨٨٠] وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ - (ح) - قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حَفْصٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ طَلْحَةَ، عَنْ هُزَيْلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ - قَالَ عُثْمَانُ: سَعْدٌ - فَوَقَّفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ - يَسْتَأْذِنُ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ - قَالَ عُثْمَانُ: مُسْتَقْبِلَ الْبَابِ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ -: هَكَذَا عِنَّا، أَوْ: هَكَذَا، فَإِنَّمَا الْاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ^(٥). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْحَفَرِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ

(١) جيد . أخرجه أحمد ١٣٨/٣ والبزار ٢٠٠٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٤/٨: ورجالهما رجال الصحيح . وأخرج أبو داود ٣٨٥٤ وأبو يعلى ٤٣١٠ عجزه فقط .

(٢) نبت أصفر باليمن، تتخذ منه الغمرة للوجه . وورس الثوب: صبغه به .

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠١٥٧ وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعه عن الأوزاعي مرسلًا، ولم يذكر قيس بن سعد . قلت: رجال الموصول ثقات، وهو صحيح إن كان محمد سمعه من قيس بن سعد . وذكره الألباني في «ضعيف أبي داود» ١١٠٥، وبكل حال يشهد لأصله ما بعده، وهو بهذا السياق المطول فيه غرابة . ولعل الألباني لم يقف على رواية أحمد المتقدمة، فإن إسنادها على شرط الشيخين .

(٤) أخرجه أبو داود ٥١٨٦ وإسناده ضعيف لضعف رواية بقرية عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي، وبقرية وإن صرح بالتحديث، فلا يبعد أن يكون أسقط شيخ شيخه، فإنه يدل على التسوية .

(٥) أخرجه أبو داود ٥١٧٤ وهذا مرسل، وهزيل تابعي كبير، وهو ثقة، وكرره أبو داود موصولاً وفيه راو لم يسم، وهو في صحيح أبي داود ٤٣١٠ ولعله لشواهد .

الأعمش، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن رجل، عن سعد، عن النبي ﷺ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِهِ.

[٤٨٨١] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «لَوْ أَنَّ أُمَّراً أَطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَحَدَّثْتَهُ بِحِصَاةٍ، فَفَقَاتَ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ»^(١).

[٤٨٨٢] وأَخْرَجَ الْجَمَاعَةُ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ - فِي ذَيْنَ كَانَ عَلَى أَبِي فِدْقَمْتُ الْبَابِ، فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنَا، أَنَا. كَأَنَّهُ كَرِهَهُ^(٢). وَإِنَّمَا كَرِهَ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا حَتَّى يُفْصِحَ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ الَّتِي هِيَ مَشْهُورٌ بِهَا، وَإِلَّا فَكُلُّ أَحَدٍ يُعْتَبَرُ عَنْ نَفْسِهِ «أَنَا» فَلَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْاسْتِذْنَانِ، الَّذِي هُوَ الْاسْتِئْثْنَانُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْآيَةِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْاسْتِئْثْنَانُ: الْاسْتِذْنَانُ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا وَتُسَلِّمُوا»، قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حتى تستأذنوا وتسلموا». وهكذا رواه هشيم، عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا»، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال هشيم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

[٤٨٨٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان، أن عمرو بن عبد الله بن صفوان أخبره، أن كِلْدَةَ بْنَ الْحَنْبَلِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ فِي الْفَتْحِ بَلِيًّا وَجَدَايَةَ وَضَغَابِيْسَ. وَالنَّبِيُّ ﷺ - بِأَعْلَى الْوَادِي، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ أَسَلْمْ وَلَمْ أَسْأَلْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: ارجع فقل: السلام عليكم، أدخل؟ وذليكم بعدما أسلم صفوان^(٣). ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج، به، وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه.

[٤٨٨٤] وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن ربيعة قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ - وهو في بيته، فقال: أليج؟ فقال النبي ﷺ - لخادمه: اخرج إلى هذا فقل له الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أدخل؟ فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أدخل؟ فأذن له النبي ﷺ - فدخل^(٤).

[٤٨٨٥] وقال هشيم: أخبرنا منصور، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد الثقفي: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ - فقال: أليج؟ أو: أليج؟ فقال النبي ﷺ - لأمة له، يقال لها

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٠٢ ومسلم ٢١٥٨ والنسائي ٦١/٨ وأحمد ٢٤٣/٢ وابن حبان ٦٠٠٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٥٠ ومسلم ٢١٥٥ وأبو داود ٥١٨٧ والترمذي ٢٧١١ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٢٨ وابن ماجه ٣٧٠٩ وأحمد ٣٢٠/٣ وابن حبان ٥٨٠٨.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٥١٧٦ والترمذي ٢٧١٠ والنسائي في «الكبرى» ٦٧٣٥ و١٠١٤٧ وأحمد ٤١٤/٣ وإسناده حسن صحيح. والجداية: الصغيرة من الظباء. والضفائيس: صغار القناء.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٥١٧٧ وإسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر.

روضة: قومي إلى هذا فَعَلِّمِيهِ، فإنه لا يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ، فقولي له يقول: السلام عليكم، أدخل؟ فَسَمِعَهَا الرجل، فقالها، فقال: ادْخُلْ^(١).

[٤٨٨٦] وقال الترمذي: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ زَكْرِيَا، عَنْ عَبَّسَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَادَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَبِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ^(٢). ثم قال الترمذي: عِنْسَةُ ضَعِيفُ الْحَدِيثِ ذَاهِبٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ زَادَانَ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ.

وقال هُشَيْمٌ: قَالَ مُغْبِرَةُ: قَالَ مُجَاهِدٌ: جَاءَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ حَاجَةِ، وَقَدْ آذَاهُ الرَّمْضَاءُ، فَآتَى فُسْطَاطَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ قَالَتْ: أَدْخُلْ بِسَلَامٍ. فَأَعَادَ، فَأَعَادَتْ، وَهُوَ يُرَاحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ، قَالَ: قَوْلِي: ادْخُلْ. قَالَتْ: ادْخُلْ. فَدَخَلَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ الْأَحْوَلُ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ إِيَّاسٍ، حَدَّثَنِي جَدَّتِي أُمُّ إِيَّاسٍ قَالَتْ: كُنْتُ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ نَسْتَأْذِنُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْنَا: نَدْخُلُ؟ قَالَتْ: لَا، قُلْنَا لِمَ لَا نَدْخُلُ؟ قَالَتْ: نَسْتَأْذِنُ. فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ قَالَتْ: ادْخُلُوا، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية. وقال هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَشْعَثُ بْنُ سَوَّارٍ، عَنْ كُرْدُوسٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا عَلَىٰ أُمَّهَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ.

[٤٨٨٧] قال أشعث، عن عدي بن ثابت: إِنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَكُونُ فِي مَنْزِلِي عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا أُحِبُّ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ عَلَيْهَا وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؟ قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣).

وقال ابن جُرَيْجٍ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبِيعٍ يُخْبِرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَعَدَهُنَّ النَّاسُ: قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنْ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمَهُمْ بَيْتًا. قَالَ: وَالْإِذْنَ كُلَّهُ قَدْ جَعَدَهُ النَّاسُ. قَالَ: قُلْتُ: اسْتَأْذِنَ عَلَى أَخَوَاتِي أَيَّامًا فِي حَجْرِي مَعِيَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَرَدَّدْتُ لِيُرْخِصَ لِي فَابِي، قَالَ: تَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا غُرْبَانَةً؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ. قَالَ: فَارْجَعْتَهُ أَيْضًا، فَقَالَ: أَنْتِ حِبُّ أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مِنْ امْرَأَةٍ أَكْرَهَ إِلَيَّ أَنْ أَرَى غُرْبَتَهَا مِنْ ذَاتِ مُحْرَمٍ. قَالَ: وَكَانَ يَشْدُدُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنِ الزَّهْرِيِّ: سَمِعْتُ هُزَيْلَ بْنَ شَرْحَبِيلَ الْأَوْدِيَّ الْأَعْمَى أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ الْإِذْنَ عَلَى أُمَّهَاتِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَيْسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ؟ قَالَ: لَا. وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى عَدَمِ الرَّجُوبِ، وَإِلَّا فَالْأَوْلَى أَنْ يُعْلِمَهَا بِدُخُولِهِ وَلَا يُفَاجِئَهَا بِهِ، لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهَا. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بَنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ مُرَّةٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ، عَنْ ابْنِ أَخِي زَيْنَبٍ - امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) أخرجه الطبري ٢٥٩١٧ تعليقا وهو مرسل، لكن يعتضد بما قبله.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الترمذي ٢٦٩٩ وأبو يعلى ٢٠٥٩ وابن عدي ٢٠٤/٦ من حديث جابر، وإسناده ضعيف جداً، قال الترمذي: هذا حديث منكر، وسمعت البخاري يقول: عنبسة بن عبد الرحمن، ضعيف الحديث، ذاهب. ومحمد بن زاذان، منكر الحديث. وأورده الديلمي في الفردوس ٣٥٣٧ لكن جملة من حديث جابر وابن عمر معاً. وضعفه السيوطي في «الجامع» كما في «فيض القدير» ٤٨٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني ٢٥٩٢١ وإسناده ضعيف لضعف أشعث بن سوار، وهو مرسل.

مسعود - عن زينب - رضي الله عنها - قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تتحنح ويترق، كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، إسناده صحيح^(١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مروة، عن أبي عبيدة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس، تكلم ورفع صوته. وقال مجاهد: ﴿حَقَّ تَسْتَأْنِسُوا﴾، قال: تَنَحَّنُوا، وَتَنَحَّمُوا. وعن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه قال: إذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ اسْتَحَبَّ لَهُ أَنْ يَتَنَحَّنَحَّ، أَوْ يُعْرِكَ نَعْلَيْهِ.

[٤٨٨٨] ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله - ﷺ -: أنه نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا. وفي رواية: لِيَلَّا يَتَخَوَّنَهُمْ^(٢).

[٤٨٨٩] وفي الحديث الآخر: أن رسول الله - ﷺ - قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَهَارًا، فَأَنَاحَ بِظَاهِرِهَا، وَقَالَ: أَنْتَظَرُوا حَتَّى تَدْخُلَ عِشَاءٌ - يَعْنِي آخَرَ النَّهَارِ - حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعْثَةَ وَتَسْتَجِدَّ الْمَغِيْبَةَ^(٣).

[٤٨٩٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سوزة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس، قال: يتكلم الرجل بتسيحة أو تكبيرة أو تحميدة، ويتحنح فيؤذن أهل البيت^(٤). هذا حديث غريب. وقال قتادة في قوله: ﴿حَقَّ تَسْتَأْنِسُوا﴾، قال: هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له فهين فليرجع، أما الأولى فليستمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا جذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم زدوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعدر. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّتْ صَبَاحًا وَحُيِّتْ مَسَاءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم يطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت نحو ذلك. فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فعبر الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾. وهذا الذي قاله مقاتل: حسن. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، يعني الاستئذان خير لكم، بمعنى هو خير للطرفين: للمستأذن ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَرَجَعُوا فِيهَا أَكَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتِجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، أي: إذا رددوكم من الباب قبل الإذن أو بعده، ﴿فَاتِجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ وَيَسِّرُ﴾. وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن استأذن على بعض إخواني، فيقول لي: «ارجع». فأرجع وأنا مغتبط: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتِجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لَكُمْ وَيَسِّرُ﴾. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا فَاتِجِعُوا﴾، لا تقفوا على أبواب الناس.

(١) بل فيه راو لم يسم، فالإسناد ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٣ ومسلم ص ١٥٢٨ ح ١٨٤ و ١٨٥ وأبو داود ٢٧٧٦ وأحمد ٣/٢٩٩ وابن حبان ٤١٨٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٠٧٩ ومسلم ٧١٥ وأحمد ٣/٣٠٣ وأبو يعلى ١٨٥٠ من حديث جابر مطولاً.

(٤) ضعيف جداً. ذكره الحافظ في «الفتح» ٨/١١ وقال: أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف. قلت: بل ضعيف جداً، واصل بن السائب متروك الحديث، وشيخه أبو سورة قال البخاري: عنده مناكير اهـ والخبر شبه موضوع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٤) هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها، بغير إذن، كالبیت المعد للضيف، إذ أذن له فيه أول مرة كفى. قال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ثم نسخ واستثنى فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾. وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري. وقال آخرون؛ هي بيوت التجار، كالخانات ومنازل الأسفار، وبيوت مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهر، والله أعلم. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشغرى.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٥)

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً.

[٤٨٩١] كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال: سألت النبي - ﷺ - عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري^(١). وكذا رواه الإمام أحمد، عن هشيم، عن يونس بن عبيد، به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، من حديثه أيضاً، وقال الترمذي: «حسن صحيح». وفي رواية لبعضهم: «قال: أطرق بصرك»، يعني: انظر إلى الأرض. والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلم.

[٤٨٩٢] وقال أبو داود: حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا شريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ - لعلي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة». ورواه الترمذي من حديث شريك، وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديثه^(٢).

[٤٨٩٣] وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إياكم والجلوس على الطرقات. قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها. فقال رسول الله - ﷺ -: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غص البصر وكف الأذى، وزد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»^(٣).

[٤٨٩٤] وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضال بن جبير، سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب،

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذي ٢٧٧٦ وأحمد ٣٥٨/٤ و٣٦١ وابن حبان ٥٥٧١.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢١٤٩ والترمذي ٢٧٧٧ وأحمد ٣٥١/٥ و٣٥٧ وصححه الحاكم ١٩٤/٢ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قال الترمذي: حسن غريب. وفي الباب من حديث علي عند أحمد ١٥٩/١ والدارمي ١٩٨٢ وابن حبان ٥٥٧٠ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٢٩ وأحمد ٣٦/٣ وابن حبان ٥٩٥.

وإذا اثنمن فلا يُخَن، وإذا وَعَد فلا يُخَلَف، وَغَضُوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ^(١).

[٤٨٩٥] وفي صحيح البخاري: «من تكفل لي ما بين لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَكْفَلُ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كُلُّ مَا عَصِيَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ. وقد ذكر الطرفين فقال: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ». ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظرُ سَهَامٌ سَمُّ إِلَى الْقَلْبِ. ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: «وَاحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ». وحفظ الفرج تارة يكون بمنه من الزنا، كما قال: «وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٧﴾» [المؤمنون: ٥-٦]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في المُسْتَدِّ والسَّتْنِ:

[٤٨٩٦] «احْفَظْ عَوْرَتَكَ، إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»^(٣). «ذَلِكَ أَزْكَ لَكُمْ»، أي: أظهُرُ

لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حَفِظَ بَصْرَهُ أَوْزَتْهُ اللَّهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ. وَيُرَوَى: فِي قَلْبِهِ.

[٤٨٩٧] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن

عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجدها خلواتها»^(٤). وروى هذا مرفوعاً عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة رضي الله عنهم. ولكن في أسانيدنا ضعف، إلا أنها في الترخيب ومثله يُسَامَحُ فِيهِ.

[٤٨٩٨] وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «لَتَغُضُّنَّ أَبْصَارَكُمْ، وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ، وَلَتَتَّقِيَنَّ وَجُوهَكُمْ، أَوْ لَتَتَكَسَّفَنَّ وَجُوهَكُمْ»^(٥).

[٤٨٩٩] وقال الطبراني: حدثنا أحمد زهير الشستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضربير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُزَيْمُ بْنُ سَفْيَانَ، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَ مَخَافَتِي أَبَدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ خَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»^(٦). وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». كما قال تعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٦١﴾» [غافر: ١٩].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٠١٨ و«الأوسط» ٢٥٦٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٠١/١٠ وفيه فضال ابن الزبير، ويقال ابن جبير، وهو ضعيف اهـ لكن له شاهد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٧٤ والترمذي ٣٤٠٨ بلفظ «من يضمن» . . .

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٤٠١٧. والترمذي ٢٧٦٩ وابن ماجه ١٩٢٠ وأحمد ٣/٥ و٤ والطحاوي في «المشكل» ١٣٨١ من حديث معاوية بن حيدة، وصححه الحاكم ١٧٩/٤ - ١٨٠ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. وهو كما قال. وللحديث شواهد.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢٦٤/٥ والطبراني ٧٨٤٢ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي ١٢٩٤٣ «مجمع»: فيه علي بن يزيد الألهاني، متروك اهـ. لكن له شواهد كما ذكر ابن كثير، وإنما هو ضعيف بهذا الإسناد فحسب، والله أعلم وانظر الآتي بعد حديث.

(٥) أخرجه الطبراني ٧٨٤٠ وإسناده كسابقه.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني ١٠٣٦٣ من حديث ابن مسعود، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٢٩٤٦ بعبد الرحمن بن إسحاق، وأنه ضعيف اهـ وله علة أخرى: عبد الرحمن لم يدرك أباه ابن مسعود. لكن للحديث شواهد يعتضد بها.

[٤٩٠٠] وفي الصحيح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِفْظُهُ مِنَ الزَّانَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فِزْنَا الْعَيْنِينَ النَّظَرَ، وَزَيْنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَزَيْنَا الْأَذْنَيْنِ الْاسْتِمَاعَ، وَزَيْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشَ، وَزَيْنَا الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجَ يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(١). رواه البخاري تعليقا^(٢)، ومسلم مسنداً من وجوه آخر، بنحو ما تقدم. وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحذ الرجل بصره إلى الأمرد. وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرّمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

[٤٩٠١] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر ابن محمد بن صهبان، حدثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنًا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذِّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَقُوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث: أن «أسماء بنت مرثد، كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزورات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن»، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية. فقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾، أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً.

[٤٩٠٢] واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي، من حديث الزهري، عن نبيهان - مولى أم سلمة - أنه حدثه: أن أم سلمة حدثته: أنها كانت عند رسول الله - ﷺ - وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله - ﷺ -: احتجبا منه. فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أو عميوان أنتما؟ أستمنا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٤٣ و٦٦١٢ ومسلم ٢٦٥٧ وأحمد ٢٧٦/٢ وابن حبان ٤٤٢٠.

(٢) بل رواه مسنداً موصولاً في كلا الروايتين.

(٣) ضعيف. أخرجه أبو نعيم ١٦٣/٣، ومداره على عمر بن محمد بن صهبان، قال الذهبي في «الميزان» ٦١٤٩: قال أحمد: لم يكن بشيء، وقال يحيى: لا يساوي فلساً، وقال البخاري منكر الحديث.

تُبَصِّرَانَهُ^(١). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجناب بغير شهوة.

[٤٩٠٣] كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه. وهو يسترها منهم حتى ملت وزجعت^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، قال سعيد بن جبيرة: عن الفواحش، وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كل آية أنزلت في القرآن يُذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، ألا يراها أحد. وقال: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: ولا يظهرن شيئاً من الزينة للأجناب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب، من المقنعة التي تجل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكن إخفاؤه. ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، قال: وجهها وكفيها والخاتم. وزوي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وغيرهم، نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، الزينة: القُرط، والدملج^(٣)، والخَلخال، والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار وزينة يراها الأجناب، وهي الظاهر والثياب. وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله بمن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير خسر. وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، الخاتم والخَلخال. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور.

[٤٩٠٤] ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ كَعْبِ الْأَنْطَاكِيِّ وَمُؤَمَّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ ذَرِيكٍ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنه -: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَقَالَ: يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلَحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا. وأشار إلى وجهه وكفيه^(٤). لكن قال أبو

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ وأبو داود ٤١١٢ والترمذي ٢٧٧٨ وابن حبان ٥٥٧٥ والبيهقي ٩١/٧ من حديث أم سلمة، ومداره على نيهان. قال عنه في الترتيب: مقبول. وقال في «الفتح» ٥٥٠/١: هو حديث مختلف في صحته. قال أبو داود: هذا خاص بأزواج النبي ﷺ، ونقل ابن قدامة في «المغني» ٥٦٣/٦ بعد أن تكلم في توجيه هذا الحديث، عن ابن عبد البر قوله: نيهان مجهول. وقد قال أحمد وأبو داود: هو خاص به وحكم الشيخ شعيب بضعفه، وأنه معارض بأحاديث صحاح. والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٥ ومسلم ٧٩٢ ح ١٨ وأحد ٢٤٧/٦.

(٣) القُرط: هو ما يعلق في شحمة الأذن. الدملج: المفضد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٤ عن خالد بن دريك عن عائشة به. قال أبو داود: هذا مرسل، خالد لم يدرك عائشة. وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٢٩٩/١: وقال ابن القطان: ومع هذا، خالد مجهول الحال. وقال المنذري في «مختصره»: وفيه سعيد بن بشير، تكلم فيه غير واحد له لكن للحديث شواهد مرسله ومتصلة يمتضد بها، والله أعلم.

داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، فالله أعلم.
 وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ مِثْرَيْنَ عَلَى جُبُوبِنَ﴾، يعني: المَقَانِعُ يُعْمَلُ لَهَا صَنَفَاتٌ ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِ
 النساءِ، لِتُوَارِي مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا، لِيُخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ،
 بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمُرُّ بَيْنَ الرَّجَالِ مُسْفِحَةً بِصَدْرِهَا، لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ، وَرَبِمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا
 وَأَقْرَظَةَ آذَانِهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتُ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
 لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ أَكْثَرَ الْكَلِمَاتِ لَنْ يَرْضَيْنَ لَكَ كَلِمَاتٍ مِنْ كَلِمَاتِكَ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَسْمَعْنَ فَمَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وقال في
 هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ مِثْرَيْنَ عَلَى جُبُوبِنَ﴾، والخمر: جمع خَمَارٍ، وهو ما يَخْمِرُ، أي: يُعْطِي به
 الرأس، وهي التي تُسَمِّيها النَّاسُ المَقَانِعَ. قال سعيد بن جبير: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ﴾: وَلَيَشُدُّدَنَّ ﴿مِثْرَيْنَ عَلَى جُبُوبِنَ﴾،
 يعني على التَّخْرِ والصَّدْرِ، فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ.

[٤٩٠٥] وقال البخاري: حدثنا أحمد بن شبيب، حدثنا أبي، عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة،
 عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ مِثْرَيْنَ عَلَى
 جُبُوبِنَ﴾، شَقَقْنَ مَرُوطَهُنَّ فَاحْتَمَزْنَ بِهَا»^(١).

[٤٩٠٦] وقال أيضاً: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت
 شيبة: «أن عائشة - رضي الله عنها - كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ مِثْرَيْنَ عَلَى جُبُوبِنَ﴾، أخذن
 أَرْزَهُنَّ فَشَقَقْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْحَوَاشِي، فَاحْتَمَزْنَ بِهَا»^(٢).

[٤٩٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثني الزنجي بن خالد،
 حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، قالت: فذكرنا نساء
 قُرَيْشٍ وَأَفْضَلَهُنَّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «إِنَّ نِسَاءَ قُرَيْشٍ لَأَفْضَلُنَّ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْ
 نِسَاءِ الْأَنْصَارِ أَشَدَّ تَصَدِيقاً بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا إِيمَاناً بِالتَّنْزِيلِ، لَقَدْ أَنْزَلَتْ سُورَةَ النُّورِ: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ مِثْرَيْنَ عَلَى
 جُبُوبِنَ﴾، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امراته وابنته وأخته،
 وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مزطها المرخل فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله
 من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله - ﷺ - الصبح معتجرات، كأن علي رؤوسهن الغربان»^(٣). ورواه أبو
 داود من غير وجه، عن صفية بنت شيبة^(٤)، به.

[٤٩٠٨] وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أن قرة بن عبد الرحمن أخبره، عن ابن
 شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلَيَعْرَيْنَ
 مِثْرَيْنَ عَلَى جُبُوبِنَ﴾، شَقَقْنَ أَكْثَفَ مَرُوطَهُنَّ فَاحْتَمَزْنَ بِهِ»^(٥). ورواه أبو داود من حديث ابن وهب، به. وقوله
 تعالى: ﴿وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبَعُولَتِهِنَّ﴾، يعني أزواجهن، ﴿أَوْ أَبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بَعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٩ والنسائي في «التفسير» ٣٨٣.

(٣) إسناده ضعيف، فيه الزنجي بن خالد، وثقه ابن حبان وحده على قاعدته، والخبر في بعض ألفاظه نكارة، وأصله محفوظ له شواهد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٠ وإسناده غير قوي من أجل ابن مهاجر، لكن له شواهد.

(٥) أخرجه أبو داود ٤١٠٢ وابن جرير ٢٥٩٧٨ وإسناده حسن لأجل قرة بن عبد الرحمن، لكن له شواهد.

أَبْسَاكُ بَعُولَتَيْهِمْ أَوْ يَخُونِيهِمْ أَوْ بَيَّعَ يَخُونِيهِمْ أَوْ بَيَّعَ أَخْرَقْتَهُمْ»، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتنها، ولكن من غير اقتصَادٍ وَتَبَهْرُجٍ.

وقال ابن المنذر: حدثنا موسى - يعني ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبَةَ - حدثنا عَفَانُ، حدثنا حَمَادُ بن سَلْمَةَ، أخبرنا داود، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، حتى فَرَّغَ منها قال: لم يذكر العَمُّ ولا الخال، لأنهما يَنْتَعَتَانِ لأبناهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال، فاما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتصنع له: ما لا يكون بخَصْرَةٍ غيره.

وقوله: ﴿أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ﴾، يعني: تُظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة، لئلا يَصِفِرَ لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمتنعن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حَرَامٌ فَتَنْزِجُ عنه.

[٤٩٠٩] وقد قال رسول الله - ﷺ -: «لا تباشِرُ المرأةُ المرأةَ، تنعُثها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(١). أخرجاه في الصحيحين، عن ابن مسعود.

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغازي، عن عبادة بن نسي، عن أبيه، عن الحارث بن قيس قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فأنة من قبلك فلا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ﴾، قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نساؤهن، وليس للمرأة المسلمة أن تتكشِفَ بين يدي المشركة. وروى عبد بن حميد في تفسيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ﴾، قال: هن المسلمات، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية، وهو النحر والفرط والوشاح، وما لا يحل أن يراه إلا مخترم.

وروى سعيد: حدثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد قال: لا تَضَعُ المسلمة خمارها عند مشركة، لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ إِسَاءَتِهِنَّ﴾، فلتسن من نساؤهن. وعن مكحول وعبادة بن نسي: أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير، حدثنا ضمرة قال: قال ابن عطاء، عن أبيه: «ولما قديم أصحاب النبي - ﷺ - بيت المقدس، كان قوابل نساؤهم اليهوديات والنصرانيات. فهذا إن صح محمول على حال الضرورة، أو أن ذلك من باب الامتihan. ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بُد والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، قال ابن جرير: يعني من الإماء المشركات، فيجوز لها أن تُظهِرَ زينتها لها وإن كانت مشركة، لأنها أمتها. وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء.

[٤٩١٠] واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود. حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جَمِيعِ سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - أتى فاطمةً بعبدٍ قد وَهَبَهُ لها، قال: وعلى فاطمة

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٠ وأبو داود ٢١٥٠ والترمذي ٢٧٧٢ وأحمد ٤٤٠/١ وأبو يعلى ٥٠٨٣ وابن حبان ٤١٦٠

من حديث ابن مسعود، ولم أره في «صحيح مسلم».

ثوب إذا قُتعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غُطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ - ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلأمك»^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة خديج الخصي - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي ﷺ - وهبه لابنته فاطمة، فزنته ثم اعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

[٤٩١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نيهان، عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ﷺ - قال: «إذا كان لإحدائكم مكاتب، وكان له ما يؤذي، فلتحتجب منه»^(٢). ورواه أبو داود، عن مسدد، عن سفيان، به. وقوله تعالى: «أولئك الذين غير أولي الأربية من الرجال»، يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفأ، وهم مع ذلك في عقولهم وله وحوث، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن. قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله. وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره. وكذلك قال غير واحد من السلف.

[٤٩١٢] وفي الصحيح من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ - وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ - وهو ينعت امرأة: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال رسول الله ﷺ -: ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلن عليكن. فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم^(٣).

[٤٩١٣] روى الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ - وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدير بثمان. قال: فسَمِعَهُ رسول الله ﷺ - فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك»^(٤). أخرجاه في الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، به.

[٤٩١٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ - مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ - وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة. فقال: إنها إذا أقبلت بأربع

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٤١٠٦ والبيهقي ٩٥/٧ وإسناده لين من أجل أبي جميع، وتابعه سلام بن أبي الصهباء كما قال البيهقي، وهو ضعيف، لكن يصلح للمتابعة، وله شواهد.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٣٩٢٨ والترمذي ١٢٦١ وابن ماجه ٢٥٢٠ وأحمد ٢٨٩/٦ وأبو يعلى ٢٩٥٦ والبيهقي ٣٢٧/١٠ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح. لكن عجزه «فأخرجه...» ما رواه الشيخان، وإنما أخرجه أبو داود ٤١٠٩ بسند صحيح وكرره، ٤١١٠ من وجه آخر. وهو دون عجزه، أخرجه مسلم ٢١٨١ وأبو داود ٤١٠٧ وأحمد ١٥٢/٦.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٢٤ و٥٢٣٥ ومسلم ٢١٨٠ وأبو داود ٤٩٢٩ وابن ماجه ١٩٠٢ وأحمد ٢٩٠/٦ و٣١٨ وأبو يعلى ٦٩٦٠.

وإذا أدبرت أدبرت بشمان. فقال النبي ﷺ: - ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا؟ لا يدخلن عليكم هذا. فَحَبَّبُوهُ^(١). ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طريق عبد الرزاق، به.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْبَطْنِ الْأَيْمَنِ الَّذِي كَانَتْ تُرِيحُهُمْ﴾، يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، من كلامهن الرخيم، وتعتطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويذريه، ويفترق بين الشوهاء والحسنة، فلا يمكن من الدخول على النساء.

[٤٩١٥] وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال: «يَأْكُمُ الدَّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ». قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحموم؟ قال: الحموم الموت^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طينته. فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زيتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتتم الرجال طيبها.

[٤٩١٦] فقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن ثابت بن عمارة الحنفي، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال: «كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، يَعْنِي زَانِيَةٌ»^(٣). قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح ورواه أبو داود والنسائي، من حديث ثابت بن عمارة، به.

[٤٩١٧] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال: وله تطيب؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت جبي أبا القاسم - ﷺ - يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيب لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»^(٤). ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان - هو ابن عيينة - به.

[٤٩١٨] وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ - قال: «مَثَلُ الرَّافِلَةِ فِي الزَّيْتَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمَثَلِ ظُلْمَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا نُورَ لَهَا»^(٥). ومن ذلك أيضاً أنهم يُنَهَيْنَ عن المشي في وسط الطريق، لما فيه من التبرج.

(١) هو المتقدم قبل حديث واحد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٢ ومسلم ٢١٧٢ والترمذي ٢١٧١ وأحمد ١٤٩/٤ و١٥٣ وابن حبان ٥٥٨٨ والبيهقي ٧/٩٠ من حديث عقبة بن عامر.

(٣) جيد. أخرجه الترمذي ٢٧٨٦ والنسائي ١٥٣/٨ وأحمد ٤١٤/٤ وابن حبان ٤٤٢٤ وصححه الحاكم ٣٩٦/٢، ووافقه الذهبي، وإسناده قوي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر صحيح الترمذي ٢٢٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٧٤ وابن ماجه ٤٠٠٢ وأحمد ٢٤٦/٢ و٤٤٤ وإسناده ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله.

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ١١٦٧، والزيادة منه، وضعفه بقوله: موسى بن عبيدة يضعف من قبل حفظه، وهو صدوق، ورواه بعضهم عن موسى بن عبيدة، ولم يرفعه.

[٤٩١٩] قال أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه: أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله - ﷺ - للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن^(١) الطريق، عليكن بحافات الطريق. فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار، من لصوقها به^(٢)». وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: اعملوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان، وعليه التكلان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) **وَالصَّالِحِينَ** الَّذِينَ لَا يَمِيلُونَ نِكَاحًا حَقًّا يُعْنِيهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِنَابَ مِنَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَعَاثُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيحتَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَخَصَا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) **وَلَقَدْ** أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴿

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، هذا أمر بالتزويج. وقد ذُهب طائفة من العلماء إلى وجوبه، على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله - ﷺ -:

[٤٩٢٠] «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(٣). أخرجه في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

[٤٩٢١] وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «تَزَوَّجُوا تَوَالِدُوا تَنَاسَلُوا، فإني مَبَاهٍ بِكُمْ أَمْسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وفي رواية: «حتى بالسقط»^(٤). الأيامي: جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له. وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاها الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيم وامرأة أيم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رَغَّبَهُمُ اللَّهُ فِي التَّزْوِيجِ، وَأَمَرَ بِهِ الْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ، وَعَدَّهُمُ عَلَيْهِ الْغِنَى، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرق، حدثنا عمر بن عبد

(١) حق الطريق: توطئه.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٢٧٢ وإسناده ضعيف، أبو اليمان مستور وشداد وأبوه مجهولان، وهو هذا السياق ضعيف. وورد بلفظ «ليس للنساء وسط الطريق» أخرجه ابن حبان ٥٦٠١ بسند ضعيف لضعف مسلم بن خالد الزنجي، ولعل الراجح فيهما الوقف، والله أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٣.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

الواحد، عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح يُنجِز ما وعدكم من الغنى، قال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. رواه ابن جرير، وذكر البغوي عن عمر بنحوه.

[٤٩٢٢] وعن الليث، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغايزي في سبيل الله»^(١). رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَه. وَقَدْ زَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَجِدْ إِلَّا إِزَارَهُ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَاتَمٍ مِنْ حَدِيدٍ^(٢)، وَمَعَ هَذَا فَرَّوْجَهُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَجَعَلَ صَدَاقَهَا عَلَيْهِ أَنْ يُعَلِّمَهَا مَا يَحْفَظُهُ مِنَ الْقُرْآنِ. وَالْمَعْهُودُ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَطْفِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ وَإِيَاهَا مَا فِيهِ كِفَايَةٌ لَهَا. فَأَمَّا مَا يُورِدُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُ حَدِيثٌ:

[٤٩٢٣] «تَزَوَّجُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ»، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ أَزِهِ بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ وَلَا ضَعِيفٍ إِلَى الْآنِ، وَفِي الْقُرْآنِ غُنْيَةٌ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي أوردناه، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسْتَ تَصِفُ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ يُكَافَأُ حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال - ﷺ -:

[٤٩٢٤] «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٣). وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أحصن منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَسْتَكْفِئُ الْوَدْمَانَ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِدُّوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي: صبركم عن تزويج الإماء خيراً، لأن الولد يجيء رقيقاً، ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَسْتَ تَصِفُ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ يُكَافَأُ﴾، قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتها، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فليظنر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَوُونَ أَلْكَتَابَ يَمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شازطه على أذائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه. وقال الثوري، عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كاتبه، وإن لم يشاء لم يكاتبه. وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ كاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه. وكذا قال مقاتل ابن حيان، والحسن البصري. وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر.

(١) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٦٠.

(٢) هو معنى حديث يأتي في سورة الأحزاب إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة.

وقال البخاري: وقال زَوْحٌ، عن ابن جُرَيْجٍ، قلتُ لعطاء: أوجبَ عليّ إذا عَلِمْتُ له مالا أن أَكَاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلتُ لعطاءٍ أَنَاثَرُهُ عن أحدٍ؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى ابن أنسٍ أَخْبَرَهُ أن سِيرِينَ سأل أَنَسًا المُكَاتِبَةَ، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عُمَرَ بن الخطاب فقال: كَاتِبَتِهِ. فأبى، فَضْرِبَهُ بالدَّرَةِ، وَيَتَلَوُ عَمَرَ - رضي الله عنه -: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فكاتبته. هكذا ذكره البخاري تعليقاً، ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْجٍ قال: قلتُ لعطاء: أوجبَ عليّ إذا عَلِمْتُ له مالا أن أَكَاتِبَهُ؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقالها عمرو بن دينار، قال: قلتُ لعطاء: أَنَاثَرُهُ عن أحدٍ؟ قال: لا. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سَعِيدٌ، عن قَتَادَةَ، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يُكَاتِبَهُ، فَتَلَّكَأَ عليه، فقال له عمر: لَتُكَاتِبَتَيْتَهُ. إسناده صحيح. وقال سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حدثنا هُشَيْمٌ، عن جُرَيْبٍ، عن الضُّحَاكِ قال: هي عزيمة. وهذا هو القولُ القديم من قولِي الشافعي - رحمه الله - وذهب في الجديد إلى أنه لا يجبُ، لقوله عليه الصلاة والسلام:

[٤٩٢٥] «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبٍ مِنْ نَفْسِهِ»^(١). وقال ابن وهب: قال مالك: الأمرُ عندنا أن ليس على سيّد العبد أن يُكَاتِبَهُ إذا سألَهُ ذلك، ولم أسمع أحداً من الأمة أكره أحداً على أن يُكَاتِبَ عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمرٌ من الله تعالى وإذنٌ منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم: واختار ابن جرير قولَ الوجوب لظاهر الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالا، وقال بعضهم: جيلة وكسباً.

[٤٩٢٦] «وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَراسيلِ»، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال: إن علمتم فيهم حِرْفَةً، ولا ترسلوهم كلاً على الناس^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، اختلف المفسرون فيه، فقال قائلون: معناه إطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: الربع. وقيل: جزء من الكتابة من غير حد. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة. وهذا قولُ الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيان. واختاره ابن جرير. وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، قال: حَتَّ الناسَ عَلَيْهِ، مولاة وغيره. وكذلك قال بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْبِ الأسلمي، وقَتَادَةُ. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يُعِيثُوا في الرِقَابِ.

[٤٩٢٧] «وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ»^(٣). فذكر منهم المكاتب يريد الأداء. والقول الأول أشهر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن

(١) حسن. أخرجه أبو يعلى ١٥٧٠ وأحمد ٧٢/٥ والدارقطني ٢٦/٣ والبيهقي ١٠٠/٦ من حديث أبي مرة الرقاشي عن عمه، وفيه علي بن زيد غير قوي، لكن له شواهد تقويه منها حديث أبي حميد الساعدي عند أحمد ٤٢٥/٥ وابن حبان ٥٩٧٨ والبراز ١٣٧٣ وإسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) ذكره أبو داود في «المراسيل» ١٦٢ عن يحيى بن أبي كثير مرسلًا. ومراسيل يحيى واهية، والخبر شبه موضوع.

(٣) تقدم برقم ٤٩٢٢.

عباس، عن عُمَرَ: أنه كَاتَبَ عبداً له، يُكْتَى أبا أمية، فجاء بِنَجْمِهِ حين حَلَّ، فقال: يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مَكَاتِبِكَ. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نَجْمٍ؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك. ثم قرأ: ﴿فَكَابِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾. قال عكرمة: فكان أول نجم أدي في الإسلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن عَنبَسَةَ، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عُمَرَ إذا كَاتَبَ مَكَاتِبَهُ لم يَضَع عنه شيئاً من أول نُجُومِهِ، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته. ولكنه إذا كان في آخر مَكَاتِبِهِ وَضَع عنه ما أحب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾، قال: يعني ضَمَعُوا عَنْهُمْ من مكاتبتهم. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزة، وعبد الكريم بن مالك الجَزْرِي، والسدي. وقال محمد بن سيرين في قوله: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾: كان يُعْجِبُهُمْ أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته.

[٤٩٢٨] وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المُقْرِئ، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن حبيب^(١) أخبره، عن علي - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ربع الكتابية»^(٢)، وهذا حديث غريب، ورفعهُ مُنْكَرٌ، والأشبه أنه موقوفٌ على علي - رضي الله عنه - كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي، رَحِمَهُ اللهُ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ مَخَصًا لِيَبْتَلُوا عَزْزَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، المنافق، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مُسْتَدْرَجِهِ: حدثنا أحمد بن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مُعَادَةَ، يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عُفُورٌ رَجِيمٌ﴾. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مُسَيِّكَةُ، كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها، فتأبى. فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عُفُورٌ رَجِيمٌ﴾. وروى النسائي، من حديث ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر، نحوه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمش، حدثني أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله ابن أبي ابن سلول جارية يقال لها مُسَيِّكَةُ، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

(١) وقع في سائر الأصول «عبد الله بن جندب» والتصويب عن كتب التراجم والمستدرک.

(٢) الصحيح موقوف. أخرجه الحاكم ٣٩٧/٢ ح ٣٥٠١. وصححه، وقال: عبد الله بن حبيب هو أبو عبد الرحمن السلمي، وقد أوقفه عن علي في رواية أخرى اهد قلت: الاضطراب في رفعه، ووقفه من ابن السائب، فإنه صدوق، لكن اختلط بأخزة، والموقوف أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٠٣٨ والطبري ٢٦٠٤٦ و٢٦٠٤٧ و٢٦٠٤٩ من طريق ابن السائب، وأخرجه الطبري ٢٦٠٤٨ من طريق آخر عن السلمي عن علي موقوفاً أيضاً، وهو أصح.

بَعْدَ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ». صَرَحَ الْأَعْمَشُ بِالسَّمَاعِ مِنْ أَبِي سَفِيَانَ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ، قَدَلَّ عَلَى بَطْلَانٍ قَوْلٍ مِنْ قَالَ: لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ، إِنَّمَا هُوَ صَحِيفَةٌ، حَكَاهُ الْبَزَّازُ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُعَاذٍ، عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي كَانَتْ تَزْنِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَوَلَدَتْ أَوْلَادًا مِنْ الزَّانَا، فَقَالَ لَهَا: مَالِكٌ لَا تَزْنِينَ؟ قَالَتْ: لَا، وَاللَّهِ لَا أَزْنِي. فَضَرَبَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِقْلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾. وَرَوَى الْبَزَّازُ أَيْضًا حَدِيثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الْوَاسِطِيِّ حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو اللَّخْمِيُّ يَعْنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُقَالُ لَهَا مُعَاذَةٌ، وَكَانَ الْقُرَشِيُّ الْأَسِيرُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَكَانَتْ تَمْتَنِعُ مِنْهُ لِإِسْلَامِهَا، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُكْرِهَهَا عَلَى ذَلِكَ وَيُضْرِبُهَا، رَجَاءً أَنْ تَحْمَلَ لِلْقُرَشِيِّ، فَيَطْلُبُ فِدَاءَ وَلَدِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِقْلَاءِ إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾.

[٤٩٢٩] وَقَالَ السَّيِّدِي: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ رَأْسِ الْمَنَافِقِينَ، وَكَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ تَدْعَى مُعَاذَةً، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ بِهِ [ضَيْفًا] أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ لِيُوَاقِعَهَا، إِزَادَةَ الثَّوَابِ مِنْهُ وَالْكَرَامَةِ، فَأَقْبَلَتْ الْجَارِيَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَشَكَتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - فَأَمَرَهُ بِقَبْضِهَا. فَصَاحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: مَنْ يَغْدُرُنَا مِنْ مُحَمَّدٍ؟! يَغْلِبُنَا عَلَى مَمْلُوكَتِنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذَا^(١). وَقَالَ مِقَاتُ بْنُ حَيَّانٍ: بَلَّغْنَا - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ كَانَا يُكْرِهَانِ أُمَّتَيْنِ لِهَمَا، إِحْدَاهُمَا اسْمُهَا مُسَيِّكَةٌ، وَكَانَتْ لِلْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَتْ أُمِّ مَسِيكَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَكَانَتْ مُعَاذَةٌ وَأَرَوَى بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، فَاتَتْ مُسَيِّكَةَ وَأَمَهَا النَّبِيُّ - ﷺ - فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِقْلَاءِ﴾، يَعْنِي الزَّانَا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ حَصْنًا﴾: هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْمَيْمُونَةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: مِنْ خَزَائِجِهِمْ وَمُتُوهَرٍمْ وَأَوْلَادِهِمْ.

[٤٩٣٠] وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنِ كَسْبِ الْحِجَامِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَخُلُوعِ الْكَاهِنِ^(٣).

[٤٩٣١] وَفِي رِوَايَةٍ: «مَهْرُ الْبَغِيِّ خَيْبٌ، وَكَسْبُ الْحِجَامِ خَيْبٌ، وَثَمْنُ الْكَلْبِ خَيْبٌ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أَي، لِهِنَّ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَإِنَّ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرِهَهُنَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالْأَعْمَشُ، وَتَعَادَةُ.

وقال أبو عبيد: حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ الْأَرْرُقِيُّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ

(١) هَذَا مَرْسَلٌ، وَالسَّيِّدِيُّ غَيْرُ قَوِيٍّ إِذَا وَصَلَ الْحَدِيثَ، فَكَيْفَ إِذَا أَرْسَلَهُ؟ وَالْغَرِيبُ فِيهِ فَقَطْ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ. فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ عَلِمَ بِذَلِكَ لَأَتَمَّ ابْنَ سَلُولٍ بِالشَّرِيعَةِ وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ.

(٢) هَذَا مَعْضَلٌ، وَمِقَاتُ ذُو مَنَاقِبٍ. وَالصَّحِيحُ مَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ آتِفًا.

(٣) تَقَدَّمَ بِرَقْمِ (٤٤٧١).

(٤) صَحِيحٌ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ١٥٦٨ ح ٤١ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَلْدِيجٍ.

عَفُورٌ رَّحِيمٌ»، قال: لَهُنَّ وَاللهُ، لَهُنَّ وَاللهُ. وعن الزهري قال: عَفُورٌ لَهُنَّ مَا أَكْرَهْنَ عَلَيْهِ. وعن زيد بن أسلم قال: عَفُورٌ رَحِيمٌ لِلْمُكْرَهَاتِ. حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جُبَيْر قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فإن الله من بعد إكراههنَّ لَهُنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ»، وإثمهنَّ على من أكرههنَّ.

[٤٩٣٢] وفي الحديث المرفوع عن رسول الله - ﷺ - إنه قال: «رُفِعَ عَن أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

ولما فَضِّلَ تبارك وتعالى هذه الأحكام وَبَيَّنَّهَا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾، يعني: القرآن فيه آيات واضحة مفسرات، ﴿وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَّوْا مِن قَبْلِكَ﴾، أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما خلُّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾، أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في صفة القرآن: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم. وهو الفصل ليس بالهزل، من تزكاه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول: هادي أهل السموات والأرض. وقال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا، نجوميهما وشمسهما وقمرهما. وقال ابن جرير: حدثنا سليمان بن عمرو بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن قرقيد، عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نُورِي هُدَايَ. واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾، قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فَضْرَبَ اللهُ مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فبدأ بنور نفسه. ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به، قال فكان أبي بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره. وهكذا روى سعيد بن جبیر، وقيس بن سعيد، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك «مثل نور من آمن بالله». وقرأ بعضهم: «الله منور السموات والأرض». وعن الضحاك: «الله نور السموات والأرض».

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فَيُثْرِهِ أَضَاءَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

[٤٩٣٣] وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٢).

(١) غير قوي، وقد تقدم باستيفاء.

(٢) هذا معضل، ولعله تقدم.

[٤٩٣٤] وفي الصَّحِيحِينَ، عن ابن عباس: كان رسولُ الله - - إذا قامَ من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت نورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومن فيهنَّ»^(١). الحديث. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ». وقوله: «مَثَلُ نُورِهِ»، في هذا الضَّمِير قولان: أحدهما: أنه عائدُ إلى الله - عزَّ وجلَّ - أي: مثلُ هُداهِ في قلبِ المؤمن - قاله ابن عباس - كَمِشْكَاةٍ. والثاني: أن الضَّمِير عائدُ إلى المؤمن الذي دَلَّ عليه سياقُ الكلام، تقديره: مثلُ نورِ المؤمن الذي في قلبه كَمِشْكَاةٍ. فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى، وَمَا يَتْلَقُهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ - كما قال تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْرَافٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» [هود: ١٧] - فشبه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

فقوله تعالى: «كَيْشْكُورٌ»، قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضعُ القَيْتِلة من القنديل. هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: «فِيهَا مِصْبَاحٌ»، وهو الذبالة التي تُضِيء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٌ»، وذلك أن اليهود قالوا لمحمد - ﷺ -: كيف يَخْلُصُ نورُ الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٌ». والمِشْكَاةُ: كُوَّةٌ في البيت - قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نُوراً، ثم سماها أنواعاً شتى. وقال ابن نجيب، عن مجاهد: هي الكُوَّةُ بلغة الحبشة. وَزَادَ غَيْرُهُ فَقَالَ: المِشْكَاةُ: الكُوَّةُ التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المِشْكَاةُ: الحِدَائِدُ التي يُعَلَّقُ بِهَا الْقَنَدِيلُ. والقولُ الأولُ: وهو أن المِشْكَاةَ هي موضعُ القَيْتِلة من القنديل، ولهذا قال: «فِيهَا مِصْبَاحٌ»، وهو النور الذي في الذبالة. قال أبي بن كعب: المِصْبَاحُ، النورُ، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدي: هو السراج. «الْمِصْبَاحُ فِي دُكَّانِهِ»، أي: هذا الضوءُ مشرق في زجاجة صافية. قال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظيرُ قلبِ المؤمن، «الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ»، قرأ بعضهم بضم الدال من غير هَمْزٍ، من الدرِّ، أي: كأنها كوكبٌ من دُرٍّ. وقرأ آخرون: «دُرِّيَّةٌ»، و«دُرِّيَّةٌ» بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدرِّ وهو الدفْعُ، وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشدَّ استنارة من سائر الأحوال، والعربُ تُسمي ما لا يُعرَف من الكواكب دراري. قال أبي بن كعب: كوكبٌ مضيءٌ. وقال قتادة: مضيءٌ مُبِينٌ صَخْمٌ. «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبْرَكَةٍ»، أي: يستمدُّ زيتَ زيتونٍ شجرةً مباركةً. «زَيْتُونَةٍ»، بدلٌ أو عطفٌ بيان، «لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ»، أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصلُ إليها الشمسُ من أولِ النهار، ولا في غربيها فيتقلَّصُ عنها الفَيءُ قبل الغروب، بل هي في مكانٍ وسطٍ تَقْرَعُهَا الشَّمْسُ من أولِ النهار إلى آخره، فيجِيءُ زَيْتُهَا معتدلاً صافياً مشرقاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار قال: حدثنا عبدُ الرحمن بنُ عبد الله بن سَعِيدٍ، أخبرنا عَمْرُو بنُ أَبِي قَيْسٍ، عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ، عن عِكْرَمَةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ في قوله: «زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ»، قال: «شجرةٌ بالصحراء، لا يُظِلُّهَا جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا كَهْفٌ، ولا يُوَارِيهَا شَيْءٌ، هُوَ أَجْوَدُ لَزِيَّتِهَا». وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حُدَيْرٍ، عن عكرمة، في قوله تعالى: «لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ» قال: هي بصحراء، وذلك أصفَى لزيبتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نَعِيمٍ، حدثنا عَمَرُ بنُ قُرُوحٍ،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٠ ومسلم ٧٦٩ والنسائي ٢٠٩/٣ وأحمد ٣٥٨/١ وابن جبان ٢٥٩٧.

عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة سأله رجل عن قوله تعالى: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: تلك زيتونة بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، وإذا غربت غربت عليها، فذاك أصفى ما يكون من الزيت. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: ليست بشرقية، لا تُصيبتها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تصيبتها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية تُصيبتها إذا طلعت وإذا غربت. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا يَكَادُ زَيْتَانًا يَظُنُّهُ﴾ قال: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تُصيبتها بالغداه والعشي، فتلك لا تُعدُّ شرقية ولا غربية. وقال السدي قوله: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، يقول: ليست بشرقية يحوزها المشرق، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل، أو في صحراء، تُصيبتها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾: أنها في وسط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قول الله تعالى: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تُصيبتها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، قال: وكذلك هذا المؤمن، قد أُجبر من أن يُضله شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فَيُتَبِّتَهُ اللهُ فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صدق، وإن حَكَمَ عدلًا، وإن ابتلي صبرًا، وإن أُعطي شكرًا. فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قُبُور الأموات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: هي وسط الشجر، لا تُصيبتها الشمس شرقاً ولا غرباً. وقال عطية العوفي: ﴿لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: هي شجرة في موضع من الشجر، يُرَى ظِلُّ ثَمَرِهَا فِي وَرَقِهَا وَهَذِهِ مِنَ الشَّجَرِ لَا تَطَّلِعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدُّشْتِكِيُّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: هي القبلية. وقال زيد بن أسلم: ﴿لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: الشام. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربته الله تعالى لنوره. وقال الضحاک، عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾، قال: رجل صالح، ﴿زَيْتُونًا لَّا شَرْقِيَّوًا وَلَا غَرْبِيَّوًا﴾، قال: لا يهودي ولا نصراني. وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس، تفرغه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها والطف، كما قال غير واحد ممن تقدم. ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتَانًا يَظُنُّهُ وَكَوَلَّرَ تَسْسَهُ نَارًا﴾، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني كضوء إشراق الزيت.

وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلٰٓى نُّورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد، والسدي: يعني نور النار ونور الزيت. وقال أبي بن كعب: ﴿نُّورٌ عَلٰٓى نُّورٍ﴾، فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حَدَّثَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَكَادُ زَيْتَانًا يَظُنُّهُ وَكَوَلَّرَ تَسْسَهُ نَارًا﴾، قال: يكاد محمد يبين للناس وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء. وقال السدي في قوله: ﴿نُّورٌ عَلٰٓى نُّورٍ﴾، قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماع أضاء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعهما، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، أي: يُرشدُ الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤٩٣٥] حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الدليمي، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل»^(١).

[٤٩٣٦] طريق أخرى عنه، قال البراء: حدثنا نهار بن عثمان، حدثنا أيوب بن سويد، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأ ضل»^(٢). ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه. وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هذاه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

[٤٩٣٧] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الثضر، حدثنا أبو معاوية شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهو، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مضفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المضفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأبي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(٣). إسناده جيد، ولم يخرجوه.

﴿فِي يُؤْتِي أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَجِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْفُتُورِ وَالْأَصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا لِيهِمْ حِجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَآقَارِ الصَّلَاةِ وَإِنَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد

(١) جيد. أخرجه أحمد ١٧٦/٢ وابن حبان ٦١٦٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٢٨ وصححه الحاكم ٣٠١ وسكت عنه الذهبي. وأخرجه الترمذي ٢٦٤٢ وأحمد ١٩٧/٢ من وجه آخر عن ابن الدليمي به، وله شواهد تقويه.

(٢) أخرجه البزار ٢١٤٥ «كشف» وإسناده ضعيف لضمف أيوب بن سويد، لكن يشهد لما قبله.

(٣) ضعيف. جوده المصنف، وفي ذلك نظر. أخرجه أحمد ١٧/٣ والطبراني في «الصغير» ١٠٧٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٤: في إسناده ليث بن أبي سليم اهـ، وقال العراقي في «تخرج الإحياء» ١/١٢٣: ليث مختلف فيه اهـ. وفي «الميزان» ٦٩٩٧: ضعفه يحيى والنسائي، وعن يحيى: لا بأس به. وقال ابن حبان: اختلف في آخر عمره اهـ وله حلة أخرى أبو البختري، صدوق لكنه يرسل كثيراً، وقد عنعن ههنا، وقال سلمة بن كهيل: يروي عن الصحابة، ولم يسمع من كبير أحد، فما كان سماها فهو حسن، وما كان «هن» فهو ضعيف اهـ. ورواه غيره موقوفاً عن حذيفة وغيره، والله أعلم.

من زيت طيب، وذلك كالفندل مَثَلًا، ذَكَرَ مَحَلُّهَا وهي المساجد التي هي أَحَبُّ البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوتُه التي يُعَبَّدُ فيها وَيُوَحَّدُ، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾، أي: أمر الله تعالى بِرَفْعِهَا، أي بتطهيرها من الدُّنْسِ واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾، قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحاك، ونافع بن جببير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسفيان بن حُسين، وغيرهم من علماء المفسرين.

وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه بينائها ورفَعها، وأمر بِعِمَارَتِهَا وتَطْهِيرِهَا. وقد ذُكِرَ لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة: «ألا إن بيوتِي في الأرض المساجد، وإنه من تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحق على المَزُورِ كرامة الزائر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وَرَدَتْ أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطهيرها وتبخيرها. وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمِنَّة. ونحن بِقَوْلِ اللَّهِ تعالى نذكر هاهنا طَرَفًا من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان:

[٤٩٣٨] فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(١). أخرجاه في الصحيحين.

[٤٩٣٩] وروى ابن ماجه: عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من بنى مسجداً يُذْكَرُ فيه اسمُ الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢). وللنسائي عن عمرو بن عَبَسَةَ مثله. والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

[٤٩٤٠] وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أمر رسول الله - ﷺ - ببناء المساجد في الدُّور، وأن تنظف وتطَّيَّب^(٣). رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي. ولأحمد وأبي داود، عن سُمْرَةَ بن جُنْدَب نحوهُ. وقال البخاري: قال عُمر: ابن للناس ما يُكِبُّهُمْ، وإياك أن تُحَمَّرَ أو تُصَفَّرَ فَتَقْتَنِ النَّاسَ.

[٤٩٤١] وروى ابن ماجه عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - ﷺ -: «ما ساءَ عَمَلُ قومٍ قَطُّ إلا زَخَرُوا مساجِدَهُمْ»^(٤). وفي إسناده ضَعْفٌ.

[٤٩٤٢] وروى أبو داود عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما أَمِزَتْ بتشيد المساجد». قال ابن عباس: «لَتَزَخَرِفَنَّهَا كما زَخَرَفَتِ اليهودُ والنصارى»^(٥).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٠ ومسلم ٥٣٣ والترمذي ٣١٨ وأحمد ٦١/١ و٧٠ وابن حبان ١٦٠٩ والبيهقي ٤٣٧/٢.

(٢) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٧٣٥ وأحمد ٢٠/١ وابن حبان ١٦٠٨ وإسناده غير قوي، لكن له شواهد.

وفي الباب من حديث عمرو بن عبسة عند النسائي ٣٢/٢ وهو حديث صحيح بشواهد.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٥٥ والترمذي ٥٩٤ وابن ماجه ٧٥٩ وأحمد ٢٧٩/٦ وابن حبان ١٦٣٤ والبيهقي ٤٤٠/٢ وإسناده صحيح، وانظر صحيح أبي داود ٤٣٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٧٤١ من حديث عمر، وإسناده ضعيف جداً، قال البوصيري في «الزوائد»: أبو إسحق مدلس، وجبارة ابن مغلس، كذاب اهد وسيأتي ما يفتي عنه.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٨ وابن حبان ١٦١٥ والبيهقي ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ وإسناده صحيح.

[٤٩٤٣] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»^(١). رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

[٤٩٤٤] وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أَنْشَدَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَيَّ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لا وَجَدْت»، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[٤٩٤٥] وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهى رسول الله - ﷺ - عن البيع والابتاع، وعن تناشد الأشعار في المساجد^(٣). رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

[٤٩٤٦] وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك». وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردّها الله عليك»^(٤). رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب».

[٤٩٤٧] وقد رَوَى ابْنُ مَاجَهَ وَغَيْرُهُ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، قَالَ: «خِصَالٌ لَا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ: لَا يَتَّخَذُ طَرِيقًا، وَلَا يُشَهَّرُ فِيهِ سِلَاحٌ، وَلَا يُنْبَضُ فِيهِ بَقُوسٌ، وَلَا يُنْثَرُ فِيهِ نَبَلٌ، وَلَا يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نَيِّءٍ، وَلَا يُضْرَبُ فِيهِ حَذٌّ وَلَا يُقْتَصُّ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُتَّخَذُ سَوْقًا»^(٥).

[٤٩٤٨] وعن واثلة بن الأسقع، عن رسول الله - ﷺ - قال: «جئبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم ورفق أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل شيوخكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع»^(٦). ورواه ابن ماجه أيضاً، وفي إسنادهما ضعف. أما أنه «لا يتخذ طريقاً»، فقد كرهه بعض العلماء المروزي فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه، وفي الأثر: «إن الملائكة لتعجب من

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٩ والنسائي ٣٢/٢ وابن ماجه ٧٣٩ وأحمد ١٤٥/٣ و١٥٢ وابن حبان ١٦١٣ والبيهقي ٢/٤٣٩ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٦٩ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ١٧٤ وابن ماجه ٧٦٥ وابن حبان ١٦٥٢.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٠٧٩ والترمذي ٣٢٢ والنسائي ٤٧/٢ - ٤٨ وابن ماجه ٧٤٩ و٧٦٦ وأحمد ١٧٨/٢ و٢١٢ وحسنه الترمذي صححه أحمد شاکر، ونقل تصحيحه عن ابن العربي. وورد من حديث حكيم بن حزام عند أبي داود ٤٤٩٠ وفيه زفر بن وثيمة، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ١٣١ وابن حبان ١٦٥٠ وابن السنن ١٧٦ وصححه الحاكم ٥٦/٢ ووافقه الذهبي وحسنه الترمذي. وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ٥٦٨ وأبو داود ٤٧٣ وأحمد ٣٤٩/٢ وابن حبان ١٦٥١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥) إسناده ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٧٤٨ وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٦ وابن عدي ٢٠٢/٣ وابن حبان في «المجروحين» ٣١٠/١. قال ابن حبان: زيد بن جبيرة، منكر الحديث، يروي المناكير عن المشاهير، قال يحيى: لا شيء، وأعله ابن الجوزي أيضاً بدادود بن حصين. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف زيد بن جبيرة، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. وقال البخاري وغيره: متروك. تنبيه: الفقرة الأولى منه صحت من طريق أخرى ولبعضه الآخر شواهد. والغريب فيه لفظ «ولا يمرّ فيه بلحم نئ»، وانظر ما بعده اهـ.

(٦) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٧٥٠ من حديث واثلة، وإسناده ضعيف جداً، الحارث بن نهبان، متفق على ضعفه اهـ قاله البوصيري في «الزوائد». بل متروك. وورد عن أبي الدرداء، واثلة، وأبي أمامة جميعاً عن النبي ﷺ به أخرجه العقيلي ٣/٣٤٨ وابن عدي ٢١٩/٥ والطبراني ٧٦٠١. وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٧ وقال: لا يصح، فيه العلاء بن كثير، قال أحمد: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن عدي ١٣٥/٤ وأعله بابن عرر، وضعفه به، فالحديث ضعيف بكل طرقه. ولا يرقى إلى درجة الحسن لشدة ضعف رواه، والله أعلم.

الرجل يمر في المسجد لا يُصَلِّي فيه». وأما أنه «لا يُشَهَرُ فيه بسلاح، ولا يُنْبِضُ فيه بقوس، ولا يُنْتَرُ فيه نَبْلٌ»، فَلَمَّا يُخْشَى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه.

[٤٩٤٩] ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مرَّ رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤدي أحداً^(١)؛ كما ثبت في الصحيح. وأما النهي عن المرور باللحم التي فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نُهِيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث. وأما أنه «لا يُضْرَبُ فيه حَدٌّ أو يُقْتَصُّ»، فلما يُخْشَى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع. وأما أنه «لا يُتَّخَذُ سَوْقًا»، فلما تُقَدَّم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بُني لِذِكْرِ الله والصلاة. كما قال النبي - ﷺ - لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد:

[٤٩٥٠] «إن المساجد لم تُبْنَ لهذا، إنما بُنيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسجّل من ماء، فأهريق على بؤله^(٢).

وفي الحديث الثاني: «جئبوا مساجدكم صبيانكم». وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يتأسيبهم، وقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمخففة - وهي الذرة - وكان يُفْتَس المسجّد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً. «ومجانينكم»، يعني: لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدّي إلى اللعيب فيها، ولما يُخْشَى من تقذيرهم المسجد، ونحو ذلك. «وبيعكم وشراءكم»، كما تقدم. «وحضوماتكم»، يعني التحاكم والحكم فيه. ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لِفَضْلِ الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره، لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط الذي لا يتأسبه، ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

[٤٩٥١] وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا الجعفي بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد الكندي قال: «كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئت بهما، فقال: من أنتما؟ - أو: من أين أنتما؟ - قال: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ^(٣). وقال النسائي: حدثنا سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وهذا أيضاً صحيح.

وقوله: «واقامة حُدودكم، وسلّ سيوفكم»، تقدّما. وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر»، يعني: المراحيض التي يُستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله - ﷺ - آبارٌ يستنّون منها، فيسربون ويتطهّرون، ويتوضّئون وغير ذلك. وقوله: «وجمروها في الجمع»، يعني: بخرّوها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ. وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله، حدثنا عبد

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٥ ومسلم ٢٦١٥ وأبو داود ٢٥٨٧ وابن ماجه ٣٧٧٨ وأحمد ٤١٠/٤ وابن حبان ١٦٤٩ والبيهقي ٢٣/٨ من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢١٩ و٢٢١ و٦٠٢٥ ومسلم ٢٨٤ والنسائي ٤٧/١ وابن ماجه ٥٢٨ وأحمد ٢٢٦/٣ وابن حبان ١٤٠١ من حديث أنس باتم منه.
(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠.

الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عُمر، عن نافع، عن ابن عُمر: أن عمر كان يُجْمَرُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - كُلَّ جُمُعَةٍ. إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

[٤٩٥٢] وقد ثبت في الصَّحِيحَيْنِ عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «صلاة الرجل في الجماعة تُصَعِّفُ على صَلَاتِهِ في بيته وفي سُوْقِهِ، خمساً وعشرين ضعفاً. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوُضوءَ، ثم خَرَجَ إلى المسجد، لا يُخْرِجُهُ إلا الصلاة، لم يَخْطُ خَطْوَةً إلا رفع له بها درجةً، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ. فإذا صَلَّى لم تَزَلِ الملائكةُ تُصَلِّي عليه ما دام في مُصَلَّاهُ: اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاةٍ ما انتظر الصلاة»^(١).

[٤٩٥٣] وعند الدارَقُطْنِيِّ مرفوعاً: «لا صلاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إلا في الْمَسْجِدِ»^(٢).

[٤٩٥٤] وفي السُّنَنِ: «بَشُرَ الْمُشَائِئِينَ إلى المساجد في الظُّلَمِ بالنورِ التامِ يومَ الْقِيَامَةِ»^(٣). ويستحبُّ لمن دَخَلَ الْمَسْجِدَ أن يبدأ برجله اليمنى.

[٤٩٥٥] وأن يقولَ كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه كان إذا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قال: «أعوذُ باللهِ العظيمِ، وبوجهِ الكَرِيمِ، وسلطانِهِ الْقَدِيمِ، من الشيطانِ الرجيمِ». قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظَ مِنِّي سائرَ اليومِ»^(٤).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧ ومسلم ٦٦١ ح ٢٧٢ وأبو داود ٥٥٩ والترمذي ٦٠٣ وابن ماجه ٢٨١ وابن حبان ٢٠٤٣ وأحمد ٢٥٢/٢ والبيهقي ٦١/٣ من حديث أبي هريرة.

(٢) الراجح وقفه. أخرجه الحاكم ٢٤٦/١ والدارقطني ٤٢٠/١ وابن الجوزي في «الملل» ٦٩٣ والبيهقي ٥٧/٣ كلهم من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، فيه سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. قال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وبه أهله ابن الجوزي وغيره، وقال: لا يصح. وورد من حديث جابر، أخرجه الدارقطني ٤٢٠/١ وابن الجوزي ٦٩٤ وقال: في إسناده مجاهيل، وقال الذهبي في «الميزان» ٥٦٧/٣: محمد بن السكن، لا يعرف، وخبره منكر.

وورد من حديث عائشة، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٩٤/٢ وابن الجوزي ٦٩٥ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد: عمر بن راشد، لا يساوي حديثه شيئاً. وقال ابن حبان: لا يجزئ ذكره إلا على سبيل القدر فيه، يضع الحديث اهـ وذكره في الموضوعات ٩٣/٢ من حديث عائشة دون ذكر المتن. وجاء في نصب الراية ٤١٣/٤ ما ملخصه: قال ابن حزم: ضعيف، وصح عن علي موقوفاً. وقال ابن حجر في «التلخيص» ٣١/٢: ضعيف ليس له إسناده ثابت.

وله شاهد من حديث ابن عباس بلفظ «من سمع النداء فلم يجب، فلا صلاة له إلا من عذر، قالوا: وما العذر؟ قال: خوف أو مرض» أخرجه الحاكم ٢٤٥/١ ح ٨٩٣ و٨٩٤ و٨٩٥ عن شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مرفوعاً، وهذا إسناده صحيح على شرطهما كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي، لكن ذكر الحاكم أن أكثر أصحاب شعبة روهه موقوفاً. ورفع هشيم، وقراد، وهما ثقتان. وأسند الحاكم ٨٩٦ و٨٩٧ من طريق أبي جناب عن عدي بهذا الإسناد، وأبو جناب ضعيف، وأسند من حديث أبي موسى ٨٩٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو ضعيف، فيه أبو بكر بن عياش صدوق لكنه كثير الخطأ، والراجح وقفه كسابقه، والله تعالى أعلم.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٥٦١ والترمذي ٢٢٣ من حديث بريدة واستغربه الترمذي وقال: هو صحيح مسند، وموقوف إلى أصحاب النبي ﷺ، ولم يسند إلى النبي ﷺ اهـ. وقال المنذري: ورجال إسناده ثقات. وفي الباب من حديث أنس عند ابن ماجه ٧٨١، ومن حديث سهل بن سعد عند ابن ماجه ٧٨٠ أيضاً، فالحديث حسن بشواهد.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٦ وقال الحافظ كما في «الفتوحات» ٤٧/٢: حديث حسن، رجاله موثقون، وهو رجال الصحيح، إلا اثنين إسماعيل بن بشر، وعقبة بن مسلم اهـ. ولم أقف عليه عند البخاري.

[٤٩٥٦] وَرَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ - أَوْ: أَبِي أَسِيدٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»^(١). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

[٤٩٥٧] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢). رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا.

[٤٩٥٨] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ حُسَيْنٍ، عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَإِسْنَادُهُ لَيْسَ بِمُتَّصِلٍ؛ لِأَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ الصَّغِيرَى لَمْ تَدْرِكْ فَاطِمَةَ الْكُبْرَى». فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، مَعَ مَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً مَحَافِظَةً الطُّولِ، دَاخِلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فِي يَوْمٍ أَدَّى اللَّهُ آثَانَ أَنْ تَرْفَعَ».

وقوله تعالى: «وَيَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ»، أي: اسم الله، كقوله: «يَبْقَى مَادَّةٌ خَلُودًا زَيْنَتُهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف: ٣١]، وقوله: «وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [الأعراف: ٢٩]، وقوله: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» [الحج: ١٨]. قال ابن عباس: «وَيَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ» يعني: يتلى فيها كتابه. وقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ»، أي: في البكرات والعشيّات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس: كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الصَّلَاةُ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بالغدوّ صلاة الغداة، ويعني بالآصال صلاة العصر، وهما أوّل ما افترض الله من الصلاة، فأحبّ أن يذكرهما وأن يذكر عباده. وكذا قال الحسن، والضحاك: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ»، يعني الصلاة. ومن قرأ من الفراء: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» - يفتح الباء من «يُسَبِّحُ»، على أنه مبنى لما لم يُسَمِّ فاعله - وَقَفَّ عَلَى قَوْلِهِ: «وَالْآصَالِ» وقفاً تاماً. وابتدأ بقوله: «رِجَالٌ لَا لِيَهُمِمْ مِحْرَهُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، وكأنه مُفسِّرٌ للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُضُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطْبِيعُ الطَّوَائِحُ

كانه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكانه قيل: من يُسَبِّحُ له فيها؟ قال: رجال. وأما على قراءة مَنْ قَرَأَ «يُسَبِّحُ» - بكسر الباء - فجعله فعلاً، وفاعله «رِجَالٌ»، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل، لأنه تمام

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٧١٣ وأبو داود ٤٦٥ والنسائي ٥٣/٢ وابن ماجه ٧٧٢ وأحمد ٤٩٧/٣ وابن حبان ٢٠٤٨.

(٢) جيد. أخرجه ابن ماجه ٧٧٣ والحاكم ٢٠٧/١ وابن حبان ٢٠٤٧ وصححه الحاكم، وافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وانظر صحيح ابن ماجه ٦٢٧.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٤ وابن ماجه ٧٧١ وأحمد ٤٢٥/٥ وابن السني ٨٦، وإسناده ضعيف، قال الترمذي: حسن. ثم ضعفه بقوله: وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهراً منه وله علة ثانية ليث بن أبي سليم وثقه قوم، وضعفه آخرون، ولكن للحديث شواهد لكن فيها ذكر السلام دون لفظ «الصلاة» فالغريب فيه فقط هذه اللفظة.

الكَلَام. فقوله: ﴿يَجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمَجْمُهُم السامية، ونِيَاتُهُم وَعَزَائِمُهُم العالية، التي بها صاروا عُمَاراً للمساجد، التي هي بيوتُ الله في أرضِهِ، ومواطنُ عبادتِهِ وشُكْرِهِ، وتوحيدهِ وتَنزيهِهِ، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فأما النساءُ فَصَلَاتُهُنَّ فِي بيوتهنَّ أَفْضَلُ لَهُنَّ.

[٤٩٥٩] لما رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتِهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»^(١).

[٤٩٦٠] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ غَيْلَانَ، حَدَّثَنَا رِشْدِينُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو، عَنِ أَبِي السَّمْحِ، عَنِ السَّائِبِ - مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ - عَنِ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بَيْوتِهِنَّ»^(٢).

[٤٩٦١] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضاً: حَدَّثَنَا هَارُونُ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُوَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، عَنِ عَمَّتِهِ أُمِّ حَمِيدٍ - امْرَأَةِ أَبِي حَمِيدِ السَّاعِدِيِّ - : أَنَّهَا جَاءَتْ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحْبُّ الصَّلَاةَ مَعَكَ. قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحِبِّينَ الصَّلَاةَ مَعِي، وَصَلَاتِكَ فِي بَيْتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي حُجْرَتِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي حُجْرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي دَارِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي دَارِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِي». قَالَ: فَأَمَرَتْ فَبَنِي لَهَا مَسْجِدًا فِي أَقْصَى بَيْتٍ مِنْ بَيْتِهَا، فَكَانَتْ وَاللَّهِ تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى لَقِيَتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٣). لَمْ يُخْرِجُوهُ. هَذَا وَبِجَوُزٍ لَهَا شَهُودٌ جَمَاعَةُ الرِّجَالِ، بِشَرْطِ الْأَنْوَازِيِّ أَحَدًا مِنَ الرِّجَالِ بِظَهْرٍ زَيْنَةٍ وَلَا رِيحٍ طَيِّبٍ، كَمَا ثَبِتَ فِي الصُّحُوحِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:

[٤٩٦٢] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ وَأَبِي دَاوُدَ: «وَبِوُتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»^(٤).

[٤٩٦٣] وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلْيُخْرِجْنَ وَهُنَّ تَقِلَّاتٌ». أَي: لَا رِيحَ لَهُنَّ^(٥).

[٤٩٦٤] وَقَدْ ثَبِتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنِ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمْسُ طَيِّبًا»^(٦).

[٤٩٦٥] وَفِي الصُّحُوحِ عَنِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ الْفَجْرَ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٧٠ وابن خزيمة ١٦٩٠ وقال المنذري في «الترغيب» ٥٠٨: رواه أبو داود وابن خزيمة وتردد في سماع قتادة هذا الخبر من مؤرق اه لكن الحديث حسن بشواهد، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٧/٦ وابن خزيمة ١٦٨٣ والحاكم ٢٠٩/١ وأبو يعلى ٧٠٢٥ وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد، ويشهد لعناه ما بعده.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٣٧١/٦ وابن خزيمة ١٦٨٩ وابن حبان ٢٢١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٣/٢ - ٣٤: ورجال رجال الصحيح، غير عبد الله بن سويد، وثقه ابن حبان، وأخرجه الطبراني ٢٥ (٣٥٦) والبيهقي ١٣٢/٣ - ١٣٣ من وجه آخر من حديث أم حديد. وللحديث شواهد أخرى.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٠٠ ومسلم ٤٤٢ وأبو داود ٥٦٧ وأحمد ٧٦/٢ و٧٧.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٦٥ وأحمد ٥٢٨/٢ وابن حبان ٢٢١٤ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن، وله شواهد يتقوى بها.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٤٤٣ والنسائي ١٥٥/٨ وأحمد ٣٦٣/٦ وابن حبان ٢٢١٥.

مع رسول الله - ﷺ -: ثم يرجعن متلفعات بمروطهن^(١)، ما يُغزفن من الغلس^(٢).

[٤٩٦٦] وفي الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت: «لو أدرك رسول الله - ﷺ - ما أحدث النساء لمنعهن المساجد، كما مُنعت نساء بني إسرائيل»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿رِيَالٌ لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا لِّلْهِمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الجمعة: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها، وملأد يبيعها وربحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال: ﴿لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَارِ الصَّلَاةِ وَإِنَّهُ الرُّكُوءُ﴾، أي: يُقدِّمون طاعته ومُرادَه ومحبته على مُرادهم ومحببتهم. قال مُسَيَّب عن سَيَّار: حَدَّثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق، حيث نُودي بالصلاة، تركوا بياعاتهم ونَهَضُوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِيَالٌ لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وهكذا روى عمرو بن دينار القهْرَمَانِي، عن سالم، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنه كان في السوق فَأُيِّمَت الصلاة، فأغلَقُوا حَوَانِيَتَهُمْ ودَخَلُوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نَزَلت: ﴿رِيَالٌ لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حَدَّثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حَدَّثنا عبد الله بن بجير، حَدَّثنا أبو عبد رب^(٤) قال: قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: إني أقمت على هذا الدرَج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلاثمئة دينار، وأشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: «إن ذلك ليس بحلال»، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله: ﴿رِيَالٌ لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وقال عمرو بن دينار الأَعْوَرُ: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة، وخَمَرُوا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿رِيَالٌ لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ثم قال: هم هؤلاء. وكذا قال سعيد بن أبي الحسن، والضحاك: لا تُلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها. وقال مطر الوزاق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سَمِع النداء وميزانه في يده خَفَضه، وأقبل إلى الصلاة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا لِّلْهِيمِ يَخْرُءُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال الربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وعن مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمر الله، وأن يحافظوا على مراقبتها، وما

(١) المِرْط: كساء من صوف، أو خز، كان يوترز به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧٢ و٥٧٨ ومسلم ٦٤٥ وأبو داود ٤٢٣ والترمذي ١٥٣ وأحمد ١٧٩/٦ وأبو يعلى ٤٤١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٨٦٩ ومسلم ٤٤٥. قال الحافظ في الفتح ٣٥٠/٢: تمسك بعضهم بقول عائشة مطلقاً، وفيه نظر، إذ لا يترتب على ذلك تغير الحكم، فقالت «لو رأى لمنع» فيقال عليه «لم ير»، ولم يمنع» فاستمر الحكم اهـ وقال ابن عثير في «تفسيره» ٥٩٢/١: هذا إسناد لا يثبت اهـ فالخير واو، والله تعالى أعلم، فالأشبه أنه موقوف. ثم إن الإحداث من بعض النساء دون بعض، والأولى أن يجتنب ما ينشئ منه الفساد، وذلك بترك الطيب والزينة وغير ذلك اهـ باختصار.

(٤) كذا ضبطه الحافظ في «التحريب» قال: ويقال: أبو عبد ربه، وأبو عبد رب العزة.

استحفظهم الله فيها. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي: من شدة الفزع وعظمة الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَهَيِّئِهَا كَهَيِّئِهَا﴾ [خاف: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَفْصَحُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَطْمِئِنُّونَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حُجُوبِهِمْ وَنُوحُوا إِلَيْهَا وَأُنذِرُوا آلَهُمْ لَعَلَّ يَكُونُوا يَأْتِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّ يَتَّقُونَ﴾ [١٥] فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسَوَّوْنَا ﴿١٦﴾ وَجَزَّوْنَا بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَجَدَدْنَا ﴿١٧﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

وقال هاهنا: ﴿يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، أي: هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَدَبًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مَثَابًا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ لِإِمْنِ إِسْأَلِهِ﴾، كما قال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّكَ مِنْ إِسْأَلِهِ بِشَيْرِ حِسَابٍ﴾. وعن ابن مسعود: أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلمهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود وكان مُغْلِطاً فشربه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، رواه النسائي وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عنه.

[٤٩٦٧] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ يُسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق»^(١).

[٤٩٦٨] وروى الطبراني، من حديث بَقِيَّة، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿يُؤَفِّقُهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كُرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لُرٌ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُمْ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَطُلُمَنْتٍ فِي بَحْرِ لَيْحٍ يَفْشَلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَحَابُّ طُلُمَنْتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرَجَ يَكْدُهُ لُرٌ يَكْدُ رِبْدَهَا وَمَنْ لُرٌ يَجْعَلِي اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول «البقرة» مثلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقرب في القلوب من الهدى والعلم في «سورة الرعد» مثلين مائياً ونارياً. وقد تكلمنا على كل

(١) حسن. إسناده ضعيف لأجل سويد بن سعيد، لكن للحديث شواهد، راجع الدر المنثور ٩٥/٥ فهو يتقوى بها إن شاء الله.
(٢) ضعيف منكر. أخرجه الطبراني ١٠٤٦٢ وفي «الأوسط» ٢٩٢ «مجمع البحرين» كلاهما من حديث ابن مسعود. وإسناده ضعيف. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٠١ إسماعيل بن عبد الله الكندي، فقال: عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر منكر عجيب اهـ. وحسبه الوقف.

منها في موضعه بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة. فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاء إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يري في القيعان من الأرض عن بُعد كأنه بحر طام. والقيعة: جمع قاع، كجار وجيرة. والقاع أيضاً: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية المشبعة المنبسطة، وفيه يكون السراب وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار. وأما الآل فإنما يكون أول النهار، يري كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسيبه ماء فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ مَاءً شَيْئاً﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً، وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، وتوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكافية قد قبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا بِالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَمَلٍ أَجْتَمَعُوا فَأَجْمَلْتُمْ هَبْكَ تَشْتَوِرًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْلَهُ يَسَابُغٌ وَاللَّهُ سَرِيعٌ الْحَسَابُ﴾. وهكذا زوي عن أبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد.

[٤٩٦٩] وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: أي ربنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحيطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهاقون فيها^(١). وهذا مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطغامم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر، الضم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْلٍ﴾ - قال قتادة: وهو العميق - ﴿يَفْشَنُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْمِهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضُهَا قَوْقَ بَعْضٍ إِذَا فَرَجَ يَكْفُرُ لَكُمْ لِيَكْفُرَ بِهَا﴾، أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال من يوقده، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿يَفْشَنُ مَوْجٌ مِّنْ قَوْمِهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَابٌ﴾، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَسَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَدَدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجنانية: ٢٣]. وقال أبي بن كعب في قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ بَعْضُهَا قَوْقَ بَعْضٍ﴾، فهو يتقلب في خمسة من الظلم: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار. وقال الربيع بن أنس، والسدي نحو ذلك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجِدْ اللَّهَ لَمْ يَرِكْ فَكُلُّكُمْ لَمْ يَرِكْ﴾، أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائس كافر، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكُلُّ هَادٍ لَّمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. فتنال الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن إيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَنَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٨١ ومسلم ١٨٣ من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم.

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَإِلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسَانِي، وَالْحَيَاةِ وَالْحَيَوَانَ، حَتَّى الْجَمَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ [الإسراء: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالطَّيْرُ مَتَّعْنَاهُ﴾، أَي: فِي حَالِ طَيْرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحِ الْهَمَمَاتِ وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، أَي: كُلُّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسَلَكِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْإِلَهَ الْمَعْبُودُ الَّذِي لَا تُتَّبَعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا خَلَقُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئِقِ﴾ [النجم: ٣١]، فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

يَذُكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ يَسُوقُ السَّحَابَ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَهُوَ الْإِزْجَاءُ، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾، أَي: يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا﴾، أَي: مُتْرَاكِمًا، أَي: يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾، أَي: الْمَطْرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أَي: مِنْ خِلَالِهِ. وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضُّحَّاكُ. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُثِيرَةَ فَتَنْفُثُ الْأَرْضَ قَمًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ النَّاشِئَةَ فَتُنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّفَةَ فَتُوَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللُّوَّاحَ فَتُلْفِقُ السَّحَابَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ﴾، قَالَ بَعْضُ النَّحَاةِ: «مِنْ الْأُولَى لَا بَتْدَاءَ الْغَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ لِلتَّبْعِيضِ، وَالثَّلَاثَةِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مِنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ﴾، مَعْنَاهُ: أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يَنْزِلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرْدُ. وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَاهُنَا كِنَايَةً عَنِ السَّحَابِ، فَإِنَّ «مِنْ» الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لِبَتْدَاءِ الْغَايَةِ أَيْضًا، لَكِنَّا بَدَّلْنَا مِنَ الْأُولَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أَي: بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، رَحْمَةً لَهُمْ، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أَي: يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْغَيْثَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أَي: بِالْبَرَدِ نَقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لَمَا فِيهِ مِنْ نُشْرِ ثِمَارِهِمْ، وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ رَحْمَةً بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، أَي: يَكَادُ ضَوْءُ بَرْقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يَخَطْفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أَي: يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا، فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصْرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلًا، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا. وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ. وَعِزَّتُهُ وَعِلْمُهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أَي: لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

يذكر تعالى قدرته الثامنة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾، كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾، كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، كالأنعام، وسائر الحيوانات. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: بقدرته، لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفههما وتفعلها أولى الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّلُ فَرِيقٌ مِمَّنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْتِيَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِمَّنْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لُغُوبٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُوا أَنْ يَحْفَافُوا أَنْ يُحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُوْتِيَكَ هُمُ الْفَالِحُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْتِيَكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ رَحِمَهُ وَسَخَّرَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَهْلًا بِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يُبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّلُ فَرِيقٌ مِمَّنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: يُخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوْتِيَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِمَّنْ مُعْرِضُونَ﴾، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَرَّعُوا أَنفُسَهُمْ ءَأَمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُذَيِّبُوا أَنْ يُتَخَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ سَلْبًا بَعِيدًا ﴿٥٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

[٤٩٧٠] وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً: «من دُعي إلى سلطانٍ فلم يُجب فهو ظالمٌ لا حقَّ له»^(١).

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٦٩٣٩، قال الهيثمي في «المجمع» ٧٠٢٢: فيه روح بن عطاء، وثقه ابن عدي، وضعفه الأئمة اه وفيه عنقه الحسن. وله طريق آخر أخرجه الطبراني ٧٠٧٨، وقال الهيثمي ٧٠٢١: فيه مساتير. وله طريق ثالث أخرجه البزار ١٣١٣ وقال الهيثمي ٧٠٢٠: فيه يوسف بن خالد، ضعيف. قلت: بل منهم ١ وورد من حديث عمران بن حصين، أخرجه البزار ١٣٦٢، وقال: لا نعلم أحداً رواه عن النبي ﷺ متصل الإسناد إلا من هذا الوجه عن عمران، وقد رواه غير واحد عن الحسن مرسلاً، وأسند روح، وهو لئن الحديث اه وقال الهيثمي ٧٠١٩: روح ضعيف، وثقه ابن عدي اه فالحديث غير قوي، فإن مداره على الحسن، وهو مدلس، وعنه روح وهو ضعيف، أو مجاهيل. والراجع فيه الإرسال كما ذكر البزار، رحمه الله وحكم ابن العربي ببطلانه، وانظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريري.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَكُمْ لَعْنٌ بَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْبِحِينَ﴾ (٤٥)، أي إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مُطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْبِحِينَ﴾، وإذا كانت الحكومة عليه عرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي - ﷺ - - ليروج باطله ثم. فإذعائه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قضده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ أَرِ بَأْتُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم! وأياً ما كان فهو كُفْرٌ محضٌ، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه مُتَطَوِّرٌ من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَوْلَيْتَهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٦)، أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الخيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

[٤٩٧١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فُدعي إلى النبي - ﷺ - وهو مُحَقٌّ أذعن، وعلم أن النبي - ﷺ - سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فُدعي إلى النبي - ﷺ - - عرض، وقال: انطلق إلى فلان. فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله - ﷺ - -: «من كان بينه وبين أخيه شيء فُدعي إلى حكم من حكّم المسلمين فأبى أن يُجيب فهو ظالم لا حق له» (١). وهذا حديث غريب وهو مُرسَلٌ.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يفتنون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أي: سمعاً وطاعة. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: ذكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عَقِيْباً بذرياً، أحد نُبَاءِ الأنصار - : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جُنَادَةَ بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عُسْرِكَ وِيُسْرِكَ، وَمُنْشِطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وأثرة عليك، وعليك أن تُقيم لسانك بالعدل، وَالْأْتِنَاذِعَ الأمر أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحاً، فما أمرت به من شيء يُخَالِفُ كتاب الله فاتبع كتاب الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله، وللخليفة وللمؤمنين عامة. قال: وقد ذُكِرَ لنا أن عَمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولّاه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم. والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله كثيرة جداً، أكثر من أن تُحصَرَ في هذا المكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال قتادة: ﴿يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه، ويترك ما نهى عنه، ﴿وَيَخَشَى اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقُوهُ﴾ فيما يُسْتَقْبَلُ. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَائِرُونَ﴾، يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمئوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

(١) هو مرسل، وانظر ما قبله.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: مُخْبِرًا عن أهل النفاق، الذين كانوا يَحْلِفُونَ للرَّسُولِ - ﷺ -: لئن أُمِرهم بالخروج في الغزو ليخرجن قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُفْسِمُوا ﴾، أي: لا تحلفوا. وقوله: ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾؛ قيل: تقديره طاعتكم طاعةً معروفةً، أي: قد عَلِمَ طاعتكم، إنما هي قولٌ لا فعلٌ معه، وكلُّما حلفتكم كذبتكم، كما قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِزَعْوَانِهِمْ فَإِن قَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُم مَّا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المنافقون: ٢]، فهم من سَجَّيْتِهِم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَثُوا يُقَالُونَ لِيُوْثِقُنَّهُمِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِن نُصِرُوا فَكَيْفَ يُؤْتُونَ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَصُرُّونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر: ١١-١٢]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾، أي: ليكن أمركم طاعةً معروفةً، أي: بالمعروف من غير حلفٍ ولا إقسام، كما يُطِيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلفٍ، فكونوا أنتم مثلهم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، أي: هو خبيرٌ بكم ويمن يُطِيع ممن يعصي، فالِحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق - فالخالق تعالى يعلم السرَّ وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خيرٌ بِضَمَامِر عِبَادِهِ وإن أظهرها خلافها.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾، أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله. وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾، أي: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلَ ﴾، أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾، أي: من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾؛ وذلك لأنه يدعُو إلى صراطٍ مستقيم ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورَ ﴾ [الشورى: ٥٣]. وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾، كقوله: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيا: أن قم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي، فقال: يا سماء اسمعي، ويا أرض اسمعي، فإن الله يريد أن يقضي شأنًا ويُدبر أمرًا هو مُنْفِذُهُ، إنه يريد أن يُحوِّل الرِّيفَ إلى القَلَاةِ، والأجَامَ في الغِيْطَانِ، والأنهار في الصحاري، والنعمة في الفقراء، والمُلْكُ في الرعاة، ويريد أن يبعث أُميًّا من الأميين، ليس بَقِظٌ ولا غَلِيْظٌ ولا سَخَابٌ في الأسواق، لو يمرُّ على جنب السِرَاجِ لم يُطفئه من سَكِينَتِهِ، ولو يمشي على القَصْبِ اليابس لم يسمع من تحت قدميه. أبعثه مَبْشَرًا ونَذِيرًا، لا يقول الحَنَا، أفتَحْ به أعينًا عُميًّا، وأَدَانًا صَمًّا، وقلوبًا غُلْفًا، وأسدِّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شِعَارَهُ، والثَّقْوَى ضَمِيرَهُ، والحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ، والصدق والوفاء طَبِيعَتَهُ، والعَفْوَ والمعروف خُلُقَهُ، والحقَّ شَرِيعَتَهُ، والعدل سَبِيْرَتَهُ، والهُدَى إِمَامَتَهُ، والإسلام مِلَّتَهُ، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالَةِ، وأعلم به من الجهالة، وأزق به بعد الخمالة، وأعرِّف به بعد النكرة، وأكثير به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأولف به بين أُمَّمٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وقلوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وأهواء مُتَشَتَّتَةٍ، وأستنقِذ به فِقَامًا من الناس عظيمًا من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون

بالمعروف، ويثنون عن المُنكَرِ، مُوحِّدين مُؤمِنين مُخْلِصين، مُصَدِّقين بما جاءت به رُسُلِي. رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْجَنَنَّ لَكُم مِّن دِينِهِم الَّذِي آتَى لَكُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

هذا وعدٌ من الله لرسوله - ﷺ - بأنه سيجعلُ أمته خلفاءَ الأرضِ أئمةً للناسِ والولايةَ عليهم، وبهم تصلحُ البلادُ، وتخضعُ لهم العبادُ، وليبدلُنَّ بعدَ خوفِهِم من الناسِ أماناً وحكماً فيهم. وقد فعلَ تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمِنَّة: فإنه لم يمُت رسولُ الله - ﷺ - حتى فتح اللهُ عليه مَكَّةَ وخيبرَ والبحرينَ، وسائرَ جزيرةِ العَرَبِ وأرضَ اليمنِ بكمالها. وأخذَ الجزيةَ من مَجُوسِ مَجَر، ومن بعضِ أطرافِ الشامِ، وهاداهِ هرقلُ ملكُ الرومِ، وصاحبُ مصرَ والإسكندريةِ - وهو المُقَوْسُ - وملوكُ عُمَانَ والنجاشيِ مَلِكِ الحَبَشَةِ، الذي تَمَلَّكَ بعدَ أصْحَمَةَ، رَحِمَهُ اللهُ وأكْرَمَهُ.

ثم لما ماتَ رسولُ الله - ﷺ - واختارَ اللهُ له ما عنده من الكرامةِ، قامَ بالأمرِ بعده خليفتهُ أبو بكرِ الصديقِ، فَلَمَّ شَعَتْ ما وَهَى بعدَ موْتِهِ - ﷺ - وأطدُ^(١) جزيرةَ العَرَبِ ومَهْدَهَا، وبعثَ الجيوشَ الإسلاميَّةَ إلى بلادِ فارسَ صحبةَ خالدِ بنِ الوليدِ - رضي اللهُ عنه - ففتَحُوا طَرَفًا منها، وقتلوا خَلْفًا من أهلها. وجيشًا آخرَ صحبةَ أبي عُبَيْدَةَ - رضي اللهُ عنه - ومن مَعَهُ من الأمراءِ إلى أرضِ الشامِ، وثالثًا صحبةَ عمرو بنِ العاصِ - رضي اللهُ عنه - إلى بلادِ مصرَ، ففتحَ اللهُ للجيشِ الشاميِ في أيامه بُصْرَى وِدِمَشْقَ ومَخَاليفهما من بلادِ حورانَ وما والاها، وتوفاه اللهُ - عزَّ وجلَّ - واختارَ له ما عنده من الكرامةِ. ومَن على الإسلامِ وأهله بأنَّ اللهُ الصديقُ أن استخلفَ عُمرَ الفاروقِ، فقامَ في الأمرِ بعده قياماً تاماً، لم يَدُرْ الفلكَ بعدَ الأنبياءِ - عليهم السلامِ - على مثله، في قُوَّةِ سيرتِهِ وكمالِ عَدْلِهِ. وتَمَّ في أيامه فتحُ البلادِ الشاميَّةِ بكمالها، وديارِ مصرَ إلى آخرها، وأكثرَ إقليمِ فارسَ، وكَسَرَ كسرىَ وأهانَه غايةَ الهوانِ، وتقهقرَ إلى أقصى مملكته، وقَصُرَ قيصرَ، وانتزعَ يَدَهُ عن بلادِ الشامِ فانحازَ إلى قسطنطينيةَ، وأنفقَ أموالهما في سبيلِ اللهِ، كما أخبرَ بذلكِ ووعدَ به رسولُ اللهُ، عليه من رَبِّهِ أتمَّ سلامَ، وأزكى صلَاةً. ثم لما كانتِ الدولةُ العثمانيَّةُ^(٢) امتدت الممالكُ الإسلاميَّةُ إلى أقصى مشارقِ الأرضِ ومغاريها، ففتحتِ بلادُ المغربِ إلى أقصى ما هنالك: الأندلسَ، وقبرصَ، وبلادَ القيروانِ، وبلادَ سَبْتَةَ^(٣) مما يلي البحرَ المحيطَ. ومن ناحيةِ المشرقِ إلى أقصى بلادِ الصينِ، وقَتِلَ كسرىَ، وباد ملكهُ بالكليَّةِ. وفتحتِ مدائنُ العراقِ، وحُرَّاسانَ، والأهوازَ. وقتلَ المسلمونَ من التُّركِ مقتلةً عظيمةً جدًّا، وحَدَلَ اللهُ مَلِكَهُم الأعظمَ خاقانَ، وجَبِيَّ الخراجِ من المشارِقِ والمفارقِ إلى حضرةِ أميرِ المؤمنينِ عثمانِ بنِ عفانَ رضي اللهُ عنه. وذلكَ ببركةِ تِلَاوَتِهِ ودراستِهِ وجمعه الأُمَّةَ على حفظِ القرآنِ.

[٤٩٧٢] ولهذا ثَبَتَ في الصَّحِيحِ عن رسولِ اللهِ - ﷺ - أنه قال: «إنَّ اللهُ رَوَى لي الأرضَ فرأيتُ

(١) أطلد: ثبت.

(٢) المراد عثمان بن عفان، وإلا فابن كثير كان قبل قيام الدولة العثمانية التركية.

(٣) مدينة تحت الاستعمار الإسباني حالياً، وذلك بعد أن كانت مئات السنين، من مدن الإسلام. نسأل الله أن يعيدها وكامل بلاد المسلمين.

مشارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسِيْلِبْغَ مَلِكِ أُمَّتِي مَا رُؤِيَ لِي مِنْهَا^(١). فَهَا نَحْنُ نَتَّقَلَّبُ فِيْمَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَنَسْأَلُ اللهُ الْإِيْمَانَ بِهِ، وَبِرَسُولِهِ، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.

[٤٩٧٣] قَالَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِنِ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيْحِهِ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَمْرٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَانٌ، عَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِنِ عَمِيْرٍ، عَنِ جَابِرِ بِنِ سَمْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ - يَقُولُ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا». ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ - بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَيَّ فَسَأَلْتُ أَبِي: مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ^(٢). وَرَوَاهُ الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِنِ عَمِيْرٍ، بِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ «أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَشِيَّةَ رَجْمِ مَاعِزِ بِنِ مَالِكٍ»، وَذَكَرَ مَعَهُ أَحَادِيثُ أُخْرَى. وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيْفَةً عَادِلًا، وَلَيْسُوا هُمْ بِأُمَّةِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِيْ عَشَرَ، فَإِنْ كَثُرَ مِنْ أَوْلَادِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِنْ قُرَيْشٍ، يَلْتَوْنَ فَيَعْدِلُونَ. وَقَدْ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ، ثُمَّ لَا يَسْتَرْطُ أَنْ يَكُونُوا مُتَتَابِعِينَ، بَلْ يَكُونُ وَجُودُهُمْ فِي الْأُمَّةِ مُتَتَابِعًا وَمُتَفَرِّقًا، وَقَدْ وَجِدْنَا مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ عَلَى الْوَلَاةِ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهُمْ فِتْرَةٌ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ وَجِدْنَا مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ فِي وَقْتِ يَعْلَمُهُ اللهُ. وَمِنْهُمْ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يُطَابِقُ اسْمُهُ اسْمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ - وَكُنِيَّتُهُ كُنِيَّتُهُ، يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَيَسْطَا، كَمَا مُلِئَتْ جُورًا وَظُلْمًا.

[٤٩٧٤] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالتَّنْسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بِنِ جُهْمَانَ، عَنِ سَعِيْدَةَ - مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ - قَالَ: «الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مَلِكًا عَضُوضًا»^(٣).

[٤٩٧٥] وَقَالَ الرَّبِيعُ بِنِ أَنْسٍ، عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْخَلَنَنَّ لَكُم مِّنْ دُونِهِم الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَلَيَسْبُدَنَّ لَهُمْ تَأْيِيدَ اللَّهِ وَوَعْدَهُ، ... الْآيَةَ، فَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ مِائَتَيْنِ، يَدْعُونَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ، لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أَمِيرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمَسُونَ فِي السَّلَاحِ وَيُصْبِحُونَ فِي السَّلَاحِ، فَغَبَّرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ إِنْ رَجَلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَدَ الدَّهْرَ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمَ نَأْمُرُ فِيهِ وَنَضَعُ عَنَّا فِيهِ السَّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -: لَنْ تَغَبَّرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا، لَيْسَتْ فِيهِمْ حَدِيدَةٌ. وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَظَهَرَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ. ثُمَّ إِنْ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ - فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيْمَا وَقَعُوا، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ، فَاتَّخَذُوا الْحَجْرَةَ وَالشَّرْطَ وَغَبَّرُوا، فَغَبَّرَ بِهِمْ^(٤).

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٦٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ١٢.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٤٦ والتِّرْمِذِيُّ ٢٢٢٦ والطَّيَالِسِيُّ ١١٠٧ وأحمد ٢٢١/٥ والتَّنْسَائِيُّ فِي «فَسَائِلِ الصَّحَابَةِ» ٥٢ وَالْحَاكِمُ ١٤٥/٣ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ ٦٦٥٧ وَ٦٩٤٣، وَمَدَارُهُ عَلَى سَعِيدِ بِنِ جُهْمَانَ فِيهِ كَلَامٌ، وَقَدْ وَثَّقَ. وَقَدْ صَحَّحَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «الْفَتَاوَى» ١٨/٣٥ وَقَالَ: ثَبَتَهُ أَحْمَدُ هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ، وَأَهْلِ السَّنَةِ. وَفِي الْبَابِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤٤/٥ وَأَبُو دَاوُدَ ٤٦٣٥ وَفِيهِ عَلِيُّ بِنِ زَيْدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، لَكِنْ يَصِلُحُ شَاهِدٌ.

(٤) أخرجه الطَّبْرِيُّ ٢٦١٧٩ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ مَرْسَلًا، لَكِنْ لِأَصْلِهِ شَوَاهِدٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقال بعضُ السلف: خلافةُ أبي بكرٍ وعمر - رضي الله عنهما - حقٌّ في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوفٍ شديد. وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ تُحَاوُونَ أَنْ يُخَوِّفَكُمُ النَّاسُ ففَارَّوْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَوَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، كما قال تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدَّتْكُمْ وَلا تَسْتَوِلُّوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَنْنَحَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَتَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةٌ وَرِثَةٌ وَهُمْ مِمَّا كَانُوا يُحَدِّثُونَ [٦] [القصاص: ٥-٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ كُنَّ لَهُمْ رِيبٌ مِنْهُمْ أَلَيْسَ آيَاتِنَا لَهُمْ وَلَيَسِّرْهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْبِهِمْ أَمْناً﴾.

[٤٩٧٦] كما قال رسولُ الله - ﷺ - لِعديِّ بن حاتم، حينَ وَقَدَ عليه: «أتعرفُ الحيرةَ؟» قلت: لم أرها، ولكن قد سمعتُ بها. قال: «فوالذي نفسي بيده لبيّتمن الله هذا الأمر حتى تخرجَ الظعينة من الحيرة حتى تطوفَ بالبيت في غير جوارٍ أحدٍ، ولتفتحنَ كنوزَ كسرى بن هُرْمُزٍ. قلت: كسرى بن هُرْمُزٍ؟! قال: نعم، كسرى بن هُرْمُزٍ، وليبدلنَّ المالَ حتى لا يقبله أحدٌ». قال عديُّ بن حاتم: فهذه الظعينةُ تخرج من الحيرة فتطوفُ بالبيت في غير جوارٍ أحدٍ، ولقد كنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرى بن هُرْمُزٍ، والذي نفسي بيده لتكوننَّ الثالثةُ، لأن رسولَ الله - ﷺ - قد قالها^(١).

[٤٩٧٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سُفيانُ، عن أبي سلمة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالبيّة، عن أبي بن كعبٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»^(٢).

[٤٩٧٨] وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ قال الإمامُ أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس، أن معاذَ بن جبلَ حَدَّثَهُ قال: بينما أنا زديفُ رسولِ الله - ﷺ - ليس بيني وبينه إلا آخرةُ الرُّخْل، قال: «يا معاذُ، قلت: لبيك يا رسولَ الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسولَ الله وسعديك. قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك يا رسولَ الله وسعديك. قال: هل تدري ما حقُّ الله على العباد. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك يا رسولَ الله وسعديك. قال: فهل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حقُّ العباد على الله ألا يعذبهم»^(٣). أخرجه في الصحيحين من حديث قتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: فمن خَرَجَ عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربِّه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابة - رضي الله عنهم - لما كانوا أقوم الناس بعد النبي - ﷺ -

(١) الحيرة: قرب الكوفة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٩٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣٤٣/٥ - ٣٤٤ من حديث عدي بن حاتم.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ١٣٤/٥ والحاكم ٣١١/٤ وابن حبان ٤٠٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي إسناده الربيع بن أنس، وهو صدوق، وتوبع عند أحمد ١٣٤/٥، وإسناده على شرطهما.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٦٧ و٦٢٦٧ ومسلم ٣٠ وأحمد ٢٤٢/٥ وابن حبان ٣٦٢.

بأوامر الله - عز وجل -، وأطوعهم الله - كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغرب، وأيدهم الله تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلايا. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم.

[٤٩٧٩] ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»^(١). وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجال»^(٢). وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون»^(٣). وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْلَهُمْ أَلْتَارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضعفانهم وفقرانهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أي: سالكين وراه فيما أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» [التوبة: ٧١]. وقوله: «لَا تَحْسَبَنَّ»، أي: يا محمد «الَّذِينَ كَفَرُوا»، أي: خالفوك وكذبوك، «مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ»، أي: لا يُعْجِزُونَ الله، بل الله قادر عليهم، وسيُعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال «وَمَا أَوْلَهُمْ أَلْتَارُ»، أي: في الدار الآخرة «وَلَيْسَ الْمَصِيرُ»، أي: بشئ المال مأل الكافرين، وبشئ الفراز وبشئ المهاذ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْتِدُواكُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَلْحَقُواكُم مِّنْكَ تِلْكَ مَرَّةٍ مِّنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْمَشَاءِ تِلْكَ عَوَدَتِكُمْ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْتِدُوا كَمَا اسْتَفْتَدْنَاكَ مِنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض. وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٢٠ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٧ من حديث ثوبان، وأخرجه مسلم ١٩٢٣ ح ١٧٣ من حديث معاوية.

(٢) أخرجه البزار ٣٣٨٧ من حديث نبيك بن ضريم، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث أنس أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٠ والحاكم ٥٤٤/٤ وإسناده ضعيف لأجل عباد بن منصور، لكن للحديث شواهد تقويه.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٢٠٧٨ من حديث جابر وإسناده ضعيف، لكن أصله عند مسلم ١٥٦ وأحد ٣/٣٨٤ وفي الباب أحاديث كثيرة.

وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وَيَسِرْنَ تَصْفُوعًا يَا بَنِيَّ أُمَّ الْفَاهِرَةِ﴾، أي: في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عَوْرَاتُ لَكُمْ لَسِيكَ عَلَيْكُمْ وَلَا تَغْلِبَ جَنَاحُ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: إذا دخلوا في غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿مَلَأْتُمْ عَلَيْهِمُ﴾، أي: في الخدمة وغير ذلك. ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم.

[٤٩٨٠] ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ - قال في الهرة: إنها ليست بتنجس؛ إنها من الطوافين عليكم، أو: والطوافات^(١). ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَأْتِيهَا الذَّبَابُ فَأَمْسُوا إِلَيْهَا لِتَكُونَ عَلَيْكُمْ حَنَقًا وَالَّذِينَ لَا يَلْقُوا الشَّيْءَ مِنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن: ﴿يَأْتِيهَا الذَّبَابُ فَأَمْسُوا إِلَيْهَا لِتَكُونَ عَلَيْكُمْ حَنَقًا وَالَّذِينَ لَا يَلْقُوا الشَّيْءَ مِنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. . . إلى آخر الآية.

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان، وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ أَيُّهُ الْإِذْنُ، وَإِنِّي لَأَمُرُّ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء، عن ابن عباس يأمر به. وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي: ﴿لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَلَكْتُكُمْ أَتَيْتُمْ﴾، قال: لم تنسخ، قلت: فإن الناس لا يعملون بها؟ فقال: الله المستعان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله سبب يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا جبال^(٢) في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادماً أو ولده أو تيممه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله. ثم جاء بعده الستور، فبسط الله عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الجبال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود، عن القعني، عن الدروري، عن عمرو بن أبي عمرو به.

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٧٥ والترمذي ٩٢ والنسائي ٥٥/١ وابن ماجه ٣٦٧ وأحمد ٣٠٣/٥ وابن حبان ١٢٩٩ وصححه الحاكم ١٦٠/١ ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا، وتقدم.

(٢) الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس.

وقال السدي: كان أناس من الصحابة - رضي الله عنهم - يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة. فأمرهم الله أن يأمرُوا المملوكين والعلمان ألا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

[٤٩٨١] وقال مقاتل بن حيان: بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صمعا للنبي - ﷺ - طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماء: يا رسول الله، ما أقبح هذا! إنه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن! فانزل الله في ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكَ الْبَيْنَ مَلَكًا أَبْنَتُكَ وَالَّذِينَ لَا يُغْلِقُوا عَلَيْكَ ذُنُوبًا مِمَّا تَرَكَتَ فِي الْبَيْتِ مِنْ نِسَاءِكَ﴾ (١). الآية. ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَلِكَ يُمَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل فيها مع أهله، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: عن يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه. وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، قال سعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، وقتادة، والضحاك: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾، أي: لم يبق لهن تشوف إلى التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، أي: ليس عليها من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. الآية، ففسخ، واستثنى من ذلك: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾. الآية. قال ابن مسعود: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، قال: الجلباب، أو الرداء. وكذا زوي عن ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبي الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والزهري، والأوزاعي، وغيرهم. وقال أبو صالح: تضع الجلباب، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار. وقال سعيد بن جبيرة وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعود: «أن يضعن من ثيابهن»: وهو الجلباب من فوق الخمار، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره، بعد أن يكون عليها خمار صفيق.

وقال سعيد بن جبيرة في الآية: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب أن يرى ما عليها من الزينة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا أبو المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثنا طلحة بنت عاصم، عن أم المضاء، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: دخلت عليها فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخضاب، والنفاض^(٢)، والصباغ، والقرطين، والخلخال، وخاتم الذهب، وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتكن كلها واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات. أي: لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً.

(١) هذا معضل. وهو من قسم الضعيف. ومقاتل ذو منكير.

(٢) النفاض: إزار للصبيان.

وقال السدي: كان شريك لي يقال له: مُسلم، وكان مولى لامرأة حديفة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوق وأثر الحناء في يده، فسألته عن ذلك، فأخبرني أنه خَصَب رأس مولاته - وهي امرأة حديفة - فأنكرت ذلك، فقال: إن شئت أدخلتك عليها؟ فقلت: نعم. فأدخلني عليها، فإذا امرأة جليئة، فقلت: إن مُسليماً حَدَّثني أنه خَصَب رَأْسك؟ فقلت: نَعَمْ، يَا بُنَيَّ، إني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً؛ وقد قال الله في ذلك ما سمعت. وقوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَمْفِنَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾، أي: وتزك وتضعهن لثيابهن، وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهن، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف المفسرون - رجمهم الله - في المعنى الذي رُفِع من أجله الحرَجُ عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا، فقال عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يُقال إنها نزلت في الجهاد. وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة، أي: إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد، لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٦٢﴾﴾. وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يري الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره. فكرهوا أن يواكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير، ومفسم.

وقال الضحاك: كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تَقْدَرًا وَتَقَرُّزًا، ولئلا يَنْفَضُلُوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الآية قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو بيت أخته، أو بيت عمته، أو بيت خالته. فكان الزمى يتخرجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم. فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، إنما ذُكِر هذا، وهو معلوم، ليعطف عليه غيره

في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم. وتضمن هذا بيوت الأبناء، لأنه لم يُنص عليهم. ولهذا استدُل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه.

[٤٩٨٢] وقد جاء في المسند والسُنن، من غير وجه، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»^(١). وقوله: «أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ»، إلى قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاكِحُهُ»، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يُوجب نفقه الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل، في المشهور عنهما. وأما قول: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاكِحُهُ»، فقال سعيد بن جبير، والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان^(٢)، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهري، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان المسلمون يرغبون في النفيير مع رسول الله - ﷺ -، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمتائهم، ويقولون: قد أخللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أدنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء. فأنزل الله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاكِحُهُ».

وقوله تعالى: «أَوْ صَدِيقِكُمْ»، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك. وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه. وقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا»، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: «يَأْتِيهَا الذُّبَابُ مَاتُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» [النساء: ٢٩]، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ»، إلى قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاكِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ»، وكانوا أيضاً يأتون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا». وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكلة ويشاربه، فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا». فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك، كما رواه الإمام أحمد:

[٤٩٨٣] حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وخشي بن حرب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً قال للنبي - ﷺ -: «إنا نأكل ولا نشبع؟! قال: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»^(٣). ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث الوليد بن مسلم، به.

[٤٩٨٤] وقد روى ابن ماجه أيضاً، من حديث عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن أبيه، عن

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٥٣٠ وابن ماجه ٢٢٩٢ وأحمد ١٧٩/٢ من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن، وله شواهد منها حديث جابر عند ابن ماجه ٢٢٩١ قال البوصيري في «الزوائد»: وإسناده صحيح على شرط البخاري. ومنها حديث عائشة عند ابن حبان ٤١٠، وحديث ابن مسعود عند الطبراني في «الكبير» ١٠٠١٩.

(٢) القهرمان: هو من يقوم بأمر الرجل من تجارة، وخدمة، ونحو ذلك.

(٣) مضى في سورة المائدة: ٤. وهو حسن بشواهد.

عُمَرُ، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «كُلُّوا جَمِيعاً وَلَا تَفْرُقُوا؛ فَإِنَّ الْبِرْكَهَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة، والزهرى: فَلْيَسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبْرَكَةً طَيِّبَةً. قال: ما رأيته إلا يُوجِبُه. قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاووس أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم. قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أئز وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي، وما أذعه إلا ناسياً. وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وروى الثوري، عن عبد الكريم الجزي، عن مجاهد: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله، والحمد لله، السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال قتادة: إذا دخلت على أهلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنه كان يؤمر بذلك، وحُذِّثْنَا أَن الْمَلَائِكَةُ تَرُدُّ عَلَيْهِ.

[٤٩٨٥] وقال الحافظ أبو بكر البرزاني: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عُوَيْدُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِي، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النبي - ﷺ - بخمس خصال، قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يزد في عمرك. وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك. وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهل بيتك، يكثر خير بيتك. وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك. يا أنس، ارحم الصغير، ووقر الكبير، تكن من رفقاتي يوم القيامة»^(٢). وقوله: ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، قال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ثم يدعو لنفسه ويسلم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن إسحاق. والذي في صحيح مسلم، عن ابن عباس، عن رسول الله - ﷺ - يخالف هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة، والشرائع المثقنة المبرمة نبه تعالى على أنه يبين لعباده الآيات بيانياً شافياً، ليتدبروها ويتفعلوها، لعلمهم يعقلون.

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٢٨٧ من حديث عمر، وإسناده ضعيف لضعف عمرو بن دينار هذا، ولصدده شواهد منها المتقدم. والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن عدي ٣٨٢/٥ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً، فيه عويد الجوني، أهله ابن عدي به، وجاء في الميزان ٢٥٢٦: قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ليس بشيء.

وتابعه بشر بن حازم عند البيهقي ٨٧٦٥ «الشعب» و٨٧٦٦ وفيه مجاهيل. وورد من وجه آخر برقم ٨٧٦٢ و٨٧٦٣ و٨٧٦٤، ومداره على أزور بن غالب، وهو متروك. وورد من وجه آخر ٨٧٥٨ و٨٧٥٩ وفيه اليسع ابن زيد بن سهل. ذكره الذهبي في الميزان ٩٧٨٥ فقال: عن ابن عيينة بخبر باطل، ولم أر لهم فيه كلاماً اهـ وهو قد رواه عن ابن عيينة، فالحديث ضعيف، وإن تعددت طرقه. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه - والحالة هذه - إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له، إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[٤٩٨٦] وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد قالوا: حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة»^(١) وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حديث حسن.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لِيُؤَادُوا فَيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم. فنهاهم الله - عز وجل - عن ذلك، إعظاماً لنبية - صلوات الله وسلامه عليه - قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر. وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه - ﷺ - وأن يُبجل وأن يُعظم وأن يُسود. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، يقول: لا تُسَمِّوه إذا دَعَوتموه «يا محمد»، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله. ولكن شرفوه فقولوا: «يا نبي الله»، «يا رسول الله».

وقال مالك، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، قال: أمرهم الله أن يُشرفوه. هذا قول، وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَجَيْكَ وَفُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَأَدَّبُونَكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَكْثَرُهُمْ لَا يَقُولُونَ ﴿٦٧﴾ رَوَى أَنَّهُمْ صِدْقًا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ حَتْمًا لَهُمْ﴾ [الحجرات: ٢ - ٥]. فهذا كله من باب الآداب في مخاطبة النبي - ﷺ - والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته. والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٢٠٨ والترمذي ٢٨٠٦ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٦٩ وأحمد ٢/٢٨٧ والبخاري في «الآداب المفردة» ١٠٠٨ وابن حبان ٤٩٤ وإسناده حسن من أجل محمد بن عجلان.

يُنَكِّمُ لِرِوَادًا ﴿٦٤﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلوثون ببعض الصحابة - أصحاب محمد - ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي - ﷺ - في يوم الجمعة، بعد ما يأخذ في الخطبة. وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي - ﷺ - فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي - ﷺ - يخطب، بطلت جُمُعته. وقال السدي: كانوا إذا كانوا معاً في جماعة لاذب بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه، فلا يراهم. وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَسْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ يَنْكُمُ لِرِوَادًا﴾، يعني: لِرِوَادًا عن نبي الله وعن كتابه. وقال سفيان: ﴿قَدْ يَسْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ يَنْكُمُ لِرِوَادًا﴾، قال: من الصف، وقال مجاهد: ﴿قَدْ يَسْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ يَنْكُمُ لِرِوَادًا﴾، قال: خلافاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، أي: عن أمر رسول الله - ﷺ - وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مزودود على قائله وفاعله، كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال:

[٤٩٨٧] «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رذء»^(١). أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً «أن تُصيبهم فتنة»، أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، «أو يُصيبهم عذاب أليم»، أي: في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٩٨٨] حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغليهن فيقتنمن فيها. قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار: هلتم عن النار. فتغلبوني وتقتحمون فيها»^(٢). أخرجه من حديث عبد الرزاق.

﴿الْأَنْكِرُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ يَنْكُمُ لِرِوَادًا﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنكُمُ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلْمْ إِلَيْتَنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَوَاسُوتًا إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. وقال: ﴿قَدْ نَسِيتُمْ أَنَّهُ لِيَحْرُوكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ لَكَ وَلَكِنِ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُؤْتِيهِمْ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّتَنَكَ قِبَلَهُ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْفَرُ بِكَ وَيَنْهَى عَنْكَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَدْ يَنْقُرُ الْعَرَبُ عَلَى عُوقُوبِ النَّبِيِّ وَاللَّذِينَ فِي الْبَيْتِ يَحْمِلُونَ كِلَابَهُمْ لِوَجْهِهِمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ مُبَارَكٌ يَرْسُلُ الْغَمَامَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. وقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مُشَاهِدٌ له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [١٧] الَّذِي يَرْبِكُ بَيْنَ يَدَيْهِ نَقْمُومٌ [١٨] وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّمَاوَاتِ [١٩] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٢٠] [الشعراء: ٢١٧] - [٢٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٢.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ١٧.

يَعْرَبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَشْقَالِ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: هو شهيدٌ على عباده بما هم فاعلون من خيرٍ وشرٍ. وقال تعالى: ﴿الْأَجِينَ يَسْتَفْشُونَ يَا بَهُرُ يَلْمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ السُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مَنكَرٌ مِّنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرةٌ جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: ويومٌ ترجع الخلائق إلى الله - وهو يومُ القيامة - ﴿فَيُنْتِهِمُ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: يُخَبِّرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا، من جليلٍ وحقيقٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، كما قال تعالى: ﴿يَبْنِئُ الْإِنْسَانَ بِوَجْهِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَوَضِعَ الْكِلْبَ قَرَى الْمُعْجَمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِرًا وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتِهِمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

آخر تفسير سورة النور والله الحمد
والمنة وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ
يَتَّخِذُ وِلْدَانًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ بَدَأَ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِزًّا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ دُونَهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَنكِحَاتٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف: ١-٣]. وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، نزل: فَعَلٌ، من التكرار والتكثير، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفزقاً مفضلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور. وهذا أبلغ وأشدّ اعتناءً بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿١٣٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَنَحْنُ بِمَا نَعْمَلُ ﴿١٣٧﴾ ﴾. ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغنى والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾، هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١٣٦﴾ [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا ﴿١٣٦﴾ [الجن: ١٩]. وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾. وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي: إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفضل المحكم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٣٦﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جعله قرآناً عظيماً، إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، أو يستقل بالغبراء.

[٤٩٨٩] كما قال - صلوات الله وسلامه عليه -: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(١).

[٤٩٩٠] وقال: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، فذكر منهن: أنه «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٢). وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ

(١) تقدم مراراً وهو صحيح.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣ وهو في الصحيح.

مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿١٥٨﴾ [الاحراف: ١٥٨]، أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كُن فيكون. وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَيْسَ لَمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكًا فِي الْمَلِكِ﴾، فنزه نفسه عن الولد، وعن الشريك. ثم أخبره أنه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾، أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه والله، وكل شيء تحت قهره وتسخيره، وتدبيره وتقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا

يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿١٥٩﴾﴾

يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكِ لِأَزْمَةِ الْأُمُورِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ جَنَاحٍ بَعُوضِيَّةٍ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعَابِدِيهِمْ ١؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾، أي: ليس إليهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله - عز وجل - فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يُعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَتَفَيْسَ وَجِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَجِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَلَمَّا هِيَ بَجْزًا وَجِدَةً ﴿١٥٩﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٦٠﴾﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤]، ﴿فَلَمَّا هِيَ بَجْزًا وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ آفَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١٦١﴾﴾ وَقَالُوا

أَسْطِيزُ الْأَوْلِيَاءِ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿١٦١﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجاهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ﴾، أي: كذب، ﴿آفَرْتَهُ﴾، يعنون محمداً النبي - ﷺ - ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾، أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿وَقَالُوا أَسْطِيزُ الْأَوْلِيَاءِ أَكْتَتَبَهَا﴾، يعنون كتب الأوائل استنسخها، ﴿فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾، أي: في أول النهار وآخره. وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهتته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عليم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسمونه في صغره وإلى أن بُعث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمهم الله بما أكرمهم به، نصبوا له العداوة، وزموا بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وচারوا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً، ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾، أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْرًا نَّجِيًّا﴾، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوه إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ قَالِكُ تَلْدَتُهُ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَإِنْ لَمْ يَكْتُفُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنَّا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي اللَّهِ شَيْءٌ يَتَّبِعُونَ وَكُنَّا فَتْنًا يَخِلْخِلُ بِهِمْ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوه إلى التوبة والرحمة!

﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٧﴾ أَوْ يُنزلَ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٧٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿٨٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٨١﴾ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن نعت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾، يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شهاداً على صديق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون: ﴿قُلْ لَئِنِّي عَلَيَّ أُسُورَةٌ مِّنْ رَبِّي أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْرِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم، ولهذا قال: ﴿أَوْ يُنزلَ إِلَيْهِ كِتَابٌ﴾، أي: علمٌ كنز يُنقى منه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، أي: جاؤوا بما يقدفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحرٌ، مسحورٌ، مجنونٌ، كذابٌ، شاعرٌ. وكلها أقوال باطلة، كلٌ أحدٍ ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾، أي: عن طريق الهدى، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضالٌ حيثما توجه، لأن الحق واحدٌ ومنهجٌ مُتَّجِدٌ، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

ثم قال تعالى مخبراً بيبه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿٨٠﴾﴾. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يُسمون كل بيت من حجارة قصراً سواء كان كبيراً أو صغيراً.

[٤٩٩١] وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خَيْمَةَ؛ قيل للنبي - ﷺ - : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يُعطَ نبي قبلك، ولا يُعطى أحد من بعدك، ولا يُنقَضُ ذلك مما لك عند الله؟ فقال: اجتمعوا لي في الآخرة. فأنزل الله في ذلك: ﴿بَارَكَ الَّذِي لَئِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۗ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأزددنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، أي: عذاباً أليماً حازماً لا يطاق في نار جهنم. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبيرة: «السعير»: واد من فيج جهنم. وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾، أي: جهنم ﴿بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مئة عام، ﴿سَمِعُوا لَهَا تَهَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾، أي: حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ ۗ﴾ [الملك: ٧-٨]، أي: يكاد يفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها على من كفر بالله.

[٤٩٩٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف الواسطي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن ذريك، عن رجل من أصحاب النبي قال: قال رسول الله - ﷺ - : من يُقَلِّ علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواله فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً. قيل: يا رسول الله، وهل لها من عينين؟ قال: أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾... الآية. (٢) ورواه ابن جرير، عن محمد بن خدّاش، عن محمد بن يزيد الواسطي، به. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سليم، عن أبي وائل قال: خرّجنا مع عبد الله - يعني ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خثيم فمروا على حدّاد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خثيم إليها فتمائل ليسقط، فمر عبد الله على أثون (٣) على شاطيء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ بَيْنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَهَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾، فصعق - يعني الربيع بن خثيم - فحملوه إلى أهل بيته، وربطه عبد الله إلى الظهر، فلم يقم. رضي الله عنه. وحدثنا أبي: حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن العبد ليجرّ إلى النار، فتشهوّ إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصراً، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن الرجل ليجرّ إلى النار فتنزوي وتثقب بعضُها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني. فيقول: أرسلوا عبيدي. وإن الرجل ليجرّ إلى النار، فيقول: يا رب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني

(١) ضعيف. عزاه السيوطي في «أسباب النزول» ٨١٤ لابن أبي شيبة، والطبري رواه عن خيصة. والذي في تفسير الطبري ٢٦٢٨٦ عن سفيان عن حبيب، والظاهر أنه سقط منه «خيصة» والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٢٨٧ بهذا الإسناد لكن قال عن «فديك» بدل «خالد بن ذريك» والصواب رواية ابن أبي حاتم. ويكل حال الإسناد ضعيف. فيه أصبغ بن زيد، ضعفه ابن سعد، ووثقه ابن معين، وخالد بن ذريك رواه عن الصحابة. رسالة راجع الميزان ٢٤١٩.

(٣) الأثون: التنور.

رَحْمَتِكَ . فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل لِيُجَزَّ إلى النار ، فتشهُقُ إليه النار شهوقاً البغلة إلى الشَّعِيرِ ، وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمرٌ ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير في قوله : ﴿يَمِيمًا لَمَّا تَتَّظَّأُ وَنُفِيرًا﴾ ، قال : إن جهنم تزفرُ زفرةً ، لا يبقى ملكٌ ولا نبيٌ إلا خَرَّ ترعدُ فرائضه ، حتى إن إبراهيم - عليه السلام - ليجثو على رُكبتَيْه ويقول : رب ، لا أسالك اليوم إلا نفسي . وقوله : ﴿وَلِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ، قال قتادة ، عن أبي أيوب ، عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الرُّجِّ^(١) في الرمح . أي : من ضيقه .

[٤٩٩٣] وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله - ﷺ - أنه سُئِلَ عن قول الله : ﴿وَلِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ﴾ ، قال : «الذي نفسي بيده إنهم لَيَسْتَكْرَهُونَ في النار كما يَسْتَكْرَهُ الرُتْدُ في الحائط»^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ ، قال أبو صالح : يعني مُكْتَفَيْنَ . «دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ، أي : بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾^(٣) .

[٤٩٩٤] قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد^(٣) ، عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال : «أول من يُكسى حُلَّةً من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي : يا ثُبُوراه . وينادون : يا ثُبُورهم . حتى يَقْفُوا على النار ، فيقول : يا ثُبُوراه . ويقولون : يا ثُبُورهم . فيقال لهم : ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾^(٤) . لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ السَّوِيَّةِ ، ورواه ابنُ أبي حاتم ، عن أحمد بن سنان ، عن عفان ، به . ورواه ابنُ جرير ، من حديث حماد بن سلمة به . وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾^(٥) ، أي : لا تدعوا اليومَ وَيلاً واحداً ، وادعوا وَيلاً كَثِيراً . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك . والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والحسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، أي : هالكاً . وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ :

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدَى وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾^(٦) هُمْ فِيهَا مَا

يَشَاءُونَ خَلِيدِينَ كَانَتْ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُولًا﴾^(٧)

يقول تعالى : يا محمد ، هذا الذي وصفتناه من حال أولئك الأشقياء ، الذين يُحشرون على وجوههم إلى

(١) الزج : الحديدية في أسفل الرمح .

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/١١٧ لابن أبي حاتم ، وهو مرسل يحيى بن أبي أسيد تابعي ، فالخير وإه .

(٣) وقع في سائر الأصول «يزيد» وهو تصحيف من الناسخ .

(٤) إسناده ضعيف . أخرجه أحمد ٣/١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ٢٤٩ وابن أبي شيبة ١٣/١٦٨ والطبري ٢٦٢٩٢ والبخاري ٣٤٩٥ والخطيب ١١/٢٥٣ وأبو نعيم ٦/٢٥٦ ، ومداره على علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف كما في «التقريب» . وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٦١١ : رجاله رجال الصحيح ، غير علي بن زيد ، وقد وثق اهـ ومع ذلك قال السيوطي في «الدر المنثور» ٥/١١٧ : سند صحيح وهذا شيء عجيب ، علي بن زيد وضعفه الجمهور روى مناكير كثيرة عن أنس وغيره . راجع ترجمته في الميزان .

جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس ويغيظ زفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون جراكاً، ولا انتصاراً ولا فكاً كما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدنا الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها. ﴿لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، أي من الملائكة، من مآكل ومشارب، وملابس ومسكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سزماً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، لا يبغون عنها جواً. وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُولًا﴾، أي: لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعَدَا مَسْئُولًا﴾، أي: وعداً واجباً. وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُولًا﴾، يقول: سلوا الذي وعدتكم - أو قال: واعداكم - نجز. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُولًا﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غانر: ٨]. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعَدَا مَسْئُولًا﴾. وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في «سورة الصافات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والخبور، ثم قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ تُرْزِلَا أَمْ سَجَرَةٌ أَرْزُومٌ ﴿١٦﴾ إِنْ جَعَلْتَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَّارِ ﴿١٨﴾ طَلْحُهَا كَأَنَّ رُءُوسَ الشَّيْبَانِ ﴿١٩﴾ لَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا قَمَارُونَ مِنهَا أَلْبُيُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَبِيبٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِأَوَّلِ الْجَبَّارِ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ الْقَوْمَ تَابَتْهُمُ صَالِحِينَ ﴿٢٣﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صُلُوكُ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُرْقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تفرع الكفار في عبادتهم من عبداً من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صُلُوكُ السَّبِيلِ﴾، أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَا نَتَّخِذُ لِلنَّاسِ آخِذِينَ وَإِنِّي لَأَنبِئُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّهُ أَنْتَ عَلَّمُ الْعَبُودِ ﴿١٦﴾﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴿السامدة: ١١٦ - ١١٧﴾ الآية، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله ﴿نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ ثُمَّ يُرْمَوْنَ ﴿٢١﴾﴾ [سبا:

٤٠ - ٤١. وقرأ آخرون: «ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء»، أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإننا عبيد لك، فقرأ إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى. «ولكن متعتهم وباكاهم»، أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رُسُلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. «وكانوا قوماً بوراً»، قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن البصري ومالك، عن الزهري: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزبير حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي زَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدَى، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

قال الله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ»، أي: فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قراباً يُقرَّبونكم إليه زُلْفى، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحاف: ٥ - ٦]. وقوله: «فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرَفاً وَلَا نَصراً»، أي: لا يقدرون على صَرْفِ العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، «وَمَنْ يظلم ينكمن»، أي: يشارك بالله، «ثِقَةُ عَذَابٍ أُكْبِرُ».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به «ويشربون في الأسواق»، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة الفاهرة، ما يستبدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صديق ما جاؤوا به من الله - عز وجل -. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴿١٠٩﴾»، وقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ [الأنبياء: ٨]. وقوله: «وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»، أي: اخترنا بعضهم ببعض، وبلونا بعضهم ببعض، لنعلم من يطيع من يعصي. ولهذا قال: «أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا»، أي: ممن يستحق أن يوحي إليه، كما قال تعالى: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: «وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ»، قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون، لَفَعَلْتُ، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم، وأبتليهم بهم.

[٤٩٩٥] وفي صحيح مسلم عن عِيَّاضِ بْنِ جِمَارٍ، عن رسول الله - ﷺ -: «يَقُولُ اللَّهُ: إِنْ مِثْلِكَ وَمِثْلُكَ»^(١).

[٤٩٩٦] وفي المسند عن رسول الله - ﷺ -: «لَوْ شِئْتُ لِأَجْرِي اللَّهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»^(٢).

(١) هو بعض حديث طويل عند مسلم ٢٨٦٥ ولفظه: «إنما بعثك لأبتلك، وأبتل بك».

(٢) أخرجه أبو يعلى ٤٩٢٠ من حديث عائشة وإسناده ضعيف لضعف أبي معشر، وأخرجه أحمد في «الزهد» ١٤ والبغوي في «الأنوار» ٤٢٩ من وجه آخر عن عائشة.

[٤٩٩٧] وفي الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلَكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فاختار أن يكون عَبْدًا رَسُولًا^(١).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رُسُلًا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَعَتَّى الكُفَّارِ في كُفْرِهِمْ وَعِتَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ﴾، أي: بالرسالة كما نُزِّلَ على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَاءً أَوْيَٰ رُسُلًا مُّثَلًّا﴾ [الأنعام: ١١٢٤]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَرَادُهُمْ هَاهُنَا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ﴾ فَنَرَاهُمْ عِيَانًا، فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُي وَالْمَلَيِكَةُ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي «سُورَةِ سُبْحَانَ». وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ نَرَىٰ رُسُلًا﴾، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُي الْمَلَيِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ النَّوْفُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: هم لا يَرَوْنَ الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يَرَوْنَ الملائكة لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ، وذلك يَضْدُقُ على وقت الاحتضار حين تَبْشُرُهُم الملائكة بالنار، وَغَضِبَ الْجِبَارُ، فَتَقُولُ الملائكة للكافر عند خُرُوجِ رُوحِهِ: اخْرُجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْحَيِيَّةُ فِي الْجَسَدِ الْحَيِيثِ، اخْرُجِي إِلَى سَعِيرٍ وَحَمِيمٍ، وَظَلِّ مَن يَحْمُومٍ. فَتَأْتِي الخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي البَدَنِ، فَيَضْرِبُونَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَرِهَىٰ إِيذَانِي لَأَذِنْتُ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَمَلَيِكَةُ يَتَرَبَّصُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] الآية. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَرِهَىٰ إِيذَانِي لَأَذِنْتُ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَمَلَيِكَةُ يَتَرَبَّصُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ بِالضَّرْبِ، ﴿اخْرُجِي أُنْسُكُمْ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِي تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِ احْتِضَارِهِمْ، إِنَّهُمْ يَبْشُرُونَ بِالْخَيْرَاتِ، وَحُصُولِ الْمَسْرَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَيِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ وَكُنْتُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُنْتُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ لَوْلَا مِنْ عَفْوِ رَبِّكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

[٤٩٩٨] وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخْرُجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتِ تَعْمُرِينِي، اخْرُجِي إِلَى رُوحِ رَبِّحَانَ رَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ»^(٢). وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي «سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ»، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُنِذِرُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّالِثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ﴾، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك،

(١) أخرجه ابن حبان ٦٣٦٥ وأحمد ٢٣١/٢ من حديث أبي هريرة، وأخرجه البغوي في «الأنوار» ١٥ من حديث ابن عباس.

(٢) هو مرفوع لا موقوف، وقد تقدم في تفسير سورة إبراهيم: ٢٧، كما ذكر المصنف.

وغيرهما. ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدّم، فإن الملائكة في هذين اليومين، يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتُبشّر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتُخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بُشْرَى يومئذٍ للمجرمين. ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: وتقول الملائكة للكافرين: حَرَامٌ مُحْرَمٌ عليكم الفلاح اليوم. وأصل الحجر المنع، ومنه يقال: حَجَرَ القاضي على فلان؛ إذا مَنَعَهُ التصرف إما لِسَفَاهِهِ، أو قَلَسٍ، أو صِغَرٍ، أو نحو ذلك. ومنه سُمِّيَ «الحجر» عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطواف أن يَطُوفُوا فِيهِ، وإنما يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ. ومنه يقال للعقل: «حَجْرٌ»، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة. هذا قولٌ مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، وخُصِيف، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا موسى - يعني ابن قيس - عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾، قال: حَرَامًا مُحْرَمًا أَنْ تُبَشَّرَ بِمَا يَبْشُرُ بِهِ الْمُتَّقُونَ. وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين: يوم يرون الملائكة يقولون: حَجْرًا مُحْجُورًا، أي: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: حَجْرًا مُحْجُورًا. وهذا القول - وإن كان له مأخذٌ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد، ولا سيما قد نصّ الجمهور على خلافه. ولكن قد روى ابن أبي نجيع، عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: عَوْدًا مُعَادًا. فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد أنه قال: ﴿حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾، عَوْدًا مُعَادًا، الملائكة تقولوه. فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، وهذا يوم القيامة، حين يُحَاسِبُ اللهُ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فأخبر أنه لا يَتَحَصَّلُ لَهُوَاءُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مُنْجَاةٌ لَهُمْ شَيْءٌ؛ وذلك لأنها فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ، إما الْإِخْلَاصَ فِيهَا، وإما الْمَتَابَعَةَ لِشَرْعِ اللهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحدٍ من هذين، وقد تَجَمَّعَ مَعًا، فتكون أبعَدُ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْآةً مَسْنُورًا﴾. قال مجاهد، والثوري: ﴿وَقَدِمْنَا﴾، أي: عَمَدْنَا. وكذا قال السدي: ﴿وَقَدِمْنَا﴾: عَمَدْنَا، وبعضهم يقول: أتينا عليه. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ - رضي الله عنه - في قوله: ﴿هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، أي: شِعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ فِي الْكُوَّةِ. وكذا زُوي من غير هذا الوجه عن عليّ. وزُوي مثله عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي، والضحاك، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشِعَاعُ فِي كُوَّةِ أَحَدِهِمْ لَوْ ذَهَبَ يَقْبِضُ عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، قال: هو الماء المَهْرَاقُ. وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ: ﴿هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، قال: الْهَبَاءُ رَهْفٌ^(١) الدواب. وزُوي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة في قوله: ﴿هَبْآةً مَسْنُورًا﴾، قال: أما رأيت يَبِيسُ الشَّجَرِ إِذَا ذَرَّتْهُ الرِّيحُ؟ فهو ذلك الْوَرَقُ. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائي، عن عبيد بن يعلى

قال: وإن الهَيَاءَ الرُّمَازُ إِذْ ذُرَّتْهُ الرِّيحُ. وحاصل هذه الأقوال التنبؤ على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيء، فلما عُرِضَتْ على الملك الحكم العَدْلُ الذي لا يَجُور ولا يظلم أحداً، إذ إنَّها لا شيء بالكُلِّيَّة. وشبَّهت في ذلك بالشيء التافه الحقيق المتفروق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكُلِّيَّة، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَيْدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقْدَةً فَاتَى بِهَا وَنَدَى وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَذَّبَهُ كَذَلِكُمْ فَاصْبِرْ لَهُمْ صَبْرًا مِمَّا صَبَرْتُمْ وَلَا تَتَرَكُوا مِثْلَهَا لَا يَبْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَعَرَبٍ يُبْعَثُ يُحِثُّ عَلَيْهِ فَلَمَّا تَأْتَاهُ الصَّاعِقُ جَهَنَّمَ خَسَفَ وَنَسِيَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [النور: ٣٩]. وتقدَّم الكلام على تفسير ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والعُرفات الآمنات، فهم في مقام أمين، حَسَنَ المنظر، طَيِّبَ المقام، ﴿حَكِيمِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات، والحسرات المُتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، أي: بسن المنزل منظرًا وبس المقيل مقامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: بما عملوه من الأعمال المُتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما إليه صاروا، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكُلِّيَّة، فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: إنما هي ضحوة، فيُقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويُقيل أعداء الله مع الشياطين مُقرنين.

وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيُقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. وقال عكرمة: إنني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقليلة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فيُطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت، فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. وقال سفيان، عن مسرة، عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا ينتصف النهار حتى يُقيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، قال: قالوا في العُرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرَضوا على ربهم عَرَضَةً واحدة، وذلك الحساب التيسير، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَفَ كِتَابَهُ يُصِيبُهُ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَنَقَلُبُ إِلَىٰ آهْلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]. وقال قتادة في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: ماوى ومزلاً. قال قتادة: وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يُجاء يوم القيامة برجلين، كان أحدهما مَلِكًا في

الدنيا إلى الحُمْرَةِ والبياضِ فَيُحَاسَبُ، فإذا عبدَ لم يعمل خيراً فَيُؤَمَّرُ به إلى النار. والآخرُ كان صاحِبَ كسَاءٍ في الدنيا، فَيُحَاسَبُ فيقول: يا رب، ما أعطيتني من شيءٍ فُتَحَابِسِنِي به. فيقول: صدقَ عبي، فأرسلوه. فيؤمَّرُ به إلى الجنة، ثم يُتْرَكَ ما شاء الله. ثم يُدْعَى صاحِبُ النار، فإذا هو مثلُ الحُمَمَةِ السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شَرٌّ مَقِيلٍ. فيقال له: عُدْ. ثم يُدْعَى بصاحِبِ الجَنَّةِ، فإذا هو مثلُ القَمَرِ ليلةَ البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: رَبٌّ، خَيْرٌ مَقِيلٍ. فيقال له: عُدْ. رواها ابنُ أبي حاتمٍ كُلُّها. وقال ابنُ جريرٍ: حَدَّثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصَّوَّافِ حَدَّثه، أنه بَلَغَه: «أن يومَ القيامةِ يَقْضَرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإِنَّهم لَيَقِيلُونَ في رياضِ الجَنَّةِ حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْحَدُ الْجَنَّةَ يَوْمَهِذِ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٥.

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَيْمِ وَرِزْلَ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا﴾ ٢٥ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ ٢٦ ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ٢٧ ﴿يَوْمَ لَقِيَ لَرَّ أَنْخَذَ فَلَنَا حَلِيلًا﴾ ٢٨ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ٢٩

يُخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاقُ السماء وتفتُّرها وانفراجُها بالغمام - وهو ظُلُّ النور العظيم الذي يَبْهَرُ الأبصارَ - ونزولُ ملائكةِ السمواتِ يومئذٍ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الربُّ تبارك وتعالى لِفِصْلِ الْقَضَاءِ. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ٢٩ [البقرة: ٢١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا حماد بن سَلْمَةَ، عن علي بن زيد، عن يوسُف بن مهران، عن ابن عَبَّاس، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَيْمِ وَرِزْلَ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا﴾ ٢٥، قال ابن عباس: يجمعُ الله الخلقَ يومَ القيامةِ في صَعِيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنسَ والبهائمَ والسباعَ والطيرَ وجميعَ الخلقِ، فَتَنْشَقُّ السَّمَاءُ الدُّنْيَا، فينزلُ أهلُها - وهم أكثرُ من الجنِّ والإنسِ ومن جميعِ الخلائق - فيحيطون بالجنِّ والإنسِ وجميعِ الخلقِ. ثم تنشقُّ السماءُ الثانيةُ فينزلُ أهلُها، وهم أكثرُ من أهلِ السماءِ الدنيا ومن الجنِّ والإنسِ، ومن جميعِ الخلقِ، فيحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم والجنِّ والإنسِ وجميعِ الخلقِ. ثم تنشقُّ السماءُ الثالثةُ، فينزلُ أهلُها، وهم أكثرُ من أهلِ السماءِ الثانيةِ والسماءِ الدنيا ومن جميعِ الخلقِ، فيحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم، وبالجنِّ والإنسِ وجميعِ الخلقِ. ثم كذلك كل سماءٍ، حتى تنشقُّ السماءُ السابعةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ ممن نزلوا قبلهم من أهلِ السمواتِ ومن الجنِّ والإنسِ ومن جميعِ الخلقِ، فيحيطون بالملائكةِ الذين نزلوا قبلهم من أهلِ السمواتِ، وبالجنِّ والإنسِ وجميعِ الخلقِ، ورُبُّنا - عزَّ وجلَّ - في ظُلَلٍ مِنَ الْقَمَامِ، وحوْلَهُ الْكَرُوبِيُّونَ، وهم أكثرُ من أهلِ السمواتِ السبعِ الإنسِ والجنِّ وجميعِ الخلقِ، لهم قرونٌ كأكعَبِ القنَّاءِ، وهم تحتَ العرشِ، لهم رَجَلٌ بالتسبيحِ والتهلِيلِ والتقدیسِ لله - عزَّ وجلَّ - ما بين أخصم قدم أحدهم إلى كعبه مسيرةَ خمسمئةِ عامٍ وما بين كعبه إلى ركبتيه مسيرةَ خمسمئةِ عامٍ، وما بين رُكْبَتَيْهِ إلى حُجْرَتِهِ مَسِيرَةٌ خمسمئةِ عامٍ، وما بين حُجْرَتِهِ إلى تَرْقُوتِهِ مَسِيرَةٌ خمسمئةِ عامٍ، وما بين تَرْقُوتِهِ إلى موضعِ القُرْطِ مَسِيرَةٌ

خمسئمة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسئمة عام، وَجَهْتُمْ مُجْتَبِئُهُ. هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق^(١).

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنِي الْحَجَّاجُ، عَنْ مُبَارَكِ بْنِ قُضَالَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، عَنْ يُوْسُفَ بْنِ مِهْرَانَ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ السَّمَاءَ إِذَا انْشَقَّتْ نَزَلَ مِنْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَهُوَ يَوْمُ الثَّلَاقِ، يَوْمَ يَلْتَقِي أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْأَرْضِ: جَاءَ رَبُّنَا؟ فَيَقُولُونَ: لَمْ يَجِيءْ، وَهُوَ آتٍ. ثُمَّ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ سَمَاءُ سَمَاءَ، عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّضَعِيفِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَيَنْزِلُ مِنْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ. فَيَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ الْكُرُوبِيُّونَ، ثُمَّ يَأْتِي رَبُّنَا فِي حَمَلَةِ الْعَرْشِ الثَّمَانِيَةِ، بَيْنَ كَعْبِ كُلِّ مَلَكٍ وَرُكْبَتِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ سَنَةً، وَبَيْنَ فَجْذِهِ وَمَنْكِبِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ سَنَةً. قَالَ: وَكُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ لَمْ يَتَأَمَّلْ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَكُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ وَاضِعٌ رَأْسَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ يَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ. وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ شَيْءٌ مَبْسُوطٌ كَأَنَّهُ الْقَبَاءُ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ. ثُمَّ وَقَفَ. فَمَدَّاهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَفِي سِيَاقَاتِهِ غَالِبًا نِكَارَةٌ شَدِيدَةٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَذِرُكَ وَالْوَاقِعَةُ﴾ [١٥-١٧]، قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشِبٍ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ، أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى جِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ. وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْهُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: إِذَا نَظَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى الْعَرْشِ يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، شَخَّصَتْ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ، وَرَجَفَتْ كُلَاهِمُ فِي أَجْوِافِهِمْ، وَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَقَرِّهَا مِنْ صُدُورِهِمْ إِلَى خَنَاجِرِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ الْجَلِيلِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: يَهْبِطُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ حِينَ يَهْبِطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ، مِنْهَا النُّورُ وَالظُّلْمَةُ، فَيُصَوِّتُ الْمَاءَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ صَوْتًا تَنْخَلُغُ لَهُ الْقُلُوبُ. وَهَذَا مَوْقُوفٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ كَلَامِهِ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الزَّامِلَتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَوْمِ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [١٦]، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

[٤٩٩٩] وفي الصحيح: «إن الله يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون»^(٢). وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾، أي: شديدًا صعبًا، لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُرْفَعُ السَّاعِرُ﴾ [٨-١٠]، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَتْحُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَهُمُ الْمَلَيْكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

[٥٠٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دزاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]: ما أطول هذا

(١) هذه الآثار مصدرها كتب الأقدمين، وعلي بن زيد ضعيف، ليس بشيء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢، ومسلم ٢٧٨٨، وأبو داود ٤٧٣٢، وأبو يعلى ٥٥٥٨ من حديث ابن عمر.

اليوم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: والذي نفسي بيده إنه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يُصلِّيها في الدنيا^(١). وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۗ﴾، يُخَيِّرُ تعالى عن نَدَم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدِمَ حيث لا ينفعه التندُّم، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً. وسواء كان سبب نزلها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامَّة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقَلُّبُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۗ﴾ وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۗ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن مِّنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. فكل ظالم يندم يوم القيامة غايَةً الندم، ويُعَضُّ على يديه قاتلاً: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۗ﴾ يُؤَلِّقُ لَيْتِي لَوْ اتَّخَذْتُ فَلَانَا خَلِيلًا، يعني: مَنْ صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما. «أَقْدَأَسَلَّتِي عَنِ الذِّكْرِ» - وهو القرآن - «بَعْدَ إِذْ جَاءَتْنِي»، أي: بعد بلوغه إلي، قال الله تعالى: ﴿وَكَاكَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾، أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۗ﴾ [٣٠] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۗ﴾ [٣١]

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - أنه قال: ﴿يَذَرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾. وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَىٰ فِيهِ لَكُمْ تَلَبُوتٌ ۗ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره، حتى لا يسمعه. فهذا من هجرانه. وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانيه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به من امتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه. فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يُسخطه، ويستعملنا فيما يُرضيه، من جفِّظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يُحبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهابٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: كما حصل لك - يا محمد - في قومك من الذين هَجَرُوا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۗ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۗ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أي: لمن أتبع رسوله، وأمن بكتابه وصدقته وأتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلماذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

(١) أخرجه أحمد ٧٥/٣ وأبو يعلى ١٣٩٠ وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة ودراج، وللحديث شواهد تؤيده دون ذكر الآية الكريمة، وستأتي.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعتيهم، وكلامهم فيما لا يعينهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي: هلاً أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوجي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالنوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية. فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما أنزل مُنْجِماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿وَرَوَاهَا فَفَهَّمَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال قتادة: وبيّناه تبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً. ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم.

قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بما يلتزمون به عيب القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: إلا نزل جبريل من الله بجوابهم. وما هذا إلا اعتناء كبير؛ وشرف للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليه - أعظم نبي أرسله الله، وقد جمَع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملا الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض مُنْجِماً بحسب الوقائع والحوادث. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَوَاهَا فَفَهَّمَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٣﴾﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

[٥٠٠١] وفي الصحيح، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحْشَرُ الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشي على وجهه يوم القيامة»^(١). وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد من المفسرين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا ﴿٢٥﴾ فقلنا اذهبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٢٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ قُرَيْشٍ الْقُرْآنَ لِيُنذِرَ الْكَافِرِينَ أَفَلَا يَكُونُوا يَكْفُرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شَيْئًا حِسَابًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى متوعداً من كَذَّبَ رسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - من مشركي قومه ومن خالفه، ومُحَدِّثِهِمْ من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، قَبْدًا بِذِكْرِ مُوسَى عليه السلام. وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارونَ وَزَيْرًا، أي: نبياً مُؤَاظِرًا وَمُؤَيِّدًا وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده، ف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكُفْرَينَ أَثْمَلَهَا﴾ [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ومن كَذَّبَ برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فُرِضَ أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه، ولهذا قال: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لَبِثَ فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويُحَدِّثُهُمْ نَقَمَهُ، فما آمن معه إلا قليل، ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يبقَ منهم أحدٌ، ولم يبقَ على وجه الأرض من بني آدم سِوَى أصحاب السفينة فقط. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أي: عبرةً يَتَّبِعُونَ بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعَامًا لِّلنَّاسِ حَمَلَكُوا فِي الْبَارِيَةِ﴾ [يونس: ١١] لِتَجَلَّيَا لِكُرِّ نَذْرِهِ وَتَقِيَّتِهِ أَذْنٌ وَعِيَةٌ ﴿١٢﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢] أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَجِ البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدَّق أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ وقد تقدَّم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، منها في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته. وأما أصحاب الرِّسِّ فقال ابنُ جُرَيْجٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: هُم أهلُ قَرْيَةٍ من قُرَى ثَمُودَ. وقال ابنُ جُرَيْجٍ: قال عكرمة: أصحابُ الرِّسِّ بَقْلَجٍ وهم أصحابُ ياسين. وقال قتادة: قَلْبَجٌ من قُرَى اليمامة. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الثبيل، حدثنا أبي عمرو بن الضحَّاك، حدثنا أبي الضحَّاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾، قال: بئرٌ بِأَدْرِيَجَانَ. وقال سفيانُ الثوريُّ، عن أبي بكرٍ، عن عكرمة: الرِّسُّ بئرٌ رَسُوا فيها نبيهم. أي دفنوه بها.

[٥٠٠٢] وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي، فحفرُوا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم. قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، ويبيئه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردُّها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنةً، فاضطجع فنام. فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هب فتمطى، فتحوَّل لشقه الآخر فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعةً من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع. ثم ذهب إلى الحفيرة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده. وكان قد بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وأمنوا به وصدَّقوه. قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل؟

فيقولون له: ما نُدري، حتى قبض الله النبي، وأهب الأسود من نومه بعد ذلك. فقال رسول الله - ﷺ -: إن ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنة^(١). وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن حُميد، عن سَلَمَة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب مرسلًا. وفيه غرابة ونكازة، ولعل فيه إذرأجا، والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: لا يجوز أن يُحمَل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذُكروا في القرآن، لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم، وهؤلاء قد بدأ لهم فأمّنوا ببيتهم، اللهم إلا أن يكونَ حَدَث لهم أحداث، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم. والله أعلم. واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود، الذين ذُكروا في سورة البروج، فإله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَرُؤُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، أي: وأما بين أضعاف من ذُكِر أهلكتناهم كثيرة، ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا صَرَ تِلْكَ الْأَمْتَلُ﴾، أي: بيننا لهم الحُجج، ووضّحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: أرحنا عنهم الأعداء، ﴿وَكَلَّا تَبَرَّأ تَنْبِيْرًا﴾، أي: أهلكتنا إهلاكًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. والقرن: هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿فَرَأَيْنَا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١٧]. وحَدّه بعض المفسرين بمئة وعشرين سنة، وقيل: بمئة سنة. وقيل: بثمانين سنة. وقيل: بأربعين. وقيل غير ذلك. والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد؛ فإذا ذَهَبُوا وحلّفهم جبل فهم قرن ثانٍ.

[٥٠٠٣] كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢). . . الحديث. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقُرْآنِ الْأَنبِيَاءِ مَطَرًا سَوِيًّا﴾، يعني قرية قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكتها الله بالقلب، وبالمطر من الحجارة التي من سجّل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ [٧٦] [الشعراء: ١٧٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَكثُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ [١٧٧] ﴿وَأَنبِئْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِحَافِظَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ فَكَاثِرُونَ﴾ [١٧٨] [الحجر: ٧٦]. وقال: ﴿وَأَنبِئْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِحَافِظَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ فَكَاثِرُونَ﴾ [١٧٩]. ولهذا قال: ﴿أَنكُم يَكْفُرُونَ بِرُؤُونِكُمْ﴾، أي: فيغيّبوا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله. وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون، لأنهم لا يرجون نُشورًا، أي: معاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْجِدُونَكَ إِلَّا هُرُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [٤١] ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنِ الْإِهْتِمَاءِ لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَن أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [٤٢] ﴿أَرَأَيْتَ مَن أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [٤٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٤٤]

يُخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إذا رآوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْجِدُونَكَ إِلَّا هُرُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [٤١] ﴿أَرَأَيْتَ مَن أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [٤٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٤٤]. وقال هاهنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْجِدُونَكَ إِلَّا هُرُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [٤١] ﴿أَرَأَيْتَ مَن أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [٤٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٤٤].

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٦٣٨١ عن محمد بن كعب وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف. وابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

(٢) تقدم، لكن لفظ «القرون» ليس في شيء من الكتب الستة ولا للسانيد المعتمدة.

كَانَ عِقَابٌ ﴿٣٢﴾ [الرعد: ٣٢]. وقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُبْدِلُنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَدَرْنَا عَلَيْهَا﴾، يعنون أنه كاد يثيبهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمَتَهَدِّدًا: ﴿وَمَوْفِقٌ بِعَمَلِكُمْ يَهْدِي مِنَ الْغَضَابِ مَنْ أَهْلُ سَبِيلًا﴾. ثم قال تعالى لنبئهم، منبها له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل: ﴿أَوْهَيْتُ مِنَ النَّجْدِ إِلَيْهِمْ هَوْنًا﴾، أي: مهما استحسنت من شيء ورأه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومدبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول. ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَقُولُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَهْلُ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾﴾، أي: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقتوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجية عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَيْكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٣٤﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٣٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْاَيْلَ لِيَأْسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٣٦﴾﴾

من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَيْكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومسروق، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعي، والضحاك، والحسن البصري، وقنادة، والسدي، وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، أي: دائما لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْاَيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بوضده. وقال قنادة، والسدي: ذليلا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ﴾، أي: الظل. وقيل: الشمس. ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: سهلا. قال ابن عباس: سريعا. وقال مجاهد: خفيا. وقال السدي: قبضا خفيا، حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٣٥﴾﴾، أي: قليلا قليلا. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْاَيْلَ لِيَأْسَا﴾، أي: يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿وَالْاَيْلَ إِذَا يَشْنَ ﴿٣٦﴾﴾ [الليل: ١] وقال: ﴿وَالْاَيْلَ إِذَا يَشْنَهَا ﴿٣٧﴾﴾ [الشمس: ٤]. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكبل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ رَحْمَتِي جَمَلَ لَكُمْ الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُوهَا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كَرِهَ لَكُمْ كَسْرُوهَا ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَرَكَ يَدَىٰ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٣٩﴾ لِنُشْجِيَ بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا وَنُحْيِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَمْعَاءَ وَأَنَابَىٰ كَثِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

وهذا أيضاً من قدرته الثامنة وسلطانة العظیم، وهو أنه تعالى يُرْسِلُ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك تَقَمُّمَ الأرض. ومنها ما يُلْقِحُ السحابَ لِيُمْطِرَ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، أي: آلة يتطهر بها، كالسحور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فَعُولٌ بمعنى فاعل، أو: مبنِيٌّ للمبالغة أو التعدي فعلى كُلِّ منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُمر بن حفص بن غِيَاثٍ، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حُميد الطويل، عن ثابت البُنَّاني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطُرقَ البصرة قَدْرَةً، فَصَلَّى فقلت له، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: طهره ماء السماء.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمَةَ، حدثنا وَهيب، عن داود، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، قال: أنزل الله ماء طهوراً لا يَنْجَسُهُ شيء.

[٥٠٠٤] وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بثر بُضَاعَةَ؟ - وهي بثر يلقى فيها التثن ولحوم الكلاب - فقال: إن الماء طهوراً لا يَنْجَسُهُ شيء^(١). رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث، حدثنا مُعْتَمِرٌ، سمعت أبي يُحَدِّثُ عن سيار، عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مَرْوَانَ، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فَيُعْذِبُهُ الرعدُ والبرقُ. فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات، فأما النبات فمما كان من السماء. وَرُوي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عُشْبَةً أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البرِّ بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخَيِّبَ بِهِ بَلَدَةً مِّنْكَ﴾، أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست زُبابها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَلْبَتَّتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥]. ﴿وَشَقِيقُهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْهَامًا وَأَلِيسًا كَثِيرًا﴾، أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي يحتاجون إليه غَايَةَ الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَدَا مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى لَتَوَتَّى لَهَا كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾، أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فَمَرَّ على الأرض وَتَعَدَّاهَا وَجَاوَزَهَا إلى الأرض الأخرى، فأمطرتها وكَفَثَتْهَا فَجَعَلْتَهَا عَدِيقَةً، والتي وراها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس عامٌ بأكثر مطراً من عامٍ، ولكن الله يُصَرِّفُهُ كيف يشاء. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٦٦ والترمذي ٦٦ والنسائي ١٧٤/١ وأحمد ١٥/٣ وأبو يعلى ١٣٠٤ من حديث أبي سعيد الخدري، وحسنه الترمذي، وقال الحافظ في «التلخيص» ١٣/١: وقد صححه أحمد ويحيى بن معين، وابن حزم اهـ ويشهد له حديث ابن عباس. أخرجه النسائي ١٧٣/١ وأبو داود ٦٨ والترمذي ٦٥ وابن ماجه ٣٧٠ وابن حبان ١٢٤٢.

أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥١﴾ . أي: ليتذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادرٌ على إحياء الأمواتِ والعظامِ الرفاتِ أو: ليذكر من مُنِعَ القَطْرَ أنما أصابه ذلك بذنبِ أصابه، فيُقَلِّعُ عما هو فيه .

[٥٠٠٥] وقال عُمَرُ مولى عُفْرَةَ: كان جبريل - عليه السلام - في موضع الجنائز، فقال له النبي - ﷺ -: يا جبريلُ، إني أحب أن أعلم أمرَ السحابِ؟ قال: فقال جبريلُ: يا نبيَّ الله، هذا ملكُ السحابِ فسَله . فقال: تأتينا صيكاكٌ مُحْتَمَةٌ: استي بلادٌ كذا وكذا، كذا وكذا قطرةٌ^(١) . رواه ابنُ أبي حاتم، وهو حديثٌ مرسلٌ . وقوله تعالى: ﴿فَأَبَّأُ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾ ، قال عِكْرِمَةُ: يعني الذين يقولون: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وكَذَا .

[٥٠٠٦] وهذا الذي قاله عِكْرِمَةُ كَمَا صَحَّ في الحديثِ المخرُجِ في صحيح مسلم، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سَمَاءِ أصابَتْهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فذاك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب . وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا وكذا، فذاك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب»^(٢) .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم إلى الله - عز وجل - ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تُبَلِّغَ الناسَ هذا القرآنَ، ﴿لَا يُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغٌ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ لِنرْسُوهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

[٥٠٠٧] وفي الصحيحين: «بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسود»^(٣) .

[٥٠٠٨] وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناسِ عامة»^(٤) . ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ﴾ ، يعني: بالقرآن، قاله ابنُ عباس، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُنَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكٰفِرَاتِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، أي: خَلَقَ المائِن: الحلو والمِلح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفُرات العذب الزلال . قاله ابنُ جرير، واختاره ابنُ جرير . وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحرٌ ساكن وهو عذبٌ فُرَات . والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع ليُبَيِّنَ العبادَ على نعيمه عليهم ليُشكروه، فالبِحْرُ العذبُ هو هذا السارحُ بين الناس، فَرَقَهُ تعالى بين خَلْقِهِ لاحتياجهم إليه أنهاراً وغيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

(١) ضعيف جداً . هو مرسل، ومع إرساله، عمر مولى عُفْرَةَ، هو ابن عبد الله، ضعيف كما في التقريب، فهاتان علتان للحديث .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ٨٤٦ و١٠٣٨ ومسلم ٧١ وأبو داود ٣٩٠٦ والنسائي ١٦٥/٣ وأحمد ١١٧/٤ وابن حبان ١٨٨ من حديث زيد بن خالد الجهني .

(٣) تقدم مراراً .

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٥ و٣١٢٢ ومسلم ٥٢١ وقد تقدم، وصدرة وأعطيت خمساً . . .

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: مالحٌ مُرُّ زَعَاقٍ لَا يُسْتَسَاعُ، وذلك كالبحارِ المعروفةِ في المشارِقِ والمغربِ، البحرِ المحيطِ وما يتصل به من الزُقَاقِ وبحرِ القُلْزَمِ، وبحرِ اليَمَنِ، وبحرِ البَصْرَةِ، وبحرِ فَارِسَ، وبحرِ الصينِ والهندِ، وبحرِ الرومِ وبحرِ الخَزَرِ، وما شاكلها وشابها من البحارِ الساكنةِ التي لا تجري، ولكن تتمعج وتضطرب وتلتطم في زمنِ الشتاءِ وشدةِ الرياحِ، ومنها ما فيه مَدٌّ وَجَزْرٌ، ففي أولِ كلِّ شهرٍ يحصلُ منها مَدٌّ وفيضٌ، فإذا شرعَ الشهرُ في النقصانِ جَزَرَتْ، حتى تُرجعَ إلى غايتها الأولى، فإذا استهلَّ الهلالُ من الشهرِ الآخرِ شَرَعَتْ في المدِ إلى الليلةِ الرابعةِ عشرةِ ثم تشرعُ في النقصِ، فأجرى اللهُ سبحانه وتعالى - وله القدرةُ التامةُ - العادةَ بذلك. فكلُّ هذه البحارِ الساكنةِ خَلَقَهَا اللهُ سبحانه وتعالى مالحَةً الماءِ، لئلا يحصلَ بسببها تَنُّ الهواءِ، فيفسدَ الوجودُ بذلك، ولئلا تجوزَ الأرضُ بما يموتُ فيها من الحيوانِ، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحياً وميبتها طيبة.

[٥٠٠٩] ولهذا قال رسولُ الله - ﷺ - وقد سُئِلَ عن ماءِ البحرِ: أنتوضأُ به؟ فقال: «هو الطهورُ ماؤه، الحلُّ ميتته»^(١). رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسنادٍ جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ يَنْهَمًا﴾، أي: بين العَذْبِ والمالحِ ﴿بَرْزَخًا﴾، أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض، ﴿وَجَعَلْ تَحْمِيرًا﴾، أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ﴾^(١١) يَنْهَمًا بَرْزَخٌ لَا يَبْيِغَانِ^(١٢) فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَآ تَكْذِبَانِ [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِدَلٍّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١٣) [النمل: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: خَلَقَ الإنسانَ من نُطْقَةٍ ضَعِيفَةٍ، فسَوَاهُ وَعَدَلَهُ، وجَعَلَهُ كَامِلَ الْخَلْقَةِ، ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداءِ أمره وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثم يَتَزَوَّجُ فيصيرُ صِهْرًا، ثم يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ. وكلُّ ذلك من ماءٍ مَهِينٍ. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا^(٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءَةِ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا لَّكُمْ سَيِّئًا^(٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا^(٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا^(٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ اسْجُدُوا^(٦٠) قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا^(٦١)

يُخْبِرُ تعالى عن جهلِ المشركين في عبادتهم غيرَ الله من الأصنامِ، التي لا تملكُ لهم نفعاً ولا ضرراً، بلا دليلٍ قَادِمٍ إلى ذلك، ولا حُجَّةٍ أدَّتْهم إليه، بل بمجرد الآراءِ، والنشهي والأهواءِ، فهم يُوالونهم ويُقاتلون في سبيلهم، ويُعَادُونَ اللهَ ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، أي: عَوْنَا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَى جِزْبِ اللهِ، وَجِزْبِ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾^(٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ^(٧٥) [يس: ٧٤ - ٧٥]، أي: أَلَهْتَهُمُ التي اتَّخَذُواها من

دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جندٌ مُحَضَّرُونَ، يقاتلون عنهم، ويذَّبُونَ عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾، قال: يظاهر الشيطان على معصية الله: يُعِينُهُ. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾، يقول: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾، قال: مؤالياً. ثم قال تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مُبَشِّرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجره أطلبها من أموالكم، وإنما أعمل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٥٧﴾﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرَ رَبِّهِ سَيِّئًا﴾، أي: طريقاً ومسلماً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَلِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يَمُوتُ أبداً، الذي هو ﴿الْأَزَلُّ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شَيْءًا عَظِيمًا﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدى، الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله دُخْرَكَ وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويُفْرَعُ إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومُظْفِرُكَ، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ تَعْمَلُ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ بِصِعْكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٥٠١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفييل قال: قرأت على معقل - يعني ابن عبید الله - عن عبد الله بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان رسول الله - ﷺ - في بعض فجاج المدينة، فسجد له، فقال: لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يَمُوتُ^(١). وهذا مرسل حسن. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، أي: اقرن بين حمده وتسبيحه.

[٥٠١١] ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»^(٢). وقال تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ مَنَّانًا يَوْمَ وَعَدَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]. وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى يَوْمَ لُؤْلُؤًا عِبَادُوهَ خَيْرًا﴾، أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أي: هو الحي الذي لا يَمُوتُ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي خَلَقَ بقدرته وسلطانه السموات السبع، في ارتفاعها وأنساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، في ستة أيام، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، أي: يَدْبُرُ الأمر، ويقضي الحق، وهو خيرُ الفاضلين.

وقوله تعالى: ﴿مَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾، أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى - فما قاله فهو حق، وما أخبر

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، وقد تقدم تحريمه غير مرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٨ ومسلم ٤٨٤ وأبو داود ٨٧٧ والنسائي ٢/٢١٩ وابن ماجه ٨٨٩ وأحمد ٤٣/٦ وابن حبان ١٩٢٩ والبيهقي ٢/١٠٩ من حديث عائشة.

به فهو صدقٌ، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب ردُّ نزاعهم إليه، فما يُوافق أقواله وأفعاله فهو الحقُّ، وما يخالفها فهو مردودٌ على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الانعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبارِ وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿فَسَتَلِّيهِمْ خَيْرًا﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿فَسَتَلِّيهِمْ خَيْرًا﴾، قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جريج.

وقال شمر بن عطية في قوله تعالى: ﴿فَسَتَلِّيهِمْ خَيْرًا﴾، قال: هذا القرآن خيرٌ به. ثم قال تعالى منكرأ على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾، أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا يُنكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن.

[٥٠١٢] كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي - ﷺ - للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: «لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم»^(١). ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به، ﴿أَتَسْبُدُّ لِمَا تَأْمُرُنَا؟﴾، أي: لمجرد قولك؟! ﴿وَرَادَهُمْ نُورًا﴾. أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفردونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعة السجود عندها لقاريتها ومستمعها، كما هو مُقرر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مُتَّجِدًا نفسه ومُعْظَمًا على جميل ما خَلَقَ في السماء من البروج، وهي الكواكب العظام، في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والحسن، وقناة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يُرَوَى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً. والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾، وهي الشمسُ المُنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَرَاجًا﴾ ﴿٦٢﴾ [النبا: ١٣]. ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾، أي: مُضيئاً مُشرقاً بنور آخر غير نور الشمس^(٢)، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿٦٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿٦٦﴾ [نوح: ١٥ - ١٦]. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٦٣﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال: ﴿يَتَّبِعُ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا

(١) يأتي في سورة الفتح إن شاء الله.

(٢) يلاحظ أن القمر غير مضيء كما كانوا يظنون قديماً، وإنما هو منير يعكس ضوء الشمس.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ بَلَّغِي لَمَّا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَائِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل.

[٥٠١٣] وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»^(١).

قال أبو داود الطيالسي: حَدَّثَنَا أَبُو حُرَّةَ، عن الحسن: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَطَالَ صَلَاةَ الضُّحَى، فَقِيلَ لَهُ: صَنَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ وَرِثِي شَيْءٌ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُتِمَّهُ، أَوْ قَالَ: أَقْضِيهِ. وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٥٦﴾﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعملهُ أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن. وقال مجاهد: ﴿خِلْفَةً﴾، أي: مختلفين، هذا بسواده، وهذا بضيائه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي يسكينته ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَشِي فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ لِيَالًا طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، فاما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مزح، ولا أشير ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصائع تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبيب^(٢) وكانما الأرض تُطوى له. وقد كره بعض السلف المشي يتضعف ويتضع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي زويداً، فقال: ما بالكَ؟ أنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. فعلاه بالذرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهون هاهنا السكينة والوقار.

[٥٠١٤] كما قال رسول الله ﷺ: - إذا أتيتهم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلل، ذَلَّتْ مِنْهُمْ - الله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مريض، وإنهم لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٩ وابن ماجه ١٩٥ وأحمد ٣٩٥/٤ من حديث أبي موسى الأشعري بأتم منه.

(٢) الصبب: ما انصب من الرمل وما انحدر من الأرض.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٠٥.

يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. أما والله ما أحزنتهم حزن الناس، ولا تعاطم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعرآه الله تقطع نفسه على الدنيا خسرات، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾، أي: إذا سفا عليهم الجهال بالسيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله - ﷺ - لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَيْهِمْ شَيْئاً﴾ [القصص: ٥٥].

[٥٠١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مقرن المزني قال: «قال رسول الله - ﷺ - سب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: فقال رسول الله - ﷺ -: أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به. وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به»^(١). إسناده حسن، ولم يخرجوه. وقال مجاهد: «قَالُوا سَلَمًا»، يعني قالوا سداداً. وقال سعيد بن جبيرة: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: «قالوا: سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون. ثم ذكر: ليلهم خير ليل». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿كَأُوْلَئِكَ قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَمُنُّونَ﴾ [١٧] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُسْتَفْتَوْنَ﴾ [١٨] [الذاريات: ١٧-١٨]. وقال: ﴿تَنَجَّافٍ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿أَمَنَ هُوَ قَبْلَ مَا آتَاهُ الْبَلَّ سَلِيمًا وَقَلِيمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ١٩] الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [١٥]، أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذَّبَ يَكُنْ غَرَامًا، وَإِنْ يُعْطَ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس يگرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نجموا في الدنيا؛ إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يزودوا إليه، فاغرمهم فادخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٦]، أي: بسئ المنزل منزلاً، وبسئ المقيل مقيلاً. وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [١٦]: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طريح الرجل في النار هوى فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأساً من سُمِّ الأساويد والعقارب، قال: فيميز الجلد على جده، والشعر على جده، والعصب على جده، والعروق على جده. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن في النار نجاباً فيها حيات أمثال البُخْتِ، وعقارب أمثال البغال الدُّهم، فإذا قُذِفَ بهم في النار حُرِجَتْ إليهم

(١) أخرجه أحمد ٤٤٥/٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧٥/٨: ورجاله رجال الصحيح، غير أبي خالد الوالبي، وهو ثقة. قلت: وثقه ابن حبان على قاعدته، وهو شبه مجهول، وله علة أخرى، وهي عننة الأعمش.

من أوطانها فأخذت بشفاهم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حرَّ النار رجعت.

[٥٠١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام - يعني ابن مسكين - عن أبي ظلال، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال: إن عبداً في جهنم لئن نادى ألف سنة: يا حنان، يا منان. فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتني بعبدى هذا. فينطلق جبريل فيجد أهل النار منكبين يبكون، فيرجع إلى ربه - عز وجل - فيخبره، فيقول الله - عز وجل -: أتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه على ربه - عز وجل - فيقول له: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب، شر مكان وشر مقيل! فيقول: زدوا عبدي. فيقول: يا رب، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها! فيقول: دعوا عبدي^(١). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرُونَ في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَرْفُوعًا لَكَ عُقْبَكَ وَلَا تُسْطِطْ عَلَى كُلِّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

[٥٠١٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم العسائي، عن ضمرة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ - قال: من فقه الرجل رفقته في معيشته^(٢). لم يخرجه.

[٥٠١٨] وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ -: ما عال من اقتصد^(٣). لم يخرجه.

[٥٠١٩] وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال - يعني العنسي - عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ -: ما أحسن القصد في العنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة^(٤). ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال غيره: السرف: النفقة في معصية الله. وقال الحسن البصري: ليس النفقة في سبيل الله سرف، والله أعلم.

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٠ وأبو يعلى ٤٢١٠ من حديث أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٥٩: رجالهما رجال الصحيح، غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان اهـ. كذا وقع للحافظ الهيثمي. والصراب أن ابن حبان لم يوثقه. بل وثق ابن حبان رجلاً آخر اسمه هلال بن أبي هلال، أبو ظلال. وأما أبو ظلال المذكور في الإسناد فهو هلال بن أبي ميمونة القسلي، جاء في «الميزان» ٩٢٨٠: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي والأزدي: ضعيف. وقال ابن حبان: مغفل، لا يجوز الاحتجاج به. بحال. وقال البخاري: عنده منكر.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ١٩٤ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٣٠٨: فيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط اهـ وله علة أخرى، ضمرة هو ابن حبيب، لم يسمع من أبي الدرداء، فهو منقطع.

(٣) تقدم تخريجه باستيفاء.

(٤) أخرجه البزار ٣٦٠٤ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، فيه مسلم بن حبيب، لم يوثقه أحد. وإنما ذكره ابن حبان في الثقات في ترجمة سعيد بن حكيم راجع «المجمع» ١٧٨٥٠.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

[٥٠٢٠] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: سئل رسول الله - ﷺ -: أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني خليعة جارك. قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾^(١). وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري، عن أبي معاوية، به. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري: وواصل - ثلاثهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، عن ابن مسعود، به، فالله أعلم، ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ الحديث، طريق غريب.

[٥٠٢١] وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا عامر بن مديك، حدثنا السري - يعني ابن إسماعيل - حدثنا الشعبي، عن مسروق قال: قال عبد الله: خرج رسول الله - ﷺ - ذات يوم فاتبعته، فجلس على نشيز من الأرض وقعدت أسفل منه، ووجهي حيال ركبته، فأغتمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أي الذنوب أكبر؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تزاني خليعة جارك. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾... إلى آخر الآية^(٢).

[٥٠٢٢] وقال النسائي: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله - ﷺ -: في حجة الوداع: ألا إنما هي أربع، فما أنا بأشخ عليهن مني منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ -: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرفوا»^(٣).

[٥٠٢٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن المديني - رحمه الله - حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلابي، سمعت المقداد بن الأسود - رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله - ﷺ -: لأصحابه: ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله - ﷺ -: لأصحابه: لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره.

(١) صحيح - أخرجه البخاري ٤٧٦١ و٤٧٦٢ ومسلم ٣٠٢٣ ح ٢٠ والنسائي في «التفسير» ٣٨٨ وأحمد ١/ ٣٨٠ و٤٣١ و٤٣٤ و٤٦٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦٥٠٩ ورجاله ثقات، لكن الصحيح أن الذي قرأ الآية هو ابن مسعود.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره^(١).

[٥٠٢٤] وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقيقه، عن أبي بكر بن أبي مزيم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي - ﷺ -: قال: ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعتها رجل في رجم لا يحل له^(٢).

[٥٠٢٥] وقال ابن جريج: أخبرني يعلى، عن سعيد بن جبيرة أنه سمع ابن عباس يحدث: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فاكثروا، وزنوا فاكثروا، ثم أتوا محمداً - ﷺ - فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لِمَا عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَمبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٣) [الزمر: ٥٣].

[٥٠٢٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمير، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي فاخنة قال: قال رسول الله - ﷺ - لرجل: «إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهك أن تزني بحليلة جارك. قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ - روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أثاماً﴾: وإد في جهنم. وقال عكرمة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وكذا روي عن سعيد بن جبيرة، ومجاهد. وقال قتادة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: نكالا، كنا نحدث أنه وإد في جهنم. وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بُني، إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة.

[٥٠٢٧] وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره، عن أبي أمامة الباهلي، موقوفاً ومرفوعاً: «أَنْ غَيًّا، وَأَثَامًا بِرَانٍ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ»^(٥). أجازنا الله منهما بمئة وكرمه. وقال السدي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء. وهذا أشبه بظاهر الآية. ولهذا فسره بما بعده مبداً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيُعَذِّبُهُ فِيهَا مَهَلًا﴾، أي: حقيقراً ذليلاً. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله - عز وجل - من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ حَبْلًا فِيهَا وَعَصَبٌ عَلَىٰ عُنُقِهِ وَلَعْنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(٦)، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فثحمل على من لم يتب، لأن هذه مقيدة

(١) تقدم في سورة النساء: ٣٦.

(٢) ضعيف جداً، فيه عنعنة بقية، وأبو بكر، وإو. والهيثم بن مالك، تابعي، فهذه علل ثلاث تقدر في صحة الحديث أو حسنه، وتقدم تخريجه.

(٣) والحديث أخرجه الطبري ٢٦٥٠٤ وإسناده حسن، رجاله ثقات، وورد بنحوه من وجه آخر عنه، أخرجه الطبري ٢٦٥١٠ و٢٦٥١١ ورجالهم ثقات.

(٤) هذا مرسل، أبو فاخنة، هو سعيد بن جلافة: تابعي ثقة، وأصله شواهد.

(٥) تقدم تخريج هذا الخبر في تفسير سورة مريم عند آية: ٥٩، والمرفوع ضعيف.

بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله - ﷺ - بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررأ من قصة الذي قتل مئة رجل ثم تاب، وقيل منه^(١). وغير ذلك من الأحاديث. وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، في معنى قوله: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، قولان:

أحدهما: بَدَّلُوا مَكَانَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فَرَغِبَ اللَّهُ بِهِمْ عَنْ ذَلِكَ فَحَوَّلَهُمْ إِلَى الْحَسَنَاتِ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات، ورَوَى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان يُشِيدُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ:

بَدَّلْنَ بَغْدَ جِرَّةٍ صَرِيْفًا وَيَغْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيْفًا
يعني: تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ إِلَى غَيْرِهَا. وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يَبْدِلُهُ اللَّهُ بِهَا خَيْرًا. وقال سعيد بن جبیر: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السَّيِّئِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاماً. وهذا قول أبي العالية، وقادة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا أنه كلما تَذَكَّرَ مَا مَضَى نَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَاسْتَغْفَرَ، فَيَنْقَلِبُ الذَّنْبُ طَاعَةً بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ وَجَدَهُ مَكْتُوباً عَلَيْهِ لَكِنِ لَا يُضْرَهُ وَيَنْقَلِبُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَتِهِ، كما ثبتت السنة بذلك، وصححت به الآثار المروية عن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى. وهذا سياق الحديث:

[٥٠٢٨] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: - إنني لأعرف أجزأ أهل النار خروجا من النار، وأجزأ أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يُؤْتَى بِرَجُلٍ، فيقول: نُحُوا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا. قال: فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا - فَيَقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فيقول: يَا رَبِّ، عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا! قال: فَصَحِّحْكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى بَدَّتْ نَوَاجِذُهُ^(٢). وانفرد به مسلم.

[٥٠٢٩] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن يزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَمُ بْنُ زُرْعَةَ، عَنْ شَرِيحِ بْنِ عَبِيدٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا نَامَ ابْنُ آدَمَ قَالَ الْمَلَكُ لِلشَّيْطَانِ: اعْطِنِي صَحِيفَتَكَ. فَيُعْطِيهِ إِيَّاهَا، فَمَا وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ مِنْ حَسَنَةٍ مَحَا بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مِنْ صَحِيفَةِ الشَّيْطَانِ، وَكَتَبَهُنَّ حَسَنَاتٍ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْبِرْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، وَيَحْمَدُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، فَتَلْكَ مِثْلُ مِثْلٍ^(٣)».

(١) تقدم، وهو في الصحيحين.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٠ والترمذي ٢٥٩٦ وأحمد ١٧٠/٥ وابن حبان ٧٣٧٥.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ٣٤٥١، فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٣٦. وله علة ثانية، وهي الإرسال بين شريح وأبي مالك الأشعري، راجع «تهذيب التهذيب» ٢٨٩/٤.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة وعارمٌ قالا: حدثنا ثابت - يعني ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يُعطى رجلٌ يومَ القيامةِ صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نَظَرَ في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بُدلت حسنات. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سُلَيْمان بن موسى الزُهريُّ أبو داؤد، حدثنا أبو العنيس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لَيَأْتِيَنَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - بأناسٍ يومَ القيامةِ رأوا [لوا] أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: مَنْ هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يُبدل اللهُ سيئاتهم حسنات.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو حمزة، عن أبي الضيف - وكان من أصحابِ مُعاذِ بنِ جبَلٍ - قال: يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على أربعةِ أصنافٍ: المتقين، ثم الشاكرين ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لم سُموا أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم عملوا بالחסنات والسيئات، فأعطوا كتبهم بأيمانهم، فقرأوا سيئاتهم حزفاً حزفاً، قالوا: يا ربنا، هذه سيئاتنا، فإين حسناتنا؟ فعند ذلك محا اللهُ السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٩]، فهم أكثر أهل الجنة. وقال علي بن الحسين زين العابدين: ﴿يَبْدُلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، قال: في الآخرة. وقال مكحولٌ: يَغْفِرُهَا لَهُمْ فَيَجْعَلُهَا حَسَنَاتٍ. رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، مِثْلَهُ.

[٥٠٣٠] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جابر، أنه سمع مكحولاً يحدث قال: جاء شيخٌ كبيرٌ هرمٌ قد سقطت حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجلٌ عُذِرَ وفُجِرَ، لم يدع حاجةً ولا داجةً إلا اقتطعها يمينه، لو قُسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقَتْهُمْ، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله - ﷺ -: أسلمت؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله. فقال النبي - ﷺ -: فإن الله غافرٌ لك ما كنتَ كذلك، ومُبدلٌ سيئاتك حسنات. فقال: يا رسول الله، وعُدْرَاتِي وفَجْرَاتِي؟ فقال: وعُدْرَاتِكَ وفَجْرَاتِكَ. فَوَلَّى الرَّجُلُ يُكْبِرُ وَيَهْلُلُ^(١).

[٥٠٣١] وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُغْيِرَةِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي طَوِيلٍ - شَطْبٍ - أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَتْرِكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً. فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أَسْلَمْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَافْعَلِ الْخَيْرَاتِ، وَاتْرِكِ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهَا. قَالَ: وَعُدْرَاتِي وَفَجْرَاتِي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا زَالَ يَكْبُرُ حَتَّى تَوَارَى^(٢).

[٥٠٣٢] وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي فَرُوقِ الرَّهَاقِيِّ، عَنْ يَاسِينَ الزِّيَاتِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ الْجَنْصِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ جَابِرٍ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ مَرْفُوعاً^(٣).

(١) هذا مرسل، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه البزار ٣٢٤٤ والطبراني ٧٢٣٥ من حديث أبي طویل، واسمه «شطب المدود» وإسناده قوي. قال الهيثمي في المجمع ١٧٥٣٨: رجال البزار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون، وهو ثقة. وقال الحافظ في «الإصابة» ١٥٢/٢: هو على شرط الصحيح اهـ وله طرق أخرى ومنها المتقدم. وانظر «المجمع» ٧٥ و٧٧ و٧٨.

(٣) فيه ياسين الزيات، منهم، والحجة بالحديث المتقدم.

[٥٠٣٣] وقال ^(١) أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان، عن فُلَيْحِ الشَّامِ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ ^(٢)، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: جاءني امرأة فقالت: هل لي من توبة؟ إني زني وولدت وقلت. فقلت: لا، ولا نعت العين ولا كرامة. فقامت وهي تدعو بالحسرة. ثم صليت مع النبي - ﷺ - الصبح، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها، فقال رسول الله - ﷺ -: «بئسما قلت! أما كنت تقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٣)، فقرأتها عليها، فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً ^(٤). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله من لا يعرف، والله أعلم. وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الجزامي بسنده بنحوه، وعنده: «فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتنا! أخلق هذا الحسن للنار؟». وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله - ﷺ - تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته، فأخبرها بما قال له رسول الله - ﷺ - فخرت ساجدة وقالت: «الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت». واعتقت جارية كانت معها وابتنها، وتابت إلى الله عز وجل.

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأن من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان، جليل أو حقير، كبير أو صغير، فقال: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ^(٥)، أي: فإن الله يتقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ سُوءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٦) [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٧) [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٨) [الزمر: ٥٣]، أي: لمن تاب إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ^(٩) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِيَانًا ^(١٠) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَرْوَاحِنَا وَذَرِنَا فِرَّةَ أَعْيُنِمْ وَأَجْمَعْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ^(١١) ﴿

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللهو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمد بن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك، عن الزهري: شرب الخمر، لا يحضرونه، ولا يرعبون فيه.

- (١) كذا وقع في سائر النسخ، وظاهره أن فاعل قال هو الإمام الطبراني، وليس كذلك فإن فاعل قال هو الإمام ابن أبي حاتم. لأنه هو الوحيد من المفسرين الذي يروي عن أبي زرعة، ثم إن الطبراني، لم يدرك أباً زرعة، فتنبه، والله الموفق.
- (٢) في الأصول: «عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس»، والثبت عن الطبري والميزان.
- (٣) باطل. أخرجه الطبري ٢٦٥١٥ مطولاً، بهذا الإسناد، وذكره الذهبي في الميزان ٦٥٧٢ في ترجمة عيسى بن شعيب بن ثوبان المدني، وقال: لا يعرف. ثم ذكر هذا الحديث، وقال: وهذا خير موضوع اهد.

[٥٠٣٤] كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»^(١). وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب مُتَعَمِّدًا على غيره.

[٥٠٣٥] كما ثبت في الصحيحين عن أبي بكرة، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين. وكان مُتَكَيِّفًا فَجَلَسَ، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سَكَتَ»^(٢). والأظهر من السياق أن المراد: لا يَشْهَدُونَ الزور، أي: لا يحضرونه، ولهذا قال: ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مُرورهم به مَرُّوا ولم يَتَدَنُّوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

[٥٠٣٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العُكْلِيُّ، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مرَّ ببلهو فلم يقف، فقال رسول الله - ﷺ - «لقد أصبح ابنُ مسعود! أو أمسى - كريمة»^(٣).

[٥٠٣٧] وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا حبان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن مسلم، أخبرني ابن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مر ببلهو مُعْرَضًا فلم يقف، فقال رسول الله - ﷺ -: «لقد أصبح ابن مسعود - أو أمسى - كريمة»، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَلِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، هذه من صفات المؤمنين، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الأنفال: ٢٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سَمِعَ كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصِر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كُفْرِهِ وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٥) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. فقولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: بخلاف الكافر الذي ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فاستمرَّ على خَالِهِ كَان لَمْ يَسْمَعْهَا أَصَمُّ أَعْمَى.

قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. لم يسمَعُوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخُرُّ عليها أصمُّ أعمى. وقال قتادة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، يقول: لم يَصْمُوا عن الحق ولم يَغْمُوا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سَمِعُوا من كتابه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُمران، حدثنا ابن عَوْن قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يَرَى القوم سَجُوداً ولم يَسْمَعْ ما سَجَدُوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. يعني: أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره، ويقين واضح بين.

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٤٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٥٤٧ وهذا مرسل.

(٤) ضعيف. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٤٨/٥ وعزاه لابن أبي حاتم وابن عساکر، وهو ضعيف لكونه مرسلًا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فَنَقَرُ به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يُريدوا بذلك صَبَاحَةَ ولا جَمَالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصري - وسئل عن هذه الآية - فقال: أن يري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله. لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يري ولداً، أو ولدَ وُلْدٍ، أو أختاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل. وقال ابن جريج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، قال: يعبدونك ويحسبون عبادتك، ولا يجزؤون علينا الجزائر. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: يعني يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

[٥٠٣٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يغمز بن بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جَلَسْنَا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! لوِودْنَا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً ثم أقبل إليه فقال: ما يحيل الرجل على أن يتمنى مخضراً غيَّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حَضَرَ رسول الله ﷺ - أقواماً أكْبَهُم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدّقوه، أو لا تحمدون الله إذا أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مُصَدِّقِينَ لما جاء به نبيكم، قد كُفِيتم البلاء بغيركم؟ لقد بَعَثَ اللهُ النبي - ﷺ - على أشدِّ حالٍ بَعَثَ عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بفرقانٍ فَرَّقَ به بين الحقِّ والباطل، وفَرَّقَ بين الوالدِ وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده، أو أخاه كافراً، وقد فتح اللهُ قُلُوبَ قَلْبِهِ للإيمان، يعلم أنه إن هلك دَخَلَ النار، فلا تَقْرُ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإِنها التي قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾^(١). وهذا إسناد صحيح، ولم يُخرِجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس: أئمة يُقتدى بنا في الخير. وقال غيرهم: هداة مُهْدِيِينَ ودعاة إلى الخير. فأحبوا أن تكون عبادتهم مُتَّصِلَةً بعبادة أولادهم وذرائعهم، وأن يكون هُدَاهُمْ متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً.

[٥٠٣٩] ولهذا ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ -: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولِدٌ صالح يدعو له، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ به من بعده، أو صدقةٌ جارية^(٢).

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلِلْقَوْمِ فِيهَا فِيحٌ كَثِيرٌ﴾ (٧٥) خَلِيدِينَ فِيهَا حَسَنَاتٍ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾، أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾، وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والسدي: سُمِّيت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على القيام بذلك، ﴿وَلِلْقَوْمِ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿فِيحٌ كَثِيرٌ﴾، أي: يُبْتَدَرُونَ فيها

(١) أخرجه أحد ٣/٦ وإسناده صحيح كما ذكر ابن كثير.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٨.

بالتحية والإكرام. وَيُلْقُونَ التَّوْقِيرَ وَالاحْتِرَامَ، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَأْتٍ﴾ ﴿٧٥﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٧٦﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾، أي: مُقِيمِينَ، لا يظعنون ولا يحولون، ولا يَمُوتُونَ، ولا يَزُولُونَ عنها ولا يبتغون عنها حِوَلًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ﴾ ﴿٧٧﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، أي: حَسُنَتْ مَنْظَرًا وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي﴾، أي: لا يُبَالِي ولا يَكْتَرِبُ بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خَلَقَ الخَلْقَ ليعبُدوه وَيُؤَخِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بِكْرَةً وَأَصِيلًا. وقال مجاهد، وعمر بن شعيب: ﴿مَا يَعْجَبُكُمْ رَبِّي﴾، يقول: ما يفعل بكم رَبِّي. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: أيها الكافرون، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مُقْتَضِيًا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة. ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القُرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.

آخر تفسير سورة الفرقان، والله الحمد والمنة



وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المروزي عنه تسميتها: سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَلَسَتْ ۙ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ۙ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ۙ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٣﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَبَّرُوا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۙ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البين الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغبي والرشاد. وقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ ۙ﴾، أي: مهلكك ﴿نَفْسَكَ﴾، أي: مما تحرص وتحزن عليهم، ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: وهذه تسليية من الله لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا كَذَبُوا نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الكهف: ٦]. قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿فَلَمَّا كَذَبُوا نَفْسَكَ﴾، أي: قاتل نفسك، قال الشاعر:

أَلَا أَيُّهَا الْبَاغِ الْخُزْنَ نَفْسَهُ لِيَشِيءَ نَحْسَهُ عَنِ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ۙ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٣﴾﴾، أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكننا لا نفعل ذلك، لانا لا نريد من أحدٍ إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً فَأَنَّ تَكْرَهُ النَّاسِ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلِيفِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حُجته البالغة على خلقه، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَبَّرُوا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْوَيْسَاءِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [يس: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا مِنْهُمُ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آيَاتٍ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤]. ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾، أي: فقد كذبوا بما جاءهم

من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، ﴿وَسِعَعَزَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر. الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

قال سفيان الثوري، عن رجل، عن الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أوامره وارتكبوا زواجره. وقوله: ﴿وَلِئَلَّ رَبُّكَ لَهَرَّ الْعَزِيزُ﴾، أي: الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الْعَزِيزُ﴾، أي: يخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل ينظره ويؤجله، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن إسحاق: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿الْعَزِيزُ﴾ بمن تاب إليه وأناب.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَخِيبُونِ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأُرْسِلُ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَكَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِعَائِبِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعْمُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِثْنَا فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَبَّ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - صلوات الله وسلامه عليه - حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَخِيبُونِ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأُرْسِلُ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَكَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ هذه أعداء سال من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي صَدْرِي مُنْفَرَجًا ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاجْعَلْ لِي زُرًى مِنْ أَهْلِي ﴿٢٧﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي زُرًى مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٠﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣١﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٣﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٤﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٥﴾ وَاجْعَلْ لِي رِزْقًا مِنْ أَمْرِي ﴿٣٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر: ﴿قَالَ كَلَّا﴾، أي: قال الله تعالى له: لا تخف من شيء من ذلك، كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا﴾، أي: برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَن نَشَاءَ وَمِنْ أَنْتُمْ مَنِ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. ﴿فَادْهَبْ بِعَائِبِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعْمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، أي: إني معكم بحفظي وكلامتي ونصري وتأبيدي. ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، أي: كل منا رسول من ربك إليك، ﴿أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾، أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وجزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك عرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر

بعين الإزدراء والغمص فقال: ﴿أَلَمْ تَرْوِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٢٣) ﴿وَقَعَلْتَ لَعْنَتَكَ عَلَيَّ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)، أي: أما أنت الذي ربيناها فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا وعَدِينَاهَا، وأنعمنا عليه مُدَّة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً، ووجدت نعمتنا عليك! ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: الجاحدين، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. ﴿قَالَ فَلَمَّا إِذَا﴾، أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالِينَ﴾، أي: قبل أن يوحى إليّ ويُنعِمَ اللهُ عليّ بالرسالة والثبوة.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْعَالِينَ﴾، أي: الجاهلين. قال ابن جريج: وهو كذلك في قرآءة عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه. ﴿فَقَرَّرْتُ بَيْنَكُمْ لَمَّا خَفَضْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَحَمَلَنِي مِنَ الْمَرْسَلِينَ﴾ (٢٥) أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطيبت. ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ بِنْتُ تَمَّارَ عَلَىٰ أَنْ بَعَدَتْ بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٦)، أي: وما أحسنت إليّ ورَبَّيْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَاتَ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ! فجعلتهم عبيداً وخدماءً، تُصَرِّفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ، أَقْبِيهِ إِحْسَانُكَ إِلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَاتَ إِلَىٰ مَجْمُوعِهِمْ؟! أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَيْسَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنُونٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كُفْرِ فِرْعَوْنَ، وتعمُّده، وطغيانه وجُحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]، و﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يَجْحَدُونَ الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فِرْعَوْنَ. فلما قال موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟! هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السُّدِّي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُتَوَقَّانِ﴾ (٤١) قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا كُلُّ نَجْوَى خَلَقْنَاهُ هَدًى ﴿٥٠﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن ماهيته، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب والشوابع والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجوى، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فِرْعَوْنُ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَأَتِهِ وَرُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ قَائِلاً لَهُمْ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾، أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فِرْعَوْنَ وزمانيه، ﴿قَالَ﴾، أي: فرعون لقومه: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَيْسَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنُونٍ﴾، أي: ليس له عقل في دعواه أن تم ربناً

غيري. ﴿قَالَ﴾، أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُقَلِّدِينَ﴾، أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم والهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿الَّذِي خَلَقَ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ هَاتَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُبَيِّتُ قَالَ أَأَنَا أُخْبَرُ وَأَنْتَ تُقَالُ إِبْرَاهِيمُ فَأَنَّكَ اللَّهُ بَأْتَى بِالْحَمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى - عليه السلام - فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذْتِ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٥) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) ﴿وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧)

لما قامت على فزعون الحجة بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لِيْنِ أَخَذْتِ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، أي: ببرهان قاطع واضح، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾، أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿وَرَزَقَ يَدَهُ﴾، أي: من جيبه، ﴿فَأِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾، أي: تتلألا كقطعة من القمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعدا، ف ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)، أي: فاضل بارع في السحر. فزوج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرّضهم على مخالفته والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥)، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعدائه وأنصاره واتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأثيبروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧)، أي: أخره وأخاه حتى تجتمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحر عليهم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصر والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقْبِتَ يَوْمَ مَمْلُوءٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَعَلَّآ نَنْبِئُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالُوا لِيَزْعُورَنَّ إِنَّا لَأَنبِرُا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِيَنَّ الْمَقْرِبِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَلْقَوْا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّتِ فرعون إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَالِئِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨)

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقيبط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه» وفي هذه السورة، وذلك أن القَيْبَطَ أرادوا أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فأبى الله إلا أن يُتِمَّ نُورَهُ ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تَوَاجَهَا وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ يَوْمَ نُصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ولهذا لما جاء السحرة، وقد جَمَعُوهُمْ من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحرَ الناس وأصنَعَهُمْ وأشدَّهُمْ تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وجمّاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً. وقيل: تسعة عشر ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً^(١). وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم. قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم، وهم: ساتور وعازور وحطيط ويصفي. وحشد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَمَلْنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [١٨]، ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم. ﴿لَمَلْنَا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾. أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً. وجمع حشمة وخدمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته. فقام السحرة بين يدي فرعون، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جَمَعْتَنَا من أجله. فقالوا: ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا هُنَّ الْغَالِبِينَ﴾ [١٨] قَالَ نَمَّ وَلَكُمْ إِنْ لَيْسَ الْمَقْرُونِ، أي: وأخض مما تطلبون، أجعلكم من المقرين عندي وجلسائي. فعداؤا إلى مقام المناظرة، ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِيَّاهُ أَنْ تَلْقَى وَلَمَّا أَنْ تَكُونَ أَوْلَىٰ مِنَ الْآلِ﴾ [١٩] قَالَ بَلْ أَلْقُوا [٢٥]، وقد اختصر هذا ما هنا. فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [٢٥] قَالُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَقَالُوا يَعْزُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ، وهذا كما يقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في «سورة الأعراف»: أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَوْنَهُمْ وَجَاءَهُم بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [١٦]، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ سِحْرَهُمْ أَنَّهَا تَسْمَىٰ﴾ [١٦] فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤْمِنٍ [١٧] قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ [١٨] وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُلْبِحُ إِلَّا السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْقَضَ. وقال ما هنا: ﴿فَالَّذِي مُؤْمِنٌ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾ [٤٥]، أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبليعه فلم تدع منه شيئاً، قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ﴾ [١٨] فَخَلَبُوا هُمَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَافِرِينَ [١٩] وَالَّذِي السَّحَرَةَ سَجِدِينَ [٢٥] قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَالِكِينَ [٢٧] رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ [٢٧] [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]. وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعدو وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا قد غلبوا وخضعوا وأمثوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً - عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - فعدل إلى المكابرة والعيناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿إِنَّهُ لَكِبْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُفْرٌ كَرِهْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ أَنْ آدَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَأَصْلَبَنِيكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٩] قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ وَإِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥١]

تَهْدَهُمْ فَلَـمْ يَقْطَعْ ذَـلِكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. وَذَـلِكَ أَنَّهُ قَدِ كُشِفَ عَن قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكُفْرِ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصْدُرُ عَن بَشَرٍ، إِلَّا أَن يَكُونَ اللَّهُ قَدِ أَيَّدَهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ. وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَأَمْسُرُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَأَدَّكُمْ لَكُمْ؟﴾، أَي: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ، وَلَا تَفْتَأْتُوا عَلَيَّ فِي ذَـلِكَ، فَإِنِ أَدْنَتْ لَكُمْ فَعَلْتُمْ، وَإِنِ مَنَعْتُمْ مَنَعْتُمْ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمَطَاعُ، ﴿إِنَّكُمْ لَكَبِيرٌمُ الَّذِينَ عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وَهَذِهِ مَكَابِرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بَطْلَانَهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَـلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرَهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ!؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ. ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصُّلْبِ، فَقَالُوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أَي: لَا حَرْجَ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَـلِكَ وَلَا نُبَالِي بِهِ ﴿إِنَّا لَنَكُونُ مُنْقَلِبِينَ﴾، أَي: الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَهُوَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ بِنَا، وَسَيَجْزِينَا عَلَى ذَـلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءَ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾، أَي: مَا قَارَفْنَا مِنْ الذُّنُوبِ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: بِسَبَبِ أَنَا بَادِرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقَيْطِ إِلَى الْإِيمَانِ، فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَمْرِ بِبِئْرٍ بِإِذْنِ رَبِّكَ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

لَمَّا طَالَ مَقَامُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِبِلَادِ مِصْرَ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَّجَ اللَّهُ وَبِرَاهِمَتِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَـلِكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، فَأَمَرَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ، فَفَعَلَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَمَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا، وَكَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ فِيمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسُرِينَ وَقَتَّ طُلُوعِ الْقَمَرِ. وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ كَيْفَ الْقَمَرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَأَلَ عَنِ قَبْرِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَلَّتْهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ، فَاحْتَمَلَ تَابُوتَهُ مَعَهُمْ، وَيَقَالُ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ أَوْصَى بِذَـلِكَ إِذَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ.

[٥٠٤٠] وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَـلِكَ حَدِيثٌ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِأَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: تَعَاهَدْنَا. فَاتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: نَاقَةٌ بَرَحَلُهَا وَأَعْتَرُ يَحْتَلِبُهَا أَهْلِي، فَقَالَ: أَعْجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَقَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَحْنُ نَحْدُثُكَ أَنَّ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ تَابُوتَهُ مَعَنَا. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: فَأَيُّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْرِ يَوْسُفَ؟ قَالُوا: مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: دُلِّيْنِي عَلَى قَبْرِ يَوْسُفَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي. قَالَ لَهَا: وَمَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ. فَكَانَ ثَقُلَ عَلَيْهِ ذَـلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: أَعْطَاهَا حُكْمَهَا. قَالَ: فَانطَلَقَتْ مَعَهُمْ إِلَى بَحِيرَةٍ - مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ - فَقَالَ لَهُمْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ. فَلَمَّا أَنْضَبُوهُ قَالَتْ: احْتَفِرُوا. فَلَمَّا احْتَفَرُوا اسْتَخْرَجُوا قَبْرَ

يوسف . فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار^(١) . هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم . فلما أصبحوا وليس في ناديبهم ذاع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل ، لما يريد الله به من الدمار . فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي : من يحشر الجند ويجمعه كالقناب والحجاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ - يعني : بني إسرائيل - ﴿ لَيْزِمَةٌ قَالُونَ ﴾ ، أي : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِبُونَ ﴾ ، أي : كل وقت يصل إلينا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ ، أي : نحن كل وقت نحدو من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف «وإذا الجميع حذرون» أي مستعدون بالسلاح ، وإني أريد أن أستأصل شأقتهم ، وأبىد خضراءهم . فمُجِزِي في نفسه وجنوده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَابِرَ كَثِيرٍ ﴾ ، أي : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ، ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَسْجِدَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكُنْتُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَتَعَبَقُونَ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانُوا بِمَشْهُورَتِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَزَيْدٌ أَنْ تَضَعَ عَلَىٰ الذِّكْرِ اسْتَضْمِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ أُيُوتًا وَنَسُوا آلَ الْأَرْضِ وَكُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَبِنًا وَمَنْ يَتَذَكَّرْ فَإِنَّهُ لَهُ مَرْجُومٌ ﴾ [القصص: ٥ - ٦] .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي ﴾ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَتْلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ وَأَرْسَلْنَا نَوْمَ الْأَخْرِينَ ﴾ ﴿ وَأَجْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَلْعِزُّ الرَّحِيمُ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولي الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فاما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج في ألف وستمئة ألف فارس ، منها مئة ألف على خيل دهم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمئة ألف حصان آدمهم ، ففي ذلك نظر . والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذي أخبر به القرآن هو النافع ، ولم يُعِين عدتهم ، إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم . ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ ، أي : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها . ﴿ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ ﴾ ، أي : رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿ قَالَ اصْحَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ ، وذلك أنهم انتهوا بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلماذا قالوا :

(١) الراجح وقفه . أخرجه أبو يعلى ٧٢٥٤ وابن حبان ٧٢٣ والحاكم ٤٠٤/٢ - ٤٠٥ - ٥٧١ - ٥٧٢ وقال : صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، وفي ذلك نظر ، فإن مداره على يونس بن أبي إسحق السبيعي ، وهو من رجال مسلم ، ولم يرو عنه البخاري في صحيحه ، وإنما روى له في جزء «القراءة خلف الإمام» ومع ذلك فقد ضعفه غير واحد . جاء في «الميزان» ٩٩١٤ : قال ابن مهدي : لم يكن به بأس . وقال أبو حاتم : صدوق ، لا يحتج به . وقال ابن خراش : لين ، وقال ابن حزم في «المحل» ضعفه يحيى القطان وأحمد . قال الذهبي : قلت : هو صدوق ، ما هو في قوة شعبة ومسعر ، قال يحيى بن سعيد : كان فيه غفلة ، وقال أحمد : حديثه مضطرب . ووثقه أحمد في رواية اه باختصار وأعدل هذه الأقوال قول أبو حاتم : هو صدوق ، ولا يحتج به اه وقد تفرد بهذا الحديث الغريب جداً ، كما قال ابن كثير . والله أعلم .

﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَيِّ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾، أي: لا يصل إلَيْكُمْ شيءٌ مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يُخِلِفُ الميعادَ. وكان هارونُ - عليه السلام - في المقدمة، ومعه يوشعُ بن نونٍ، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ من المفسرين: أنهم وَقَفُوا لا يدرُونَ ما يصنَعُونَ، وجعل يوشعُ بن نونٍ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله، هاهنا أمرك ربك أن تسيير؟ فيقول: نعم. واقترب فرعونُ وجنوده، ولم يبق إلا القليلُ. فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحرَ، فَضْرِبَهُ وقال: انفلق بإذن الله. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوانُ بن صالح، حدثنا الوليد، عن محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام: أن موسى - عليه السلام - لما انتهى إلى البحر قال: يا مَنْ كان قَبْلَ كُلِّ شيءٍ والمُكُونُ لِكُلِّ شيءٍ، والكائن بعد كلِّ شيءٍ، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أن إذا ضَرَبْتُكَ موسى بعصاه فاسمعه له وأطع. فبات البحرُ تلك الليلة وله اضطراب، لا يندري من أي جانب يَضْرِبُهُ موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشعُ بن نونٍ: يا نبي الله، أين أمرك ربك؟ قال: أمرني ربي أن أضرب البحر. قال: فاضربه. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله، فيما ذكر لي، إلى البحر: أن إذا ضَرَبْتُكَ موسى بعصاه فانفلق له. قال: فبات البحر يضطرب، يضربُ بعضه بعضاً، فَرَقَا من الله تعالى، وانتظارا لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، فضربه بها، ففيها سلطانُ الله الذي أعطاه، فانفلق. وذكر غيرُ واحدٍ أنه كُتِبَ فقال: انفلق عليّ أبا خالد بإذن الله. قال الله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل الكبير. قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقاتدة، وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفجُ بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبيلٍ طريقٌ. وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلِهِ كالحيطان، وبعث الله الريحَ على قعر البحر فلَفَحَتْه، فصار يَبْسُأ كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبْسًا لَا تَغْنَفُ دَرَكًا وَلَا تَغْنَفُ﴾ [طه: ٧٧]. وقال في هذه القصة: ﴿وَأَرْسَلْنَا قُرَيْشًا مِّنْ آلِ الْفَجْرِ﴾ (٦٢)، أي: هناك الآخرين. قال ابن عباس، وعطاء الخراساني، وقاتدة، والسدي، ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾، أي: قَرَّبْنَا فرعونَ وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه. ﴿وَأَجَبْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٣) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم نُهْلِكْ منهم أحداً، وأغرق فرعونَ وجنوده فلم يبقَ منهم رجلٌ إلا هَلَكَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا شبابة، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، هو ابن مسعود - رضي الله عنه - أن موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعونَ ذلك، فأمر بشاة فذُبِحَتْ، ثم قال: لا، والله لا يُفْرَغُ مِن سُلْخِهَا حتى يجتمع إليّ ستمئة ألف من القبط. فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرق. فقال البحر: لقد استكبرت يا موسى، وهل فرقت لأحد من بني آدم فأفرقت لك؟! قال: ومع موسى رجلٌ على حصانٍ له، فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، هذا البحر. فأقحم فرسه فسَبَحَ به فخرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت. ثم اقحم الثانية فسَبَحَ، ثم خرج، ثم قال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت. قال: فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحرَ، فضربه موسى بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبيلٍ طريق يتراءون، فلما خَرَجَ أصحابُ موسى وتَتَمَّ أصحابُ فرعونَ، التقى البحر عليهم فأغرقهم. وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: فلما خَرَجَ آخرُ

أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، اضطم عليهم البحر، فما رُئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي: في هذه القصة وما فيها من المعائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَيْكَ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، تقدم تفسيره.

﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيبِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ يَبْهَتُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَيْبِتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّمَّ عُدُوٌّ فِي الْإِلَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم عليه السلام إمام الختفاء، أمر الله رسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتلوه على أمته، ليقنتوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رُشدَه من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله - عز وجل - فقال ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيبِينَ﴾ ﴿٧٦﴾، أي: مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ أَوْ يَبْهَتُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾، يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك. وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَيْبِتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّمَّ عُدُوٌّ فِي الْإِلَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾، أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا آمَنَتَكُمْ وَشِرْكَاكُمْ إِنَّكُمْ إِتْرِكُمْ عَلَيَّكُمْ عُنَّةً ثُمَّ آقِصُوا إِلَيَّ وَلَا تُظْهِرُوا﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآبَاءَهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جِيْعًا ثُمَّ لَا تُظْهِرُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِبِصَابِئِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، وقال: ﴿وَكَيْفَ آخَأْتُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرِهْنَا لَكُمْ ذَلِكَ وَسَيَكُنُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأءٌ مِمَّا تُصَلُّونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٧٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، يعني لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجْزِيهِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾، أي: هو الخالق الذي قدر قدرأ، وقدى الخلاق إليه، فكل يجري على قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿٧٩﴾، أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق

المُزْنِ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذبا زلالاً ﴿وَتَشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٣)، أسند الممرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا، كما قال تعالى أمراً للمصلي أن يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ فأسند الإنعام والهداية إلى الله سبحانه وتعالى، والغضب خذف فاعله أدبا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أُنْثَىٰ أَوْ مَذْكَرٌ مَّا خَلَقْنَا وَأَنَّا لَا بَدَأُ شَيْءًا إِلَّا إِذْ يَسُورُ﴾ (١٠)، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٤)، أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه. ﴿وَالَّذِي يُسْتَشَىٰ تُمَتِّعُنَا لِيَوْمٍ يُعَيِّنُ﴾ (٨٥)، أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبيد ويبعث، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٦)، أي: هو الذي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، فهو الفاعل لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)

وهذا سؤال من إبراهيم - عليه السلام - أن يؤتبه ربه حكماً. قال ابن عباس: وهو العلم. وقال عكرمة هو اللب. وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة. وقوله: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة.

[٥٠٤١] كما قال النبي - ﷺ - عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» (١). قالها ثلاثاً.

[٥٠٤٢] وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحيئنا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبذلين» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتهدي بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٨) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿[الصفات: ١٠٨ - ١١٠]. قال مجاهد، وقناة: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤)، يعني الشفاء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أُجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنكوت: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنًا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٩٣) [النحل: ١٢٢]. قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تُحبّه وتتولاه. وكذا قال عكرمة. وقوله: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥)، أي: أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم. وقوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوَدَّةٍ وَعَدَّهَا إِثْمًا فَلَمَّا بُنِنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ١٠١.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٤/٣، وسيأتي في سورة الحجرات، عند تفسير الآية: ٧.

حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴿التوبة: ١١٤﴾. وقد قَطَعَ تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ وَإِنَّا بِبَنَاتِنَا لَشَاقِصَاتٌ لِّمَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَقَدْ قُتِلُوا إِنَّمَا تَقَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا كُفْرُ أَهْلِهَا عِندَ اللَّهِ بِشَيْءٍ وَكَانَ اللَّهُ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَلِيعًا ﴿١١٥﴾﴾. [المستحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: أجرتني من الخزي يوم القيامة وبغث الخلائق أولهم وآخرهم.

[٥٠٤٣] قال البخاري في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٥﴾: قال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والقفرة^(١).

[٥٠٤٤] وفي رواية أخرى: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - قال: يلقي إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين^(٢). هكذا رواه عند هذه الآية.

[٥٠٤٥] وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: يلقي إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قفرة وعبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون، فأني جزني أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يُقال: يا إبراهيم، ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(٣).

[٥٠٤٦] وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٥﴾: أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه العبرة والقفرة، قال له: قد نهيتك عن هذا فعصيتني. قال: لَكِنِّي اليوم لا أعصيك واحدة. قال: يا رب، وعدتني ألا تخزني يوم يُبعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد. قال: يا إبراهيم، إني حرمتها على الكافرين. فأخذ منه، قال: يا إبراهيم، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني. قال: انظر أسفل منك. فنظر فإذا ذبيح يتمرغ في نثته، فأخذ بقوائمه فألقى في النار^(٤). هذا سياق غريب، وفيه نكارة. والذبيح: هو الذكور من الضباع، كأنه حوّل أزر إلى صورة ذبيح متلطخ بعذرتيه، فيلقى في النار كذلك.

[٥٠٤٧] وقد رواه البرزاني من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - وفيه غرابة^(٥).

[٥٠٤٨] ورواه أيضاً من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد الغفار، عن أبي سعيد، عن النبي - ﷺ - بنحوه^(٦).

(١) ذكره البخاري تعليقاً ٤٧٦٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٠.

(٤) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٩٥ واستغربه المصنف على أن في بعض ألفاظه نكارة مع أنه ورد عند البخاري بهذا السياق، وانظر المتقدم برقم ٥٠٤٥.

(٥) حماد من رجال مسلم ومن فوقه رجال الشيخين.

(٦) جعفر لم أجد له ترجمة، ويغني عنه ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، أي: لا يبقِي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾، أي: ولو افتدى بمن في الأرض جميعاً، ولا ينفَع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبرُّي من الشرك وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَىَ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)، أي: سالم من الدنس والشرك. قال مُحَمَّد بن سبيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَىَ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)، يعني: يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيَّب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) وَقِيلَ لِمَنْ أَتَى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَغْنَمُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَوْنِيكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، أي: قُرِبَت الجنة وأُديت من أهلها يوم القيامة مزخرفةً مزينةً لتأظرها، وهم المتقون الذين رَغِبُوا فيها على ما في الدنيا، وعَمِلُوا لها في الدنيا. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١)، أي: أظهرت وكشفت عنها، وبَدَتْ منها عُنُقٌ فَرَّقَتْ زَفْرَةً بَلَّغَتْ منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَغْنَمُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ؟ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دُونِ اللَّهِ، من تلك الأصنام والأنداد تُغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصَبٌ جهنم أنتم لها واردون. وقوله: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (٩٤)، قال مجاهد: يعني قَدَّهَرُوا فيها. وقال غيره: كَبَّبُوا فيها والكاف مَكْرَرَةٌ، كما يقال: صَرَصَرَ. والمراد أنه أُلْقِيَ بعضهم على بعض، من الكُفَّار وقادتهم الذين دَعَوْهم إلى الشرك، ﴿وَخُودٌ إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٥)، أي: أَلْقُوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَوْنِيكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾، أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾. ويقولون وقد عَادُوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سَأَوْنِيكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾، أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَجْرِمُونَ﴾ (٩٩) أي: ما دَعَانَا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠)، قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ يَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ عِزًّا أَلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الاعراف: ٥٣]. وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠١) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾، أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون - الله - أن الصديق إذا كان صالحاً نَفَعَ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شَفَعَ. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم يَتَمَنُونَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو رَدَّهُم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاضع أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصَدُكُمْ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية

ودلالة واضحة جليلة على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءِمِرٌّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾

هذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعث إلى أهل الأرض بعد ما عُبِدَت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومُحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفِعالِ الخبيثة في عبادتهم أصنامهم. ونزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرُّسل، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾، أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾، فقد وضح لكم وبأن صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به واتممتني عليه.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي

لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

يقولون: أتؤمن لك وتتبعك، وتتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين أتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا؟! ولهذا قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾، أي: وأي شيء يلزمني من أتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التتقيب عنه والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله - عز وجل - ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، وما أنا بطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني وأتبعني وصدقني كان مني وكنث منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَرْتَنَّهُ يَشْخُوحٌ لَنُكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَاقْنَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا

وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْبِئْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنْ

فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءِمِرٌّ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وجهاً وإساراً، وكلما كثر عليهم الدعوة صمّموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَيْنَ لَرْتَنَّهُ﴾، أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَنُكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، أي: لنرجمك. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَاقْنَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا وَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَمَّرْنَا رَبِّي أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ ﴿١٢٠﴾ فَفَنَحْنُ أَوْبَدُ السَّمَلَةِ يَمْلَوُ مِنْهُمْ ﴿١٢١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِ فُيِّرُ ﴿١٢٢﴾ وَحَمَلْتُهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ دُوسِرُ ﴿١٢٣﴾ فَبَرِّي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرُ ﴿١٢٤﴾﴾ [الفرق: ١٠ - ١٤]، وقال هاهنا: ﴿فَأَجْبِئْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، والمشحون: هو المملوء بالأمعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين، أي: نجينا نوحاً ومن أتبعه كلهم، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم، ﴿إِنْ

فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٤﴾
 ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنِّي لَكَرُّ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 ﴿١٢٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ تَبْعُونَ ﴿١٣٠﴾
 وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣١﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٣﴾ وَأَتَّقُوا
 الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ ﴿١٣٥﴾ وَحَسَبْتَ وَعِيُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ ﴿١٣٧﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود - عليه السلام - : أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت، متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدائرة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسلاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم يقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ تَبْعُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، اختلف المفسرون في الريح بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، بينون هناك بناء محكماً باهراً هائلاً، ولهذا قال: ﴿أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ﴾، أي: معلماً بناء مشهوراً، ﴿تَبْعُونَ﴾، أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكروا عليهم نبيهم - عليه السلام - ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتباع للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣١﴾﴾، قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون». وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي: لكي تقيموا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمّن كان قبلكم.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحَكَمُ بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عَجَلَانَ، حدثني عَوْثُ بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطية من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق! فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تاكلون، وتبتون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون! قد كانت قبلكم قرون، يجمعون قيوغون، ويبتون قيوثقون، ويأملون قيوطيلون، فأصبح أملمهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، إلا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، من يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين!؟

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٢﴾﴾، وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٣﴾﴾، أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ ﴿١٣٥﴾ وَحَسَبْتَ وَعِيُونَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: ائذني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿١٣٧﴾﴾، أي: كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصَلْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له . بعد ما حذرهم وأنذرهم ، وزعجهم وزعجهم ، وبين لهم الحق ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصَلْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ، أي : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [هود: ٥٣] . وهكذا الأمر ، فإن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَأْنَا الْمَدَابِغَ الْأَلْيَةَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] . وقوله : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ . قرأ بعضهم : «إن هذا إلا خلق الأولين» ، بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن مسعود ، والعمري عن عبد الله بن عباس ، وعَلَقَمَةُ ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا اختلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ شُكْلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥] ، وقال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ آبَائِهِمْ وَعَالِمَتِهِمْ قَوْمٌ مَا خَرُونَا فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَرُؤُوسًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٠] ، وقال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ لَكُمْ رُبُّكُمْ قَالُوا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤] . وقرأ آخرون : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ، بضم الخاء واللام ، يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد . ولهذا قالوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ . قال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ، يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

قال الله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ، أي : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله . وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أي : ريحاً شديدة الهبوب ، ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصَادِ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: ٦ - ٧] ، وهم عاد الأولى ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: ٥٠] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح «ذات العماد» ، أي : الذين كانوا يسكنون العمد . ومن زعم أن «إرم» مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال : ﴿أَلَمْ يَخْلُقْنَا وَإِنَّمَا آخِذُ الْيَلْدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٨] ، أي : لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التي لم يبن مثلها في البلاد ، وقال تعالى : ﴿فَأَنذَرْنَا عَادًا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَغَيَّرْنَا لَحِقَ وَفَالُوا مِنْ أَشَدِّ مِتًا قُوَّةً أَوْلَرُ بَرًا أَنَّ اللَّهَ الْغَيُّ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥] . وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن الله لها في ذلك ، وسلكت وحضبت بلادهم ، فصعبت كل شيء لهم كما قال تعالى : ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرَجَ إِلَّا سَنَكِهِمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكْنَا بِرِيحٍ مَسْرُومَةٍ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٧] ، أي : بقوا وقدينية آيات حسوماً ، أي : كاملة ، «فترب القوم فيها صرعن كأنهم أعجاز نخل خاوية» [الحاقة: ٦ - ٧] ، أي : بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف

والمغارات، وحَفَرُوا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يُغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءٍزُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٤٢﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٤٣﴾ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله صالح - عليه السلام - أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر، التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة. وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله - ﷺ - بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يتغني بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل. ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ ﴿١٤٨﴾ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَرِيرِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَالَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم بقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدائرة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبأ لهم من الجنات، وأنعم لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم من الزروع والثمار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: أئبع وبلع، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ﴾، يقول: مُغشبة. وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو، وقد أدرك الصحابة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ﴾، قال: إذا رطب واسترخى. رواه ابن أبي حاتم، قال: زوي عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ﴾، قال: هو المذئب من الرطب. وقال مجاهد: هو الذي إذا مس تهشم وتفتت وتناثر. وقال ابن جريج: سمعت عبد الكريم أبا أمية، سمعت مجاهداً يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْمَها هَضِيمٌ﴾، قال: حين يطلع تقبض عليه فتعضه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهشيم، تقبض عليه فتعضه. وقال عكرمة، وقناة: الهضيم: الرطب اللين. وقال الضحاك: إذا كثرت حمل النخلة المشمرة، وركب بعضه بعضاً، فهو هضيم. وقال مرة: هو الطلع حين يتفرق ويخضر. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: أما رأيت الطلع حين يتشقق عنه الكم، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَرِيرِينَ﴾، قال ابن عباس، وغير واحد: يعني حاذقين. وفي رواية عنه: شرمين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما، فإنهما كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقين لنحتها ونقشها،

كما هو المشاهد من حالهم لَمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ، ولهذا قال: ﴿تَأْتُوا اللَّهَ وَابْتَئُوا﴾ ١٥٣، أي: آقبِلوا على عَمَلٍ ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة، من عبادة رَبِّكُمْ الذي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ لَتَوْحُّدِهِ وَتَعْبُدُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بِكُرَّةٍ وَأَصْبِلًا، ﴿وَلَا تُطِعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥٤ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٥، يعني: رؤساءهم وَكُتَبَاءَهُمْ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٦ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٧ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ١٥٨ وَلَا تَسْؤَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ١٥٩ فَمَقَرُّوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٦٠ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٦١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى عبادة ربهم، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٦، قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: يعين من المخلوقين. واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر:

فإِنْ تَسَالَيْنَا: فِيمَ نَحْنُ؟ فإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ قَدَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ

يعني الذين لهم سحر، والسحر: هو الرثة. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك. ثم قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، يعني: فكيف أوجي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْكَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٥٤ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَلِيمِ ١٥٥ [القم: ٢٥ - ٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه وقد اجتمع ملؤهم أن يُخرج لهم الآن من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة عندهم، ناقة عُشْرَاءٍ مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ. وَلَيُصَدِّقَنَّه وَلَيَتَّبِعَنَّه، فأعطوه ذلك. فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله - عز وجل - أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشْرَاءٍ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا. فَأَمَّنَ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ١٥٦، يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم، ﴿وَلَا تَسْؤَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ١٥٧. فحذَّره نعمة الله إن أصابها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتاكل الزوق والمرعى. ويتنفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم، تماثروا على قتلها وعقرها، ﴿فَمَقَرُّوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ١٦٠ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٦١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٦٢﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٦٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَأْتُوا اللَّهَ وَابْتَئُوا اللَّهَ وَمَا سَأَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ لَاجِرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٦﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط - عليه السلام - وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكتون «سُدوم»

وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرةً مُتَيْتَةً خَيْبَةً، وهي مشهورةٌ ببلاد العُور، متاخمةٌ لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرْك والشَوَيْك. فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ، مَا لَمْ يَسْبِقْهُمُ الْخَلَائِقُ إِلَى فِعْلِهِ، مِنْ إِيْتَانِ الذُّكْرَانِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْن لَرْتَنَهُ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَمَعْلُومٌ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ يَخِينِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَسَاءً ﴿١٧٣﴾ مَطَرًا الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾﴾

لما نهاهم نبي الله عن إيتانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إيتان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم، ما كان جواب قوميه له إلا أن قالوا: ﴿لَيْن لَرْتَنَهُ يَلُوطُ﴾، يعنون عما جئنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، أي: تنفيذك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِيهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجْنَا أَمْ لُوطُ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاشٌ يَبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]. فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مُسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَمَعْلُومٌ مِنَ الْقَالِينَ﴾، أي: المُبْغِضِينَ، لا أحبه ولا أرضى به، وأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ يَخِينِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾، أي: كلهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾، وهي امراته، كانت عجوزاً سيئة، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هود»، وكذا في «الحجر» حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امراته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَسَاءً مَطَرًا الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ فَلَا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾﴾

هؤلاء - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مَدْيَنَ عَلَى الصَّحِيحِ. وكان نبي الله شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَاهُنَا أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، لِأَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْآيِكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ. وقيل: شَجَرٌ مُلْتَفٌ كَالْفَيْضِيَّةِ، كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ: ﴿كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ﴾، لَمْ يَقُلْ: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فَقَطَعَ نِسْبَةَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ، لِلْمَعْنَى الَّتِي نَسَبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا. وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَمْ يَفْظَنْ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ، فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْآيِكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدْيَنَ، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أُمَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَلَاثُ أُمَّمٍ. وَقَدْ رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ بَشْرِ الْكَاهِلِيُّ - وَهُوَ ضَعِيفٌ -: حَدَّثَنِي ابْنُ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِيهِ - وَزَكَرِيَّا بْنُ عَمْرٍو، عَنْ حُصَيْفٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ - قَالَتْ^(١): مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مَرَّتَيْنِ إِلَّا شُعَيْبًا، مَرَّةً

(١) أي عكرمة والسدي، والأثر باطل، إسحق بن بشر منهم بالكذب.

إلى مدينَ فأخذهم الله بالصيحة، ومرةً إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله بعداب يوم الظلّة.

ورَوَى أبو القاسم البَغَوِيُّ، عن مُذَبِّبَةَ، عن هَمَّام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيْنِ﴾: قوم شُعَيْب، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾: قوم شُعَيْب. قال إسحاق بن بشر: وقال غيرُ جُوَيْر: أصحاب الأيكة ومدينُ هما واحدٌ. والله أعلم.

[٥٠٤٩] وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شُعَيْب، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هِشَام، عن هِشَام بن سعد، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن ربيعة، بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: رسول الله - ﷺ -: إن قومَ مدينَ وأصحابَ الأيكةِ أُمَّتَانِ، بَعَثَ اللهُ إليهما شُعَيْباً النبي عليه السلام^(١). وهذا غريبٌ، وفي زَفِيهِ نَظَرٌ، والأشبهُ أن يَكُونَ موقُوفاً. والصحيحُ أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ، وُصِفُوا في كلِّ مقامٍ بشيءٍ، ولهذا وَعَظَ هؤلاء وأمرهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قِصَّةِ مدينِ سواءٍ بسواءٍ، فدل ذلك على أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾﴾

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وبنهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾، أي: إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تخيروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافيّاً، ولكن خذوا كما تُعْطُونَ، وأعطوا كما تأخذون. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾، والقِسْطَاسُ هو الميزانُ، وقيل: القَبَانُ. قال بعضهم: هو مُعَرَّبٌ من الرُومِيَّةِ. وقال مجاهدٌ: القِسْطَاسُ المُسْتَقِيمُ: العدلُ بالرُومِيَّةِ. وقال قتادة: القِسْطَاسُ: العدلُ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، أي: لا تَنقُصُوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يعني: قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾. وقولُه: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾﴾، يُخَوِّفُهُم بأسَ الله الذي خَلَقَهُم وخالقَ آبائِهِم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّكَ رَبُّ رَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وسفيان بن عُيَيْنَةَ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾، يقول: خَلَقَ الْأُولَىٰ. وقرأ ابنُ زيد: ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظًا ﴿١٩١﴾﴾

﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

(١) ضعيف جداً. فيه محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وهو ضعيف، وفيه ربيعة بن سيف المصري. ذكره الذهبي في «الميزان» ٢٧٥١ وقال: قال البخاري وابن يونس: عنده مناكير اء وله علة ثالثة وهي الانقطاع. قال الترمذي: لا نعرف له سماعاً من عبد الله بن عمرو راجع الميزان ٢٧٥١ وله علة رابعة، هشام بن سعد ضعفه غير واحد. والرفوع ضعيف جداً شبه موضوع. والصواب فيه الوقف كما قال ابن كثير رحمه الله.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، يعنون: من المسحورين، كما تقدم. ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، قال الضحاك: جانياً من السماء. وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَقَدْ كُنَّا مِنَ الْآرِضِ بِئُومًا ﴿١٠٠﴾﴾، إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْلَ آبَاءِنَا أَوْ تَأْتِي بِنَا آلِهَةٌ كَمَا هِيَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي كُنتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِبَادِكَ فَاصْبِرْ عَلَيْنَا حِرَابَكَ أَوْ أُنزِلْنَا مِن السَّمَاءِ آيَةً مِّنْ أَمْرِكَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتَانًا يَدْرِي غَيْبَتَنَا بِمَا كُنتُمْ فَعِثْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّنْ أَمْرِكَ﴾، يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وقع بهم كما سألوها، جزاء وفاقا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظُّلَّةُ إِنَّهُمُ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألوها من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله - سبحانه وتعالى - جعل عقوبتهم أن أصابهم حرٌّ شديدٌ جداً مدةً سبعة أيام لا يكتفهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابةً أظلمت، فجعلوا يتطلعون إليها يستظلون بظلها من الحرِّ، فلما اجتمعوا كلُّهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورزقت بهم الأرض، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ أزهدت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أَوْ لَتُؤَدَّبُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فأزحفوا بنبي الله ومن أتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوْنَاكَ تَأْتُرُّكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَبْنُدُّ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيلُ الرَّحِيمُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وهامنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾، على وجه التعنت والعدا، فناسب أن يُحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظُّلَّةُ إِنَّهُمُ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر: إن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى ما يُظلمهم منه شيء. ثم إن الله أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليهم أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فاتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً. وهكذا زوي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلُّهم كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلبي. وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرَّجوا منها، فلما خرَّجوا منها أصابهم فرغٌ شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجلٌ فقال: ما رأيت كالיום ظلاً أطيّب ولا أبرد، هلّموا أيها الناس. فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهن صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظُّلَّةُ إِنَّهُمُ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة، حدثني يزيد الباهلي: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمٍ الظُّلَّةُ إِنَّهُمُ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٢﴾ ، قال: بعث الله عليهم رَعْدَةً حَرّاً شَدِيداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هِرَاباً إلى البرية ، فبعث الله سبحانه فأظلمت منهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذّة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها عليهم ناراً . قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلّة ، إنه كان عذاب يوم عظيم . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٣﴾ وَلَيْلَةَ رَبِّكَ لَمَوْ أَرْسَلْنَا الرِّجْمَ ﴿١٩٤﴾﴾ ، أي: العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿وَلَمَّا لَنَزَّلْنَا رَبِّي الْمَلَائِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : ﴿رَبِّكَ﴾ ، أي: القرآن الذي تقدّم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنذِرًا﴾ . . . الآية ، ﴿لَنَزَّلْنَا رَبِّي الْمَلَائِينَ﴾ ، أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾﴾ ، وهو جبريل عليه السلام . قال غير واحد من السلف: ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفية ، والسدي ، والضحاك ، والزهري ، وابن جريج . وهذا ما لا يزعج فيه . قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] . . . الآية . وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض . ﴿عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ ، أي: نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند الله ، مُطَاع في الملأ الأعلى ، ﴿عَلَيَّ قَلْبِكَ﴾ ، يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص ، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ، أي: لتنذره به بأس الله ويقمته على من خالفه وكذبه وتبشّر به المؤمنين المتّبعين له .

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾﴾ ، أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربيّ الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعدو ، مُقيماً للحجّة ، ذليلاً إلى المحجّة .

[٥٠٥٠] قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي ، حدّثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي ، حدّثنا عبد بن عباد المَهَلْبِي ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال: بينما رسول الله - ﷺ - مع أصحابه في يوم دَجَنٍ إذ قال لهم كيف تزرون بوايقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها! قال: فكيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكّنها! قال: فكيف ترون جونها؟ قال: ما أحسنه وأشد سواده! قال: فكيف ترون رجاها استدارت؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها! قال: فكيف ترون بزقها ، أوبيض أم خفّو أم يشق شقاً؟ قالوا: بل يشق شقاً . قال: الحباء الحياء إن شاء الله . قال: فقال رجل: يا رسول الله ، بأبي وأمي ما أفصحك! ما رأيت الذي هو أعرب منك! قال: فقال: حقّ لي ، وإنما نزل القرآن بلساني! والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١)

(١) باطل ، فهو مرسل ، محمد بن إبراهيم التيمي ، تابعي ، ومع إرساله تفرد به موسى بن محمد التيمي ، وهو ضعيف جداً ، قال الذهبي في «الميزان» ٨٩١٤: قال يحيى: ليس بشيء ، ولا يكتب حديثه . وقال البخاري: عنده مناكير ، وقال النسائي: منكر الحديث ، وقال الدارقطني: متروك اه فاحمل عليه في هذا الحديث . وقوله: يوم دجن: أي فيه غيم بليس الأرض وأقطار السماء . واليواستق: ما استطال من فروع السحاب . والقواعد: ما اعترض منها وسفل . وجونها: سودها . ورجاها: استدارتها من الأعلى . والخفو: لمعان خفيف . وشق البرق: رمي مستطيلاً بين السحاب ولم يذ انتشاره ، ويستدلون به على المطر . والحباء: العطاء والهبة . وفي بعض النسخ: الحيا الحيا: أي المطر والخصب .

وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحياً إلا بالعربية، ثم تزجِم كُل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية^(١). رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَبِيٍّ آلِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَلْعَمَهُ عَلَّمْتُمَا بِتِلْكَ الْآيَةِ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى: وَإِنَّ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لِمَوْجُودٍ فِي كِتَابِ الْأَوَّلِينَ الْمَأْثُورَةِ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ، الَّذِينَ بَشَّرُوا بِهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، كَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ، حَتَّى قَامَ آخِرُهُمْ خَطِيئاً فِي مَلِيَّتِهِ بِالْبَشِيرَةِ بِأَحْمَدٍ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَّ إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي بَعْدِي مِنْ أُمَّتِهِ أَحَدٌ﴾ [الصف: ٦]. والزبور: هاهنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْزَّبُورِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]، أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة. ثم قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَلْعَمَهُ عَلَّمْتُمَا بِتِلْكَ الْآيَةِ ﴿١٩٧﴾﴾، أي: أو ليس يكفاهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد العُدُول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد - ﷺ - ومبعثه وأمثه، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]... الآية.

ثم قال تعالى: مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته، لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ ﴿١٩٩﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْعَامُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ لَكُنُّهُمْ لَازِقِينَ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ فَمَا كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَّا أَنْ يَنْسَأَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَذْيَانَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٣﴾ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَلَيْسَ لَنَا بِمَنْظُرٍ ﴿٢٠٥﴾ أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٦﴾ أَفَرَوَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٧﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٨﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنذَرُونَ ﴿٢١٠﴾ ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١١﴾ ﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: بالحق، ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾، أي: عذاب الله بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، أي: يَتَمَنُّونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أَنْظَرُوا قَلِيلاً لَيَعْمَلُوا فِي زَعْمِهِمْ بَطَاعَةَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ

(١) لعله لا يصح عن الثوري، فمثل هذا لا يعلم إلا توقفاً.

النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا لَمْ أَجْزِ قَدِ ابْتِغَيْنَاكَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ أَتَمْنَا وَمَا نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندب ندماً شديداً، هذا فرعون لما دعا عليه الكلبيم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِرِعْوَةٍ وَمَلَآمٍ نَّبِينَا وَآمَنُوا بِالْحَيَّةِ الَّتِي رَتَبْنَا لِيَسْأَلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا طُوسَ عَلَىٰ آمُودٍ وَأَشَدُّ عَلَيْ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنفِي لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾ ءَأَلْتَنِي وَقَدْ صَدَّقْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ الَّذِي كَفَرْنَا بِمَا كَانُوا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَفَعَدَلْنَا بِمَسْجِدِنَا الَّذِي بُنِيَ لِلرَّحْمَنِ عَلَيْهِمُ وَإِنَّا لَنُحِيطُهُمْ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤]، ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَنَعْنَاهُمْ سِينَانَ ﴿٥٥﴾ نُرِّجَاهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أَفْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: ولو أخرناهم وانظرناهم وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عِيَّةً أَوْ ضَعْفًا ﴿٦١﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ أَهْلَهُمُ نُورٌ وَسُورٌ وَمَا يُورِثُهُمْ فِيهَا نِسَبَةٌ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١]، ولهذا قال: ﴿مَا أَفْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٠٥١] وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب. «أي: ما كان شيئاً كان»^(١). ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتمثل بهذا البيت:

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتِرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا آتَتْكَ أَذْرَاجُكَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثه الرسل، وقيام الحجج عليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْنٍ إِلَّا لَمَّا سُذِّقُوا ﴿١٥٨﴾ وَذُكِّرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥٩﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُولَاهَا رَسُولًا يُخَالِطُهُمْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [القصاص: ١٥٩].

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٦﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٦﴾﴾. ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجوه، أحدها: أنه لا ينبغي لهم، أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طليبتهم، لأن من سجايهاهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدي وبرهان عظيم، فبينه وبين

الشياطين منافاة عظيمة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ جَبَلًا لَرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتاديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلاً يشتهب الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولسروله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾، كما قال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَسَمْنَا السَّمْلَةَ فُوجِدْنَاهَا مُلْتَمِتَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ ﴿٢١٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَكُمْ فِيهَا رَصْدًا ﴿٢١٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٢٢٠﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَّاكَ مِنْ قَوْمٍ نَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجَدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى أمراً لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل. وأمره أن يلين جانباً لمن أتبعه من عباد الله المؤمنين. ومن عصاه من خلق الله كائناتاً من كان فليتبزأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾. وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [يس: ٦]، وقال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿لِنُنشِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مریم: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

[٥٠٥٢] وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١). وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها.

[٥٠٥٣] الحديث الأول، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا عبد الله بن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله - عز وجل -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢١٤﴾، أتى النبي - ﷺ - الصفا فصعد عليه، ثم نادى: يا صباحاه. فاجتمع الناس إليه بين رجل يحيى إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله - ﷺ -: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ أَيْ كَهْرِبٍ وَتَبَّ﴾ ﴿١﴾. ورواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي، من طرق، عن الأعمش، به.

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٥ و٤٩٧١ ومسلم ٢٠٨ والترمذي ٣٣٦٣ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٩ وأحمد ٢٨١/١

[٥٠٥٤] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، قام رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم^(١). انفرد بإخراجه مسلم.

[٥٠٥٥] الحديث الثالث، قال أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، دعا رسول الله ﷺ - قريشاً، فعمّ وخصّ، فقال: يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار. فإني - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رجماً سابهاً يبلالها^(٢). وزواه مسلم والترمذي، من حديث عبد الملك بن عمير، به، وقال الترمذي: غريبٌ من هذا الوجه. ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة، مُرسلاً، لم يذكر فيه أبا هريرة. والموصول هو الصحيح. وأخرجه في الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة.

[٥٠٥٦] وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد، حدثنا محمد - يعني ابن إسحاق - عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ -: «يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله. يا صفية عمّة رسول الله. ويا فاطمة بنت رسول الله، اشتريا أنفسكما من الله، لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما^(٣). تفرد به من هذا الوجه. وتفرد به أيضاً، عن معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - بنحوه، ورواه أيضاً عن حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً.

[٥٠٥٧] وقال أبو يعلى: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وزدان، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: «يا بني قُصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير والموت المُغير. والساعة الموعده^(٤)».

[٥٠٥٨] الحديث الرابع، قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قبيصة بن مُخارق وزهير بن عمرو قالوا: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، صعد رسول الله ﷺ - رُضْمَةً من جبَل، على أعلاها حجرٌ فجعل يُنادي: يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلني ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يربّأ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل يُنادي ويهتف: يا صباحاه^(٥). ورواه مسلم

- (١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٥ والترمذي ٣١٨٤ والنسائي ٢٥٠/٦ وأحمد ١٨٧/٦ وابن حبان ٦٥٤٨.
- (٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٤ والترمذي ٣١٨٥ والنسائي ٢٤٨/٦ وأحمد ٣٣٣/٢. وأخرجه البخاري ٢٧٥٣ و٤٧٧١ ومسلم ٢٠٦ والنسائي ٢٤٨/٦ وابن حبان ٦٥٤٩ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.
- (٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٧ ومسلم ٢٠٦ ح ٣٥٢ وأحمد ٣٩٨/٢ و٣٥٠.
- (٤) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦١٤٩ وفيه سويد بن سعيد، وهو ضعيف، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٧/١٠ ورجاله رجال الصحيح، غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة اهـ والصواب أنه ضعيف بهذا الإسناد واللفظ.
- (٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٧ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٥ و١١٣٧٩ وأحمد ٦٠/٥. وقوله: رُضْمَةً: أي صخور بعضها على بعض. ويربأ أهله: يندهم من مكان عال.

والنسائي، من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ طَرْحَانَ التَّمِيمِيِّ، عن أَبِي عَثْمَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلِّ التُّهَدِيِّ، عن قَبِيصَةَ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو الْهَلَالِيِّ، به.

[٥٠٥٩] الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن المنهال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، جمع النبي - ﷺ - من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ فقال رجل - لم يُسمَّه شريك -: يا رسول الله، أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟! قال: ثم قال الآخر، قال: فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا^(١).

[٥٠٦٠] طريق أخرى بأبسط من هذا السياق: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، عن علي - رضي الله عنه - قال: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَوْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَهُمْ رَهْطٌ، كُلُّهُمْ يَأْكُلُ الْجَدْعَةَ وَيَشْرَبُ الْفَرْقَ، قَالَ: فَصَنَعَ لَهُمْ مَدًّا مِنْ طَعَامٍ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَ: وَيَقِي الطَّعَامَ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، ثُمَّ دَعَا بَعْمَرَ فَشَرِبُوا حَتَّى رَوُوا، وَيَقِي الشَّرَابَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ - أَوْ: لَمْ يُشْرَبْ - وَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، إِنِّي بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ عَامَةً، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟ قَالَ: فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ. قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ - وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ - قَالَ: فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ قَالَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ أَقَوْمٌ إِلَيْهِ فَيَقُولُ لِي: اجْلِسْ. حَتَّى كَانَ فِي الثَّلَاثَةِ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي^(٢).

[٥٠٦١] طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق، بزياداتٍ آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله - ﷺ -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾، قال رسول الله - ﷺ -: عَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتُ بِهَا قَوْمِي رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ مَا أكره، فَصَمْتُ. فَجَاءَنِي جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ عَذَّبَكَ رَبُّكَ. قَالَ عَلِيٌّ - رضي الله عنه -: قَدَعَانِي فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنْ اللَّهُ قَدِ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، فَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ بَادَأْتَهُمْ بِذَلِكَ رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ مَا أكره،

(١) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٨٨٣ «بترياق أحمد شاكراً» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٦٦٥: إسناده جيد. قلت: بل فيه شريك، روى له مسلم متابعة، وهو سيء الحفظ. وفيه المنهال بن عمرو في كلام. وشيخه عباد بن عبد الله الأسدي. جاء في الميزان ٤١٢٦: قال البخاري: فيه نظر، وقال ابن المديني: ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات. وذكر الذهبي له حديث «أنا الصديق الأكبر» فقال الذهبي: هذا كذب على علي رضي الله عنه، وفيه عننة الأعمش، فالإسناد ظلمات.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٣٧١، ١٥٩/١ من حديث علي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤١٠٩: رجاله ثقات اهـ وفي ذلك نظر، فإن ربيعة، وإن وثقه ابن حبان، فقد قال عنه الذهبي في الميزان ٢٧٥٨: لا يكاد يعرف. وعنه أبو صادق بخبر منكر فيه «علي أخي، ووارثي». وفيه عثمان بن مغيرة، وهو ثقة، لكن قال الذهبي في الميزان: ولأبي عوانة عنه ما ينكر اهـ وهذا الخبر غريب. وأغرب ما فيه لفظ «أيكم يبايعني على أن يكون أخي، وصاحبي» فإن رسول الله ﷺ ما كان يبايع الناس على الأخوة والصحبة. وقوله: الجدعة: في السنة الثانية من العمر من الغنم والمعزى. والفرق: إناة يسع ثلاثة أصوع. والغمر: قلع صغير.

فَصَمَّتْ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ لِمَ تَفْعَلُ مَا أَمَرْتُ بِهِ عَذْبِكَ رَبِّكَ. فَاصْنَعْ لَنَا يَا عَلِيُّ شَاةً عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَأَعِدْ لَنَا عَسً^(١) لَبِنٍ، ثُمَّ اجْمَعْ لِي بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ. فَفَعَلْتُ فَاجْتَمَعُوا لَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَزِيدُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَعْمَامُهُ، أَبُو طَالِبٍ، وَحَمْرَةَ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ الْخَبِيثُ. فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ تِلْكَ الْجَفْنَةَ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مِنْهَا حِذْيَةً، فَشَقَّهَا بِأَسْنَانِهِ ثُمَّ رَمَى بِهَا فِي نَوَاجِيهَا، وَقَالَ: كُلُّوا بِسْمِ اللَّهِ. فَأَكَلَ الْقَوْمُ حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ مَا يُرَى إِلَّا أَنَارَ أَصَابِعِهِمْ. وَاللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَأْكُلُ مِثْلَهَا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: اسْقِهِمْ يَا عَلِيُّ. فَجِئْتُ بِذَلِكَ الْقَعْبِ فَشَرَبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهَلُوا جَمِيعًا، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَشْرَبُ مِثْلَهُ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، بَدَّرَهُ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْكَلَامِ فَقَالَ: لَهْدٌ مَا سَحَرَكُمُ صَاحِبِكُمْ. فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: يَا عَلِيُّ، عُدْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ بِالْأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَّرَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَ الْقَوْمَ. فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ لَهُ، فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَأَكَلُوا حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَأْكُلَ مِثْلَهَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: اسْقِهِمْ يَا عَلِيُّ. فَجِئْتُ بِذَلِكَ الْقَعْبِ فَشَرَبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهَلُوا جَمِيعًا، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَشْرَبَ مِثْلَهُ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَنْ يَكَلِّمَهُمْ بَدَّرَهُ أَبُو لَهَبٍ بِالْكَلامِ فَقَالَ: لَهْدٌ مَا سَحَرَكُمُ صَاحِبِكُمْ. فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَكَلِّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: يَا عَلِيُّ، عُدْ لَنَا بِمِثْلِ الَّذِي كُنْتَ صَنَعْتَ لَنَا بِالْأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَّرَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَ الْقَوْمَ. فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ لَهُ فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ، ثُمَّ سَقَيْتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْقَعْبِ حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَأْكُلَ مِثْلَهَا وَيَشْرَبُ مِثْلَهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَعْلَمُ شَابًا مِنَ الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا جِئْتُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢). قَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ: بَلَّغَنِي أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ بْنِ الْقَاسِمِ أَبِي مَرْيَمَ، عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ.

[٥٠٦٢] وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»: «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأبيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي، وكذا وكذا؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت - وإني لأحدثهم سناً، وأمرضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحشرهم ساقاً - : أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه. فأخذ يزقيني ثم قال: إن هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أملك أن تسمع لابنك وتطيع»^(٣). تفرّد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبو مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضغفه الأئمة، رحمهم الله.

(١) الشس: الآتية الكبيرة.

(٢) ضعيف جداً، والمتن منكر بهذا اللفظ. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ١٧٨/٢ - ١٨٠، وفيه راوٍ لم يسم، وابن إسحاق لم يسمه لأنه متهم بالكذب. وقد ذكر أحمد بن عبد الجبار - أحد الرواة - أن ابن إسحاق رواه عن عبد الغفار بن القاسم، وهو متروك متهم بالكذب كما ذكر ابن كثير. ويؤكد ذلك أن الطبري أخرجه ٢٦٨٠٦ من طريق ابن إسحاق عن عبد الغفار عن المنهال عن عبد الله بن الحارث به مطولاً.

(٣) إسناده ضعيف جداً، انظر ما قبله.

[٥٠٦٣] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرَةَ الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي - رضي الله عنه - لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، قال لي رسول الله - ﷺ -: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبناً. قال: ففعلت، ثم قال: ادع بني هاشم. قال: فَدَعَوْتُهُمْ وَإِنَّهُمْ يَوْمئِذٍ لَأَرْبَعُونَ غَيْرَ رَجُلٍ - أو: أربعون ورجل - قال: وفيهم عشرة كلهم يأكل الجَذَعَةَ بإدائها. قال: فلما أتوا بالقَصِصَةَ أخذ رسول الله - ﷺ - من ذروتها ثم قال: كُلُوا فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وهي كهيتها لم يَزْرَأُوا مِنْهَا إِلَّا يَسِيراً، قال: ثم أتيتهم بالإِنَاء فَشَرَبُوا حَتَّى رَزُوا. قال: وَفَضَّلَ فَضَّلَ، فلما فَرَعُوا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَبَدَرُوهُ الْكَلَامَ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ فِي السَّحَرِ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثم قال: اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام، فصنعت، قال: فدعاهم، فلما أكلوا وشربوا قال: فَبَدَرُوهُ فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ الْأُولَى، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثم قال: اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام. فصنعت، قال: فجمعتهم، فلما أكلوا وشربوا بَدَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْكَلَامَ فَقَالَ: أَيَكُمُ يَقْضِي عَنِي دَيْنِي وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يُحِيطَ ذَلِكَ بِمَالِهِ، وَسَكَتُ أَنَا لَيْسَ الْعَبَّاسُ. ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس، فلما رأيت ذلك قلت: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال: أَأَنْتَ. قال: وَإِنِّي يَوْمئِذٍ لَأَسْأَلُهُمْ هَيْئَةً، وَإِنِّي لَأَعْمَشُ الْعَيْنِينَ، ضَخْمُ الْبَطْنِ، حَمَشُ السَّاقِينَ^(١). فهذه طرق متعددة^(٢) لهذا الحديث عن علي رضي الله عنه. ومعنى سؤاله - ﷺ - لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه، ويخلفوه في أهله، يعني إن قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَهُ خَشِيَ إِذَا قَامَ بِأَعْبَاءِ الْإِنْدَارِ أَنْ يَقْتُلَ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك آمين. وكان أولاً يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله - ﷺ - من علي - رضي الله عنه - فلماذا بَدَرَهُمْ إِلَى التَّزَامِ مَا طَلَبَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه - ﷺ - النَّاسَ جَهْرَةً عَلَى الصَّفَا، وَإِنْدَارَهُ لِبَطُونِ قُرَيْشٍ عَمُومًا وَخُصُوصًا، حَتَّى سَمِعَ مِنْ سَمَى مِنْ أَعْمَامِهِ وَعَمَّاتِهِ وَبَنَاتِهِ، لِيُنَبِّئَهُ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَي: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

[٥٠٦٤] وقد رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشْقِيِّ - غَيْرُ مَنْسُوبٍ - مِنْ طَرِيقِ عَمْرُو بْنِ سَمُرَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَوْقَةَ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ الدَّمَشْقِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُحَدِّثُ النَّاسَ وَيُثَبِّتُهُمْ، وَوَلَدَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ جُلُوسٌ فِي جَانِبِ الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُونَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا بَالُ النَّاسِ يَزْعُبُونَ فِيمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَهْلُ بَيْتِكَ جُلُوسٌ لَاهِينَ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْأَنْبِيَاءُ، وَأَشْهَدُهُمْ عَلَيْهِمُ الْأَقْرَبُونَ. وَذَلِكَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤)، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ أَهْلَهُ حَتَّى يَفَارِقَهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (١١٦)﴾ (٣).

- (١) إسناده ضعيف جداً، وعلته عبد الله بن عبد القدوس، جاء في «الميزان» ٤٤٣١: روى عن الأعمش وغيره قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي وغيره: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ضعيف اهـ.
- (٢) تعدد هذه الطرق ليس بشيء، فإن شدة ضعف رجالها، يجعلها لا تنجز بمجموعها، والله تعالى أعلم.
- (٣) ضعيف. قال الذهبي في «الميزان» ٥٣٠٥: عبد الواحد عن أبي الدرداء، لا يدرى من ذا، ولا حدث عنه سوى =

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ الرَّجِيمِ ﴿١٧٧﴾﴾، أي: في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومُظْفِرُكَ ومُعَلِّمُكَ. وقوله: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَوْمَ تَقُومُ ﴿١٧٨﴾﴾، أي: هو مُعْتَنُ بِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، قال ابن عباس: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَوْمَ تَقُومُ ﴿١٧٨﴾﴾، يعني: إلى الصلاة. وقال عكرمة: يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ. وقال الحسن: الذي يراك حين تقوم إذا صَلَّيْتَ وحدك. وقال الضحاك: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَوْمَ تَقُومُ ﴿١٧٨﴾﴾، أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: الذي يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٧٩﴾﴾، قال قتادة ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ يَوْمَ تَقُومُ ﴿١٧٨﴾﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٧٩﴾، قال: في الصلاة، يَرَاكَ وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة، وعبارة الخُراساني، والحسن البصري. وقال مجاهد: كان رسول الله - ﷺ - يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

[٥٠٦٥] ويشهد لهذا ما صح في الحديث: «سَوُوا صُفُوفَكُمْ فَإِنِّي أَرَأَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»^(١).

وروى البرزأ وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تَقَلَّبَهُ من صُلب نَبِيِّ إلى صُلب نَبِيِّ، حتى أخرجه نبياً. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨٠﴾﴾، أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُؤَيِّدُون فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]... الآية.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٨١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٨٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿١٨٣﴾ وَالشُّعْرَاءَ يَلْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٨٤﴾ لَئِن تَرَأَتْهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٨٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٨٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقاً، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رُفِيٌّ من الجن، فنزه الله - سبحانه - جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم، وثبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم عظيم، وأنه ليس من قبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما يتنزلون على ما من يشاكلهم ويشابههم من الكُفَّانِ الكذبة. ولهذا قال الله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٨١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٨٢﴾﴾، أي: كذوب في قوله، وهو الأفَّاكُ الأثِيمُ، أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكُفَّانِ وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾، أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مئة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدِّقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صحَّ بذلك الحديث.

= محمد بن سوقة اهد وفيه عمرو بن سمرة لم أجد من ترجمه. وورد من حديث جابر أخرجه ابن عدي ٣٦٨/٦ وأعله بأحد بن المنذر وقد كذبه الفلاس.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧١٨ و٧٢٥ ومسلم ٤٣٤ والنسائي ٩١/٢ وأحمد ٢٨٦/٣ وأبو يعلى ٣٢٩١ وابن حبان ٢١٧٣ من حديث أنس.

[٥٠٦٦] كما زَوَّاهُ الْبُخَارِيُّ، من حديث الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ - ﷺ - عَنِ الْكُهَّانِ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ بِكُونَ حَقًّا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطُفُهَا الْجَنِّي فَيَقْرُؤُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِثَّةِ كِذْبِي^(١).

[٥٠٦٧] وقال البخاري أيضاً: حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سَمِعْتُ عِكْرَمَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سَيْلٌ عَلَى صَفْوَانٍ، حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقَوِ السَّمْعِ، وَمُسْتَرْقَوِ السَّمْعِ - هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سَفِيَانٌ بِيَدِهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يَلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ - أَوْ الْكَاهِنِ. فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَه، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كِذْبِي. فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيَصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ^(٢). انفرد به البخاري. وروى مُسْلِمٌ من حديث الزُّهْرِيِّ، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجالٍ من الأنصار قريباً من هذا. وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ: ﴿حَوَّجَ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ... الآية، إن شاء الله تعالى.

[٥٠٦٨] وقال البخاري. وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال: أنا أبا الأسود أخبره، عن عُرْوَةَ، عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي - ﷺ - أنه قال: «الملائكة تتحدث في العنان - والعنان: الغمام - بالأمر في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرأها في أذن الكاهن كما تقرأ القارورة فيزيدون معها مئة كذبة^(٣). ورواه البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد ابن أبي مريم، عن الليث، عن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عُرْوَةَ، عن عائشة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾^(٤)، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلأل الإنس والجن. وكذا قال مجاهد - رحمه الله - وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وقال عِكْرَمَةُ: كان الشعراء يتهاجيان، فينتصر لهذا فقام من الناس، ولهذا فقام من الناس، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾^(٥).

[٥٠٦٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث، عن ابن الهاد، عن يحيى بن مفضل عن ابن الزبير - عن أبي سعيد قال: بينما نسير مع رسول الله - ﷺ - بالعرج^(٤) إذ عرض شاعرٌ ينشد، فقال النبي - ﷺ -: خذوا الشيطان - أو: أمسكوا الشيطان - لأن يمتلىء جوف أحدكم فيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً^(٥).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٦٢ و٦٢١٣ ومسلم ٢٢٢٨ وأحمد ٨٧/٦ وابن حبان ٦١٣٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠١ وأبو داود ٣٩٨٩ والترمذي ٣٢٢٣ وابن ماجه ١٩٤ وابن حبان ٣٦.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٨٨.

(٤) العرج: هي قرية جامعة من عمل الفرع على نحو ثمانية وسبعين ميلاً من المدينة.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٨/٣ و٤١ ومسلم ٢٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ ، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يَخُوضُونَ. وقال الضحاک عن ابن عباس: في كل فن من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد - والله - رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها، مرة في شَمَةِ فلان، ومرة في مَذْحَةَ فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل، ويذم قوماً بباطل. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ ، قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجبا، وكان مع كل واحد منهما عُوَاة من قومه - وهم السفهاء - فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس - رضي الله عنه - هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم. ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً: هل يُقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، على قولين. وقد ذكر محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد في الطبقات، والزبير بن بكار في كتاب الفكاكة: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على «ميسان» - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر، فقال:

الأهل أتى الحسنة أن حليلها
إذا شئت غثنني دهاقين قزية
فإن كنت نذماني فبالأكبر اسقني
لعل أمير المؤمنين يسوؤه
بميسان، يسقى في زجاج وحنثم^(١)
ورقاصة تجذو على كل منسيم^(٢)
ولا تسقني بالأضغر المتكلم
تناذمنا بالجوسق المتهدم^(٣)

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين قال: إي والله، إنه ليسؤني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته. وكتب إليه عمر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْكَبِيرِ ﴿٢﴾﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَسِيرِ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١ - ٣]، أما بعد فقد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تناذمنا بالجوسق المتهدم

وإني والله إنه ليسؤني وقد عزلتك. فلما قديم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طَفَحَ على لساني. فقال عمر: اظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي على عمل أبداً وقد قلت ما قلت! فلم يذكر أنه حذَه على الشراب، وقد صمته شعره، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمه عمر - رضي الله عنه - ولامه على ذلك وعزله به.

[٥٠٧٠] ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتلىء شعراً»^(٤).

والمراد من هذا أن الرسول الله - ﷺ - الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف

(١) الحتم: الجرة الخضراء.

(٢) الدهقان: رئيس القرية. ومجلدو: تنتصب. والمنسم: طرف خف البعير، وهنا استعارة لأطراف أصابع قدمي الرقاصة.

(٣) الجوسق: القصر.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٥٨ والترمذي ٢٨٥٦ وابن ماجه ٣٧٦٠ وأحمد ١٧٤/١ و١٧٧ وأبو يعلى ٧٩٧ من حديث سعد بن أبي وقاص. وورى القتيح جسده: أفسده.

لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]. وهكذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَلِلَّهِ لَنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٣﴾ عَلَنَ قَلِيلًا لِّتُكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٧٥﴾... إلى أن قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٧٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَزُولُونَ ﴿١٧٨﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿١٧٩﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ أُتِيرٍ ﴿١٨٠﴾ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْبَرَهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٨١﴾ وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ الْفَاوَنُ ﴿١٨٢﴾ أَكْثَرُ أُنْثَىٰ فِي كُلِّ قَوْمٍ يَهيمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٨٤﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

[٥٠٧١] قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي الحسن سالم البراد مولى تميم الداري قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ الْفَاوَنُ ﴿١٨٢﴾﴾، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن روضة، وكعب بن مالك إلى رسول الله - ﷺ - وهم يبيكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. قتلنا النبي - ﷺ - -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: أنتم، ﴿وَذَكَّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، قال: أنتم، ﴿وَأَنْتُمْ صُرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾، قال: أنتم^(١). رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من رواية ابن إسحاق.

[٥٠٧٢] وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل: أن حسان بن ثابت وعبد الله بن روضة أتيا رسول الله - ﷺ - حين نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ الْفَاوَنُ ﴿١٨٢﴾﴾، يبيكان، فقال رسول الله - ﷺ - وهو يقرؤها عليهما: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ الْفَاوَنُ ﴿١٨٢﴾﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: أنتم^(٢).

[٥٠٧٣] وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ بِمِثْمِهِمْ الْفَاوَنُ ﴿١٨٢﴾﴾، إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، قال عبد الله بن روضة: يا رسول الله قد علم الله أي منكم. فانزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾^(٣). وهكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم، ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يُعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار، وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعجل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه، كما قال عبد الله ابن الزبغري حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدَايِ، وَمَنْ مَالٌ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٨٤٨ عن سالم البراد، وهو مرسل، وفيه عن ابن إسحق، والمتن غريب، فالسورة مكية، والخبر مدني.

(٢) ضعيف. هو مرسل، وانظر ما بعده.

(٣) هو مرسل أيضاً.

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوةً للنبي - ﷺ - وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله - ﷺ - بعد ما كان يهجوه، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه.

[٥٠٧٤] وهكذا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَزْبٍ لَمَّا أَسْلَمَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ثَلَاثٌ أَعْطَيْتَنِي. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَعَاوِيَةُ تَجْعَلُهُ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَتَوْمَرْنِي حَتَّى أَقَاتِلَ الْكُفَّارَ، كَمَا كُنْتُ أَقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: نَعَمْ. وَذَكَرَ الثَّالِثَةَ^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ﴾، قِيلَ: مَعْنَاهُ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ. وَقِيلَ: فِي شِعْرِهِمْ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُكْتَفَرٌ لَمَّا سَبَقَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَدِّ مَا ظَلَمُوا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَزُودُونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

[٥٠٧٥] وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لِحَسَانَ: «أَهْجُهُمْ - أَوْ قَالَ: هَاجَهُمْ - وَجَبْرِيلُ مَعَكَ»^(٢).

[٥٠٧٦] وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -: إِنْ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَنْزَلَ فِي الشَّعْرِ مَا أَنْزَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بَسِيفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ الثَّبَلِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٤) [غافر: ٥٢].

[٥٠٧٦] م] وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّلْمَ، فَإِنَّ الظَّلْمَ ظِلْمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٥). وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، يَعْنِي مِنَ الشَّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا إِيَّاسُ بْنُ أَبِي تَمِيمَةَ، قَالَ: حَضَرْتُ الْحَسَنَ وَرُمْتُ عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ نَصْرَانِيٍّ، فَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رِبَّاحٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُخْرَزٍ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ بَكَى حَتَّى أَقُولَ: قَدْ أَنْدَقَ قَضِيبَ زَوْرِهِ^(٥): ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وَقَالَ ابْنُ وَهَبٍ: أَخْبَرَنِي ابْنُ سُرَيْجٍ الْإِسْكَدَرَانِيُّ، عَنْ بَعْضِ الْمَشَيْخَةِ: أَنَّهُمْ كَانُوا بِأَرْضِ الرُّومِ، فَبَيْنَمَا هُمْ لَيْلَةً عَلَى نَارٍ يَسْتَوُونَ عَلَيْهَا - أَوْ: يَضْطَلُونَ - إِذَا بِرُكْبَانٍ قَدْ أَقْبَلُوا، فَقَامُوا إِلَيْهِمْ، فِإِذَا فَضَالَةٌ بَنُ عَبْدِ فِيهِمْ، فَأَنْزَلُوهُ فَجَلَسَ مَعَهُمْ - قَالَ: وَصَاحِبٌ لَنَا قَائِمٌ يُصَلِّي - قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِهَذِهِ آيَةِ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، قَالَ فَضَالَةُ بْنُ عَبْدِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخْرَبُونَ الْبَيْتَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ. وَقِيلَ: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ آيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ.

(١) أخرجه مسلم ٢٥٠١.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند الآية: ٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢٨٧/٦ والبيهقي ٢٣٩/١٠ وابن حبان ٥٧٨٦ وإسناده صحيح على شرطهما.

(٤) تقدم في تفسير سورة طه عند الآية: ١١.

(٥) الزُّور: وسط الصدر.

[٥٠٧٧] كما قال ابنُ أبي حاتم: ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعيد النهدي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المُجَبَّر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كَتَبَ أَبِي فِي وَصِيَّتِهِ سَطْرَيْنِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو بَكْرٍ بِنَ أَبِي قَحَافَةَ، عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا، حِينَ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ، وَيُنْتَهِي الْفَاجِرُ، وَيَصْدُقُ الْكَاذِبُ: أَنِّي اسْتَخَلَفْتُ عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنْ يَعِدُ فِذَاكَ ظَنِّي بِهِ، وَرَجَائِي فِيهِ، وَإِنْ يَجْرُ وَيُبَدِّلُ فَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾»^(١).

آخر تفسير سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين

(١) موقوف ضعيف. فيه محمد بن عبد الرحمن العمري، وهو ضعيف.



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ فَمَنْ يَمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِرُوا بِالْعَدَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَلْقَلْبِ الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ ، أي: هذه آيات ﴿القرآن وكتاب مبين﴾ ، أي: بين واضح، ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ ، أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به وأتبعه وصدقته، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء عن الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُكَ بِهِ الصَّيْفِيقُ وَنُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ، أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها. ﴿رَبَّنَا لَمْ أَعْمَلْهُمْ فَمَنْ يَمَهُونَ﴾ ، أي: حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا آيَاتِهِمْ وَأَصْرَحْنَا كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ سَرَقُوا وَنَدَّوهُمْ فِي طَلْقِيْنِهِمْ يَمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِرُوا بِالْعَدَابِ﴾ ، أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ ، أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سيواهم من أهل المخسر. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَلْقَلْبِ الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ ، أي: ﴿وإنك﴾ يا محمد، قال قتادة: ﴿للقلي﴾ ، أي: لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ، أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أوامره ونواهيها، عليم بالأمور جليلها وحقيها، فخيرها هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَوَقَّعْتُ لِمَنْ رِيبًا جِدًّا وَعَدَلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَاهِدٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورًا أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحْتَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْجَبُ يَمْوَسِي لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِّي الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُورٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَجِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ يَبِضَاءً مِنْ عَيْرِ سُورٍ فِي سِتْرٍ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ءِإِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسُوقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا ءَأَسْتَفِئْتَنَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَطُغًىٰ فَنَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ - مذكراً له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئيه، فجددوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ﴾: أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأصل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأتس من جازب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تأجج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِيهِ إِذْ ءَأَسْتَسْنَا نَارًا سَتَابِكُ مِنَّا بِحَبْرٍ﴾، أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتَيْكُم﴾، منها ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَمَمٌ تَطَلَّوْتُ﴾، أي: تتدفقون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رف رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس، وغيره: لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهج. وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوقف موسى متعجباً مما رأى، فتوذي: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾، قال ابن عباس: قدس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من الملائكة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقناة.

[٥٠٧٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا شعبة والمسعودي عن عمرو بن مرة، سمع أبا عبيدة يحدث، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفص القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل بالنهار، وعمل النهار بالليل - زاد المسعودي: وحجابه النار، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره. ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(١). وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو بن مرة، به. وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبِّيَ الْعَلِيِّنَ﴾، أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المبين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله ﴿الْعَزِيزُ﴾، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله. ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، والجأن: ضرب من الحيات، أسرع حركة، وأكثر اضطراباً - وفي الحديث نهي عن قتل جئان البيوت^(٢) - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَأَنَّ مُدْبِرًا وَلَرَّ يَعْوَّبُ﴾، أي: ولم يلتفت من شدة فرقه، ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِّي﴾

(١) رجاله ثقات غير المسعودي فإنه اختلط، وتقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ ، أي : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أضطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وحيها .

وقوله تعالى : ﴿لَا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءِ فَإِنِّي عَقُورٌ نَجِيمٌ﴾ ، هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شيء ثم أفلح عنه ، وزجج وأتاب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ لِقَارِئِهِمْ لَمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿١٥٢﴾ [طه : ٨٢] . وقال تعالى : ﴿وَمَن يَمْلِكُ سُوءًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٥٣﴾ [النساء : ١١٠] . والآيات في هذا كثيرة . وقوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بِيضًا مِن بَيْنِ يَدَيْكَ أَوْ سَوَدًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يُعْجَبُ أَنَّهُ لَسَاءَ مَا يَحْكُمُ﴾ ، هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدي من جعل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده في جيب دزعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿فِي يَتَّبِعَ آيَاتِي﴾ ، أي : هاتان اثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهاناً لك إلى فزعون وقومه ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك . وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي : بيينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ، وأرادوا معارضته بسحرهم ﴿فَقُلُوبُهُمْ هَلَاكَ وَأَنْفُسُهُمْ سَافِرِينَ﴾ [الأعراف : ١١٩] ، ﴿وَجَمَعُوا بِهَا﴾ ، أي : في ظاهر أمرهم ﴿وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ، أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ظَلَمْنَا وَعَطَوْنَا﴾ ، أي : ظلمنا من أنفسهم ، سجية ملعونة ، ﴿وَعَطَوْنَا﴾ ، أي : استكباراً عن اتباع الحق . ولهذا قال : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، أي : انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب يقول : احذرُوا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يُصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموثيق له عليهم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦٦﴾ وَخُشِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ لَّمْلَمٍ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْمِلُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان - عليهما من الله السلام - من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين ، ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن هشام بن يحيى : أخبرني أبي ، عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم يُنعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمدُه أفضل من نعمته ، لو كنت لا

تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فأَيُّ نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾، أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مئة امرأة. ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم.

[٥٠٧٩] كما أخبر بذلك رسول الله - ﷺ -: «نحن معشر الأنبياء لا تورث، ما تركنا فهو صدقة»^(١). وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاقِبَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم. حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والزجاج أن الحيوانات كانت تنطق كئطقي بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أفهم سليمان - عليه السلام - ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمْنَا مَنَاقِبَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَضْلِ الْمُبِينِ﴾، أي: الظاهر البين لله علينا.

[٥٠٨٠] قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة - رضي الله عنه: أن رسول الله - ﷺ - قال: كان داود - عليه السلام - فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود، فجاء داود - عليه السلام - فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذا ملك الموت! مزحياً بأمر الله، فتزمل داود - عليه السلام - مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان - عليه السلام - للطيور: أظلي علي داود. فأظلت عليه الطير حتى أظلمت الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً - قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله - ﷺ - يده - وغلبت عليه يومئذ المضرجية^(٢). قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرجية: الشور الحمر.

وقوله تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِسْتَيْكَنَّ جُنُودُهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٣)، أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور. يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يلوونه، والجن

(١) تقدم عند الآية ٥ من سورة مريم.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٩/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٠٧/٨ وقال: وفيه المطلب بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح اه قلت: هو معلول: عمرو، وإن روى له الشيخان لكن فيه ضعف، وعنده مناكير، وشيخه ثقة لكن عامة روايته عن الصحابة مراسيل، ولم يذكر سماعاً.

وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حراً أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُرْعَوْنَ﴾، أي: يكف أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلة التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يرذون أولها على آخرها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَازَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾، أي: حتى إذا مر سليمان - عليه السلام - بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سَيِّدُنَا وَحُوذُوا رُكُنًا لَّا يَشْعُرُونَ﴾. أورد ابن عسائِر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيبان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذيب. أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهم ذلك سليمان - عليه السلام - منها، ﴿فَتَبَسَّ سَاجِدًا لِّهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِمَمْلَكَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَطَلَّ وَادِيَّ وَأَنَّ أَعْمَلَ صَلَاحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: الهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام والإيمان بك، ﴿وَأَنَّ أَعْمَلَ صَلَاحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: عملاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَسْلُومِينَ﴾، أي: إذا توفيتني فألحقني بالصلحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. وعن توف البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذباب. هكذا رأيت مضبوطاً بالياء المثناة من تحت. وإنما هو بالياء الموحدة. وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض أن سليمان - عليه السلام - فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا يسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الثايجي قال: خرج سليمان بن داود - عليهما السلام - يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقيّة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم، إنا خلقنا من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، ولا تسقنا نهلكتنا. فقال سليمان - عليه السلام -: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

[٥٠٨١] وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: ﴿فَرَضْتُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَنِّي أَنْ فَرَضْتُكَ نَمْلَةً أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١).

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذِبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذِيبَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ سُلْطَانٌ مِّنْ سَيْنٍ ﴿٢١﴾﴾

قال مجاهد، وسعيد بن جببر، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً، يدل سليمان - عليه السلام - على الماء - إذا كان بأرض قلاية طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا ذلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان - عليه السلام - يوماً بقلاية من الأرض - فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾. حدث

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣١٩ ومسلم ٢٢٤١ وأبو داود ٥٢٦٦ النسائي ٢١٠/٧ وابن ماجه ٣٢٢٥ وأحمد ٢

يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجلٌ من الخوارج، يقال له «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبت اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تُخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تُخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحشو على الفخ ثراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي. فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته. ثم قال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحدر. فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزبي - من أهل «بززة» من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس، وكان أعور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد: أنه سأله عن سبب عوره، فامتنع عليه، فألح عليه شهوراً، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده الجمعة في قرية بززة، وسألاه عن وادٍ بها، فأريتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً، حتى عَجَج الوادي بالدخان، فأخذا يغرمان^(١) والحيات تُقبل من كل مكان إليهما، فلا يلتفتان إلى شيء منها، حتى أقبلت حية نحو الذراع، وعيناها توفدان مثل الدينار. فاستبشرا بها عظيماً، وقالوا: الحمد لله الذي لم يُخيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر، وأخذا الحية فأدخلا في عيينها ميلاً فاكتحلا به، فسألتهما أن يكحلائي، فأبيا، فألححت عليهما وقلت: لا بد من ذلك، وتوعدتهما بالدولة^(٢)، فكحلا عيني الواحدة اليمنى، فحين وقع في عيني نظرت إلى الأرض تحتي مثل المرأة، أنظر ما تحتها كما ترى المرأة، ثم قالوا لي: سيز معنا قليلاً، فسرت معهما وهما يحدثاني، حتى إذا بعدت عن القرية أخذاني فكثفاني، وأدخل أحدهما يده في عيني فقأها، ورَمَى بها ومضيا. فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً، حتى مرَّ بي نفر ففك وثاقي. فهذا ما كان من خَبَر عيني^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن عمرو العسائي، حدثنا عباد بن ميسرة المنقري، عن الحسن قال: اسم هدهد سليمان عليه السلام: عنبر. وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان - عليه السلام - غداً إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه، فتفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير، كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضرة إلا الهدهد، ﴿فَقَالَ مَلِكٌ لَا أَرَى الْهُدُودَ إِلَّا مَكَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر.

وقوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال الأعمش، عن الميثال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني تنف ريشه. وقال عبد الله بن شداد: تنف ريشه وتشميسه. وكذا قال غير واحد من السلف: إنه تنف ريشه، وتركه ملقى يأكله الدر^(٤) والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾، يعني: قتله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ﴾ أي: يعذر واضح بين. وقال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد، لما قديم الهدهد قالت له الطير: ما خَلَقَك، فقد نذر سليمان دمك؟ فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ﴾^(٥)، فقال: نجوت إذا. قال مجاهد: إنما دفع الله عنه بيرة بأمه.

(١) يعزمان: يقرآن العزائم، أي الرقى.

(٢) الدولة: انقلاب الزمان، أي توعدهما بأنه سيفضب عليهما إذا تمكن منهما.

(٣) لم يذكر المصنف إسناد ابن عساكر، والظاهر أنه عن مجاهيل، بل راويه غير معروف، والخبر عجيب بل هو موضوع.

(٤) الدر: صغار النمل.

﴿فَمَكَتْ عَنَرٌ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُّ بِهِ، وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئٍ يَبْتَئِرُ يَقِينٌ ﴿٢٧﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُورِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٣٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدهد ﴿عَنَرٌ بَعِيدٌ﴾، أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُّ بِهِ﴾، أي: أطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئٍ يَبْتَئِرُ يَقِينٌ﴾، أي: بخبر صدقٍ حقٍّ يقين. وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن. ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدمها مثل حافر الدابة، من بيت مملوكة. وقال زهير بن محمد: هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الربان، وأمها فارعة الجنية. وقال ابن جريج: بلقيس بنت ذي شريح، وأمها بلتقة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا سفيان - يعني ابن عيينة - عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان ألف قَيْلٍ^(١)، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف مقاتل. وقال الأعمش، عن مجاهد: كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قَيْلٍ، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف مقاتل. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مغمز، عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾، كانت من بيت مملوكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمئة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. وكانت بأرض يقال لها مَارِبٌ، على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقرب، على أنه كثيرٌ على مملكة اليمن، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُورِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكّن: ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾، يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللاذني. قال زهير بن محمد: كان من ذهب صفحته، مرمول بالياقوت والزبرجد، طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً. وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفضّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، لها ستمئة امرأة تليها للخدمة. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء مُحْكَمٌ، وكان فيه ثلاثمئة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه. قد وُضِعَ بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ الْيُسْرَى وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّيْءِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٢٣٧]. وقرأ بعض

(١) القَيْلُ: الملك من ملوك اليمن، وهذه أرقام خيالية.

القراء: «أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ»، جَعَلَهَا «أَلَا» الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحذف المنادى، تقديره عنده: «أَلَا يَا قَوْمِ اسْجُدُوا لِلَّهِ».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الْقَبْأَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد. وقال سعيد ابن المسيب: الخبء: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تخوم^(١) الأرض ودواخلها.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَاثِكُمْ مَا تَحْقِرُونَ وَمَا تُكْرِهُونَ﴾، أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعليشونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِثْمِهِ وَسَاءِ بِاتِّبَاعِهِ﴾ [الرعد: ١٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [١٦]، أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نُهي عن قتله.

[٥٠٨٢] كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: نهى النبي - ﷺ - عن قتل أربع من الذواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد^(٢). وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٢٧] أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ

فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّي أَخِفُّ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان - عليه السلام - للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٢٧]، أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، في مقاتك، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوّة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدياً ورياسة فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقراته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [٣٠] أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ. فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكاتها، ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّي أَخِفُّ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، تعني بكرمه ما رآته من عجب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدياً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [٣٠] أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ، فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا يقبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء. ولم يكتب أحد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قبل سليمان عليه السلام.

(١) التخوم: الحدود الفاصلة بين طبقات الأرض.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٢٦٧ وابن ماجه ٣٢٢٤ وأحمد ٣٣٢٢/١ والبيهقي ٣١٧/٩ وابن حبان ٥٦٤٦.

[٥٠٨٣] وقد رَوَى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون ابن الفضل أبو يعلى الخنَّاط، حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بُريدة، عن أبيه قال: كنتُ أمشي مع رسول الله - ﷺ - فقال: إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود. قال: قلت يا رسول الله، أي آية؟ قال: سأعلمكمها قبل أن أخرج من المسجد. قال: فانتهمي إلى الباب، فأخرج إحدى قَدَمَيْهِ، فقلت: نسي. ثم التفت إلي وقال: ﴿إِنَّهُم مِّن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) ﴿١﴾. هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف. وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله - ﷺ - يكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، حتى نزلت هذه الآية، فكتب، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقوله: ﴿أَلَّا تَقُولُوا عَلَى﴾، قال قتادة: يقول: لا تحببوا علي ﴿وَأَتَوْنِي مُسْلِمِينَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي. ﴿وَأَتَوْنِي مُسْلِمِينَ﴾، قال ابن عباس: مؤحدين. وقال غيره: مؤخلصين. وقال سفيان بن عيينة: طاعتين.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوؤُا قَوْمَهُ وَأَوْلُوؤُا بَأْسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥) ﴿

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، أي: حتى تحضرون وتشيرون. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوؤُا قَوْمَهُ وَأَوْلُوؤُا بَأْسِ شَدِيدٍ﴾، أي: منوا إليها بعددهم وعُددهم وقوتهم، ثم قوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحرابه فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، فزري فينا رأيك نتمثلته ونطيعه. قال الحسن البصري رحمه الله: قوضوا أمرهم إلى عِلْجَةٍ تضطرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من فضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أي: خربوه، ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾، أي: وقصدوا من فيها من الولاية والجنود فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾، قال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥) ﴿، أي: سأبعث إليه بهديتي تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ولنلتزم له بذلك ونترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمه الله ورضي عنها. ما كان عقلها في إسلامها وفي شريكها! علمت أن الهدية تقع موقماً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقَاتَلُوهُ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتَّبِعُوهُ.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهديّة عظيمة من ذهب وجواهر وآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت إليه بلبنة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما: وأرسلت جَوَارِي في زي الغلمان، وغلماً في زي الجَوَارِي، وقالت: إن عَرَف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي. قالوا: فأمرهم عليه السلام أن يتوضؤوا، فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء، وجعل الغلام يَغْتَرِف، فميّزهم بذلك. وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها، والغلام بالعكس. وقيل: بل جعلت الجوارى يغسلن من أكفهن إلى مرفقهن، والغلمان من مرفقهن إلى أكفهن. ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم. وذكر بعضهم: أنها أرسلت إليه بِقَدَح ليملاه ماء رَوَاء، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت، ثم ملاه من ذلك. وبخرقة وسلك ليجعله فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. والظاهر أن سليمان - عليه السلام - لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكليّة، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾، أي: أنصنعونني بمالٍ لأترككم على شريككم وملككم؟! ﴿ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾، أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾، أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن الجثنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنه -: أمر سليمان الشياطين فمؤموا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا؟! وفي هذا دلالة على جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقُصَاد. ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾، أي: بهديتهم، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾، أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾، أي: من بلديهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾، أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، مُعْظَمَةٌ لسليمان، نارية متابعته في الإسلام، ولما تحققت سليمان - عليه السلام - قُدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره.

﴿ قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرتة شيئاً. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مُقْصَص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل في سبعة آيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خلقت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من

عباد الله، ولا يزيئُهُ أَحَدٌ حتى آتيتك . ثم شَخَّصَتْ إلى سُلَيْمَانَ في اثني عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ من مُلُوكِ اليَمَنِ، تحت يَدِي كُلِّ قَيْلٍ مِنْهُمُ أَلُوفٌ كَثِيرَةٌ . فجعل سُلَيْمَانَ يبعث الجنَّ يَأْتُونَهُ بِمسيرها ومُنتَهأها كلَّ يومٍ و ليلة، حتى إذا دَنَت جَمَعَ من عنده من الجنِّ والإنس، ومَن تحت يديه، فقال: ﴿يَأْتِيَانِي الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ . وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذُكِرَ لها عَرَشُهَا فأعجبه، وكان من ذَهَبٍ، وقوائمه لؤلؤٌ وجوهرٌ، وكان مُسْتَرْتراً بالدُّيُوبِ والحريِر، وكانت عليه تسعةٌ مَعَالِيقٍ، فكره أن يأخذَه بعد إسلامهم . وقد عَلِمَ نبيُّ الله أنهم متى أسلموا تَحْرُمُ أموالهم مع دمايهم فقال: ﴿يَأْتِيَانِي الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ . وهكذا قال عطاء الخراساني، والسدي، وزهير بن محمد: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ، فتحْرُمُ علي أموالهم بإسلامهم، ﴿قَالَ عَفِيْفٌ مِّنْ لَّيْلِي﴾ ، قال مجاهد: أي مارذ من الجن . وقال شُعَيْبُ الجَبْتِيُّ: وكان اسمه كَوْزَن . وكذا قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، وكذا قال أيضاً وهب بن مُتَبِّه . قال أبو صالح: وكان كانه جبل . ﴿أَنَا أَيُّكُمْ يَدِي قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ - قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي، وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات، وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس . ﴿وَأَنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ ، قال ابن عباس: أي قوتي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر . فقال سُلَيْمَانَ عليه السلام: أريد أعجل من ذلك . ومن هاهنا يظهر أن النبي سُلَيْمَانَ أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وما سخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدما عليه . هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ، قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان . وكذا روى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح، والضحاك، وفتادة: إنه كان من الإنس . زاد قتادة: من بني إسرائيل . وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم . وقال قتادة - في رواية عنه - كان اسمه بليخا . وقال زهير بن محمد: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور . وزعم عبد الله بن لهيعة: أنه الخفير^(١) . وهو غريب جداً .

وقوله: ﴿أَنَا أَيُّكُمْ يَدِي قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ، أي: أرفع بصرك وانظر مدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكفل بصرك إلا وهو حاضرٌ عندك . وقال وهب بن مُتَبِّه: امدد بصرك، فلا يبلغ مداه حتى آتيتك به . فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ، ودعا الله عز وجل . قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام . وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، اتني بعرشها . قال: فمثل له بين يديه . قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد ابن إسحاق، وزهير بن محمد، وغيرهم: لما دعا الله عز وجل، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس - وكان في اليمن، وسُلَيْمَانَ عليه السلام بيت المقدس - غاب السريز، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سُلَيْمَانَ عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحْمَلُ بين يديه . قال: وكان هذا الذي جاء به من عبَّاد البحر . فلما عين سُلَيْمَانَ ومَلَأَهُ ذلك، ورآه مُسْتَقَرّاً عنده، ﴿قَالَ هَذَا مِن قَبْلِ رَبِّي﴾ ، أي: هذا من نعم الله علي ﴿يَسْلَوِي﴾ ، أي: ليختبرني ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ، كقوله

(١) ابن لهيعة ضعيف إذا وصل الحديث، فكيف إذا أرسله .

تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ غَيْرِ كَرِيمٍ﴾، أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٍ﴾، أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبه أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

[٥٠٨٤] وفي صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم. ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

﴿قَالَ نَكُرُوا مَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنْهَدِيءَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُحَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

لما جيء سليمان - عليه السلام - بعرش بلقيس قبل قُدومها، أمر به أن يُغيّر بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تُقدّم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿نَكُرُوا مَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنْهَدِيءَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، قال ابن عباس: نُزِعَ عَنْهُ فُصُوصُهُ وَمَرَافِقُهُ. وقال مجاهد: أمر به فُغيّر ما كان أَحْمَرَ جُعِلَ أَصْفَرَ، وما كان أَصْفَرَ جُعِلَ أَحْمَرَ، وما كان أَخْضَرَ جُعِلَ أَحْمَرَ، غُيِّرَ كُلُّ شَيْءٍ عَنْ حَالِهِ. وقال عكرمة: زَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا. وقال قتادة: جُعِلَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ وَمُقَدَّمُهُ مُؤَخَّرُهُ، وزادوا فيه ونقصوا. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾، أي: عُرِضَ عَلَيْهَا عَرْشُهَا، وقد غُيِّرَ وَنُكِرَ، وزيد فيه ونقص، وكان فيها ثَبَاتٌ وَعَقْلٌ، ولها لُبٌ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ، فلم تُقدّم على أنه هُوَ لِيُعِدَّ مَسَافِتَهُ عَنْهَا، ولا أنه غَيْرُهُ، لِمَا رَأَتْ مِنْ آثَارِهِ وَصِفَاتِهِ، وإن غُيِّرَ وَبُدِّلَ وَنُكِرَ، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، أي: يُشْبِهُهُ وَيُقَارِبُهُ. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، قال مجاهد: هذا قول سليمان (٢). وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾، هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام، في قول مجاهد، وسعيد بن جبّير - رُحِمَهُمَا اللَّهُ - أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صدّها، أي: منعتها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾، ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله - عز وجل - تقديره: وَمَنَعَهَا ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: صدّها عن عبادة غير الله، ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾. قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصَّرْحِ كما سيأتي.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ١٦٠/٥ وابن حبان ٦١٩ من حديث أبي ذر مطوّلاً.

(٢) العبارة في الأصول والطبري «سليمان يقوله» والثبت عن تفسير مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَمَّا أَذْخِلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾، وذلك أن سليمان - عليه السلام - أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان - عليه السلام - إلى اتخاذه، فقيل: إنه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا^(١)؟ هذا قول محمد بن كعب القرظي، وغيره. فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس ساقًا وأحسنه قدمًا، ولكن على رجلها شعر، لأنها ملكة ليس لها بعل، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: موسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموصى يذهب به هذا الشعر. فصنعوا له الثورة، فكان أول من اتخذت له الثورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والسدي، وابن جريج، وغيرهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: ثم قال لها: ادخلي الصرح، ليُرِيها مُلْكاً هو أعزُّ من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها. فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح مُمرَّد من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله. وقال الحسن البصري: لما رأت العُلجَّة الصرح عرفت - والله - أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها. وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن مثنبه. قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً. ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له في سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادخلي الصرح، ليُرِيها مُلْكاً هو أعزُّ من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمرَّدٌ بَيْنَ قَوَارِيرٍ﴾، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله - عز وجل - وعاتبها في عبادتها الشمس دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوق سليمان ساجداً إعظماً لما قالت، وسجد معه الناس، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ قالت: وأنسيت ما قلت؟ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأسلمت وحسن إسلامها.

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس، قال: حدثنا الحسين بن علي، عن زائدة، حدثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد ونحن في الأزدي، قال: حدثنا ابن عباس قال: كان سليمان - عليه السلام - يجلس على سريره، ثم توضع كراسي حوله، فيجلس عليها الإنس، ثم تجلس الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح تفرقهم، ثم تظلمهم الطير، ثم يغدو قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً، قال: فبينما هو ذات يوم في مسير له، إذ تفقد الطير، قال: وتفقد الهدم فقل: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدْمَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَايِينِ﴾ (٢٥) لأعدبته عدابها شديداً أو لأذمته أو ليأتيني سلطاناً شيناً، قال: وكان عذابه إياه أن يتفقه ثم يلقيه في الأرض، فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض. قال عطاء: وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد - ﴿فَمَكَتْ قَرَبِيرٌ﴾، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧) أذهب بكني هكذا، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى بلقيس: ﴿أَلَا

(١) ليس بصحيح، فهو، وإن ورد عن جماعة من التابعين وابن عباس، فإن مصدره كتب الأقدمين، لا حجة في شيء منها،

تَلَوْا عَلَّ وَأَتَوْنِ مُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ . فلما ألقى الهدهد هذا الكتاب إليها ألقي في روعها: إنه كتاب كريم، وإنه من سليمان، وألا تملوا علي، واتنوني مسلمين. ﴿قَالُوا مَنَ أَوْلَاؤُنَا قَوْمٌ﴾، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، ﴿وَأَلَّيْ مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّتِهِ﴾ . فلما جاءت الهدية سليمان ﴿قَالَ أَنِيدُونَنِي بِمَا لِي﴾، ﴿أَتَجِجْ إِلَيْهِمْ﴾ فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة، قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد. قال سليمان: ﴿أَيْكُمْ يَا بَنِي بَعْرِيهَا﴾، قال: وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين، ﴿قَالَ عَفِيفٌ مِّنَ لِّجِنٍ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ - وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الأمراء ثم يقوم - فقال: ﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ - قال سليمان: أريد أعجل من ذلك. فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا أنظر في كتاب ربي، ثم أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. قال: فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره، فتبع عرشها من تحت قدم سليمان، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله، ثم يصعد إلى السرير. قال: فلما رأى سليمان عرشها قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، ﴿قَالَ نَكْرُهُ لَمَّا عَرَفَهَا﴾، فلما جاءت قيل لها: ﴿أَمْكَنَّاكَ عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، قال: فسألته حين جاءته عن أمرين، قالت لسليمان: ما ماء من زبد رواء، ليس من أرض ولا سماء؟ وكان سليمان إذا سئل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال: فقالت الشياطين: هذا هين، أجر الخيل ثم أخذ عرقها، ثم املا منه الآنية. قال: فأمر بالخيول فأجريت، ثم أخذ عرقها فعلا منه الآنية. قال: وسألت عن لون الله - عر وجل - قال: فوثب سليمان عن سريرة، فخر ساجداً، فقال: يا رب، سألتني عن أمر إنه ليتعظم في قلبي أن أذكره. قال: ارجع فقد كتبتكهم. قال: فرجع إلى سريره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سألت عنه؟ فقالوا: ما سألتك إلا عن الماء. ونسوه كلهم. قال: وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يأخذها لنفسه، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد، لم تنفك من عبوديته. قال: فاجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير، فيه السمك، قال: فقيل لها: ادخلي الصرح، فلما رآته حسبته لجة، وكشفت عن ساقها، فإذا هي شعراء. فقال سليمان: هذا قبيح، ما يؤذبه؟ فقالوا: يؤذبه موسى. فقال: أثر موسى قبيح! قال: فجعلت الشياطين الثورة. قال: فهو أول من جعلت له الثورة^(١). ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث! قلت: بل هو منكز غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب، على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب وهب - سأمحهما الله تعالى - فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حُرِفَ وبُدِّلَ ونُسِخَ. وقد أغنانا الله - سبحانه - عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمثنة. أصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله - سبحانه وتعالى - إخباراً عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان: ﴿أَبْنِ لِي مِصْرًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْمَدَ﴾ ﴿أَسْمَدَ السَّمَكَاتِ فَمَا طَالِعَ إِلَّاهُ مَوْسَى﴾ [غافر: ٣٦] . . الآية. والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبنى بناءً محكمًا أملاًس [من قوارير]، أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه. ومارد: حضن بدومة الجندل. والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا مئيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليُرِيها عظمة سلطانِهِ وتمكِينِهِ، فلما رأت ما أتاه الله - تعالى - وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في

(١) لا يصح عن ابن عباس مثل هذا، فإن المن غريب جداً، وهو من الإسرائيليات، بلا شك، وعطاء بن السائب اختلط

بآخره وانظر ما ذكره ابن كثير رحمه الله بعد أسطر.

أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، ومليك عظيم، فأسلمت لله - عز وجل - وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَهْلَهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ لِمَ سَتَمَجِلُونَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطَلَّزْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَلَّزْنَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ ثَمُودَ وَمَا كَانَ مَعَهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ تُصَلِّبُوا كَذِبًا مِّن رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَّا بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]. قَالَ يَنْفَوِرَ لِمَ سَتَمَجِلُونَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، أَي: لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ الْعَذَابِ، وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتَهُ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالُوا أَطَلَّزْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ، أَي: مَا رَأَيْنَا عَلَىٰ وَجْهِكَ وَوُجُوهٍ مِنْ أَتْبَعِكَ خَيْرٍ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - لِشِقَائِهِمْ - كَانَ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ: هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تَشَاءُوا بِهِمْ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ. ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْمُسْتَسْأَةُ قَالُوا لَنَا هَذَا وَمَنْ صَبَّهْتُمْ سَبَّهْتُمْ يَطْرُقُوا بِمُؤْمِنٍ وَمَنْ مَعَهُ ءَالَآ إِنَّمَا طَلَّزْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ صَبَّهْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ صَبَّهْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أَي: بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ. وَقَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَّزْنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ نَتَّهَرَا لَنَزَهْتُمْ وَيَسْتَكْبِرُوا مِنَّا عَذَابُ الْآلِ ﴿٤٨﴾ قَالُوا طَلَّزْنَاكُمْ مَعَكُمْ﴾ لَيْسَ: ١٨ - ١٩... الآية. وَقَالَ هَوْلَاءُ: ﴿أَطَّزْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَلَّزْنَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أَي: اللَّهُ يُجَازِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، قَالَ قَتَادَةُ: تُبْتَلُونَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿تُفْتَنُونَ﴾، أَي: تُسْتَنْزَجُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَغْتَ لِقَابَهُمْ خَاوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا رَبَّكَ فِي ذَلِكَ لِآيَةِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَجْمَعْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ طُعَاةِ ثَمُودَ وَرُؤُوسِهِمْ، الَّذِينَ كَانُوا دَعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَىٰ الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ، وَآلٍ بِهِمْ الْحَالُ إِلَىٰ أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا، بِأَن يُبَيِّتُوهُ فِي أَهْلِهِ لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ غِيْلَةً، ثُمَّ يَقُولُوا لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبِيهِ: إِنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ. وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ، مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا ذَلِكَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، أَي: مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، أَي: تِسْعَةُ نَفَرٍ، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وَإِنَّمَا غَلَبَ هَوْلَاءُ عَلَىٰ أَمْرِ ثَمُودَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كِبْرَاءَهُمْ فِيهِمْ وَرُؤُوسَهُمْ.

قال العوفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عَقَرُوا الناقة. أي: الذين صَدَرَ ذلك عن رأيهم ومَشُورتهم. قَبِحَهُمُ اللهُ وَلَعَنَهُمْ، وقد فَعَلَ ذلك. وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: كان أسماء هؤلاء التسعة: زعمرى، وزعيم، وهرم، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، وسطيح، وقُدَّار ابن سَالِف عاقِرِ النَّاقَةِ. أي: الذي باشَرَ ذلك بيده. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّوَا صَالِحًا فَمَقَامًا فَفَعَّرَهُ﴾ [القمح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يَحْيَى بن ربيعة الصنعاني، سَمِعْتُ عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ يَسْعَةً رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، قال: كانوا يَفْرُضُونَ الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون. وقال الإمام مالك، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطَعَ الذَّهَبُ وَالوَرِقُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

[٥٠٨٥] وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ كَسْرِ سِكَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْجَائِزَةِ بَيْنَهُمْ إِلَّا مِنْ بَأْسٍ^(١). والغرض أن هؤلاء الكفرة المفسدة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح - عليه السلام - من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم. قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. وقال قتادة: توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه، وذكر لنا أنهم بينما هم مَتَانِقُ^(٢) إلى صالح ليقتلوه، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهدمتهم. قال العوفي، عن ابن عباس: هم الذين عَقَرُوا الناقة، قالوا حين عقروها: نُبَيْتُ صَالِحًا وَأَهْلَهُ فَنَقْتَلُهُمْ، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فَدَمَرَهُمُ اللهُ أجمعين. وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة: هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ صَالِحًا، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد الحقناه بناقته! فأتوه ليلاً ليبيئته في أهله، فَدَمَتُهُمُ الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح، فوجدوهم مُنْشِدِخِينَ قد رُضِخُوا بالحجارة فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هُمُوا به، فقامت عشيرته دونه، ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عَقَرُوا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَسَّعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَنَنْتَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ عَيْرٌ مَكْذُوبٌ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زَعَمَ صالح أنه يَفْرُغُ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يُصَلِّي فيه، فَخَرَجُوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يُصَلِّي قتلناه ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَّغْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فَخَشُوا أن تُشَدِّخَهُمْ فَنَبَّادُوا فَانطَبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم. فَعَذَّبَ اللهُ هَؤُلَاءِ هَاهُنَا، وهؤلاء هَاهُنَا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٤٤٩ من حديث حلقة بن عبد الله عن أبيه، وإسناده ضعيف فيه محمد بن فضال وهو ضعيف عن أبيه، وهو مجهول. وضعف إسناده الأرنؤوط في «جامع الأصول» ٩٥٤.

(٢) عُنُقُ إليه: أي مثلون نحوه ينظرون إليه.

قرا: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَمَّا لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَبَلَّغْ بَيِّنَاتِهِمْ خَارِجَةً﴾، أي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَجْبِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَسْتَفْتُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ ﴿٥٩﴾ أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ، فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهِيَ إِيثَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ، اسْتَغْنَى الرَّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، فَقَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَجِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ﴾، أَي: يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ؟! ﴿أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، أَي: لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ وَتَذَكَّرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]. ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾، أَي: يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلٍ مَا تَفْعَلُونَهُ، وَمِنْ إِقْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ، فَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِمَجَاوَزَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ، فَذَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجْبَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾، أَي: مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِذَاءَ لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، فَكَانَتْ تَذَلُّ قَوْمِهَا عَلَى ضَيْفَانِ لُوطٍ، لِإِيْتَاؤِهَا إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَاحِشَةَ، تَكْرَمَةَ لِنَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - لَا كَرَامَةَ لَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، أَي: ﴿حِجَاكَزَةً مِنْ سَيْجِلٍ مَشْهُورٍ ﴿٥٧﴾ سُوءَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلِيلِينَ يَبْعِدُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾، أَي: الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنْدَارُ، فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَكَذَّبُوهُ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَارِدًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا مَكْرُومًا ﴿٦٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولِهِ - ﷺ - أَنْ يَقُولَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَي: عَلَى نِعْمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَعَلَى مَا أَتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ، وَهَمَّ رَسَلُهُ وَأَنْبِيََاؤُهُ الْكِرَامَ - عَلَيْهِمُ مِنَ اللَّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُ، إِنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى هُمُ الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٥٩﴾ وَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وَكَلِمَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: هُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - ﷺ - وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَرُوي نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَلَا مَنَافَاةَ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَالْأَنْبِيَاءُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى. وَالْقَصْدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ

رسولَه ومن أتبعه بعدما ذكَّره لهم ما فَعَلَ بأولِيائِهِ مِنَ التَّجَاةِ والنَّصْرِ والتَّيَيدِ، وما أَحَلَّ بأعدائِهِ مِنَ الخِزْيِ والتَّكَالِ والقَهْرِ، أن يَحْمَدُوهُ على جَمِيعِ أفعالِهِ، وأن يُسَلِّمُوا على عبادِهِ المُصْطَفَيْنِ الأَخْيَارِ.

وقد قال أبو بكر البزَّار: حدثنا محمد بن عُمارة بن صَبِيح، حدثنا طلق بن عَنَام، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السَّدي - إن شاء الله - عن أبي مالك، عن ابن عباس: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْتَطَعُوا﴾، قال: هم أصحابُ مُحَمَّدٍ - ﷺ - اصطفاهم الله لِنَبِيِّهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وقوله تعالى: ﴿ءَاللهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهامٌ إنكارٍ على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شَرَعَ تعالى يبين أنه المُتَّفَرِّدُ بِالخَلْقِ والرِّزْقِ والتَّديبِ دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: تلك السمواتِ بارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالتها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والقيافي والقفار، والأشجار، والزروع، والثمار والبحار والحيوان، على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: جعله رِزْقاً للعباد، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾، أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: منظرٍ حَسَنٍ وشكلٍ بَهِيٍّ، ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾، أي: لم تكونوا تقديرون على إنبات شجرها. وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المُتَّفَرِّدُ بِهِ، ذُوْنُ ما سِوَاهُ مِنَ الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا يَقُولُ اللهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، أي: هم مُعْتَرِفُونَ بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يَسْتَحِقُّ أن يُفْرَدَ بالعبادة من هو المُتَّفَرِّدُ بِالخَلْقِ والرِّزْقِ، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْ اللهُ مَعَ اللهُ﴾، أي: أله مع الله يُعْبَدُ وقد تَبَيَّنَ لَكُمْ ولكل ذي لُبٍّ مما يَعْرِفُونَ به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟! ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْ اللهُ مَعَ اللهُ﴾ فَعَلَ هَذَا؟ هو يرجع إلى معنى الأول، وأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحدٌ فَعَلَ هذا مَعَهُ، بل هو المُتَّفَرِّدُ بِهِ. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المُتَّفَرِّدُ بِالخَلْقِ والتَّديبِ؟ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] الآية. وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أَمَّنْ يفعلُ هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قُوَّةِ الكلام ما يُرِيدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَاللهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَدِيتُ آتَاءَ الْيَلِي سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، أي: أَمَّنْ هُوَ هكذا كَمَنْ ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لَلنَّفْسِ بِصِدْقِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي صُلْبِ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٢٣]، أي: أَمَّنْ هو شهيدٌ على أفعال الخلق، حرركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَعْ اللهُ

مَعَ اللهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميذ ولا تتحرك بأهلها ولا تزجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياء، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً يساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤]. ﴿وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا﴾، أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالكها، وصرفها فيها، ما بين أنهار كبار وصغار، وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ﴾، أي: جبالاتاً شامخة تزيي الأرض وتثبتها لئلا تميذ لكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الخلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً تسقي الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَلْحُ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا رَجِيمًا مَخْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ تَرَ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: فعل هذا؟ يُعبد على القول الآخر، وكلاهما متلازمٌ صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا

لَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾

يُنَبِّهُ تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند التوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاءَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضرر المضرورين سواه.

[٥٠٨٦] قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي تميم الهجيمي، عن رجل من بلهجم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضرر فدعوتك كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض ففر فدعوتك رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوتك أنبت لك. قال: قلت: أو صني. قال: لا تسبني أحداً، ولا تزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو إن تفرغ من ذلك في إناء المستقي، وأترز إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين. وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة»^(١).

[٥٠٨٧] وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد ابن سلمة، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة الهجيمي، عن أبيه عن أبي تميم الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله - ﷺ - وهو محتب بشملة، وقد وقع مذهبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد؟ - أو: رسول الله؟ - فأوما بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفي جفاؤهم، فأوصني. فقال: لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من ذلك

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٦٤/٥ وإسناده صحيح على شرطهما، وجهالة الصحابي لا نصر.

في إناء المُستقي، وإن امرؤ شَتَمَكَ بما يَعْلَمُ فَيْكَ فَلَا تَشْتَمِهِ بما تَعْلَمُ فيه، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الإِزَارِ مِنَ المَخِيلَةِ، وإن الله لا يُحِبُّ المَخِيلَةَ، ولا تَسْبِيْنُ أَحَدًا. قال: فما سَبَّبَتْ بَعْدَهُ أَحَدًا، وَلَا شَأَنًا وَلَا بَعِيرًا^(١). وقد رَوَى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طُرُقًا، وعندهما طُرُقٌ صالِحٌ منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم، حدثنا عبدة بن نوح، عن عُمَرُ بن الحجاج، عن عُبَيْدِ اللهِ بن أبي صالح قال: دَخَلَ عَلِيٌّ طاووسٌ يعوذني، فقلت له: ادعُ اللهُ لي يا أبا عبدِ الرَّحْمَنِ. فقال: ادعُ لِنَفْسِكَ، فإنه يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَا. وقال وَهْبُ بن مُنْبِهٍ: قرأتُ في الكِتَابِ الأوَّلِ: إنَّ اللهُ يَقُولُ: بعزتي إنه من اعتَصَمَ بي فإن كادته السموات بمن فيهن، والأرض بمن فيها، فأني أجعلُ له من بين ذلك مخرجًا. ومن لم يمتصم بي فأني أخيفُ به من تحت قَدَمَيْهِ الأَرْضِ، فأجعلُه في الهواء، فأكلُه إلى نَفْسِيهِ.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رَجُلٍ - حَكَى عنه أبو بكر محمد بن داودَ الدَيْنَوْرِي، المعروفُ بالذُّقِيِّ الصوفي قال هذا الرجلُ: كنتُ أَكَارِي على بَغْلٍ لي من دِمَشقَ إلى بَلَدِ الزُّبْدَانِي، فركب معي ذاتَ مَرَّةٍ رجُلًا، فَمَرَرْنَا على بَعْضِ الطَّرِيقِ، على طَرِيقِ غَيْرِ مَسْلُوكَةٍ، فقال لي: خُذْ في هذه، فإنها أَقْرَبُ. فقلت: لا خَيْرَةَ لي فيها. فقال: بل هي أَقْرَبُ. فسلكناهما فانتهينا إلى مكانٍ وَغَرَّ ووادٍ عَمِيقٍ، وفيه قَتْلَى كثيرٌ. فقال لي: أَمْسِكْ رَأْسَ البَغْلِ حتى أَنزَلُ، فَتَنزَلُ وَتَشْمُرُ، وَجَمَعَ عليه ثِيَابَهُ، وسَلَّ سَكِينًا معه وَقَصَدَنِي، ففررت من بين يَدَيْهِ وَتَبِعَنِي، فناشدته اللهُ وقلتُ: خُذِ البَغْلَ بما عليه. فقال: هُوَ لي، وإنما أريدُ قَتْلَكَ. فَخَرَفْتُهُ اللهُ والعقوبة فلم يَقْبَلْ، فاستسلمتُ بين يَدَيْهِ وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أَصَلِّيَ ركعتين؟ فقال: عَجَلْ. فقمْتُ أَصَلِّيَ فَأَزْتَجَ عَلَيَّ القرآنُ فلم يَحْضُرْنِي منه حرفٌ واحدٌ، فَبَقِيْتُ واقفًا مُتَحِيرًا وهو يَقُولُ: هِيه. افْرُغْ. فأجَزَى اللهُ عَلَيَّ لِسَانِي قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ أَشْوَةَ﴾، فإذا أنا بفارسٍ قد أَقْبَلَ من فَمِ الوَادِي، ويدهَ حَرْبَةً، فَرَمَى بها الرجلَ فما أخطأتُ فُوَادَهُ، فَحَرَّ صريعًا، فَتَعَلَّقْتُ بالفَارِسِ وقلتُ: بالله من أنت؟ فقال: أنا رَسُولُ الذي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاه ويكشفُ السوءَ. قال: فأخذتُ البَغْلَ والجَمَلَ ورجعتُ سَالِمًا^(٢).

وذكر في ترجمة «فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية»، قالت: هَزَمَ الكُفَّارُ يوماً المسلمين في عَزَاةٍ فوقف جَوَادٌ جَيِّدٌ بصاحبه، وكان من ذَوِي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: مَا لَكَ؟ وَبَلَّغْ! إنما كنتُ أَجِدُكَ لمثل هذا اليوم. فقال له الجوادُ: وما لي لا أَقْصُرُ وأنت تَكِبُّ عَلَوْفَتِي إلى السَّوَابِ قَيْظِلْمُونِي ولا يُطْعِمُونِي إلا القليل؟ فقال: لَكَ عَلَيَّ عهدُ اللهُ أَنِّي لا أَعْلِفُكَ بعد هذا اليوم إلا في جِجْرِي. فجرى الجوادُ عند ذلك، وَنَجَّى صاحِبَهُ، وكان لا يَعْلَفُهُ بعد ذلك إلا في جِجْرِهِ. واشتهر أمرُهُ بين الناسِ، وجعلوا يَقْصِدُونَهُ لِيَسْمَعُوا منه ذلك، وَبَلَّغَ ملكُ الرومِ أمرَهُ، فقال: ما تَضَامُ بلدةٌ يكون هذا الرجلُ فيها. واحتمل لِيُحْصِلَهُ في بلده، فبعث إليه رَجُلًا من المُرتَدِّينَ عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنَتْ نِيَّتُهُ في الإسلامِ وَقَوْمِهِ، حتى استوثق، ثم خرجا يوماً يمشيان على جَنْبِ الساحل، وقد واعدَ شخصاً آخر من جِهَةِ ملكِ الرومِ لِيَتَسَاعَدَا على أمرِهِ، فلما اكتنفاه لِيَأْخُذَاهُ رَفَعَ طَرْفَهُ إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خَدَعَنِي بك فاكفنيهما بما شِئْتَ. قال: فخرج سبعانٍ إليهما فَأَخَذَاهُمَا، وَرَجَعَ الرجلُ سَالِمًا.

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٠٨٤ والنسائي في «الكبرى» ٩٦٩٤ و٩٦٩٦ وأحمد ٦٤/٥ وابن حبان ٥٢١ وقد سقط من «المسند» اسم الصحابي وسند أبي داود جيد.

(٢) هذا خبر ليس بشيء، فإن صاحب هذا الخبر لم يسم ولا يعرف، فهو لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي: يُخَلَفُ قَرْنَا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلْفٍ، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذَوِّبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدِّكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَكُمْ خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قَدَّمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقوماً بَعْدَ قَوْمٍ. ولو شاء لأوجدهم كُلَّهُمْ فِي وَقتٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَعْضَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ. وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةً الْجَمِيعِ فِي وَقتٍ وَاحِدٍ، فَكَانَتْ تَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ، وَتَضِيقُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشُهُمْ وَأَكْسَابُهُمْ، وَيَتَضَرَّرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ. وَلَكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتَهُ وَقَدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَكْثُرُهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ، وَيَذَرَاهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُهُمْ قَرُونًا بَعْدَ قَرُونٍ، وَأَمَّا بَعْدَ أَمَمٍ، حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَجَلَ وَتَفْرُغَ الْبَرِيَّةَ، كَمَا قَدَّرَ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، ثُمَّ يُقِيمُ الْقِيَامَةَ، وَيُوفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ يُعْبَدُ؟ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَقَرَّرُ بِفِعْلِ ذَلِكَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: مَا أَقَلَّ تَذَكَّرَهُمْ فِيمَا يُرِيدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾، أي: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّجْمَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الشُّجُومَ لِيَتَنَادَوْا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]... الآية. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ، يُغِيثُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَرْلِينَ^(١) الْقَنْطَلِينَ، ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَلَاتِيكَ ﴿٦٤﴾

أي: هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ بَشَرَكُمْ رَبُّكُمْ لَشَدِيدٌ﴾ [البقرة: ١٢] هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بِمَا يُنَزِّلُ مِنَ مَطَرِ السَّمَاءِ، وَيُنْبِتُ مِنَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّعِيقِ﴾ [الطارق: ١١ - ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢]. فَهُوَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبْرُكًا فَيَسْكُنُهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ مِنْهَا أَنْوَاعَ الزَّرْعِ وَالشُّمَارِ وَالْأَزْهَابِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْوَابِنِ شَتَّى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ٥٤]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾، أي:

(١) الْأَزْلُ: الضيق والشدة، وتازل: ضاق صدره.

فَعَلْ هَذَا؟ وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرَ: يُعَبِّدُ ﴿قُلْ هَاثُوا بُرْهَنَكُمْ﴾ عَلَى صِحَّةِ مَا تَدْعُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَلَا بُرْهَانَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿المؤمنون: ١١٧﴾.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى أمرًا رسوله - ﷺ - أن يقول مُغْلِباً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله - عز وجل - فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]... الآية، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَرَبِّكَ الْغَنِيُّ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦١﴾ [لقمان: ٣٤]. والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: وما يشعر الخليق الساكئون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿فَلَمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَقَّةُ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: تُثقل علمها على أهل السموات والأرض.

[٥٠٨٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا علي بن الجعدي، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن داود ابن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ - تعني النبي - ﷺ - ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ^(١). وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال براهيه، وأخطأ خطئه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم له به. وإن ناساً جهلةً بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أغرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ومن وُلد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يُولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله تعالى أنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروقه، وهو كلام جليل متين صحيح.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: انتهى علمهم وعجز من معرفة وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ﴾، أي: تساوى علمهم في ذلك.

[٥٠٨٩] كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله - ﷺ - قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ^(٢). أي: تساوى في العجز عن ذلك علم المسؤول والسائل. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، أي: غاب. وقال قتادة: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، يعني بجهلهم زهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم. هذا قول. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة»، حين لم ينفع العلم. وبه قال عطاء الخراساني والسدي: أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا يفهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَتَمَّعَ يَوْمَ أَصْبَرُ يَوْمَ

(١) حسن، إسناده غير قوي لأجل أبي جعفر الرازي، لكن أصله في الصحيحين، وسيأتي في سورة لقمان.

(٢) هو بعض حديث سوالات جبريل، وقد تقدم مراراً.

يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي سَكَلِي مُبِينٍ ﴿٦٨﴾ [مریم: ٣٨]. وقال سفيان، عن عمرو بن عُبيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بَلِ آذْرُكَ عَلِمُهُمْ»، قال: اضمحلَّ علمُهُم في الدنيا حين عاينوا الآخرة.

وقوله تعالى: «بَلِ هُمْ فِي سَكِّ مِنْهَا»، عائدٌ على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: «وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ جَعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٦٨﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: الكافرون منهم. وهكذا قال هاهنا: «بَلِ هُمْ فِي سَكِّ مِنْهَا»، أي: شاكون في وجودها ووقوعها، «بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ»، أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: «لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ»، أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم: «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان «إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، أي: أخذهم قومٌ عمن قبلهم من كتب يتلقاها بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: «قُلْ - يَا مُحَمَّد - لهؤلاء: «سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ»، أي: المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكأله، ونجى الله من بينهم رُسُلَهُ الكرامَ ومن أتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحبتهم. ثم قال تعالى مسلماً لنبية - صلوات الله وسلامه عليه - «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، أي: المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات «وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»، أي: في كيدك وزد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾»، قال الله تعالى مجيباً لهم: «قُلْ - يَا مُحَمَّد - عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ». قال ابن عباس: عسى أن يكون قرُب - أو: أن يقرب - لكم بعض الذي تستعجلون. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي. وهذا هو المراد بقوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٧١﴾ [الإسراء: ٥١]. وقال تعالى: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَنُجِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٤]. وإنما دخلت «اللام» في قوله: «رَدْفٌ لَكُمْ»، لأنه ضمَّن معنى عجل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه: «عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ»: عجل لكم.

ثم قال الله تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ»، أي: في إسباغ نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾»، أي: يعلم

السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿الْأَبْرَارُ يَسْتَفْشِنُونَ بِأَهْلِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]. ثم أخبر تعالى بأنه عالمٌ بغيب السموات والأرض، وأنه عالمٌ بالغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: ﴿وَمَا يَنْظُرُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَفْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْيِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان: أنه يفضُّ على بني إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسى وتبائهم فيه، فاليهود افتتروا، والنصارى غلّوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبدٌ من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليّات. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَفْضِي بَيْنَهُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أي في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من كُتبت عليه الشقاوة وحقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، أي: لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم عشاوة، وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْيِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾، أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتزكهم أوامر الله وتبدلهم الدين الحق؛ يخرج الله لهم دابةً من الأرض - قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تفصيله - إن شاء الله تعالى - فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقائدة - ورؤي عن علي رضي الله عنه -: تكلمهم كلاماً، أي: تُخاطبهم مخاطبةً. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤقنون. ورؤي هذا عن علي، واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس - في رواية -: تجرحهم. وعنه رواية، قال: كلاً تفعل. يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم. وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث واثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها، والله المستعان:

[٥٠٩٠] قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن قرات، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله - ﷺ - من غرقفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: لا تقوم الساعة حتى تزوا عشر

آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وناز تخرج من قعر عدن تسوق - أو: تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا^(١). وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من طرق، عن فزات الفزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة به مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن ربيع، عن أبي الطفيل، عنه موقوفاً^(٢)، والله أعلم.

[٥٠٩١] طريق آخرى، قال أبو داود الطيالسي، عن طلحة بن عمرو، وجريير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي: أن أبا الطفيل حدثه، عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة. وأما جريير فقال: عن عبد الله بن عبيد، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدابة فقال: «لها ثلاث خزجات من الدهر، فتخرج خزجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خزجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية - يعني مكة - قال رسول الله - ﷺ -: ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرامها: المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي تزغو بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها الثراب. فرفض الناس عنها شتى ومعاً، وبقيت عصابة من المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّي، وولت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان، الآن تصلي؟! فيقبل عليها فتسبه في وجهه. ثم تنطلق ويشارك الناس في الأموال، ويضطجبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر، اقضني حقي^(٣). وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن، اقضني حقي. ورواه ابن جرير من طريقين، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً. فالله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم، وهو يطوف بالبيت، ولكن إسناده لا يصح.

[٥٠٩٢] حديث آخر، قال مسلم بن الحجاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - حديثاً لم أتسه بعد: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريباً^(٤)».

[٥٠٩٣] حديث آخر، روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولى الحرقة - عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «بادروا بالأعمال بيئاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة^(٥)». تفرد به.

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ وابن ماجه ٤٠٤١ وأحمد ٦/٤ و٧ وابن حبان ٦٨٤٣.

(٢) الموقوف لا يعمل المرفوع. لأن المرفوع إسناده صحيح. فيكون زيادة ثقة، وهي مقبولة. ثم إن الموقوف لا يقال مثله بالرأي. والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٧ ح ١٢٨ وأحمد ٢/٣٣٧.

[٥٠٩٤] وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «بادرُوا بالأعمالِ سِتًّا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة وخوصة أحدكم»^(١).

[٥٠٩٥] حديث آخر، قال ابن ماجه: حدثنا حزملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «بادرُوا بالأعمالِ ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخوصة أحدكم، وأمر العامة»^(٢). تفرد به.

[٥٠٩٦] حديث آخر، قال أبو داود الطيالسي أيضاً: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس بن خالد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»^(٣).

[٥٠٩٧] ورواه الإمام أحمد، عن بهز وعفان وي زيد بن هارون، ثلاثهم عن حماد بن سلمة، به، وقال: «فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليختيمون فيقول هذا: يا مؤمن. ويقول هذا: يا كافر. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد المؤدب، عن حماد بن سلمة، به»^(٤).

[٥٠٩٨] حديث آخر، قال ابن ماجه: حدثنا أبو عسان محمد بن عمرو، حدثنا أبو تميلة، حدثنا خالد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله - ﷺ - إلى موضع بالبادية، قريب من مكة، فإذا أرض يابسة حولها زمل، فقال رسول الله - ﷺ -: «تخرج الدابة من هذا الموضع، فإذا فتر في شبر. قال ابن بريدة: فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصا له، فإذا هو بعصاي هذه، كذا وكذا»^(٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة أن ابن عباس قال: هي دابة ذات زغب، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أودية تهامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدابة من صدع من الصفا كجزى الفرس ثلاثة أيام، لم يخرج ثلثها.

وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة، فقال: الدابة تخرج

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٧ وأحمد ٢/٣٢٤ و٤٠٧ وابن حبان ٦٧٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٥٦ وفيه سنان بن سعد، وهو ضعيف لكن لحديثه شواهد كما ترى يحسن بها.

(٣) أخرجه الطيالسي ٢٥٦٤ وإسناده ضعيف، وانظر ما بعده.

(٤) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/٢٩٥ - ٤٩١ والترمذي ٣١٨٧ وابن ماجه ٤٠٦٦ والحاكم ٤/٤٨٥ من حديث أبي هريرة، حسنه الترمذي وسكت عليه الحاكم، وكذا الذهبي، وإسناده ضعيف، له علتان: أوس بن خالد ضعيف الحديث كما في الميزان، وفي التقريب: مجهول. وعنه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في التقريب، والمتن غريب.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤٠٦٧، وإسناده ضعيف جداً. قال البوصري في «زوائد ابن ماجه»: هذا إسناد ضعيف، لأن خالد بن عبيد، قال البخاري: في حديثه نظر. وقال ابن حبان والحاكم: يحدث عن أنس بأحاديث موضوعة اهـ وقال عنه المحافظ في التقريب: متروك الحديث مع جلالة.

من تحت صَخْرَةٍ بِجِيَادٍ، والله لو كنتَ مَعَهُمْ - أو لو شِئْتُ لَقَرَعْتُ بِعَصَاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها. قيل: فتصنعُ ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبلُ المشرقَ فتصرخُ صرخةً تنفذهُ، ثم تستقبلُ الشام فتصرخُ صرخةً تنفذهُ، ثم تستقبلُ المغرب فتصرخُ صرخةً تنفذهُ، ثم تستقبلُ اليمنَ فتصرخُ صرخةً تنفذهُ. ثم تروخُ من مكة فتصبحُ بعسفانَ. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم لا أعلمُ.

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: تخرجُ الدابةُ ليلةَ جمعٍ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ. وفي إسناده ابنُ اليمانيِّ. وعن وهب بن مُتبهٍ: أنه حكى من كلامِ عَزِيرِ عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابةٌ تكلم الناس، كلُّ يسمَعُها، وتضعُ الحبالى قبل الثمام، ويعودُ الماء العذبُ أجاباً ويتعادى الأيلاء، وتحرقُ الحكمةُ، ويرفعُ العلمُ، وتكلمُ الأرضُ التي تليها. وفي ذلك الزمان يروحُ الناسُ ما لا يبلغون، ويتبعون فيما لا يتألون، ويعملون فيما لا يأكلون. رواه ابن أبي حاتمٍ، عنه. وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي حدثنا أبو صالح - كاتبُ الليث - حدثني معاويةُ بنُ صالح، عن أبي مَرِيَمَ: أنه سمعَ أبا هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - يقولُ: إن الدابةَ فيها من كلِّ لونٍ، ما بين قرنيها فرسخٌ للراكبِ. وقال ابنُ عباسٍ: هي مثلُ الحربة الضخمة. وعن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: إنها دابةٌ لها ريشٌ ورعَبٌ وحافرٌ، وما لها ذنبٌ، ولها لحيَةٌ، وإنها لتخرجُ حُضِرَ الفرسِ الجوادِ ثلاثاً، وما خرج ثلاثاً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال ابنُ جريجٍ، عن أبي الزبير أنه وصفَ الدابةَ فقال: رأسُها رأسُ قورٍ، وعينها عينُ خنزيرٍ، وأذنها أذنُ فيلٍ، وقرنها قرنُ أيلٍ وعنقها عنقُ نعامةٍ، وصدْرُها صدرُ أسدٍ، ولونها لونُ نمرٍ، وخاصرتها خاصرةُ هرٍ، وذنبُها ذنبُ كَبْشٍ، وقوائمُها قوائمُ بعيرٍ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرجُ معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمنٌ إلا نكتت في وجهه بعضا موسى نكتةً بيضاء، فتفشو تلك النكتةُ حتى يبيضُ لها وجهه ولا يبقى كافرٌ إلا نكتت في وجهه نكتةً سوداءً بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتةُ حتى يسودَ لها وجهه، حتى إن الناسَ يتبايعون في الأسواقِ بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر وحتى إن أهل البيت يجلسون على ما ندهتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابةُ: يا فلانُ، أبشر، أنت من أهل الجنة؟ ويا فلانُ، أنت من أهل النار^(١). فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاذِبُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِمْ وَأَلْنَا لَهُمْ تُجْرِبَاتٍ فِي ذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورُسُلِهِ إلى بين يدي الله - عز وجل - ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقرعياً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أي: من كل قوم وقرنٍ فوجاً أي: جماعةً، ﴿مَّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْجَمَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُرْجَعُونَ﴾، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: يُدْفَعُونَ، وقال قتادة: وَرَعَةٌ تَرُدُّ أَوْلَاهُم

(١) هذا أثر متلقن عن أهل الكتاب، وفيه من الركافة ما لا يخفى.

على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يُساقون . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ ، أي : أوقفوا بين يدي الله - عز وجل - في مقام المُساءلة ، ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِتَائِبِي وَكَلَّمْتُمْ حَيَاتِي بِمَا عَلِمْنَا أَنَّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا مَسَدَ وَلَا مَكْرَ ﴾ (٣١) وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَقَوْلًا ﴿ (٣٢) ﴾ [القيامة : ٣١ - ٣٢] ، فحيثما قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤذِنُ لَهُمْ قِعْدَرُونَ ﴿ (٣٦) ﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُ الْكَافِرِينَ ﴿ (٣٧) ﴾ [المسرات : ٣٥ - ٣٧] وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٨٥) ، أي بهتوا ، فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد زدوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى متنبهاً على قدرته الثامة ، وسلطانة العظيم ، وشأنه الرفيع ، الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآلَ لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ ﴾ ، أي : فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم وتهدا أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، أي : مُبْصِرًا مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ، ﴿ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْفَةٍ ذَخِيرَن ﴿ (٨٧) ﴾ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ (٨٨) ﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿ (٨٩) ﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فُكِّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ (٩٠) ﴾

يُخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث :

[٥٠٩٩] ﴿ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ ﴾ (١) .

[٥١٠٠] وفي حديث «الصور» (٢) أن إسرئيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويُطولها ، وذلك في آخر عُمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يُرزقون .

[٥١٠١] قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن الثعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي ، سمعت عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تُحدث به؟ تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال سبحان الله - أ : لا إله إلا الله . أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يُحرق البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله - ﷺ - : يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو

(١) تقدم تخريجه ، وهو حديث حسن صحيح .

(٢) تقدم الكلام عليه باستيفاء ، والله الموفق .

أَنْ أَحَدَهُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلْتَهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ. قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: فَيَقِي شِرَارَ النَّاسِ فِي حِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ. ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا. قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَضَعُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يَرْسُلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطْرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ: الظَّلُّ - نِعْمَانَ الشَّاكِّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَفَقِّهِمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارَ. فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تَسَعِمَةٌ وَتَسَعَةٌ وَتَسَعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ^(١). وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا»، اللَّيْتُ: هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ، أَي: آمَالُ عُنُقِهِ لِيَسْتَجِيعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جِيدًا. فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَرْعِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعِقِ، وَهُوَ الْمَوْثُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَكُلُّ أُنْفُثَةٍ دَافِرِينَ» - قُرِئَ بِالْمَدِّ، وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ، وَكُلٌّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ - وَ«دَافِرِينَ»، أَي: صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» [الإسراء: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَحْرُحُونَ» [الروم: ٢٥].

[٥١٠٢] وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: أَنَّهُ فِي النَّفْخَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ، فَتَوْضِعُ فِي نَقَبٍ فِي الصُّورِ، ثُمَّ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِيهِ بَعْدَمَا تَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا وَأَمَاكِنِهَا. فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ طَارَتِ الْأَرْوَاحُ، تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجَعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَجِيءُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَتَدْبُثُ فِيهَا كَمَا يَدْبُثُ السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَنْفُضُونَ التُّرَابَ مِنْ قُبُورِهِمْ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَوْنَهَا كَأَنَّهم إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ» [المعارج: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَرَوَى الْجِبَالَ تَحْصِيًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»، أَي: تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، هِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ، أَي: تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تَمُورُ أَسْمَكَةٌ مَوْرًا» [١] وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا» [الطور: ٩ - ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَتَّكُلُونَا عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ لَنَنْفِخَنَّ رِيحًا نَسْفًا» [١٥] فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» [١٦] لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالِ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» [الكهف: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «سَمِعَ اللَّهُ أَلَّذِي أَنْفَعَنَا كُلَّ شَيْءٍ»، أَي: يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّذِي قَدْ أَنْقَضَ كُلَّ مَا خَلَقَ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ، «إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»، أَي: هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَمَّ الْجَزَاءِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَنْتَظِرُ»، قَالَ فَتَادَةُ: بِالْإِخْلَاصِ. وَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الْمَكَانِ الْأَخْرَى أَنَّهُ لَهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا. «وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ يَوْمَئِذٍ عَمَلَهُمْ»، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْأُخْرَى: «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ» [الأنبياء: ١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [فصلت: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَهُمْ فِي الْفِرْدَوْسِ عَامِثُونَ» [سبا: ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْبَتْ وَجْهُهُمُ فِي النَّارِ»، أَي: مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسِيئًا لَا حَسَنَةَ لَهُ، أَوْ: قَدْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٠ والنسائي في الكبرى ١١٦٢٩ وأحمد ١٦٦/٢ وابن حبان ٧٣٥٣.

(٢) تقدم تخريجه باستيفاء.

رَجَحَتْ سِيئَاتِهِ عَلَى حَسَنَاتِهِ، كُلُّ بِحَسَبِهِ. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس - رضي الله عنهم - وأنس بن مالك، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهرري، والسدي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد، في قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، يعني: بالشرك.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَبِيحًا عَابِدِينَ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمره أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، كما قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَلَدِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣-٤]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً بتحريمه لها.

[٥١٠٣] كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعصَدُ شوكه، ولا يُنْفَرُ صيده، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطُهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهَا، ولا يُخْتَلَىٰ خِلَاهَا»^(١). . . الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والِحسان والمسانيد من طرقٍ جماعيةٍ يُفِيدُ القطع، كما هو مُبَيَّن في موضعه من «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، من باب عطف العام على الخاص، أي: هو ربُّ هذه البلدة، وربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾، أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصاص: ٣]، أي: أنا مُبَلِّغٌ ومُنذِرٌ، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، أي: لي سوية الرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى. كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١٢].

﴿وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَبِيحًا عَابِدِينَ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، أي: لله الحمد الذي لا يُعَذَّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجية عليه، والإعذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَبِيحًا عَابِدِينَ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ عَابِدِينَ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بل هو شهيد على كلِّ شيءٍ.

[٥١٠٤] قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي عمر الحَوْضِيِّ حفص بن عمر: حدثنا أبو أمية بن يعلى

الثَّقَفِي، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغْتَرُونَ أَحَدُكُمْ بِاللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ الْبَعُوضَةَ وَالْخَرْدَلَةَ وَالذَّرَّةَ»^(١). وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالَ أَبِي: أَخْبَرَنِي خَالِدُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ مَطَرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مُغْفِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ مَا تَعَفَّى الرِّيحُ مِنْ أَثَرِ قَدَمِي ابْنِ آدَمَ. وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَجِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ كَانَ يُنَشِّدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، إِمَّا لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ:

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّفَرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَخَسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغْيِبُ

آخر تفسير سورة النمل، والله الحمد والمنة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً، وهو بصيغة التمريض، فالخير وإو من جهة إسناده.

فهرس المحتويات

٥ سورة الحجر
٢٨ سورة النحل
٧٣ سورة الإسراء
١٧٥ سورة الكهف
٢٣٢ سورة مريم
٢٧٦ سورة طه
٣١٩ سورة الأنبياء
٣٦٣ سورة الحج
٤١٥ سورة المؤمنون
٤٤٩ سورة النور
٥٢١ سورة الفرقان
٥٥٤ سورة الشعراء
٥٨٨ سورة النمل